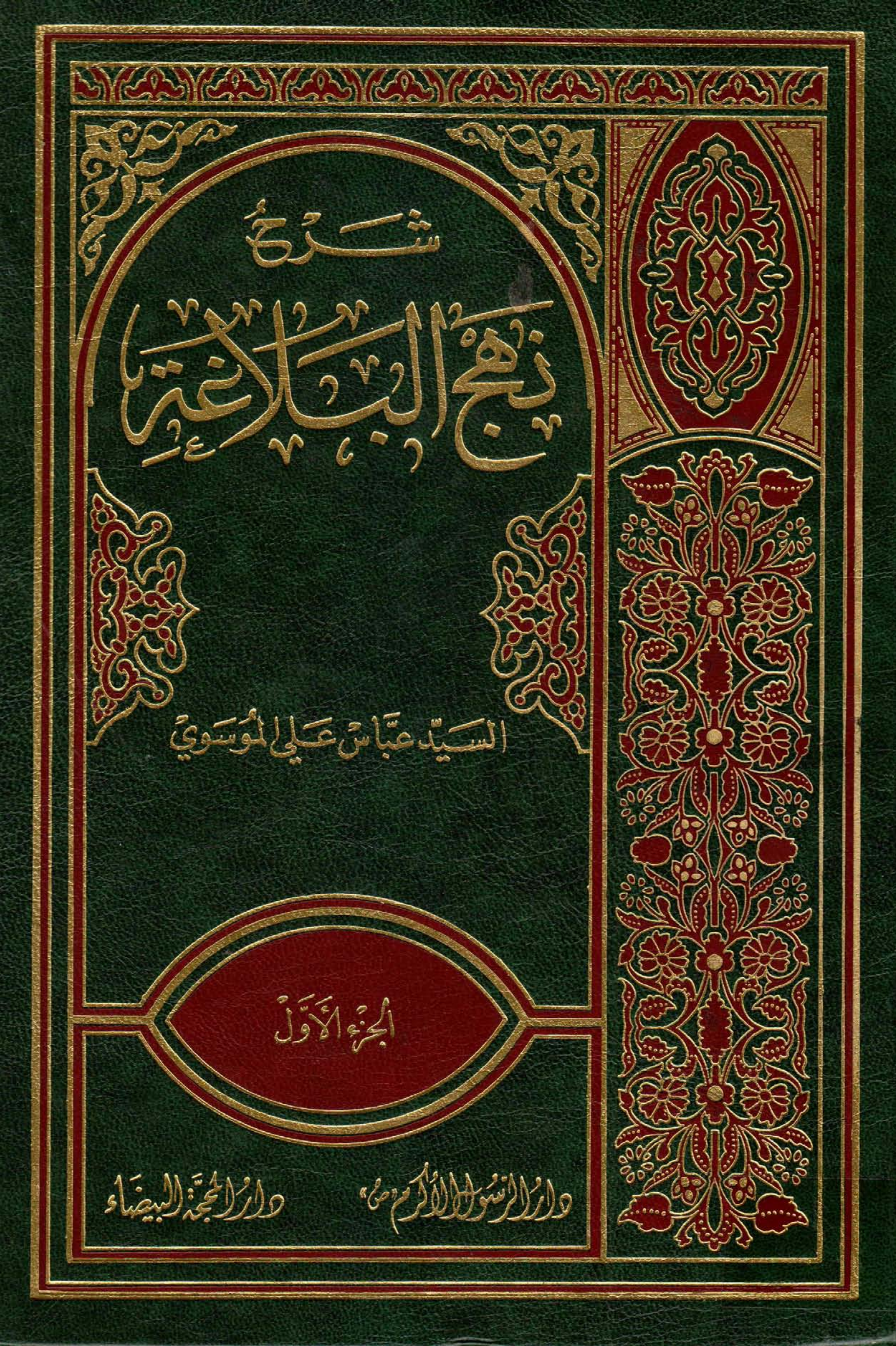


شرح
نهج البلاغة
السيد عباس علي الموسوي
الجزء الأول
دار الرسول الأكرم «ص»
دار المحجة البيضاء



شـــرح

نهـج البلاغــة


بسم الله الرحمن الرحيم

شرح نهج البلاغة

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الأوّل

دار الرسول الأكرم (ص) دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م



دار الرسول الأكرم

طباعة - نشر - توزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك شارع القسيس خلف البلدية - ص ب ١١ / ٨٦٠١

هاتف ٨١٤٢٩٤ / ٠٣ - فاكس ٨٢٣٥١٩ / ٠١ - ٠١٦٠١٠١٩

كلمة سريعة

نهج البلاغة هذه المجموعة الثمينة من خطب الإمام علي ورسائله وكلماته يقف الإنسان أمامها بخشوع وخضوع وإجلال وإكبار. . . إنها كلمات تحكي حياة شعب وترسم الصورة الحقيقية لمجتمع عاش فيه الإمام وكان له ومن أجله هذا العطاء. . . كنت ومنذ صغري أحمل فكرة كبيرة عن نهج البلاغة تكاد تأتي تالية لكتاب الله وكنت أحفظ بعض الخطب المعجب بها وأرددها بشوق ولهفة كخطبة الجهاد على وجه الخصوص. . . وبعد أن كبرت وأصبحت رجلاً لم تمح صورة نهج البلاغة من ذهني ولم يغب ما كنت أحفظه، . كنت أعود إلى النهج كلما جفّت من نفسي روحانيتها فأقرأ فيه بعض خطب الإمام ومواعظه فتحيا الروح من جديد وتنتعش الآمال وتهون أمامي كل مشاكل الدنيا وأحداثها. . .

كنت أقرأ علياً «الشخصية القدوة لي» في خِطبه فأشعر بعمق جراحه التي يعيشها وعمق المعاناة التي يعانيها. .

كنت أقرأه في مواعظه فيرق قلبي ويشف وتعزف نفسي عن الدنيا وما فيها. .

كنت أقرأ علياً في مبادئه الرسالية وعقيدته الإلَهية فأتزود شحنة أحس معها أنني من رواد الإسلام الأوائل وطلائع المؤمنين العقائدين. .

كنت أقرأ علياً في رسائله ومواقفه. . وكنت أقرأه في شجاعته وسخائه. . كنت وكنت ولكن بالرغم من جميع قراءاتي له لم أشفِ قلبي كما أريد ولذا وجدت أن ارتوائي من معين علي لن يكون إلا أن أتعاطى مع النهج من أوله إلى آخره فعمدت إلى مراجعته وأخذت على نفسي أن أقرأه فقرأته أكثر من مرة مع أكثر من شرح له وقد كنت أسّف كما أسّف كثير من شراحه وكنت أخل وأقتضب كما هو

عادة آخرين.. وبعد تجوال طويل ومراجعة رأيت أن أسّد بعض الثغرات التي وقعت عند شراح النهج فعمدت إلى الأمور التالية.

١ ـ إنني استوعبت المعنى اللغوي بتمامه وكماله ويصح أن يسمى قاموس نهج البلاغة فقد بلغت الكلمات اللغوية أكثر من عشرة آلاف كلمة في حين أن أعظم شراح النهج لم تزد كلماتهم اللغوية عن الخمسة آلاف إلا قليلاً وقد أردت من وراء ذلك أن أوفر على قراء النهج من أدباء ومثقفين ما كنت أحس بضرورته من حيث أنهم ربما فهموا من المعنى اللغوي إذا توفر لهم ما لم يفهمه أي شارح للنهج وبذلك ربما تتحرك العقول في الوصول إلى شيء جديد قد غاب عن الأولين..

٢ ـ إنني عمدت إلى كل فقرة فشرحتها ولم أتناول الخطبة أو الرسالة أو الكلمة بشكل مجمل وعام فإن ذلك لا يفي بالغرض ولا يؤدي المطلوب..

٣ ـ تعمدت اللغة السهلة التي تتوافق وأذواق الناس بدون تطويل أو أطناب بل أديت المعنى بما يتناسب والفهم العام..

٤ ـ تجنبت ما وقع فيه بعض شراح النهج من التطويل الممل والدخول في مباحث عقلية وأدبية وعقائدية وغيرها بحيث قد استوعبتْ من بعضهم مجلداً كاملاً وتحول شرح النهج إلى كتاب أدب وتاريخ وعقيدة وخرج عن موضوعه الأصيل..

٥ ـ ترجمت كل من توفر لي ترجمة من شخصيات مرت في النهج ولكن بصورة مختصرة تتناسب وهذا الشرح لئلا نخرج عن الموضوع إلى غيره.

أقول: لهذه الاعتبارات مجتمعة كان شرح نهج البلاغة وافياً كافياً سهلاً ميسراً فمن أراد المعنى اللغوي أدركه بسهولة ومن أراد المعنى التفسيري حصل عليه بأبسط ما يكون ومن أراد معرفة شخصية من شخصيات النهج وقف عليها بدون عناء...

إنها محاولة لسد الثغرات التي وقعت عند غيري.. أسأل الله أن يوفقنا جميعاً ويجعل عملي هذا قربة لوجهه الكريم وأن يجزيني عليه بأحسن الجزاء وينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم والحمد لله رب العالمين.

لبنان ـ النبي شيث
عباس علي الموسوي (أبو علي)
في ٥/ ١/ ١٩٩٢

خطب
أميـــر المؤمنـــين
(عليه السلام)
وشـــــرحهـــا

باب المختار من خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) وأوامره

ويدخل في ذلك المختار من كلامه الجاري مجرى الخطب في المقامات المحضورة، والمواقف المذكورة، والخطوب الواردة

١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها ابتداءَ خلق السماءِ والأرض، وخلق آدم، وفيها ذكر الحج

وتحتوي على حمد الله، وخلق العالم، وخلق الملائكة، واختيار الأنبياء، ومبعث النبي، والقرآن، والأحكام الشرعية

الحَمْدُ(١) لله الَّذِي لاَ يَبْلُغُ(٢) مِدْحَتَهُ(٣) الْقَائِلُونَ(٤)، وَلاَ يُحْصِي(٥) نَعْمَاءَهُ(٦) الْعَادُّونَ(٧)، وَلاَ يُؤَدِّي(٨) حَقَّهُ(٩) ٱلْمُجْتَهِدُونَ(١٠)، الَّذِي لاَ يُدْرِكُهُ(١١) بُعْدُ(١٢) الْهِمَمِ(١٣)، وَلاَ يَنَالُهُ(١٤) غَوْصُ(١٥) الفِطَنِ(١٦)، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ(١٧) حَدٌّ(١٨) مَحْدُودٌ، وَلاَ نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلاَ وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَلاَ أَجَلٌ(١٩) مَمْدُودٌ(٢٠). فَطَرَ(٢١) ٱلْخَلائِقَ(٢٢) بِقُدْرَتِهِ، وَنَشَرَ(٢٣) الرِّيَاحَ(٢٤) بِرَحْمَتِهِ، وَوَتَّدَ(٢٥) بِالصُّخُورِ(٢٦) مَيَدَانَ(٢٧) أَرْضِهِ.

أَوَّلُ الدِّينِ(٢٨) مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ(٢٩) مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ ٱلإِخْلاَصُ لَهُ، وَكَمَالُ ٱلإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ(٣٠) الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ(٣١) كُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ: فَمَنْ وَصَفَ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ(٣٢)، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ(٣٣)، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ(٣٤)، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ(٣٥)، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ(٣٦) إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ «فِيمَ»(٣٧) فَقَدْ ضَمَّنَهُ(٣٨)، وَمَنْ قَالَ «عَلامَ؟»(٣٩) فَقَدْ أَخْلَى(٤٠) مِنْهُ. كائِنٌ لاَ

عَنْ حَدَثٍ[٤١]، مَوْجُودٌ لاَ عَنْ عَدَمٍ[٤٢]. مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لاَ بِمُقَارَنَةٍ[٤٣]، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ بِمُزَايَلَةٍ[٤٤]، فَاعِلٌ لاَ بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ[٤٥] وَالآلَةِ[٤٦]، بَصِيرٌ إِذْ لاَ مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ[٤٧] إِذْ لاَ سَكَنَ[٤٨] يَسْتَأْنِسُ[٤٩] بِهِ وَلاَ يَسْتَوْحِشُ[٥٠] لِفَقْدِهِ[٥١].

اللغة

١ ـ الحمد : المدح.
٢ ـ بلغ المكان : وصل إليه وانتهى، أو شارفه.
٣ ـ المدحة : بكسر الميم الهيئة التي يكون عليها المدح.
٤ ـ القائلون : من القول وهو ما ينطق به الانسان من الكلمات.
٥ ـ لا يحصى : من الإحصاء وهو العدّ.
٦ ـ النعماء : جمعها أنعمُ، الصنيعة، المنة، اليد البيضاء الصالحة.
٧ ـ العادون : المحصون والحاسبون.
٨ ـ أدى الشيء : بلّغه وأوصله.
٩ ـ الحق : خلاف الباطل، ما لزم القيام به.
١٠ ـ المجتهدون : من اجتهد في الأمر إذا بذل وسعه وطاقته.
١١ ـ أدرك الشيء : بلغ وقته وأدرك المسألة فهمها.
١٢ ـ البُعد : يقال فلان بعيد الهمة إذا كان نظره إلى عليات الأمور، والبعدُ ضد القرب.
١٣ ـ الهمم : جمع الهمة وهو العزم الشديد.
١٤ ـ لا يناله : النيل الإصابة.
١٥ ـ الغوص : النزول تحت الماء والغطس.
١٦ ـ الفطن : جمع فطنة جودة الذهن.
١٧ ـ الصفة : النعت.
١٨ ـ الحد : المنتهى للشيء.
١٩ ـ الأجل : المدة المضروبة للشيء فأجل الدين مدته المضروبة لاستيفائه.
٢٠ ـ ممدود : مبسوط.
٢١ ـ فطر : خلق وابتدع.

٢٢ ـ الخلائق : جمع خليقة، المخلوق، والطبيعة.
٢٣ ـ نشر : النشر هو البسط وهو خلاف الطي.
٢٤ ـ الرياح : جمع ريح وهو الهواء إذا اشتد وقوي وفي القرآن الرياح جمعاً للرحمة والريح إفراداً للعذاب.
٢٥ ـ وتّد : ثبتّ وهو من الوتد.
٢٦ ـ الصخور : الحجارة العظيمة.
٢٧ ـ الميدان : التحرك والاضطراب.
٢٨ ـ الدين : هو الشريعة المنزلة من الله والطاعة، الجزاء.
٢٩ ـ الكمال : التمام وعدم النقصان.
٣٠ ـ نفي : ضد الإيجاب، السلب.
٣١ ـ الشهادة : المعاينة، الرؤية، الحضور.
٣٢ ـ قرن الشيء : جمعه إلى غيره والقرن الجمع.
٣٣ ـ ثنيت الشيء : جعلته إثنين.
٣٤ ـ جزأته : قسمته وجعلته أجزاء.
٣٥ ـ الجهل : عدم العلم والمعرفة.
٣٦ ـ أشار إلى الشيء : دل عليه بإصبعه ونحوها.
٣٧ ـ فيمَ : أصلها في مع ما الاستفهامية يسأل فيها عن الظرفية.
٣٨ ـ ضمّنه : تضمنه واشتمل عليه.
٣٩ ـ علام : أصلها على مع ما الاستفهامية يسأل فيها عن الظرفية.
٤٠ ـ أخلى المكان : تركه فارغاً.
٤١ ـ الحدث : تجدد الشيء ووجوده بعد إن لم يكن.
٤٢ ـ العدم : ضد الوجود.
٤٣ ـ المقارنة : الاجتماع.
٤٤ ـ المزايلة : المفارقة والمباينة.
٤٥ ـ الحركات : جمع حركة وهي ضد السكون.
٤٦ ـ الآلة : الوسيلة.
٤٧ ـ المتوحد : المنفرد وتوحد بالأمر تفرد به.
٤٨ ـ السكن : الخلود إلى الشيء والاطمئنان إليه.
٤٩ ـ استأنس : به وفيه، استراح، إليه ومال طبعه إليه ولم ينفر منه.
٥٠ ـ إستوحش : ضد استأنس.
٥١ ـ لفقده : فقد الشيء ـ عدم وجوده وحضوره.

الشرح

(الحمد لله) هذا على العادة في الخطابة وافتتاح الكلام حيث جرت الأمور أن يُبدأ الكلام بالحمد لله والثناء عليه. . والحمد يجب أن يكون بالأقوال والأفعال والقلوب وقد روي عن الصادق عليه السلام كما في الكافي للكليني أنه قال: ما أنعم الله على عبده بنعمة صغرت أو كبرت فقال: الحمد لله، إلا أدى شكرها. .

(الذي لا يبلغ مدحته القائلون) هذا إقرار بالعجز وأنه مهما أثنى على الله ومدحه بمختلف المِدَح فإن ذلك يبقى عصارة قصوره وما يملك من تصور بشري محدود دون ما يستحق الله وما هو أهله. .

(ولا يحصي نعماءه العادون): نعم الله لا تعد ولا تحصى وهذا مأخوذ من قوله تعالى ﴿وأن تعدوا[١] نعمت الله لا تحصوها﴾. .

وقد أنعم الله على هذا الانسان بنعم ظاهرة وأخرى باطنة قال تعالى: ﴿وأسبغ[٢] عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ والظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل أو لا يعلم أصلاً.

(ولا يؤدي حقه المجتهدون) فمهما تفرغ الانسان وبذل طاقته وجد واجتهد فإنه لن يؤدي حق الله وما وجب عليه نحوه لأنه متفضل متكرم، منعم ابتداء ومن ابتدأ بالنعم لا تستطاع مكافأته وأداء حقه.

(الذي لا يدركه بعد الهمم) فمهما كانت العزائم كبيرة والأفكار عالية وعميقة في إدراكها فلن تدرك كنه الله أو تصل إلى شيء من خصائص الواقعية.

(ولا يناله غوص الفطن) لا تصل إليه أو تدركه دقة الذهن وجوْدته مهما سبحتْ في بحار المعرفة واغترفت من العلم لأنها لا تستطيع الوصول إلا إلى ما تتصوره وترسمه في ذهنها من خلال الحس أو التخيل والله سبحانه منزه عن ذلك وفي الحديث عن الباقر عليه السلام «وهل سمي عالماً قادراً إلا لأنه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين فكل ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم والباري تعالى واهب الحياة ومقدر الموت ولعل النمل الصغار تتوهم أن لله تعالى زبانيين فيها كما لها

(١) سورة النحل، آية/ ١٨.
(٢) سورة لقمان، آية/ ٢٨.

فإنها تتصور أن عدمهما نقصان لمن لا يكونان له وهكذا الانسان يتصور ربه بما يملك من تصور قاصر عاجز . .

(الذي ليس لصفته حد محدود) فصفاته الذاتية من العلم والقدرة والحياة وغيرها من الصفات ليس لها غاية أو حد تقف عنده، فلا نستطيع أن نحدد قدرته بحدود معينة ولا علمه ولا حياته.

(ولا نعت موجود) وهذه العبارة قريبة المعنى من قوله ليس لصفته حد محدود إن لم نقل أن المعنى واحد فإن النعت هو الوصف بأكمل الصفات وأجملها ولا نستطيع أن ننعت الله بأي صفة موجودة نعرفها لقصورها لأنها تحكي عن الخارج أو ما في الذهن والله منزه عن أن يحيط به الانسان أو يحسه . .

(ولا وقت معدود ولا أجل ممدود) فلا يقال كم له من الزمن؟ وكم مضى له؟ وإلى كم يبقى ويدوم؟ لأنه أزلي أبدي سرمدي ليس له ابتداء ولا انتهاء وكيف نوّقت له وهو خالق الوقت والزمان؟! . .

وفي الحديث عن أبي عبد الله (ع) قال: جاء حبر من الأحبار إلى أمير المؤمنين(ع) فقال: يا أمير المؤمنين: متى كان ربك؟ فقال: ثَكلتكَ أمك ومتى لم يكن حتى يقال متى كان، كان ربنا قبل القبل بلا قبل وبعد البعد بلا بعد ولا غاية ولا منتهى لغاية انقطعت الغايات عنده فهو منتهى كل غاية.

فقال: يا أمير المؤمنين أفنبي أنت؟.

فقال: ويلك إنما أنا عبد من عبيد محمد (ص).

(فطر الخلائق بقدرته) بعد أن انتهى من نفي الصفات السلبية لله ثنى بها ذكر الصفات الثبوتية فلعظيم قدرته التي لا تحدّ خلق الخلائق كلها وابتدعها من اللاشيء وإنما قال لها كوني فكانت وهذا من قوله تعالى **﴿الذي فطركم[1] أول مرة﴾**.

(ونشر الرياح برحمته) أي وزعها في الكون وعلى الأحياء ليحيا بها الوجود فإن منافعها لا تعد ولا تحصى وهذا من قوله تعالى **﴿وهو الذي[2] يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته. . .﴾** وما جاءت في القرآن جمعاً إلا للرحمة بينما لم تأت في الإفراد إلا للعذاب.

---

(١) سورة الإسراء، آية/ ٥١.

(٢) سورة الأعراف، آية/ ٥٧.

قال تعالى ﴿**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر**[١] **عاتية**﴾ فأفردها بينما قال في الرحمة ﴿**ويرسل**[٢] **الرياح مبشرات**﴾ فجمعها . .

(**وَوَتَّد بالصخور ميدان أرضه**) جعل الجبال الضخمة أوتاداً للأرض كي تثبت مكانها فلا تضطرب أو تهتز هزات تمتنع الحياة معها وهذا من قوله تعالى﴿**والجبال**[٣] **أوتاداً**﴾ .

(**أول الدين معرفته**) أول واجب لمن يريد السير في طريق الله والالتزام بأمره أن يعرف الله لأن الطاعة تقتضي معرفة المطاع وامتثال الأمر يقتضي معرفة الآمر وإلاّ كيف يطاع الأمر مع مجهولية الآمر؟ وفي الحديث أن حبراً سأل أمير المؤمنين بقوله: هل رأيت ربك حين عبدته؟ أجاب بقوله: ويلك ما كنت أعبد رباً لم أره؟ قال: وكيف؟ قال: ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان.

ثم لما كانت هذه المعرفة تختلف بحسب مراتبها أشار إلى أعظمها.

(**وكمال معرفته التصديق به**) المعرفة الكاملة هي تلك التي يتيقن الانسان من خلالها بوجود الله يقيناً لا يتزلزل أو يضطرب أو يعرض له شك وهذه أيضاً لها مراتب أعلى منها أشار عليه السلام إليها بقوله:

(**وكمال التصديق به توحيده**) إذ ربما آمن الانسان بوجود إلـه واجب الوجود ولكن أشرك معه غيره كالنصارى واليهود فتكون معرفته غير كاملة فعندما ينفي عنه الشريك ويوحّده في الذات ويفرده في الصفات يكون إيمانه أكمل وأعظم . .

وهناك مرتبة من المعرفة أعظم من هذه أيضاً أشار إليها بقوله:

(**وكمال توحيده الإخلاص له**) والإخلاص له يعني جعله خالصاً من كل عيب ونقص ويتحقق ذلك بنفي الجسمية والعرضية ولوازمهما وهذا الإخلاص له مرتبة عظمى أشار إليها بقوله:

(**وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه**) فلا يصفه سبحانه بصفات مغايرة لذاته أو ناقصة في ذاتها كأن يصفه بالظلم والعجز وغيرها من الصفات التي تنزه عنها.

---

(١) سورة الحاقة، آية/ ٦.
(٢) سورة الروم، آية/ ٤٦.
(٣) سورة النبأ، آية/ ٧.

ويتلّخص من ذلك بحسب الترتيب السابق أن كمال المعرفة إنما يكون بنفي الصفات غير اللائقة بذات الله أو المنفصلة عنه التي هي غير عين الذات ثم أنه عليه السلام برهن على نفي هذه الصفات وتنزه الله عنها وأنها لا تليق به ولا يمكن أن يتصف بها بقوله:

(لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة) فإن العقلاء وأصحاب الفكر يعرفون أن الصفة غير الموصوف، والموصوف غير الصفة، فالكرم غير زيد، وزيد غير الكرم، فهما متغايران، والذات متقدمة على الصفة ومنفصلة عنها ولا تقوم الصفة مستقلة برأسها بدون ذات، ومن يصف الله بغير ما هو أهل له من الصفات فقد وقع في الشرك وكان إيمانه مشوباً بكثير من الأوهام الباطلة ولذا أراد عليه السلام أن ينفي هذا التوهم الفاسد ويصحح الرؤية على الوجه السليم فقال:

(فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه) من وصف الله بغير صفاته الذاتية أو جعل صفاته مغايرة له فقد قرنه إلى غيره وجمعه معه والله منزه عن القرين.

(ومن قرنه فقد ثناه) من قرنه بغيره فقد جعله ثاني إثنين والله واحد لا شريك له ولا ندّ يساويه أو يضاده.

(ومن ثناه فقد جزأه) من جعله ثاني إثنين فقد جزأه وقسّمه بحيث جعله بما يشترك فيه مع غيره وبما يفترق فيه عن غيره وهذه تجزئة له..

(ومَنْ جزأه فقد جهله) وهذه نتيجة طبيعيه للتجزئة ودليل على عدم المعرفة وأن من جزأه لم يعرفه معرفة كاملة لأن معرفة الله تقتضي توحيده بالذات وتوحيده أيضاً بالصفات. وينشأ من هذا الجهل أمور كثيرة تضل الانسان وتحرفه عن الاستقامة في التفكير والنظر وأشار إليها الإمام بقوله:

(ومن جهله فقد أشار إليه) من جهل الله ولم يعرفه معرفة كاملة توهّمه في ذلك وتخيل له صورة معينة وهذا التوهم والتخيل يشار إليه معنوياً أو حسياً.

(ومن أشار إليه فقد حده) جعله جسماً محدوداً مؤطراً بالأبعاد الجسمية من الطول والعرض والارتفاع والعمق وهذا هو مقتضى الإشارة فلا بد وأن يكون المشار إليه محدوداً بجهة وله مشخصات تُعيّنه..

(ومن حده فقد عده) من حده بحدود الزمان والمكان فقد أحصاه وحصره في رقم معين لأن كل محدود معدود.

(ومن قال فيم فقد ضمّنه ومن قال علام فقد أخلى منه) وهذا زجر ومنع عن الاستفهام بهاتين الصيغتين لأن الاستفهام ـ بفيم ـ سؤال عن وجوده في زمان أو مكان معين يتضمنه ويضمه ويحتويه وباعتبار امتناع المكان والزمان عليه ـ وهو خالق الزمان والمكان ـ امتنع السؤال عنه ـ بفيم ـ.

وأما سؤال الاستفهام ـ بعلام ـ فباعتبار أنه يسأل فيها عن العلو والمكانة المرتفعة فعندما يستفهم هل الله على العرش أو الكرسي فقد أخلى منه سائر الأمكنة الأخرى والله في كل مكان وفي كل زمان فلا يصح الاستفهام عن وجوده في جهة معينة لأنها تستلزم خلوه من الجهات الأخرى. .

(كائن لا عن حدث) الحادث هو الموجود بعد إن لم يكن والله منزه عن ذلك فهو منذ الأزل بدون حدوث لأن الحادث عرضة للتقلبات وأيضاً محتاج إلى محدث والله غني بذاته منزه عن ذلك.

(موجود لا عن عدم) فهو موجود دون أن يسبقه العدم ليس على مستوى الموجودات فإنها كلها لم تكن ثم وجدت والله منزه عن ذلك لأنه الغني ومن طرأ عليه العدم احتاج إلى الوجود فهو ممكن والله موجود دون أن يسبق بالعدم. .

(مع كل شيء لا بمقارنة) يعلم كل شيء من أصغر الأمور إلى أكبرها ومن أحقرها إلى أعظمها وهو مع كل شيء مصاحب له شاهد عليه وفي التنزيل **«وهو معكم أينما كنتم»** ويصف قربه من الانسان بقوله تعالى **﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾** وفي الحديث أن ابن أبي العوجاء سأل الصادق في محاورته قال: ذكرت الله فأحلت على غائب. .

فقال الصادق (ع): ويلك كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد وإليهم أقرب من حبل الوريد يسمع كلامهم ويرى أشخاصهم ويعلم أسرارهم.

فقال ابن أبي العوجاء: أهو في كل مكان؟ أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض، وإذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟!.

فقال أبو عبد الله (ع): إنما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل عن مكان اشتغل به مكان وخلا منه مكان فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه، فأما الله العظيم الشأن الملك الديان فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان.

(وغير كل شيء لا بمزايلة) فهو غير الأشياء لأن كل ما عداه سبحانه حادث بعد العدم وأما هو فهو المنزه عن ذلك، هو الصانع والخالق؟ ومزايلته لها أي مفارقته لهذه المصنوعات ليس على حد مفارقتها لبعضها وكون وجود أحدها ينفي الآخر ويعانده ـ لأنه سبحانه خالق الأشياء ومحدثها فلا تقف في طريقه أو تعانده.

(فاعل لا بمعنى الحركات والآلة) إذا أراد أمراً يتحقق المراد فوراً **«إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»** فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الناس من يد وجارحة وآلة يستعين بها لتحقيق ما يريد وفعل ما يطلب.

(بصير إذ لا منظور إليه من خلقه) فهو يعلم كل شيء وما سيكون ويجري قبل وقوعه وحدوثه، يعلم ما يخلق قبل خلقه الخلق.

(متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده) فالله متوحد في سلطانه لا يشاركه في ملكه أحد لا يحتاج إلى من يستأنس به ويرتاح إليه كما أنه لا يستوحش لفقد أحد وغيابه لأن هذه الأمور من احتياجات الممكنات وحالاتها والله غني بالذات لا يقاس بالناس..



خلق العالم

أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً، وَٱبْتَدَأَهُ ٱبْتِدَاءً، بِلاَ رَوِيَّةٍ[١] أَجَالَهَا[٢]، وَلاَ تَجْرِبَةٍ ٱسْتَفَادَهَا، وَلاَ حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا، وَلاَ هَمَامَةِ[٣] نَفْسٍ ٱضْطَرَبَ فِيهَا. أَحَالَ[٤] الأَشْيَاءَ لأَوْقَاتِها، وَلأَمَ[٥] بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا، وَغَرَّزَ[٦] غرائِزَهَا[٧]، وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا[٨]، عَالِماً بِهَا قَبْلَ ٱبتِدَائِهَا، مُحِيطاً بِحُدُودِها وَٱنْتِهَائِهَا، عَارِفاً بِقَرَائِنِها[٩] وَأَحْنَائِها[١٠]. ثُمَّ أَنْشَأَ ـ سُبْحَانَهُ ـ فَتْقَ[١١] ٱلأَجْوَاءِ[١٢]، وَشَقَّ ٱلأَرْجَاءِ[١٣]، وَسَكَائِكَ[١٤] ٱلْهَوَاءِ، فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلاطِماً[١٥] تَيَّارُهُ[١٦]، مُتَرَاكِماً[١٧] زَخَّارُهُ[١٨]. حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ[١٩] الرِّيحِ ٱلعَاصِفَةِ، وَالزَّعْزَعِ[٢٠]

ٱلْقَاصِفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ[٢١]، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ. الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ[٢٢]، وَٱلْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ[٢٣]. ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً ٱعْتَقَمَ[٢٤] مَهَبَّهَا[٢٥]، وأَدَامَ مُرَبَّهَا[٢٦]، وَأَعْصَفَ[٢٧] مَجْرَاها، وأَبْعَدَ مَنْشَاهَا، فأَمَرَها بِتَصْفِيقِ[٢٨] ٱلْمَاءِ الزَّخَّارِ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ ٱلْبِحَارِ، فَمَخَضَتْهُ[٢٩] مَخْضَ السِّقَاءِ[٣٠]، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِٱلْفَضَاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ، وَسَاجِيَهُ[٣١] إِلَى مَائِرِهِ[٣٢]، حَتَّى عَبَّ[٣٣] عُبَابُهُ[٣٤]، وَرَمَى بالزَّبَدِ[٣٥] رُكَامُهُ[٣٦]، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ[٣٧]، وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ[٣٨]، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ، جَعَلَ سُفْلاَهُنَّ مَوْجاً[٣٩] مَكْفُوفاً[٤٠]، وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً[٤١] مَحْفُوظاً، وَسَمْكاً[٤٢] مَرْفُوعاً، بِغَيْرِ عَمَدٍ[٤٣] يَدْعَمُهَا[٤٤]، وَلا دِسَارٍ[٤٥] يَنْظِمُهَا[٤٦]. ثُمَّ زَيَّنَهَا[٤٧] بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ[٤٨]، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً[٤٩] مُسْتَطِيراً[٥٠]، وَقَمَراً مُنِيراً: فِي فَلَكٍ دَائِرٍ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ، وَرَقِيمٍ[٥١] مَائِرٍ[٥٢].

اللغة

١ ـ الروية : الفكر والتدبر.
٢ ـ أجالها : أدارها ورددها.
٣ ـ همامة النفس : الاهتمام، التردد.
٤ ـ الاحالة : التحويل والتغيير من حال إلى حال.
٥ ـ لأم : جمع وقرن.
٦ ـ غرزها : جعلها غرائز.
٧ ـ الغريزة : الطبيعة.
٨ ـ الأشباح : الأشخاص.
٩ ـ القرائن : جمع القرينة وهي النفس الناطقة أو من القرونة بمعنى الضعف والفساد.
١٠ ـ الاحناء : جمع حنو الجوانب.

١١ ـ فتق : الفتق ضد الرتق وهو الشق.
١٢ ـ الأجواء : ما بين السماء والأرض، الفضاء الواسع.
١٣ ـ الأرجاء : النواحي والجوانب.
١٤ ـ السكائك : جمع سكاكة الهواء الملاقي عنان السماء، أعلى الفضاء.
١٥ ـ المتلاطم : من اللطم وهو الضرب بباطن اليد على الوجه والمتلاطم المتضارب.
١٦ ـ التيار : الموج، وشدة جري الماء في ناحية.
١٧ ـ المتراكم : كل شيء بعضه فوق بعض فهو متراكم.
١٨ ـ زخّاره : الزخّار مبالغة في الزاخر وهو الممتلىء.
١٩ ـ المتن : الظهر.
٢٠ ـ الزعزع : من الزعزعة وهي تحريك الشيء وجعله متخلخلاً غير متماسك، أو الشديدة الهبوب.
٢١ ـ الشد : الوثاق ومنع الحركة.
٢٢ ـ فتيق : المفتوق، المنبسط.
٢٣ ـ الدفيق : المدفوق، المسفوح.
٢٤ ـ أعقم : من العقم وهي علة تمنع الإنجاب والثمر.
٢٥ ـ المهب : وقت هبوبها أو مكانه.
٢٦ ـ مرّبها : من أربّ بالمكان إذا لزم وأقام به.
٢٧ ـ أعصف : جعلها عاصفة ذات صوت شديد يقال عصفت الريح.
٢٨ ـ تصفيق : وهو الضرب الذي له صوت.
٢٩ ـ مخضتة : من المخض وهو التحريك ومخضت اللبن إذا حركته لاستخراج زبدته.
٣٠ ـ السقاء : الوعاء يوضع فيه الماء كالقربة.
٣١ ـ الساجي : الساكن.
٣٢ ـ المائر : من مار الشيء إذا تحرك بسرعة.
٣٣ ـ عب : ارتفع.
٣٤ ـ العباب : كثرة الماء وطغيانه.
٣٥ ـ الزبد : ما يعلو الماء من جراء الجري أو الحركة.
٣٦ ـ ركامه : من الركام وهو الشيء المجتمع بعضه فوق بعض.
٣٧ ـ منفتق : مشقوق.
٣٨ ـ منفهق : مفتوح واسع.
٣٩ ـ الموج : جمعه أمواج ما ارتفع من الماء على سطحه.

٤٠ ـ المكفوف : الممنوع من السقوط والسيلان.
٤١ ـ السقف : من البيت أعلاه مقابلاً لأرضه.
٤٢ ـ السمك : السقف، والسموك والارتفاع.
٤٣ ـ العمد : جمع عمود.
٤٤ ـ يدعمها : دعامة البيت عموده وما يدعمه ويمنعه عن السقوط.
٤٥ ـ الدسار : المسمار.
٤٦ ـ ينظمها : يؤلفها ويجمعها.
٤٧ ـ الزينة : الاسم من تزّين ما يتزين به.
٤٨ ـ الثواقب : المنيرة المشرقة.
٤٩ ـ السراج : إناء يجعل فيه زيت ونحوه ثم يشعل فيضيء.
٥٠ ـ المستطير : المنتشر.
٥١ ـ الرقيم : من الرقم وهو الكتابة والنقش سمي الفلك بذلك لأنه مرقوم بالكواكب.
٥٢ ـ المائر : المتحرك.

الشرح

(ثم أنشأ الخلق إنشاء وابتدأه ابتداء) أراد عليه السلام أن يذكر عظمة الله وبديع صنعه وكيف يتجلى ذلك في خلق العالم، أنه خلقه خلقاً بديعاً لا نظير له ولا مثيل بقوله كنّ فكان، أنه خلقه من لا شيء وبدون نظير أو شبيه تقدم عليه.

(بلا روية أجالها) فلم يعمل فكره ويشغل نظره ولا احتاج في خلقه إلى إدارة عجلة العقل بين المعلوم والمجهول للحصول على المراد كما هي عادة البشر وفاعلية مسيرة المخترعين والصنّاع.

(ولا تجربة استفادها) لم يكرّر فعله ويصحّح ما وقع منه من خطأ على طريقة البشر في تجاربهم حيث يجرون ذلك ويكررونه ليصلوا إلى الحقائق فالله منزه عن ذلك لغناه الذاتي.

(ولا حركة أحدثها) والحركة من خواصّ الأجسام وطبيعتها والله منزه عن الجسمية.

(ولا همامة نفس اضطرب فيها) ليس عنده اهتمام نفسي يأخذه كما يأخذ الناس الاهتمام لأهمية القضية التي يفكرون فيها وبكلمة جامعة أن هذه الأمور الأربعة ـ الروية والتجربة والحركة وهمامة النفس ـ أنها كلها تجري على البشر والله منزه عنها . . .

(أحال الأشياء لأوقاتها) جعل الأشياء تحل في أوقاتها المناسبة فلماذا كان هذا في المكان الفلاني ولماذا وجد الآن ولم يوجد من قبل، فهذا لحكمة يعلمها الله؛ وجد في هذا الزمان فالمصلحة اقتضت إيجاده في وقته المناسب اللائق.

(ولأم بين مختلفاتها) فلقدرة الله العظيمة جعل سبحانه تلاؤماً وانسجاماً بين العناصر المختلفة كما هو الحال في البدن والروح مع اختلافهما وتنافرهما من حيث أن أحدهما مادة والأخرى لا مادة.

(وغرّز غرائزها) ركزّ في جبلة كل شيء وتكوينه طبيعة ذاتية تحركه للحفاظ على حياته وامتداده من بعده فلكل طبيعته فالأسد من طبعه الشجاعة والثعلب المكر والأرنب الجبن . .

(وألزمها أشباحها) جعل هذه الغرائز ملازمة لأشخاصها وأشيائها كما قلنا من حيث أن الحمار طبيعته البلادة والقرد الذكاء وحسن التمثيل والأداء والانسان قوة الفكر والإرادة وهكذا لكل مخلوق غريزة خاصة به . .

(عالماً بها قبل ابتدائها) قبل إيجاده لها يعلمها ويعلم خصوصياتها وأنه متى يُوجدها وإلى متى ستدوم وفي أي وقت تنتهي وعلمه قبل إيجادها كعلمه بها بعد إيجادها لأنه العالم المطلق والكمال المطلق.

ـ وفي التوحيد عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول:

«كان الله ولا شيء غيره ولم يزل عالماً بما كونه، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد ما كونه».

ـ وعن ابن مسكان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الله تبارك وتعالى أكان يعلم المكان قبل أن يخلق المكان أو علمه عندما خلقه وبعدما خلقه؟

فقال: تعالى الله بل لم يزل عالماً بالمكان قبل تكوينه كعلمه به بعد كونه وكذلك علمه بجميع الأشياء كعلمه بالمكان.

(محيطاً بحدودها وانتهائها) إحاطته سبحانه هو علمه بأطراف الأشياء وحدود، وما تنتهي إليه وما تقف عنده.

(عارفاً بقرائنها وأحنائها) فإنه سبحانه يعلم بنفوس هذه الغرائز التي ألزمها أشباحها وعارف بجهاتها وسائر أحوالها المتعلقة بها والصادرة عنها.

(ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشق الأرجاء وسكائك الهواء) وهذا تفصيل لمخلوقات الله وأن هذا الكون خلقه الله وابتدأه من لا شيء وقد أشار بعضهم إلى أن هذه العبارات تشير إلى معنى واحد.

وهو الفضاء وأن لهذا الفراغ أبعاداً ثلاثة علواً وأومأ الإمام إليه بالأجواء وأطرافاً وهي مراده من الأرجاء وطبقات وعبر عنها بالسكائك..

(فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره متراكماً زخاره) إنه سبحانه أجرى في أبعاد الكون الثلاثة المتقدمة ماء يضرب بعضه البعض ويعلو بعضه فوق بعض لشدة حركته فهو ليس ساكناً بل هائجاً مضطرباً..

(حمله على متن الريح العاصفة والزعزع القاصفة) ثم حمل الماء على الريح الشديدة القوية هذه الريح لشدتها تزعزع الأشياء عن أماكنها وتقصف الأشياء لشدتها فالماء على تلك الريح الهوج العاصفة.

(فأمرها برده وسلطها على شده وقرنها إلى حده) والله سبحانه أمر الريح أمراً تكوينياً بقوله «كن»، أمرها أن ترد الماء فلا يسيل أو يسقط وجعل لها القوة والسلطان في أن تشده إليها وتوثقه فلا يهبط كما جعل هذه الريح محيطة بجوانب الماء وأطرافه..

(الهواء من تحتها فتيق والماء من فوقها دفيق) فالهواء منبسط لا شيء تحته يحمله بينما الماء ينصب ويتدفق من فوقها.

قال العلامة المجلسي: والغرض أنه سبحانه بقدرته ضبط الماء المصبوب بالريح الحاملة له كما ضبط الريح بالهواء المنبسط وهو موضع العجب.

(ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها) أي أنشأ وخلق فوق ذلك الماء ريحاً عقيماً لا تعطي ماء..

(وأدام مُرَبَّها) جعلها ملازمة لتحريك الماء.

(وأعصف مجراها) أي جعل جريانها وهو حركتها شديدة قوية.

(وأبعد منشاها) جعلها بعيدة المدى والمكان بحيث لا يعرف ثم سلطها على ذلك الماء.

(فأمرها بتصفيق الماء الزخار وإثارة موج البحار) فمهمة هذه الريح أن تضرب الماء الكثير بعضه ببعض تضربه بشدة وقوة وتحرك أمواج البحار وتنقله من مكان إلى آخر.

(فمخضته مخض السقاء وعصفت به عصفها بالفضاء) حركته كما يُحرك الوعاء الذي يستعمل في استخراج الزبدة من اللبن فيحرك بكثرة وعجلة وهذه الريح لشدتها وقوتها كأنها في الفضاء الذي ليس فيه مانع يمنعها فهي تتحرك بقوة وشدة ومن شدتها وقوتها أنها:

(ترد أوله إلى آخره) فتنقل الأول إلى الآخر وتخلطه ببعضه.

(وساجيه إلى مائره) فتضع ساكنه على متحركه وهادئه على مندفعه.

(حتى عب عبابه ورمى بالزبد ركامه) فمن شدة هذه الحركة ارتفع معظمه وغالبه وما تراكم منه وقع زبداً متراكماً.

(فرفعه في هواء منفتق وجو منفهق) وهذا الزبد المتراكم من شدة الحركة قد رفعه الله بخاراً محمولاً على الهواء وفي الفضاء المتسع.

(فسوى منه سبع سموات جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً) فمن ذلك الزبد المتراكم الذي ارتفع في الفضاء خلق الله منه سبع سماوات وجعل أسفلهن ماء محفوظاً من السقوط والسيلان وللشرّاح وجوه كثيرة فبعضها:

أن كون السماء السفلى موجاً أما بعنوان الحقيقة حسبما اختاره قوم مستدلاً بمشاهدة حركة الكواكب المتحيرة وكونها مرتعدة مضطربة في مرئى العين.

وقال آخرَ هي للتشبيه شبه السماء الدنيا بالموج لصفائها وارتفاعها أو أراد أنها كانت موجاً ثم عقدها.

وقال ثالث: استعار لفظ الموج للسماء لما بينهما من المشابهة في العلو والارتفاع وما يتوهم من اللون..

(وعلياهن سقفاً محفوظاً وسمكاً مرفوعاً بغير عمد يدعمها ولا دسار ينظمها) جعل السماء العليا سقفاً لغيرها لأنها أعلى من الجميع وجعل هذا السقف الذي هو السماء العليا لا يهدم ولا يخرق ويحفظ ما تحته من التأثير وللشراح مناهج شتى في هذه العبارة.

فمنهم من قال: أنها محفوظة من الشياطين وبعضهم رد على هذا بأنه لو كان المراد

بالحفظ هو حفظها من الشياطين فإنه لا يناسب العليا بل السفلى وجاء آخر فردّ على هذا الرد بأن محفوظية السفلى إنما كان بعد ولادة النبي وهكذا.. وباعتبار أنه صلوات الله عليه يتكلم عن الأمور التكوينية وخلق العالم فالأقرب ما ذكرناه..

وهذه السماوات ارتفعت ووقفت كما ترى بدون عمد تعتمد عليها أو تستند إليها كما هو المشاهد فإن الله سبحانه هو الذي أمسكها أن تقع وجعل لها نواميس وقوانين طبيعية تحفظها من السقوط وهذا القول من الإمام مستمد من قوله تعالى **﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد[١] ترونها﴾**. فبدون عمد وبدون مسامير تثبتها وتنظمها وتحفظها بالشكل الصحيح كما هو المشاهد عند من يرفع سقفاً أو يريد أن ينصب راية في الأعالي..

(ثم زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب) فإنه سبحانه قال: **﴿إنا زينا[٢] السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾** وما أجمله من منظر بديع حيث تتراءى للناس أنوار الكواكب من بعيد بعيد في صورة ربانية كريمة حيث تجد السماء قد رصعّت بالنجوم وهناك بعض الكواكب التي تنفرد من حيث تثقب بأنوارها ظلمات الليل وسواده..

(وأجرى فيها سراجاً مستطيراً) وهو الشمس فإنها سراج يضيء في الدنيا وينتشر ضؤوها في كل مكان كما قال تعالى **﴿وجعل الشمس[٣] سراجاً﴾**.

(وقمراً منيراً) ينير الدنيا ويزيدها بهجة وسروراً فما أجمل الليالي المقمرة حيث يطيب السمر مع الأحباب والخلان. قال تعالى: **﴿وجعل[٤] فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾**.

(في فلك دائر وسقف سائر ورقيم مائر) فالفلك يتحرك والسماء تتحرك والرقيم وهو اللوح سمي الفلك بذلك لأنه يترائى مسطحاً كاللوح.. وهذه كلها تتحرك ولا تتنافى مع حركة الكواكب نفسها...



(١) سورة الرعد، آية/ ٢.
(٢) سورة الصافات، آية/٦.
(٣) سورة نوح، آية/١٦.
(٤) سورة الفرقان، آية/ ٦١.

خلق الملائكة

ثُمَّ فَتَقَ(١) مَا بَيْنَ السَّموات ٱلْعُلاَ، فَمَلأَهُنَّ(٢) أَطْواراً(٣) مِنْ مَلائِكَتِهِ(٤)، مِنْهُمْ سُجُودٌ(٥) لاَ يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لاَ يَنْتَصِبُونَ(٦)، وَصَافُّونَ(٧) لاَ يَتَزَايَلُونَ(٨)، وَمُسَبِّحُونَ(٩) لاَ يَسْأَمُونَ(١٠)، لاَ يَغْشَاهُمْ(١١) نَوْمُ الْعُيُونِ، وَلاَ سَهْوُ(١٢) الْعُقُولِ، وَلاَ فَتْرَةُ(١٣) الأَبْدَانِ، وَلاَ غَفْلَةُ النِّسْيَانِ(١٤). وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ(١٥) عَلَى وَحْيِهِ(١٦)، وأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ(١٧) بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ، وَمِنْهُمُ ٱلْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ، وَالسَّدَنَةُ(١٨) لأَبْوَابِ جِنَانِهِ. وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي ٱلأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَٱلْمَارِقَةُ(١٩) مِنَ السَّمَاءِ ٱلْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ(٢٠)، وَالخَارِجَةُ مِنَ الأَقْطَارِ(٢١) أَرْكَانُهُمْ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ(٢٢) الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ(٢٣) نَاكِسَةٌ(٢٤) دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ(٢٥) تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ(٢٦) الْعِزَّةِ، وَأَسْتَارُ الْقُدْرَةِ. لاَ يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ، وَلاَ يُجْرُونَ(٢٧) عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ، وَلا يَحُدُّونَهُ(٢٨) بِالأَمَاكِنِ، وَلاَ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ(٢٩).

اللغة

١ ـ الفتق : الشق وهو ضد الرتق.
٢ ـ ملأ الشيء : وضع فيه قدر ما يسع فامتلأ.
٣ ـ أطواراً : أصنافاً.
٤ ـ الملائكة : أجسام روحانية لا ترى.
٥ ـ السجود : وضع الجبهة على الأرض.
٦ ـ الانتصاب : القيام.
٧ ـ صافون : منتظمون إذا صففت الشيء ونظمته.

٨ ـ لا يتزايلون : لا يتفارقون والمزايلة المفارقة.
٩ ـ مسبحون : من التسبيح وهو التنزيه.
١٠ ـ لا يسأمون : لا يملون ويضجرون.
١١ ـ لا يغشاهم : لا يصيبهم ولا يأتيهم وغشاه غطّاه.
١٢ ـ السهو : الغفلة، إذا غاب الشيء عن فكر الإنسان وباله.
١٣ ـ الفترة : الانكسار والضعف.
١٤ ـ النسيان : ضد الحفظ.
١٥ ـ أمناء : جمع أمين وهو الحافظ لما كلف به الذي لا يخون.
١٦ ـ الوحي : كلام الله إلى الأنبياء.
١٧ ـ اختلف : إليه تمرد عليه.
١٨ ـ السدنة : جمع سادن وهو الخادم.
١٩ ـ مرق السهم : نفذ وخرج.
٢٠ ـ الأعناق : جمع عنق ما بين الرأس والبدن.
٢١ ـ الأقطار : الأطراف.
٢٢ ـ القوائم : رجلي الدابة ويديها وتطلق على ما يقوم عليه السرير.
٢٣ ـ الأكتاف : جمع كتف عظم عريض خلف المنكب (مؤنث).
٢٤ ـ نكسّ رأسه : طأطأه إلى الأرض.
٢٥ ـ متلفعون : تلفع بالثوب إلتحف به.
٢٦ ـ الحُجب : جمع حجاب الستر وكل ما يحجب.
٢٧ ـ لا يجرون : لا يوقعون ولا يصفون.
٢٨ ـ لا يحدّونه : لا يميزونه ولا يعرّفونه أو لا يحصرونه بالأماكن.
٢٩ ـ النظائر : الأشباه والنظائر.

الشرح

البحث في الملائكة وحقيقتهم وأنواعهم وأدوارهم لا موجب له بعد أن كانت من الأمور الغيبية ولولا الرسل والأنبياء وما أخبروا به عن الله لما كنا ملزمين بالإيمان بوجودهم وسنمر في نهاية هذا الفصل على بعض ما ورد من الأحاديث عنهم. والإمام هنا يذكر الملائكة وبعض أصنافهم وأدوارهم ترغيباً للعباد بالعبادة والتوجه إلى الله وأخذ العبرة من عظمة الله وقدرته.

(ثم فتق ما بين السموات العلا فملأهن أطواراً من ملائكته) ثم إنه سبحانه شق ما بين السماوات العلا أماكن للملائكة فملأها بهم أشكالاً مختلفة. . .

وقد قسم الإمام الملائكة إلى أربعة أصناف.

الأول: أهل العبادة وهؤلاء أيضاً أصناف وكل صنف اتخذ نوعاً من العبادة لله توجه بها إليه.

(منهم سجود لا يركعون) فعبادتهم الدائمة وسجودهم الدائم لله بحيث لا يخرجون عنه إلى غيره.

(وركوع لا ينتصبون) عبادتهم لله الركوع له على الدوام بحيث لا يخرجون عنه معتدلين ليخرجوا عن العبادة المرسومة لهم. . .

(وصافون لا يتزايلون) وصنف منتظمون في الصلاة صفوفاً لا يفارقون أماكنهم ولا يخرجون منها. .

(ومسبحون لا يسأمون) وصنف عبادتهم تنزيه الله عن كل نقص بدون ملل أو ضجر.

(لا يغشاهم نوم العيون) لا يأتيهم النوم كما يأتي الناس بل هم يُحيون الليل ويصلونه بالنهار فدوامهم ليلاً نهاراً.

(ولا سهو العقول ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان) فإن هذه الحالات تطرأ على مزاج الإنسان الخاضع لعوامل التأثرات والملائكة ليست كذلك فلا تتعرض عقولها للسهو ولا أبدانها للتعب والكسل ولا ينتابها غفلة من نسيان كما يتعرض لذلك الإنسان.

الثاني: من أقسام الملائكة: هم السفراء الموكلون بنقل ما أراد الله إلى الرسل والأنبياء.

(ومنهم أمناء على وحيه وألسنة إلى رسله) فمن الملائكة قسم إئتمنهم الله على وحيه وما يريد إبلاغه لأنبيائه وهؤلاء هم ألسنة الصدق الذين يفصحون عن مراد الله إلى الرسل فلا يزيدون فيما كلفوا به ولا ينقصون منه شيئاً بل يؤدونه إلى الأنبياء كاملاً تاماً غير منقوص.

(ومختلفون بقضائه وأمره) يترددون على الرسل بما كتبه الله على خلقه وقدره عليهم وبما أراد بتبليغه للناس من أمرٍ ونهي وما يسنه من تشريع. . .

الثالث: وهذا ثالث الأقسام من الملائكة.

(ومنهم الحفظة لعباده والسدنة لأبواب جنانه) وهؤلاء هم الذين يحفظون العباد من التردي والوقوع في الهلكات كما قال تعالى ﴿**له معقبات من بين يديه**[١] **ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**﴾.

وعن الإمام الباقر:

وسدنة أبواب الجنة هم خدمة الجنة الموكلون بفتح أبوابها لأهلها قال تعالى: ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤها**[٢] **وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾.

الرابع: وهذا رابع الأقسام من الملائكة وهذه صفتهم.

(ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم والمارقة من السماء العليا أعناقهم) ومن كان طوله بهذا الشكل الرهيب يجب أن يعتدّ به وخصوصاً إذا انضم إليه العرض الذي أشار إليه بقوله:

(والخارجة من الأقطار أركانهم والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم) قال بعضهم يشبه أن يكون المقصود بهم من خلال هذه الأوصاف هم حملة العرش ولكن مع هذا الطول وهذه الضخامة هم في غاية الذل والضراعة لله ومن خضوعهم وخوفهم واشفاقهم لا يرفعون رؤوسهم وإنما هي:

(ناكسة دونه أبصارهم) لا يرفعون طرفهم نحوه خجلاً وحياء من حضرته وخوفاً وفرقاً من هيبته.

(متلفعون تحته بأجنحتهم) وللملائكة أجنحة قال تعالى:

﴿**أولي أجنحة**[٣] **مثنى وثلاث ورباع**﴾ وقد أشار الإمام إلى أنهم حياء من الله يلفّون أجسادهم بأجنحتهم وهم قيام تحت العرش..

(مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة وأستار القدرة) فبينهم وبين أصناف الملائكة الأخرى الذين دون مرتبتهم أو بينهم وبين البشر موانع تحجبهم عنهم وتمنعهم

---

(١) سورة الرعد، آية/ ١١.

(٢) سورة الزمر، آية/ ١٣.

(٣) سورة فاطر، آية/ ١.

عن الوصول إليهم لما لهم من العز باتصالهم بالله وقربهم منه ولما لهم من قدرة أعطاها الله لهم؛ فلما لهم من آلعز ولما أعطاهم الله من القدرة كانوا في حجب وموانع من الإتصال بغيره ممن هم دونهم. . .

(**لا يتوهمون ربهم بالتصوير**) فهم لصفاء أذهانهم وطهارة نفوسهم وكونهم في مراتب عليا من القرب منه لا يتصورون الله من خلال ما يتوهمون ويتخيلون وهذا مقام رفيع حيث أنهم تنزهوا عن ذلك وارتفعوا عما يجري بين بعض الناس. . .

(**ولا يجرون عليه صفات المصنوعين**) فما يجري على المخلوقات من العجز والفقر والتركيب والتأليف والإمكان فإنهم لا يجرونه على الله ولا يقولون إنه مثلهم في الفقر والحاجة. .

(**ولا يحدونه بالأماكن**) لا يحصرون الله في مكان سواء كان سماء أو أرضاً أو جهة معيّنة لأن ذلك يجعله محدوداً مؤطراً ومشاراً إليه والله سبحانه منزه عن ذلك. . .

(**ولا يشيرون إليه بالنظائر**) فلا يقولون إنه شبيه فلان ومثل الشيء الفلاني لأن هذه أوهام بشرية قاصرة وتخيلات إنسانية عاجزة ينزه الملائكة الكبار عن مثل هذا القول. . .

بحث مختصر في الملائكة

الملائكة حقيقة قرآنية إيمانية بل عقيدة جميع الأديان السماوية وقد أجمعت الأمة الإسلامية على ذلك وقد امتازوا بخصائص أهمها ما يلي:

١ ـ إنهم منزهون في وجودهم عن الوجود المادي الذي يعرض عليه الفساد والفناء.

قال المجلسي في بحاره: أعلم أنه أجمعت الإمامية بل جميع المسلمين إلا من شذّ منهم ـ من المتفلسفين الذين أدخلوا أنفسهم بين المسلمين لتخريب أصولهم وتضييع عقائدهم ـ على وجود الملائكة وأنهم أجسام نورانية. . .

٢ ـ إنهم وسطاء بين الله وبين موجوداته ينقلون مراده إليهم كما هو الحال في الأنبياء والرسل أو يديرون شؤون عباده من سائر مخلوقاته.

قال تعالى: ﴿**جاعل الملائكة رسلاً**﴾.

وقال تعالى: ﴿**له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**﴾.

وقال تعالى: ﴿**والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبرات أمراً**﴾.

٣ ـ إنهم لا يعصون الله فيما أمر وهم بأمره يعملون، قال تعالى: ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون**﴾.

٤ ـ هم على مراتب متفاوتة قال تعالى: ﴿**وما منا إلا له مقام معلوم**﴾.

قال الرازي في تفسيره بتلخيص واختصار منا:

إعلم أن الله ذكر في القرآن أصنافهم وأوصافهم:

أما الأصناف: **فأحدها** حملة العرش قال تعالى: ﴿**يحمل عرش ربك**﴾.

وثانيها: الحافون حول العرش قال تعالى: ﴿**وترى الملائكة حافين**﴾..

وثالثها: أكابر الملائكة فمنهم جبرائيل وميكائيل لقوله: ﴿**وجبريل وميكال**﴾:

ورابعها: ملائكة الجنة قال تعالى: ﴿**والملائكة يدخلون عليهم من كل باب**﴾.

وخامسها: ملائكة النار قال تعالى: ﴿**عليها تسعة عشر**﴾ وقوله: ﴿**وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة**﴾ ورئيسهم مالك وأسماء جملتهم الزبانية.

وسادسها: الموكلون ببني آدم لقوله تعالى: ﴿**عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾ وقوله: ﴿**يرسل عليكم حفظة**﴾.

وسابعها: الموكلون بأحوال هذا العالم لقوله: ﴿**والصافات صفاً**﴾ وقوله: ﴿**والمدبرات أمراً..**﴾.

وأما أوصاف الملائكة:

فأحدها: إنهم رسل الله ﴿**جاعل الملائكة رسلاً**﴾.

وثانيها: قربهم من الله بالشرف لقوله تعالى ﴿**بل عباد مكرمون**﴾.

وثالثها: وصف طاعاتهم لقوله تعالى حكاية عنهم ومقدماً لهم:

﴿**وإنّا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون**﴾.

رابعها: وصف قدراتهم وإنهم يحملون العرش.

خامسها: وصف خوفهم قال تعالى: ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾.

صفة خلق ادم عليه السلام

ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ[١] ٱلأَرْضِ وَسَهْلِهَا[٢]، وَعَذْبِهَا[٣] وَسَبَخِهَا[٤]، تُرْبَةً سَنَّهَا[٥] بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ[٦]، وَلاَطَهَا[٧]، بِالْبَلَّةِ[٨] حَتَّى لَزَبَتْ[٩]، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ[١٠] وَوُصُولٍ[١١]، وَأَعْضَاءٍ[١٢] وَفُصُولٍ[١٣]: أَجْمَدَهَا[١٤] حَتَّى ٱسْتَمْسَكَتْ[١٥]، وَأَصْلَدَهَا[١٦] حَتَّى صَلْصَلَتْ[١٧]، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ[١٨] مَعْلُومٍ؛ ثُمَّ نَفَخَ[١٩] فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ[٢٠] إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا[٢١]، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا[٢٢]، وَأَدَوَاتٍ[٢٣] يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالأَذْوَاقِ وَالْمَشَامِّ[٢٤]، وَالأَلْوَانِ وَالأَجْنَاسِ، مَعْجُوناً[٢٥] بِطِينَةِ الأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ، وَالأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالأَخْلاطِ الْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ، وَٱسْتَأْدَى[٢٦] ٱللّهُ سُبْحَانَهُ ٱلْمَلائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، فِي الإِذْعَانِ[٢٧] بِالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ[٢٨] لِتَكْرِمَتِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ ٱعْتَرَتْهُ[٢٩] ٱلْحَمِيَّةُ[٣٠]، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ[٣١]، وَتَعَزَّزَ[٣٢] بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَٱسْتَوْهَنَ[٣٣] خَلْقَ الصَّلْصَالِ[٣٤]، فَأَعْطَاهُ اللّهُ النَّظِرَةَ[٣٥] ٱسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ[٣٦]، وَٱسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ[٣٧]، وَإِنْجَازاً[٣٨] لِلْعِدَةِ[٣٩]، فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾. ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ[٤٠] فِيهَا عَيْشَهُ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ، وَحَذَّرَهُ[٤١] إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ، فَٱغْتَرَّهُ[٤٢] عَدُوُّهُ نَفَاسَةً[٤٣] عَلَيْهِ بِدَارِ ٱلْمُقَامِ، وَمُرَافَقَةِ ٱلأَبْرَارِ، فَبَاعَ ٱلْيَقِينَ بِشَكِّهِ، وَٱلْعَزِيمَةَ[٤٤] بِوَهْنِهِ، وَٱسْتَبْدَلَ بِٱلْجَذَلِ[٤٥] وَجَلاً[٤٦]، وَبِالاِغْتِرَارِ نَدَماً. ثُمَّ بَسَطَ اللّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ، وَوَعَدَهُ ٱلْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ، وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ ٱلْبَلِيَّةِ[٤٧]، وَتَنَاسُلِ[٤٨] الذُّرِّيَّةِ[٤٩].

اللغة

١ ـ حزن : الحزن من الأرض ما غلظ منها .
٢ ـ السهل : هو المنبسط من الأرض، خلاف الحزن .
٣ ـ العذب : ما طاب من الأرض وصلح للانتفاع به .
٤ ـ السبخ : الأرض المالحة .
٥ ـ سنها : صبها .
٦ ـ خلصت : صفت ونقت .
٧ ـ لاطها : مزجها .
٨ ـ البلة : من البلل وهي الرطوبة .
٩ ـ لزبَ : إلتصق وثبت .
١٠ ـ أحناء : جمع حنو بكسر الحاء الجوانب .
١١ ـ وصول : الوصول كل ملتقى عظمين في الجسد .
١٢ ـ الأعضاء : جمع عضو، كل لحم فيه عظم كاليد والرجل .
١٣ ـ وفصول : المفاصل .
١٤ ـ أجمدها : جعلها جامدة غير رخوة .
١٥ ـ إستمسك : تعلّق .
١٦ ـ أصلدها : من الصلد وهو الجامد المتين .
١٧ ـ صلصلت : يبست .
١٨ ـ الأمد : الوقت .
١٩ ـ نفخ بفمه : أخرج منه الريح .
٢٠ ـ مثلت : تصورت .
٢١ ـ يجيلها : يحرّكها .
٢٢ ـ يختدمها : يجعلها تخدمه .
٢٣ ـ الأدوات : الآلات .
٢٤ ـ المشام : ما يشم .
٢٥ ـ معجوناً : مخمراً .
٢٦ ـ استأدى : طلب أدائها وإيصالها .
٢٧ ـ الإذعان : الاعتراف والاعتقاد .
٢٨ ـ الخنوع : الخضوع .
٢٩ ـ اعترته : أصابته .

٣٠ ـ **الحمية** : الانفة.
٣١ ـ **الشقوة** : بالكسر الشقاوة.
٣٢ ـ **تعزّز** : تكبّر وطلب العزة.
٣٣ ـ **استوهن** : من الوهن وهو الضعف.
٣٤ ـ **الصلصال** : الطين اليابس قبل طبخه وقيل المنتن.
٣٥ ـ **النظرة** : الإمهال.
٣٦ ـ **السخطة** : من السخط وهو الغضب.
٣٧ ـ **البلية** : الامتحان.
٣٨ ـ **إنجازاً** : من أنجز وعده إذا وفى به.
٣٩ ـ **العدة** : الوعد.
٤٠ ـ **أرغد** : من الرغد وهو السعة في العيش.
٤١ ـ **حذره** : خوّفه.
٤٢ ـ **إغتر** : من الغرة وهي الغفلة.
٤٣ ـ **نفاسة** : نفس بالشيء بخل به.
٤٤ ـ **العزيمة** : الإهتمام بالشيء.
٤٥ ـ **الجذل** : الفرح.
٤٦ ـ **الوجل** : الخوف.
٤٧ ـ **البلية** : البلاء وهو الامتحان والاختبار.
٤٨ ـ **التناسل** : التوالد.
٤٩ ـ **الذرية** : النسل وهم الأولاد.

الشرح

ثم إنه عليه السلام وصف خلق هذا الإنسان وما تركب منه وكيف أن إبليس تكبر وامتنع عن تنفيذ أمر الله وكيف كانت عاقبته ونتيجة تمرده درساً لنا في عدم الخروج عن إرادة الله وعبرة لكل إنسان في أن يكون عند أمرِ الله ونهيه. . .

(ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنها بالماء حتى خلصت ولاطها بالبلة حتى لزبت). فمن هذه المواد كانت تركيبة هذا الإنسان الأول، إنه سبحانه جمع هذه العناصر من الأرض، وأنه جمع منها ما هو غليظ قاس وما هو لين

سهل طري جمع من التربة الناعمة الصالحة للعطاء والمالحة التي لا ينبت فيها نبات، لقد جمع سبحانه هذه العناصر ثم صب عليها الماء ومزجها مزجاً جيداً كما يجب حتى اشتدت واستمسكت ولم تعد تتفتت.. وإنما خلقها من هذه العناصر ليكون فيه الاستعداد للخير والشر والحسن والقبح كما يقول بعض الشراح..

(فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول وأعضاء وفصول أجمدها حتى استمسكت وأصلدها حتى صلصلت لوقت معدود وأمد معلوم) جعل من تلك الطينة صورة آدم ومادته وهي مكونة من جوانب طولية وعرضية ومفاصل وأعضاء من يدين ورجلين ثم جعلها صلبة قوية حتى أصبحت كالفخار اليابس وبقيت هكذا مدة معدودة وزمناً محدوداً وإلى هذا أشار الذكر الحكيم بقوله: «**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً**».

(ثم نفخ فيها من روحه فمثّلت إنساناً ذا أذهان يجيلها وفكر يتصرف بها) ثم إن هذه الصورة بعد أن اكتملت بهذا الشكل البديع أفاض الله عليها الحياة وإضافة روح آدم إليه تعالى تكرمة لآدم وتشريف وهي إضافة الملك، وبهذه النفخة المباركة صارت إنساناً يحمل فكراً يحلل الأمور وعقلاً يميز الضار من النافع والحسن من القبيح.

(وجوارح يختدمها وأدوات يقلّبها) وتحركت جوارحه من يدين ولسان ورجلين يستعملها في خدمته ومن أجل منفعته كما إن هذه الأدوات التي هي الأعضاء يستعملها في قضاء حاجاته وحركة حياته.

(ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل والأذواق والمشام والألوان والأجناس) بهذه النفخة أعطاه الله سر المعرفة وجعله من خلالها يطلع على الأمور ويميز بين الحق الذي يجب الإيمان به وأتباعه ومساندته والدفاع عنه وبين الباطل الذي يجب أن يكفر به ويحاربه ويحارب فاعله، وخلق سبحانه له الأذواق التي يعرف بها مرّ الأشياء من حلوها وجيدها من فاسدها وكذلك جعل له المشام التي تنعش القلوب من التي تؤذيها كما جعله يعرف الألوان على اختلافها وما يميزها والأجناس على تعددها وتمايزها...

(معجوناً بطينة الألوان المختلفة والأشباه المؤتلفة والأضداد المتعادية والأخلاط المتباينة من الحر والبرد والبلة والجمود) ثم إنه عليه السلام يبيّن طبيعة هذا الإنسان وإنه مركب من أمور متعددة مختلفة، جعله مركباً من شحم أبيض ولحم أحمر وشعر أسود وعظام قاسية ومواد رخوة كما جعله مركباً من أمور مؤتلفة متفقة ينسجم بعضها مع بعض وتلتقي في وحدة متكاملة كالأسنان والعظام والجلد واللحم، وكما جعله مجمعاً للأمور

المتضادة المتعادية فجعل فيه الحرارة والبرودة فداخله حار وخارجه بارد نسبة إلى الداخل كما جعل فيه الرطوبة واليبوسة هذا إذا حمل المعنى على المعنى المادي وأما إذا قصد به الأمور المعنوية فإن الإنسان مركب من أمور متباينة مختلفة فهو يحمل الفرح والحزن والحب والبغض والإيثار والاستئثار ويحمل الخوف والشجاعة وهكذا . .

(واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له والخنوع لتكرمته فقال سبحانه: اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس إعترته الحمية وغلبت عليه الشقوة وتعزز بخلقة النار واستوهن خلق الصلصال) عهد الله إلى الملائكة أنه سيخلق آدم واستفهمت يومها بقولها: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وأجابهم الله بقوله: **﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾** وقدم لهم أنه إذا خلقه لا بد لهم من السجود له فعندما خلقه طلب منهم أن يؤدوا الوديعة التي عهدها إليهم من الخضوع والخشوع والسجود تكريماً لآدم وامتثالاً لأمر الله بقوله لهم: **﴿اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس﴾** فإنه المخلوق العاصي المتمرد الذي احتج على السجود ورفض أمر المعبود. . . لقد أخذته الانفة وسنّها لمن بعده فأصبح صاحب مدرسة يخرّج منها القوافل والقادة وغلب عليه الشقاء فخسر السعادة، إنه رأى نفسه متعالية متكبرة رآها أعظم من آدم حيث أعظم خلق النار وحقرّ خلق الصلصال الذي هو الطين الذي خلق منه آدم قال تعالى حاكياً مقولته مفضلاً نفسه على آدم مبيناً علة ذلك **﴿أنا خير منه خلقتني من نار[(١)] وخلقته من طين﴾** . .

(فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخطة واستتماماً للبلية وإنجازاً للعدة فقال: ﴿إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ .

بعد أن رفض إبليس السجود لآدم وتمرد على أمر الله إستحق غضبه وعقابه ولما عرف ذلك المصير وتلك النهاية التعيسة التي سيصل إليها طلب من الله أن يمهله ويؤخر أخذه وعذابه قائلاً للباري **﴿فانظرني إلى[(٢)] يوم يبعثون﴾** فاستجاب الله له فقال له: **﴿إنك من المنظرين - الممهلين - إلى يوم الوقت المعلوم - يوم القيامة﴾** وإنما كان ذلك لكي يستحق العقاب والعذاب ويكون الامتحان كاملاً تاماً إنه عذاب يفوق عذاب جميع المتمردين والعاصين. . .

(ثم أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه وآمن فيها محلته وحذره إبليس

---

(١) سورة الأعراف، آية/ ١٢ .

(٢) سورة الحجر، آية/ ٣٦.

وعداوته) وبعد أن خلق الله آدم أسكنه الجنة وجعل حياته فيها طيبة هانئة كريمة كما قال تعالى: ﴿**وقلنا**[١] **يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما**﴾، ومضافاً إلى هذه الجهة ازداد عليه تفضلاً حينما حذره من إبليس وإغوائه ونهاه عن إطاعته وخوفه عداوته المتملكة من نفسه لئلا يضله حيث قال لآدم: ﴿**فقلنا يا آدم**[٢] **إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى**. . ﴾. .

(فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار فباع اليقين بشكه والعزيمة بوهنه واستبدل بالجذل وجلا وبالاغترار ندماً) وبعد هذا التحذير الشديد والتنبيه الأكيد. . وبعد الإنذار والتخويف لآدم من إبليس وقع آدم ضحية المفاجأة التي أخذها إبليس عليه. . عز على إبليس أن يكون آدم في دار النعيم مقيماً دائماً في خير دار فدخل عليه واقتحم الأسوار المنيعة التي ضربها الله عليه من حيث تحذيره له أن لا يركن إليه، ولكن إبليس حلف لآدم أنه يدّله على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكل منها في ساعة الغفلة فراح اليقين منه بالشك الذي وسوسه إليه إبليس وبهذا الإغواء تغيرت الأمور وتبدلت فانقلب الفرح والسرور الذي في الجنة إلى خوف وحزن في دار الدنيا وانقلب هذا الاغترار الذي غره به إبليس حسرة وندماً وألماً. .

(ثم بسط الله سبحانه له في توبته ولقاه كلمة رحمته ووعده المرد إلى جنته وأهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية) بعد أن ارتكب آدم خلاف الأولى أدرك موقعه فتدارك ذلك بالتوبة وندم على فعله وعرف أن الشيطان قد غرّه فعاد إلى الله فعاد الله عليه بالتوبة كما قال تعالى: ﴿**فتلقى آدم**[٣] **من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم**﴾ ثم وعده بأنه سيعود إلى الجنة.

وذكر الإمام أن آدم بعد أن فعل فعلته أنزله الله إلى الأرض وجعلها دار البلاء والاختبار فالمطيع إلى الجنة والعاصي إلى النار وجعلها محل أولاد آدم وذريته.



(١) سورة البقرة، آية/ ٣٥.
(٢) سورة طه، آية/ ١١٧.
(٣) سورة البقرة، آية/ ٢٧.

اختيـار الانبيـاء

وَٱصْطَفَىٰ سُبْحَانَهُ مِنَ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى ٱلْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ(٢)، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ(٣) أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ(٤) أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ الله إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ، وَٱتَّخَذُوا ٱلأَنْدَادَ(٥) مَعَهُ، وَٱجْتَالَتْهُمُ(٦) الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَٱقْتَطَعَتْهُمْ(٧) عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ(٨) إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ(٩) مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا(١٠) لَهُمْ دَفَائِنَ(١١) ٱلْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ ٱلْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهَادٍ(١٢) تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعَايِشَ(١٣) تُحْيِيهِمْ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ(١٤) تُهْرِمُهُمْ(١٥)، وَأَحْدَاثٍ(١٦) تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ؛ وَلَمْ يُخْلِ(١٧) ٱللّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ(١٨) لاَزِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ(١٩) قَائِمَةٍ: رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَلاَ كَثْرَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ: مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرٍ(٢٠) عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ: عَلَى ذٰلِكَ نَسَلَتِ(٢١) ٱلْقُرُونُ، وَمَضَتِ الدُّهُورُ، وَسَلَفَتِ(٢٢) ٱلآبَاءُ، وَخَلَفَتِ ٱلأَبْنَاءُ.

اللغة

١ ـ اصطفى : استخلص

٢ ـ ميثاقهم : من الميثاق وهو العهد.

٣ ـ بلّغ الرسالة : أداها وأوصلها.

٤ ـ بدّل : غيّر.

٥ ـ الأنداد : الأمثال والأشباه.

٦ ـ اجتالتهم : أدارتهم، صرّفتهم. .

٧ ـ اقتطعتهم : فصلتهم ومنعتهم.

٨ ـ واتر : تابع واحداً بعد واحد.

٩ ـ ليستأدوهم : ليطلبوا منهم الأداء.

١٠ ـ يثيروا	:	يحركوا ويفكروا.
١١ ـ دفائن	:	الأرض ما اختفى فيها ودُفن واستتر.
١٢ ـ مهاد	:	فراش ومنه المهد لفراش الصبي الصغير.
١٣ ـ معايش	:	جمع معاش ما يعاش به من المطعم والمشرب.
١٤ ـ أوصاب	:	متاعب، أمراض.
١٥ ـ تهرمهم	:	من الهرم وهو الكبر في العمر، الضعف.
١٦ ـ أحداث	:	وهي الأمور الجديدة، النوائب والمصائب.
١٧ ـ يخلي	:	من خلا الإناء إذا فرغ وهنا لم يترك عباده بدون رسل.
١٨ ـ حجة	:	الحجة بالضم ما يحج به الإنسان غيره أي يغلبه به.
١٩ ـ محجة	:	المحجة: الطريق الواضح.
٢٠ ـ غابر	:	الغابر هو الباقي، والماضي وهو من الأضداد.
٢١ ـ نسلت	:	مضت متتابعة.
٢٢ ـ سلفت	:	تقدمت.

الشرح

(واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم) بعد أن هبط آدم إلى الأرض وتكاثرت ذريته دب الفساد والانحراف فيهم فاحتاج الأمر في إصلاحهم إلى الأنبياء فمنٍ هنا اختار الله سبحانه من خلقه أصفى بريته لكمالهم وطهارتهم وعفة أنفسهم.. فقد اطّلع سبحانه ـ وهو العالم بهم ـ على ذرية آدم فوجد بعض النفوس في قمة الكمال فاختارهم أنبياء إلى خلقه أخذ عليهم العهود أن يؤدوا الوحي المنزل عليهم إلى الناس بكماله وتمامه في الأصول والفروع كما أخذ أمانتهم على أن ينشروا الرسالة بين الناس ويبلغوها كما هي.

وقد بيّن عليه السلام سبب إرسال الرسل وعلة بعث الأنبياء بقوله:

(لمّا بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه واتخذوا الأنداد معه واجتالتهم الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته) غيّر الناس عهدهم الذي قطعوه على أنفسهم وهو ما فطر الله الناس عليه المشار إليه بقوله تعالى: **﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم[1] وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا: بلى...﴾**.

---

(١) سورة الأعراف، آية/ ١٧٢.

فحق الله أن يؤمنوا به ولا يشركوا به شيئاً ولكن الشياطين أضلتهم وحرفتهم عن ذلك فجهلوا حقه بعد المعرفة. . وكفروا به بعد أن أقروا واعترفوا. . وجعلوا له أشباهاً ونظراء تصوروه كما شاؤا وكما تخيلوا وصرفتهم الشياطين عن معرفته الحقيقية ومالت بهم عن الإيمان الصحيح وصرفتهم عن عبادته إلى عبادة غيره من أصنام وأوثان وميول وأهواء وقد تفنن هذا الإنسان في الانحراف حتى بلغ به الإسفاف إلى عبادة البقر بل إلى أحط من ذلك وأحقر. .

(فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول ويروهم آيات المقدرة) وهذه علة بعث الرسل عندما انتشر الفساد وضل الناس أرسل الله لهم رسله وجعلهم واحداً إثر واحد تتصل دعوتهم وتقوم حجتهم كما قال تعالى: **﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء[١] أمة رسولها كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾** ومهمة الرسل ودعوتهم ليجعلوا الناس يؤدون عهد الفطرة الذي أعطوه لربهم من الإيمان به والتوجه إليه ويذكروهم ما نسوا من نعمه التي لا تعد ولا تحصى فإن الإنسان ينسى بل يبطر ويكفر بالنعمة فيأتي الرسل ليعيدوا هذا الإنسان إلى رشده ويذكروه ما نسي من نعمة الله وكذلك من أسباب بعث الرسل أن تصل الحجة إلى الناس ويعرف كل واحد تكليفه الواجب عليه القيام به فلا يكون له عذر يوم القيامة إن قصّر في الأداء ورفض الأمر وتمرد على الحكم وكما قال تعالى: **﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي[٢] عن بينة﴾**.

وكذلك من أسباب بعث الرسل إثارة ما أودعه الله في عقول بني آدم فإن الأنبياء كانوا يحركون عقول الناس ويطلقونها من عقالها، كانوا يقولون للناس فكروا في خلق السموات والأرض وفكروا في أنفسكم. . . فكروا في مخلوقات الله وفي تركيبها ودقة صنعها. . . فكروا بعقولكم وليس بعقول غيركم وعاداتهم وتقاليدهم. فإنه يُدرَكُ أنه لا بد لكل معلول من علة ولكل حادث من محدث ولكل مسبب من سبب وهذا قانون يدركه العقل بالبداهة والفطرة أودع الله فيه ذلك ليستدل من خلاله على وجود سبب أول للعالم هو الخالق له والموجد لكل ما فيه ولذا لم يأت نبي يقول للناس عطلوا عقولكم ثم اتبعوني بل قال لهم: **«إنما يتذكر[١] أولو الألباب»** قال لهم: من لا عقل له لا دين له. . . .

---

(١) سورة المؤمنون، آية/ ٤٤.
(٢) سورة الأنفال، آية/ ٤٢.
(٣) سورة الرعد، آية/ ١٩.

وكذلك كانت بعثة الأنبياء من أجل أن يبصر الناس علامات القدرة الإلهية التي تتجسد في خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما فإن الإنسان يرى كل هذه الآيات وهي تحت نظره ولكنه يغفل عن التفكر فيها وعن عظيم دقـة صنعها. . ثم ذكر ست آيات من آيات عظمة قدرته . .

(**من سقف فوقهم مرفوع**) وهذه أولى الآيات، . . إنها هذه السماء التي نراها وهي فوقنا بما فيها من كواكب وسيارات ونجوم . . إنها مرفوعة فوقنا لا يمسكها إلا الله بحسب ما وضع لها من قوانين ونظم وقد أقسم الله بقوله: ﴿**والسقف المرفوع**[1]﴾ .

(**ومهاد تحتهم موضوع**) وهذه ثانية الآيات وسميت الأرض مهاداً لأنها صالحة لاستقرار الإنسان عليها فهي مبسوطة بشكل تقبل أن يعيش الإنسان عليها ويستمر في حياته فيها وقد منّ الله على الإنسان بهذه النعمة في قوله: ﴿**ألم نجعل**[2] **الأرض مهاداً**﴾ .

(**ومعايش تحييهم**) وهذه ثالثة الآيات إنها أرزاق العباد وما به قوامهم واستمراريتهم بما خلق الله لهم من خضار وفواكه ونعم وخيرات. . إن الله وفر لهذا الإنسان مادة حياته وبقائه بما أعطاه من حبوب وثمار وهداه إليها ووفرها له. . .

(**وآجال تفنيهم**) وهذه رابعة الآيات. . إذا نظر الإنسان إليها إعتبر واتعظ، فإن هذا العمر إذا انتهى مات الإنسان. . فأيامه معدودة وأوقاته محدودة متى استوفاها توفاه الله ونقله من عالم إلى آخر وكم في هذه من العبرة وبما أن هذا الإنسان سيصل إلى أجله فليعد العدة له.

(**وأوصاب تهرمهم**) وهذه خامسة الآيات وهي ما ينتاب هذا الإنسان من الأتعاب والآلام والأمراض وما أكثرها وأي إنسان لا يمرض وأي إنسان لا يتعب أو لا يمر في حالة من الألم. . إنها كلها تزيل شباب الإنسان وتدنو به من الهاوية. .

(**وأحداث تتابع عليهم**) وأحداث الدهر ومصائبه كثيرة وفي المثل العامي «مصائب الدهر أكثر من نبات الأرض» وأي بيت لم تدخله التعاسة وأي إنسان لم يمر في حادثة بل أحداث تشوش عليه أفكاره وتنغصّ عليه حياته. إنها متوالية. . متتالية منذ أول ولادته وإلى خاتمة حياته ولد في شدة ويموت في شدة ويحيا فيما بين الولادة والوفاة في شدائد متتابعة.

---

(١) سورة الطور، آية/ ٥.
(٢) سورة النبأ، آية/ ٦.

(ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبيٍ مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة) سبقت الهداية الناس فكان آدم نبياً ولم يكن معه أحد ثم كثرت ذريته واستمرت الحجة قائمة إلى يومنا هذا، فتارة تكون الحجةُ نبياً يرسله الله ويبعثه إلى الخلق يهديهم ويعلمهم ويرشدهم ويوجههم نحو الخير وأخرى تكون كتاباً منزلاً من السماء كما لو مات النبي وبقي الكتاب بين أيدي أتباعه فإنه حجة عليهم ونور يهديهم إلى مستقيم الطريق. .

أو يكون هناك حجة لازمة وقد فسرها بعضهم بالعقل فإنه لازم لهذا الإنسان يوضح له السبيل ويهديه إلى الله. . وقد فسره المحققون بأنه الإمام الذي لا يخلو منه زمان وبهذا وردت الأخبار بل تواترت.

ففي الحديث عن أبي جعفر قال: والله[1] ما ترك الله أرضاً منذ قبض الله آدم إلا فيها إمام يهتدى به إلى الله وهو حجة على عباده ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده. . أو تكون الحجة سنّة واضحة دلّ عليها الأنبياء وتمسك بها بعض الحنفاء وهي المحجة القائمة. . .

(رسل لا تقصّر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم) بل أن الأنبياء على قلتهم نسبة إلى البشر فإنهم كافون في البلاغ وافون في البيان، إنهم على قلتهم مشاعل في طريق الهداية ومنارات يهدون الناس إلى الخير ومهما كذبهم المكذبون فإنهم عاجزون عن إطفاء نورهم وقاصرون عن إخماد شوكتهم. . . وما المكذبون لهم إلا شهود زور يفضحهم الواقع وتفضحهم الحقيقة، فإنهم يسقطون وينتصر الرسل وتنتشر دعوتهم ويؤمن بها الناس. . .

(من سابق سمي له مَنْ بعده أو غابر عرفه من قبله على ذلك نسلت القرون ومضت الدهور وسلفت الآباء وخلفت الأبناء) وهذه طريقة الله وسنته فإنه سبحانه عندما يرسل رسولاً وتنتهي مدته كان يسمي له من يأتي من بعده كما هي قصة عيسى مع نبينا عليه السلام حيث كان يبشر به ويعطي لأتباعه علامات ظهوره وقد كان اليهود يترقبون طلعته ويوعدون به من يعاديهم فكان الله هو الذي يتولى تعريف النبي اللاحق وقد يكون النبي حاضراً وقد بشر به من تقدم عليه وعلى هذه الطريقة من حيث أن الأرض لا تخلو من حجة؛ انقضت القرون ومضت الأزمان والدهور وعليه مضى السلف وانقضت أيامهم وعلى هذا جاءت من بعدهم الأبناء فالسيرة واحدة في الآباء والأبناء والحجة قائمة على الجميع. . .

---

(١) الكافي.

مبعث النبي

إِلَى أَنْ بَعَثَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ ٱللّٰه صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لإِنْجَازِ[١] عِدَتِهِ[٢]، وَإِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ، مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ[٣]، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ[٤]، كَرِيماً مِيلادُهُ. وَأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ[٥] مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرَائِقُ[٦] مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلّٰهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ[٧] في ٱسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ[٨] بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ. ثُمَّ ٱخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ[٩] عَنْ مَقَامِ ٱلْبَلْوَى[١٠]، فَقَبَضَهُ[١١] إِلَيْهِ كَرِيماً صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ ٱلأَنْبِيَاءُ في أُمَمِها، إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً[١٢]، بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ، وَلاَ عَلَمٍ قَائِمٍ.

اللغة

١ ـ أنجز الأمر	:	أتمه وأكمله.
٢ ـ العدة	:	الوعد.
٣ ـ الميثاق	:	العهد.
٤ ـ السمات	:	جمع السمة وهي العلامة.
٥ ـ الملل	:	جمع ملة الشريعة والدين.
٦ ـ طرائق	:	مفردة طريقة وهي السيرة، المذهب.
٧ ـ ملحد	:	الذي يعدل عن الطريق المستقيم.
٨ ـ أنقذه	:	نجاه وخلصّه.
٩ ـ رغب به	:	أراده ومال إليه وإذا عدى بعن فقيل رغب عنه يعني أعرض عنه.
١٠ ـ البلوى	:	البلاء.
١١ ـ قبضه	:	أخذه بقبضة يده، تسلمه.
١٢ ـ تركه هملاً	:	الهمل الذي لا راعي له ولا مدبر لشؤونه. .

الشرح

(إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله ﷺ لإنجاز عدته وإتمام نبوته مأخوذاً على النبيين ميثاقه مشهورة سماته كريماً ميلاده) وهكذا بقيت الحال والأنبياء تترى لهداية الناس وإرشادهم وتسديد مسيرتهم إلى أن منَّ الله على البشرية ببعثة رسول الله ﷺ فكان تحقيقاً لما وعد الله به من أنه سيرسل رسولاً إلى الناس يهديهم السبيل وهو أفضل الرسل وأقربهم إليه وتكون نبوته تامة كاملة مهيمنة على كل النبوات يجب على كل الناس اتباعه والتدين بدينه والتزام شريعته وقد أخذ الله على النبيين عهده أن يبشروا به ويهيئوا لظهوره حتى إذا جاء استقبلته البشرية بشوق ولهفة وفي الحديث عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: لم يبعث الله نبياً آدم ومن بعده إلا أخذ عليه العهد لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره بأن أخذ العهد بذلك على قوله..

وقد بين الله في الكتب المتقدمة علامات النبي وصفاته المشهورة بحيث لا تخفي أوصافه على أحد كما قال تعالى: ﴿**الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه**[1] **مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**﴾.

وكان مولد رسول الله أشرف مولد؛ وأكرم ساعة كانت تلك الساعات التي ولد فيها رسول الله الذي حطّم الأصنام وأقام العدل وقَلبَ موازين العالم بأسرها وبناها على أسس سليمة وموازين صحيحة..

(وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة وأهواء منتشرة وطرائق متشتتة) عندما بعث الله نبيه كانت البشرية تعيش الفوضى على كل المستويات وفي جميع شؤون الحياة، كانوا على أديان شتى موزعة مختلفة فيما بينها.. كان هناك يهود لا يعترفون بالنصارى وهناك نصارى يكفرون باليهودية وهناك مجوس وصابئة؛ وكانوا في أهواء موزعة كل يعبد ما يراه مفيداً له ونافعاً حتى الحجر يعبدونه ويقدسونه فإذا احتاجوا إليه وضعُوه تحت قدرهم ليطبخوا طعامهم.. إنهم كانوا أصحاب مذاهب شتى لا يربطهم رباط ولا يجمعهم جامع يوحدهم... وقد بين بعض تلك الانحرافات بقوله:

(بين مشبه لله بخلقه أو ملحد في اسمه أو مشير إلى غيره) فهناك المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه كما هو الحال في النصارى الذين شبهوه بعيسى ضلالاً وانحرافاً وهناك من ألحد في اسمه أي عدل عن طريق الصواب في تسمية الله واصفاً إياه بغير وصفه

(١) سورة الأعراف، آية/ ١٥٧.

الحقيقي كما هو الحال من جعل له ولداً وجعله أباً.

ومنهم من أطلق لفظ الله وأشار به إلى غيره فيطلق لفظة الله ويريد بعض مخلوقاته كما هي الحال عند بعض الكفار.. وفي هذا الجو من الاختلاف والانحراف بعث الله محمداً.

(فهداهم به من الضلالة وأنقذهم بمكانه من الجهالة) فقد كانت البشرية تعيش ضالة منحرفة لا تعرف ربها ولا تعرف ما يريد بها ومنها... تعيش الكفر والبعد عن كل نافع ومفيد... كان القوي يأكل الضعيف والكبير يظلم الصغير والجور يخنق العدل فبعث الله محمداً فهداهم إلى الحق والعدل وارتفع الظلم وعمّ العدل وأنقذهم بوجوده من الجهل إلى نور المعرفة والإيمان..

(ثم اختار سبحانه لمحمد ﷺ لقاءه ورضي له ما عنده وأكرمه عن دار الدنيا ورغب به عن مقام البلوى فقبضه إليه كريماً ﷺ) بعد جهاد مرير وتعب وكفاح.. وبعد أن بلّغ الناس رسالة الله وأدى إليهم ما أراد سبحانه اختار له لقاءه فقد اختار النبي ما اختار الله له من قربه وجواره ولذا كان رسول الله عند الوفاة بعد أن خُيّر بين الدنيا وما فيها وبين لقاء الله اختار لقاء ربه لأن المحب اشتاق إلى حبيبه وقد رضي الله له ما عنده من الثواب والنعيم والقرب وأكرمه عن دار الدنيا الدنية وما فيها من شوائب ونواقص وما تتضمن من أحداث ومشاكل وأراد أن يبعده عن دار الابتلاء والاختبار فقبضه الله إليه كريماً لم تدنسه الدنيا ولم تغيّر من نفسيته الطاهرة شيئاً بل جاء إلى الحياة فشرفها.

(وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح ولا علم قائم) وهذه طريقة الأنبياء وسيرتهم ولم يختلف عنهم محمد ولم يخالفهم فيها.. إن الأنبياء يتركون بعدهم في أممهم وشعوبهم ما يمنعهم من الفرقة والتشتت ومن التنازع والاختلاف.. إنهم يجعلون لهم جُنناً واقية من الانهيار والانحراف فكانت الكتب وكان الأوصياء ورسول الله قد وضع لأمته معالم النجاح وقوارب النجاة.. لقد رسم لهم الدرب وبيّن لهم طريق الرشد وهداهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم وقال في الحديث المتواتر المتسالم على صحته: «تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي.. كتاب الله وعترتي أهل بيتي.. وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض..».

وقد نص على ولاة الأمر من بعده وعيّنهم بأسمائهم وأسماء آبائهم فكانوا أئمة أهل البيت لا تخلو منهم الأرض وهم الحجج على الخلق وبهم ينزل الله المطر وبهم يقام الحق والعدل ولكن بسفه الأمة وظلمها لنفسها تنكبت عنهم وانحرفت إلى غيرهم فكان الظلم وكان الضلال وما وصلنا إليه من تأخر وتقهقر..

القرآن والاحكام الشرعية

كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ: مُبَيِّناً حَلاَلَهُ[١] وَحَرَامَهُ[٢]، وَفَرَائِضَهُ[٣] وَفَضَائِلَهُ، وَنَاسِخَهُ[٤] وَمَنْسُوخَهُ، وَرُخَصَهُ[٥] وَعَزَائِمَهُ[٦]، وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ، وَعِبَرَهُ[٧] وَأَمْثَالَهُ، وَمُرْسَلَهُ[٨] وَمَحْدُودَهُ، وَمُحْكَمَهُ[٩] وَمُتَشَابِهَهُ[١٠]، مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ[١١]، وَمُبَيِّناً غَوَامِضَهُ[١٢]، بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ، وَمُوَسَّعٍ عَلَى ٱلْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ، وَبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي ٱلْكِتَابِ فَرْضُهُ، وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ، وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ، وَمُرَخَّصٍ فِي ٱلْكِتَابِ تَرْكُهُ، وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ، وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ. وَمُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ، مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ[١٣] غُفْرَانَهُ، وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ، مُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ.

اللغة

١ ـ الحلال : الجائز فعله.

٢ ـ الحرام : الممنوع، الذي لا يجوز فعله.

٣ ـ الفرائض : الواجبات.

٤ ـ الناسخ : النسخ هو الإزالة لما كان ثابتاً.

٥ ـ الرخصة : التخفيف والتسهيل.

٦ ـ العزائم : جمع عزيمة وهي الفريضة.

٧ ـ عِبَر : مفرده عبرة وهي العظة.

٨ ـ المرسل : المطلق وهو ضد المقيّد.

٩ ـ المحكم : الذي لا يقبل من اللفظ إلا معنى واحداً واضحاً.

١٠ ـ المتشابه : خلاف المحكم ما احتمل فيه أكثر من معنى.

١١ ـ المجمل : ما لم تتضح دلالته.

١٢ ـ الغوامض : المبهمات يقال غمض الكلام إذا خفي مأخذه ومعناه.

١٣ ـ أرصد له : أعد له.

الشرح

(كتاب ربكم فيكم مبيناً حلاله وحرامه وفرائضه وفضائله) وهذا مما تركه النبي، ترك الثقلين العترة والكتاب وقد أوصى بهما كثيراً وأمر بالتمسك بهما فألزموا كتاب الله فقد بيّن صلوات الله عليه حلاله من حرامه.. أحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث وبين لنا فرائضه من ميراث وحدود وديات.. وفضائله من حيث أجر من يقرأه ويتلوه ويحفظه ويعلّمه ويتعلمه.

(وناسخه ومنسوخه) فهناك آيات جاءت لوقت محدود كانت صلاحيتها في هذه المدة ثم ارتفع حكمها وبطل مفعولها فقد أنزل الله قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا[1] إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يديّ نجواكم صدقة﴾** ولم يعمل بها غير علي ثم خفف الله عن الأمة فرفعها عنهم وأصبح من يريد الحديث معه يستطيع ذلك بدون أن يتصدق..

(ورخصه وعزائمه) فقد بيّن صلوات الله عليه موارد يجوز للمكلف أن يرتكبها في حال الاضطرار كأكل الميتة وشرب النجس كما بيّن العزائم التي لا يجوز ارتكابها تحت أي عذر أو مبرر كحرمة قتل المؤمن التي لا يسمح بها الشارع بحال..

(وخاصه وعامه) والخاص هو الخطاب الذي تناول بعض الجزئيات كالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهناك خطاب عام كقوله كل من عليها فانٍ..

(وعبره وأمثاله) والعبر هي التي فيها عظة كما هو الحال في نقل أخبار الأمم السالفة من عاد وثمود وما نال العصاة مثل فرعون وقارون وكيف أخذهم الله جميعاً ليعتبر المؤمن بهم ويحذر من بطش الله وانتقامه.

وأما أمثاله تعالى فقد ضربها ترغيباً وتحذيراً كما في قوله تعالى: **﴿مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة أنبتت[2] سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾**. وكقوله: **﴿ضرب الله مثلاً فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا[3] ذباباً ولو اجتمعوا له وأن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب..﴾**.

---

(١) سورة المجادلة، آية/ ١٢.

(٢) سورة البقرة، آية/ ٢٦١.

(٣) سورة الحج، آية/ ٧٣.

(ومرسله ومحدوده) وكذلك توضحت الأوامر المرسلة كما في قوله تعالى: **﴿أحلّ الله البيع﴾** فهو مطلق من جميع القيود وأما المحدود فهو المقيد بقيود تحدده وتمنع إرساله كما في قوله تعالى: **﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾** فإن الرقبة مقيدة بالإيمان. .

(ومحكمه ومتشابهه) والمحكم هو الذي لا يحتمل إلا معنى واحداً ظاهراً بيناً كما في قوله تعالى: **﴿قل هو الله أحد﴾** فهو محكم في وحدانية الله.

وأما المتشابه فهو الذي يحتمل فيه اللفظ أكثر من معنى كما في لفظ اليد في قوله: **﴿السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾** من حيث أن اليد تطلق ويراد بها الأصابع وتطلق ويراد بها من الأصابع إلى الزندين وثالثة تطلق ويراد بها من الأصابع إلى المرفقين.

(مفسراً مجمله ومبيناً غوامضه) فقد فسر صلوات الله عليه المجمل ـ وهو ما لم تتضح دلالته كما في القرء المردد بين الطهر والحيض.

ومبيناً غوامضه فما هو غامض لم يتضح معناه قد بينه النبي وأوضحه للناس.

(بين مأخوذ ميثاق علمه وموسع على العباد في جهله) ففي الكتاب أمور لا يجوز جهلها بل لا بد من معرفتها قد أخذ الله على الناس العهد أن يعلموها كما هو الحال في العقائد المتضمنة لأصول الدين فإن على كل واحد أن يعرف ربه فيوحده ولا يشرك به شيئاً ويعبده ويتوجه إليه ومن الأمور ما لا يجب على العباد معرفته فلو جهلوه لا يسألهم الله عنه كبعض صفات الباري وخصوصيات بعض الصفات وكيفياتها مما لا يهتدي إليها إلا العباقرة والفلاسفة وأهل الفكر والبحث. .

(وبين مثبت في الكتاب فرضه ومعلوم في السنة نسخه وواجب في السنة أخذه ومرخص في الكتاب تركه) وهذه إشارة بل بيان واضح إلى أن السنة يمكن أن تنسخ الكتاب والكتاب يمكن أن ينسخ السنة وقد أشار إلى أنه ربما ورد الحكم في الكتاب وهو حكم إلزامي ومع ذلك تأتي السنة فترفعه وقد تأتي السنة بحكم إلزامي فيرد القرآن بآية ترفع حكم ما شرعته السنة. . .

(وبين واجب في وقته وزائل في مستقبله) فهناك تكاليف تجب في أوقاتها وتزول بعد زوال وقتها كما هو الحال في صيام شهر رمضان فهو واجب في هذا الشهر فإذا انسلخ الشهر فات الشهر ولم يعد واجباً.

(ومباين بين محارمه من كبير أوعد عليه نيرانه أو صغير أرصد له غفرانه وبين مقبول في أدناه موسع في أقصاه) وذكر صلوات الله عليه أن ما حرمه الله في كتابه مختلف متنوع

فهناك حرام جرمه عظيم وهو خطير وهو ما أعد الله عليه النار كالزنا وقتل النفس المحترمة ومنه ما هو ذنب صغير يغفره الله له ولا يحاسبه عليه كما في الكلمة القاسية تصدر نحو إنسان بريء.. وبعض الأمور مقبولة في أقلها كما في صلاة الليل فإن بعضها مقبول وكلها غير مطلوبة وموسع في تركها وكذلك قراءة القرآن فقراءة قليلة مقبولة وترك القراءة بالكلية موسع فيه ولا إثم على تاركها.



ومنها في ذكر الحج

وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ ٱلْحَرَامِ، ٱلَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً[١] لِلأَنَامِ[٢]، يَرِدُونَهُ وُرُودَ[٣] ٱلأَنْعَامِ[٤]، وَيَأْلَهُونَ[٥] إِلَيْهِ وُلُوهَ ٱلْحَمَامِ، وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلاَمَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ[٧]، وَٱخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلاَئِكَتِهِ المُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ. يُحْرِزُونَ[٨] الأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ، جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلإِسْلامِ عَلَماً، وَلِلْعَائِذِينَ[٩] حَرَماً، فَرَضَ حَقَّهُ، وَأَوْجَبَ حَجَّهُ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ[١٠]، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

اللغة

١ ـ القبلة : الجهة، الكعبة المشرفة، يتوجه نحوها المصلي.

٢ ـ الأنام : الخلق.

٣ ـ الورود : القدوم، ورد الماء صار إليه وهو خلاف الصدور.

٤ ـ الأنعام : الإبل وتطلق على البقر والغنم وسميت بذلك لما فيها من الخير والنعمة.

٥ ـ يألهون	:	من الوله وهي شدة الوجد.
٦ ـ الإذعان	:	الإقرار والانقياد.
٧ ـ العزة	:	الغلبة، والعز خلاف الذل.
٨ ـ يحرزون	:	يصيبون، النصيب.
٩ ـ العائذين	:	جمع عائذ المستجير والمعتصم.
١٠ ـ الوفادة	:	القدوم والورود طلباً للفضل.

الشرح

(وفرض عليكم حج بيته الحرام) والحج من أعظم فرائض الله وقد استجمع بذل المال وتعب الأبدان وقد أجمعت الأمة على وجوبه ومن أنكر ذلك فقد كفر ومن أخره عن وقته بدون عذر شرعي فقد فسق وقد دل على وجوبه قوله تعالى: **﴿ولله على الناس حج البيت من[1] استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾** وقال الصادق عليه السلام: من مات ولم يحج[2] حجة الإسلام لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه فليمت يهودياً أو نصرانياً. وعن الإمام علي بن الحسين: حجوا واعتمروا تصح أبدانكم وتتسع[3] أرزاقكم وتكفون مؤنات عيالاتكم وقال: الحاج مغفور له وموجوب له الجنة ومستأنف له العمل ومحفوظ في أهله وماله..

فمن أجتمعت فيه الشرائط من القدرة المالية والبدنية ولم يكن له مانع من سلطان جور يجب عليه أن يحج..

(الذي جعله قبلة للأنام) وصفه عليه السلام بهذه البركة التي شرّفه الله بها فإنه لكرامته عنده قد أوجب على كل مصلٍ أن يتوجه إليه في صلاته تشريفاً وتكريماً قال تعالى: **﴿قد نرى تقلب[4] وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِ وجهك شطر المسجد الحرام..﴾** فيجب التوجه إليه في الصلاة وفي الذبح وعند الاحتضار وغير ذلك..

---

(١) سورة آل عمران، آية/ ٩٧.

(٢ ـ ٣) الوسائل كتاب الحج باب ١ من أبواب وجوبه حديث ٧.

(٤) سورة البقرة، آية/ ١٤٤.

(يردونه ورود الأنعام ويألهون إليه ولوه الحمام) وهذه صورة واقعية ورسم إلهي فمن رأى حجاج بيت الله الحرام عندما يدخلون مكة يقف أمام صورة تدهش العقول. . إنهم جميعاً يتوجهون إلى بيت الله يتزاحمون للبركة منه والتزود من تلك البقاع المباركة ولو رأيتهم كيف يخشعون ويتضرعون ويبكون ويناجون ربهم بقلوب مملوءة بالحب له والرجاء لرأيت مشهداً عجيباً يضطرك لمشاركتهم ومماشاتهم قهراً عنك فصورة مادية ترسم وأخرى معنوية؛ الأولى ترسم الشكل والثانية ترسم المضمون ويلتقيان في وحدة تشكّل هذا الحاج المتنسك المتعبد. . إنهم كالأنعام تزدحم على مورد الشرب وهم في شوق إليه وحنين أشد من حنين الحمام لِألفه كناية عن شدة شوق المسلم إلى تلك الربوع وحنينه إليها. .

(وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته وإذعانهم لعزته) وهذا البيت الحرام جعله الله علامة يعرف به المطيع لله المتواضع لعظمته من العاصي الشقي المتكبر وهو ميزان الإقرار لله بالكبرياء ممن يتكبر على الله فإن من يخرج من بيته قاصداً ذلك البيت تاركاً أهله ووطنه وأولاده وأمواله متعرضاً للأخطار فإنّما يخرج تواضعاً لله وامتثال أمره وإقراراً بعزته وكبريائه. .

(واختار من خلقه سماعاً أجابوا إليه دعوته وصدقوا كلمته ووقفوا مواقف انبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه يحرزون الأرباح في متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته) في الرواية عن علي بن إبراهيم: ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت أمره الله أن يؤذّن في الناس بالحج فقال: يا رب وما يبلغ صوتي فقال: أذن عليك الآذان وعليّ البلاغ وارتفع على المقام وهو يومئذ ملصق بالبيت فارتفع به المقام حتى كان أطول من الجبال فنادى وأدخل إصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً يقول: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم فأجابوه من تحت البحور السبعة ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أطراف الأرض كلها من أصلاب الرجال ومن أرحام النساء بالتلبية «لبيك اللهم لبيك. . .».

وورد الأمر الإلهي إلى خليل الرحمن بقوله له: **﴿وأذّن في الناس[1] بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾** وقد استجاب لنداء الخليل قوم ولبوا دعوته وبادروا إلى امتثالها ووقفوا مواقف أنبيائه وقد تشرفت بحج بيت الله الحرام في سنة ١٩٧١ وقد كنت أعيش روحانية عظيمة شعرت وأنا في مكة كأن رسول الله

---

(١) سورة الحج، آية/ ٢٧.

يتحرك..، في كل حبة تراب حديث عن قصة النبي وجهاده وفي كل موقف عبرة واستحضار لمراحل الجهاد المحمدي..

وإن في تلك المواقف تشبيهاً بالملائكة الذين يطوفون بعرش الله ويكونون في تهليل وتكبير ودعاء وتسبيح.. إنهم يشبهون الملائكة بخشوعهم وخضوعهم وتوجههم إلى الله وانقطاعهم إليه.

إنهم يدركون الأرباح الكبيرة من خلال هذه التجارة العبادية وأي تجارة أعظم ربحاً من حاج يعود مغفور الذنوب مستور العيوب.. إن كل واحد يبادر إلى ما وعده الله من المغفرة لخطاياه وهو لسان جملة من الأحاديث التي تقول: إن من وقف في عرفة عاد كيوم ولدته أمه ـ أي غفرت سيئاته وتاب الله عليه..

(جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً وللعائذين حرماً فرض حقه وأوجب حجه وكتب عليكم وفادته فقال سبحانه: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) فهذا البيت بمثابة العَلَم الذي يهتدي به الضالون ويأمن من خلاله التائهون فهو علامة العز للإسلام والرفعة والعلو ومن دخله كان آمناً لا يجوز إخراجه منه أو إيذاءه فيه.

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام وقد سئل عن قول الله **﴿ومن دخله كان آمناً..﴾** قال من دخل الحرم مستجيراً به فهو آمن من سخط الله وما دخل من الوحش والطير كان آمناً من أن يهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم ومن هنا فقد فرض الله له حقاً وهو أن لا يهتك بأمر مشين بل يجب على الناس تعظيمه واحترامه وقد أوجب الله على الناس حجه وكتب عليهم زيارته فقال سبحانه **﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾**..

٢ ـ ومن خطبة له عليه السلام

بعد انصرافه من صفين

وفيها حال الناس قبل البعثة وصفة آل النبي ثم صفة قوم آخرين

أَحْمَدُهُ ٱسْتِتْمَاماً[١] لِنِعْمَتِهِ، وَٱسْتِسْلَاماً[٢] لِعِزَّتِهِ، وَٱسْتِعْصَاماً[٣] مِنْ مَعْصِيَتِهِ. وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً[٤] إِلَى كِفَايَتِهِ[٥]؛ إِنَّهُ لَا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ، وَلا يَئِلُ[٦] مَن عَادَاهُ، وَلَا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ؛ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ ما وُزِنَ، وَأَفْضَلُ مَا خُزِنَ[٧]. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلَاصُهَا، مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا[٨]، نَتَمَسَّكُ بها أَبَداً ما أَبْقانَا، وَنَدَّخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ[٩] مَا يَلْقَانَا، فَإِنَّها عَزِيمَةُ[١٠] الإِيمَانِ، وَفَاتِحَةُ الإِحْسَانِ، وَمَرْضَاةُ الرَّحْمٰنِ، وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ ٱلْمَشْهُورِ، وَٱلْعَلَمِ[١٢] ٱلْمَأْثُورِ[١٣]، وَٱلْكِتَابِ ٱلْمَسْطُورِ[١٤]، وَالنُّورِ السَّاطِعِ[١٥]، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَٱلْأَمْرِ الصَّادِعِ[١٦]، إِزَاحَةً[١٧] لِلشُّبُهَاتِ[١٨]، وَٱحْتِجَاجاً بِالبَيِّنَاتِ، وَتَحْذِيراً بِالآيَاتِ، وَتَخْوِيفاً بِالْمَثُلَاتِ[١٩]، وَالنَّاسُ في فِتَنٍ ٱنْجَذَمَ[٢٠] فِيها حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعْزَعَتْ[٢١] سَوَارِي[٢٢] الْيَقِينِ، وَٱخْتَلَفَ النَّجْرُ[٢٣]، وَتَشَتَّتَ ٱلأَمْرُ[٢٤]، وَضَاقَ ٱلْمَخْرَجُ، وَعَمِيَ ٱلْمَصْدَرُ، فَالْهُدَىٰ خَامِلٌ[٢٥]، وَالْعَمَىٰ شَامِلٌ. عُصِيَ الرَّحْمٰنُ، وَنُصِرَ الشَّيْطَانُ، وَخُذِلَ[٢٦] الإِيمَانُ، فَانْهَارَتْ[٢٧] دَعَائِمُهُ[٢٨]، وَتَنَكَّرَتْ[٢٩] مَعَالِمُهُ[٣٠]، وَدَرَسَتْ[٣١] سُبُلُهُ، وَعَفَتْ[٣٢] شُرُكُهُ[٣٣]. أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ[٣٤]، وَوَرَدُوا

مَنَاهِلَهُ[٣٥]، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلامُهُ، وَقَامَ لِوَاؤُهُ[٣٦]، في فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ[٣٧] بِأَخْفَافِهَا[٣٨]، وَوَطِئَتْهُمْ[٣٩] بِأَظْلَافِهَا[٤٠]، وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا[٤١]، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ[٤٢] حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ، في خَيْرِ دَار، وَشَرِّ جِيرَانٍ. نَوْمُهُمْ سُهُودٌ[٤٣]، وَكُحْلُهُمْ[٤٤] دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عَالِمها مُلْجَمٌ[٤٥]، وَجَاهِلُها مُكْرَمٌ.

اللغة

١ ـ الاستتمام : طلب التمام.
٢ ـ الاستسلام : الانقياد.
٣ ـ الاستعصام : طلباً للعصمة وهي المنعة.
٤ ـ الفاقة : الحاجة.
٥ ـ الكفاية : ما يحصل به الاستغناء عن غيره.
٦ ـ لا يئل : من وأل يئل نجا.
٧ ـ الخزن : الادخار.
٨ ـ المصاص : الخالص من كل شيء.
٩ ـ الأهاويل : الأمور المفزعة.
١٠ ـ العزيمة : العقيدة والجد والاجتهاد.
١١ ـ المدحرة : المبعدة والدحر هو الطرد والإبعاد.
١٢ ـ العلم : ما يهتدى به.
١٣ ـ المأثور : المختار، المنقول يقال حديث مأثور أي ينقله خلف عن سلف.
١٤ ـ المسطور : المكتوب.
١٥ ـ الساطع : اللامع.
١٦ ـ الصادع : من الصدع وهو الشق وهنا بمعنى الظاهر أو الحاكم.
١٧ ـ الإزاحة : الإزالة.
١٨ ـ الشبهات : جمع شبهة وسميت بذلك لأنها تشبه الحق.
١٩ ـ المثلات : العقوبات.
٢٠ ـ انجذم : انقطع.
٢١ ـ تزعزعت : يقال زعزعت الريح الشجر إذا حركته وتزعزع إذا تخلخل وتضعضع.
٢٢ ـ السواري : جمع سارية وهي الأسطوانة، العمود، الدعامة.

٢٣ ـ النجر : الأصل.
٢٤ ـ تشتت الأمر : توزع وافترق.
٢٥ ـ الخامل : الساقط من أعين الناس الذي لا ينتبه إليه.
٢٦ ـ خذله : ترك نصرته، ولم يعنه.
٢٧ ـ انهار السقف : سقط.
٢٨ ـ الدعائم : الأركان.
٢٩ ـ تنكر : تغيّر.
٣٠ ـ المعالم : مفردها معلم، ما يستدل به على الطريق.
٣١ ـ درست سبله : طمست، طرقه.
٣٢ ـ عفت : انطمست، واندرست.
٣٣ ـ شركة : طرقه جمع شراك الطريق.
٣٤ ـ سلك مسلكه : دخل مدخله.
٣٥ ـ المناهل : المشارب، وهو جمع منهل.
٣٦ ـ اللواء : جمع ألوية العلم وهو دون الراية.
٣٧ ـ داسه : من الدوس وهو الوطىء بالرجل.
٣٨ ـ الأخفاف : جمع خف وهو للبعير كالقدم للإنسان.
٣٩ ـ وطأ الشيء : داسه برجله.
٤٠ ـ الأظلاف : جمع ظلف بالكسر وهو للبقر والشاء وشبههما كالقدم للإنسان.
٤١ ـ السنابك : جمع سنبك طرف الحافر.
٤٢ ـ تائهون : جمع تائه وهو الضال.
٤٣ ـ السهود : والسهاد، قليل النوم، الأرق.
٤٤ ـ الكحل : الإثمد، وهو حجر يُطحن ويذر في العين لشفائها...
٤٥ ـ ملجم : من اللجام وهو ما يجعل في فم الفرس من الحديد يمنعها من العض ويساعد على ضبطها..

الشرح

(أحمده استتماماً لنعمته واستسلاماً لعزته واستعصاماً من معصيته واستعينه فاقة إلى كفايته).

الحمد لله:

الحمد ليس كلمة على الشفاه يتردد بدون معنى بل هو أعمق من ذلك إنه إقرار في

داخل النفس بعظمة الله وعطائه وبما أغدق على هذا الإنسان من الخيرات والبركات. . .

الحمد وقفة شكر لله أمام كل نعمة، وقفة اعتراف وإقرار بعجز هذا الإنسان عن أداء شكر الله. . .

١ ـ وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام وقد سأله محمد بن مروان عن أحب الأعمال إلى الله عز[١] وجل فقال: أن تحمده.

٢ ـ وفي الحديث أيضاً عن أبي عبد الله قال: من قال أربع مرات إذا أصبح: الحمد لله رب[٢] العالمين فقد أدى شكر يومه ومن قالها إذا أمسى فقد أدى شكر ليلته.

٣ ـ وفي الحديث عن أبي عبد الله قال: من[٣] قال الحمد لله كما هو أهله شغل كتّاب السماء.

قلت (الراوي): وكيف يشغل كتّاب السماء.

قال الإمام: يقولون اللهم إنا لا نعلم الغيب.

فيقول: إكتبوها كما قالها عبدي وعليّ ثوابها ويستحب حمد الله عند تكاثر النعم وظهورها.

٤ ـ في الحديث عن رسول الله قال: من تظاهرت عليه النعم[٤] فليكثر الحمد لله.

٥ ـ وفي الحديث الآخر عن رسول الله قال: لا إله[٥] إلا الله نصف الميزان والحمد لله يملؤه. .

مع كلامه الشريف:

أحمد الله طلباً لتمام نعمته فأنا أحمد الله حالة كوني أطلب نعمته بتمامها كاملة ومن جميع الجهات فالحمد يؤدي إلى زيادتها وتماميتها لقول الله تعالى: ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**[٦]﴾ وأحمده انقياداً لعظمته ومنعته فأنا أحمده من أجل ما هو فيه من المنعة والعزة خوفاً من عقابه. . وكذلك أحمده طالباً أن يمنعني من معصيته ويحجبني عن خطيئته.

(١ ـ ٢ ـ ٣) وسائل الشيعة كتاب الصلاة باب الدعاء.

(٤ ـ ٥) وسائل الشيعة كتاب الصلاة باب الدعاء.

(٦) سورة إبراهيم، آية/ ٧.

واستعينه وأنا الضعيف فأنا المحتاج حاجة شديدة وفقراً مدقعاً أستعينه فأنا بحاجة إلى عطاياه لا أستغني عن نواله ومنحه قال تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو[1] الغني الحميد﴾.

-(إنه لا يضل من هداه ولا يئل من عاداه ولا يفتقر من كفاه فإنه أرجح ما وزن وأفضل ما خزن) قال تعالى: ﴿ومن يهدي[2] الله فما له من مضلٍ أليس الله بعزيز ذي انتقام..﴾ فالهداية بيد الله وليس معنى أنها بيده أن يحمل الإنسان عليها قهراً عنه ويجبره على الهدى فإن ذلك مما يتنافى والتكليف وهو على مستوى حمله على المعصية في المنع والرفض بل هدايته سبحانه أن يفتح أمام الإنسان أبوابها ويرشده إليها ويوفر له سبلها كأن يخلقه من أبوين مسلمين ويوفر له تربية صحيحة على أيدي أهله ويريه بعين البصيرة منازل المهتدين ودرجاتهم فتُفتح له من خلال ذلك أبواب الهداية ونوافذ السعادة كما أن إضلاله تعالى لعبده إنما يكون إذا تخلى عنه وتركه وشأنه فإن الشيطان يستولي عليه ويسيطر على عقله ويحرفه نحو الشر والرذيلة...

ومن يهدي الله فلا مضل له فهو إذا تولى عبده هداه ولا يضل بعد هداه..

ـ ولا ينجو أبداً من عذاب الله من عاداه وكيف ينجو هذا المخلوق الضعيف الحقير من الرب العظيم الكبير؟! كيف يتخلص من عذاب الله إنسان ولا ملجأ له إلا هو ولا مهرب منه إلا إليه؟... وكل مخلوق ضعيف يكفيه همّ نفسه.

ـ ومن كفاه الله وأعطاه حاجته فلا يحتاج ولا يفتقر والله هو الغني المطلق متى يعطي فرداً فلا يصيبه الفقر أبداً.

قال الإمام زين العابدين في صحيفته السجادية: فمن حاول سدّ خلته من عندك ورام صرف الفقر عن نفسه بك فقد طلب حاجته في مظانها وأتى طلبته من وجهها ومن توجه بحاجته إلى أحد من خلقك أو جعله سبب نجحها دونك فقد تعرض للحرمان واستحق من عندك فوت الإحسان..

فإنه أرجح ما وُزن وأفضل ما خزن والضمير في «إنه» قالوا إنه يرجع إلى الله ومن اتخذ الله إلى جانبه ومعه فإنه الناجح في حياته والسعيد في آخرته.. وقالوا وهو الأرجح إنه راجع إلى الحمد الذي دل عليه الحمد في مطلع الخطبة وحمد الله أرجح شيء إذا

(١) سورة فاطر، آية/ ١٥.
(٢) سورة الزمر/ آية ٣٧.

وزن به وأفضل ما يدخره الإنسان لوقت حاجته.

(وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ممتحناً إخلاصها معتقداً مصاصها نتمسك بها أبداً ما أبقانا وندخرها لأهاويل ما يلقانا فإنها عزيمة الإيمان وفاتحة الإحسان ومرضاة الرحمن ومدحرة الشيطان) قرن الإمام شهادة أن لا إله إلا الله بحمد الله ونفي الشريك عنه لما في نفيه من التنزيه لله عن النقص والحاجة وقد أرادها منا أن تكون ذات مواصفات عالية بها يتحقق مضمونها وهذه المواصفات هي:

أولاً: أن تكون شهادة ممتحناً إخلاصها أي شهادة يتوافق فيها اللسان مع الجنان إختبر نفسه فيها فكانت النتيجة الاعتقاد بها خالصاً من الشرك والشك.

ثانياً: معتقداً مصاصها أي عاقداً قلبه على حقيقتها وعمقها وما تنطوي عليه فكان اللسان يحكي عما في الضمير الخالص..

ثالثاً: دعا إلى التمسك بها مدة بقائنا في الحياة فإن بها عز الدنيا وسعادتها، وما تمسك بها أحد في الدنيا إلا عاش عزيزاً كريماً حقق لنفسه وأمته أرفع درجات الكرامة وكذلك يعدّها إلى شدائد القيامة وعظائمها فإن في تلك الوقفات أموراً رهيبة وعقبات شديدة لا يزيلها أو يذللها إلا هذه الكلمة فإنها هي التي تفتح باب الجنة أمام طلابها وترفع العذاب والعقاب.. والمسلم تبقى كلمة لا إله إلا الله في قلبه وعلى لسانه طيلة بقائه في دار الدنيا وأيضاً هي عدته يوم القيامة وبها نجاته من النار...

رابعاً: فإن شهادة لا إله إلا الله هي عقيدة الإيمان وأساسه وكل الأمور الأخرى تتفرع عنها وتأتي بعدها وقد كانت هذه الكلمة تُدخل الناس في الإيمان وترفع عنهم السيف كما إن من رفضها ولم يقبلها كان في عداد الكفار ولاحقه سيف الإسلام أينما كان..

خامساً: إنها فاتحة الإحسان لأن الإنسان بمجرد أن ينطق بها دخل في جملة المؤمنين بالله وهذا يدفعه إلى البحث عن الرسول وهذا بنفسه يدخله في عالم الخير والبركة وكل ما فيه نفع لنفسه ولغيره..

سادساً: وهي أيضاً مرضاة للرحمن لأن فيها إقراراً بالله واعترافاً بوجوده في طرفها الإيجابي كما إن فيها طرداً للشيطان وقهراً له وإذلالاً لمقامه من جهة طرفها السلبي وأي إذلال أشد للشيطان من أن ترفع الآلهة وتنفيها من الوجود وتجعل لله وحده كل الوجود وكل موجود...

كلمة لا إله إلا الله:

«لا إله إلا الله» أخصر شعار لِأعمق مضمون وأشمل معنى.. إنها الكلمة التي قضت على الآلهة كلها سواء كانت بشرية أو صنمية أو معنوية... قضت على الأهواء والشهوات والنزوات..

«لا إله» نفي مطلق لكل إله تصطنعه خيالات الناس وتصوراتهم... نفي مطلق لمـن فرض نفسه إلهاً يتحكم في رقاب الناس ويمارس عليهم الربوبية بدون حق او استحقاق...

وفي المقابل تجد الإثبات في أروع محل وأعظمه «إلا الله» فالله وحده هو الإله..

لا إله إلا الله حررت الإنسان من الظلم والعبودية وحققت له إنسانيته وجعلته عظيماً وكبيراً..

وهذه الكلمة قد بينّت الأحاديث أهميتها ونحن ننقل عينات من ذلك.

١ ـ ورد عن النبي بأسانيد جمة[١] عن جبرئيل عن الله عز وجل قال: **﴿لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي﴾**.

٢ ـ قال رسول الله ﷺ:

لا إله إلا الله نصف[٢] الميزان والحمد لله تملأه.

٣ ـ قال رسول الله ﷺ:

ما قلت ولا قال القائلون[٣] قبلي مثل «لا إله إلا الله».

٤ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

من قال: لا إله إلا الله مخلصاً[٤] دخل الجنة وإخلاصه أن يحجزه لا إله إلا الله عما حرّم الله عز وجل.

٥ ـ عن الصادق عليه السلام عن آبائه[٥] أن رسول الله قال:

لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فإن من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة.

(وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور، والكتاب

(١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥) البحار ج ٩٠ كتاب الدعاء.

المسطور، والنور الساطع والضياء اللامع والأمر الصادع).

بعد أن شهد لله بالوحدانية شهد لمحمد بالرسالة وهذه الشهادة هي مفتاح تلك وبابها ولا تقبل الأولى بدون الثانية ولا يكون لها معنى بدونها لأن معرفة الله تستدعي معرفة الطريق إليه ومعرفة الطريق إليه لا تتأتىٰ إلاّ عن طريق معرفة رسوله الذي يتلقى مراداته ويبلغها للناس. . فالرسول واسطة بين الله وبين هذا الإنسان وعن طريقه يصل الإنسان إلى الله ويتعرف على أحكامه وما يريد منه. . وقد وصفه بالعبودية لأنها أشرف صفة تحريرية. . فمن كان عبداً لله تحرر من عبودية غيره سواء كان ذلك الغير صنماً أو وثناً أو هوى النفس أو العشيرة أو الحزب أو التنظيم أو أي إطار آخر وعنوان آخر. . ثم ذكر بعض خصوصيات ما جاء به الرسول فقد أرسله الله بالدين الظاهر البين الواضح. .

والعلم المأثور أي الدين الذي يهتدي به الناس لسموه وعظمته والمختار من قبل الله والمهيمن على الأديان كلها وأراد بالكتاب المسطور القرآن المكتوب في اللوح المحفوظ المنزل على الرسول والمحفوظ في نفوس الناس وقلوبهم والنور الساطع الذي يهدي إليه التائه ويرد الضال والضياء اللامع الذي يبرق فينير الدرب للسالكين والأمر الصادع هو الكاشف للحق المبيّن له والمظهر لحقائقه.

(إزاحة للشبهات) وهذه بعض علل البعثة وإحدى دواعيها إنها كانت لرفع الشبهات التي كانت تسري في ذلك الوقت بين المجتمع وكان السماسرة والدجالون يموهون على الناس ويلبسون الحق بالباطل ليضلوا البشرية ويحرفوها عن عبادة الله إلى عبادة غيره من طواغيت الأرض وفراعنة الزمن. . . ببركة البعثة النبوية ارتفعت الشبهات التي كان يثيرها أصحاب الامتيازات من حكام وزعماء مدنيين ودينين.

(واحتجاجاً بالبينات) فإن رسول الله قد جاء بأوضح البراهين وأظهر البينات. . إنه لم يقل للناس عطلوا عقولكم واتبعوني ولا أغمضوا عيونكم وقلدوني. . بل قال لهم هذه براهين الصدق على ما أدّعي. . لقد توضحت الحقيقة أمام أنظار قريش بل العالم كله وقد أثبتت الشريعة الإسلامية صدق رسول الله بعد هذه الفترة الطويلة من عمر الإنسان وقد دخل كثير من العلماء والأدباء والفلاسفة في دين الإسلام بعد تطواف طويل في عالم الأديان والمذاهب وبعد دراسة امتدت عقوداً من أعمارهم. . . بعد ذلك أدركوا أن أحكام الإسلام وتعاليمه هي التي يجب اتباعها والأحق بالإيمان بها. . فإن عقيدة تنزه الله عن حالات الإمكان البشري وتجعل الأنبياء طاهرين مقدسين وتأتي بالإسلام شريعة متكاملة تنظم حياة الفرد والمجتمع أقول أن عقيدة وشريعة بهذه المثابة لجدير بكل

صاحب عقل قد تنزه عن الهوى والغرض أن يؤمن بها ويتبعها ويدعو إليها . .

(وتحذيراً بالآيات) فإن تخويف الناس من عذاب الله وعقابه لكي يرتدعوا عن الباطل ويؤمنوا بالحق كانت إحدى الوسائل التي يتبعها الداعون إلى الله إذ ربما رغب الإنسان عن المنفعة وأعرض عنها ولكنه لن يترك عوامل الخوف تسيطر عليه وتقهره فلذا كان دفع الضرر والخوف أولى من جلب المنفعة وأقوى على تحريك الإنسان نحو تحقيق المراد وقد كان التخويف بالنار وما أعده الله من العذاب على مستوى الترغيب بالجنة وما فيها من نعيم وقوله عليه السلام من قوله تعالى: ﴿**وما نرسل**[1] **بالآيات إلا تخويفاً**. .﴾.

(وتخويفاً بالمثلات) فقد كان النبي يخوّف قريشاً بل العرب والناس جميعاً أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة حيث أخذهم الله تارة بالطوفان وأخرى بالصاعقة وثالثة بالقحط والجوع ورابعة أرسل عليهم القمل والضفادع وخامسة أرسل عليهم الصيحة وهكذا فكان يخوفهم أن لم يؤمِنوا به ويصدقوه أن يصيبهم ما أصاب السابقين.

(والناس في فتن إنجذم فيها حبل الدين) بعد أن ذكر عليه السلام دواعي البعثة وأسبابها ذكر حال الناس وما كانوا عليه من ضلال وفساد فقد كانوا يعيشون الاختلاف والتشتت والبدع الباطلة وليس للدين أثر أو وجود. . . كان هناك زخرفة الكهان وعقد السحرة وبدع المشعوذين وأما الدين فقد انقطعت علاقاتهم به وتنكروا له ولأحكامه. .

(وتزعزعت سواري اليقين) اضطربت أسس الدين عندهم فتزلزلت عقيدتهم بالله ويقينهم به وبكتبه ورسله فكانوا يعبدون الأصنام يتوجهون إليها بالدعاء وطلب الحاجات تاركين الله معرضين عنه وقد كانت مواقفهم العدائية للنبي من الأدلة على اضطراب عقائدهم وتشتت أمرهم وانحراف طريقهم.

(واختلف النجر وتشتت الأمر) اختلفوا في أصل العقيدة التي هي الإيمان بالله وتوحيده وعبادته فمنهم من أنكر وجوده ومنهم مَن شبهه بخلقه ومنهم من أشرك معه غيره فتوزع الناس واختلفوا فيما بينهم ولم يعد لهم وحدة جامعة تؤلف بينهم وتجمع شملهم. .

(وضاق المخرج وعمي المصدر) فهذه الفتن والضلالات قد استحكمت بين الناس وأحاطت بهم حتى أصبح الخروج منها متعسراً. . لقد أضحت ديناً يصعب الخروج منها

---

(١) سورة الإسراء، آية/ ٥٩.

بل من فكّر في الخروج منها لم يهتد إلى أبواب السلام وقوارب النجاة. . . لأن الجاهلية أحكمت قواعدها وأحاطت المجتمع من جميع جوانبه ولم تترك لهذا الإنسان منفذاً يرى منه النور الذي يهتدي به إلى الله ويقوى به على الخروج من هذا السور المضروب حوله.

(فالهدى خامل والعمىٰ شامل) فالهدى المتمثل بقواعد الحق والعدل من التوحيد والإيمان والالتزام بالواجب لا وجود لكل ذلك ولا يحكم شيئاً من سلوكيات الناس وحركة حياتهم بينما الباطل المتمثل بالكفر والإلحاد والبعد عن الله والفوضى والانحلال كل ذلك عام شامل قد بسط جناحين عل الناس واستولى على حياتهم ومجتمعهم.

(عصي الرحمن ونصر الشيطان) ويا له من مجتمع أحمق ضال منحرف فاسد يُعصى الرحمن فلا يطاع له أمر وكل أوامره لصالح هذا الإنسان وسعادته بينما انتصر الشيطان بأعوانه الجاهليين الذين اتبعوه في مفاسده ورذائله وكل انحرافاته من قتل النفس المحترمة ونشر الزنا والسعي في فساد البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وجمع وجوه الحياة. . .

(وخذل الإيمان فانهارت دعائمه) عندما لا يُنتصر للإيمان ولا يُدافع عنه ويتخلى كل فرد عن مهمته ومسؤوليته في حمل راية الحق والدعوة له عندها تسقط أركان هذا الإيمان وتتداعى بُنيته ولا يتماسك بنيانه. . ولولا تهاون المؤمنين في تحمل مسؤوليتهم لم يجرؤ الباطل على أن يتولى الأمور ويحكم بين الناس ويبسط ظله عليهم ولكن تقاعس المؤمنين فسح المجال أمام المبطلين وهذا أدى إلى انهيار أركان الإيمان ودعائمه. .

(وتنكرت معالمه ودرست سبله وعفت شركه) فمن تبعات خذل الإيمان أن تتغير أحكامه وما كان ظاهراً منه وبيّناً فيه وكذلك تمّحي الطرق الموصلة إليه، بموت العارفين فيه والأوصياء عليه وكذلك تنطمس طرقه المستقيمة وسبله الصحيحة. .

(أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله) وهذه طريقة أهل الجاهلية عندما بعث الله نبيه لقد أطاعوا الشيطان في أوامره فهو المعلم وهم التلامذة اتبعوا أثره وساروا دربه وقصدوا قصده وشربوا من ضلاله وانحرافه.

(بهم سارت أعلامه وقام لواؤه) بهؤلاء المشركين تحركت آمال الشيطان وارتفعت فيهم المعاصي بحيث أنهم جسّدوا ما يريده ويطلبه فهم راياته الباطلة التي تتحرك وبهم استقام أمر الشيطان وقوي.

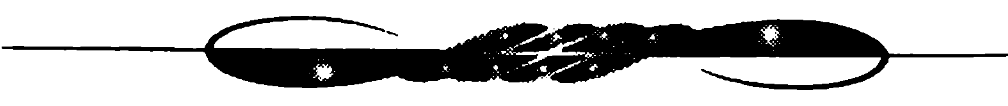
(في فتن داستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها وقامت على سنابكها) وهذه صورة من

صورهم يتخيلها الإنسان فيتخوف منها لما فيها من الذل والضر والبؤس ولما فيها من الشدة، فهذه الفتن التي كانوا فيها كأنها إبل قد داستهم بأخفافها وكم في هذه الصورة من الضعف، جملٍ على كبره يدوس إنساناً بخفه تعظيماً للفتنة والضلالة واحتقاراً وامتهاناً لهم أو بقرة تطأ إنساناً أو فرساً تقوم على أطراف حوافرها عليهم. . إنها فتنة شديدة.

(فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دار وشر جيران) إنهم لا يدرون الحق من الباطل ولا يميزون الخير من الشر لا يهتدون إلى ما ينفعهم وهم في جهل وعمى لا علم ولا ثقافة ولا حضارة، إنهم منحرفون عن الحق والصواب وعما فيه خيرهم. . إنهم في خير دار وهي مكة المكرمة فإنها بلدة مقدسة يحترمها الجميع ويشدون إليها الرحال ولكنهم في شر جيران وهي قريش الظالمة المعتدية التي لم تستقم على الجادة ولم تعترف بالحق. . .

(نومهم سهود وكحلهم دموع بأرض عالمها ملجم وجاهلها مكرم) ما أجمل هذه العبارة وأروعها سبحان من أعطاه البيان لقد جعلهم ينامون ولكن نومهم أرق وقلق وهو أشق من اليقظة وجعلهم يكتحلون والكحل حجر ترتاح له العين وتشفى به وجعلهم يكتحلون بالدموع فهم في حالة بكاء مستمر.

وعندما كنت أقرأ عبارته عليه السلام عالمها ملجم وجاهلها مكرم ضربت بطرفي نحو واقعنا المعاش فوجدته ينطبق عليه بدقة وكأننا في زمن الجاهلية فالعلماء وأصحاب الرأي لا يُسمح لهم ولا يقبل منهم أنني أنظر إليهم في تيجانهم الكريمة وقد حوصروا في بيوتهم ومنعوا من الحديث وضَربتْ عليهم العصابات أسواراً منيعة منعت من خلالها الناس أن يسمعوا لهم أو يقتدوا بهم. . إنهم مراجع وقادة ولهم الأمر والنهي قد منعوا من الكلام وإن تكلموا فلا أحد يسمع لهم بينما ارتفعت أصوات الجاهلين الذين لا يعرفون أحكام الخلوة والطهارة. . لقد تصدروا الواجهة وصاروا أصحاب الرأي وبيدهم الأمر والنهي وقد نجح الاستعمار في هذا السبيل عندما أبعد عن الساحة أهلها وأصحابها وأتى بمن ليس أهلاً لها ولا معرفة له بها. .



ومنها يعني ال النبي عليه الصلاة والسلام

هُمْ مَوْضِعُ[١] سِرِّهِ[٢]، وَلَجَأُ أَمْرِهِ[٣]، وَعَيْبَةُ[٤] عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ[٥] حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ[٦] كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ[٧] ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ[٨] فَرَائِصِهِ[٩].

اللغة

١ ـ موضع	:	مكان، محل.
٢ ـ السّر	:	ما يكتمه الإنسان في نفسه.
٣ ـ لجأ	:	اللجأ هو الملاذ والمعتصم.
٤ ـ العيبة	:	الوعاء وفلان عيبة علمي أي موضعه.
٥ ـ موئل	:	مرجع.
٦ ـ الكهوف	:	المغارات.
٧ ـ الانحناء	:	الاعوجاج.
٨ ـ ارتعد	:	اضطرب والارتعاد الاضطراب.
٩ ـ الفرائص	:	جمع الفريصة، اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترتعد.

الشرح

(موضع سره ولجأ أمره) وهذه بعض فضائل أهل البيت وخصائصهم إنهم آل محمد وما أدراك ما آل محمد؟!.. صفوة البشرية وخيرة الله من البرية هم والله موضع الأسرار النبوية وما عندها من العلوم والأمور الغيبية وهذا الاختصاص بهم لسر في طبائعهم المطهرة الطاهرة المستعدة لقبول هذا الفيض الرباني وإليهم يلجأ الخلق ويرجعون عند الاختلاف والنزاع لأن عندهم علم الدين وهم أدرى الخلق فيه وفي زيارة الجامعة الكبيرة.. ارتضاكم لغيبه واختاركم لسره..

(وعيبة علمه) مستودع العلم الإلهي فكما تحفظ الأمور الثمينة في خزائنها ويحافظ

عليها فيها فلا تضيع أو تتلف فأهل البيت موضع العلم الذين لا يبخلون عن الناس به ولا يضيعونه أو يكتمونه. . وفي زيارة الجامعة الكبيرة «وحفظة لسره وخزنة لعلمه ومستودعاً لحكمته وتراجمة لوحيه».

(وموئل حكمه وكهوف كتبه وجبال دينه) فالأحكام الإلهية ترجع إليهم وتؤخذ منهم لأنهم أخبر الناس بها وأكثرهم وقوفاً عليها عندهم تحرز كتب السماء التي تمثلت بالقرآن وتعاليم الإسلام ومن هنا كان الإمام يقول: والله لو ثُنيت لي الوسادة لأفتيت لأهل التوراة بتوراتهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم وأهل الزبور بزبورهم وأهل القرآن بقرآنهم. . .

وبهم يستقر الدين ويثبت فلا يتزلزل أو يضطرب أو يتعرض لهزات تأتي عليه كما إن الجبال أوتاد للأرض. . ومن هنا كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يهبّون إلى الدفاع عن الإسلام ونصرته في كل موقف يشعرون فيه إنه في خطر أو يمكن أن يلحقه ضرر.

(بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه) بهم اشتد الإسلام وقوي الدين فأذهب الله بهم ضعفه ووهنه وكانوا أركانه والمدافعين عنه لقد كان ضعيفاً في ابتداء أمره اجتمعت العرب على حربه والقضاء عليه وكانت المحاولات تلو المحاولات من أجل أن ينتهوا منه ويتخلصوا من وجوده وقد شنّوها حروباً دامية كان الإمام علي سيد المواقف فيها، أطاح برؤوس الأبطال وقضى على الشجعان حتى قوي الاسلام وثبت وذهب عنه ما يُخاف عليه منه ونظرة واحدة يلقيها الإنسان على معارك الإسلام وحروبه يجد أن بطلها كلها والمتفرد فيها هو الإمام علي عليه السلام. . . .



ومنها يعني قوماً اخرين

زَرَعُوا الْفُجُورَ(١)، وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ(٢)، وَحَصَدُوا(٣) الثُّبُورَ(٤)، لا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً: هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ ٱلْيَقِينِ. إِلَيْهِمْ يَفِيءُ(٥) الْغَالِي(٦)، وَبِهِمْ يُلْحَقُ(٧) التَّالِي(٨). وَلَهُمْ خَصَائِصُ(٩) حَقِّ ٱلْوِلايَةِ، وَفِيهِمُ ٱلْوَصِيَّةُ وَٱلْوِرَاثَةُ، ٱلآنَ إِذْ رَجَعَ ٱلْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ!.

اللغة

١ ـ الفجور : العدول عن الحق، الزنا، الاسترسال في المعاصي.
٢ ـ الغرور : الخداع والباطل.
٣ ـ حصد : يقال حصد الزرع إذا قطعه.
٤ ـ الثبور : الهلاك.
٥ ـ يفيء : يرجع.
٦ ـ الغالي : من الغلو وهو تجاوز الحد.
٧ ـ لحق : أدرك، ولحقه أدركه.
٨ ـ التالي : التابع.
٩ ـ خصائص : جمع خصيصة أي خاصة به ومختصة.

الشرح

(زرعوا الفجور وسقوه الغرور وحصدوا الثبور) بعد أن ذكر أهل البيت وبعض خصائصهم ذكر هنا بعض أوصاف أعدائهم وقد ذهب أكثر شراح النهج إلى أنه يريد الأمويين أعداء الإسلام والمسلمين وخصوصاً معاوية رأس الفئة الباغية وطاغوتها الأعظم ولا شك أن هذه الأوصاف تنطبق عليهم وتحكي واقعهم وتصدق على مسيرتهم..

إنهم قوم زرعوا الفجور وهو المنكر والرذيلة وسعوا في محاربة الحق وأهله وقتال الدين والمتدينين وقد عرف عن بني أمية ذلك فقد كانوا أهل فجور وكفر بينما كان بنو هاشم أهل عفة وورع.

وهذا الزرع لكي يكبر وينمو ويقوى لا بد له من ماء يسقى به وكل شيء له سقاية من نوعه وما يلائمه والفجور له ماء يسقى به وهو الغرور، وهذا الغرور هو الذي كان ينمي الفجور ويغذي الانحراف وكان بنو أمية يعيشون هذه الحالة القبيحة يتصورون الهاشميين أنداداً لهم فيروحون في حركة غرورية تدفعهم إلى مجاراتهم بل ربما ادعوا التقدم عليهم والسبق لهم ولكن كان عاقبة هذا الزرع للفجور والسقي له بالعرور أن يحصد أصحابه الهلاك والدمار وهذه نتيجة طبيعية لمثل هذه المقدمات، وقد حصد بنو

أمية أسوأ النتائج وأقبحها فلم يكادوا يحسون بلذة الدنيا حتى انقضّ عليهم بنو العباس فأزالوهم عنها وقضوا عليهم ولم يبق منهم مخبر وحتى اليوم يخجل الفرد إذا نُسبته إليهم بل ينكر ذلك ويتنكر له هذا في الدنيا وأما في الآخرة فإنه عذاب الله وعقابه الذي لا يقوى عليه بشر سيطالهم ويحل بهم.

(**لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً**) لكي يقاس شيء بشيء ويقارن به يجب أن يكون هناك وحدة تجمعهما ويلتقيان عندها ولذا لا يقاس الدر بالحجر والتبر بالتبن والثريا بالثرى.. وآل محمد وحدة فريدة من نوعها.. طينةً وعجينةً وصنعاً وتكويناً نظر الله إلى بني آدم نظرة فكان أهل البيت موضع اختياره واجتبائه.. صفّاهم من كل رذيلة وطهرهم من الرجس وحباهم بكل مكرمة فكانوا الرأس والقلب وما عداهم سائر الجسد ولا يقاس بالرأس والقلب شيء من الأعضاء..

وكيف يساويهم من جرت نعمتهم عليه فعن أيديهم كانت الهداية وكانوا السبب في إيصال الخير إلى الناس وما هذه النعم التي نتمتع بها وهذا التحرر الفكري والإيماني إلا ببركة آل رسول الله، فلولا جهاد علي وصلح الحسن وشهادة الحسين وعلم الأئمة لم يبق للإسلام أثر.. واليد العليا خير من اليد السفلى والمنعم أشرف من المنعم عليه..

(**هم أساس الدين وعماد اليقين**) آل محمد عليهم يقوم الدين كما يقوم البناء على أساسه، وبمقدار ما يكون الأساس قوياً محكماً ثابتاً يكون البناء راسخاً شامخاً قوياً وآل محمد هم أساس هذا الدين فعن أيديهم كان، وهم أهله ورعاته والمدافعون عنه.. هم مبلغوه وناشروه وهم الذين رسخت العقيدة في نفوسهم حتى قال علي عليه السلام كلمته «**والله لو كشف لي الغطاء ما أزددت يقيناً**» فكان التعبير عن نهاية الوصول إلى أرفع درجات الإيمان والعقيدة فكانوا هم عماد اليقين من هذه الجهة ومن جهة أنهم يرفعون الشبهات ويزيلونها من أمام الناس ويعمقون العقيدة في قلوب الضعفاء حتى يقووا ويشتدوا..

(**إليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي**) أهل البيت هم الميزان فمن أراد أن يعرف كفره من إيمانه وشكه من يقينه وعدله من ظلمه وحقه من باطله وصدقه من كذبه وخيره من شره فعليه أن ينظر إلى أهل البيت فإن كانت أفعاله كأفعالهم وأقواله كأقوالهم وسلوكه كسلوكهم وعقيدته كعقيدتهم فهو الصحيح السليم على الصراط المستقيم وإلا فعليه مراجعة حساباته وتصحيح مساره..

مَنْ تجاوز ما قالوا وما فعلوا يجب أن يرجع إليهم ومن قصّر عن ذلك يجب أن يلتحق بهم. وفي زيارة الجامعة الكبيرة «فالراغب عنكم مارق واللازم لكم لاحق والمقصر في حقكم زاهق والحق معكم وفيكم ومنكم وإليكم وأنتم أهله ومعدنه» . .

(**ولهم خصائص حق الولاية**) إن الشروط والمواصفات التي يجب أن تتوفر في ولي الأمر والمتولي لشؤون الأمة، هذه الخصائص من مختصات أهل البيت لا يشاركهم فيها أحد وأخصّ تلك الخصائص أن يكون ولي الأمر معصوماً وهذه الصفة اقتصرت على أهل البيت بالخصوص ولم تتعد إلى غيرهم ولم يدعها أحد وقد ثبت للعيان وتناقلته الركبان ما تمتع به أهل البيت وما اختصوا به من علم وحلم وزهد وشجاعة وجرأة وإقدام وغيرها من المناقب والصفات التي عجز غيرهم عن اكتساب جزء منها فضلاً عن أن يجمع أكثرها . .

(**وفيهم الوصية والوراثة**) فقد جعلهم النبي أوصياءه وقلدهم الأمر من بعده فقال في حق الإمام في حديث الدار في ابتداء الدعوة «إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم . .».

وقد نص النبي على أوصيائه الذين يتولون الأمر من بعده فكان علي وأولاده هم ولاةَ الأمر ولهم ميراث النبي لأنهم أولى الخلق به في كتاب الله وفي منطق العقل والنقل . .

(**الآن إذ رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله**) هذا الكلام منه يدلّل على ظلم من تقدمه وإنهم قد غصبوا حقه وسلبوه إرثه لأنه يقول قد رجع الحق وهي الخلافة ـ إلى أهله وأصحابه الشرعيين نقل من أيدي الظالمين إلى مكانه الشرعي الصحيح ومحله الواقعي السليم.

٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وهي المعروفة بالشقشقية[١]

وتشتمل على الشكوى من أمر الخلافة ثم ترجيح صبره عنها ثم مبايعة الناس له

أَمَا وَٱللّه لَقَدْ تَقَمَّصَها[٢] فُلانٌ[ب] وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنها مَحَلُّ الْقُطْبِ[٣] مِنَ الرَّحَا[٤]. يَنْحَدِرُ عَنِّي[٥] السَّيْلُ[٦]، وَلا يَرْقَى[٧] إِلَيَّ الطَّيْرُ؛ فَسَدَلْتُ[٨] دُونَهَا ثَوْباً، وَطَوَيْتُ[٩] عَنْهَا كَشْحاً[١٠]. وَطَفِقْتُ[١١] أَرْتَئِي[١٢] بَيْنَ أَنْ أَصُولَ[١٣] بِيَدٍ جَذَّاءَ[١٤]، أَوْ أَصْبِرَ عَلَىٰ طَخْيَةٍ[١٥] عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ[١٦] فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيبُ[١٧] فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ[١٨] فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ!.

ترجيح الصبر

فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا[١٩] أَحْجَى[٢٠]، فَصَبَرْتُ وَفي الْعَيْنِ قَذىً[٢١]، وَفي الْحَلْقِ[٢٢] شَجاً[٢٣]، أَرَىٰ تُرَاثِي[٢٤] نَهْباً[٢٥] حَتَّىٰ مَضَىٰ ٱلأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَى بِهَا[٢٦] إِلَى فُلانٍ بَعْدَهُ. ثم تمثل بقول الأعشى:

شَتَّانَ[٢٧] مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا[٢٨] وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَا عَجَباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُها[٢٩] في حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ـ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا[٣٠] ضَرْعَيْهَا[٣١]! ـ فَصَيَّرَهَا في حَوْزَةٍ[٣٢] خَشْنَاءَ[٣٣] يَغْلُظُ[٣٤] كَلْمُهَا[٣٥]، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا[٣٦]، وَيَكْثُرُ ٱلْعِثَارُ[٣٧] فِيهَا، وَٱلِاعْتِذَارُ[٣٨] مِنْهَا،

(ب) فلان= كناية عن أبي بكر وفي بعض النسخ تصريح بذلك.

فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ(٣٩) إِنْ أَشْنَقَ(٤٠) لَهَا خَرَمَ(٤١)، وَإِنْ أَسْلَسَ(٤٢) لَهَا تَقَحَّمَ(٤٣)، فَمُنِيَ(٤٤) النَّاسُ ـ لَعَمْرُ ٱللّهِ ـ بِخَبْطٍ(٤٥) وَشِمَاسٍ(٤٦)، وَتَلَوُّنٍ وَٱعْتِرَاضٍ(٤٧)؛ فَصَبَرْتُ عَلَىٰ طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ(٤٨)؛ حَتَّىٰ إِذَا مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَا لَلّهِ وَلِلشُّورَىٰ! مَتَىٰ ٱعْتَرَضَ(٤٩) الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ صِرْتُ أُقْرَنُ(٥١) إِلَىٰ هٰذِهِ النَّظَائِرِ(٥٢)! لٰكِنِّي أَسْفَفْتُ(٥٢) إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا؛ فَصَغَا(٥٤) رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ(٥٥)، وَمَالَ ٱلآخَرُ لِصِهْرِهِ(٥٦)، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ(٥٧)، إِلَىٰ أَنْ قَامَ ثَالِثُ ٱلْقَوْمِ نَافِجاً(٥٨) حِضْنَيْهِ(٥٩)، بَيْنَ نَثِيلِهِ(٦٠) وَمُعْتَلَفِهِ(٦١)، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ(٦٢) مَالَ الله خِضْمَةَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَىٰ أَنِ ٱنْتَكَثَ(٦٣) عَلَيْهِ فَتْلُهُ(٦٤)، وَأَجْهَزَ(٦٥) عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ(٦٦) بِهِ بِطْنَتُهُ(٦٧)!.

اللغة

١ ـ الشقشقية : الشقشقة شيء يخرجه البعير من فيه إذا هاج.

٢ ـ تقمّصها : لبسها كالقميص.

٣ ـ القطب : من الرحى مسمارها الذي عليه تدور.

٤ ـ الرحى : مؤنثة جمعها أرحاء وأرحية، الطاحونة، الجاروش.

٥ ـ انحدر عنه : نزل عنه وهبط مع السرعة.

٦ ـ السيل : الماء الكثير السائر بسرعة.

٧ ـ يرقى : يصعد.

٨ ـ سدلت : الثوب أرخيته.

٩ ـ طويت : ضد نشرت.

١٠ ـ كشحاً : الكشح ما بين الخاصرة والجنب.

١١ ـ طفقت : جعلت.

١٢ ـ أرتئي : أفكر طلباً للرأي الأصلح.

١٣ ـ أصول : صال يصول صولة وثب وحمل عليه.

١٤ ـ الجذاء : من اليد المقطوعة.
١٥ ـ الطخية : الظلمة.
١٦ ـ يهرم : هرم كفرح بلغ أقصى الكبر.
١٧ ـ يشيب : من الشيب وهو بياض الشعر.
١٨ ـ يكدح : يسعى.
١٩ ـ هاتا : هذه.
٢٠ ـ أحجى : ألزم وأجدر بالعاقل.
٢١ ـ القذى : ما يقع في العين من تبنة وما يشبهه.
٢٢ ـ الحلق : مجرى الطعام والشراب.
٢٣ ـ الشجى : ما يعترض في الحلق من عظم ونحوه.
٢٤ ـ تراثي : ميراثي، ما يتركه الميت من المقتنيات.
٢٥ ـ نهباً : من النهب وهو السلب، والغنيمة.
٢٦ ـ أدلى بها : ألقاها ودفعها.
٢٧ ـ شتان : بعُد وافترق.
٢٨ ـ كورها : كور الناقة رحلها.
٢٩ ـ يستقيلها : يطلب الإقالة منها أي التخلي عنها.
٣٠ ـ تشطر الشيء : أخذ كل منهما شطراً.
٣١ ـ الضرع : للناقة كالثدي للمرأة.
٣٢ ـ حوزة : طبيعة، ناحية.
٣٣ ـ الخشناء : من الخشن وهو خلاف نَعِم ولان.
٣٤ ـ الغلظ : ضد الرقة وهي القساوة.
٣٥ ـ كلمها : جرحها.
٣٦ ـ المس : اللمس.
٣٧ ـ العثار : الزلل.
٣٨ ـ الاعتذار : تقديم كلام يرفع عنه اللوم.
٣٩ ـ الصعبة : الناقة التي يصعب قيادها.
٤٠ ـ أشنق : الناقة بالزمام إذا جذبها إليه بالزمام.
٤١ ـ أخرم : أنفها شقّه.
٤٢ ـ أسلس : لها أرخى لها الزمام.
٤٣ ـ تقحّم : هلك.
٤٤ ـ مُني الناس : ابتلوا.
٤٥ ـ الخبط : السير على غير هدى.

٤٦ ـ الشماس	:	الامتناع والنفار.
٤٧ ـ الاعتراض	:	السير غير المستقيم ففي حال سيره طولاً كأنه يسير عرضاً.
٤٨ ـ المحنة	:	جمعها محن ما يمتحن به الإنسان من بلية.
٤٩ ـ اعترض	:	الشيء إذا صار عارضاً كالخشبة المعترضة في النهر.
٥٠ ـ الريب	:	الشك.
٥١ ـ أقرن	:	أجمع، والقرن هو الجمع بين الشيئين.
٥٢ ـ النظائر	:	الأشباه والأمثال.
٥٣ ـ أسّف	:	الطائر إذا دنا من الأرض.
٥٤ ـ صغى	:	مال.
٥٥ ـ الضغن	:	الحقد.
٥٦ ـ الصهر	:	قيل هو أهل بيت المرأة وقال الأزهري الصهر يشتمل على قرابات النساء ذوي المحارم كالأبوين والإخوة...
٥٧ ـ مع هنٍ وهنٍ	:	مع عورات لا أريد ذكرها.
٥٨ ـ نافجاً	:	رافعاً.
٥٩ ـ الحضن	:	ما بين الإبط والخاصرة.
٦٠ ـ النثيل	:	الروث.
٦١ ـ المعتلف	:	موضع العلف.
٦٢ ـ يخضمون	:	الخضم الأكل بكل الفم وضده القضم.
٦٣ ـ انتكث	:	انتقض.
٦٤ ـ فتله	:	فتل الحبل لواه.
٦٥ ـ أجهز	:	على الجريح أسرع في قتله وأتم قتله.
٦٦ ـ كبت	:	الفرس سقط على وجهه.
٦٧ ـ البطنة	:	شدة الامتلاء من الطعام.

الشرح

في هذه الخطبة أعظم احتجاج من الإمام على من تقدمه من الخلفاء وفيها بيان تظلمه وتصبره وما ناله من الأذى ولكن مع ذلك كان ينظر إلى مصلحة المسلمين وبقاء شملهم مجتمعاً موحداً ثم يذكر مبايعته يوم خلافته ويوم التقى الناس عليه كخليفة وقد تولى شرحها مستقلاً العديد من العلماء والفضلاء ونالت حظها من التفصيل حتى بلغ

بعضهم التوسع أن أخذت كتاباً مستقلاً تجاوز الخمسماية صفحة بالحجم المعتاد ونحن سنقتصر فيها على الضروري الذي لا بد منه سيراً مع ما التزمنا به في هذا الشرح.

(أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير) نبّه بأما وأقسم بالله أن أبا بكر قد لبس الخلافة كما يُلبس القميص لا ينزعها ولا يتخلى عنها وأكد على بطلان هذا التقمص بذكر فضائله وإنه كيف يتقدم المفضول على الفاضل.

فقال إن محله من الخلافة محل القطب من الرحى فكما أن الرحى لها مركز وقطب تدور عليه وهو في وسطها يصحح حركتها وتأخذ توازناً معتدلاً في دورانها ولولاه لاختل التوازن وفسدت الحركة الصحيحة فإنه عليه السلام من الخلافة بتلك المنزلة إنه في صميمها ووسطها وقلبها ولا تستقيم أو تعتدل وتؤتي ثمارها إلا بوجوده.

ثم أشار إلى منزلته الرفيعة ومقامه الكبير بأن السيل مهما كان متدفقاً لا يستطيع أن يطال تلك الذات الطيبة وقيل أن قوله «ينحدر عني السيل» إشارة إلى علومه وحكمه الواصلة إلى العباد.

ثم ألحق هذا الوصف بوصف أرفع وأعلى منه وإنه لعلو منزلته لا يستطيع الطير أن يصل إليه كناية عن علوه ومنزلته الرفيعة وقال بعضهم لعله أراد بعدم رقي الطير إليه عجز طائر الأوهام عن الوصول إلى مقاماته الجليلة وقصور العقول عن الإحاطة بمناقبه الجميلة من حيث عدم انتهائها بعدّ وعدم وقوفها إلى حد...

(فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً) ثم بين عدم رغبته بالخلافة بعد أن اغتصبت منه فقال لقد وضعت بيني وبين الخلافة حاجزاً ومانعاً لئلا تكون هي المفككة لعرى المسلمين المفرقة لوحدتهم وأعرضت عنها وهجرتها ولم يعد لنفسي طمع فيها.

(وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه) شرعت أفكر بعد أن بويع أبو بكر وأجيل الرأي ماذا أفعل وكيف أتصرف وصرت بين محذورين أحلاهما مر هل أخوضها معركة دامية وحرباً طاحنة ولكن لا ناصر ولا معين ولقلة الناصر والمعين إلا أهل بيتي وبعض أصحابي فلا أقدر على تحصيل المراد كاليد المقطوعة فكذلك هي حالي هذا هو الخيار الأول وهو لا جدوى فيه والخيار الثاني أن أصبر على هذه البلية العظمى من غصب الخلافة واختلاط الأمور والتباسها وهي محنة قاسية شديدة يرى الظلم والاستبداد والجور والانحراف.. يرى حقه السليب يتصرف فيه غيره وهذه ظلمات شديدة يتيه

الناس فيها ولطول هذه المحنة وشدة قساوتها يهرم فيها الكبير فيبلغ من العمر عتياً ويشيب فيها الصغير ويسعى المؤمن فيها لتحصيل حقه ولكنه يلقى ربه قبل الوصول إليه وإدراكه.

(فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى) فعند الموازنة الدقيقة والمقارنة بين إعلان الحرب والصبر على الظلم وغصب الخلافة رأيت أن الصبر أولى وأحسن باعتبار ما تخلفه الحرب من خطر على الإسلام وعلى وحدة المسلمين وخصوصاً في تلك الظروف الصعبة والإمام هو «أم الصبي» كما يقال فيجب عليه أن يحفظ الإسلام من الاندراس والضياع ولذا كان مع إعلان تظلمه أمام الناس وبيان حقه وذكر الغاصبين للخلافة كان يحرص على الإسلام ووحدة المسلمين..

وصبر على غصب حقه ولكن كيف كانت حالته أيام المحنة وكيف كان صبره؟!.. لقد كان صبراً تعجز الرجال عن تحمله وتنوء الجبال بثقله عبّر عنه بأشق وأصعب ما يصيب الإنسان فقال:

(فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجاً أرى تراثي نهباً) حالة الإنسان الذي وقع في عينه شيء يؤذيها أو علق في حلقه فهل مثل هذه يصفو له عيش وهل تروق له الحياة وهل يكون في حياته إلا معذباً متألماً.

إن علياً يعيش المرارة في أعنف صورها حيث يرى ميراثه وهو الخلافة قد غصب قهراً عنه ولا يقدر على دفع الغاصب أو استرجاع المغصوب.. صورة تنقل إلينا معاناته وقساوة الدهر عليه أشعر من خلالها بألم نفسي ينتابني ورعدة تهزني من أعماقي لمظلومية هذا الرجل العظيم..

الخلافة والسقيفة وبيعة أبي بكر:

لابدية الخلافة:

الخلافة عن النبي أمر لا بد منه لأن النبي إنسان لا بد أن يصيبه ما يصيب البشر من الموت الذي كتبه الله على خلقه وقد أوجب العقل والنقل وجود إمام يسوس الناس ويدير شؤونهم يحملهم على فعل الطاعات ويزجرهم عن فعل المحرمات.

علي هو الخليفة:

ومن هذا المنطلق العقلاني الذي يشكّل الرسول قطبه بل هو عقل العقلاء كان

يعرف أن أمته لن تخرج عن القاعدة الطبيعية التي تحكم البشر فكان لا بدّ له من أن يرسم لها طريق الخلافة بعده وهذا ما حصل بالفعل فقد عيّن علياً خليفة بعده ونص عليه في مواطن كثيرة.

ففي ابتداء الدعوة قال للناس: هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم ـ أو من بعدي ـ فاسمعوا له وأطيعوا..

وعندما خلفه على المدينة في غزوة تبوك قال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي».

ولما آخى بين المهاجرين والأنصار إحتفظ به لنفسه وآخاه وقال عندما بعث أبا بكر بسورة براءة ثم رده وأرسل علياً بها قال له: «إن علياً مني وأنا من علي، لا يؤدي عني إلا أنا أو علي...».

وقال في حديث الغدير المتواتر عندما حج حجة الوداع بعد خطبة ومقدمة قال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاده وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار.

ونزلت الآيات في حق أهل البيت فكان علي سيد القوم ورأسهم كما نزلت به بالخصوص آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾.

فقد نص المفسرون على أنها نزلت في علي عندما تصدق بخاتمه وهو قائم في صلاته.

ومنها آية التطهير ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً..**﴾.

ومنها آية المباهلة ﴿**فقل تعالوا ندعوا أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم..**﴾ ومن المتسالم عليه بين المفسرين والمحدثين أن النبي لم يدع إلا الإمام علي فكان بمثابة نفس النبي فأخذ حكمه ما عدا النبوة...

النبي يهيىء الأجواء لعلي:

مرض رسول الله وأحس من نفسه الفراق فخرج مع مولاه أبي مويهبة إلى البقيع

ليلة وقال له[١]: إني أمرت أن استغفر لأهل البقيع فانطلقا حتى إذا وصلاه قال النبي: ليهنئكم ما أصبحتم فيه قد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم.

ثم قال: قد أوتيت مفاتيح خزائن الأرض والخلد بها ثم الجنة وخيرّت بين ذلك وبين لقاء ربي فاخترت لقاء ربي ثم أستغفر لأهل البقيع وانصرف.

ثم ضرب النبي بعثاً إلى الشام وأميرهم أسامة بن زيد مولاه وأمره أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والروم من أرض فلسطين وقد أوعب[٢] معه المهاجرون الأولون والأنصار بما فيهم أبو بكر وعمر ومشيخة المسلمين جميعاً، جمعهم كلهم تحت أمرة أسامة الشاب الذي لم يتجاوز العشرين من العمر وقد طعن المنافقون في قيادته مما استدعى النبي أن يغضب من كلامهم فيزكّي أسامة ويصر على بعثه قائلاً: «إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل وأنه لخليق للإمارة وكان أبوه خليقاً لها..».

وقد كان النبي يصر على خروج جيش أسامة ولكن كانوا يتباطؤون ويتأخرون حتى وصل به الأمر أن دعا على المتخلفين عنه قائلاً «اللهم إلعن من تخلف عن جيش أسامة» ومع هذا بقي الصحابة في المدينة دون أن يخرجوا... بل عادوا إلى بيت النبي فوجدوه في أواخر ساعاته في دار الدنيا وقد وقف على تمردهم إنهم لن ينفذوا جيش أسامة ولن يكون هناك بعث..

إنه صلوات الله عليه كان يطلب من وراء إرسال هذا الجيش إبعاده عن المدينة حتى يخلو الجو أمام علي عندما يتوفى النبي فقد وطأ له الأمور وهيأ له كل ما من شأنه أن يوفر له أسباب الوصول إلى الخلافة ولكن القضية كانت تأتي على خلاف ما يرسم النبي لها من النجاح، لقد كان التمرد والعصيان على قدم وساق لم يطيعوه فيما أمر ولم يسمعوا قوله فيما قال ولذا أراد أن يسلك سبيلاً آخر يحفظ الخلافة من الانهيار والاغتصاب أراد أن يوثقها وثاقاً متيناً ثم يسلمها لأهلها فلعلها تسلم لهم ولذا قال لهم «إيتوني بدواة[٣] وبياض أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعدي أبداً» وهنا تنازعوا فبعضهم يقول: قربوا لرسول الله يكتب كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم يرفض ذلك وعمر يقول دعوه إن النبي ليهجر ويرى رسول الله الخلاف ويسمع النزاع فيتأثر لهذا المشهد الرهيب وهنا إن أصر على الكتابة سيسقط مفعولها بعد رميه بالهجر وبالتالي قد يشكل ذلك خطراً على كلام النبي بجملته

(١) تاريخ ابن الأثير ج/ ٢ ص ٣١٨.
(٢) أوعب: خرج القوم ولم يبق منهم أحد.
(٣) تاريخ ابن الأثير ج/ ٢ ص ٣٢٠.

وقد يؤدي إلى ارتداد جملة من الصحابة مما يفتح الباب أمام ردة جماعية تهدد الإسلام ولذا قال النبي لهم: قوموا ولا ينبغي عند نبي نزاع. .

لقد أدرك عمر ماذا يريد أن يكتب النبي فلذا حسم الأمر بهذا الأسلوب الظالم وسد أمام النبي الطريق عن كتابة الكتاب. .

وفاة رسول الله:

توفي النبي ﷺ وكان أبو بكر بمنزله بالسنح خارج المدينة وعمر حاضر فخاف عمر من خطر مبايعة أحد من المسلمين في غياب أبي بكر فقال مقولة أذهلت الناس وشغلتهم فقد قال: «إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي وأنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، والله ليرجعن رسول الله ﷺ فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات وبهذا التهديد والوعيد سكت الجميع واكتفوا بالأسى والحزن وبقوا كذلك حتى جاء أبو بكر فدخل على رسول الله وهو مسجى في ناحية البيت فكشف عن وجهه ثم قبله وأمر عمر بالسكوت فأقبل الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فالله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل افإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين**﴾ وعندها عرف عمر موت رسول الله وكأنه استفاق من غشيته. .

هل صحيح أن عمر بن الخطاب كان يؤمن بما يقول؟!. . وأين ذكاؤه وفطنته؟!. . ألم يقرأ الآية التي تلاها أبو بكر؟! وهل كان الرسول على خلاف طبيعة البشر وما هو المعهود عليهم أما يشمله قوله تعالى: ﴿**كل من عليها فان**﴾ وقوله تعالى: ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾ وهل كانت الصدمة لعنفها وقوتها أثرت فيه فأذهلته وأضاعت لبه وهذا يجب أن يكون بعد صدق الخبر وتصديقه عن لسان أبي بكر وليس قبله؟!. . إنه عمر. . يرمي من وراء هذه المقولة إلى إشغال الناس وإرباكهم عن التفكير في أي معنى يمكن أن يؤثر على وضع الخلافة بعد الرسول. . إنه يريد أن يشغل الناس حتى يأتي زميله ورفيق دربه أبو بكر وقد كان له ما طلب وأدرك ما سعى إليه. .

حديث السقيفة:

توفي النبي واشتغل بنو هاشم بجنازته الشريفة. . إنها مأساة مست المسلمين عامة ولكنها أصابت بني هاشم وآل بيت رسول الله بالأخص. .

وبينما المسلمون حول الجسد الطاهر كان هناك اجتماع للأنصار في سقيفة بني ساعدة. . إنه اجتماع من أجل أن يعقدوا البيعة لأحدهم فيقطعون الطريق أمام كل من تحدثه نفسه باعتلاء عرش الخلافة ويدرؤن عن أنفسهم ويلات ومصائب ما ينالهم فيما لو تولاها غيرهم ممن وتروهم وقتلوا رجالهم. .

اجتمع الأنصار بجناحيهم الأوس والخزرج وقام سعد بن عبادة فتكلم وكان مريضاً فقال: يا معشر الأنصار لكم سابقة وفضيلة ليست لأحد من العرب، إن محمداً ﷺ لبث في قومه بضع عشر سنة يدعوهم فما آمن به إلا قليل، ما كانوا يقدرون على منعه ولا على إعزاز دينه ولا على دفع ضيم حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ورزقكم الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والأعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً وأعطى البعيد المقادة فدانت بأسيافكم العرب وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ قرير العين استبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دونهم

فأجابوه بأجمعهم: أن وفقت وأصبتَ الرأي ونحن نوليك هذا الأمر فإنك مقنع ورضاً للمؤمنين.

ثم إنهم ترادوا الكلام فقالوا: وإن أبى المهاجرون من قريش وقالوا: نحن المهاجرون وأصحابه الأولون وعشيرته وأولياؤه.

فقالت طائفة منهم: فإنا نقول منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا أبداً.

فقال سعد: هذا أول الوهن.

عمر وأبو بكر في السقيفة:

وصل إلى عمر نبأ اجتماع الأنصار في السقيفة، وإنهم يتداولون أمر الخلافة وبعض المصادر تذكر أن معن بن عدي وعويم بن ساعدة وكلاهما من الأوس وكان بينهما وبين سعد بن عبادة الخزرجي ـ المرشح للخلافة ـ موجدة قديمة هما اللذان نقلا الخبر إلى عمر ولما سمع ذلك أتى منزل النبي ﷺ وأبو بكر فيه فأرسل إليه أن أخرج إليّ.

فأرسل إليه: إني مشغول.

فقال عمر: قد حدث أمر لا بد لك من حضوره، فخرج إليه فأعلمه الخبر فمضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة قال عمر: فأتيناهم وقد كنت زوّرت كلاماً أقوله لهم فلما دنوت أقول أسكتني أبو بكر وتكلم بكل ما أردت أن أقول وقال:

فحمد الله وقال: إن الله قد بعث فينا رسولاً شهيداً على أمته ليعبدوه ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى من حجر وخشب فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم وكل الناس لهم مخالف زارٍ عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم فهم أول من عبد الله في هذه الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده لا ينازعهم إلا ظالم وأنتم يا معشر الأنصار مَنْ لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم في الإسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفاوتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور فقام حباب بن المنذر بن الجموح فقال: يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فإن الناس في ظلكم ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ولا يصدرون إلا عن رأيكم، أنتم أهل العز وأولو العدد والمنعة وذوو البأس، وإنما ينظر الناس ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم فإن أبى هؤلاء فمنا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر: هيهات لا يجتمع إثنان في قرن، والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم، ولا تمتنع العرب أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم ولنا بذلك الحجة الظاهرة، من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته.

فقال الحباب بن المنذر: يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم الأمر ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان الناس لهذا الدين، أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أنا أبو شبل في عرينه الأسد والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة والله لا يرد أحد عليّ ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف فقال عمر: إذاً ليقتلك الله.

فرد الحباب عليه: بل إياك يقتل.

وقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر.

وفي هذه الأجواء المملؤة بالمهاترات يقف ابن عم سعد بن عبادة واسمه بشير بن سعد الخزرجي وكان ينفس على ابن عمه الإمارة ويضن بها عليه قام فقال: يا معشر الأنصار إنا والله وإن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في الدين ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به الدنيا، ألا إن محمداً ﷺ من قريش وقومه أولى به وأيمُ الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولم يكد أبو بكر يسمع كلام بشير حتى هب يقول:

هذا عمر وأبو عبيدة قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فأيهما شئتم فبايعوا.

ولكن عمر بادره مسرعاً ورد عليه «لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك أبسط يدك نبايعك ثم أخذ يده ليبايعه فسبقه بشير بن سعد فوضع يده بيده وبايعه فناداه الحباب بن المنذر: عقتك عقاق! انفست على ابن عمك الإمارة.

فقال: لا والله ولكني كرهت أن أنازع القوم حقهم ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد وقد كانت المخالفة من الخزرج نفسها والمعارضة من أقرب المقربين من سعد قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن خضير وكان نقيباً والله لئن وليتها الخزرج مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر فبايعوه، فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب ونسوا سعداً وهو مريض فكادوا يطأونه ويقتلونه ثم حمل إلى داره فبقي أياماً وأرسل إليه ليبايع فأبى وقال: لا والله حتى أرميكم بما في كنانتي وأخضب سنان رمحي وأضرب بسيفي وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني ولو اجتمع معكم الجن والإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي فقال عمر لأبي بكر: لا تدعه حتى يبايع.

فقال بشير بن سعد: إنه قد لجّ وأبى ولا يبايعكم حتى يُقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته ولا يضركم تركه.. فتركوه..

ملاحظات:

١ ـ كانت بيعة أبي بكر في نفس اليوم الذي توفي النبي فيه ولم يكن بعد قد دُفن فقد خرج ومعه الناس إلى المسجد يزفونه وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب يحث الناس على بيعته..

٢ ـ لقد ترك أبو بكر وعمر وأصحابهما جنازة النبي الأكرم وأسرعوا إلى السقيفة منشغلين عنها وقد كان عمر قبل قليل قد أذهله المصاب وغاب عن الوعي فراح يرعد

ويهدد وكيف ينسجم هذا مع تركه لرسول الله ميتاً لم يُدفن بعد. .

٣ ـ هذه السرعة العجيبة التي تمت فيها بيعة أبي بكر مما لم يعهد في تاريخ العالم وكيف استطاع عمر وأبو بكر سلبها من الأنصار وهذا ما استدعى عمر أن يقول عنها «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة[1] فقد كانت كذلك غير أن الله وقى شرها. . .».

٤ ـ لم يعلم بنو هاشم بخبر السقيفة وما جرى فيها إلا بعد أن سمعوا القوم يزفون أبا بكر وأصواتهم تعلو فيستفهمون عن سبب ذلك فيقال لهم: قد بويع أبو بكر. . إنهم كانوا في شغل يجهزون رسول الله. . ولما سمع الإمام التكبير وصل إليه ما احتج به المهاجرون على الأنصار قال: «إحتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة».

٥ ـ لم يبايع علي أبا بكر احتجاجاً عليه وطعناً في بيعته وبقي رافضاً لها منكراً عليه فعله وقد قدرت الروايات مدة احتجاجه بستة أشهر فإنه صاحب الحق الذي يراه قد غصب منه كما في خطبته التي نحن بصددها حيث يقول: «فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى أرى تراثي نهباً».

٦ ـ إن الأمام لو كان يملك القوة التي ينتصر بها ما تأخر ولا تباطأ في الأمر بل هو يقول عندما يرى حقه يسلب يقول: وطفقت ارتئي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء. . فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى. . . . فالأمر يدور بين أن يسكت على ما جرى وبين الحرب وفي الثانية ذهابه وذهاب أهل بيته وبالتالي الخطر الكبير على الإسلام.

٧ ـ إن أبا سفيان جاء إلى الإمام بعد بيعة أبي بكر قائلاً: ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً وفي رواية أخرى: والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم يا آل عبد مناف فيما أبو بكر من أموركم وقال للإمام: أبا حسن أبسط يدك حتى أبايعك فأبى عليه علي وزجره قائلاً: والله ما أردت بهذا إلا الفتنة وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك. .

٨ ـ إن أبا بكر كان يعرف من نفسه أن هناك أكفأ منه وأشد تحملاً لأعباء الخلافة فلذا اعتلى المنبر بعد البيعة ـ في اليوم التالي ـ فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس: قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإني أسأت فقوموني. . .

٩ ـ إن عمر وزميليه أبا بكر وأبا عبيدة لم يحتج أحد منهم بنص وارد عن النبي في

---

(١) الطبري ج/ ٢ حوادث سنة ١١.

حق أحد.. ولو كان لكان الحجة البالغة بل تفويض الناس أن يختاروا عمر وأبي عبيدة وردهما عليه بالبيعة له كان أقوى ما ينفي النص على أبي بكر من قبل النبي والمنصف العدل لا بد من أن يذهب إلى ذلك...

١٠ ـ بهذا الإسلوب الارتجالي كانت بيعة أبي بكر وقد تقمصها ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى كما يقول الأمام.. إنها بيعة خارجة عن الموازين لم تتمتع بإجماع الأمة واتفاقها ولذا بقي سعد بن عبادة وجماعة من الأنصار دون أن يبايعوا وبقي بنو هاشم وسيدهم الإمام علي كذلك على رفض البيعة كما أنها لم تحكم بقانون شرعي ولا عرفي وإنما كانت تحكمها نزعة الارتجال وسرقة المواقف واستغلال الفرص وأخذ الناس على حين غيرة... إنها بيعة فريدة في نوعها لم نجدها تدخل تحت أي عنوان قانوني قديم أو حديث. كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها على حد تعبير عمر..

ترجمة أبي بكر:

(أبو بكر اسمه عبد الله) بن (عثمان وكنيته أبو قحافة) بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك.

وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ولد بعد عام الفيل بثلاثين سنة ومات وله ثلاث وستون سنة في السنة الثالثة عشر للهجرة..

تولى الخلافة بعد النبي كما تقدم وقد غصبها من أهلها الشرعيين وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال وقيل كانت سنتين وأربعة أشهر إلا أربع ليال.

تزوج في الجاهلية قُتيلة بنت عبد العزى بن عامر بن لؤي فولدت له عبد الله وأسماء وتزوج أيضاً أم رومان واسمها دعد بنت عامر بن عميرة الكنانية فولدت له عبد الرحمن وعائشة.

وتزوج في الإسلام أسماء بنت عميس وكانت قبله عند جعفر بن أبي طالب فولدت له محمد بن أبي بكر وكذلك تزوج حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصارية فولدت له بعد وفاته أم كلثوم..

(حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر

فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ما تشطرا ضرعيها . .)

بقي الإمام صابراً محتسباً في أشد أذية وأقساها حتى مات الأول وهو أبو بكر وقبل أن تأتيه المنية منحها وقلدها إلى عمر من بعده فلم يكتف أنه تحملها حياً حتى تحملها ميتاً ثم استشهد عليه السلام بهذا البيت من الشعر للأعشى وأصل نظمه وأساس وضعه، حيان وجابر ابنا السمين بن عمر من بني حنيفة، وكان حيان صاحب الحصن باليمامة وكان سيداً مطاعاً يصله كسرى في كل سنة وكان في نعمة ورفاهية مصوناً من وعثاء السفر لأنه لم يكن يسافر أبداً وكان الأعشى ينادمه في سرور وفرح فقال الأعشى أنه ما أبعد ما بين يوميّ، يومي على كور المطية أدأب وأنصب في الهواجر وبين يومي منادماً حيان أخي جابر . . .

والإمام يريد بالاستشهاد أن يقول أنه فرق كبير وبعيد بين يومي المتعب المؤذي الذي أنا فيه حيث قامت قيامة الناكثين والقاسطين والمارقين وبين أيام خلافة السابقين حيث كان الهدوء والدعة وقال بعضهم فرق كبير بين يومي مع النبي في دعة ونعمة وبين يومي الذي أنا فيه من الحروب والمعارك ثم تعجّب وعجبه في محله وأي عجب أعجب من انسان يقول عندما بويع بالخلافة . . «أقيلوني فلست بخيركم . . » حيث يظهر كرهه وعدم أرادته لها ولكنه لم يلبث أن يقلدها لغيره ويمنحها لأبن الخطاب ينص عليه ويلزم المسلمين ببيعته». ومن كان كارهاً لأمر يتركه فإذا ألزم غيره به لحبه له كان ذلك نقضاً لقوله الماضي القاضي بعدم رغبته فيه . .

ثم إنه عليه السلام شبّه الخلافة بناقة حلوب ولها ضرعان وكل واحد من أبي بكر وعمر أخذ ضرعاً يحلبه لنفسه . . والمعنى أنه لأمر شديد أن يأخذ كل واحد منهما سهماً فيكون أحدهما أميراً والآخر وزيراً حتى إذا قضى الأمير خلفه الوزير وحل محله . . يقول ابن قتيبة في كتابه[1] الإمامة والسياسة دفع أبو بكر إلى عمر كتاباً وقال له: «خذ هذا الكتاب وأخرج به إلى الناس وأخبرهم أنه عهدي وسلهم عن سمعهم وطاعتهم فخرج عمر بالكتاب وأعلمهم فقالوا: سمعاً وطاعة فقال له رجل: ما في الكتاب يا أبا حفص قال: لا أدري ولكني أول من سمع وأطاع قال: لكني والله أدري ما فيه: أمّرته عام أول وأمرك العام . .

---

(١) الإمامة والسياسة ج/ ١ ص ٢٥.

خلافة عمر :

لما نزل بأبي بكر الموت استدعى عبد الرحمن بن عوف فقال له : أخبرني عن عمر فقال : إنه أفضل في رأيك إلا أن فيه غلظة فقال أبو بكر : ذلك لأنه يراني رقيقاً ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه وقد رفقته فكنت إذا غضبت على رجل أراني الرضاء عنه وإذا لنت له أراني الشدة عليه ودعا عثمان بن عفان وقال له : أخبرني عن عمر فقال : سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله . فقال أبو بكر لهما : لا تذكرا مما قلت لكما شيئاً ولو تركته ما عدوتُ عثمان والخيرة له أن لا يلي من أموركم شيئاً ولوددت أني كنت من أموركم خلواً وكنت فيمن مضى من سلفكم .

ودخل طلحة بن عبد الله على أبي بكر فقال : استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه فكيف به إذا خلا بهم وأنت لاقٍ ربك فسائلك عن رعيتك .

فقال أبو بكر : أجلسوني فأجلسوه .

فقال : أبالله تخوفني إذا لقيتُ ربي فسألني قلت : استخلفت على أهلك خير أهلك .

ثم إن أبا بكر أحضر عثمان بن عفان خالياً ليكتب عهد عمر فقال له : إكتب . بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد : ثم أغمي عليه فكتب عثمان : أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً .

ثم أفاق أبو بكر فقال : إقرأ عليّ :
فقرأ عليه فكبّر أبو بكر .
وقال : أراك خفت أن يختلف الناس إن متُّ في غشيتي .
قال نعم .
قال : جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله .

فلما كتب العهد أمر به أن يقرأ على الناس فجمعهم وأرسل الكتاب مع مولى له ومعه عمر فكان عمر يقول للناس : أنصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله فإنه لم يألكم نصحاً فسكن الناس فلما قريء عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا ، وكان أبو بكر أشرف على الناس وقال : أترضون بمن استخلف عليكم فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة وإني قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا . . وفي الأمامة والسياسة لابن قتيبة أن أبا بكر دفع الكتاب إلى عمر فقال له رجل : ما في الكتاب يا أبا حفص؟ قال : لا أدري قال : لكني والله أدري ما فيه : أمرّته عام أول وأمرك العام . .

ملاحظات:

بهذه الطريقة تمت بيعة عمر وبها أصبح خليفة بعد أبي بكر إنها طريقة الاستخلاف والفرض القسري على الأمة ولنا هنا عدة ملاحظات:

١ ـ إن هذه الطريقة في الاستخلاف قد كانت مخالفة لطريقة انتخاب أبي بكر المتقدمة في سقيفة بني ساعدة. . وهنا نقول أي الطريقين أجدى وأجدر بالاتباع وأي الطريقين هو الشرعي المقبول عند الله وهل يبقى من ضابطة تضبط الخلافة وعلى أساسها تتمشى هذه الأمة؟!. .

٢ ـ هذه المشاورة المبتورة التي لم تصلح لشراء حمار أعرج أو جمل أجرب. . استشارة اثنين من الصحابة طعن أحدهما فيه والآخر أثنى والثالث تقدم من نفسه شاكياً باكياً معاتباً زارياً. . .

٣ ـ كيف يتم الكتاب من أبي بكر في حالة الإغماء وكيف يأخذ صفته الشرعية بإتمامه من عثمان؟ وكيف لا يتحرك عمر ويقول لأبي بكر أنه يهجر كما قال للنبي ذلك عندما طلب الكتف والدواة ليكتب للمسلمين كتاباً لن يضلوا بعده فرماه عمر بالهجر دون أبي بكر. . .

٤ ـ ولنفرض أن أبا بكر قد مات في غشيته فكيف يتصرف عثمان ويعيّن الخليفة بعد أبي بكر فهل هناك أعظم جناية وأشد خيانة من هذا التصرف اللاشرعي. .

٥ ـ من أين استمد أبو بكر شرعية استخلافه لعمر هل من الكتاب أم من السنة ولا أظن أنّ أحداً من المسلمين يدعي ذلك فإنه بنفسه لم يدع ذلك وإن قلت أن ذلك كان منه رأي يرتئيه فقلنا ما هكذا تكون الأراء تكتب فيها الكتب وتنزل فيها الصكوك وتتلى على الأمة بشكل قرار حاسم جازم. .

٦ ـ لنا أن نقول أن عمر هو الذي أتم لأبي بكر عقد الخلافة في سقيفة بني ساعدة فهو الذي استدعاه على جناح السرعة وهو الذي قدمه وصفق على يديه ووطأ له الصعب والذلول ومهد له كل السبل فأراد أبو بكر أن يرد له الجميل ويجزيه بالأحسان إحساناً فكان هذا العهد المكتوب والممهور بخاتمه ولذا تصدق كلمة الإمام لعمر عندما دعاه لبيعة أبي بكر فقال له: «إحلب حلباً لك شطره أشدد له اليوم يرده عليك غداً» وقوله في هذه الخطبة «لشد ما تشطرا ضرعيها».

ترجمة عمر بن الخطاب:

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رازح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر العدوي.

وكنيته أبو حفص، وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة المخزومية بنت عم خالد بن الوليد.

قتل في ذي الحجة سنة ٢٣ ودفن في هلال أول محرم سنة ٢٤ وكان آدم طوالاً، أصلع، أعسرَ يَسَراً، يمشي كأنه راكب وكان يصفّر لحيته وكان عمره عندما قتل ثلاثاً وستين سنة وقيل إحدى وستين سنة وقيل خمساً وخمسين سنة وقيل مات ابن ستين قتله أبو لؤلؤة يقول ابن الأثير في تاريخه «خرج عمر بن الخطاب يطوف يوماً في السوق فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وكان نصرانياً فقال: يا أمير المؤمنين أعني على المغيرة بن شعبة فإن عليّ خراجاً كثيراً.

قال: وكم خراجك.

قال: درهمان كل يوم.

قال: وايش صناعتك؟.

قال: نجار، نقاش، حداد.

قال: فما أرى خراجك كثيراً على ما تصنع من الأعمال قد بلغني أنك تقول: لو أردت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت.

قال نعم.

قال: فاعمل لي رحى.

قال: لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ثم انصرف فقال عمر: لقد أوعدني العبد الآن ثم بعد ذلك طعنه أبو لؤلؤة في خنجر له رأسان نصابه في وسطه ضربه ست ضربات إحداهن تحت سرته وهي التي قتلته.

- كانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام.

(فصيّرها في حوزة خشناء) لقد ألقى أبو بكر الخلافة إلى عمر ونقلها إليه وقد كان صاحب طبيعه قاسية فظة وهذا ما يعرفه كل من درس حياة عمر ووقف على تصرفاته، لقد كان يواجه المسلمين بأقسى ما يكون على خلاف أخلاق الإسلام وتعاليمه ويكفي في ذلك ما واجه به النبي عندما أراد أن يكتب للمسلمين كتاباً لن يضلوا بعده فقال: إن النبي

ليهجر حسبنا كتاب الله فقد جرحت هذه الكلمة قلب النبي وآذته حتى أمرهم بالانصراف عنه . .

وكيف أغلظ على جبلة بن الأيهم الملك الغساني الذي أسلم حديثاً فعاد عن الإسلام وعادت معه عشيرته .

وقال ابن أبي الحديد عندما كان يوجه قولة عمر : «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة» قال :

واعلم إن هذه اللفظة من عمر مناسبة لألفاظ كثيرة كان يقولها بمقتضى ما جبله الله تعالى من غلظ الطينة وجفاء الطبيعة ولا حيلة له فيها لأنه مجبول عليها لا يستطيع تغييرها . . إلى أن يقول كما قدمنا قبل ذلك في اللفظة التي قالها في مرض رسول الله (ص) وكالألفاظ التي قالها عام الحديبية وغير ذلك . . .

(يغلظ كلمها ويخشن مسها) وهذا تفسير لتلك الخشونة العمرية فإنها إذا واجهتك بالحديث آذتك وكان جرحها عميقاً وأثره يبقى مدى الدهر وإذا اقتربت منها لحقك ضرر كبير وأذىً شديد وقد نقل لنا التاريخ عينات من تلك الجروح الدامية يوم صلح الحديبية ويوم وفاة رسول الله . . قال ابن أبي الحديد واعلم أن هذه اللفظة ـ كانت[1] بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه ـ قال : واعلم أن هذه اللفظة من عمر مناسبة للفظات كثيرة كان يقولها بمقتضى ما جبله الله تعالى عليه من غلظ الطينة وجفاء الطبيعة ولا حيلة له فيها لأنه مجبول عليها لا يستطيع تغييرها ولا ريب عندنا أنه كان يتعاطى أن يتلطف وأن يخرج ألفاظه مخارج حسنة لطيفة فينزع به الطبع الجاسي والغريزة الغليظة إلى أمثال هذه اللفظات . . إلى آخره .

(ويكثر العثار فيها والاعتذار منها) وهذه الحوزة العمرية ذات الغلظة والشدة يكثر الخطأ منها والزلل في مواقفها وبعد الزلل والخطأ يكثر الاعتذار . وهذا بيان لكثرة ما وقع فيه الخليفة من الأخطاء وقد نقلوا عنه كثيراً من القضايا التي أفتى بها ثم نقضها واعتذر عن تغييرها وهذه عينات من ذلك ونماذج منها . .

١ ـ مر عمر يوماً بشاب من فتيان الأنصار وهو ظمآن فاستسقاه فجدح[2] له ماء بعسل فلم يشربه وقال إن الله تعالى يقول : ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ فقال له الفتى : يا أمير المؤمنين ، إنها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة إقرأ ما قبلها ﴿يوم

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج/ ٢ ص ٢٧ .

(٢) جدح : مزج .

يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾.

فقال عمر: كل الناس أفقه من عمر.

٢ ـ وكان عمر يعس بالليل فسمع صوت رجل وامرأة في بيت فارتاب فتسور الحائط فوجد رجلاً وامرأة وعندهما زق خمر.

فقال: يا عدو الله أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصيته.

قال: يا أمير المؤمنين إن كنت أخطأت في واحدة فقد أخطأت في ثلاث قال الله تعالى: **﴿ولا تجسسوا﴾** وقد تجسست وقال: **﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾** وقد تسورت وقال: **﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا﴾** وما سلّمت..

٣ ـ قال ابن أبي الحديد في شرحه:

وكان عمر يُفتي كثيراً بالحكم ثم ينقضه ويفتي[١] بضده وخلافه، قضى في الجد مع الإخوة قضايا كثيرة مختلفة ثم خاف من الحكم في هذه المسألة فقال: من أراد أن يتقحم جراثيم جهنم فليقل في الجد برأيه.

(فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم) فصاحب تلك الطبيعة الخشنة الغليظة كراكب الناقة التي لا تنقاد لعنادها فإن شد لها زمامها شق أنفها وأدماه وإن تركها على رسلها تسرح كما تشاء وقع في المهالك والمهاوي والمعنى أن طبيعة عمر كالناقة الصعبة إن حبس نفسه ومنعها عن الجري على مقتضى طبيعتها شق عليها وآذاها لما في تغير الطبيعة من الصعوبة والقسوة على النفس وإن تركها على سجيتها وطبيعتها تتصرف كما هي في واقعها وكما طبعت عليه أوردته موارد الهلكة لانحرافها وعدم استقامتها فعمر بين محذورين أحلاهما مر ومن كان بهذه الطبيعة كيف يمكن أن يمكنّ من رقاب الأمة ويتولى شؤونها؟!...

(فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس وتلون واعتراض فصبرت على طول المدة وشدة المحنة) ثم أقسم بالله وهو بار في قسمه إن الناس ابتلوا بطبيعة عمر القاسية صاحبة الأوصاف السابقة وابتلوا بأمور غير مستقيمة ولا واضحة الصحة والشرعية لعدم معرفة عمر بالإسلام من جهة ولغلظته ونفرة في طبيعته من جهة أخرى فكان يتبدل فيما يصدر منه من أحكام وسياسات حيث كان يتبدل الحكم عنده في القضية الواحدة فيفتي فيها

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج/ ١ ص ١٨١.

اليوم بشيء ثم يغير حكمه غداً وينتقل من الشيء إلى ضده فهو متغير الأحكام والمواقف حتى أنه لعدم استقامته كأنه معترض في الطريق لم يمشِ مستقيماً معتدلاً وأي مصيبة تحل بالأمة عندما يكون ولي أمورها متلوناً غير مستقيم؟!. . .

ولكن مع كل تلك المدة الطويلة كان يتذرع بالصبر إنها مدة حكم فيها الخلفاء وهي مدة طويلة حافلة بالتناقضات والانحرافات ومليئة بالظلم والمظالم إنها مع كونها محنة قاسية شديدة حيث تولى الأمر غير أهله مع ذلك كان من الصابرين المنتظرين. .

(حتى إذا مضى لسبيله جعلها في ستة زعم أني أحدهم فيالله وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر ولكني أسففت إذا أسفوا وطرتُ إذا طاروا فصغىٰ رجل منهم لضغنه ومال الآخر لصهره مع هن وهن) يحكي الإمام ما جرى لعمر عندما ضربه أبو لؤلؤة فقتله فإن عمر عندما مات جعل الخلافة بين أيدي ستة من المسلمين كان الإمام أحدهم وهم علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ثم أطلقها كلمة استغاث فيها. . إنها يالله كلمة تخرج من قلب مجروح مكلوم. . يالله وللشورى التي وضعني عمر فيها وجعلني أحد أفرادها. . وأي شورى مشوهة ممسوخة تلك التي ضمت علياً وقرنته إلى غيره فمن يقاربه أو يساويه أو كان يحلم أن يقف معه في صف واحد وموقف واحد. . إن ظلم الحياة لا يطاق ولن تستطيع نفس عالية أن تتحمل إنزالها عن مكانتها وحطها عن مقامها وإدراجها مع غيرها ممن لا يماثلها أو يكافؤها أو يكون نظيراً لها. . ما أقسى الحياة عندما تفرض على الشرفاء أن يتنازلوا ليسفوا مع السفهاء؟. . .

ما أقسى الحياة وما أشد مراراتها عندما يُسوَى بين العالم والجاهل والعابد والفاسق والمؤمن والكافر، والمحق والمبطل والنور والظلمة. . .

يالله وللشورى الظالمة التي أنزلت علياً عن مكانته وحطته إلى درجة بلغت ذروتها فصار يقال علي أحد ستة. . ومتى كان علي يساوى بأبي بكر حتى نزل سهمه فصار يساوى بهؤلاء. . علي أفضل من أبي بكر ولا يقبل أن يُقارن به فكيف يُقارَن بهؤلاء ويساويهم؟!. . .

لا يشك مسلم في أفضلية علي على جميع الصحابة فكيف تصح مقارنته بهؤلاء النظائر.

ثم اعتذر عن نفسه في قبول هذا الوضع تمهيداً لما بعده ولما يأتي خلفه فيقول تصاغرت وتنازلت عن مقامي عندما أنزلوني عنه وتابعتهم عندما أرادوا مني ذلك من أجل

مصلحة الإسلام والمسلمين ولكن أبت الأحقاد والأضغان والانحراف والضلال إلا أن تجرهم إلى هواهم وتقودهم إلى رداهم حيث اجتمع أصحاب الشورى العمرية لاختيار الخليفة وكانت المظلمة الكبرى والانحراف العظيم والضلال البعيد عندما مال رجل وهو سعد بن أبي وقاص إلى عثمان لحقده الذي يحمله على الإمام لأن أم سعد أموية والإمام هو قاتل الأمويين فمال سعد إلى أخواله الذين منهم عثمان حقداً على الإمام.

ومال الآخر وهو عبد الرحمن بن عوف لصهره وهو عثمان لأن أخت عثمان كانت تحت عبد الرحمن بن عوف مع هذا الانحراف كان هناك معايب ومعايب غض عنها النظر..

الشورى العمرية:

سلك عمر في استخلافه مسيرة تخالف ما جرت عليه سبقيفة بني ساعدة عندما انتخب أبو بكر خليفة وكذلك كانت على خلاف مسيرة أبي بكر عندما أوصى بها إلى عمر.. إنه طريق ثالث من طرق تعيين الخليفة يبتكره ابن الخطاب ويخطه للناس ويخالف به ما سنه هو وصاحبه الخليفة الأول وهذا ملخص شوراه التي سنها كما هي في أهم المصادر التاريخية.

إن عمر بن الخطاب لما طُعن قيل له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت فقال: لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني: سمعت نبيك يقول: «إنه أمين هذه الأمة» ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني: سمعت نبيك يقول: «إن سالماً شديد الحب لله تعالى» فقال له رجل أدلك على عبد الله بن عمر.

فقال: قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرب لنا في أموركم فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه وإن كان شراً فقد صرف عنا بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد، وانظر فإن استخلف فقد استخلف من هو خير مني وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ولن يضيع الله دينه.

فخرجوا ثم راحوا فقالوا: يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي أن أنظر فأولي رجلاً أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار إلى علي فرهقتني غشية فرأيت رجلاً دخل جنة فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمه إليه ويصيره

تحته فعلمت أن الله غالب على أمره فما أردت أن أتحملها حياً وميتاً عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ: إنهم من أهل الجنة وهم علي وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله فليختاروا منهم رجلاً فإذا ولوا والياً فأحسنوا موازرته وأعينوه. .

فخرجوا فقال العباس لعلي: لا تدخل معهم قال: إني أكره الخلاف قال: إذن ترى ما تكره فلما أصبح عمر دعا علياً وعثمان وسعداً وعبد الرحمن والزبير فقال لهم: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكني أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس فانهضوا إلى حجرة عائشة بأذنها فتشاوروا فيها ووضع رأسه وقد نزفه الدم.

فدخلوا فتناجوا حتى ارتفعت أصواتهم فقال عبد الله بن عمر: سبحان الله إن أمير المؤمنين لم يمت بعد فسمعه عمر فانتبه وقال: ألا أعرضوا عن هذا فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيب ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر وطلحة شريككم في الأمر فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فامضوا أمركم، ومَنْ لي بطلحة؟ فقال سعد بن أبي وقاص: أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله تعالى.

فقال عمر: أرجو أن لا يخالف إن شاء الله تعالى وما أظن يلي إلا أحد هذين الرجلين: علي وعثمان. فإن ولي عثمان فرجل فيه لين وإن ولي علي ففيه دعابة وأحرى به أن يحملهم على طريق الحق، وإن تولوا سعداً فأهله هو وإلا فليستعن به الوالي فإني لم أعزله عن ضعف ولا خيانة ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف فاسمعوا منه وأطيعوا وقال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة إن الله طالما أعز بكم الإسلام فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم.

وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي فأجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً. .

وقال لصهيب: صلّ بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف.

وإن اتفق أربعة وأبى إثنان فاضرب رؤوسهما وإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم

عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس.

فخرجوا فقال علي لقوم معه من بني هاشم: إن أُطيع فيكم قومكم لم تؤمرّوا أبداً وتلقاه عمه العباس فقال: عدلت عنا.

فقال: وما علمك؟.

قال: قرن بي عثمان وقال: كونوا مع الأكثر فإن رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمه وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليها أحدهما الآخر، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني.

فقال له العباس: لم أرفعك في شيء إلا رجعت إليّ مستأخراً لما أكره، أشرت عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت، فأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى أن لا تدخل معهم فأبيت، إحفظ عني واحدة، كلما عرض عليك القوم فقل: لا، إلا أن يولوك واحذر هؤلاء الرهط فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم به لنا غيرنا وأيم الله لا يناله إلا بشر لا ينفع معه خير.

فقال علي: أما لئن بقي عثمان لأذكرنه ما أتى ولئن مات ليتداولُنها بينهم، ولئن فعلوا لتجدني حيث يكرهون ثم تمثل:

حلفت برب الراقصات عشية ... غدون خفافاً فابتدرن المحصبا
ليختلين رهط بن يعمر قارناً ... نجيعاً بنو الشداخ ورداً مصلبا

والتفت فرأى أبا طلحة فكره مكانه..

فقال أبو طلحة: لن تراع أبا الحسن.

فلما مات عمر وأخرجت جنازته صلى عليه صهيب، فلما دُفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل في بيت المال وقيل في حجرة عائشة بإذنها وطلحة غائب وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب فحصبهما سعد وأقمهما وقال: تريدان أن تقولا: حضرنا وكنا في أهل الشورى..

فتنافس القوم في الأمر وكثر فيهم الكلام.

فقال أبو طلحة: أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها والذي ذهب بنفس

عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمر ثم أجلس في بيتي فانظر ما تصنعون.

فقال عبد الرحمن: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد.

فقال: فأنا أنخلع منها.

فقال عثمان: أنا أول من رضي.

فقال القوم: قد رضينا وعلي ساكت.

فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟.

قال: أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخصّ ذا رحم ولا تألو الأمة نصحاً.

فقال: اعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدّل وغيّر وأن ترضوا من اخترت لكم وعليّ ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله.

فقال لعلي: تقول: إني أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بها.

قال: عثمان.

وخلا بعثمان فقال: تقول شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه ولي سابقة وفضل فأين يصرف هذا الأمر عني؟ ولكن لو لم تحضر أي هؤلاء الرهط تراه أحق به؟.

قال: علي.

ولقي علي سعداً فقال له: «إتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام» أسألك برحم ابني هذا من رسول الله ﷺ وبرحم عمي حمزة منك أن تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً ودار عبد الرحمن لياليه يلقى أصحاب رسول الله ﷺ ومَنْ وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم حتى إذا كان الليلة التي صبيحتها يستكمل الأجل أتى منزل المسور بن مخرمة فأيقظه وقال له: لم أذق في هذه الليلة كبير غمض انطلق فادع الزبير وسعداً فدعاهما فبدأ بالزبير قال له:

خل بني عبد مناف وهذا الأمر.

قال: نصيبي لعلي.

وقال لسعد: اجعل نصيبك لي.

فقال: إن اخترت نفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعلي أحب إليّ، أيها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا.

فقال له: خلعت نفسي على أن أختار ولو لم أفعل لم أردها، إني رأيت روضة خضراء كثيرة العشب فدخل فحل ما رأيت أكرم منه فمر كأنه سهم لم يلتفت إلى شيء منها حتى قطعها لم يعرّج.

ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج منها ثم دخل فحل عبقري يجرّ خطامه ومضى قصد الأولين ثم دخل بعير رابع فرتع في الروضة، ولا والله لا أكون الرابع ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحد فيرضى الناس عنه.

قال: وأرسل المسور فاستدعى علياً فناجاه طويلاً وهو لا يشك أنه صاحب الأمر، ثم نهض، ثم أرسل إلى عثمان فتناجيا حتى فرّق بينهما الصبح.

قال عمرو بن ميمون: قال لي عبد الله بن عمر: من أخبرك أنه يعلم ما كلّم به عبد الرحمن بن عوف علياً وعثمان فقد قال بغير علم فوقع قضاء ربك على عثمان فلما صلوا الصبح جمع الرهط وبعث إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وإلى أمراء الأجناد فاجتمعوا حتى التجّ المسجد بأهله.

فقال: أيها الناس، إن الناس قد أجمعوا أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم فأشيروا علي؟.

فقال عمار: إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً فقال المقداد بن الأسود، صدق عمار إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا.

قال ابن أبي سرح: إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان.

فقال عبد الله بن أبي ربيعة: صدقت إن بايعت عثمان قلنا: سمعنا وأطعنا، فشتم عمارُ ابن أبي سرح وقالَ: متى كنت تنصح المسلمين، فتكلم بنو هاشم وبنو أمية.

فقال عمار: أيها الناس إن الله أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟.

فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يا ابن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها.

فقال سعد بن أبي وقاص: يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس.

فقال عبد الرحمن: إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلُنّ أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً ودعا علياً، وقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده (وسيرة الخليفتين أبي بكر وعمر) قال: بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأي فعدل إلى عثمان فقال له مثل ما قال لعلي.

فقال: نعم نعمل فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم، إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان فبايعه.

فقال علي: ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك والله كل يوم في شأن.

فقال عبد الرحمن: يا علي لا تجعل على نفسك حجة وسبيلاً فخرج علي وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله.

فقال المقداد: يا عبد الرحمن، أما والله لقد تركته وإنه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون.

فقال: يا مقداد، والله لقد اجتهدت للمسلمين.

قال: إن كنت أردت الله فاثابك الله ثواب المحسنين.

فقال المقداد: ما رأيت مثل ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم، إني لأعجب من قريش إنهم نركوا رجلاً ما أقول ولا أعلم أن رجلاً أقضى بالعدل ولا أعلم منه أما والله لو أجد أعواناً عليهم.

ملاحظات:

هذه هي شورى عمر التي أدمت قلب الإمام بل قلب الإسلام لأنها جاءت بعثمان خليفة فغيّر مسيرة رسول الله وبدلّ أحكامه إنه غير مؤهل للخلافة ولا يستحقها وقد فتح باب الفتنة والنزاع بين المسلمين ولنا على هذه الشورى عدة ملاحظات نرجو أن تؤخذ بعين الاعتبار ويعاد التفكير فيها جدياً ملتمساً كل منا رضى الله وإدراك الحقيقة. .

١ ـ ما هذه الشورى العمرية التي خالف فيها سيرة صاحبه عندما عهد بالخلافة إليه

بل خالف ما جرت عليه سقيفة بني ساعدة في انتخاب أبي بكر فهذه بدعة جديدة يعجب المرء منها ويقف حائراً متفكراً.. لماذا تعيّنت بهؤلاء الستة من المسلمين دون غيرهم؟.. وأين حرية الناس وحرية اختيارهم؟!... وهل بقي للناس من كرامة بعد هذا التعيين المهين؟.. وأظن أن اختلاف السُّنة في تعيين أولياء الأمر وترددهم الطويل فيه من أنهم الأمراء أو الفقهاء أو الجميع، أو المقدمون في الأمة كل ذلك نتيجة عدم الرؤية السليمة في شورى عمر.. نعم إنه رأي ارتجله وأراد أن يضعه للناس كطريق ثالث في انتخاب الخليفة بعد الطريقيْن ـ السقيفة وعهد أبي بكر له...

٢ ـ إن عمر يستهل الحديث لمن طلب منه أن يستخلف قائلاً: لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني سمعت نبيك يقول: «إنه أمين هذه الأمة».

وهنا نقول: هل الأمانة هي التي تخول الإنسان ليكون خليفة على المسلمين حتى يختار عمر أبا عبيدة المتوفى ثم يا ترى هل فُقد الأمناء في الأمة بعد أبي عبيدة ولم يبق فيها أمين...

ثم إنه يقع نظره على سالم عبد أبي حذيفة ويتمنى لو كان حياً ليوليه وعلل ذلك أنه كان يحب الله فهل بموت سالم مات المحبون لله ولم يعد أحد ممن يحب الله..؟ نحن نسأل أين أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وأين جهادهم وكفاحهم ودفاعهم فلم يعد أحد منهم يحب الله؟!... وأين هو عن باب مدينة العلم وفارس المسلمين وابن عم النبي ومن آخاه الرسول وجعله عديل نفسه...؟!...

٣ ـ قال عمر في أول حديثه «أجمعت بعد مقالتي أن أنظر فأولي رجلاً أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار إلى علي فرهقتني غشية فرأيت رجلاً دخل جنة فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمه إليه ويصيره تحته فعلمت أن الله غالب على أمره فما أردت أن أتحملها حياً وميتاً..

فهذا الإقرار من عمر واضح ظاهر على مستوى قل هو الله أحد لا يحتاج إلى فلسفة ولا اجتهاد، إنه يعرف من يحمل الأمة على الحق ولا يحابي أو يساوم، عرف أن علياً هو المستحق لها فكيف يخرج عنه ويترك الوصية له لرؤيا رآها قد تكون من ألم الضربة وسوء المزاج..؟!.. كيف تناسيت من تعرف منه الحق والعدل والمقام الرفيع وتعرفه المؤهل لقيادة الأمة كيف تتركه وتعدل عنه إلى غيره لمنام قد يكون من الشيطان..؟...

وهل في الشرع والدين ما يجوّز ضرب الحق والعدل لمجرد منام يراه الفرد؟!.. فلو رأى الإنسان أن يقتل مسلماً أو أن يتنّصر أو يرتدِ هل يجوّز الشرعَ ذلك؟!.. **كلا..**

وألف كلا.. إن دين الله وحقائق الإسلام لا يبنى شيء منها على المنامات والخيالات...

٤ ـ إن عمر يجعل الشورى في ستة تارة يقول إن الرسول قال لهم: إنهم من أهل الجنة وأخرى يقول لهم إن رسول الله ﷺ قد قُبض وهو عنكم راضٍ.. نقول كيف يتوافق هذا القول مع أمره لأبي طلحة أن يضرب عنق الأقلية منهم إذا افترقوا وكانت الأكثرية لجهة تخالفها...

وهل يباح دم أصحاب الجنة ومن رضى الرسول عنهم بهذه السهولة وهذا اليسر؟!...

٥ ـ إن عمر بن الخطاب يقول: إن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكّموا عبد الله بن عمر فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس.

وهنا لنا الحق أن نتساءل لماذا جعل لأبنه هذا الحق ومن أين استمد شرعيته وبأي آية نزل ذلك وبأي حديث ورد.

ثم لماذا تكون كفة عبد الرحمن بن عوف هي الراجحة وما هي مرجحات هذا الرجل على غيره.

٦ ـ إن بيعة عبد الرحمن بن عوف كانت على كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين.

والسؤال لماذا يشترط عبد الرحمن على من يريد أن يبايعه أن تكون سيرته على سيرة الشيخين أبي بكر وعمر؟ أفلا يأتي كتاب الله وسنة نبيه على كل شرط؟ وهل بعد العمل بهما بحاجة إلى سيرة أحد من المسلمين؟ ثم كيف يتفق هذا الشرط ـ سيرة الشيخين ـ مع كون كل منهما له سيرة تخالف الأخرى ولنأخذ أقرب الأمور ـ الخلافة ـ فانظر إلى أبي بكر كيف استخلف عمر بالنص عليه من قبله وانظر إلى عمر كيف جعلها شورى بين ستة أشخاص ثم اضرب بنظرك إلى مخالفتهما لبعضهما تجد العجب العجاب وما يحيّر أولي الألباب.

المرشحون للخلافة في رأي عمر:

ذكر ابن أبي الحديد في نهجه:

طلب عمر حضور المرشحين الستة عنده قائلاً ادعوهم لي، فدعوهم فدخلوا عليه

وهو ملقى على فراشه يجود بنفسه.

فنظر إليهم فقال: أكلكم يطمع في الخلافة بعدي، فوجموا فقال لهم ثانية فأجابه الزبير وقال: وما الذي يبعدنا منها وليتها أنت وقمت بها ولسنا دونك في قريش ولا في السابقة ولا في القرابة.

قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ: والله لولا علمه إن عمر يموت في مجلسه ذلك لم يقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة ولا أن تنفّس منه بلفظة.

فقال عمر: أفلا أخبركم عن أنفسكم قال: قل فإنا لو استعفيناك لم تعفنا.

فقال: أما أنت يا زبير فوعق لقس مؤمن الرضا كافر الغضب يوماً إنسان ويوماً شيطان ولعلها لو أفضت إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير أفرأيت إن أفضت إليك فليت شعري مَنْ يكون للناس يوم تكون شيطاناً ومن يكون يوم تغضب وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة وأنت على هذه الصفة.

ثم أقبل على طلحة ـ وكان له مبغضاً منذ قال لأبي بكر ما قال في عمر فقال له: أقول أم أسكت.

قال: قل فإنك لا تقول من الخير شيئاً.

قال: أما إني أعرفك منذ أصيبت أصبعك يوم أُحد وائباً بالذي حدث لك، ولقد مات رسول الله ﷺ ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب.

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله تعالى: الكلمة المذكورة إن طلحة لما أنزلت آية الحجاب قال بمحضر ممن نقل عنه إلى رسول الله ﷺ: ما الذي يعنيه حجابهن اليوم وسيموت غداً فننكحهن قال أبو عثمان أيضاً: لو قال لعمر قائل: أنت قلت: إن رسول الله ﷺ، مات وهو راضٍ عن الستة فكيف تقول الآن لطلحة إنه مات عليه السلام ساخطاً عليك للكلمة التي قلتها ـ لكان قد رماه بمشاقصة[١] ولكن من الذي كان يجسر على عمر أن يقول له ما دون هذا فكيف هذا.

ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص فقال: إنما أنت صاحب مقنب من هذه المقانب تقاتل به وصاحب قنص وقوس وأسهم وما زهرة والخلافة وأمور الناس ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف فقال: وأما أنت يا عبد الرحمن فلو وزن نصف إيمان المسلمين

---

(١) المشاقص: مفردها مِشقص وهو سهم فيه نصل عريض.

بإيمانك لرجح إيمانك به ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك وما زهرة وهذا الأمر.

ثم أقبل على علي عليه السلام فقال: لله أنت لولا دعابة فيك، أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء.

ثم أقبل على عثمان فقال: هيهاً إليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً والله لئن فعلوا لتفعلن ولئن فعلت ليفعلن ثم أخذ بناصيته فقال: فإذا كان ذلك فاذكر قولي فإنه كائن...

بربك إقرأ هذا الحوار وهذا التقييم الفذ واعرف مَن يكون الخليفة حتى بنظر عمر وكيف لم يعينه باسمه من بين الستة مع إنه ظاهر واضح ولكن كيف يتولى علي الخلافة فيعري من تقدم عليه ويُعجز مَن يأتي بعده...

(إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه وقام معه بنو أمية يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته). هذه صورة حقيقية عن عثمان الخليفة، ينقلها الإمام بأبدع بيان تعجز ريشة أعظم الفنانين عن رسمها وحكايتها كما هي صورة الثالث بعد أبي بكر وعمر.. الخليفة الممثل لرسول الله في قيادة الأمة وإدارة شؤونها والذي على يديه يجب أن يكون هدايتها وإرشادها وردها إن هي جنحت أو تأخرت...

عثمان بن عفان قام بأمر الخلافة بعد عمر وكان ينبغي أن يكون له في رسول الله قدوة حسنة وهو الذي عاش معه ووقف على سيرته وسلوكه وتفاصيل حياته.. تولى عثمان الخلافة وقد ألحق بها وبالمسلمين أعظم الضرر وأكبره.. لقد شوه صورة الخلافة ومسخ دورها وجعلها أداة يستغلها لصالحه ولصالح أسرته الأموية...

لقد أساء استخدام السلطة أيما إساءة.. إساءة دفعت بالمسلمين أن يقوموا في وجهه بثورة قضت عليه وأنهته من الوجود...

تربع عثمان على عرش الخلافة الإسلامية بشورى عمر الذي حصرها في ستة أشخاص وتمت صفقة التجار لصالحه وقد صدقت فراسة عمر فيه حينما قال له: هيهاً إليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على

فراشك ذبحاً والله لئن فعلوا لتفعلن ولئن فعلت ليفعلن ثم أخذ بناصيته فقال: فإذا كان ذلك فاذكر قولي فإنه كائن... يرسم الإمام عثمان كما هو ويظهره على حقيقته لقد شبهه بالبهيمة التي لا هم لها إلا بطنها تأكل لتمتلىء فشغلها الأكل وما يخرج منها من روث.. فعملها أكلها ورجيعها، . ما تأكله وما تضعه وقوله نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه يريد عليه السلام أن عثمان كان همه نفسه يأكل حتى تنتفخ جنبتاه ويشغله أكله وروثه. قال ابن أبي الحديد: وهذا ممضّ الذم وأشد من قول الحطيئة الذي قيل: إنه أهجى بيت للعرب:

دع المكـارم لا تـرحـل لبغيتهـا وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ولم يكن عثمان وحده المتفرد بهذا النعيم من بيت مال المسلمين وما جنته سيوفهم بل قام معه وعلى سيرته بنو أبيه، بنو أمية الأشرار يأكلون أموال المسلمين وفيئهم كما تأكل الجمال نبات الربيع بشهية ورغبة وشهوة وبملىء فمها، فإنهم قاموا بسلب أموال المسلمين وامتلاكها فصادروا ممتلكات المسلمين العامة واستولوا على الخراج وأخذوا من الخليفة الأعطيات والمنح والجوائز والقطائع واستأثروا فأساؤا الأثرة وبقي الأمر يزداد سوء حتى كانت أفعال الخليفة هي التي سببت قتله فما جناه من سوء وما قام به من تجاوزات وقبائح هي التي قضت عليه فقد كانت شهوة بطنه ورغباته الدنيئة مساعدة لأفعاله في القضاء عليه و...

مخالفات عثمان:

كل منصف بصير يدرس التاريخ بموضوعية ويكون حيادياً في نظرته لا تأخذه العاطفة أو تشده التربية أو تأسره العقيدة لا بد وأن يحكم على عثمان بالانحراف عن سيرة رسول الله ومخالفته لأحكام الله سواء كان ذلك عن حسن نية منه أو عن سوء نية..

خالف عثمان سيرة رسول الله وسيرة الشيخين وقد نهاه المسلمون صحابة وتابعين ولم يألوا جهداً في رده إلى الطريق فأبى عليه مروان حتى أورده مورده وقضى عليه بمكره وخبثه.. نقمة عامة ممّن كان داخل المدينة ومن كان خارجها حتى تشكلت الثورة عليه وقضت على وجوده ونحن سنختصر تلك المخالفات التي أحصاها التاريخ عليه كما هي في مصادرها نذكرها بإيجاز.

١ ـ وليّ أمور المسلمين من لا يصلح لذلك ولا يؤتمن عليه ومن ظهر منه الفسق والفساد ومن لا علم عنده مراعاة منه لحرمة القرابة وعدولاً عن مراعاة حرمة الدين والنظر للمسلمين حتى ظهر منه ذلك وتكرر وقد كان عمر حذره من ذلك حيث وصفه بأنه

كلف بأقاربه وقال له: إذا وليت هذا الأمر فلا تسلط بني أبي معيط على رقاب الناس. . فاستعمل الوليد بن عقبة حتى ظهر منه شرب الخمر واستعمل سعيد بن العاص حتى ظهرت منه الأمور التي عندها أخرجه أهل الكوفة وولى عبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر بن كريز وهؤلاء لا دين لهم ولا كرامة عندهم والأصعب من ذلك استعماله لمروان في شؤونه وجعله المتكلم باسمه حتى غدا كما يقول أحدهم: أصبح الخليفة مروان في ثوب عثمان. .

٢ ـ رد الحكم بن أبي العاص (عم عثمان) إلى المدينة وقد كان رسول الله ﷺ طرده وقال له: «لا تساكني في بلد أبداً» فجاء عثمان فكلمه فأبى ثم كان من أبي بكر مثل ذلك ثم كان من عمر مثل ذلك فلما قام عثمان أدخله ووصله وأكرمه وقد عاتبه المسلمون وخوفوه الله فأبى.

٣ ـ إنه كان يؤثر أهل بيته بالأعطيات العظيمة دون حق ولا استحقاق.

منها إنه زوج بناته ودفع لكل رجل من أصهاره أربعماية ألف دينار.

منها إنه كان بحضرته زياد بن عبيد مولى الحارث بن كلدة الثقفي وقد بعث إليه أبو موسى بمال عظيم من البصرة فجعل عثمان يقسمه بين ولده وأهله بالصحاف فبكى زياد.

فقال: لا تبك، فإن عمر كان يمنع أهله وذوي قرابته ابتغاء وجه الله وأنا أعطي أهلي وولدي وقرابتي ابتغاء وجه الله.

وروى الواقدي بإسناده قال: قدمت إبل من إبل الصدقة على عثمان فوهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص ومنها أنه ولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف ألف فوهبها له حين أتاه بها ومنها أن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية قدم على عثمان من مكة ومعه ناس فأمر لعبد الله بثلاثماية ألف ولكل واحد من القوم بمائة ألف وصك (كتب) بذلك على عبد الله بن الأرقم وكان خازن بيت المال ـ فاستكثر ورد الصك ويقال أنه سأل عثمان أن يكتب عليه بذلك كتاباً فأبى وامتنع ابن الأرقم أن يدفع المال إلى القوم.

فقال عثمان: إنما أنت خازن لنا فما حملك على ما فعلت فقال ابن الأرقم: كنت أراني خازن المسلمين وإنما خازنك غلامك، والله لا ألي لك بيت المال أبداً وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر ويقال: بل ألقاها إلى عثمان فرفعها إلى نائل مولاه.

ومنها أنه دفع إلى مروان خمس أفريقيا عندما افتتحها المسلمون.

٤ ـ إنه حمى الحمى عن المسلمين لصالحه وصالح أسرته مع أن رسول الله ﷺ جعلهم سواء في الماء والكلأ.

٥ ـ إنه ضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر بعض أضلاعه وقد كفره عبد الله وأخذ يطعن عليه ويقول: ما يزن عثمان عند الله جناح ذباب.

وقال عندما حضرته الوفاة قال لمن حضره: من يتقبل مني وصية أوصيه بها على ما فيها فسكت القوم وعرفوا الذي يريد فأعادها.

فقال عمار بن ياسر رحمه الله تعالى: أنا أقبلها فقال ابن مسعود: ألا يصلي عليَّ عثمان.

قال: ذلك لك، وهكذا كان ومن لطيف ما ينقل عن عثمان وابن مسعود: إن ابن مسعود مرض مرضه الذي مات فيه فأتاه عثمان عائداً:

فقال: ما تشتكي؟.

فقال: ذنوبي.

قال: فما تشتهي.

قال: رحمة ربي.

قال: ألا أدعو لك طبيباً.

قال: الطبيب أمرضني.

قال: أفلا آمر لك بعطائك.

قال: منعتنيه وأنا محتاج إليه وتعطنيه وأنا مستغن عنه.

قال: يكون لولدك.

قال: رزقهم على الله تعالى.

قال: أستغفر لي يا أبا عبد الرحمن.

قال: أسأل الله أن يأخذ لي منك.

٦ ـ إنه ضرب عمار بن ياسر صاحب رسول الله حتى حدث به فتق فقد روي في سبب ذلك أنه كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجواهر فأخذ منه عثمان ما حلى به بعض أهله فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك وكلموه فيه بكل كلام شديد حتى أغضبوه فخطب فقال: لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت به أنوف أقوام فقال له علي عليه السلام: إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه فقال عمار: أشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك..

فقال عثمان: أعليّ يا ابن ياسر تجتريء خذوه فأخذ ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشي عليه ثم أخرج فحمل حتى أتى به منزل أم سلمة رضي الله عنها فلم يصلّ الظهر والعصر والمغرب فلما أفاق توضأ وصلى وقال: الحمد لله ليس هذا أول يوم أوذينا في الله تعالى وبلغ ذلك عائشة فغضبت وأخرجت شعراً من شعر رسول الله ونعلاً من نعاله وثوباً من ثيابه وقالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد.

٧ ـ نفيه لأبي ذر صاحب رسول الله حتى مات غريباً شريداً ولو لم يكن لعثمان إلا هذه الخطيئة لكانت عظيمة يستحق عليها العذاب الأليم. . صاحب رسول الله التقي الزاهد المجاهد الناصح يغرب عن وطنه ويهجر عن بلده لأنه رفض التجاوزات العثمانية. . أبو ذر وجد بأم عينه ما يحدثه عثمان فعزّ عليه أن يغيّر سنة رسول الله فكانت نتيجته أن نفاه إلى الشام فوجد معاوية في طغيانه فأنكر عليه ممّا استدعى معاوية أن يكتب لعثمان فرده إلى المدينة ثم نفاه إلى الربذة بعيداً عن مدينة الرسول أحب الأماكن إليه. . . يذكر التاريخ: إن عثمان لما أعطى مروان بن الحكم ما أعطاه، وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثماية ألف درهم وأعطى زيدبن ثابت مائة الف درهم جعل أبو ذر يقول: بشر الكانزين بعذاب أليم ويتلو قوله تعالى: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**﴾ فرفع ذلك مروان إلى عثمان فأرسل إلى أبي ذر نائلاً مولاه: أن انته عما يبلغني عنك.

فقال: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله فوالله لأن أرضي الله سبحانه بسخط عثمان أحب إليَّ وخير لي من أن أسخط الله برضاه فأغضب عثمان ذلك واحفظه فتصابر.

وقال يوماً: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال فإذا أيسر قضى؟.

فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك.

فقال له أبو ذر: يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا.

فقال عثمان: قد كثر أذاك لي وتولعك بأصحابي الحق بالشام فأخرجه إليها فكان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء يفعلها فبعث إليه معاوية ثلاثماية دينار فقال أبو ذر: إن كانت هذه من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتُها وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها وردها عليه.

وبنى معاوية الخضراء بدمشق.

فقال أبو ذر: يا معاوية إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة وإن كانت من مالك

فهو الإسراف وكان أبو ذر رحمه الله تعالى يقول: والله حدثت أعمال ما أعرفها والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه والله إني أرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا وصادقاً مكذباً وأثرة بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه.

فقال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية: إن أبا ذر لمفسد عليكم الشام فتدارك أهله إن كانت لكم حاجة فيه فكتب معاوية إلى عثمان فيه فكتب عثمان إلى معاوية: أما بعد فاحمل جندباً (اسم أبي ذر) إليَّ على أغلظ مركب وأوعره فوجّه به مع من سار به الليل والنهار وحمله على شارف (الناقة المسنة الهرمة) ليس عليها إلا قتب حتى قدم به المدينة وقد سقط لحم فخذيه من الجهد فلما قدم أبو ذر المدينة بعث إليه عثمان أن الحق بأي أرض شئت فقال: بمكة؟.

قال: لا، قال فبيت المقدس؟ قال: لا، قال فأحد المصرين (الكوفة أو البصرة) قال: لا ولكني مسيرك إلى الربذة فسيره إليها فلم يزل بها حتى مات.

٨ ـ تعطيله الحد الواجب على عبيد الله بن عمر بن الخطاب فإنه قتل الهرمزان مسلماً فلم يقده به وقد كان أمير المؤمنين يطلبه لذلك.

٩ ـ سيّر عثمان صلحاء أهل الكوفة وفيهم كميل بن زياد وصعصعة بن صوحان إلى معاوية في الشام ولما لم يوافقوه على ظلمه ولم يتراجعوا عن مواقفهم المحقة سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان على حمص فأهانهم وسبهم واستخف بهم.

أراء الصحابة في عثمان:

اجتمعت كلمة أصحاب النبي على التخلّص من عثمان ـ عدا قلة قليلة منتفعة من وجوده وحكمه ـ ولذا نرى كيف أنهم ما بين محرّض على قتله ومشترك فيه وبين مشاهد لا يذب عنه ولا يدفع وهذا ما ينقله التاريخ إلينا يقول ابن الأثير في تاريخه:

تكاتب نفر من أصحاب رسول[1] الله ﷺ وغيرهم بعضهم إلى بعض «أن أقدموا فإن الجهاد عندنا وعظم الناس على عثمان ونالوا منه وليس أحد من الصحابة ينهى ولا يذب إلا نفر.

ومرة أخرى يقول: كتب جمع من أهل[2] المدينة من الصحابة وغيرهم إلى من

(١) ابن الأثير ج/ ٣ ص ١٥٠.
(٢) ابن الأثير ج/ ٣ ص ١٦٨.

بالآفاق منهم: إن أردتم الجهاد فهلموا إليه فإن دين محمد ﷺ قد أفسده خليفتكم فأقيموه..

ـ قالت أم المؤمنين عائشة لمروان عندما جاء يكلمها أن تتوسط لعثمان في دفع الثوار عنه قالت: يا مروان وددت أنه في غرارة من غرائري هذه وأني طوّقت حمله حتى ألقيه في البحر قال ابن أبي الحديد: كل من صنف في السير والأخبار: إن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان حتى أنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله ﷺ فنصبته في منزلها وكانت تقول: للداخلين إليها هذا ثوب رسول الله لم يبل وعثمان قد أبلى سنته وكانت تقول اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً.

ـ في الإمامة والسياسة لابن قتيبة: أقام أهل الكوفة وأهل مصر بباب عثمان ليلاً ونهاراً وطلحة يحرّض الفريقين جميعاً على عثمان ثم إن طلحة قال لهم: إن عثمان لا يبالي ما حصرتموه وهو يدخل إليه الطعام والشراب فامنعوه الماء أن يدخل عليه.

ـ قال ابن أبي الحديد في شرحه كان طلحة من أشد الناس تحريضاً عليه ـ على عثمان ـ وكان الزبير دونه في ذلك رووا أن الزبير كان يقول: اقتلوه فقد بدّل دينكم فقالوا: إن ابنك يحامي عنه بالباب، فقال ما أكره أن يُقتل عثمان ولو بدىء بابني، إن عثمان لجيفة على الصراط غداً.

ـ قال صاحب الفتنة الكبرى (طه حسين) روى أن ابن مسعود كان يستحل دم عثمان أيام كان في الكوفة وهو كان يخطب الناس فيقول إن شر الأمور محدثاتها وكل محدث بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار يعرض في ذلك بعثمان وعامله الوليد.

ـ وعمار ابن ياسر يخطب يوم صفين فيقول: إنهضوا معي عباد الله إلى قوم يزعمون أنهم يطلبون بدم ظالم، إنما قتله الصالحون المنكرون للعدوان الآمرون بالإحسان.. هذه عينات من آراء الصحابة وهناك الكثير من هذا الباب من أراده فليرجع إلى الموسوعات كالغدير والطبقات والتواريخ.

مقتل عثمان:

سنذكر مقتل عثمان بصورة موجزة جداً ولا ندخل في بعض التفاصيل غير المفيدة لأن قتله لم يكن منهم إلا بعد أخذ ورد ووعد وحنث ومحاورات طالت وأحداث جرت يقول المؤرخون ما ملخصه:

لما كانت سنة خمس وثلاثين ـ وهي السنة التي قتل فيها عثمان ـ سار مالك بن الحارث النخعي من الكوفة في مائتي رجل وحكيم بن جبلة العبدي في مائة رجل من أهل البصرة ومن أهل مصر ستماية رجل على أربعة ألوية لها رؤوس أربعة مع كل رجل منهم لواء وفيهم محمد بن أبي بكر وكان جماع أمرهم إلى عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي وكان من أصحاب النبي ﷺ وإلى عبد الرحمن بن عديس التجيبي وقد كتبوا إلى عثمان كتاباً يذكرونه بالله وباليوم الآخر.

وكتب أهل المدينة إليه أيضاً يدعونه إلى التوبة ويحتجون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله فلما خاف القتل شاور نصحاءه وأهل بيته فقال لهم: قد صنع القوم ما قد رأيتم فما المخرج؟.

فأشاروا عليه أن يرسل إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فيطلب إليه أن يردهم عنه ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى يأتيه إمداد.

فقال عثمان: إنّ القوم لن يقبلوا التعليل وهم محمليٍّ عهداً وقد كان مني في قدمتهم الأولى ما كان فمتى أعطهم ذلك سألوني الوفاء به.

فقال مروان بن الحكم: يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب فاعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك فإن هم بغوا عليك فلا عهد لهم فأرسل إلى علي عليه السلام فدعاه فلما جاءه قال: يا أبا حسن إنه قد كان من الناس ما قد رأيت وكان مني ما قد علمت ولست آمنهم على قتلي فارددهم عني فإن لهم الله عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون وأن أعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي فقال له عليه السلام: الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك وإني لا أرى قوماً لا يرضون إلا بالرضى وقد كنت أعطيتهم في قدمتهم الأولى عهداً من الله لترجعن عن جميع ما نقموا فرددتهم عنك ثم لم تفِ لهم بشيء من ذلك فلا تغرني هذه المرة من شيء فإني معطيهم عليك الحق، قال: نعم فاعطهم فوالله لأفيَنّ لهم فخرج علي عليه السلام إلى الناس فقال: أيها الناس إنكم إنما طلبتم الحق فقد أعطيتموه، إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره وراجع عن جميع ما تكرهون فاقبلوا منه ووكدوا عليه.

قال الناس: قد قبلنا فاستوثق منه لنا فإنا والله ما نرضى بقول دون فعل.

فقال لهم علي عليه السلام: ذلك لكم، ثم دخل عليه فأخبره الخبر فقال عثمان:

اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة فإني لا أقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد.

قال له علي عليه السلام: ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك.

قال: نعم، ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام قال علي عليه السلام: نعم فخرج إلى الناس فأخبرهم بذلك وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه ثم أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار فكف المسلمون عنه ورجعوا إلى أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه.

فجعل عثمان يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح حتى مضت الثلاثة وهو على حاله لم يغير شيئاً وكان أهل مصر قد طلبوا منه عزل ابن أبي سرح عاملهم فقال: اختاروا رجلاً أوليه عليكم.

فقالوا: استعمل محمد بن أبي بكر فكتب عثمان عهده وولاه مصر.

خرج محمد ومن معه ولما كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة فإذا بهم يلتقون بورس غلام عثمان على جمل عثمان نفسه فقال له أصحاب محمد بن أبي بكر ما قصتك وما شأنك إن لك لأمراً.

فقال: أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر.

فقال له رجل: هذا عامل مصر معنا.

قال: ليس هذا أريد فأخبر محمد بأمره فبعث في طلبه فجاء به إليه فقال له: غلام من أنت؟.

فأقبل مرة يقول: أنا غلام مروان وأخرى يقول: أنا غلام عثمان حتى عرفه رجل أنه لعثمان.

فقال له محمد: إلى من أرسلك.

قال: إلى عامل مصر.

قال: بماذا؟.

قال: برسالة.

قال: أما معك كتاب؟.

قال: لا، ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباً وكانت معه إدواة قد يبست فيها شيء يتقلقل

فحركوه ليخرج فلم يخرج فشقوا إدواته فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح عامل مصر وفض محمد الكتاب وقرأه على الحاضرين فإذا فيه: إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان إصلبهم واقتلهم واقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وابطل كتابهم وقرّ على عملك حتى يأتيك رأي..

فلما رأوا الكتاب فزعوا منه ورجعوا إلى المدينة وختم محمد الكتاب بخواتم النفر الذين كانوا معه ودفعه إلى رجل منهم ثم قدموا المدينة فجمعوا علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان من أصحاب رسول الله ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم واخبرهم بقصة الغلام واقرأهم الكتاب فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان وقام أصحاب النبي ﷺ فلحقوا بمنازلهم وحصر الناس عثمان وأحاطوا به ومنعوه الماء والخروج ومن كان معه وأجلب عليه محمد بن أبي بكر وفي المصادر التاريخية:

لما قدموا المدينة أتوا علياً فقالوا: ألم تر إلى عدو الله عثمان أنه كتب فينا بكذا وكذا وإن الله قد أحل دمه قم معنا إليه.

قال: والله لا أقوم معكم، ثم خرج خارج المدينة.

وفي الإمامة والسياسة لابن قتيبة.

ثم أقبل الأشتر النخعي من الكوفة في ألف رجل وأقبل ابن أبي حذيفة من مصر في أربعماية رجل فأقام أهل الكوفة وأهل مصر بباب عثمان ليلاً ونهاراً وطلحة يحرض الفريقين جميعاً على عثمان ثم إن طلحة قال لهم: إن عثمان لا يبالي ما حاصرتموه وهو يدخل إليه الطعام والشراب فامنعوا الماء أن يدخل عليه.

وفي تاريخ الطبري: لما أنكر عثمان أن يكون كتب الكتاب قالوا: فالكتاب كتاب كاتبك (مروان).

قال: أجل ولكنه كتبه بغير أمري.

قالوا: فإن الرسول الذي وجدنا معه الكتاب غلامك.

قال: أجل ولكنه خرج بغير إذني؟.

قالوا: فالجمل جملك.

قال: أجل ولكنه أخذ بغير علمي.

قالوا: ما أنت إلا صادق أو كاذب، فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من سفك دمائنا بغير حقها وإن كنت صادقاً فقد استحققت أن تخلع لضعفك وغفلتك وخبث بطانتك لأنه لا ينبغي لنا أن نترك على رقابنا من يقتطع مثل هذا الأمر دونه لضعفه وغفلته.

وبقي الأمر هكذا يصرون على خلعه وقد حصروه وهو مصرّ على موقفه كلما أعطاهم عهداً نقضه مروان حتى تسوروا عليه من دار بجنب داره وقتلوه.. وبقي ثلاثة أيام ثم دفن في حش كوكب في طرف البقيع حيث كان اليهود يقبرون موتاهم.

ترجمة عثمان:

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف...

وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف...

أسلم قديماً وهاجر مع زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ الهجرة الأولى إلى الحبشة والثانية إلى المدينة وقد توفيت أيام موقعة بدر فتزوج من أختها أم كلثوم.

صار خليفة في الشورى العمرية التي تكونت بشكل دقيق يضمن نجاحه وكان ذلك لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين فاستقبل لخلافته المحرم سنة أربع وعشرين.

لم يعهد عنه أنه خاض معركة ولم يعرف التاريخ أنه قتل مشركاً.

وعندما آلت إليه الخلافة ولّى أقرباءه الأمصار الإسلامية فكان بالشام كلها معاوية وبالبصرة سعيد بن العاص وبمصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح وبخراسان عبد الله بن عامر وعلى الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وقال ابن سعد في طبقاته: واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الست الأواخر وكتب لمروان بخمس مصر وأعطى أقرباءه المال وتأول ذلك الصلة التي أمر الله بها واتخذ الأموال واستلف من بيت المال وقال: إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما وإني أخذته فقسمته في أقربائي فأنكر الناس عليه ذلك...

لقد أساء استخدام السلطة وضعف جداً عن مواجهة ما يعترضه فتسلط عليه مروان فكان يوجهه كيف شاء وقد جرت أحداث رهيبة وفصول غريبة جعلت الناس تنقم عليه وعلى أسرته إلى أن اجتمع الثوار من الكوفة والبصرة ومصر وقضوا عليه وانتهى حكمه سنة خمس وثلاثين.

دفن في حش كوكب حيث كان يدفن اليهود موتاهم وقد مرّ معنا بعض ما يتعلق بسلوكه وسيرته وما جنت يداه..

مبايعـة علـي:

فَمَا رَاعَنِي[١] إلاَّ وَالنَّاسُ كَعُرْفِ[٢] الضَّبُعِ[٣] إليَّ، يَنْثَالُونَ[٤] عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّىٰ لَقَدْ وُطِىءَ[٥] ٱلْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ[٦]، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ[٧]. فَلَمَّا نَهَضْتُ بالأَمْرِ[٨] نَكَثَتْ[٩] طَائِفَةٌ[١٠]، وَمَرَقَتْ أُخْرَىٰ[١١]، وَقَسَطَ[١٢] آخَرُونَ: كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا في ٱلأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً، وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بَلَى! وَٱللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا[١٣]، وَلٰكِنَّهُمْ حَلِيَتِ[١٤] الدُّنْيَا في أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ[١٥] زِبْرِجُهَا[١٦]!.

أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ ٱلْحَبَّةَ[١٧]، وَبَرَأَ[١٨] النَّسَمَةَ[١٩]، لَوْلاَ حُضُورُ ٱلْحَاضِرِ، وَقِيَامُ ٱلْحُجَّةِ[٢٠] بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ ٱللّهُ عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا[٢١] عَلَىٰ كِظَّةِ[٢٢] ظَالِمٍ، وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلْقَيْتُ[٢٤] حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا[٢٥]، وَلَسَقَيْتُ[٢٦] آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِها، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هٰذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ[٢٨]!.

قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً [قيل: إن فيه مسائل كان يريد الإجابة عنها]، فأقبل ينظر فيه [فلما فرغ من قراءته] قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين، لو اطَّرَدَتْ خُطْبَتُكَ من حيث أَفضيتَ!.

فَقَالَ: هَيْهَاتَ يابْنَ عَبَّاسٍ! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ[٣٠]!.

قال ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام ألاّ يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد.

قال الشريف رضي الله عنه: قوله عليه السلام «كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم» يريد أنه إذا شدد عليها في جذب الزمام وهي تنازعه رأسها خرم أنفها، وإن أرخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحمت به فلم يملكها؛ يقال: أشنق الناقة، إذا جذب رأسها بالزمام فرفعه، وشنقها أيضاً: ذكر ذلك ابن السكيت في «إصلاح المنطق»، وإنما قال: «أشنق لها» ولم يقل «أشنقها» لأنه جعله في مقابلة قوله «أسلس لها» فكأنه عليه السلام قال: إن رفع لها رأسها بمعنى أمسكه عليها بالزمام.

اللغة

١ ـ راعني : أفزعني.
٢ ـ العرف : للدابة شعر عنقها وعرف الضبع يضرب به المثل في الازدحام.
٣ ـ الضبع : مؤنثة ضرب من السباع المعروف.
٤ ـ ينثالون : يتتابعون مزدحمين.
٥ ـ وطأ : بقدمه أي داس بها.
٦ ـ شق عطفاي : جرح وخدش جنباي.
٧ ـ ربيضة الغنم : القطعة الرابضة من الغنم.
٨ ـ نهضت بالأمر : قمت به وتسلمته.
٩ ـ نكثت : من نكث أي نقض.
١٠ ـ الطائفة : جمعها طوائف، الجماعة من الناس الذين يجمعهم ويميزهم عن غيرهم.
١١ ـ مرقت : مرق السهم نفذ فيها وخرج ومن الدين خرج منه.
١٢ ـ قسط : جار وعدل عن الحق.
١٣ ـ وعوها : حفظوها وفقهوها.
١٤ ـ حليت : الدنيا بعيني أعجبتني.
١٥ ـ راقهم : من راق الشراب إذا صفا.
١٦ ـ زبرجها : الزبرج الزينة.
١٧ ـ فلق الحبة : شقها.
١٨ ـ برأ : خلق.
١٩ ـ النسمة : الروح.
٢٠ ـ الحجة : البرهان.
٢١ ـ أن لا يقاروا : أن لا يقروا ويذعنوا ويسكنوا.

٢٢ ـ الكظة	:	ما يعتري الإنسان من الثقل والكرب عند امتلائه من الطعام.
٢٣ ـ السغب	:	الجوع.
٢٤ ـ ألقيت	:	رميت.
٢٥ ـ الغارب	:	الكاهل.
٢٦ ـ سقيت الرجل	:	أعطيته الماء ليشرب.
٢٧ ـ الكأس	:	جمعها كؤوس واكؤس مؤنث الاناء يشرب فيه.
٢٨ ـ عفطة عنز	:	ما تنثره العنزة من أنفها، المخاط.
٢٩ ـ هدرت	:	هدر البعير ردد صوته في حنجرته وهدر الحمام قرقر وردد صوته في حنجرته.
٣٠ ـ قرّت	:	سكنت وهدأت.

الشرح

(فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إليّ ينثالون علي من كل جانب حتى لقد وطىء الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم) يصف الإمام بيعته وكيف تمت، إنها بيعة أفزعته ولفتت ناظره لأنها على خلاف المتوقع إذ كان يتوقع من الناس أن ينكفؤا على أنفسهم ويبتعدوا عن الساحة فإذا بهم يزدحمون عليه ويتتابعون إليه بصورة غريبة إنهم أحاطوا به من كل جانب يريدون بيعته حتى من شدة ازدحامهم عليه ورغبتهم فيه لم يلتفت أحد منهم إلى الحسن والحسين وأخذوهما في طريقهم ومن شدة الضغط عليه خدش جانباه مجتمعين حوله كالغنم عندما تجتمع في مراحها فتزدحم على بعضها هكذا كانوا حولي وبهذا الشكل كانت رغبتهم بي..

بيعة الإمام:

قُتل عثمان شر قتلة، قتله المسلمون السائرون على خطى الإسلام الذين رأوا ممارساته المخالفة للدين وبعد أن قتل التفت الثوار والصحابة وجميع المسلمين فلم يجدوا أكفأ من علي يتربع على عرش الخلافة فلذا يمموا وجوههم شطره راجين منه أن يقبل عرضهم وينقذ الموقف فإنه رجل الساعة الصعبة وصاحب أعظم رصيد طيب عند المسلمين وقد وصفت كتب التاريخ بيعته فنأخذ منها هذه الصورة:

لما قُتل عثمان اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير فأتوا علياً.

فقالوا له: إنه لا بد للناس من إمام.

قال: لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت به.

فقالوا: ما نختار غيرك وترددوا إليه مراراً وقالوا له في آخر ذلك: إنّا لا نعلم أحداً أحق به منك، لا أقدم سابقة ولا أقرب قرابة من رسول الله ﷺ.

فقال: لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً.

فقالوا: والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك.

قال: ففي المسجد فإن بيعتي لا تكون خفية ولا تكون إلا في المسجد وكان في بيته وقيل في حائط (بستان) لبني عمرو بن مبذول فخرج إلى المسجد وعليه إزار وطاق وعمامة خز ونعلاه في يده متوكئاً على قوس فبايعه الناس وكان أول من بايعه من الناس طلحة بن عبيد الله فنظر إليه حبيب بن ذؤيب فقال: إنا لله أول من بدأ بالبيعة يد شلاء، لا يتم هذا الأمر، وبايعه الزبير وقال لهما علي: إن أحببتما أن تبايعاني وإن أحببتما بايعتكما فقالا: بل نبايعك، وهربا إلى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر، وبايعه الناس، وجاؤوا بسعد بن أبي وقاص.

فقال علي: بايع..

فقال: لا، حتى يبايع الناس والله ما عليك مني بأس.

فقال: خلوا سبيله.

وجاؤوا بابن عمر، فقالوا بايع.

قال: لا، حتى يبايع الناس.

قال: ائتني بكفيل، قال: لا أرى كفيلاً.

قال الأشتر: دعني أضرب عنقه.

قال علي: دعوه أنا كفيله، إنك ما علمت لسيىء الخلق صغيراً وكبيراً.

وبايعت الأنصار إلا نفراً يسيراً منهم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلّد، وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وكانوا عثمانية..

فأما حسان فكان شاعراً لا يبالي ما يصنع وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال فلما حُصر عثمان قال: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين فقال له أبو أيوب: ما تنصره إلا لأنه أكثر لك من العبدان وأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزينة وترك له ما أخذ منهم...

تمت البيعة للإمام باختيار الأمة ورغبتها وانعقدت له في أعناق المسلمين فوجب عليهم إطاعته ولزوم أمره ولم يعد للموجود أن يرجع ولا للغائب أن يحتجّ. . . ولكنها الدنيا لن تصفو لعلي كما لم تصف للعظماء في التاريخ ويشير الإمام في هذا الفصل إلى ما كان يقوله:

(فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون كأنهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه يقول: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾، بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها) وفي هذا المقام يبين الإمام كيف أنه عندما تولى الأمر وتسلم مقاليد الخلافة وبرغبة المسلمين واختيارهم، كيف نقض مَنْ بايع نقض بيعته بدون عذر شرعي ولا حجة يقدر أن يقدمها ذريعة لنقضه ما التزم به من خلافتي قام الناكثون طلحة والزبير ومن تابعهما بالتمرد ونقض البيعة وسعوا في حرب دامية سميت بحرب الجمل. .

وكذلك خرجت من الدين فرقة أخرى وهم أهل النهروان الخوارج الذين وردت عن النبي فيهم الأحاديث وقد ورد فيها الأمر بقتالهم واستئصال شأفتهم.

ثم ثالثاً قام معاوية وأصحابه يعاونهم عمرو بن العاص، هؤلاء القاسطون، الظالمون العادلون عن طريق الحق الجائرون. . هذه هي الفئة الباغية وقد ورد عن النبي قوله: يا علي ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين.

ثم أراد أن يجعل لهم مبرراً بأنهم لم يسمعوا كلام الله القائل إن الجنة وما فيها هي للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة الحسنة الطيبة التي هي الجنة للمتقين الذين يخافون الله ثم يقول إن هذا الاحتمال لا يمكن أن يصدق عليهم ولا يمكن أن يكونوا من أهل هذه الآية لأنهم سمعوها جيداً وفهموا معناها إنهم عرب أقحاح قد عرفوا اللغة وأدركوا معناها وخصوصاً أنهم عاشوا عصر النبوة ونزول القرآن. . إنهم سمعوها وفهموا معناها ولكنها الدنيا. . أعجبتهم زينتها فرغبوا فيها، لقد استهواهم الملك والرياسة وغرتهم الزعامة فتركوا الآية ولهثوا وراء الدنيا يريدونها فلذا نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسطت الثالثة وسنأتي فيما بعد على تفاصيل ذلك كله. .

(أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألّا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز) أقسم الإمام بالله وذكره بصفتين من فعله الذي اختص به دون خلقه أنه فلق الحبة شقها وأخرج

منها الأشجار والنبات وخلق الروح وهي الخلق، أقسم بهذين الأمرين اللذين لا يملكهما إلا الله أقسم به بصفتيه هاتين أنه لولا حضور الحاضر من الناس المجتمعين حوله والمناصرين له الآن، وقيام الحجة عليه بوجود الناصر من حيث أن الناس الآن طوع إرادته وعند أمره ويمكن بهم أن يحقق أمر الله ويثبت الحق ويبطل الباطل فإن لديه ما يستعين به لقتال الناكثين ورد المظالم وإعادة الحق إلى نصابه لولا ذلك.

وما أخذه الله على العلماء من العهد والميثاق أن لا يسكتوا عن ظلم الظالمين وجوع الجائعين وعمّا يمارسه الطغاة على الضعفاء، لولا ذلك لتخلى عن الخلافة وتركها وشأنها يتقاتل عليها أهل الدنيا وطلابها كما تركها أول مرة عندما اغتصبها أبو بكر فإنه سدل دونها ثوب النسيان وطوى عنها فكره وذكرها.

وقد شبه الخلافة بالناقة الممسوكة بالزمام، فإذا أراد أن يسرحها ألقاه على كاهلها فتذهب سارحة حيث شاءت ولم يعد لراعيها سلطة عليها وكذلك هو عليه السلام لولا وجود الناصر وما أخذه الله على العلماء لترك الخلافة ولم يعرها انتباهاً.

وقال: كما زهدت في بادىء الأمر عندما استولى عليها الخلفاء قبلي وسكتُّ عن حقي، لزهدت فيها الآن ولوجدتم دنياكم التي تتقاتلون عليها وتسلبون بها حقوق الناس أخف وأهون ممّا تنثره العنز من أنفها في عفطتها وأحقر منه.

(قالوا وقام إليه رجل من أهل السواد) من أهل العراق وسمي سواداً لخضرته والعرب تقول للأخضر الشديد الخضرة أسود ويطلق على بلاد الكوفة والبصرة السوادين.

(عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته فناوله كتاباً.

قيل: إن فيه مسائل كان يريد الإجابة عنها، فأقبل ينظر فيه فلما فرغ من قراءته قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت) فلو تابعت خطبتك من حيث سكتَ وقطعت الكلام.

(فقال) أمير المؤمنين (هيهات يا ابن عباس) بعدما أردت (تلك شقشقه هدرت ثم استقرت) شبّه نفسه بالفحل الهادر وشبّه الخطبة بما يخرج منه عند هياجه لعدم الأثر لمثلها في الحاضرين أو لقلة الاهتمام بأمر الخلافة.

قال ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد.

٤ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وهي من أفصح كلامه عليه السلام وفيها يعظ الناس ويهديهم من ضلالتهم ويقال: إنه خطبها بعد قتل طلحة والزبير

بِنَا ٱهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ(١)، وَتَسَنَّمْتُمْ(٢) ذُرْوَةَ(٣) ٱلْعَلْيَاءِ(٤)، وبِنَا ٱنْفَجرتُمْ(٥) عَنِ السِّرَارِ(٦). وُقِرَ(٧) سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ ٱلْوَاعِيَةَ(٩)، وَكَيْفَ يُرَاعِي(١٠) النَّبْأَةَ(١١) مَنْ أَصَمَّتْهُ(١٢) الصَّيْحَةُ(١٣)؟ رُبِطَ(١٤) جَنَانٌ(١٥) لَمْ يُفَارِقْهُ ٱلْخفقَانُ(١٦). مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ(١٧) الْغَدْرِ(١٨)، وَأَتَوَسَّمُكُمْ(١٩) بِحِلْيَةِ(٢٠) ٱلْمُغْتَرِّينَ(٢١)، حَتَّى سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ(٢٢) الدِّينِ، وَبَصَّرَنِيكُمْ(٢٣) صِدْقُ النِّيَّةِ. أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَىٰ سَنَنِ(٢٤) ٱلْحَقِّ فِي جَوَادٍّ(٢٥) ٱلْمَضَلَّةِ(٢٦)، حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلا دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ(٢٧) وَلا تُمِيهُونَ(٢٨).

ٱلْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ ٱلْعَجْمَاءَ(٢٩) ذاتَ ٱلْبَيَانِ(٣٠)! عَزَبَ(٣١) رَأْيُ ٱمْرِىءٍ تَخَلَّفَ عَنِّي(٣٢) مَا شَكَكْتُ فِي ٱلْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ! لَمْ يُوجِسْ(٣٣) مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ خِيفَةً(٣٤) عَلَىٰ نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ(٣٥) مِنْ غَلَبَةِ ٱلْجُهَّالِ(٣٦) ودَوَلِ الضَّلالِ! ٱلْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا(٣٧) عَلَىٰ سَبِيلِ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ. مَنْ وَثِقَ(٣٨) بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ(٣٩)!.

اللغة

١ ـ **الظلماء** : الظلمة.

٢ ـ **تسنمتم** : أصله ركوب السنام وهنا يراد به العلو.

٣ ـ الذروة : جمعها ذُرىً وذِرى أعلى الشيء.
٤ ـ العلياء : السماء، والمكان العالي، رأس الجبل.
٥ ـ انفجرتم : دخلتم في الفجر.
٦ ـ السرّار : الليلة والليلتان يختفي فيهما القمر في آخر الشهر.
٧ ـ وقر : الوقر الصمم.
٨ ـ يفقه : يفهم.
٩ ـ الواعية : الصراخ والمقصود هنا الزواجر.
١٠ ـ يراعي : يحفظ.
١١ ـ النبأة : الصوت الخفي.
١٢ ـ أصمته : من الصمم وهو عدم السمع.
١٣ ـ الصيحة : الصوت بشدة.
١٤ ـ ربط : الله على قلبه قواه وصبره.
١٥ ـ الجنان : القلب.
١٦ ـ الخفقان : الاضطراب والتحرك.
١٧ ـ العواقب : أواخر كل شيء.
١٨ ـ الغدر : الخيانة ونقض العهد.
١٩ ـ أتوسمكم : أتفرس فيكم.
٢٠ ـ حلية : زينة.
٢١ ـ المغترين : غرّه غروراً خدعه وأطمعه بالباطل.
٢٢ ـ الجلباب : ثوب يلبس فوق الثياب.
٢٣ ـ بصرنيكم : عرفني إياكم.
٢٤ ـ سنن : من السنة الطريقة الواضحة.
٢٥ ـ جواد : سريع.
٢٦ ـ المضلة : الأرض التي يضل فيها صاحبها.
٢٧ ـ تحتفرون : تحدثون الحفر وحفر البئر نقرها.
٢٨ ـ لا تميهون : لا تجدون ماء.
٢٩ ـ العجماء : ما لا نطق له.
٣٠ ـ ذات البيان : صاحبة النطق واللسان.
٣١ ـ عزب : بَعُد وخفي وغاب.
٣٢ ـ تخلّف عنه : تأخر.
٣٣ ـ يوجس : يخاف والفزع يقع في القلب.
٣٤ ـ خيفة : الخوف والفزع.

٣٥ ـ أشفق : خاف.
٣٦ ـ غلبة الجهال : منازعة الجهال وقهرهم.
٣٧ ـ تواقفنا : من الوقوف.
٣٨ ـ وثق به : إطمأن به.
٣٩ ـ يظمأ : يعطش.

الشرح

(بنا اهتديتم في الظلماء وتسنمتم ذروة العلياء وبنا انفجرتم عن السرار) هذه الخطبة الشريفة تتضمن بعض المطالب العظيمة والمناقب الكريمة التي يتمتع بها أهل البيت، يذكرها احتجاجاً على من أنكرها وتذكيراً لمن نسيها وبياناً لحقيقة أهلها وهي موجهة إلى طلحة والزبير ومن كان على سيرتهما وكان خطابه لهما وإن كان بعد قتلهما كما خاطب النبي في بدر قتلى المشركين ففي هذا الخطاب إسماع لغيرهما من المسلمين..

بأهل البيت الذين نزل في بيوتهم الوحي كانت هداية الخلق من الجاهلية والانحراف والاسفاف في الفكر والانحطاط في السلوك.. كان الناس في عمى وجهل وضلال فنزل الوحي على رسوله فهداهم إلى الإسلام والإيمان وطاعة الرحمن...

وبأهل البيت وصل المسلمون إلى أعلى درجات السمو والرفعة وتقدموا على جميع الأمم والشعوب وأضحوا قادة العالم وسادة البشرية ففتحوا الفتوح وقادوا الجيوش وتسلموا أزمة الأمور.. فإن هذه الأمة التي كانت تعيش على هامش الحياة ليس لها من هدف إلا الغزو والسلب والنهب تطارد الجراد وتركض خلف البعير وليس في منظورها أكثر من ذلك، هذه الأمة تحولت إلى أرقى أمم الأرض وأعزها، وضعت رضى الله نصب عينها فأعزها الله ورفعها حتى أصبحت سيدة الأمم...

وبأهل البيت غابت الظلمات وخرجت هذه الأمة من مدلهمات الجاهلية إلى فجر مضيىء زاهر نتذكره اليوم فنعيش اللذة والحلم الطيب...

(وقر سمع لم يفقه الواعية وكيف يراعي النبأة من أصمته الصيحة؟) وإذا كان كل ما تقدم ببركة أهل البيت ووجودهم الطيب المعطاء وكان هذا ما قدموه للأمة ثم إن الناس جهلت ذلك وقابلته بالرفض والإساءة والقسوة والجفوة فما كان من الإمام هنا إلا أن دعا

عليهم بالصمم وفقدان الآذان سمعها لأنها إذا لم تفهم هذه الأمور كلها ولم تفكر فيها وتحلّلها وتقدر أهل البيت وتتابعهم في مسيرتهم وسلوكهم وأقوالهم كان سمعهم مفقوداً لعدم أداء دوره المطلوب منه. .

ثم اعتذر عنهم تبكيتاً لهم وإهانة لوجودهم بأنه كيف يسمع الصوت الخفي من لم يسمع النداء القوى وهؤلاء نسوا كلام الله وكلام رسوله في حق أهل البيت ولم يؤثر فيهم كل ذلك النداء المتكرر في فضلهم إذا كان ذلك لم يؤثر فيهم فكيف يؤثر فيهم كلام الإمام مع ما هم فيه من العداوة له والبعد عنه والبغض لشخصه.

(ربط جنان لم يفارقه الخفقان) بعد أن دعا على أولئك الذين لم يسمعوا كلام الله وكلام رسوله دعا هنا لأولئك الذين تستمر قلوبهم في اضطراب ووجل خوفاً من الله وفزعاً من عقابه، دعا لهم أن تسكن قلوبهم وتثبت وتطمئن وهذا لا يكون إلا بالعمل الصالح والحياة مع الله وأن يتيقنوا بما عنده حتى كأنهم يرونه. .

(ما زلت أنتظر بكم عواقب الغدر وأتوسمكم بحلية المغترين حتى سترني عنكم جلباب الدين وبصرنيكم صدق النية) ثم وجه كلامه إلى الفئة الناكثة طلحة والزبير ومن ينهج نهجهما بأنه منذ بيعتهم له كان لا يطمئن إليهم بل يتوقع منهم الخيانة ونقض البيعة، إنني كنتُ أتفرس فيكم الاغترار بأدنى شبهة ولو كانت فاسدة لا أساس لها وكنتُ أقدر على أخذكم والاقتصاص منكم ولكن منعني من ذلك وحجبني ظاهر كلامكم حيث أنتم بظاهركم مسلمين والمسلم في حصانة لا يحاسب على ما في نفسه وما يضمره ومن هنا لا يجوز القصاص قبل الجناية وأنا أعرف ضعف إيمانكم وخبث طواياكم وهذا قد عرفته ببصيرتي التي زودني بها الله فإن المؤمن يبصر بنور الله. .

ما العمرة تريدان:

كان الإمام يقرأ الأحداث والأشخاص ومن ذلك أن طلحة والزبير بعد أن يئسا منه وعرفا أنهما لن يكونا شريكاه في الملك وهو يرفض أن يولي أحداً منهما أجمع رأيهما على خلافه ومحاربته فلذا استئذناه في العمرة فإنها طريق إلى البعد عنه وبالتالي تسهل محاربته.

فقال لهما الإمام: ما العمرة تريدان، فحلفا له بالله إنهما ما يريدان غير العمرة. فقال لهما: ما العمرة تريدان وإنما تريدان الغدرة ونكث البيعة، فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث بيعته يريدان وما رأيهما غير العمرة.

قال لهما: فأعيدا البيعة لي ثانياً فأعاداها بأشد ما يكون من الأيمان والمواثيق فأذن لهما فلما خرجا من عنده قال لمن كان حاضراً والله لا ترونهما إلا في فتنة يقتتلان فيها قالوا: يا أمير المؤمنين فمر بردهما عليك.

قال: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً...

(أقمت لكم على سنن الحق في جواد المضلة حيث تلتقـون ولا دليل وتحتفرون ولا تميهون) لقد ثبت وقمتُ علماً قائماً على الطريق الواضحة في الطرق المتشعبة المتعددة التي يضل سالكها ويتيه ويتحيّر المتحرك فيها وأنتم تجتمعون وتتباحثون للوصول بظنكم إلى الحق ولكن ليس لكم دليل يدلكم بل أنتم تدورون دون فائدة إنكم تبحثون عن الحقيقة التي ترويكم ولكن دون وصول إليها...

وبعبارة أخرى: أنا منار الحق وصراط العدل من قصدني أدرك مناه وفاز ولكن أنتم تبحثون عن الحقيقة في غير مظانها وتفتشون عنها في غير أرضها وستبقون هكذا حيارى وفي ضياع مستمر.

(اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان) اليوم أجعل من لا يحسن الكلام متكلماً، صاحب لسان وبيان وهو كناية عن كلامه وأنه سيجعله ينطق بفضائله ويشهد بعظيم مناقبه فكأنه ينطق وإن كان أخرساً.

أو يراد أنه بمواقفه وحركاته وما يقوم به سيجعل الفعل بمستوى المنطق فإن لسان الحال أقوى من المقال..

(عزب رأي امرىء تخلفِ عني ما شككت في الحق مذ أُريته) بَعُد عن الحق والصواب كل رأي يذهب إلى خلاف رأي ويبني وجهة نظر غير وجهة نظري لأنني على الحق ولم أشك فيه منذ عرفته، وإذا كان على الحق ولم يشك فيه كان من يذهب غير مذهبه فإلى ضلال وانحراف وقد كان صلوات الله عليه أصدق الناس في هذا فهو الذي يقول «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً» كناية عن منتهى الوصول إلى الله وإدراك أقصى غايات المعرفة..

(لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه بل أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال) إن موسى عليه السلام لم يخف على نفسه أن يضل أو ينحرف وإنما خاف على الناس تلبيس السحرة فيضلوا وينحرفوا وتقوى دول الضلال والانحراف وينتصر الجهال ومن لا علم لهم بالله ورسوله وما يجب عليهم أن يقوموا به كذلك أنا خفت أن تسير الفتنة

ويشتبه الأمر على الناس فيضلوا وينحرفوا. .

(اليوم تواقفنا على سبيل الحق والباطل من وثق بماء لم يظمأ) اليوم بالخصوص ـ وإن كان قبل اليوم كذلك ـ لأنه رأس الهرم وقمة الجبل ومنارة الحق وهو على رأس القافلة. . . اليوم وقفنا وإياكم على الحق والباطل فأنا على الحق وأنتم على الباطل ومن أطمأن إلى وجود الماء لم يشعر بما يشعر به الظمآن الذي يئس منه وكذلك من كان معي ووثق بي فإنه لن يضل ولن ينحرف ولن يقع في المتاهات والظلام. . .

٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخاطبه العباس وأبو سفيان ابن حرب في أن يبايعا له بالخلافة (وذلك بعد أن تمت البيعة لأبي بكر في السقيفة، وفيها ينهى عن الفتنة ويبين عن خلقه وعلمه)

النهي عن الفتنة

أَيُّها النَّاسُ، شُقُّوا[١] أَمْوَاجَ[٢] ٱلْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا[٣] عَنْ طَرِيقِ ٱلْمُنَافَرَةِ[٤]، وَضَعُوا تِيجَانَ[٥] ٱلْمُفَاخَرَةِ[٦]. أَفْلَحَ[٧] مَنْ نَهَضَ[٨] بِجَنَاحٍ، أَوِ ٱسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ. هٰذَا مَاءٌ آجِنٌ[٩]، وَلُقْمَةٌ[١٠] يَغَصُّ[١١] بِهَا آكِلُهَا. وَمُجْتَنِي[١٢] الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا[١٣] كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ.

خلقه وعلمه

فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ[١٤] عَلَىٰ ٱلْمُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا: جَزِعَ[١٥] مِنَ ٱلْمَوْتِ! هَيْهَاتَ[١٦] بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي[١٧]! وَٱللّٰهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ[١٨] بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ[١٩] أُمِّهِ، بَلِ ٱنْدَمَجْتُ[٢٠] عَلَىٰ مَكْنُونِ[٢١] عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ[٢٢] بِهِ لَاضْطَرَبْتُمُ[٢٣] ٱضْطِرَابَ ٱلْأَرْشِيَةِ[٢٤] فِي الطَّوِيِّ[٢٥] الْبَعِيدَةِ!.

اللغة

١ ـ شقوا	:	من شق الشيء صدعه وفرّقه .
٢ ـ الأمواج	:	أمواج البحر ما يرتفع من الماء على سطحه .
٣ ـ عرجوا	:	انحرفوا وميلوا .
٤ ـ المنافرة	:	المفاخرة في الحسب والنسب .
٥ ـ التيجان	:	جمع تاج الإكليل .
٦ ـ المفاخرة	:	تكون بين إثنين كل منهما يذكر مفاخرة .
٧ ـ أفلح	:	فاز والفلاح الفوز .
٨ ـ نهض بالأمر	:	قام به وأسرع إليه .
٩ ـ الآجن من الماء	:	المتغيّر اللون والطعم ، الفاسد .
١٠ ـ اللقمة	:	جمع لقم ما يلقم في مرة .
١١ ـ غصّ باللقمة	:	إذا وقفت في حلقه .
١٢ ـ إجتنى الثمرة	:	إقتطفها .
١٣ ـ الإيناع	:	يقال أينع الثمر إذا أدرك وطاب وحان قطافه .
١٤ ـ الحرص	:	الشره إلى الشيء والبخل به .
١٥ ـ الجزع	:	عدم الصبر على الشيء وإظهار الحزن والكدر .
١٦ ـ هيهات	:	بُعد .
١٧ ـ بعد اللتيا والتي	:	بعد شدائد الأمور الكبيرة والصغيرة .
١٨ ـ آنس	:	الأنس ضد الوحشة/ واللتيا تصغير التي .
١٩ ـ الثدي	:	غدة في صدر المرأة لها حلمة يمتص الرضيع منها الحليب .
٢٠ ـ اندمجت	:	انطويت .
٢١ ـ المكنون	:	المستور .
٢٢ ـ باح بالشيء	:	أظهره .
٢٣ ـ اضطرب	:	تحرك وماج وفي الأمر أختل وفي أموره تردد وارتبك .
٢٤ ـ الأرشية	:	الحبال مفردها رشا وهو الحبل .
٢٥ ـ الطوّي	:	البئر العميقة الغور .

الشرح

(أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة وعرجوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفاخرة) تمت البيعة لأبي بكر في ظروف غاب عنها بنو هاشم حيث كانوا يقومون بتجهيز رسول الله ووصلت أنباء البيعة إليهم فرأوا مظلوميتهم وسلب حقهم وجاء إليهم أبو سفيان وهو يقول مثيراً للفتنة: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم، يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم، أين المستضعفان علي والعباس؟.

ما بال هذا الأمر في أقل حي[(١)] من قريش؟.

ثم قال لعلي: أبسط يدك أبايعك فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجلاً فأبى علي عليه السلام فتمثّل عندها بشعر المتلمّس:

ولن يقيم على خسف يراد به ... إلا الاذلان عير الحي والوتد

هذا على الخسف معكوس برمته ... وذا يشج فلا يبكي له أحد

فزجره علي وقال:

والله إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك ثم إن الإمام وجّه كلامه إلى الناس ليئد الفتنة ويقضي على النزاع ويحفظ الإسلام والمسلمين من خلال الوحدة المطلوبة وخصوصاً في تلك الظروف الصعبة التي أحدق الكفر فيها على الإسلام من كل جانب.

وقد شبه الفتنة بالبحر المتلاطم الهائج الذي تتدافع فيه الأمواج فتقضي على من أراد أن يستمر في الإبحار منفرداً ضعيفاً لم يستعد لخوضه ولم يتأهب لمواجهة تياره وإنه عليه السلام قد أمرنا أن نشق هذه الفتن ونقضي عليها ولا نترك مجالاً أو فرصة لمن أراد أن يفسد الود وذلك بأن يعتصم المسلمون بالوحدة وأمر الله فكما إن السفن هي التي تجتاز الأمواج العاتية كذلك الالتزام بأمر الله والتزام الوحدة بهما تكون النجاة ويكون الفوز والخلاص. . .

وإذا كانت الفتنة ممنوعة ومرفوضة فكذلك أسبابها مرفوضة ومن جملة تلك الأسباب المنافرة التي هي العداء وعدم المسالمة والهدوء وكذلك المفاخرة الموجبة لرؤية الحال المستدعية للتقدم على الغير والاستطالة عليه وبالتالي الموجبة للعداء

(١) ابن الأثير ج/ ٢ ص ٢٢٥.

والمخاصمة فإنه عليه السلام أمر في أوقات الفتنة إلى التهدئة والسكون وترك ما يوجب العداء والمخاصمة. . .

(**أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح**) بعد أن دعا إلى وأد الفتنة وأسبابها بيّن القاعدة الكلية التي يجب أن يسكلها أصحاب الحق عندما تسلب حقوقهم إنهم أمام أحد أمرين أما الثورة واسترداد الحق وهذا الطريق يجب أن يكون من شرائطه وجود الأعوان والأنصار والمؤيدين الذين ينتصرون لصاحب الحق ويستردون الحقوق بالقوة. . من يريد القيام يجب أن يكون عنده القوة للنصر وطبعاً هذا فيما لا يهدّد أصل الدين ويقضي على جذوره وإلا فالثورة والمواجهة وإتلاف النفس يتعين في تلك الحال هذا هو الطريق الأول.

وإذا لم يكن له هذه القوة والعدة فينبغي أن لا يحرك ساكناً وينتظر الفرج والظروف المؤاتية التي يمكن أن تغيّر مجرى الأحداث. . وفي هذه الطريق الذي لا يملك الإنسان معه القدرة يريح نفسه من عناء الدمار والهلاك ويريح غيره من الفوضى والاضطراب.

وكأنه عليه السلام يبيّن معاناته وما يعيش فيه في تلك الظروف الصعبة وإنه لا يمتلك القوة التي يواجه بها مجتمع السقيفة وإفرازاته التي جاءت بالخليفة الجديد. . .

(**هذا ماء آجن ولقمة يغصّ بها آكلها**) ثم شبّه الخلافة التي سلبت منه والتي يريدها له المطالبون بها شبهها بالماء الفاسد من حيث أنه يضر ولا يستلذ به الإنسان وباللقمة التي لا تستساغ ولا يقدر الإنسان على ابتلاعها فهي في حلقه تؤذيه وتمنعه لذة الحياة وكذلك هذه الخلافة التي تولاها أبو بكر - كيف يقدر الإنسان على السرور بها وقد تؤدي إلى فساد الوضع والفوضى والإضطراب إن قام يريدها ويطلبها ويسعى لاستردادها. .

(**ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه**) هذا بيان منه لعدم إقدامه على طلب الخلافة وشبهها بالثمرة ونفسه بمجتنيها ثم شبه مجتني الثمرة لغير وقت نضجها بالزارع في غير أرضه فكما إن هذا يمنع من التصرف فيما زرع ولا يستفيد منه كذلك مجتني الثمرة قبل وقت نضجها فإنه لا ينتفع بها ولا يستطيع أن يتذوقها لمجاجتها وعدم التلذذ بها وطلبه للخلافة بعد أن استولى عليها أبو بكر وجمع حوله الناس المستفيدين من مقامه فإن منازعته والحال كذلك منازعة عقيمة لا ثمرة فيها ولا نفع وراءها.

(**فإن أقل يقولوا حرص على الملك وإن أسكت يقولوا جزع من الموت هيهات بعد اللتيا والتي والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه**) ثم تعرض إلى مقولات

الناس فيه وإنه لم ينج من ألسنتهم لأنه إذا طالب بحقه في الخلافة يقولون: إن علياً يحب الدنيا ويحب الملك وهو حريص على الرياسة والمكانة العالية.

وإنْ يكّف عن المطالبة ويسكت عن حقه يقولون أنه يخاف الموت ويخاف أن يقضي عليه أخصامه ومن بأيديهم الأمور.

ولكنه عليه السلام رد على الفريقين بأنهما قد بُعدا عن الحق وأخذهما الباطل إلى غير الصواب. . فليس قوله إن قال طلباً للملك وحب الرياسة بل لإحقاق الحق وإزهاق الباطل كما إنه لو سكت وكف لم يكن ذلك خوف الموت والشهادة فإن القاصي والداني والقريب والبعيد يعرف جهاد علي ومواقفه الكريمة في جميع غزوات النبي ويعرف الجميع إن قلب علي لا يعرف الخوف من أحد إلا من الله. . لقد خاض الأهوال وقام بشدائد الأمور وعظائمها وكان مفتاح الفتح في كل موقعة ومعركة.

وأكد كذب دعواهم أنه لا يخاف الموت. بأنه آنس به من الطفل بثدي أمه فكما أن الطفل لا يرى في الوجود إلا ثدي أمه ولا يحب شيئاً غيره وإذا وصل إليه هش وبش وكان ذلك غاية أمنيته كذلك كانت حالة الإمام مع الموت بل أشد أنساً وهذا ما يفسر لنا قوله عندما ضربه ابن ملجم «فزت ورب الكعبة» لأن بالموت تحصل السعادة ويدرك الأمنية الغالية التي ينتظرها. .

ملاحظة:

«بعد اللتيا والتي»، قال الميداني في مجمع أمثاله:

«بعد اللتيا والتي هما الداهية الكبيرة والصغيرة وكنى عن الكبيرة بلفظ التصغير تشبيهاً بالحية فإنها إذا كثر سمها صغرت لأن السم يأكل جسدها.

وقيل: الأصل فيه إن رجلاً من جديس تزوج امرأة قصيرة فقاسى منها الشدائد وكان يعبّر عنها بالتصغير فتزوج امرأة طويلة فقاسى منها ضعف ما قاسى من الصغيرة فطلقها وقال: بعد اللتيا والتي لا أتزوج أبداً فجرى ذلك على الداهية.

وقيل: إن العرب تصغّر الشيء العظيم كالدهيم واللهيم وذلك منهم رمز. .

(بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوي البعيدة) وفي ختام هذه الخطبة يبيّن أن سكوته عن المطالبة بحقه إنما هو لأجل ما عنده من العلم الذي تلقاه من النبي من كون الخلافة سيتولاها الغاصبون ثم تنزو عليها صبية

بني أمية وبعدهم دولة بني العباس وإما كما قيل من أنه عليه السلام من خلال جملة ما حدث وصار وما جرى يعرف كيف ستؤول الأمور فيما لو طالب بحقه وأعلنها حرباً دامية لا تبقي ولا تذر وفي ذلك خطر كبير على الإسلام وأهله. . .

فإن هذا العلم لو نقله إلى الناس وباح به إليهم لاضطربوا وتزلزلت أقدامهم وعاشوا في بلبلة فكرية لم يستقروا بعدها.

وهو ما عبر عنه لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوي البعيدة فكما تزداد حركة الحبال ولا تستقر إذا كانت البئر عميقة كذلك لو أخبرتكم بما عندي من العلم اضطربت أفكاركم وكثر الشك عندكم وتزلزلت مواقفكم. .

٦ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما أشير عليه بألا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال
وفيه يبين عن صفته بأنه عليه السلام لا يخدع

وَٱللّهِ لاَ أَكُونُ كالضَّبُعِ[١]: تَنامُ عَلى طُولِ اللَّدْمِ[٢]، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتِلَهَا[٣] رَاصِدُهَا[٤]، وَلٰكِنِّي أَضْرِبُ بِٱلْمُقْبِلِ[٥] إِلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُدْبِرَ[٦] عَنْهُ، وَبِالسَّامِعِ ٱلْمُطِيعِ ٱلْعَاصِيَ الْمُرِيبَ[٧] أَبَداً، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي. فَوَٱللّهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي، مُسْتَأْثَراً[٨] عَلَيَّ، مُنْذُ قَبَضَ ٱللّهُ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ ٱللّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هٰذَا.

اللغة

١ ـ الضبع: بضم الباء مؤنث حيوان مفترس معروف.
٢ ـ اللدم: اللطم والضرب الذي يسمع صوته.
٣ ـ يختلها: يخدعها.
٤ ـ الراصد: الرقيب.
٥ ـ المقبل: الآتي نقيض المدبر.
٦ ـ المدبر: الهارب.
٧ ـ المريب: المشكك.
٨ ـ مستأثراً: يقال استأثر بالشيء استبد به.

الشرح

(والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم حتى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها) رفض الإمام أن يقعد عن القوم الناكثين وأقسم أنه لا يكون كالضبع في الغَباء

وعدم الاهتمام بما يدور حوله فإن العرب تقول إنها من أحمق الحيوانات حتى أن من حمقها أن صائدها يأتي إلى بابها فيضرب بعقبه الأرض عند الباب ضرباً خفيفاً وذلك هو اللدم فتنام على ذلك فيدخل إليها ويجعل الحبل في عرقوبها ويجرها وبهذه الطريقة يحصل عليها قاصداً اصطيادها ويخدعها المترقب لها بعمله حتى تقع بين يديه. . والإمام يحلف أنه لن يقعد عن قتال القوم ومجالدتهم حتى يصل حاله معهم إلى مثل حال الضبع مع الصياد فيقع في شراكهم ويتمكنون منه ولو أنه عليه السلام لم يلاحقهم ويطاردهم بل بقي مكانه لقويت شوكتهم وعجز بالتالي عن مقارعتهم. .

(ولكني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه وبالسامع المطيع العاصي المريب حتى يأتي علي يومي) هذا هو تصميم الشرفاء وأهل الحق في الدنيا وإن علياً سيد الشرفاء وصاحب أعظم حق وهو الخليفة الشرعي بنص الله ورسوله وإجماع الأمة ومعه الأنصار والأتباع وهذا يستدعي منه انتصاراً للحق وإزهاقاً للباطل، هذا يستدعي منه أن يقاتل بمن معه ممن قبل الحق وسانده مَنْ خالفه وعانده ويقاتل بمن أطاع أمره من عصاه وبهذه الطريقة يحقق إرادة الله ويدرك رضاه وقد أخذ على نفسه أن يبقى على هذه الطريقة حتى يختار الله له الدار الآخرة وقد صدق فيما قال فقد قاتل الناكثين في معركة الجمل والبغاة في صفين والخوارج في النهروان حتى جاء أمر الله فضربه اللعين ابن ملجم وكانت الخاتمة السعيدة شهادة في سبيل الله. . ثم بين مظلوميته. .

(فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً عليّ منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يوم الناس هذا) أقسم أنه ما زال ممنوعاً عن حقه في الخلافة قد سلبها منه الخلفاء قبله واستبدوا بها ولم يشركوه معهم في شيء من شؤونها منذ توفى رسول الله وقبضه الله إليه إلى يوم الناس هذا الذي قامت فيه الاضطرابات ويشهد الواقع أنه عليه السلام لم يتول عملاً قط لأحد من الخلفاء الذين سلبوه حقه. .

٧ ـ ومن خطبه له عليه السلام

يذم فيها أتباع الشيطان

اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لأَمْرِهِمْ مِلَاكاً[١]، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً[٢]، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ[٣] وَدَرَجَ[٤] فِي حُجُورِهِمْ[٥]، فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ[٦]، وَزَيَّنَ[٧] لَهُمُ الْخَطَلَ[٨]، فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ، وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَىٰ لِسَانِهِ!

اللغة

١ ـ ملاك الأمر : ما به قوامه وديمومته.

٢ ـ الأشراك : جمع شرك حبائل الصيد.

٣ ـ دب : مشى على اليدين والرجلين كالطفل.

٤ ـ درج : مشى.

٥ ـ الحجور : مفردها حجر الحضن وفلان نشأ في حجر فلان في كنفه ومنعته.

٦ ـ الزلل : الخطأ.

٧ ـ زيّن : له الأمر حسنّه والشيء زخرفه.

٨ ـ الخطل : أقبح الخطأ.

الشرح

(اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً واتخذهم له إشراكاً) في هذه الخطبة ذم للمخالفين له والمعاندين لخلافته وهي أوصاف يستحقونها باعتبار أن الطريق طريقان، طريق الله وطريق الشيطان، وإذا كان الولي الشرعي على الطريقة الأولى كان نصيب الآخرين الطريقة الثانية.

وقد أصبح بين الشيطان وبينهم تبادل مصالح ومنافع وأضحى لكل منهما علاقة قوية فهم اتخذوه قبلتهم وإليه محجتهم هو سيدهم وهم له أتباع وأنصار لا يتحركون إلا عن أمره فكان المستولي عليهم والمتولي لشأنهم، لا يحيدون عما يقول ولا يفعلون غير ما يأمر، عن أمره يصدرون وإليه ينتهون. . .

وفي المقابل هو اتخذهم له جنداً مجندة وجعلهم وسيلة يصطاد بهم عباد الله الضعفاء ويحرفهم عن مستقيم الصراط فلأنهم نهضوا لمحاربته وهم على باطل اغتر بهم الضعفاء فتابعوهم وعاونوهم وحاربوا معهم فإن من يأخذ دينه من الرجال يضل وكيف لا يضل من يجد الزبير وطلحة وأم المؤمنين عائشة يسيرون لحرب علي. . . زوجة النبي وصاحباه من جهة وعلي من جهة أخرى وأما من أخذ دينه من الكتاب والسنة وسمع أقوال النبي وحكّم عقله فلن يضل ولن ينحرف فيعرف أن علياً قائد البررة وقاتل الفجرة ويعرف أنه على الحق والحق معه ويعرف أنه باب مدينة علم النبي ويعرف أنه أمير المؤمنين وصاحب الولاية والأمرة. . .

(فباض وفرّخ في صدورهم ودب ودرج في حجورهم) لقد أصبحت صدورهم التي فيها قلوبهم مرتعاً للشيطان بحيث وضع شياطينه الصغار فيها فهو ملازم لهم يوسوس ويزّين يغري بهم ويغريهم فترى النوايا خبيثة والسرائر فاسدة والقلوب نكدة قاسية بحيث أنها كلها تحكي عن الشيطان وتنبىء عن وجوده منها وتخبر عن محله امنها ولشدة ملازمته لها تربي عندهم كما يتربى أطفالهم في أحضانهم فأصبح عزيزاً عندهم أثيراً لديهم لا يرد له طلب ولا يحجب عما يرغب. .

(فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم) وهذا منتهى استيلائه عليهم وسيطرته على قواهم بحيث تحولت أعينهم وألسنتهم إلى أدوات للشيطان فإذا نظروا فلا ينظرون إلا إلى محرم محظور وإذا نطقوا فلا ينطقون إلا بالباطل لأن الشيطان ينطق بألسنتهم وينظر بأعينهم، وكم نجد من هذه العناصر والأفراد في المجتمع إنك تحس الشيطان ينظر بعيون بعضهم وينطق بألسنتهم بل إذا دققت لوجدت أنهم أساتذته وأنه تلميذهم. .

(فركب بهم الزلل وزين لهم الخطل فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه) لقد جرهم إلى الخطأ والضلال والمعصية والانحراف وزين لهم الفساد حتى يرتكبوه ويمارسوه لقد أصبح شريكهم في أعمالهم وحركاتهم فلا ينطقون إلا بالباطل ولا يتكلمون إلا بالإفساد لقد تسلط عليهم لأنه أقوى الشريكين فحرفهم عن الصراط المستقيم وأضلهم عن سواء السبيل

٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

يعني به الزبير في حال اقتضت ذلك ويدعوه للدخول في البيعة ثانية

يَزْعُمُ(١) أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ(٢) بِيَدِهِ، وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ؛ فَقَدْ أَقَرَّ(٣) بِالْبَيْعَةِ وَادَّعَى(٤) الْوَلِيجَةَ(٥). فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ؛ وَإِلاَّ فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ.

اللغة

١ ـ يزعم : والزعم هو القول الذي يشك فيه أو يعلم بطلانه.
٢ ـ بايع : مبايعة عاهده إعطاء الولاء لشخص ليتولى مقاليد الأمور.
٣ ـ أقر : اعترف.
٤ ـ أدعى : زعم أنه له حقاً أو باطلاً.
٥ ـ الوليجة : الدخيلة وما يضمره الانسان في قلبه.

الشرح

(يزعم أنه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه) بايع الزبير للإمام بيعة مكشوفة رآها العام والخاص دون إجبار ولا إكراه ولما عرف أنه لن ينال من خلافته شيئاً أراد أن يهرب منها ويتهرب مما أعطاه ولكن كيف وبأي أسلوب ادعى عندها أنه بايعه بيده ولم يعقد على البيعة قلبه ويصل هذا الكلام إلى الإمام فيرّد عليه مبطلاً دعواه مكذباً مدعاه بحجة عقلانية تبانى عليها كل الناس ومفادها ومضمونها: إن من أعطى أمراً ظاهراً من قول أو فعل يكون حجة له كما يكون حجة عليه ولا يمكن أن يخرج عنه أو يعتذر منه إلا إذا جاء بحجة أقوى ينفي ظهور ذلك الفعل أو القول وهذا ما احتج به الإمام عليه حيث قال:

(فقد أقر بالبيعة وادعى الوليجة فليأت عليها بأمر يعرف) أقرّ بالبيعة حيث بايعه جهاراً نهاراً وأمام جمهور الناس فما يدعيه من أنه لم يكن من قلبه فهذه الدعوى تحتاج إلى إثبات وإثباتها متعذر مستحيل لا يمكن إدراكه أو تحقيقه فالناس لها علم ومعرفة بما يقع تحت نظرها وأما ما في القلوب فالله وحده العلاّم وإذا تعذّر ذلك فما على الزبير إلا الرجوع إلى البيعة وإبطال نقضها . .

(وإلا فليدخل فيما خرج منه) فهو قد كان داخلاً في البيعة وقد خرج منها بنكثها فما عليه الآن بعد أن عجز عن إثبات ما يضمره إلاّ أن يعود إلى البيعة التي خرج منها . . .

ترجمةالزبير :

الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي . . يكنى أبو عبد الله .

أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله (ص) .

أسلم في سن مبكرة .

وقد شهد مع النبي جميع مشاهده وكان فارساً شجاعاً وقد رفض بيعة أبي بكر ووقف إلى جانب الإمام علي وقد كان واحداً من ست في الشورى العمرية وقد بايع الإمام ثم نكث بيعته وخرج مع طلحة وأم المؤمنين عائشة لقتال علي في معركة الجمل .

قال صاحب الإصابة في تمييز الصحابة: روى أبو يعلى من طريق أبي جرد المازني قال: شهدت علياً والزبير توافيا يوم الجمل فقال له علي: أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: تقاتل علياً وأنت ظالم له .

قال: نعم ولم أذكر ذلك إلى الآن فانصرف وبينما هو عائد قتله عمرو بن جرموز ولما أراد الجائزة قال له علي: قال رسول الله: بشرّ قاتل ابن صفية بالنار، قتل في جمادى الأول سنة ست وثلاثين وله ست أو سبع وستون سنة .

أقول :

كان الزبير يعدّ من أهل البيت لموقفه معهم وإيمانه بهم ولكن ولده عبد الله أخرجه من هذا الولاء إلى العداء وقد قال الإمام كلمة في هذا المعنى قال: «ما زال الزبير[1] منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله».

---

(١) قصار الحكم / ٤٥٣ .

٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

في صفته وصفة خصومه ويقال إنها في أصحاب الجمل

وَقَدْ أَرْعَدُوا(١) وَأَبْرَقُوا(٢)، وَمَعَ هذَيْنِ ٱلأَمْرَيْنِ ٱلْفَشَلُ(٣)؛ وَلَسْنَا نُرْعِدُ حَتَّى نُوقِع، وَلا نُسِيلُ حَتَّى نُمْطِرَ.

اللغة

١ ـ أرعدوا : من الرعد وهو صوت قوي يحدث من اصطكاك الغيوم ببعضها، والرجل أرعد إذا أوعد.

٢ ـ أبرقوا : من برق والبرق نور يلمع أثر احتكاك الغيوم بعضها ببعض والرجل أبرق إذا هدد.

٣ ـ الفشل : عدم النجاح، تراخي وجبُن عند حرب أو شدة.

الشرح

(وقد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الأمرين الفشل) هذا الكلام منه عليه السلام موّجه إلى طلحة والزبير وجماعتهما ويريد به الذم والاستهانة بهم وبقدرتهم.

وقد استدل على فشلهم وجبنهم وعدم نجاحهم أنهم يسلكون مسلك التهديد والوعيد وهذا من دأب الجبناء فإنهم أقوى ما يكونون إذا عرفوا أنهم لا يصل إليهم خصومهم أو كان هناك ما يحول بينهم وبين لقائهم وهذا مجرّب قد جرت به عادة الجبناء ومرّ علينا صدق هذا الكلام.

ثم أشار إلى واقعه وما هو عليه من اقتران القول بالفعل بقوله: (ولسنا نرعد حتى نوقع ولا نسيل حتى نمطر) وإذا تهددنا أحداً أوقعنا به العذاب والنكال وإلا فلا نهدد.

١٠ ـ ومن خطبه له عليه السلام

يريد الشيطان أو يكني به عن قوم

أَلاَّ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ(١)، وَٱسْتَجْلَبَ(٢) خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ(٣)، وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي(٤): مَا لَبَّسْتُ(٥) عَلَىٰ نَفْسِي، وَلاَ لُبِّسَ عَلَيَّ. وَٱيْمُ ٱللّٰهِ(٦) لأُفْرِطَنَّ(٧) لَهُمْ حَوْضاً(٨) أَنَا مَاتِحُهُ(٩)! لاَ يَصْدِرُونَ عَنْهُ(١٠)، وَلاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

اللغة

١ ـ الحزب : جمعه أحزاب، الجماعة من الناس، جند الرجل وأصحابه الذين على رأيه، كل قوم اجتمعت قلوبهم وأعمالهم على شيء واحد.

٢ ـ استجلب : طلب أو سبب جلبهم ومجيئهم.

٣ ـ رجله : الرجل بالفتح جمع راجل.

٤ ـ البصيرة : جمعها بصائر، العقل، الفطنة وهي بصر الداخل والعين للخارج.

٥ ـ لبّست : من اللبس، الإشكال وعدم الوضوح والاختلاط.

٦ ـ أيم الله : قسم مثل والله.

٧ ـ لأفرطن : يقال أفرطت الحوض إذا ملأته والفرط المتقدم.

٨ ـ الحوض : جمع أحواض وحياض مجتمع الماء.

٩ ـ ماتحه : الماتح المستقي من البئر.

١٠ ـ صدر عنه : ضد ورده، رجع عنه.

الشرح

(ألا وإن الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله ورجله) يريد بهذه الخطبة ذم أعدائه وبيان ضلالهم وانحرافهم وقد استفزهم الشيطان وجمعهم لحربه وجاء بهم

راجلين وعلى الخيل فإن وراء قيامهم في وجهه إنما كان الشيطان ودعوته الضالة وقد استجابوا له وأطاعوه وتحركوا كما أراد..

(وإن معي لبصيرتي ما لبست على نفسي ولا لُبس عليّ) بعد أن ذم أعداءه لمتابعتهم للشيطان وإطاعـة أمره أراد أن يبيّن نظافة ساحته وصحة رؤيته وأنه لا يزال في الوضوح الآن كما كان زمن رسول الله فيقول إنني على رؤيتي الواضَحة وعقيدتي التي كنت عليها فقد كنت على المحجة الواضحة ولا أزال لم أشك في تلك الرؤية ولم أشتبه فيما أنا عليه كما أنه لم يقدر أحد على تشويش رؤيتي وزلزلت إيماني وما أنا عليه من الحق فليس لنفسي الأمارة بالسوء قدرة على إغوائي وكذلك ليس لأحد من شياطين الجن والإنسان قدرة على إغوائي وتشويش رؤيتي.

(وأيم الله لأفرطن لهم حوضاً أنا ماتحه، لا يصدرون عنه ولا يعودون إليه) ثم أقسم بالله وهو بار في قسمه أنه سيعلنها عليهم حرباً ضروساً وكنى عن ذلك بأنه سيملأ لهم حوضاً وهو بنفسه يتولى نزحه تهديداً لهم فإنهم سيردون على الحوض ولكن علياً صاحب الحرب وابن بجدتها سيتركهم بين أمرين أحلاهما مرّ، سيتركهم بين قتيل يرد على الحرب ولا يخرج منها وبين هارب لا يعود إليها أبداً.

١١ ـ ومن كلام له عليه السلام

لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل

تَزُولُ(١) ٱلْجِبَالُ وَلاَ تَزُلْ! عَضَّ(٢) عَلَىٰ نَاجِذِكَ(٣). أَعِرِ(٤) ٱللّٰهَ جُمْجُمَتَكَ(٥). تِدْ(٦) في ٱلْأَرْضِ قَدَمَكَ(٧). ٱرْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى(٨) ٱلْقَوْمِ، وَغُضَّ(٩) بَصَرِكَ، وَٱعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدَ ٱللّٰهِ سُبْحَانَهُ.

اللغة

١ ـ تزول : تذهب وتتحول.
٢ ـ عض : العض هو الإمساك بالأسنان والضغط بها.
٣ ـ ناجذيك : مفردها ناجذ وهو أقصى الأضراس.
٤ ـ أعر : من الإعارة وهي إعطاء شيء للاستفادة منه على أن يرده.
٥ ـ جمجمتك : الجمجمة عظم الرأس المشتمل على الدماغ.
٦ ـ تد : أمر من وتد إذا ثبت كالوتد.
٧ ـ قدمك : القدم ما بين طرف الابهام للرجل وطرف العقب.
٨ ـ أقصى الشيء : منتهاه وغايته.
٩ ـ غضّ : بصره منعه عما لا يحل له والغض كسر النظر وكفه.

الشرح

(تزول الجبال ولا تزل) هذه أوامر وإرشادات من الإمام إلى ولده وهي نتيجة تجربة حكيمة وخبرة طويلة في هذا المضمار فأولها الثبات والصبر وإن الجبال لو زالت من

محلها يجب أن لا تزول أنت عن مكانك أو تتحول عنه فلا تتحرك ولا تضطرب . . .

(عض على ناجذك) قيل إن العض على النواجذ يصلّب عظام الرأس فلا يأخذ منه السيف مأخذه ولكن الأقرب أنه كناية عن تحميله الغيظ وأن يكون حاله حال المقهور الذي يحنق على خصمه ويغتاظ فيعض على نواجذه ويطلب الانتقام وشفاء غيظ صدره ليرتاح . . .

(أعر الله جمجمتك) يعني أبذل نفسك في طاعة الله وتقوية دينه والعارية هي إعطاء شيء للاستفادة منه على أن يرده وهذا منه كما قيل إشارة إلى أنه لن يموت في قتاله .

(تد في الأرض قدمك) ثبتّ أقدامك في الأرض واجعلها كالوتد لا تتحرك ولا تتزلزل وإنك متى ثبتَ ثبت غيرك كما هو حال الوتد بالنسبة لما يربط به . .

(ارم ببصرك أقصى القوم) فلا تنكّس رأسك ولا يرهبك من كان قريباً منك بل انظر إلى آخر القوم واقصد إليه فاجعله مطمح نظرك وغاية وصولك فإن الهمم العالية تجعل هدفها أهم الأمور وأعظمها وفي الحروب ينظر إلى النصر وهو لا يتم إلا بالتغلب على أقصى القوم . .

(غض بصرك) فبعد أن أمره أن يمد بصره إلى أقصى القوم ويكون همه ذلك والانتصار عليه يجب أن يغضّ بصره عما في أيدي أعدائه من السيوف والعتاد لئلا يؤخذ بها وينهزم نفسياً من رؤيتها ثم ختمها بقوله :

(واعلم أن النصر من عند الله سبحانه) وهذه عقيدة المؤمن ومنها ينطلق فهو يعمل بما أمر الله من إعداد العدة والتأهب وتوفير جميع متطلبات المعركة ثم يجعل على رأس ذلك كله وفي صلب معادلته إرادة الله وحكمه فهو الذي ينزل نصره وهو الذي يمسكه ويمنعه بيده الأمور وإن تنصروا الله ينصركم . .

ترجمة محمد بن الحنفية :

محمد بن علي بن أبي طالب .

وأمه اسمها خولة بنت جعفر بن قيس من قبيلة بني حنيفة .

وقد اختلف في أمرها فقيل أنها سبية على يد خالد بن الوليد في زمن أبي بكر وهذا لم يصح .

وقيل أنها كانت سبية في زمن رسول الله فقد قالوا أن رسول الله بعث علياً إلى اليمن

فأصاب خولة في بني زبيد وقد ارتدوا مع عمر بن معد يكرب وكانت زبيد قد سبتها من بني حنيفة في غارة لهم عليهم فصارت في سهم علي فقال له رسول ﷺ: إن ولدت منك غلاماً فسمه باسمي وكنه بكنيتي فولدت له بعد موت فاطمة محمداً فكناه أبا القاسم.

وقال قوم وهم المحققون وقولهم الأظهر أن بني أسد أغارت على بني حنيفة في خلافة أبي بكر فسبوا خولة فباعوها من علي فقدم قومها عليه فأخبروه بموضعها عندهم فأعتقها ومهرها وتزوجها. . .

كان محمد من فضلاء التابعين حتى ادعى قوم أنه الإمام وكانت راية أمير المؤمنين في موقعة الجمل معه قال ابن أبي الحديد دفع أمير المؤمنين يوم الجمل رايته إلى محمد ابنه وقد استوت الصفوف وقال له: إحمل فوقف قليلاً فقال له: إحمل فقال يا أمير المؤمنين أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر فدفع في صدره وقال: أدركك عرق من أمك ثم أخذ الراية فهزها ثم قال:

إطعن بها طعن أبيك تحمد لا خير في الحرب إذا لم توقد
بالمشرقي والقنا المسدد

ثم حمل وحمل الناس خلفه فطحن عسكر البصرة ثم دفع علي الراية إلى محمد وقال إمح الأولى بالأخرى وهذه الأنصار معك وضم إليه خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين في جمع من الأنصار كثير ومن أهل بدر فحمل محمد حملات كثيرة أزال بها القوم عن مواقفهم وأبلى بلاء حسناً فقال خزيمة بن ثابت لعلي: أما إنه لو كان غير محمد اليوم لافتضح ولئن كنت خفت عليه الجبن وهو بينك وبين حمزة وجعفر لما خفناه عليه وإن كنت أردت أن تعلمه الطعان فطالما علمته الرجال، وقالت الأنصار: يا أمير المؤمنين لولا ما جعل الله تعالى للحسن وللحسين عليهما السلام لما قدمنا على محمد أحداً من العرب فقال علي عليه السلام أين النجم من الشمس والقمر أما أنه قد أغنى وله فضله. . . ولكن أين يقع ابني من ابني رسول الله ﷺ.

- وقد كان لمحمد منزلة في قلوب الناس وقد دعا له المختار وكان يقول إنه المهدي ويسمى من اعتقد به بالكيسانية وقد حبسه ابن الزبير فخلصه المختار.

توفي محمد سنة ٨١ هجرية في أيام عبد الملك بن مروان. .

١٢ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما أظفره الله بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه، وددت أن أخي فلاناً كان شاهداً ليرى ما نصرك الله به على أعدائك

فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ: أَهَوَىٰ[١] أَخِيكَ مَعَنَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ شَهِدَنَا، وَلَقَدْ شَهِدَنَا! في عَسْكَرِنَا هٰذَا أَقْوَامٌ[٢] في أَصْلاَبِ[٣] الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ[٤] النِّسَاءِ، سَيَرْعَفُ[٥] بِهِمُ الزَّمَانُ، ويَقْوَى بِهِمُ الإِيمَانُ.

اللغة

١ ـ ألهوى : الحب والاشتهاء، الميل.
٢ ـ أقوام : جماعات.
٣ ـ أصلاب : مفرده صُلب عظم الظهر ذو الفقرات الممتد من الكاحل في أسفل الظهر.
٤ ـ أرحام : مكان نمو الجنين في المرأة.
٥ ـ رعف : من الرعاف وهو الدم الذي يخرج من الأنف.

الشرح

(فقال عليه السلام: أهوى أخيك معنا.
قال: نعم قال: فقد شهدنا ولقد شهدنا في عسكرنا هذا).

ما أجمل هذه الأمنية في تلك اللحظات الكريمة... إنها إشراقةُ في عالم الروح

تتفتح لترى أخاً لها في الله كان يعشق هذا النصر لأولياء الله. . .

وددت التي هي أقرب من ليت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على اعدائك.

ويأتي الرد العلوي ليستحضر الأخ بين المجاهدين ويدخله في عداد الشاهدين. . لئن بعد بجسده فإن الروح تقربه وعلاقة الفكر توحده. . اتحاد الرؤية والنظرة والهوى والحب يجمع الجميع، من مات ومن هو شاهد حي ومن بَعْدُ في أصلاب الرجال وأرحام الأمهات. . . يلتقي الجميع على صعيد واحد. . . يأخذ الغائب حكم الحاضر وينال أجره وثوابه. . تطوى المسافات الزمنية وتقترب أقاصي الأرض بعضها من بعض وتأتي بكل صاحب رأي لتجمعه مع من يلتقي معه في الرأي. . الحب يجمع. . الهوى والميل يوحد. . الجامع مشترك يحكم الجميع ويعطي الكل حكماً واحداً. . .

من كان غائباً الآن وأحب نصرنا فهو معنا ومن بعد في زوايا العدم في أصلاب الرجال وأرحام النساء وأحب نصرنا فهو معنا ومن أحب قوماً كان معهم والراضي بفعل قوم كالداخل معهم فيه. . .

إنها استشرافة علوية وعلم علمه الله إياه يقرأ من خلاله المستقبل فيخبر عنه وكأنه عيان فيبشر المؤمنين بأن الزمن سيأتي بمن يحب أمير المؤمنين ويحب فتوحاته وبطولاته، وهؤلاء سيقوى بهم الإيمان، سيجاهدون وينتصرون ويقوى بهم الإيمان وترتفع بهم كلمة الرحمن.

إنما يجمع الناس السخط والرضا:

وردت الأحاديث الكثيرة في أن من أحب قوماً حُشر معهم ومن رضي بفعل قوم كان شريكاً لهم ويحاسب كحسابهم وهذا الأمر من مقتضيات الإيمان ولوازمه فمن أحب الرذيلة وانتشارها كان كمن يتعاطاها ومن رضي بقتل مؤمن كان شريك القاتل في عمله وهكذا.

١ ـ عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: من شهد أمراً فكرهه كان كمن غاب عنه، ومن غاب عن أمر فرضيه كان كمن شهده.

٢ ـ وعن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت لأبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله ما تقول في حديث روي عن الصادق (ع) قال: إذا

خرج القائم قتل ذراري قتلة الحسين عليه السلام بفعال آبائها فقال عليه السلام: هو كذلك فقلت: قول الله عز وجل: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ما معناه؟.

قال: صدق الله في جميع أقواله، ولكن ذراري قتلة الحسين (ع) يرضون بفعال آبائهم ويفتخرون بها ومن رضي شيئاً كان كمن أتاه، ولو أن رجلاً قتل بالمشرق ـ فرضي بقتله رجل بالمغرب لكان الراضي عند الله عز وجل شريك القاتل، وإنما يقتلهم القائم (ع) إذا خرج لرضاهم بفعل آبائهم..

١٣ ـ ومن كلام له عليه السلام

في ذم أهل البصرة بعد وقعة الجمل

كُنْتُمْ جُنْدَ[١] ٱلْمَرْأَةِ، وَأَتْبَاعَ[٢] ٱلْبَهِيمَةِ[٣]؛ رَغَا[٤] فَأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ[٥] فَهَرَبْتُمْ. أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقٌ[٦]، وَعَهْدُكُمْ[٧] شِقَاقٌ[٨]، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ[٩]، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ[١٠]، وَٱلْمُقِيمُ[١١] بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ[١٢] بِذَنْبِهِ، وَالشَّاخِصُ[١٣] عَنْكُمْ مُتَدَارَكٌ[١٤] بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ. كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ[١٥] سَفِينَةٍ قَدْ بَعَثَ ٱللّٰهُ ٱلْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا، وَغَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا.

وفي رواية: وَٱيْمُ ٱللّٰهِ لَتَغْرَقَنَّ بَلْدَتُكُمْ حَتَّىٰ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ مَسْجِدِهَا كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ، أَوْ نَعَامَةٍ[١٦] جَاثِمَةٍ[١٧].

وفي رواية: كَجُؤْجُؤِ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ.

وفي رواية أخرى: بِلَادُكُمْ أَنْتَنُ[١٨] بِلَادِ ٱللّٰهِ تُرْبَةً: أَقْرَبُهَا مِنَ ٱلْمَاءِ، وَأَبْعَدُهَا مِنَ السَّمَاءِ، وَبِهَا تِسْعَةُ أَعْشَارِ الشَّرِّ، ٱلْمُحْتَبَسُ فِيهَا بِذَنْبِهِ، وَٱلْخَارِجُ بِعَفْوِ ٱللّٰهِ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ قَرْيَتِكُمْ هٰذِهِ قَدْ طَبَّقَهَا[١٩] ٱلْمَاءُ، حَتَّىٰ مَا يُرَىٰ مِنْهَا إِلَّا شُرَفُ[٢٠] ٱلْمَسْجِدِ، كَأَنَّهُ جُؤْجُؤُ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ[٢١] بَحْرٍ!

اللغة

١ ـ الجُند : العسكر.
٢ ـ الأتباع : السائرون خلف شخص، المنقادون له.
٣ ـ البهيمة : جمعها بهائم كل ذات أربع قوائم من دواب البر والماء عدا السباع والطيور.
٤ ـ رغا : من الرغاء وهو صوت الإبل.
٥ ـ عقر : العقر الجرح.
٦ ـ دقاق : الدقاق من كل شيء صغيره وحقيره.
٧ ـ العهد : الميثاق.
٨ ـ الشقاق : الخلاف.
٩ ـ النفاق : إظهار الإسلام وإبطان الكفر.
١٠ ـ الزعاق : المالح.
١١ ـ المقيم : الثابت، المستقر في المكان.
١٢ ـ المرتهن : المحبوس بالشيء وارتهن بالأمر إذا تقيد به.
١٣ ـ الشاخص : الراحل، والذاهب.
١٤ ـ متدارك : يقال تداركه الله برحمته أي لحقه وتدارك القوم لحق أولهم آخرهم.
١٥ ـ الجؤجؤ : عظم الصدر وجؤجؤ السفينة صدرها ومقدمها.
١٦ ـ النعامة : حيوان معروف أخذ من الجمل العنق والوظيف والمنسم ومن الطير الجناح والمنقار والريش.
١٧ ـ جاثمة : رابضة.
١٨ ـ أنتن : من النتن وهو ما خبثت رائحته.
١٩ ـ طبّقها : يقال طبّق الماء وجه الأرض إذا غطاه وعمّه.
٢٠ ـ شُرَفُ : مفردها شرفة ومن القصر ما أشرف من بنائه.
٢١ ـ اللجة : معظم البحر، وعمقه.

الشرح

(كنتم جند المرأة وأتباع البهيمة رغا فأجبتم وعقر فهربتم) البصرة هي البلدة التي تداعى لها طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ومن تابعهم وقصدوها من المدينة بعد

مرورهم بمكة وكانت بها وقعة الجمل المشهورة التي كانت أول معركة بين المسلمين وهي التي فتحت باب الفتنة وشقت عصا المسلمين وجرأت معاوية أن يتمادى في غيه ويسترسل في ضلاله وينازع الخليفة الشرعي ويشنها حرباً ضروساً حولت الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض. . .

دخل طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة إلى البصرة فوجدوا أذناً صاغية وأتباعاً وشيعة. . إنهم نقضوا بيعة أمير المؤمنين ونكثوا عهدهم وعندما انهزم أهل الجمل خطب الإمام بأهل البصرة وقد ذمهم وذكر بعض عيوبهم فأول صفة قبيحة فيهم أنهم جند المرأة. . إنهم أمّروا عليهم أم المؤمنين عائشة فهي التي قادت الحرب وأضرمت نارها وزكتّ أوارها ولن يفلح قوم ولّوا عليهم امرأة وقد كانت المرأة تمثلّ الضعف ولاحظ لها في الحرب أو قيادة الجيوش فكيف استولت السيدة عائشة على أهل البصرة وجعلتهم من جندها وجعلوها قائدة لهم نعم قد نظروا إليها على أنها زوجة نبيهم فقدموا أنفسهم من أجلها. . .

وأيضاً جعلهم أتباع البهيمة يعني أتباع الجمل وهذا الجمل الملعون كانت له قصة منذ أن رأت أم المؤمنين اعتلاء ظهره ومن قصته كما في شرح النهج لابن أبي الحديد:

قال: لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً أيدّاً يحمل هودجها فجاءهم يعلى بن أمية ببعيره المسمى عسكراً وكان عظيم الخلق شديداً فلما رأته أعجبها وأنشأ الجمّال يحدثها بقوته وشدته ويقول في أثناء كلامه عسكر فلما سمعت هذه اللفظة استرجعت وقالت ردوه لا حاجة لي فيه وذكرت حيث سألت رسول الله ذكر لها هذا الأسم ونهاها عن ركوبه وأمرت أن يطلب لها غيره فلم يوجد لها ما يشبهه فغير لها بجلال غير جلاله وقيل لها قد أصبنا لك أعظم منه خلقاً وأشد قوة وأتيت به فرضيت. .

وهذا الجمل الملعون إلتف حوله أهل البصرة واجتمعت عليه القبائل، اتخذته راية لها تدافع عنه وتدفع عنه كل من قصده حتى قضى دونه الكثير الكثير من العرب وهذا ما استدعى الإمام أن ينفخ في أصحابه ويدفعهم لعقره والقضاء عليه قائلاً لهم وبأعلى صوته:

«ويلكم اعقروا الجمل فإنه شيطان» ثم قال: «اعقروه وإلا فنيت العرب». وقال: لعنه الله من دابة فما أشبهه بعجل بني اسرائيل ثم قرأ: «وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً» ثم أشار الإمام إلى رمزية هذا الجمل وخصوصيته عند أهل البصرة بحيث أنه اتخذ لهم راية فعندما سمعوا صوته تداعوا إليه واستجابوا

لأهله فراحوا يدافعون عنه ويتقاتلون تحت لواء راكبته ولكن ما أن سقط على الأرض حتى هرب كل من كان حوله وتفرقوا وهدأت المعركة.. وبعبارة ابن أبي الحديد «فما هو إلا أن صرع الجمل حتى فرت الرجال كما يطير الجراد في الريح الشديدة».

(أخلاقكم دقاق وعهدكم شقاق ودينكم نفاق) وقد ذم الإمام أهل البصرة ببعض أخلاقهم القبيحة فإنهم أصحاب أخلاق دنيئة رذيلة وعهودهم لا وفاء لهم بها بل إذا بايعوا نكثوا وأصدق شاهد ما وقع لهم معه ووصف دينهم بأنه نفاق فهم ليسوا مسلمين صادقين وإنما يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

(وماؤكم زعاق) أي مالح لا تقبله النفس ولا تستسيغه وهذا ذم لاختيارهم الذي وقع على هذا الشيء المرفوض وإذا أردت أن تحط من شأن إنسان قد تحط من نفس الغرض الذي اختار كأن تُسقط الكتاب وتعيبه وتتكلم عليه فيعرف من اختاره أنه بدون ذوق في عملية الاختيار.

(المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه) بعد أن وصفهم بما هم فيه وبيّن مساويهم خلص إلى نتيجة بأن المقيم معهم مؤاخذ بذنبه لا خلاص له منه من حيث أن الطبايع تعدي والعادات تنتقل أو أنه وهو مقيم معهم لا يقدر على ردعهم ومنعهم عما هم فيه فيشمله البلاء وتعمّه النقمة وقد ورد النهي عن الإقامة في بلاد يقل فيها الدين خصوصاً إذا خاف الإنسان على نفسه من الانحراف ففي الحديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: إياكم وصحبة العاصين ومعونة الظالمين ومجاورة الفاسقين واحذروا فتنتهم وتباعدوا عن ساحتهم... وإذا كان المقيم بينهم تطاله هذه العقوبة القاسية ويؤاخذ بذنبه فمن كان بعيداً عنهم وتركهم وارتحل أدركته رحمة ربه لسلامته وأمنه من مجاورتهم وقربهم.

(كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها) وهذه مفردة من مفردات الإمام الغيبية حيث رأى بعين البصيرة وما كشفه الله له من المستقبل بأن البصرة ستغرق وسينال أهلها العذاب والعقاب لشدة ذلك العذاب نالهم من تحتهم ومن فوقهم وغرقوا وهم فيها فهو يطالهم من جميع الجهات ولا يبقى منها إلا المسجد ظاهر علامة عليها ودليل على أنها كانت هنا...

(وفي رواية وأيم الله لتغرقن بلدتكم حتى كأني أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة) وهذا حلف منه وقسم يؤكد على أن البصرة ستغرق وسيعمها الماء ولا يبقى

إلا المسجد كشاهد على أنها كانت أنه كمقدم السفينة أو نعامة رابضة يرى الإنسان رأسها كأثر يدل عليها . .

(وفي رواية كجؤجؤ طير في لجة بحر) يقول الشارح المعتزلي: فإن البصرة قد غرقت مرتين، مرة في أيام القادر بالله ومرة في أيام القائم بأمر الله غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر حسب ما أخبر به أمير المؤمنين . . .

(وفي رواية أخرى بلادكم أنتن بلاد الله تربة أقربها من الماء وأبعدها من السماء وبها تسعة أعشار الشر) وهذا وصف للبصرة وهي أوصاف شائنة تنفيراً منها وتحذيراً لأهلها فهي أنتن أرض الله لما فيها من الرطوبة المؤدية للعفونة.

وأما بُعدها من السماء فقد لا يكون المراد به المعنى الحقيقي الحسي وإنما يراد به أنها أبعدها عن رحمة الله ومنحه وعطاياه.

ثم لكثرة شرور أهلها وتمرسهم في الباطل جعل فيهم تسعة أعشار الشر وهو قد لا يراد به الحقيقة وإنما يراد به الكناية والإشارة إلى كثرة شرورهم . . .

(المحتبس فيها بذنبه والخارج بعفو الله كأني أنظر إلى قريتكم هذه قد طبّقها الماء حتى ما يُرى منها إلا شرف المسجد كأنه جؤجؤ طير في لجة بحر) فمن بقي فيها واستقر في أرضها فلا بد وأنها عقوبة على ذنب فعله وأما من خرج منها فبرحمة الله وعفوه الذي نجاه وأبعده عنها ثم أخبرهم بما يجري عليها من الغرق . .

١٤ ـ ومن كلام له عليه السلام

في مثل ذلك

أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ ٱلْمَاءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، خَفَّتْ(١) عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ(٢) حُلُومُكُمْ(٣)، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ(٤) لِنَابِلٍ(٥)، وَأُكْلَةٌ(٦) لآكِلٍ، وَفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ(٨).

اللغة

١ ـ خفّت : من خفّ ضد ثقل.
٢ ـ سفهت : السفيه الذي لا يحسن التصرف وشرعاً من لا يحسن التصرف بماله.
٣ ـ الحلوم : العقول.
٤ ـ الغرض : ما ينصب ليرمى بالسهام.
٥ ـ النابل : ذو النبل.
٦ ـ أكلة : اسم للمأكول.
٧ ـ فريسة : الأسد ما يصطاده ويفترسه ويدق عنقه.
٨ ـ الصائل : على الحيوان هو الواثب عليه القاهر له، والصولة السطوة والقهر.

الشرح

(أرضكم قريبة من الماء بعيدة من السماء) يقول ابن أبي الحديد في تفسير هذه الكلمات: قريبة من الماء أي قريبة من الغرق بالماء وأما بعيدة عن السماء فإن أرباب علم الهيئة وصناعة التنجيم يذكرون أن أبعد موضع في الأرض عن السماء (الإبلّة) والإبلة هي

قصبة البصرة وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين لأنه أخبر عن أمر لا تعرفه العرب ولا تهتدي إليه وهذا مخصوص بالمدققين من الحكماء وهذا من أسراره وغرائبه وبدائعه.

ويمكن أن يكون بعدها عن السماء أي بعدها عن رحمة الله وطاعته. . .

(خفّت عقولكم وسفهت حلومكم) أما خفت عقولهم فلأنهم اتبعوا المرأة الضعيفة التي لا علم لها بالحرب ولا حق لها بالقتال ولم يقفوا عندما جاءتهم وقفة الكرام ليردوها إلى مكانها التي جاءت منه حفظاً لها وصيانة لكرامتها ولحق نبيهم عليهم فيها، وأما سفه الأحلام فلأن حقهم أن يحاكموها ويردوها إلى خدرها الذي ضربه الله عليها حيث قال تعالى مخاطباً نساء النبي: ﴿**وقرن في بيوتكن ولا تبرجن[1] تبرج الجاهلية الأولى. . .**﴾.

(فأنتم غرض لنابل) أنتم هدف يقصدكم طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة فيخرجوكم لقتال الحق والعدل وتكونوا بذلك هدفاً للقتل والاذلال والفتنة.

(وأكلة لآكل) من حيث يقصدكم ويأكل أنفسكم بالحرب وأموالكم بالتلف.

(وفريسة لصائل) فكل طامح يريد الخروج على الحاكم الشرعي تكونون فريسة له ولقمة سائغة يقودكم إلى حتفكم. .

---

(١) سورة الأحزاب، آية/ ٣٣.

١٥ ـ ومن كلام له عليه السلام

فيما رده على المسلمين من قطائع[١] عثمان رضي الله عنه

وَٱللّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ ٱلإِمَاءُ[٢]؛ لَرَدَدْتُهُ؛ فَإِنَّ في ٱلْعَدْلِ سَعَةً[٣]. وَمَنْ ضَاقَ[٤] عَلَيْهِ ٱلْعَدْلُ، فَٱلْجَوْرُ[٥] عَلَيْهِ أَضْيَقُ!.

اللغة

١ ـ القطائع : ما يقطعه الولاة من أرض الخراج لبعض الناس.

٢ ـ الإماء : الجواري والعبيد.

٣ ـ السعة : ضد الضيق.

٤ ـ ضاق الشيء : ضد اتسع.

٥ ـ الجور : الظلم.

الشرح

(والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق) قالوا: إن الإمام خطب هذه الخطبة في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة ومطلعها: ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق القديم لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرق في البلدان لرددته إلى حاله فإن في العدل سعة ومن ضاق عنه العدل فالجور عنه أضيق..

سلك عثمان مع اقربائه خلاف سيرته مع جميع المسلمين فقد آثرهم بالفيىء

وأغدق عليهم العطاء وزاد لهم فيه بل فتح أمامهم أبواب الرزق من بيت مال المسلمين وأقطعهم القطايع وحوّل الإسلام كله لصالحه وصالح أسرته دون استحقاق ولا كفاءة ولا قدم سابقة لهم في جهاد أو غزو وكان هذا الاستئثار من أهم الأمور التي دفعت بالمسلمين إلى التخلص منه وعندما تولى الإمام الخلافة وأضحت يده مبسوطة يستطيع أن يرد المظالم لأهلها ويعود بها إلى أصحابها كانت هذه الخطبة خطة عمل وبرنامجاً لسيرته وإنذاراً مبكراً برجوع الحق إلى نصابه فلذا يُقسم وهو بار في قسمه صادق في حلفه يقسم أن هذا المال المأخوذ ظلماً لو وجده وقد تزوج به النساء بأن جُعل مهراً لهم وصداقاً في زواجهم لاسترجعه منهم ولو اشتُري به العبيد والجواري لاسترجع الحق منهم فإن الزمن لا يعطي شرعية لأحد ولا يستطيع مروره أن يقلب الأمور من كونها محرمة إلى أن تصبح محللة بل المغصوب ونماؤه لمالكه الأصيل وليس للغاصب إلا التعب. . وعلل ذلك بأن العدل فيه سعة وراحة وفيه إقامة النظام وعدم الفوضى والانحلال وإذا كان العدل لا يسع بعض الناس لانحرافهم وظلمهم وأخذهم أموال الناس ظلماً وعدواناً فإن الظلم عليه أضيق بكثير لأن الحق سيؤخذ منه بالقوة وفي ذلك قهر له وإذلال فيجمع بين ذهاب المال وذلة النفس وفي هذا تهديد لهم وإنذار بأن المظالم يجب أن ترجع إلى أهلها وتعود إليهم وليبادر كل ظالم إلى رد مظلمته إلى صاحبها. .

١٦ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما بويع في المدينة وفيها يخبر الناس بعلمه بما تؤول إليه أحوالهم وفيها يقسمهم إلى أقسام

ذِمَّتي(١) بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ(٢). وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ(٣). إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ(٤) لَهُ ٱلْعِبَرُ(٥) عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْمَثُلاتِ(٦)، حَجَزَتْهُ(٧) التَّقْوَىٰ عَنْ تَقَحُّمِ(٨) الشُّبُهَاتِ(٩). إِلاَّ وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ ٱللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِٱلْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً(١١)، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً، وَلَتُسَاطُنَّ(١٢) سَوْطَ ٱلْقِدْرِ(١٣)، حَتَّىٰ يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاكُمْ، وَأَعْلاكُمْ أَسْفَلَكُمْ، وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا. وَٱللّهِ مَا كَتَمْتُ(١٥) وَشْمَةً(١٦)، وَلا كَذَبْتُ كِذْبَةً، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ(١٧) بِهٰذَا ٱلْمَقَامِ وَهٰذَا ٱلْيَوْمِ. أَلَا وَإِنَّ ٱلْخَطَايَا(١٨) خَيْلٌ شُمُسٌ(١٩) حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَخُلِعَتْ(٢٠) لُجُمُهَا(٢١)، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ. أَلَا وَإِنَّ ٱلتَّقْوَى مَطَايَا(٢٢) ذُلُلٌ(٢٣)، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا(٢٤)، فَأَوْرَدَتْهُمُ(٢٥) ٱلْجَنَّةَ. حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَلِكُلٍّ أَهْلٌ، فَلَئِنْ أَمِرَ(٢٦) ٱلْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ ٱلْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ!.

قال السيد الشريف: وأقول: إن في هذا الكلام الأدنى من مواقع الإحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإن حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به. وفيه ـ مع الحال التي وصفنا ـ زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يَطّلع فَجَّها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلا من ضرب في هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق، «وما يَعْقِلُهَا إلا العَالِمونَ».

اللغة

١ ـ الذمة	:	العهد.
٢ ـ رهينة	:	مرهونة، محبوسة مقيدة.
٣ ـ الزعيم	:	الكفيل.
٤ ـ صرحت	:	كشفت.
٥ ـ العبر	:	بكسر ففتح جمع عبرة الموعظة.
٦ ـ المثلات	:	العقوبات.
٧ ـ حجزه	:	منعه.
٨ ـ التقحم	:	التردي.
٩ ـ الشبهات	:	جمع شبهة الالتباس، ما يلتبس فيه الحق بالباطل والحلال بالحرام.
١٠ ـ البلية	:	الاختبار، والمصيبة.
١١ ـ البلبلة	:	الاختلاط.
١٢ ـ الغربلة	:	نخل الدقيق وغيره.
١٣ ـ لتساطن	:	ساط القدر إذا قلب ما فيها وأداره.
١٤ ـ القدر	:	إناء يطبخ فيه.
١٥ ـ كتم	:	الشيء أخفاه.
١٦ ـ الوشمة	:	الكلمة.
١٧ ـ نبئت	:	أُخبرت وأُعلمت.
١٨ ـ الخطايا	:	جمع خطيئة.
١٩ ـ الشمس	:	جمع شموس الدابة تمنع ظهرها وتستعصي.
٢٠ ـ خلع الشيء	:	نزعه.
٢١ ـ اللجم	:	جمع لجام وهو عنان الدابة الذي تلجم به.
٢٢ ـ المطايا	:	جمع مطية وهي الدابة يستوي فيها المذكر والمؤنث.
٢٣ ـ الذلل	:	المطيعة.
٢٤ ـ الأزمة	:	مفردها زمام وهو ما يزم به أي يُشّد، المقود.
٢٥ ـ أورده	:	من ورد الماء أي صار إليه وهو خلاف صدر.
٢٦ ـ أمر	:	المال كثر.

الشرح

(ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم) إبتدأ كلامه عليه السلام بما يرغّبهم للاستماع إليه والانصات لقوله:

وهو أنه أخذ على نفسه صحة ما يقول ففي ضمانه وعلى عهدته وهو الكفيل بما يقول والمسؤول عما يقول وما يريد أن يقوله هو.

(إن من صرّحت له العبر عما بين يديه من المثلات حجزته التقوى عن تقحّم الشبهات) إن من عاد إلى ما جرى على الأمم الماضية من العقوبات وما نالها من الأخذ وبالأساليب المختلفة من الخسف والمسخ والطوفان وغيرها لكشف ذلك عن نور بصيرته فجعله يعتبر ويتعظ بذلك ودفع به إلى التوقف عن الشبهات وكانت التقوى هي الحاجز والمانع عن ارتكاب أي شبهة يمكن من خلالها أن يرتكب معصية أو ينحرف إلى غير ما أراد الله...

ـ وفي الحديث عن رسول الله (ص) قال: حلال بيّن وحرام بيّن وشبهات بين ذلك فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات وهلك من حيث لا يعلم...

(ألا وأن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم) أخبرهم على أن مصيبتهم عادت كما كانت يوم بعث الله نبيه إليهم فهم الآن في خلاف وتشتت وفرقة وآراء متضاربة لا يجتمعون ولا يتوحدون بل يتقاتلون ويتناحرون وهذه هي حالتهم التي كانوا عليها يوم بعث الله نبيه وفي هذا تنبيه لهم وتحذير وقد جعل هذه مقدمة ليرتب عليها النتيجة وهي ما أقسم عليه وهو قوله:

(والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم وليسبقن سابقون كانوا قصروا وليقصرن سباقون كانوا سبقوا والله ما كتمت وشمة ولا كذبت كذبة ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم) أقسم بالله الذي بعث محمداً بالدين الحق لتضطرب أحوالكم وتختلف أموركم وتتعارض آراؤكم ومواقفكم ويتميز الطيبون منكم من الخبيثين والأخيار من الأشرار وإنه من شدة الفتنة وعنفها وقوتها وزخمها وتغيّر الأحوال وتقلبها ومن تسلط أئمة الجور سيتغير الكثير من الأمور وتختلط الأوراق وسيتقدم من كان ذيلاً وسيتأخر من كان في المقدمة وعلى رأس القافلة.

ثم أشار إلى أن بعض الناس كانوا في زمنٍ سابق وهو زمن الرسول سباقون إلى الجهاد قد تأخروا الآن ونكصوا على أعقابهم كما حدث للزبير وهناك أناس لم يكونوا كذلك فقد تقدموا لجهادهم واجتهادهم.

ثم أقسم بالله ما أخفى كلمة واحدة ولا كذب كذبة قط بل كل ما قاله أو تكلم به قد أخبره عنه الرسول حتى بمقامه الذي هو فيه وهذا اليوم الذي يعتلي فيه عرش الخلافة بعد الخلفاء الذين تقدموه.

(ألا وإن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحمت بهم في النار) شبّه المعاصي بالخيل غير المروضة للركوب التي لم تضبط بزمام يوجهها ويقهر وحشيتها فإن راكبها لا مُحالة إلى الهاوية ولا بد وأن تورده مورد المنية وكذلك المعاصي فإن من يعمل بها ويمارسها ولا يتوب أو يرجع إلى الطاعة فإنها لا بد وأن تقوده إلى النار وتأخذ به إلى عذاب الله الجبار. . . .

إن من يرتكب المعصية فكأنه يركب عليها ولا بد وإن راكب المعصية سيرد النار لأن ذلك نتيجة راكبها ومصير مرتكبها وهذا عكس التقوى التي أشار إليها بقوله:

(ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة) وأما التقوى التي هي عبارة عن الالتزام بأوامر الله والوقوف عند نواهيه وإطاعته فيما أراد والامتناع عما لا يريد فهي كالخيل المروضة المطيعة لراكبها التي بيديه زمامها وقيادها كيف ما أراد صاحبها وجهها وفي أي طريق أراد سيرّها فلا محالة أنه آمن على ظهرها آمن من عطبها وغضبها ولا بد أن تصل به إلى مراده وهو سالم معافى قد أدرك أمنيته وبلغ هدفه وكذلك التقوى التي هي فعل الطاعات وترك المحرمات فإنها ستقود مرتكبها إلى الجنة وستأخذ بيديه إلى النعيم ورضى الرب الغفور الرحيم. .

(حق وباطل، ولكل أهل فلئن أمر الباطل لقديماً فعل ولئن قل الحق فلربما ولعل ولقلما أدبر شيء فأقبل) ثم أشار الإمام إلى كبرى كلية في الحياة وإن كل أمر فهو أما حق أو باطل وقد ساق ذلك ليبيّن أن لكل منهما أهل فللحق أهل وأتباع وأنصار يقتدون به ويسيرون خلفه ويدافعون عنه ويقدمون أنفسهم في سبيله وللباطل كذلك أهل وأتباع وأنصار يسيرون خلفه ويدافعون عنه ويقدمون أنفسهم في سبيله ولهذا أئمة ودعاة ولذاك أئمة ودعاة وإذ كثر أهل الباطل وكانوا أكثر من أهل الحق فقد كانوا كذلك منذ القديم وليس ذلك بشيء عجيب ولئن قل أهل الحق فربما كثروا وانتصروا ثم استبعد عليه السلام أن تستعيد دولة دورها وقوتها وسيادتها بعد إدبارها وذهاب ريحها. .

ومن هذه الخطبة وفيها يقسم الناس إلى ثلاثة أصناف

شُغِلَ مَنِ ٱلْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَهُ! سَاعٍ[١] سَرِيعٌ نَجَا[٢]، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ[٣] رَجَا[٤]، وَمُقَصِّرٌ[٥] فِي النَّارِ هَوَىٰ[٦]. ٱلْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ[٧]، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَىٰ هِيَ ٱلْجَادَّةُ[٨]، عَلَيْهَا بَاقِي ٱلْكِتَابِ وَآثَارُ[٩] النُّبُوَّةِ، وَمِنْهَا مَنْفَذُ[١٠] السُّنَّةِ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ ٱلْعَاقِبَةِ. هَلَكَ[١١] مَنِ ٱدَّعَىٰ، وَخَابَ[١٢] مَنِ ٱفْتَرَىٰ[١٣]. مَنْ أَبْدَى[١٤] صَفْحَتَهُ[١٥] لِلْحَقِّ هَلَكَ. وكَفَىٰ بِالمَرْءِ جَهْلاً أَلَّا يعرِفَ قَدْرَهُ. لَا يَهلِكُ عَلَى التَّقْوَىٰ سِنْخُ[١٦] أَصْلٍ، وَلَا يَظْمَأُ[١٧] عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ. فَٱسْتَتِرُوا[١٨] فِي بُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ[١٩]، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ، وَلَا يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَلُمْ لَائِمٌ[٢٠] إِلَّا نَفْسَهُ.

اللغة

١ ـ ساع : الساعي جمعها سعاة، العامل.
٢ ـ نجا : من كذا إذا خلص منه ونجاء أسرع وسبق.
٣ ـ البطيء : ضد الإسراع، التمهّل.
٤ ـ رجا : ضد يئس، أمل.
٥ ـ المقصر : المتواني.
٦ ـ هوى : سقط.
٧ ـ المضلة : ضد الهدى وأرض مضلة يضل فيها.
٨ ـ الجادة : الطريق، أو وسط الطريق.
٩ ـ آثار : مفرده الأثر، ما بقي من رسم الشيء.
١٠ ـ المنفذ : نفذ الشيء خرقه وجاز عنه وخلص منه.
١١ ـ الهلاك : الفناء، الموت.
١٢ ـ خاب : لم يظفر بما طلب، لم ينجح.
١٣ ـ الافتراء : الكذب المختلق.
١٤ ـ أبدى : أظهر، كاشفه في الأمر وجهر به.

١٥ ـ **الصفحة** : الجانب.
١٦ ـ **السنخ** : الأصل.
١٧ ـ **الظمأ** : العطش.
١٨ ـ **استتروا** : ستره غطاه، وهنا بمعنى اختفوا ولا تظهروا.
١٩ ـ **ذات البين** : البين من الأضداد يطلق على الوصل وعلى الفرقة إصلاح ذات البين، إصلاح الفساد.
٢٠ ـ **اللائم** : جمعه لوّم ولوام، العاذل.

الشرح

(شُغل من الجنة والنار أمامه) أمام هذا الإنسان الجنة والنار فإنه يستقبلهما من أول يوم من أيام التكليف ويبقى يتحرك في اتجاههما ومن كان أمامه ذلك يجب أن يشتغل بهما فيسعى نحو الجنة ويعدّ لها العدة من التقوى والعمل الصالح ويجتنب النار ويبتعد عن الرذائل والمعاصي والآثام.. إنه مصير الإنسان النهائي أما نَعيم أو جحيم..

(ساع سريع نجا وطالب بطيء رجا ومقصّر في النار هوى) قسم الإمام الناس إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ الجاد النشيط الذي يعمل بجميع الأوامر الإلهية وينتهي عن كل ما نهى الله عنه إنه في سباق مع الخيرات يسعى إليها ويبحث عن مواطنها ويؤدي ما عليه دون تسويف أو تأخير وهو الذي ينجو من النار ومصيره إلى الجنة.

٢ ـ وهناك إنسان يعمل ولكنه ببطيء يخطىء تارة ويصيب أخرى ويقوم مرة ويقع أخرى، يطيع ويعصي كما هو حالنا وطريقتنا فهو على حاله يرجو رحمة الله وغفرانه.

٣ ـ وهناك قسم ثالث استولى عليه الشيطان فأخذ بزمامه وراح يغريه بالمعاصي والآثام وارتكاب الحرام.. إنه تهاون في إداء الواجبات ولم يرتدع عن المحرمات.. إنه المقصر في طاعة الله المتمرد على أمر الله فمصيره إلى النار يسقط فيها ويناله عذاب الله وعقابه.

وقد ذكر الله الأقسام الثلاثة بقوله تعالى: **﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق[1] بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾**

---

(١) سورة فاطر، آية/ ٣٢.

(اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هي الجادة عليها باقي الكتاب وآثار النبوة ومنها منفذ السنة وإليها مصير العاقبة) أراد أن يرسم لنا الطريق الواضح البيّن المؤدي إلى الجنة فأشار إلى أن المنحرف إلى اليمين أو الشمال ساقط متردي ضال مصيره إلى النار من حيث أنها لا استقامة فيها ولا عدل ولا هدى وأما الطريق الوسطى التي لا انحراف فيها ولا جور ولا إفراط أو تفريط هي الجادة السليمة الصحيحة والطريق المستقيمة المؤدية إلى الجنة وبعبارة أخرى الطريق الوسطى هي التي لا يضل الإنسان فيها لظهورها ومعرفة معالمها وحدودها وأما المتفرعات التي تتوزع على اليمين والشمال فإنها تضل الإنسان وتهوي به في النار.

وهذه الطريق الوسطى دل عليها الكتاب العزيز فإن آياته تشير إليها وكذلك سنة النبي وطريقته العملية والقولية فإنه صلوات الله عليه قد أوضح معالم هذه الطريقة وقربها إلينا وبينها بشكل قطع أعذار المتعللين ومن هذه الجادة الواضحة اللاحبة يدخل إلى الجنة كما أن على أساسها تكون العاقبة من حيث أن الحساب يكون على قدر الالتزام بها...

(هلك من ادعى) من ادعى أمراً بدون بينة تشهد بصدقه وحجة تقوم بدعواه هلك وخسر ولم يدرك مدعاه، من ادعى الإمامة بدون أن يكون إماماً هلك... ومن ادعى أنه من أهل الجنة بدون عمل خسر وهلك ودخل النار..

(وخاب من افترى) ومن كذب في أمر يريد إدراكه لن يدركه لأن الافتراء سوف يكشف في الدنيا فيخزي صاحبه وأما في الآخرة فله عذاب أليم..

(من أبدى صفحته للحق هلك) من واجه الحق وحاربه هلك لأن النصر في نهاية المطاف للحق وأصحابه وقيل من أراد أن يحمل الحق ويدافع عنه ويدحض الباطل وأهله لا بد وأن يواجهه الجهال وهم العامة فسيوردونه موارد الهلاك..

(وكفى بالمرء جهلاً ألاّ يعرف قدره) ليس هناك من هو أشد جهلاً من إنسان لا يعرف موضعه ومكانه ومستواه، وإذا كان لا يعرف قدره ارتكب شططاً وعمل سوءاً وجلس في غير مجلسه واحتل مكان غيره وتكلم بلسان غيره فادعى ما ليس له وأكل ما ليس له وقام بما ليس له ونصب نفسه في غير محلها فظلمها وظلم سواه وقال في نهاية المطاف أنا ربكم الأعلى وفي ذلك بلاء عظيم وغضب عليه من الله شديد..

(لا يهلك على التقوى سنخ أصل ولا يظمأ عليها زرع قوم) أشار إلى أن أهمية التقوى وإن ما بُني عليها سيستمر وينمو ولا يعرض عليه الفساد والعطب كما لا يتعرض

للعطش والتلف زرع جذوره ممتدة في عمق الأرض حتى مواطن الرطوبة والماء. . .

إن من اتقى الله وعمل بمقتضى تقواه بحيث أدى ما افترض عليه واجتنب عما نهي عنه فإن أجره حاصل وثوابه واصل لا محالة. .

(فاستتروا في بيوتكم وأصلحوا ذات بينكم والتوبة من ورائكم) وفي نهاية هذه الخطبة إشارة إلى الغوغاء، وأمرهم أن يعودوا إلى بيوتهم ويلزموها كي توصد أبواب الفتنة ويخمد لهبها فإن العامة وسواد الناس إذا بقوا في الساحات أفسدوا وأضروا وبقيت الفتنة قائمة كما أمرهم أن يصلحوا ما فسد بينهم ويرجعوا إلى الهدوء ويفكروا في سبيل الوحدة والإلفة، وكذلك أمر العاصين الذين ارتكبوا شططاً في بعض المواقف أن يتداركوا ذلك بالتوبة فلعلها تقبل ويعفو الله عنهم ويغفر ذنوبهم. .

(ولا يحمد حامد إلا ربه ولا يلم لائم إلا نفسه) وهذا تنبيه لهم وتعليم إلى أن الحمد يجب أن يحصر بالله فهو المستحق له وحده ولا أحد غيره يستحق الحمد لأنه أصل النعم ومنه أصل الوجود كما أن منه كل موجود. .

كما إن هذا الإنسان إذا أراد أن يلوم فلا يلومنّ إلا نفسه لأنها أساس الانحراف والرذيلة ومنها كانت الشرور والقبائح فعليها وحدها يقع اللوم. .

١٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

في صفة من يتصدى للحكم بين الامة وليس لذلك بأهل

وفيها: أبغض الخلائق إلى الله صنفان

الصنف الأول: إِنَّ أَبْغَضَ (١) ٱلْخَلائِقِ (٢) إِلَى ٱللّهِ رَجُلانِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ ٱللّهُ إِلَى نَفْسِهِ؛ فَهُوَ جَائِرٌ (٣) عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ (٤)، مَشْغُوفٌ (٥) بِكَلامِ بِدْعَةٍ (٦)، وَدُعَاءِ ضَلَالَةٍ (٧)، فَهُوَ فِتْنَةٌ (٨) لِمَنِ ٱفْتَتَنَ بِهِ، ضَالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، مُضِلٌّ لِمَنِ ٱقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ.

الصنف الثاني: وَرَجُلٌ قَمَشَ (١٠) جَهْلاً، مُوضِعٌ (١١) فِي جُهَّالِ ٱلْأُمَّةِ، عَادٍ (١٢) فِي أَغْبَاشِ (١٣) ٱلْفِتْنَةِ، عَمٍ (١٤) بِمَا فِي عَقْدِ ٱلْهُدْنَةِ (١٥)؛ قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، بَكَّرَ (١٦) فَٱسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ؛ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّىٰ إِذَا ٱرْتَوَىٰ مِنْ مَاءٍ آجِنٍ (١٧)، وَٱكْتَنَزَ (١٨) مِن غَيْرِ طَائِلٍ (١٩)، جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً ضَامِناً (٢٠) لِتَخْلِيصِ (٢١) مَا ٱلْتَبَسَ (٢٢) عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَىٰ ٱلْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً (٢٣) رَثّاً (٢٥) مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ ٱلْعَنْكَبُوتِ (٢٦): لَا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ؛ فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ. جَاهِلٌ خَبَّاطُ (٢٧) جَهَالَاتٍ، عَاشٍ (٢٨) رَكَّابُ عَشَوَاتٍ (٢٩)، لَمْ يَعَضَّ عَلَىٰ ٱلْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ. يَذْرُو (٢٩) الرِّوَايَاتِ ذَرْوُ الرِّيحِ ٱلْهَشِيمَ (٣٠) لَا مَلِيٌّ (٣١) ـ وَٱللّهِ ـ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلَا أَهْلٌ لِمَا قُرِّظَ بِهِ (٣٢)، لَا يَحْسَبُ ٱلْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا

أَنْكَرَهُ، وَلاَ يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ ٱكْتَتَمَ بِهِ(٣٣) لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ، وَتَعَجُّ(٣٤) مِنْهُ ٱلْمَوَارِيثُ. إِلَى ٱللّهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً، وَيَمُوتُونَ ضُلاَّلاً، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ(٣٥) أَبْوَرُ(٣٦) مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَلاَ سِلْعَةٌ أَنْفَقُ(٣٧) بَيْعاً وَلاَ أَغْلَى ثَمَناً مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلاَ عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ، وَلاَ أَعْرَفُ مِنَ ٱلْمُنْكَرِ!.

اللغة

١ ـ البغض : ضد الحب، المقت.
٢ ـ الخلائق : ما خلقه الله.
٣ ـ الجائر : الظالم، المائل عن الطريق.
٤ ـ قصد السبيل : الطريق المستقيم.
٥ ـ المشغوف : الشغاف غلاف القلب، والمشغوف هو الذي وصل الحب إلى شغاف قلبه.
٦ ـ البدعة : جمعها بدع، ما أحدث على غير مثال وشرعاً إدخال ما ليس في الدين على أنه منه.
٧ ـ الضلالة : الباطل، ضد الهدى.
٨ ـ الفتنة : الاختبار، الامتحان، العذاب، الضلال...
٩ ـ خطايا : مفرده خطيئة، الذنب، المعصية.
١٠ ـ قمش : جَمَعَ.
١١ ـ موضع : مسرع.
١٢ ـ عاد : مسرع من عدا يعدو إذا جرى.
١٣ ـ الأغباش : جمع غبش المظلم وأغباش الليل ظلمته.
١٤ ـ عم : من العمى عدم البصر فيما من شأنه أن يبصر.
١٥ ـ الهدْنة : جمعها هُدَن، المصالحة، الدعة، السكون.
١٦ ـ بكرّ : أسرع، والبكور الصباح.
١٧ ـ الآجن : الفاسد، المتغير طعمه ورائحته.

١٨ ـ اكتثر : استكثر.
١٩ ـ الطائل : جمعها طوائل، القدرة، الغنىٰ، الفضل وهذا أمر لا طائل فيه أي لا منفعة وما هو بطائل أي خسيس.
٢٠ ـ الضامن : الكفيل والملتزم.
٢١ ـ التخليص : التبيين.
٢٢ ـ التبس الأمر : اشتبه.
٢٣ ـ المبهمات : المشكلات.
٢٤ ـ الحشو : الزائد الذي لا فائدة فيه.
٢٥ ـ الرث : الخلق، البالي، ضد الجديد.
٢٦ ـ نسيج العنكبوت : حشرة صغيرة تحيك من لعابها خيوطاً يعبر عنه أنه بيتها يضرب بركاكته وضعفه المثل.
٢٧ ـ خبّاط : ضراب وخبط عشواء الذي يتصرف على غير هدى.
٢٨ ـ عاشٍ : خابط في ظلام، والأعشى ضعيف البصر.
٢٩ ـ يذرو : من ذرت الريح العشب أطارته.
٣٠ ـ الهشيم : اليابس من نبت الأرض المتكسر.
٣١ ـ الملي : الثقة، الغني.
٣٢ ـ قرظه : تقريظاً مدحه.
٣٣ ـ اكتتم به : كتمه ولم يظهره.
٣٤ ـ تعج : العج، رفع الصوت.
٣٥ ـ السلعة : المتاع.
٣٦ ـ أبور : من البور وهو الفاسد وبارت السلعة كسدت.
٣٧ ـ أنفق : من نفق البيع إذا راج.

الشرح

(إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان) هذان رجلان قد بلغا المقام الأول في بغض الله لهما.. إنهما باعتبار أوصافهما وما فيهما من السيئات انتهى بهما الأمر أن كانا أبغض ما خلق الله إلى الله...

ويغض الله لأحد ليس على مستوى ما نعهده من تأثر النفس واشمئزازها بل هو إبعاده عن رحمته وطرده عن القرب منه المتمثل بالتخلي عنه وتركه وشأنه يسترسل في

غيه ويتحرك في ضلاله وهذان الرجلان باعتبار أثرهما على المجتمع وما يخلفان من ضرر كان هذا البغض وهذا الإبعاد. . .

(رجل وكله الله إلى نفسه) هذا أول الرجلين وهذه أولى صفاته إنه وكله الله إلى نفسه أي خلاه وتركه لنفسه يدبر أموره ويقوم بشؤونه ومن وكله الله إلى نفسه طرفة عين هلك وضل لأن من لم يدبره الله ويتوكل هو بشؤونه يهلك لا محالة لأن نفسه الشريرة القاصرة العاجزة ستجره إلى الانحراف والضلال، وأما من كان الله وكيله وهو المدبر لشؤونه فقد نجا وسعد لأن الله هو الذي يأخذ بيده للهداية ويحركه في الطريق المستقيم ويسلك به إلى ما فيه نجاته وفوزه. . .

إن من تأخذه العزة بالإثم ويدفعه الغرور إلى الاعتداد بالنفس وأنه القادر على إدارة شؤون نفسه منقطعاً عن الله وبعيداً عنه لا محالة سيسقط ويخسر الرهان. .

(فهو جائر عن قصد السبيل) أي عادل عن الطريق المستقيم منحرف عنه ففي حين يطلب المسلم من الله أن يهديه الصراط المستقيم فهذا الانسان ينحرف عنه ويضل ويسلك المسالك الباطلة البعيدة عن العدل والحق. .

(مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة) هذه الصفة الثالثة أنه يحدث أموراً محرمة لم يشرعها الله ولا رسوله بل يخترعها ويعشقها ويشرب قلبه حبها ثم يأخذ في دعاء الناس لها ليكون إماماً من أئمة الفساد وداعية من دعاة الضلال. . وإننا نرى بعض الهواة الذين يحبون الظهور والفخر كيف يسعون ليكونوا أئمة في هذا المضمار. .

(فهو فتنة لمن افتتن به) مضل لمن اتبعه واقتدى به وأحبه. .

(ضال عن هدي من كان قبله) فقبله كان الأنبياء والصالحون وأهل الحق والعدل فهو قد خالفهم وانحرف عنهم ولم يتابعهم أو يسير على خطاهم وما رسموه من طرق الهداية والخير وما يوصله إلى شاطيء السلامة والأمن والإيمان. .

(مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته) فهو رأس الضلال في حياته فطيلة عمره كان قائداً لمسيرة الضلال يتبعه من خلفه كل جاهل ويقتدي به كل فاسق فاجر ويتبعه بعد وفاته أناس حيث خط لهم طريق الضَلالة ورسم لهم نهج الانحراف فهم يتبعونه بما ترك خلفه من سيرة قبيحة سيئة تتبعه آثارها بعد وفاته وقد رأينا من كان منهجه ومدرسته بعد وفاته وسيلة ضلال كما كان بشخصه في أيام حياته منهج ضلال وهؤلاء قادة الانحراف من رؤساء المذاهب خير دليل على ما نقول. .

(حمال خطايا غيره رهن بخطيئته) فهو يحمل أوزار الذين أضلهم دون أن ينقص من أوزارهم شيئاً لأنه السبب في انحرافهم وكذلك يؤخذ بانحرافه وخطيئته ويعاقب عليه قال تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾..

(الصنف الثاني: ورجل قمش جهلاً) وهذا هو الصنف الثاني الذي بلغ من بغض الله له أن كان أبغض الناس إليه وقد وصفه بعشرين صفة هي فيه وهي من رذائل الصفات وسيئاتها وهو أنه رجل جمع ما وقعت عليه عيناه ولملم ما مر في طريقه دون دراية للغث من السمين وللفاسد من الصحيح لم يميّز الحق من الباطل ولم يقف على الميزان الذي به يعرف حقائق الأمور من مزيفاتها.. إنه جمع ثقافة الجرائد والمجلات وكتب البدع والضلال وثقّف فيها نفسه كما يقول؟ وليته اقتصر على ذلك بل تعداه إلى أن مشى يثقف الآخرين وهو الذي أشار إليه الإمام بقوله:

(موضع في جهال الأمة) أي مسرع في ذلك الفساد الذي جمعه يزرعه في جهال الأمة الذين لا علم لهم ولا بصيرة فهو يلقي ما جمعه بين العوام من الناس الذين يتقبلون الأمور لقصورهم وعدم إطلاعهم..

(عاد في أغباش الفتنة) مسرع في ظلمات الخصومات التي لا يهتدي إلى حلها فإذا ترافع إليه أحد تراه يخبط خبط عشواء لا يدري ما الحل وما المخرج لعدم وجود الميزان الصحيح عنده ولعدم معرفته به..

(عم بما في عقد الهدنة) إنه لا يدري ما يصلح الناس ويوفّق بينهم فإن استقرار الناس وهدوءهم له أسباب ومقدمات يجب للمصلح أن يكون عالماً بها مدركاً لخصوصياتها وهذا الرجل لا علم له بكل ذلك..

(قد سماه أشباه الرجال عالماً وليس به) وهذا ذم للفريقين للمسمى ولمن سماه لصاحب اللقب ولمن لقبّه.. ذم للذين لا يفرقون بين العالم وبين المستعلم، بين العالم ونصف العالم أو ربعه بل بين العالم والجاهل وليت أمير المؤمنين يحضرنا اليوم ليرى كيف ترمى الألقاب ويوصف بها من لا يستحقها.. إنني أخجل من تسويد هذه الصفحة بما يجري اليوم من الأسماء والمسميات فهذا معمّم قد ابتدأ في الدراسة جديداً ولم يكد يضع رجله في هذا الحقل حتى ترى الألقاب العلاّمة والثقة والحجة قد نزلت عليه فانتفخ وصدّق وغرّته نفسه...

وذلك معمّم لم يعرف الرسالة العملية والفتوى الشرعية ولو تقليداً ثم انتسب إلى

حزب أو تنظيم إسلامي فتراه المقدم صاحب الكلمة والرأي وصاحب السماحة والفضيلة والحجة وآية الله قد سماه أشباه الرجال الذين لا يملكون العلم والمعرفة سموه عالماً والإسم منه بريء وهو مع من أطلق عليه الإسم ضالان مضلان. . .

لقد كانت الألقاب لا تعطى إلا إلى أهلها ومن أهلها. . كان هناك مراجع وفقهاء هم أهل الخبرة وعلى أساس معرفته ومعرفتهم به يطلقون عليه ما يستحق. . كان إلى وقت قريب يعطى لكل ما يستحقه ولكن في هذا الزمن الردي تبدلت الأمور وتغيرت المقاييس وراح الرضيع في العلم يسمى عالماً، من لا دراية عندهم ولا معرفة أشباه الرجال، سموه عالماً بدون استحقاق ولا أهلية. .

(**بكر فاستكثر من جمع ما قل منه خير مما كثر**) إنه من أول عمره اجتهد وجد فجمع الكثير مما كان قليله خير من كثيره لأنه جمع الغث والسمين وما هبّ ودب ودون معرفة صحيحة ولا تمييز سليم فهو يلتقط الخبر ويحتج به والخبر عارٍ عن الصحة لا يملك السند الصحيح ولا المتن الفصيح فهو يراه فيأخذ بالتحدث فيه والقليل مع الدراية خير من الكثير الرواية. .

(**حتى إذا ارتوى من ماء آجن واكتثر من غير طائل**) فهو جد من أول عمره في جمع المتناقضات والمتباينات التي لا يعرف صحيحها من سقيمها وحقها من باطلها وبقي هكذا يجمع حتى امتلأ وظن من نفسه أنه العالم العلامة، لقد امتلأ من هذا الضلال والعلم غير الصحيح واستكثر منه ولكن بدون فائدة وقد رأينا من يحفظ ويجمع ويحدث بما جمع وحفظ ولكنه لا يدري صحيح الأمور من فاسدها فهو في الجلسة الواحدة والمقام الواحد يتناقض مع نفسه وينقض بكلامه كلامه. .

(**جلس بين الناس قاضياً لتخليص ما التبس على غيره**) لقد تربع على كرسي القضاء لفصل الخصومات وحل المشكلات التي لم يعرفها غيره فتصدى هو لها وهو ليس أهلاً لها، إنه أراد أن يصفي زيف الأمور من صحيحها ولكن أنّى له ذلك.

(**فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه ثم قطع به**) وهذا دأب الذين لم يأخذوا العلم من أهله وعن طرقه المعدة له فإن من جمع واستوعب دون دراية وقع في محذور شديد عندما تُعرض عليه بعض الأمور المشكلة التي تحتاج إلى فكر ونظر فإنه بما يملك من معلومات كثيرة يضل فيها ولا يهتدي إلى وجه الحق فهو يرى بصيص النور في هذه الجهة فيبادر ليحكم على القضية من زاويتها ولو نظر إلى غير هذه الجهة لحكم بخلاف حكمه الأول وهكذا في كل مسألة مبهمة مشكلة يهيىء لها حلاً بالياً من

رأيه الفاسد الذي قطع به وأيقن بصحته وهو عار عن الصحة. . إنه على عادة الجاهل جهلاً مركباً ويجهل أنه يجهل.

(فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت) فكما أن العنكبوت على ضعف نسيجها مما جعل الناس يضربون بها المثل في الوهن وكما قال تعالى: **﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾** ومع ذلك لا تستطيع فريستها أن تتخلص منها أو تفلت كذلك حال هذا الذي تسمى بالعالم وهو ليس بعالم فإنه عندما تزدحم الشبهات حول قضية معينة وتُعرض عليه لحلها وفصل الخصومة فيها وتعيين وجه الحق لا يستطيع أن يتخلص منها على وهنها وضعفها عند العلماء والمحققين ودليل ذلك موقفه المشكك المتحير. .

(لا يدري أصاب أم أخطأ فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب) هذه عادة من يجلس في غير مجلسه من العلماء ويرتفع أعلى من مقامه ويحل في غير محله فإنه إذا عرضت عليه مسألة يغامر في حلها ولا يدري هل أصاب أم أخطأ في فتياه وقضائه. . إنها حالة تعتري من لم يبلغ مرتبة الاجتهاد وكانت القضية تحتاج إلى ذلك فهو يفتي بها دون علم ولا يعرف أصاب أم أخطأ فإن أصاب في الواقع خاف أن يكون قد أخطأ لأن مقدماته لم تكن سليمة ولم يجمع المطلوب من المعلومات والمقدمات وإن أخطأ رجا الله أن يكون قد أصاب في الواقع، إنه لا يعرف موقعه ولا يعرف ما يحكم به وهذا درس لكل من لم يكن أهلاً للفتوى أن يجتنبها ولا يغامر ويعيش القلق والاضطراب في نفسه وبين الناس. .

(جاهل خبّاط جهالات عاش ركاب عشوات) إنه جاهل غير عالم كثير الأغلاط والأخطاء لأنه لم يمش على الموازين الشرعية التي وضعها الشارع.

وإنه لضعف معرفته وفقره في استطلاع الحق والوقوف عليه تراه لا يبصر الحق واضحاً ولا يتيقن منه. . إنه لم يبصر الأمور جيداً بل يفتي دون بصيرة ولا رأي صائب. .

(لم يعض على العلم بضرس قاطع) لم يؤهَّل للفتوى حيث أنه لم يدرس جيداً ويحصل على ملكة الاجتهاد التي بها يتيقن بصحة ما يقوله ولو في الظاهر وبحسب ما أذن الله فيه وبحده الأدنى وبعبارة أخرى لم يكن من أهل العلم والمعرفة لعدم معرفته بمستندات الأحكام وأسهها. .

(يذرو الروايات ذرو الريح الهشيم) إنه يقلب الروايات ويتفحصها وينتقل من واحدة إلى أخرى دون فائدة ولا ثمرة إنه يجمعها جمع رواية لا جمع دراية ويحملها كما يحمل الحمار أسفاراً لا يستفيد منها ولا يعرف ما فيها. .

(**لا ملي ـ والله ـ بإصدار ما ورد عليه**) فهو فارغ من العلم والمعرفة ولا يقدر على حل ما ورد عليه من مسائل مشكلة وقضايا معقدة.. إنه عاجز عن إصدار حكمها وبيان وجهها..

(**ولا أهل لما قرّظ به**) إنه لا يستحق وصفه بالعالم ولا مدحه بالعلم لأن من كان بتلك الصفات فقد أسأت إليه وأسأت إلى نفسك إذا وصفته بأنه عالم..

(**لا يحسب العلم في شيء مما أنكره**) إنه ينفي العلم عن كل أمر ينكره ولا يوافق هواه ومزاجه يتصور كل علوم الناس إذا خالفته إنها جهل منهم ولا علم عندهم وإن العلم فقط ما يحويه هو وما عنده وهذا نتيجة جهله المركب وما لبسّه على نفسه وموّهه عليها..

(**ولا يرى أن من وراء ما بلغ مذهباً لغيره**) إنه يظن لجهله أنه بلغ الحد الأعلى للحلول وأتمها بشكل رائع عجيب بحيث يعقم فكر غيره عن تقديم شيء يضاهيه أو يماثله.. إنه لجهله يظن أن الأمور انتهت إليه وعنده توقفت وليس بعد رأيه رأياً وليس بعد حكمه حكماً.. انسدت بعده الأبواب وأقفلت الدروب وتعطلت الآراء والمذاهب..

(**وإن أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه**) وهذه عادة من تطاول لمقام غيره وطبيعة من سرق منصباً لا يستحقه فإنه إذا لم يقدر على حل ما يعرض عليه ولو بالظن والتخمين ولم يقدر على خلق شبهة مما عنده يحل بها مسألته ففي مثل ذلك يكتم الحديث والمباحثة فيه مع العلماء وأصحاب الرأي لئلا يبين عجزه وتسقط حجته فينكشف حاله وتسقط قيمته.. إنه لمعرفته بأنه يجهل المسألة يكتمها ولا يرضى بالبحث فيها وبيان وجه الحق لئلا يتعرى على حقيقته ويظهر بواقعه وهذا ما لا ترضاه نفسه ولا يقبله لها..

(**تصرخ من جور قضائه الدماء وتعج منه المواريث**) هذه نتيجة من يتولى القضاء بين الناس وفصل الخصومات بينهم ولم يكن مؤهلاً لذلك فإن الدماء تصرخ من هذا القضاء ترفع صوتها بلسان الحال شاهدة على بطلان هذا الحكم وفساد هذا القضاء.. إن هذا المجرم قد أهدر دم هذا البريء وأمر بضرب عنق هذا الشريف وفي المقابل حقن دم ذلك المجرم؛ وإن من يجلس إلى القضاة ويستمع إليهم يرى عجباً.

وكذلك تصرخ المواريث وتصيح في وجهه مستجيرة بالله طالبة نصره في رفع الحيف عن أهلها ومن يستحقها إنه أخذ ميراث هذا وحقه وأعطاه لذاك بدون حق.. حرَم

الوارث القريب وورث البعيد غير الوارث.. حرم الإبن أن يرث من أبيه والزوج من زوجته والأب من ابنه وورث ذلك من ليس له حق في الميراث..

(إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضلالاً) ثم اشتكى إلى الله من هذين الصنفين الضالين تنفيراً منهم وتحقيراً لهم وبين وضعهم وكيف عاشوا أنهم عاشوا جهالاً لم يتذوقوا العلم ولم يعرفوه وكان بإمكانهم إدراكه والحصول عليه هذا في حياتهم وأما موتهم فقد ماتوا ضالين منحرفين فاسدين ومن كانت هذه خاتمة حياته كانت خاتمة سيئة قبيحة...

(ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حرف عن مواضعه) فالقرآن الكريم لاحظ له عندهم إذا فسر على الوجه الصحيح وكما نزل لأنه لا يتوافق مع جهلهم ولا يخدم مصالحهم وميولهم وأهواءهم بل يفضحهم ويكشف ألاعيبهم وعيوبهم بينما إذا حرف تفسيره ووافق هواهم وكان يخدم ميولهم فليس هناك أفضل منه وأحسن..

(ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر) وهذا لجهلهم فقد مسخت نظرتهم وانقلبت طبيعتهم فأضحى أفضل شيء وأحسنه عندهم المنكر وهم أعرف الناس به لجهلهم رغباتهم وأما المعروف فهم يتنكرون له ويبتعدون عنه وينكرونه لأنه لا يتوافق ومصالحهم..

١٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

في ذم اختلاف العلماء في الفتيا[١]

وفيه يذم أهل الرأي ويكل أمر الحكم في أمور الدين للقرآن

ذم أهل الرأي

تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ ٱلْقَضِيَّةُ[٢] في حُكْمٍ مِنَ ٱلأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيها بِخِلافِ قَوْلِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ ٱلْقُضَاةُ بِذٰلِكَ عِنْدَ ٱلإِمَامِ الَّذِي ٱسْتَقْضَاهُمْ[٣]، فَيُصَوِّبُ[٤] آراءَهُمْ جَمِيعاً ـ وَإِلٰهُهُمْ وَاحِدٌ! وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ! وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ! أَفَأَمَرَهُمُ ٱللّٰهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ بِالِاخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ!.

الحكم للقرآن

أَمْ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ دِيناً نَاقِصاً فَٱسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَىٰ إِتْمَامِهِ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَىٰ؟ أَمْ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ دِيناً تَامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ، وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿مَا فَرَّطْنَا[٥] فِي ٱلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وَفِيهِ تِبْيَانٌ[٦] لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ ٱلْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَنَّهُ لاَ ٱخْتِلافَ فِيهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلافاً كَثِيراً﴾. وَإِنَّ ٱلْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ[٧] وَبَاطِنُهُ

عَمِيقٌ، لاَ تَفْنَىٰ عَجَائِبُهُ، وَلاَ تَنْقَضِي(٨) غَرَائِبُهُ(٩)، وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلاَّ بِهِ.

اللغة

١ ـ الفُتيا	:	الفتوى.
٢ ـ القضية	:	جمعها قضايا المسألة المعروضة للحكم والفصل فيها.
٣ ـ استقضاهم	:	جعلهم قضاة.
٤ ـ يصوّب	:	يحكم بصوابها، وهي صحتها.
٥ ـ فرّطنا	:	من فرط في الشيء قصّر وأظهر العجز فيه.
٦ ـ التبيان	:	الوضوح والظهور.
٧ ـ أنيق	:	معجب.
٨ ـ عجائبه	:	الشيء المعجب والعجب هو حالة نفسانية تعتري الإنسان عند أمر عظيم غير معتاد.
٩ ـ تنقضي	:	تفنى وتنعدم.
١٠ ـ غرائبه	:	عجائبه، ما يبعد فهمه، والغريب هو العجيب غير المألوف.

الشرح

(ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً) هذه صورة للقضاة الفسقة الذين ليسوا بأهل لهذا المقام ومع ذلك تطاولوا عليه وارتفعوا إليه، إنها صورة تدلل على مدى تلاعبهم بأحكام الله والعدول بها عن الحق.. قاضيان يختلفان في قضية واحدة هذا يحكم فيها برأيه وذاك يحكم فيها برأي آخر يخالفه ويضاده.. القضية الواحدة تعرض على هذا الشخص فيحكم فيها بما رأى واستحسن دون أن يرجع إلى القواعد العامة التي يباح له استخراج الحكم منها.. إنه استقل فيها برأيه وانفرد بحكمه رأي ارتآه واستحسان جرى على لسانه وذوقه فدفعه للحكم بها على هذا النحو ثم يأتي الآخر ليستحسن غير ما استحسنه هذا فيقضي

فيها بخلاف رأيه. . ثم ترتفع القضية ذاتها وما حكما به إلى الإمام الذي نصبهما للحكم فيوافقهما ويسددهما ويصوب حكمهما وهذه القضية تقع تحت نظر الإمام فيهزه المشهد وتدفعه الغيرة إلى هذا البيان الذي يبين فيه فساد هذا المذهب وبطلان هذا المسلك. . إنها جريمة في دين الله وطعنة نجلاء في صدر الشريعة نفذها الحكمان ووافق الوالي عليها. . والإمام يبين فساد هذا الحكم بقوله:

(**وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد**) مصدر التشريع واحد وهو الله وناقل التشريع وهو النبي محمد واحد والكتاب الذي حمله إلى الناس وخاطبه الله به لينقله إليهم وهو القرآن واحد إذن كيف يختلف الحكم ويتعدد في القضية الواحدة. . إنه ليس من هذه الجهة قطعاً كان الاختلاف. . ثم بيّن فساد رأي آخر بقوله:

(**أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه أم نهاهم عنه فعصوه**) وهذا استفهام استنكاري يبطل به هذا المدعى وهو ربما قال بعض السفهاء إن الله أمرهم بالاختلاف وحاشا لله أن يأمر بالاختلاف وإنّما أمر بالوحدة وكل تشريعاته تحكي ذلك وتعترف به.

نعم نهاهم عن الاختلاف فعصوه وتمردوا على أمره. .

(**أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه**) حاشا لله أن يكون قد أنزل الدين إلا كاملاً كيف وهو القائل سبحانه: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾.

ثم لماذا ينزله ناقصاً هل لأنه عاجز وهم يعينونه على إتمامه حاشا وكلا فربنا القوي العزيز واجب الوجود الغني عن كل موجود ومن يحتاج إلى غيره في أمر فهو مثله في الإمكان والله منزه عن ذلك. .

(**أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى**) وهذا بيان أيضاً لبطلان الاختلاف وهو هل كانوا شركاء له في الحكم والتشريع حتى إذا حكم كل واحد برأيه يجب عليه أن يقبل ويرضى لأن هذا دأب الشركاء في الأمور وحاشا لله أن يكون له شريك في الأمر والنهي والحكم. .

(**أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصر الرسول صلى الله عليه وسلم عن تبليغه وأدائه**) نعم أتم الله الدين وأنزله كاملاً على رسوله والرسول لم يقصر في أدائه وإبلاغه للناس بل أداه كما أراد الله تاماً كاملاً، إذن فلا حجة لهم في هذا الاختلاف ولا عذر لهم فيه.

ثم بيّن الإمام فساد هذا الاختلاف ورده بقوله:

(والله سبحانه يقول: ما فرطنا في الكتاب من شيء)، هذا رد على احتمال أن يكون منشأ الاختلاف نقصان الدين وعدم كماله فإن الله قد بيّن جميع الأمور في هذا القرآن ولم تبق شاردة أو واردة إلا ودخلت تحت العموم أو كانت نصاً في الخطاب. .

(وفيه تبيان كل شيء) ففي القرآن بيان كل شيء يحتاجه الإنسان وفيه ما ينظّم حياته ويرشده ويهديه؛ فلا يحتاج الله إلى أحد كي يعينه أو يشركه في أمره وهذا أيضاً يدل على أن الرسول قد أدّى الأمانة وبلّغ الرسالة ولم يقصّر في شيء. .

(وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وإذا لم يكن في الكتاب الكريم اختلاف فلا بدّ وأن يكون الحكم واحداً لأن سند قولهما واختلافهما يجب أن يكون نابعاً من القرآن والقرآن لا اختلاف فيه فيجب أن يكون الاختلاف من فساد رأيهما ثم أردف الحديث عن القرآن بقوله:

(وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق) فظاهر القرآن جميل يَعجَب ببيانه وصياغته وما فيه كل من يقرأه؛ ولكن باطنه وعمقه فلا يدركه إلا أهل الخبرة والعلم الذين يقرؤن الآية ويدركون بعض معانيها ويحلّلونها ولا يصلون إلى غورها. .

(لا تفنىٰ عجائبه ولا تنقضي غرائبه) فكلما اكتشف الإنسان نكتة وظن إنها الوحيدة إذ به بعد مدة يكتشف أختها وكم يتبين في زماننا هذا من أمور كانت مجهولة لدى القدماء وكم يبقى للناس القادمين من أدوار وأدوار. . إن العلم الحديث بما يملك من رصيد علمي ضخم لم يقدر على بيان فساد حقيقة واحدة من حقائق القرآن بل تجد باستمرار من يتناول الآيات ويعرضها ليصدق مفادها ويقرر مضمونها. .

(ولا تكشف الظلمات إلا به) فهو نور يبدد ظلمات الشك والشبهات ويبيّن الحق ويكشف الظلم ويحاربه. .

أصحاب الرأي:

الاستقلال بالرأي والتشريع على أساسه جريمة دينية لأنه ينفي حكم الله ويبطله ويدعي صاحب الرأي أنه المشرع الذي هو أعلم بالمصلحة من الله. . .

والأخذ بالرأي هو أن لا يعتمد الإنسان في حكمه على الكتاب والسنة والقواعد الشرعية التي نص عليها الرسول (ص) بل يستحسن هذا الرأي لأمور تخطر في باله

وقضايا يراها من منظوره وهو قاصر النظر لا يحيط بالأمور ولا يدرك أبعادها وقد شن الإسلام الحملة القوية على الذين استبدوا بآرائهم وعملوا بما استحسنوا وانقطعوا عن مدارك الشريعة المرسومة على لسان المعصوم . . .

١ ـ قال أبو جعفر عليه السلام: من أفتى[1] الناس برأيه فقد دان الله بما لا يعلم ومن دان الله بما لا يعلم فقد ضاد الله حيث أحل وحرم فيما لا يعلم.

٢ ـ عن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ترد علينا أشياء لا نجدها في الكتاب والسنة فنقول فيها برأينا.

فقال: أما إنك إن أصبت لم تؤجر وإن اخطأت كذبت على الله.

٣ ـ عن أبي عبد الله وقد سئل عن الحكومة فقال: من حكم برأيه بين اثنين فقد كفر ومن فسر برأيه آية من كتاب الله فقد كفر.

---

(١) أبواب صفات القاضي باب ٦ حديث ١١.

١٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث فيه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض عليه السلام إليه بصره ثم قال:

مَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي، عَلَيْكَ لَعْنَةُ(١) ٱللّهِ وَلَعْنَةُ اللاَّعِنِينَ! حَائِكٌ ٱبْنُ حَائِكٍ! مُنَافِقٌ ٱبْنُ كَافِرٍ! وَٱللّهِ لَقَدْ أَسَرَكَ(٣) ٱلْكُفْرُ مَرَّةً وَٱلإِسْلامُ أُخْرَىٰ! فَمَا فَدَاكَ(٤) مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَلاَ حَسَبُكَ! وَإِنَّ ٱمْرَأً دَلَّ(٥) عَلَىٰ قَوْمِهِ السَّيْفَ، وَسَاقَ(٦) إِلَيْهِمُ ٱلْحَتْفَ(٧)، لَحَرِيٌّ(٨) أَنْ يَمْقُتَهُ(٩) ٱلأَقْرَبُ، وَلاَ يَأْمَنَهُ ٱلأَبْعَدُ!.

قال السيد الشريف: يريد عليه السلام أنه أُسر في الكفر مرة وفي الأسلام مرة. وأما قوله: دل على قومه السيف: فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة، غرّ فيه قومه ومكر بهم حتى أوقع بهم خالد، وكان قومه بعد ذلك يسمونه «عُرْفَ النار» وهو اسم للغادر عندهم.

اللغة

١ ـ **اللعن** : الطرد ولعن الله فلاناً طرده من رحمته وأبعده.
٢ ـ **الحائك** : الناسج.
٣ ـ **الأسير** : جمعه أسرى وأُسراء وأُسارى وأَسارى من قبض عليه وأخذ في الحرب وغيرها.
٤ ـ **الفداء** : ما يعطيه الأسير لفك رقبته.

٥ ـ دل : دلالة على الشيء وإليه أرشده وهداه.
٦ ـ ساق : الماشية حثها على السير من خلف.
٧ ـ الحتف : الموت، الهلاك.
٨ ـ لحري : لجدير وخليق.
٩ ـ يمقته : يبغضه.

الشرح

(ما يدريك ما عليّ مما لي عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين) كان الإمام يخطب في الكوفة ويذكر أمر الحكمين فقام رجل من أصحابه بعد أن انقضى أمر الخوارج.

فقال له: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين أرشد؟.

فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى وقال: هذا جزاء من ترك العقدة وكان مراده عليه السلام: هذا جزاؤكم إذ تركتم الرأي والحزم وأصررتم على إجابة القوم إلى التحكيم فظن الأشعث أنه أراد: هذا جزائي حيث تركت الرأي والحزم وحكمت.
فقام الأشعث إليه وقال: هذه عليك لا لك.

قال له: وما يدريك ما علي مما لي فقد رماه بالجهل وهو أقبح الصفات ثم لعنه من قبل الله ومن قبل اللاعنين لأنه يستحق ذلك لقوله الدال على نفاقه وانحرافه...

(حائك ابن حائك منافق ابن كافر) ذمه بهذه الصفات أما لأن الحياكة كانت صنعة يتبعها أراذل الناس أو استعارة لنقصان عقله لكون الحياكة مظنة ذلك.

وقد بين هويته بأنه منافق وقد كان كما يقول ابن أبي الحديد: كان الأشعث من المنافقين في خلافة علي عليه السلام وهو في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كما كان عبد الله بن أبي سلول في أصحاب رسول الله (ص) كل واحد منهما رأس النفاق في زمانه..

(والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك) أسر الأشعث مرتان مرة أيام كفره وأخرى في الإسلام أما أسره في الكفر فذلك أنه أراد أن يطلب ثأر أبيه الذي قتلته مراداً فلم يقدر وانتصرت مراد وأسرته.

وأما أسره في الإسلام فإن رسول الله (ص) لما قدمت كندة حجاجاً قبل الهجرة

عرض رسول الله (ص) نفسه عليهم كما كان يعرض نفسه على أحياء العرب فدفعه بنو وليعة فلما هاجر وتمهدت دعوته جاءته وفود العرب وجاءه وفد كندة وفيهم الأشعث وبنو وليعة فأسلموا فأطعم رسول الله بني وليعة طعمة من صدقات حضرموت وكان قد استعمل عليها زياد بن لبيد البياضي الأنصاري فدفعها زياد إليهم فأبوا أخذها وقالوا: لا ظهر لنا فابعث بها إلى بلادنا على ظهر من عندك فأبى زياد وحدث بينهم وبين زياد شر كاد يكون حرباً فرجع منهم قوم إلى رسول الله وكتب زياد إليه عليه السلام يشكوهم.

وفي هذه الوقعة كان الخبر المشهور عن رسول الله (ص) قال لبني وليعة: «لتنتُهن يا بني وليعة أو لأبعثن عليكم رجلاً عديل نفسي يقتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم». قال عمر بن الخطاب: فما تمنيت الإمارة إلا يومئذٍ وجعلت أنصب له صدري رجاء أن يقول: هذا هو، فأخذ بيد علي عليه السلام وقال: «هو هذا».

ثم كتب لهم رسول الله (ص) إلى زياد فوصلوا إليه الكتاب وقد توفي رسول الله (ص) وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب فارتدت بنو وليعة وغنّت بغاياهم وخضبن له أيديهن.

ثم إن زياداً أخذ البيعة لأبي بكر من أهل حضرموت فبايعوا إلا بنو وليعة ثم جرت مشادة بين زياد وبين بعضهم على ناقة أرادها زياد للصدقة وأبى الجماعة أن يتركوها له بل خلصوها منه بالقوة واجتمع إلى زياد أصحابه واجتمع بنو وليعة وأظهروا المنابذة والعداء فبيتهم زياد وهم غارون فقتل منهم جمعاً كثيراً ونهب وسبى ولحق فلّهم بالأشعث بن قيس فاستنصروه فقال: لا أنصركم حتى تملكوني عليكم فملكوه وتوّجوه كما يتوّج الملك من قحطان فخرج إلى زياد في جمع كثيف وكتب أبو بكر إلى المهاجر بن ابي أمية وهو على صنعاء أن يسير بمن معه إلى زياد فسار فلقوا الأشعث فهزموه ولجأ الأشعث ومن معه إلى الحصن المعروف «بالنجيّر» فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى ضعفوا فنزل الأشعث ليلاً إلى المهاجر وزياد فسألهما الأمان على نفسه حتى يقدما به على أبي بكر فيرى فيه رأيه على أن يفتح لهم الحصن ويسلم إليهم من فيه وقيل إنه كان في الأمان عشرة، فأمناه وأمضيا شرطه ففتح لهم الحصن فدخلوه واستنزلوا كل من فيه وأخذوا أسلحتهم وقالوا للأشعث: إعزل العشرة فعزلهم فتركوهم وقتلوا الباقين وكانوا ثمانمائة وقطعوا أيدي النساء اللواتي شمتن برسول الله (ص) وحملوا الأشعث إلى أبي بكر موثقاً في الحديد هو والعشرة فعفا عنه وعنهم وزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة ـ وكانت عمياء فولدت له محمداً وإسماعيل وإسحاق. . .

وقوله عليه السلام: فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك لم يرد الفداء الحقيقي لأنه قد فدي وإنما أراد لم ينجك ويدفع عنك مالك ولا حسبك من الأسر. .

(وإن أمرءاً دل على قومه السيف وساق إليهم الحتف لحري أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد) ثم بين هذه الصفة الخسيسة فيه والتي جنى من خلالها على قومه فأراق دماءهم فإنه لما أخذ الأمان أخذه لنفسه ولعشرة أشخاص معه فظن قومه أنه أخذ الأمان للجميع فسلموا الحصن فعندما دخل المسلمون واعملوا السيف فيهم استنكروا ذلك وقالوا قد اعطيتمونا الأمان بيد الأشعث فأنكر المسلمون أن يكونوا قد أعطوا شيئاً لغير الأشعث والعشرة الذين معه فقتلهم المسلمون وذلك بفعل الأشعث وغدره بقومه فهو الذي عرضهم على السيف وساق إليهم الموت ومثل هذا جدير به أن يُبغض من أقرب الناس إليه وهم أهله وعشيرته لغدره بهم ويجعل البعيد عنه من الناس لا يأمنه أو يطمئن إليه وكأنه بيان وإنذار إلى غدره وإنه ليس بثقة عند أمير المؤمنين. .

ترجمة الأشعث بن قيس:

الأشعث اسمه الحقيقي معدي كرب بن قيس الأشج، وأمه اسمها كبشة بنت يزيد بن شرحبيل.

كان الأشعث أبداً أشعث الرأس فسمي الأشعث وغلب عليه حتى نسي اسمه.

جاء مع وفود العرب إلى رسول الله فأسلم ثم ارتد وحارب المسلمين فأخذوه أسيراً إلى أبي بكر فعفا عنه وزوجه أخته أم فروة وكانت عمياء وكان كما قال ابن أبي الحديد نقلاً عن ابن جرير الطبري في تاريخه أنه «كان المسلمون يلعنون الأشعث ويلعنه الكافرون أيضاً وسبايا قومه وسماه نساء قومه عرف النار وهو اسم للغادر عندهم.

ويقول ابن أبي الحديد في نهجه: «وكان الأشعث من المنافقين في خلافة علي عليه السلام وهو في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كما كان عبد الله بن أبي سلول في أصحاب رسول الله (ص) كل واحد منهما رأس النفاق في زمانه» وقد كان الأشعث يتحين الفرص لزعزعة خلافة الإمام ويزرع الشك والريب بين أصحابه ومواقفه المشينة الخبيثة في صفين تحكي ذلك وقد اشترك في دم الإمام مع عبد الرحمن بن ملجم المرادي في رسم الخطة لاغتياله وقد اشترك ابنه محمد في دم الحسين.

ونفذت ابنته جعدة سم الإمام الحسن بإيعاز من معاوية. . .

وبالجملة الأشعث وأهله قوم سوء لا يذكرون إلا بكل عيب وأمر مشين. . .

إرتد الأشعث وأُخذ إلى أبي بكر فعفى عنه وزوجه أخته أم فروة وعندما قتل عثمان كان والياً من قبله على أذربيجان فأمره الإمام أن يأخذ البيعة له ويحضره عنده.

مات الأشعث بعد قتل الإمام بأربعين ليلة سنة ٤٠ للهجرة.

٢٠ ـ ومن كلام له عليه السلام

وفيه ينفر من الغفلة وينبه إلى الفرار لله

فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ[١] مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ[٢] وَوَهِلْتُمْ[٣]، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلٰكِنْ مَحْجُوبٌ[٤] عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا، وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ[٥] ٱلْحِجَابُ! وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ[٦] إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وَهُدِيتُمْ إِنِ ٱهْتَدَيْتُمْ، وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ[٧] ٱلْعِبَرُ[٨]، وَزُجِرْتُمْ[٩] بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ ٱللّٰهِ بَعْدَ رُسُلِ ٱلسَّمَاءِ إِلَّا ٱلْبَشَرُ.

اللغة

١ ـ عاين : رآه بعينه.
٢ ـ الجزع : عدم الصبر على المصيبة بإظهار الحزن والكدر.
٣ ـ وهلتم : من الوهل وهو الخوف والفزع.
٤ ـ المحجوب : المستور، والحجاب كل ما حال بين شيئين.
٥ ـ يطرح : يلقى ويرمى.
٦ ـ بصرّتم : جعلهم يبصرون، والبصر بالعين والبصيرة في القلب.
٧ ـ جاهرتكم : من الجهر وهو الارتفاع وكلام جهير أي عالٍ.
٨ ـ العبر : الموعظة.
٩ ـ زجره : منعه والمزدجر المتعظ.

الشرح

(فإنكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم وسمعتم وأطعتم ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا وقريب ما يطرح الحجاب) الموت مرحلة من مراحل

الحياة ينتقل الإنسان من خلاله إلى عالم آخر كما انتقل من قبل من كونه نطفة لا تعقل ولا تفهم استقرت في رحم الأم ونمت فأصبحت جنيناً ضمن مراحل الجنين ثم أخرجته يد القدرة إلى العالم الخارجي. وإلى الدنيا فابتدأ حياة جديدة تغاير سابقتها وتختلف عنها ثم أخذ في النشوء والنمو حتى بلغ به الأمر أن أصبح رجلاً سوياً وبعد أن يبلغ من العمر مداه يعود إلى مرحلة الضعف وعدم القدرة وعندما يضع القدر حكمه ينتقل من هذه الدار إلى الدار الآخرة التي هي دار تغاير دار الدنيا وتختلف عنها تماماً بشّر بها الأنبياء وبينوها للناس ووصفوها وأوضحوا معالمها وخصوصياتها وما فيها. . إنها دار البقاء والاستقرار دار النعيم أو الجحيم، دار الجنة أو النار. . .

يخرج الإنسان من هذه الدنيا فيرى أهوال تلك الدار الآخرة وعقباتها ويرى عذابها وعقابها. . يرى الأمور على حقيقتها واضحة أمامه يمارسها ويعيشها ويكتوي بألمها. . يرى نعيم الآخرة وما فيها من ملذات وسرور. . يراها ويعيشها ويتذوق طعمها. . .

إن كل ما يمر في الآخرة من أهوال وآلام وما يعترض هذا الإنسان فيها من سدود وموانع كل ذلك محجوب عن ابن الدنيا لم يدرك حقيقته ولم يطلع عليه إلا بالوصف الوارد عن الأنبياء. . .

والإمام يقول لو أنكم رأيتم وأنتم في دار الدنيا ما رأى من مات منكم لأخذكم الخوف الشديد وشدكم الفزع والرعب مما رأى ولاقى لأنه رأى ما يدهش العقل ويرعب القلب وعندها تسمعون كلام الدعاة إلى الله والدالين عليه والآمرين بأمره ولأطعتم ربكم في كل ما أمر وامتنعتم عن كل ما منع. . .

ثم اعتذر عنهم وبعدها حذرهم اعتذر عنهم بأن الحجب هي التي منعتهم عن الرؤية لتلك الأهوال والمصاعب فالموت حجاب يمنع الرؤية الحقيقية لذلك العالم وما فيه، وهو منتهى الحجب وأعظمها وبه تنكشف الأمور على حقيقتها ولكن قبل ذلك هناك حجب النفس الشريرة التي تمارس المعصية والانحراف فتشكل حاجزاً عن رؤية الحقيقة وتمنع من الاطلاع على تلك الدار وما فيها. . .

النفس إذا رقت وشفّت اخترقت الحجب وقفزت فوق الحواجز واكتشفت الأمور وأدركتها على حقيقتها وسعت إليها بعد هذه المعرفة وهذا الاطلاع ومن هنا نرى كيف يعيش الأنبياء عيشة الزهد والتقشف. . ونعرف كيف كان حرصهم على هداية الناس وإرشادهم وعلى إعانتهم ومساعدتهم. . ونعرف أيضاً كيف يعرفون ما يدور في نفوس الآخرين وما يضمرون ويسرون. . نعرف كيف كان أصحاب التقى يتكلمون بما تحوي

نفوس الناس ويتفرسون فيهم الخير أو الشر والحق أو الباطل. . .

وحذرهم الإمام بعد ذلك بأن الحجاب سيطرح عما قريب.. عندما تموتون ستصلون إلى الحقيقة.. سيرتفع الحجاب الذي كان يمنع الرؤية.. وستقفون أمام الحقيقة وجهاً لوجه..

(ولقد بصرتم إن أبصرتم وأسمعتم إن سمعتم وهديتم إن اهتديتم) إنه لا عذر لأحد.. انقطعت الأعذار.. والحجاب وإن كان ولكن الأنبياء والمرسلين والدعاة والمبشرين قد فتحوا أعينكم على الحقيقة وعلموكم طرق الخير والمعروف وكل ما فيه سعادتكم إذا أردتم أن تعرفوا ذلك وتقفوا عليه فاسمعوا لهم واقتفوا أثرهم..

إن الدعوة قد بلغت مسامع الناس جميعاً وطرقت آذانهم أصوات الحق فلو أردتم أن تسمعوا لسمعتم والعلة فيكم أنكم لا تستجيبون وليس في غيركم وقد هداكم المرشدون إن أردتم الهداية..

(بحق أقول لكم لقد جاهرتكم العبر وزجرتم بما فيه مزدجر) وهذا بيان أيضاً لرفع الاعتذار وإن العبر التي فيها المواعظ والحكم قد رأيتموها عياناً.. إنها ليست سراً حتى تعتذروا بعدم معرفتها والوقوف عليها بل هي أمامكم أعيدوا النظر فيها.. أنظروا إلى الفراعنة والأكاسرة والقياصرة.. أنظروا إلى ما أنزل الله بهم من العذاب والنقمات.. إنها الأمم التي تمردت على حكمه وعصت أمره نالت جزاءها وأدركت نصيبها. . .

وقد جاءتكم البينات بما فيه مزدجر وردع لكم.. إنها صواعق الآيات تردع هذا الإنسان إن كان إنساناً قال تعالى: **﴿ولقد[1] جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر﴾**..

(وما يبلّغ عن الله بعد رسل السماء إلا البشر) وهذا ترغيب لهم أن يقبلوا ما جاءت به الرسل والأنبياء لأنهم الدعاة إلى الله وبهم ينحصر البيان والتبليغ وذلك باعتبار أن من يحمل الرسالة يجب أن يكون بعد أمناء الوحي من الملائكة. يجب أن يكون من جنس البشر الذين يبلغونهم الرسالة لوحدة الطبيعة والانسجام. . .

وإذا كان الأنبياء هم الذين يبلغون عن الله أحكامه فيجب على الناس قبول قولهم والعمل به والاقتداء بما شرعوا وسنوا. . .

---

(١) سورة القمر، آية/ ٤.

٢١ ـ ومن خطبه له عليه السلام

وهي كلمة جامعة للعظة والحكمة

فَإِنَّ ٱلْغِايَةَ(١) أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ وَرَاءَكُمُ ٱلسَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ(٢). تَخَفَّفُوا(٣) تَلْحَقُوا(٤)، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ.

قال السيد الشريف: أقول: إن هذا الكلام لو وزن، بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بكل كلام لمال به راجحاً، وبرّز عليه سابقاً، فأما قوله عليه السلام: «تخففوا تلحقوا» فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة! وأنقع نطفتها من حكمة! وقد نبهنا في كتاب «الخصائص» على عظم قدرها وشرف جوهرها.

اللغة

١ ـ **الغاية** : النهاية.

٢ ـ **تحدوكم** : من حدا للإبل إذا غنى لها ليحثها على المسير.

٣ ـ **تخففوا** : من خف ضد ثقل خفف في ذنوبه إذا قللها.

٤ ـ **تلحقوا** : من لحقه إذا أدركه وتلاحق تتابع.

الشرح

(**فإن الغاية أمامكم وإن وراءكم الساعة تحدوكم**) منذ أن يولد الإنسان ويضع ثقله على الأرض يبدأ في هدم عمره ويسير نحو الموت باستمرار وفي كل يوم يمضي يتقدم ويقترب منه فإن هذه الغاية وهي الموت أمام الإنسان يسعى إليها ويتحرك نحوها.. ثم

إن وراء ذلك الموت القيامة التي تدفعنا باستمرار لنفكر فيها ونستعد لها ونقوم بواجبنا الذي يخلصنا من تبعاتها وعذابها. . .

إن القيامة تنتظر الجميع والسعيد من عمل لها. . ثم عقب على ذلك بقوله:

(تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بأولكم آخركم) تخففوا من الذنوب. . فكروا أن تكونوا خفافاً، ليس عليكم من الذنوب شيئاً. . والمخف أسرع في المشي وأشد دركاً لما يطلب. . . تخففوا من حمل الذنوب لتلحقوا ركب الأنبياء والصالحين فإنهم المتقدمون السابقون ولا يمكن أن يلحقهم من حمل من الذنوب كثيراً. . وكيف يتحرك المثقل؟ وكيف يقدر على إدراك السابق من كان حمله كبيراً؟! . . .

تخففوا من الأوزار. . فلا تشركوا بالله ولا تعتدوا على عباد الله وقوموا بخدمة الناس وأدوا الفرائض والتزموا بأمر الله ونهيه. . . اجتنبوا المعاصي وقول الزور وكل ما يسيء. .

وأما الحساب فسيأتي عندما يكتمل العدد ويجتمع الخلق جميعاً. . ومن مات ينتظر القادمين حتى إذا تم العدد واستكمل الجميع استوفوا عندها حسابهم وهذا ليس ببعيد. . إنه قريب حاصل وسنصل إليه لا محالة. .

٢٢ ـ ومن خطبه له عليه السلام

حين بلغه خبر الناكثين ببيعته
وفيها يذم عملهم ويلزمهم دم عثمان ويتهددهم بالحرب

ذم الناكثين

أَلاَ وَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ(١) حِزْبَهُ(٢)، وَٱسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ(٣)، لِيَعُودَ ٱلْجَوْرُ(٤) إِلَىٰ أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ ٱلْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ(٥). وَٱللّهِ مَا أَنْكَرُوا(٦) عَلَيَّ مُنْكَراً(٧)، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِفاً(٨).

دم عثمـان

وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ(٩): فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ(١٠) مِنْهُ، وَلَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ(١١) دُونِي، فَمَا ٱلتَّبِعَةُ(١٢) إِلاَّ عِنْدَهُمْ، وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ(١٣) لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ، يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ(١٤)، وَيُحْيُونَ بِدْعَةً(١٥) قَدْ أُمِيتَتْ. يا خَيْبَةَ(١٦) الدَّاعِي! مَنْ دَعَا! وَإِلاَمَ أُجِيبَ! وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ ٱللّهِ عَلَيْهِمْ وَعِلْمِهِ فِيهِمْ.

التهديـد بالحـرب

فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُم حَدَّ ٱلسَّيْفِ وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَنَاصِراً لِلْحَـقِّ! وَمِـنَ ٱلْعَجَـبِ بَعْثُهُـمْ إِلَـيَّ أَنْ أَبْـرُزَ(١٧) لِلطِّعَـانِ!(١٨) وَأَنْ أَصْبِـرَ

لِلْجِلادِ[١٩]! هَبِلَتْهُمُ[٢٠] ٱلْهَبُولُ[٢١]! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِٱلْحَرْبِ، وَلاَ أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ! وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي.

اللغة

١ ـ ذمّر	:	حضر وحث.
٢ ـ الحزب	:	الجماعة على رأي واحد.
٣ ـ الجلب	:	ما يجلب، المجلوب من بلد إلى بلد.
٤ ـ الجور	:	الظلم والانحراف.
٥ ـ النصاب	:	الأصل.
٦ ـ أنكروا	:	عابوا.
٧ ـ المنكر	:	القبيح، كل ما ليس فيه رضى لله.
٨ ـ النصف	:	بتثليث النون، الإنصاف، العدل.
٩ ـ سفك الدم	:	أراقه.
١٠ ـ النصيب	:	السهم، والحظ.
١١ ـ ولوه	:	قاموا به، وولي الشيء إذا ملك أمره.
١٢ ـ التبعة	:	ما يلحق الإنسان من درك، المؤاخذة.
١٣ ـ حجتهم	:	من الحجة، البرهان، وما يحتج به.
١٤ ـ فطم الرضيع	:	منعته أمه عن ثديها.
١٥ ـ البدعة	:	الشيء المستحدث، إدخال ما ليس في الدين على أنه منه.
١٦ ـ الخيبة	:	عدم الظفر بما يطلب، عدم النجاح.
١٧ ـ أبرز	:	أخرج وأظهر إلى المقاتلة.
١٨ ـ الطعان	:	طعنه بالرمح ضربه ووخزه به والطعان كثرة الضرب بالسيوف.
١٩ ـ الجلاد	:	المجالدة والمصاولة بآلة الحرب.
٢٠ ـ هبلتهم	:	ثكلتهم.
٢١ ـ الهبول	:	بفتح الهاء المرأة التي لا يبقى لها ولد.

الشرح

(ألا وإن الشيطان قد ذمّر حزبه واستجلب جلبه ليعود الجور إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه) الشيطان قائد كل فرقة ضالة وهو الدافع لكل حزب منحرف إلى

الانحراف.. ما كانت معركة إلا وكان الشيطان وراء الفرقة المعتدية الظالمة...

وإن من خالف علياً ونكث بيعته فهو مع الشيطان لأن علياً مع الحق والحق مع علي كما نطق بذلك رسول الله وكما صدقته شواهد الأيام والمواقف والإمام هَنا في هذه الخطبة يذكر الناكثين لبيعته الذين جهزوا الجيوش لقتاله يقول: إن الشيطان هو الذي دفعهم وحضهم وهم من حزبه جاءوا بهذا الرعاع من كل مكان.. لقد استنفرت أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير الناس وجيشوهم لقتال الحق...

إنهم أرادوا من وراء حربهم أن يعود الجور إلى ما كان عليه أيام الخلفاء الذين تقدموا عليه وخصوصاً أيام عثمان التي كانت أيامه ثقيلة على الأمة.. أرادوا أن يرجع الباطل الذي كان أيام عثمان إلى اليوم الذي هو فيه حيث أرادوا الخلافة وطلبوها ولما لم يحصلوا على شيء منها أعلنوها حرباً شعواء أتت على الحرث والنسل وزرعت في جسد الأمة فتنة لا نزال نعيش آثارها حتى اليوم..

(**والله ما أنكروا عليّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً**) أقسم بالله وقسمه لا حنث فيه أنهم لم يعيبوا عليه ويرموه بشيء من المنكر الذي لا يرضاه الله وحتى قتل عثمان لم يكن منكراً بنظرهم وإن كان الإمام من أشد الناس براءة من دمه..

وفضلاً عن ذلك إذا كانوا يتهمونه بقتل عثمان أو بأمر فيه منكر فما جعلوا بينه وبينهم من يحكم بالعدل وينظر في قضيتهم ويحكم بالحق..

(**وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه**) هذه حالة الفرقة الناكثة طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة إنهم الآن يطلبون الثأر لدم عثمان وهم الذين تركوه حيث أنهم لم يحركوا ساكناً ولم يطلبوا محاكمة أحد اشترك في دمه بل غضوا النظر عن ذلك.

إنهم هم الذين سفكوا دم عثمان وأباحوه للناس عندما كانوا يجهرون بمعارضته ويصفونه بأقبح الأوصاف وأرذلها.. كانت أم المؤمنين تقول للمسلمين: أقتلوا نعثلاً قتله الله.. وطلحة يدعم الثوار ويرشدهم إلى ثغرات البيت ليتسللوا فيه ويقضوا عليه وهكذا كانوا شركاء في دم عثمان وقد بقيت هذه طريقتهم وكانوا على رضى تام بما جرى إلى أن تبين لهم عدم النصيب في الخلافة أعلنوا العصيان والتمرد وطالبوا بدم عثمان..

(**فلئن كنت شريكهم فيه فإن لهم لنصيبهم منه ولئن كانوا ولوه دوني فما التبعة إلا عندهم وإن أعظم حجتهم لعلى أنفسهم**) وهنا أراد الإمام أن يجاريهم جدلاً فيقول لهم إذا كنت شريككم في دم عثمان فإن لكم منه نصيب فنتساوى في الحكم على طريق الشركاء

في الغرم،فاقتصوا من أنفسكم أولاً وخذوا الحق منها ثم طالبوا شركاءكم بما تدعون هذا إذا كنت شريككم في دمه والحق أني لست شريكاً . .

وإذا كنتم قد قمتم بالأمر أنتم وسفكتم دم الرجل بأيديكم وحرضتم الناس ووجهتموهم لقتله كما هو المعروف والمشهور في التاريخ بل المتسالم عليه فإن كل الآثار التي تتبع فعلكم تقع على عاتقكم وكل سيئة تحصل فهي نتيجة تصرفكم فيجب أن تتحملوا بأنفسكم ما يحدث من جراء ذلك وإن أعظم حجتهم التي يحتجون بها أن عثمان قتل مظلوماً فإذا كانوا هم القتلة فتكون الحجة عليهم يؤخذون بها ويدانون بجرائرها . .

(يرتضعون أماً قد فطمت ويحيون بدعة قد أُميتت) قوله عليه السلام يرتضعون أماً قد فطمت مثل يضرب للذي يطلب الشيء بعد فواته وهم قد طلبوا الخلافة بعد أن انعقدت للإمام وتمت له البيعة أو يراد أنهم يطلبون الأعطيات والامتيازات التي كانت على دور عثمان وهذه قد انتهت أيامها ولن تعود في زماني . . .

أو يريدون أن يحيوا ما ابتدعه عثمان من تفاوت في العطاء والذي كان على خلاف سنة رسول الله ولكن قد مضى الزمن وسبقهم فلن تحيا البدعة من جديد . .

(يا خيبة الداعي! من دعا! وإلام أجيب وإني لراضٍ بحجة الله عليهم وعلمه فيهم) نداء فيه تأسف وتحسر بأن يخيب الداعي الفاشل الذي هو أحد الثلاثة طلحة والزبير وأم المؤمنين ثم استحقرهم واستصغر من شأنه بقوله من دعا؟ فإن من دعا صغيراً حقيراً . . وإلى ماذا أجيب؟ فما أفحشه من أمر وما أقبحه إنها استجابة لأمر حقير قبيح لا يرضى الاستجابة له ذو عفة أو ذو ضمير . . .

وإني لراضٍ بحجة الله عليهم وهي وجوب وفائهم بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم عندما تمت البيعة لي من قبلهم فإنهم بايعوا وشايعوا وهو حجة عليهم والله يعلم ما هم فيه من الضلال والانحراف وبراءة ذمتي لو قاتلتهم لأنهم نقضوا العهد . .

(فإن أبوا أعطيتهم حد السيف وكفى به شافياً من الباطل وناصراً للحق) فإن رفضوا ما أعطوا من العهد والبيعة وما التزموا به أمام الله في الوفاء بها سأعطيهم السيف يأخذ منهم مأخذه ويطالهم ويحصد جمعهم وبه الكفاية عن كل دواء وفيه الشفاء من كل داء سواء تمثل بالغدر والنفاق أو المعارضة والحرب وكفى به ناصراً للحق الذي أنا عليه والذي أريده منهم . . فإنه إذا توقف الأمر على هذا الأسلوب فلا بد من انتهاجه ولا بد من شهر السيف وإظهاره من غمده فهو الناصر للحق والمدحض للباطل . .

(ومن العجب بعثهم إليّ أن أبرز للطعان وأن أصبر للجلاد هبلتهم الهبول لقد كنت وما أهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب وإني لعلى يقين من ربي وغير شبهة من ديني) ثم تعجب الإمام منهم استصغاراً لقدرهم كيف يهددونه بالحرب ويطلبون منه النزال ودعا عليهم بالثكل وهو أن يصابوا بالموت حتى لا يبقى منهم أحد ولقد كان وما يجرأ أحد أن يهدده بالحرب أو يدعوه للنزال أو يخوفه بالضرب بالسيوف التي تجتث الرؤوس فإنه البطل اليتيم في هذا المضمار الذي ما اعتلى سيفه هامة إلاّ وقدها وما اعترض وسط رجل إلا قطعه. . ما انهزم في موقعة وما فر من معركة ولا تهيب من أحد ولا تردد في نزال. . إنه الشجاع الذي يقرأ تاريخه في العهد النبوي كله فيجده القارىء راية نصر ترفرف في كل موقعة واسمه مفتاح الفتح في كل معركة. . فهذه الجهة عجز منهم وضعف. . .

ثم إنه يملك اليقين الصادق بأنه على الحق وإنه ناصر لدينه ومدافع عن شريعته وليس في شبهة من دينه فإن الحق معه دون ريب وهو الخليفة الشرعي وعليه ردع المنحرفين وقتال الناكثين فإن قتال المنافقين على مستوى قتال الكافرين.

٢٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وتشتمل على تهذيب الفقراء بالزهد وتأديب الأغنياء بالشفقة

تهذيب الفقراء

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلأَمْرَ[١] يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ كَقَطَرَاتِ[٢] ٱلْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ لأَخِيهِ غَفِيرَةً[٣] في أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلاَ تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً[٤]؛ فَإِنَّ ٱلمَرْءَ ٱلْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ[٥] دَنَاءَةً[٦] تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ، وَيُغْرَى[٨] بِهَا لِئَامُ[٩] النَّاسِ، كانَ كَٱلْفَالِجِ[١٠] الْيَاسِرِ[١١] الَّذِي يَنْتَظِرُ أَولَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ[١٢] تُوجِبُ لَهُ ٱلْمَغْنَمَ[١٣]، وَيُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ ٱلْمَغْرَمُ[١٤]. وَكَذٰلِكَ المَرْءُ ٱلْمُسْلِمُ ٱلْبَرِيءُ مِنَ ٱلْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ ٱللّهِ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ[١٥]: إِمَّا دَاعِيَ ٱللّهِ فَمَا عِنْدَ ٱللّهِ خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ ٱللّهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ، وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ[١٦].

وَإِنَّ ٱلْمَالَ وَٱلْبَنِينَ[١٧] حَرْثُ الدُّنْيا[١٨]، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ ٱلآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا ٱللّهُ تَعَالَى لأَقْوَامٍ، فَٱحْذَرُوا مِنَ ٱللّهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَٱخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ[١٩]، وَٱعْمَلُوا في غَيْرِ رِيَاءٍ[٢٠] وَلاَ سُمْعَةٍ[٢١]؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ ٱللّهِ يَكِلْهُ ٱللّهُ[٢٢] لِمَنْ عَمِلَ لَهُ. نَسْأَلُ ٱللّهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ، وَمُرَافَقَةَ ٱلأَنْبِيَاءِ.

تأديب الأغنياء

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي[٢٣] الرَّجُلُ ـ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ ـ عَنْ عِتْرَتِهِ[٢٤]، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً[٢٥] مِنْ وَرَائِهِ، وَأَلَمُّهُمْ[٢٦] لِشَعَثِهِ[٢٧]، وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ[٢٨] إِذَا نَزَلَتْ بِهِ. وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ ٱللَّهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ ٱلْمَالِ يَرِثُهُ غَيْرُهُ.

ومنها: أَلاَ لاَ يَعْدِلَنَّ[٢٩] أَحَدُكُمْ عَنِ ٱلْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا ٱلْخَصَاصَةَ[٣٠] أَنْ يَسُدَّهَا[٣١] بِالَّذِي لا يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ[٣٢] وَلاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ؛ وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ[٣٣] عَنْ عَشِيرَتِهِ، فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ؛ وَمَنْ تَلِنْ[٣٤] حَاشِيَتُهُ[٣٥] يَسْتَدِمْ[٣٦] مِنْ قَوْمِهِ ٱلْمَوَدَّةَ[٣٧].

قال السيد الشريف: أقول: الغفيرة ها هنا الزيادة والكثرة، من قولهم للجمع الكثير: الجم الغفير، والجماء الغفير. ويروى «عِفْوة من أهل أو مال» والعِفْوة: الخيار من الشيء، يقال: أكلت عِفْوةَ الطعام، أي خياره. وما أحسن المعنى الذي أراده عليه السلام بقوله: «ومن يقبض يده عن عشيرته . . » إلى تمام الكلام، فإن الممسك خيره عن عشيرته إنما يمسك نفع يد واحدة؛ فإذا احتاج إلى نصرتهم، واضطر إلى مرافدتهم، قعدوا عن نصره، وتثاقلوا عن صوته، فمنع ترافد الأيدي الكثيرة، وتناهض الأقدام الجمة.

اللغة

١ ـ **الأمر** : جمعه أوامر، طلب إحداث الشيء، الشيء.

٢ ـ **قطرات** : مفردها قطرة النقطة من المطر.

٣ ـ **غفيرة** : زيادة وكثرة.

٤ ـ **فتنة** : فتن فلاناً أضله.

٥ ـ **يغشى** : من غشى فلاناً إذا أتاه.

٦ ـ **دناءة** : خساسة وذلة.

٧ ـ يخشع	:	من خشع تطامن وذل وخضع .
٨ ـ يغرى	:	يولع به من أُغرى بكذا إذا أولع به، وتأتي للتحريض .
٩ ـ اللئام	:	الدنىء، المهان الشحيح النفس .
١٠ ـ الفالج	:	الظافر، الفائز .
١١ ـ الياسر	:	المقامر .
١٢ ـ القداح	:	سهام الميسر التي يلعب بها .
١٣ ـ المغنم	:	المنفعة والمكسب .
١٤ ـ المغرم	:	المضرة، والخسارة .
١٥ ـ الحسنيين	:	الظفر أو الشهادة من الحُسنى .
١٦ ـ الحسب	:	جمعه أحساب شرف الأصل مفاخر الآباء .
١٧ ـ البنين	:	مفرده ابن الأولاد الذكور .
١٨ ـ حرث الدنيا	:	الحرث ،الكسب .
١٩ ـ التعذير	:	إظهار العذر شكلاً .
٢٠ ـ الرياء	:	التظاهر بالخير دون الحقيقة .
٢١ ـ السُمعة	:	الشهرة أو ما يقصد به ذلك .
٢٢ ـ يكله	:	من وكل إليه الأمر، سلمه إليه وفوضه، فقام مقامه .
٢٣ ـ لا يستغني	:	لا يغتني واستغنى به اكتفى .
٢٤ ـ عترته	:	والعترة ذرية الرجل وولده .
٢٥ ـ الحيطة	:	الرعاية والكلاءة .
٢٦ ـ ألمَّهم	:	من لمّ بمعنى جمع وقارب بين المتفرقات .
٢٧ ـ الشعث	:	التفرق والانتشار ومنه لم الشعثِ .
٢٨ ـ النازلة	:	المصيبة .
٢٩ ـ يعدلنّ	:	من عدل عن الطريق إذا حاد عنه .
٣٠ ـ الخصاصة	:	الفقر، الحاجة الشديدة .
٣١ ـ يسدها	:	نقيض يفتحهايغلقها .
٣٢ ـ أمسكه	:	قبضه، حبسه، تعلق به .
٣٣ ـ قبض يده	:	ضد بسطها، وقبض على الشيء إذا أمسكه .
٣٤ ـ تلن	:	اللين ضد الخشونة ولان له لاطفه .
٣٥ ـ الحاشية	:	للرجل أتباعه وخواصه .
٣٦ ـ يستدم	:	يثبت ويستمر .
٣٧ ـ المودة	:	المحبة .

الشرح

(أما بعد فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة ونقصان فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس فلا تكونن له فتنة) ما قدّره الله لعباده وكتبه لهم وعليهم ينزل من عند الله كما ينزل المطر فهذه بقعة تنال حظاً أوفر من تلك وهذه يكثر قطرها دون تلك وكذلك كل نفس تنال حظها وحصتها مما قدره الله لها فهذه قد تكون في سعة وغنى وتلك قد تكون في ضيق وقلة وهذه قد تكون عقيم وأخرى ولود وهذه قد تكون صاحبة وجاهة وأخرى قد تكون وضيعة فهذا التفاوت من أجل إتمام دورة الحياة وكمالها ومن أجل مصلحة المجتمع ونموه وازدهاره.. من أجل أن يحتل كل فرد موقعاً من الحياة يسد ثغرتها ويملأها بما تحتاج إليه فإذا رأى أحد من الناس زيادة فيما عند أخيه زيادة من مال أو ثروة أو جاه أو ولد فلا ينبغي أن يتحول ذلك إلا عنصر إضلال ومادة فساد ينحرف برؤيته الرائي ويضل الناظر...

إنه عليه السلام أراد أن يرد الأمر لله ويلفت نظر هذا الإنسان إلى قضية إذا عاد إليها واطمأن بها ارتاحت نفسه واستقرت أعصابه واستطاع أن يقطع شوط الحياة بلذة ونعيم.. إنها العودة إلى الله وإرجاع الأمر إليه فهو الذي زاد في ثروة فلان وهو الذي قتر على فلان وهو الذي رفع ملوكاً وهو الذي أهلك آخرين وهو الذي أغنى.. وهو الذي أفقر.. فإذا اطمأن الإنسان إلى هذه القضية ارتاحت نفسه واستقرت أحواله وتحولت النعمة التي أنعمها الله على الغير إلى مادة شكر عند الناظر يلتفت ليسبح الله ويمجده ويقول يا رب إنك أنت الذي تعطي وأنت الذي تمنع.. إنك وحدك القابض ووحدك الباسط..

(فإن المرء المسلم ما لم يغش دناءة تظهر فيخشع لها إذا ذكرت ويغري بها لئام الناس كان كالفالج الياسر الذي ينتظر أول فوزه من قداحه توجب له المغنم ويرفع بها عنه المغنم) فإن الإنسان المسلم إذا لم يأت بأمر فيه مضرة وحقارة وفيه معصية ورذيلة بحيث لو ظهرت لأعين الناس وانكشفت لهم استحى منها وخجل ولم يكن فيها إغراء للسفلة وضعاف النفوس لو لم يكن المسلم كذلك لكان كاللاعب بالقمار المنتصر الذي ينتظر أول فلاحه وربحه ليكتسب ويربح ويرفع عن نفسه الخسارة..

(وكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسنيين، إما داعي الله فما عند الله خير له، وأما رزق الله فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه) حال من

وصفنا سابقاً هو حال المرء المسلم الذي لا يخون ما اؤتمن عليه من تكاليف ووصايا ويعمل بكل أوامر الله وتكاليفه فإنه ينتظر إحدى الحسنيين. . واحدة من اثنتين، إما أن يقبضه الله إليه ويستدعيه إلى جواره وهذه نعمة كبرى لأن ما عند الله خير من كل ما حوته الدنيا وما فيها وإما أن يرزقه أولاداً وثروة وغنى ومع ذلك كله وبالإضافة إليه يبقى محافظاً على دينه ومروته وما تمتع به من خصال شريفة ورثها عن أهله وأمجاد تسلمها منهم وبذلك ينال الدين والدنيا وهذه حال المرء المسلم يبقى بين واحدة من اثنتين إما جوار الله والله لن يجور على من جاوره وفي ذلك سعادة الآخرة وإما أن يعطيه الدنيا مع الحفاظ على الدين والكرامة وتلك سعادة الدنيا والآخرة. .

(وإن المال والبنين حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام) ترغيب في العمل الباقي الدائم الذي يكسب به الإنسان الجنان وتحقير وتصغير من شأن العمل الذي يكون أثره في الدنيا فحسب. . فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا وما كان للدنيا يبقى أثره فيها. . فأنت تتمتع بما عندك من مال وتنال ما تشتهي به. . .

تسيح في الدنيا تنتقل كعصفور من غصن إلى غصن وتطال ما تقع عيناك عليه. . وأما الأولاد فإنك تسر لرؤياهم تشعر بلذة عندما يحيطون بك وقد تأخذك العزة وعلو النفس فتشمخ ولكن كل هذا سيبقى هنا في الدنيا ويفنى كما قال الإمام في بعض كلمات، «وأحبب من شئت فإنك مفارقه» ستترك خلفك كل ما جنيته وستترك وراءك كل أحبابك وأولادك. . .

وأما العمل الصالح من صلاة وصيام وحج وإعانة فقير وإعالة أرملة وسد عوز محتاج ودفع ظالم وإقامة الحق وإزهاق الباطل وتوفير الحكم الإسلامي الذي يبسط ظله على الأرض فترتفع المنكرات وتتحرك الواجبات هذه وأمثالها لن تموت بموت الإنسان ولن يأتي عليها الفناء عندما يأتي الموت لهذا الإنسان بل ستتبعه وتسير معه وتكون وسيلته إلى الخلود في الجنة ومن كان عمله العمل الصالح تمت له السعادة وفاز. . .

ومن رحمة الله وعنايته فإن الأمرين قد يجمعهما الله لبعض عباده زينة الحياة الدنيا والعمل الصالح كما وقع لنبي الله سليمان أو ليوسف أو لغيرهما من المؤمنين الصالحين وذلك بفضل الله وتقديره فلا يجب أن يتأثر الإنسان بشيء بل يكل الأمر لله فهو الذي إذا أراد أن يجمعهما لك جمعهما. . .

(فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه واخشوه خشية ليست بتعذير) فالله حذرنا

المعصية وخوفنا منها فيجب أن نبتعد عنها ولا نقترف شيئاً منها وأمرنا أن نخشاه حق خشيته ويتحقق ذلك بترك المحرمات وفعل الواجبات والقيام بكل أمر مطلوب منا ولا أن نخشاه صورة ثم نرتكب الحرام ونأتي لنعتذر بأعذار واهية يعرف الله كذبنا فيها فهذه لها صورة الخشية دون حقيقتها . .

(واعملوا في غير رياء ولا سمعة، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له، نسأل الله منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء).

العمل الخالص لله :

ثم أمرنا أن يكون العمل خالصاً لوجه الله دون رياء أو سمعة والعمل لوجه الله أشق وأصعب من نفس العمل فإن تخليص العمل من الرياء والسمعة من أشق الأمور وقد لا تكون هذه الأمور ظاهرة لدى الإنسان يستطيع إدراكها بسهولة . . قد تكون دوافع العمل بعض الانحرافات المختزنة في اللاشعور وهي التي تحرك العامل نحو هذا العمل . . فإعالة الأرملة واليتيم لوجه الله بدون أن ينشر الخبر بين الناس . . وبدون زهو وكبر أمر صعب وأن يحج الإنسان ـ وهو أمر عبادي يتمحض في التوجه إلى الله ـ ويجعل حجه خالصاً لوجه الله وامتثالاً لأمره دون رياء أو سمعة فهذا يحتاج إلى جهاد نفسي كبير . . .

الرياء أن تعمل العمل لله ولغيره تصلي لله وليراك الناس تحسن صلاتك من أجل أن يمدحك الناس ويثنون عليك وعلى صلاتك والعامل كذلك هو مشرك في لسان كثير من الروايات إنه شرك عمل . . .

١ ـ قال الصادق عليه السلام: كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ومن عمل لله كان ثوابه على الله . .

٢ ـ وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال[1]: ما على أحدكم لو كان على قلة جبل حتى ينتهي إليه أجله، أتريدون تراؤون الناس؟ إن من عمل للناس كان ثوابه على الناس ومن عمل لله كان ثوابه على الله إن كل رياء شرك . .

وأما السمعة التي يستشرف إليها الكثيرون ويتطلعون بشوق ولهفة أن يسمعهم الناس ويسمعوا مناقبهم وأفعالهم وما يقومون به . . فلا يتبرع الغني بدرهم إلا إذا أذيع الخبر في وسائل الإعلام ووصل النبأ إلى كل حي . . ولا يكفل يتيماً إلا إذا عرف الناس

---

(١) باب ١٢ من أبواب مقدمة العبادات حديث ٦٠٢ .

بذلك. . إنها السمعة بحب الشهرة بما يعمله لله وهذا أيضاً يعبر عنه بلسان الروايات أنه مشرك.

١ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: في قول الله عز وجل: **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾** قال الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب به تزكية النفس يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه ومن كان يشرك في عبادة ربه أحداً غير الله أو كان يعمل للسمعة فلا أجر له ولا ثواب. . تذهب أعماله هباءاً منثوراً. . فلا أجر ولا ثواب وهل هناك أخسر صفقة من إنسان يصلي ثم لا يؤجر على صلاته أو لا تنفعه الصلاة. . .

١ ـ في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يقول[1] الله عز وجل: **﴿أنا خير شريك فمن عمل لي ولغيري فهو لمن عمله لغيري﴾**. .

٢ ـ وفي حديث آخر: أنا أغنى الأغنياء عن الشريك فمن أشرك معي غيري في عمل لم أقبله إلا ما كان لي خالصاً.

ثم سأل الله منازل الشهداء «**والشهداء أمراء أهل الجنة**». ومعايشة السعداء وهل هناك أعظم من أن يسعد الإنسان ويعيش مع السعداء.

ومرافقة الأنبياء ونعم الرفقاء. . يشفعون له. . ويأخذونه معهم إلى النعيم الدائم المقيم.

(أيها الناس إنه لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال ـ عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم وهم أعظم الناس حيطة من ورائه والمهم لشعثه وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به) دعوة إلى الأغنياء الذين يشدهم المال فينقطعون عن آقاربهم ويتكبرون عليهم ويترفعون عنهم. . إنها حقيقة يعيشها الإمام في بعض أشخاصها أيام حياته ونعيشها نحن في أيامنا. . نرى بعض الأغنياء يستغنون عن أهلهم وأقاربهم ويعتدون بأموالهم فحسب. . تسقط القرابة أمام شهوة المال وبريقه ويتصور الغني استغناءه عن أهله واكتفاءه بماله. . والإمام يـرّد هذا الغني إلى حقيقة واضحة وهي أن المال يحتاج إلى رجال تحفظه وحفظه بعشيرة الرجل الغني. . هؤلاء الأقارب هم الذين يدفعون الأشرار عن أموال الغني ويدفعون عنه شخصياً اللصوص والمعتدين بأيديهم إن اقتضى الأمر وبألسنتهم إن كان مورده، إنهم يحفظونه ويرعونه ويجمعون شتاته معهم وبهم وقد

---

(١) باب ١٢ من أبواب مقدمات العبادات.

يمتنع بعض الأشرار من الاعتداء عليه لانتسابه إلى هذه العشيرة القوية خوفاً من سطوتها وردة الفعل عندها إن هو اعتدى على هذا الرجل منها. . وليس للرجل إلا أهله هم الذين يقومون به عند الشدائد والمصائب والمحن.

(**ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يرثه غيره**) ترغيب في الإنفاق وبذل المال وأن يسخى المرء بما عنده فإن ذلك سينتشر بين الناس وتتداوله الألسن وتذكره بكل مدح وتثني عليه بكل صفة حسنة سيذاع ذلك وينتشر صيته وتتحدث الناس عنه وعن فضائله. . .

وذلك خير من المال الذي يجمعه ويبخل به ليورثه أبناءه فإن الصيت الحسن الذي تتناقله الألسن وتتداوله الأجيال حياة للإنسان جديدة وعمر جديد وحاتم الطائي نموذج وعيّنة من هذا لا يزال ذكره يعيش بين الناس وتتناقل أخباره الكرام وكل من يتحدث بالكرم والعطاء. .

(**ومنها: ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذي لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيد كثيرة ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة**) نهى عليه السلام أن يبعد الإنسان عن قرابته من أصحاب الحاجة ولا يرفدهم بما يدفع حاجتهم ويسد خلتهم. . فإن هذا المال عارية بيده لا ينفعه جمعه وعدم إنفاقه لأنه فوق حاجته وما كان فوق الحاجة لا ينفع الإنسان بشيء ولا ينقصه أن أنفقه لأنه غني عنه غير محتاج إليه. . فهو مستغني عنه لا ينفعه جمعه لأنه فوق الحاجة ولا يضره إنفاقه لأنه زائد. . ثم بيّن ترغيباً لأهل المال بالإنفاق ولكي يساعد الرجل أهله وعشيرته على الخيرات بأنه هذا الرجل الغني إذا امتنع عن العطاء والبذل فإنما يمنع يده وهي واحدة بينما عشيرته أيد كثيرة فإذا امتنعوا عن مد أيديهم إليه امتنعت عنه أيدٍ كثيرة. . .

ثم بين جانباً مهماً وأن لا يكون المال سبباً في خشونة الرجل وعلوه وتكبره وفظاظته وإن من كان حسن العشرة ليّن الجانب يكسب حب قومه له وعطفهم عليه وفي ذلك ثمرات كبيرة ونتائج عظيمة. .

٢٤ ـ ومن خطبه له عليه السلام

وهي كلمة جامعة له، فيها تسويغ قتال المخالف، والدعوة إلى طاعة الله، والترقي فيها لضمان الفوز

وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ ٱلْحَقَّ، وَخَابَطَ[١] ٱلْغَيَّ[٢]، مِنْ إِدْهَانٍ[٣] وَلَا إِيهَانٍ[٤]. فَاتَّقُوا ٱللّهَ عِبَادَ ٱللّهِ، وَفِرُّوا[٥] إِلَى ٱللّهِ مِنَ ٱللّهِ، وَٱمْضُوا فِي الَّذي نَهَجَهُ[٦] لَكُمْ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ[٧] بِكُمْ، فَعَلِيٌّ ضَامِنٌ[٨] لِفَلْجِكُمْ[٩] آجِلاً[١٠]، إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ[١١] عَاجِلاً[١٢].

اللغة

١ ـ خابط : من الخبط وهو المشي على غير استقامة.
٢ ـ الغي : الجهل.
٣ ـ الإدهان : المصانعة، والمداهنة، المنافقة.
٤ ـ الإيهان : مصدر أوهنته أي أضعفته والوهن الضعف.
٥ ـ فروا : أهربوا.
٦ ـ نهجه : أوضحه وبينه.
٧ ـ عصبه : ربطه وأناطه به كالعصابة التي يشد بها الرأس.
٨ ـ ضامن : كفيل.
٩ ـ الفلج : الفوز، والظفر.
١٠ ـ آجلاً : الآجل ضد العاجل، المتأخر.
١١ ـ منحه : أعطاه.
١٢ ـ عاجلاً : متقدماً، مسرعاً وعجل في الأمر أسرع فيه.

الشرح

(ولعمري ما عليّ من قتال من خالف الحق وخابط الغي من إدهان ولا إيهان).

علي وقتال المخالفين:

كثيرون هم الذين يريدون أن يحرفوا الإمام عن طبيعته ويجروه إلى حيث لا قناعة له، يريدون منه أن يعطي المتمردين على الحق ويمنيهم ويمنحهم ويغدق عليهم.. يوليهم المناصب ويعطيهم المال ويقربهم على حساب الدين والأمة.. كانوا يجرونه إلى مخالفة الله وهو يأبى إلا أن يكون مع الله... ينظرون إلى المنافع العاجلة وهو ينظر إلى الآخرة.. إنه حسم الأمور حسماً قاطعاً وأخذ على نفسه عهداً أن يجدع أنف الشر وأن يقاتل بمن معه من عصاه من أجل الله وفي سبيل الله..

وهو يقسم أنه ليس في قتال الضالين المنحرفين المخالفين للحق من مداهنة ولا ضعف فهو لن ينافق ويداري في قتالهم كما أنه لن يضعف وينهار من حربهم ومن كانت له القوة المعنوية المستندة إلى الحكم الشرعي والقوة المادية التي هي عدم الضعف والانهيار كان قتاله لأهل الباطل مشروعاً بل واجباً يفرضه الدين لردع المنحرفين وردهم إلى الله..

(فاتقوا الله عباد الله) اتقوا معاصي الله فلا تخالفوا أوامره وقد يتصور الكثيرون أن التقوى تقتصر على إقامة الصلاة والصيام وأداء الحج وإعطاء الحق الشرعي وغض النظر وكف اليد عن أخذ المال الحرام ولكن الحقيقة أن تقوى الله تمتد لتشمل مواقف الرجل من الأمور.. التقوى أن تساند الحق وتقف معه وتحارب الباطل وتخذله.. التقوى السياسية التي تحتم عليك أن تكون في صف المؤمنين ومعهم وفي عداء مع الكافرين والمنافقين.. التقوى أن تؤيد الحق وأهله بيدك ولسانك وتنفر من الباطل وأهله وتستنكره وتحاربه.. وقد جهل الإسلام رجال مروا في التاريخ يمكن أن يوصفوا بالأمة أنهم أتقياء ولكن تقواهم تبخرت وكانت تقوى فساد لأنهم لم يأخذوا أنفسهم بمواقف أهل الحق ويساندوهم ويدعموهم في مسيرتهم..

(وفروا إلى الله من الله) بأن يهرب الإنسان من معاصي الله إلى طاعته ومن عذابه إلى رحمته وهذا يتحقق بترك المعصية وفعل الطاعة فإذا هو قد أصبح في كنف الله بعيداً عن عذابه وعقابه.. وما أجمل هذا التعبير «فروا إلى الله من الله» تعبير يشي بكثير من المعاني

الرفيعة وإنه هو الملجأ وإليه المصير وهو مستقر الفرار . .

(وامضوا في الذي نهجه لكم) سايروا وتابعوا الطريق الذي رسمه لكم ووضعه بين أيديكم . . إنه الإسلام الأصيل الذي يرفض الذل والهوان ويرفض الخنوع والاستسلام ويرفض الانحراف والضلال . . طريق واضح وضعه النبي وأمرنا بالسير عليه . .

(وقوموا بما عصبه بكم) أي بما أناطه بكم وكلفكم به فقد كلفنا بحمل المسؤولية وأداء الأمانة . . كلفنا بحمل الإسلام والدعوة له والجهاد من أجل إعلاء كلمة الله . . كلفنا بجميع الواجبات ونهانا عن جميع المحرمات . .

(فعلي ضامن لفلجكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً) تكفل الإمام لمن يسمع حديثه هذا ويعمل به أن يفوز بالآخرة وما فيها إن لم يفز بالدنيا وما فيها . . وقد يجمع الله له فوز الدنيا والآخرة وأحرى بالإمام ضامناً وكفى به شاهداً وناصراً . . .

٢٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وقد تواترت عليه الأَخبار باستيلاءِ أَصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عاملاه على اليمن. وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نَمْرَان لما غلب عليهما بُسْرُ بن أَبي أَرْطَاة، فقام عليه السلام على المنبر ضجراً بتثاقل أَصحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له في الرأْي، فقال:

مَا هِيَ إلاَّ ٱلْكُوفَةُ، أَقْبِضُهَا[١] وَأَبْسُطُهَا[٢]، إِنْ لَمْ تَكُونِي إلاَّ أَنْتِ، تَهُبُّ[٣] أَعَاصِيرُكِ[٤] فَقَبَّحَكِ ٱللّٰهُ!.

وتمثل بقول الشاعر:

لَعَمْرُ أَبِيكَ ٱلْخَيْرِ يَا عَمْرُو إِنَّنِي عَلَى وَضَرٍ[٥] ـ مِنْ ذَا ٱلإِنَاءِ ـ قَلِيلِ

ثم قال عليه السلام:

أُنبِئْتُ بُسْراً قَدِ ٱطَّلَعَ ٱلْيَمَنَ[٦]، وَإِنِّي وَٱللّٰهِ لأَظُنُّ أَنَّ هٰؤُلاءِ ٱلْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ[٧] بِٱجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ[٨] عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ في ٱلْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ في ٱلْبَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمُ ٱلأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلاَحِهِمْ في بِلاَدِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَوِ ٱئْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ[٩] لَخَشِيتُ[١٠] أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاَقَتِهِ[١١]. ٱللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ[١٢] وَمَلُّونِي، وَسَئِمْتُهُمْ[١٣] وَسَئِمُونِي، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، ٱللَّهُمَّ مِثْ[١٤] قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلْمَاءِ، أَمَا

وَٱللّهِ لَوَدِدْتُ(١٥) أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بْنِ غَنْمٍ.

هُنَالِكَ، لَوْ دَعَوْتَ، أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ(١٦) مِثْلُ أَرْمِيَةِ ٱلْحَمِيمِ

ثم نزل عليه السلام من المنبر

قال السيد الشريف: أقول: الأرمية جمع رَميٍّ وهو السحاب، والحميم ها هنا: وقت الصيف، وإنما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولاً، وأسرع خُفوفاً، لأنه لا ماء فيه، وإنما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لا يكون في الأكثر إلا زمان الشتاء، وإنما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دُعوا، والإغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله: «هنالك لو دعوت، أتاك منهم..»

اللغة

١ ـ أقبضها : قبض على الشيء بيده أمسكه وقبض الشيء خلاف بسطه ووسعه.

٢ ـ أبسطها : بسط اليد مدها وبسط الثوب نشره.

٣ ـ تهب : تهيج.

٤ ـ الأعاصير : جمع أعصار وهي ريح تهب فتلتف على نفسها.

٥ ـ الوضر : الدرن، بقية الدسم في الإناء ويستعار لكل بقية من شيء يقل الانتفاع بها.

٦ ـ أطلع اليمن : ظهر عليها وغشيها.

٧ ـ سيدالون منكم : تكون الدولة لهم بدلكم.

٨ ـ التفرق : التشتت وعدم الاجتماع.

٩ ـ القعب : القدح الضخم.

١٠ ـ خشيت : خفت.

١١ ـ العلاقة : جمعها علائق ما تعلّق به القدر ونحوها.

١٢ ـ ملّ الشيء : سئمه وضجر منه.

١٣ ـ سئم : ملّ.

١٤ ـ مث : أذب من ماث الملح أذابه.

١٥ ـ وددت : أحببت وتمنيت.

١٦ ـ فوارس : مفردها فارس راكب الفرس أو صاحبها.

الشرح

بسر بن الأرطأة الإرهابي الفاتك:

بسر بن أرطأة هو عامل معاوية وخبير الفتك لديه فقد وجهه إلى اليمن وقد كتب أهلها إليه رسالة يدعونه إليهم ويطلبون بثأر الخليفة عثمان معه فسار بسر بجنده فأخذ طريق الحجاز والمدينة ومكة وقال له معاوية في وصيته له: لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلا بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنهم لا نجاة لهم وإنك محيط بهم ثم أكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي فمن أبى فاقتله وأقتل شيعة علي حيث كانوا..

توجه بسر إلى اليمن ولما قرب من المدينة كان عامل علي عليها أبو أيوب الأنصاري فخرج منها هارباً فدخل بسر وشتم أهلها وتهددهم وشتم الأنصار وتهددهم حتى خاف الناس أن يوقع بهم ثم دعاهم إلى بيعة معاوية فبايعوه وأحرق دوراً كثيرة فيها ثم ولى أبا هريرة عليها وأمرهم بطاعته وبعدها خرج إلى مكة وكان في الطريق يقتل من يمر به ويأخذ الأموال ولما بلغهم قدومه خافوا وهربوا فأخذ ولدين لعبيد الله بن العباس وذبحهما بيديه وعندما اقترب منها هرب قثم بن العباس عامل الإمام عليها فدخلها بسر فشتم أهلها وأنبهم وخرج بعد أن استعمل عليهم شيبة بن عثمان...

وأكمل بسر مسيره حتى أتى نجران وخرج منها حتى بلغ صنعاء وكان عليها من قبل الإمام عبيد الله بن العباس والياً وسعيد بن نمران قائداً للجند فخافا الهزيمة فاستخلف عبيد الله مكانه عمر بن أراكة الثقفي فلما أراد بسر دخولها وقف له عمر ودارت معركة سقط فيها عمر شهيداً ودخل بسر صنعاء.

ووصل النبأ إلى الإمام فهزه ما أحدث بسر وما جنى فندب أصحابه لتجهيز سرية تتعقب بسراً فتثاقلوا فقام إلى المنبر ضجراً مما يرى من أصحابه ومخالفتهم له في الرأي فخطب هذه الخطبة الشريفة..

(ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها إن لم تكوني إلا أنت تهب أعاصيرك فقبحك الله).

وتمثل بقول الشاعر:

لعمر أبيك الخير يا عمرو إنني على وَضر من ذا الإناء قليل)

موقف قاس وشديد.. مرّ بل أمر من العلقم.. الأسى في القلب واللوعة في

النفس.. ما أصعبه من موقف ذاك الذي يقفه الإنسان ويرى أمام عينيه حقه يسلب وعدوه يتنمر ومع ذلك يرى الناس تقف منه موقف المتردد والشاك بل الخاذل والمعاند..

وأمير المؤمنين عاش في الكوفة يرى عصيان أهلها له وترددهم وشكهم وتسويفهم وتأخرهم.. يحركهم فلا يتحركون.. يدفعهم بلسانه وبيانه فلا يسمعون.. يصيح بهم ويصرخ في وجوههم ولكن دون جدوى...

وهذه الصيحة منه واحدة من جملة الصيحات فيها تأنيب وتحقير واستصغار...

ما هي إلا الكوفة ليس لي غيرها ولا أملك سواها إنها تحت يدي أحركها كيف أشاء، إنها طوع يميني.. إنها لحقارتها كالدرهم في يد صاحبه وما يفيده وإن كان تحت يده إن لا يقدر على سدّ خلته وقضاء حاجته وهكذا هي الكوفة لحقارتها يقول «ما هي إلا الكوفة ويعقبها بقوله: إن لم تكوني إلا أنت تهب أعاصيرك فقبحك الله» أي إن لم يكن لي من الملك والسلطان إلا الكوفة التي تحوي النفاق والعصيان والتمرد والخلاف فلا كانت وأبعدها الله عني وزواها عن ملكي.

ثم استشهد ببيت من الشعر استصغاراً لها وتحقيراً وإن الكوفة بالنسبة إلى بقية البلدان كبقايا الدسم الذي يتخلف في الإناء فلا يستفاد منه بل تشمئز منه النفس وتتقزز وهكذا الكوفة..

(انبئت بسراً قد اطلع اليمن وإني والله لأظن أنّ هؤلاء القوم سيدالون منكم) أخذ في حثهم على الجهاد ودفعهم للاستنفار لعلهم يتحسسون فيتحركون وينهضون فهو يخبرهم أن قد وصلت إليه الأنباء بأن بسر بن أرطأة قد استولى على اليمن وملكها وأصبحت تحت يده ومن هذا النبأ المفجع الدامي دخل في قراءة جديدة للأحداث وإن القضية لن تنتهي عند هذا الحد وتتوقف عند حدود اليمن بل إني أقسم بالله صادقاً لأظن وظن الألمعي يقين فكيف بظن الولي أن هؤلاء معاوية وعصابته سيتولون الأمر بدلكم وستنتقل الدولة منكم إليهم...

ثم أخذ في تعليل هذا الظن بقوله:

(باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم وبمعصيتكم إمامكم في الحق وطاعتهم إمامهم في الباطل وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم فلو إئتمنت أحدكم على قعب لخشيت أن يذهب بعلاقته).

من سنن التاريخ :

وهذه سنن تاريخية جعلها الله لكل قوم وأمة ذكر الإمام منها أربعة يجب أن يتمتعَ بها أهل العراق فخالفوها ويجب أن يمتنع عنها أهل الشام ففعلوها، من كان حقه أن يقوم بها أهملها ومن كان حقه أن يهملها فعلها.

الأولى: اجتمع أهل الشام على باطلهم فقد اتفقت كلمتهم على محاربة الحق والتقوا كلهم على هدف واحد قد جمعوا شملهم ووحدوا كلمتهم وانتفى الخلاف من بينهم وهؤلاء كان الواجب عليهم أن لا يجتمعوا على باطل.

وفي مقابل اجتماع هؤلاء على باطلهم، تفرق أهل العراق عن حقهم، فإنهم تحت أمرة القيادة الشرعية ومع ذلك لم يجتمعوا وتتوحد كلمتهم. . .

الثانية: إن أهل العراق كانوا لا يسمعون كلام الإمام ولا يستجيبون له، كان يدفعهم لجهاد معاوية وحزبه فيتباطؤن ويتأخرون بل يفرون وينكصون، حتى قال قولته الشريفة لا رأى لمن لا يطاع وود لو أن معاوية يصرفه صرف الدرهم بالدينار فيعطيه واحداً من أهل الشام ويأخذ عشرة منه. .

هذا كله والحق مع إمامهم وهو الخليفة الذي انعقدت له البيعة بإجماع المسلمين. . .

وأما أهل الشام فإنهم أطاعوا معاوية ولم يخالفوا أمره كان إذا وجههم إلى جهة استجابوا وإذا أمرهم بأمر امتثلوا. . رفع معاوية راية الثأر لعثمان فكلهم استجابوا له وحمّل الإمام دم عثمان فكلهم صدقوا وامتثلوا. . إنهم نظروا إلى معاوية أنه ولي أمرهم والقائم بشؤونهم وإنه حلقة الوصل بينهم وبين الإسلام وقد رباهم معاوية على طاعته والتزام أمره وعدم الرد عليه ومواجهته بما يكره ولذا لم نسمع بحادثة واحدة تمرد فيها أهل الشام على معاوية مع إن مدة حكمه تجاوزت الأربعين سنة بين الإمارة والخلافة. .

الثالثة: إن أهل الشام أدوا الأمانة إلى صاحبهم حيث أخذ معاوية عليهم البيعة أن يقاتلوا عدوه ويثأر لعثمان وقد وفوا له بما عاهدوه عليه وصدقوا فيما أعطوا وقد كانوا يتفانون في الدفاع عنه. . وأما أهل العراق فإنهم بايعوا الإمام ثم منهم من نقض البيعة وكاتب معاوية كالأشعث بن قيس ومنهم من بايع ولم يخرج للقتال ومنهم من تردد وتوقف.

الرابعة: صلاحهم في بلادهم فقد كان أهل الشام في أحسن حال وأمورهم منتظمة

هادئة يسمعون كلام معاوية ويطيعونه ومع الأمن والهدوء تتم الصناعات ويفلح التجار وتروج السلع.

وهكذا عكس أهل العراق فقد كان الاضطراب يسود البلاد وتعم الفوضى وينتشر حبل الفرقة والاختلاف.. وهذه الأمور الأربعة مع القيام بها يكون النجاح والفوز والظفر ومع الإخلال بها يكون الوهن والسقوط والهزيمة وقد وضع الله للنجاح والفشل أسباباً فمن أخذ بعوامل النجاح نجح ومن اختار الأخرى سقط..

ثم إن الإمام اشتد في ذمهم بما ضربه لهم بأنه لو ائتمنهم على كأس وهو أمر زهيد لا يطمع فيه ذو مروءة وكرامة وصاحب همة ونفس عالية، لو ائتمنهم على ذلك لخانوه فيه ولم يسلموه له كما سلمهم إياه بل لا بد وأن يسلبوا منه شيئاً ولو كانت عروته والمهم عندهم أن لا يسلموا الأمانة كما تسلموها.. وهذا رمي لهم بالخيانة وإنه لم يسلم من خيانتهم له..

(اللهم إني قد مللتهم وملوني وسئمتهم وسئموني فابدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً مني، اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء، أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم.

هنالك لو دعوت أتاك منهم: فوارس مثل أرمية الحميم) كنت أقرأ هذه الكلمات فأتصور سيدي الإمام وهي تخرج من بين ثناياه وقد جرحت قلبه الكريم وأدمت عينيه الشريفتين.. كنت أحس أن علياً في أشد المعاناة والألم وفي أقسى ظروف حياته.. كنت أتصور أن معارك الإسلام في بدر وأُحد وخيبر والأحزاب والمناوشة بالسيوف والتعرض للموت أيسر بكثير مما يعانيه الإمام الآن وما يعيشه من الظروف الصعبة القاسية...

والله إنني أقرأها فتجرح قلبي ويشدني الأسى والألم وأتذكر علياً وهي تخرج منه محملة بأشد ما يكون الأسى والمعاناة..

إنني أعرف علياً يتحمل ما لا تتحمله الجبال الرواسي فكيف خرجت هذه الكلمات منه وكيف تحمل إخراجها؟.. وكيف استطاعت الآذان أن تلتقطها ثم لا تستجيب لندائه أو تموت...

اللهم إني قد مللتهم لخيانتهم وتقاعسهم وعدم الاستجابة للحق... مللتهم لرفضهم الأوامر الشرعية وبعدهم عن امتثالها.. مللتهم لأنهم يريدون الدعة والسكون

وينتظرون معاوية أن يغزوهم ويسيطر على بلادهم ويستعبد رقابهم.. مللتهم لرفضهم الحق وسكوتهم على الباطل...

«وملوني» لأني أريدهم لله ويريدوني لأنفسهم «ملوني» لأني أريدهم للجهاد والقتال وهم يريدون الدعة والسكون.

«ملوني» لأني أحملهم على مر الحق وهم يريدون الباطل ويطلبون الضلال.

«ملوني» لأني أريدهم قادة وحكاماً وهم يريدون البقاء سوقة وعامة...

نعم مللتهم وملوني.. وسئمتهم وسئموني ولم يعد أحدنا يطيق الآخر أو يصبر عليه ويستمع منه وبعد ذلك تضرع إلى الله أن يبدله بهم خيراً منهم ممن يسمعوا كلامه ويستجيبوا له.. أن يكونوا صالحين خيرين طيبين يرتاح إليهم ويعمل معهم...

كما دعا عليهم أن يبعث بدله قائداً أشر منه بنظرهم لأنهم يعتبرونه مصدر قلق لهم وإزعاج وهو يريد عزهم فإذا جاء الشرير حقيقة ذاقوا وبال أمرهم وعرفوا قصده.

ثم من لوعته وحرقة قلبه.. من المعاناة والألم الممض.. من عذاب الروح يتوجه إلى الله ويدعو عليهم أن يذيب قلوبهم ويحللها كما يذوب الملح بالماء بأن يرسل عليهم من يمارس عليهم القهر والظلم حتى يشعر أحدهم أن نفسه تتقطع وروحه تخرج ويعاني مرارة هذا التمرد ثم تمنى أن يكون له بدلهم ألف فارس من بني فراس بن غنم يستجيبون له إذا ناداهم ويلبون دعوته مسرعين وبني فراس بن غنم من كنانة حي مشهور بالشجاعة والحمية وسرعة إجابة الداعي..

ترجمة بسر بن أرطأة:

قال صاحب الإصابة: بسر بن أرطأة أو ابن أبي أرطأة...

قال ابن حبان: من قال ابن أبي أرطأة فقد وهم واسم أبي أرطأة عمير بن عويمر بن عمران بن الحليس بن سيار بن نزار بن معيص بن عامر بن لؤي القرشي العامري.

يكنى أبا عبد الرحمن مختلف في صحبته.

كان من شيعة معاوية وكان معاوية وجهه إلى اليمن والحجاز في أول سنة أربعين وأمره أن ينظر من كان في طاعة علي فيوقع بهم ففعل ذلك وقد ولي البحر لمعاوية ووسوس في آخر أيامه.. وله أخبار شهيرة في الفتن.. قيل مات أيام معاوية وقيل أنه

بقي إلى خلافة عبد الملك بن مروان.. وقيل مات في خلافة الوليد سنة ست وثمانين.. انتهى...

وفي تاريخ ابن عساكر: كان بسر[١] من شيعة معاوية بن أبي سفيان وشهد معه صفين وكان معاوية وجهه إلى اليمن والحجاز في أول سنة أربعين وأمره أن يستقرأ من كان في طاعة علي فيوقع بهم ففعل بمكة والمدينة واليمن أفعالاً قبيحة وقد ولي البحر لمعاوية وقتل باليمن ابني عبيد الله بن العباس..

ودعا الإمام على بسر فقال: اللهم إن[٢] بسراً باع دينه بالدنيا وانتهك محارمك وكانت طاعه مخلوق فاجر آثر عنده مما عندك، اللهم فلا تمته حتى تسلبه عقله ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار، اللهم إلعن بسراً وعمراً ومعاوية وليحل عليهم غضبك ولتنزل بهم نقمتك وليصيبهم بأسك وزجرك الذي لا ترده عن القوم المجرمين فلم يلبث بسر بعد ذلك إلا يسيراً حتى وسوس وذهب عقله فكان يهذي بالسيف ويقول: أعطوني سيفاً أقتل به لا يزال يردد ذلك حتى اتخذ له سيف من خشب وكانوا يدنون منه المرفقة فلا يزال يضربها حتى يغشى عليه فلبث كذلك إلى أن مات..

---

(١) الغدير ج/ ١١ ص ٢١.

(٢) ابن أبي الحديد ج/ ١ ص ١١٦.

٢٦ ـ ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يصف العرب قبل البعثة ثم يصف حاله قبل البيعة له

العرب قبل البعثة

إِنَّ ٱللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَذِيراً[١] لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً[٢] عَلَىٰ التَّنْزِيلِ[٣]، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ عَلَىٰ شَرِّ دِينٍ، وفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ[٤] بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ[٥]، وَحَيَّاتٍ صُمٍّ[٦]، تَشْرَبُونَ ٱلْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ ٱلْجَشِبَ[٨]، وَتَسْفِكُونَ[٩] دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ[١٠]. ٱلأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَٱلآثَامُ[١١] بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ[١٢].

ومنها صفته قبل البيعة له

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ[١٣] إِلاَّ أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ ٱلْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ[١٥] عَلَىٰ ٱلْقَذَىٰ[١٦]، وَشَرِبْتُ عَلَىٰ الشَّجَا[١٧]، وَصَبَرْتُ عَلَىٰ أَخْذِ ٱلْكَظَمِ[١٨]، وَعَلَىٰ أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ ٱلْعَلْقَمِ[١٩].

ومنها: وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّىٰ شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهِ عَلَىٰ ٱلْبَيْعَةِ ثَمَناً، فَلاَ ظَفِرَتْ[٢٠] يَدُ ٱلْبَائِعِ، وَخَزِيَتْ[٢١] أَمَانَةُ ٱلْمُبْتَاعِ[٢٢]، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا، فَقَدْ شَبَّ لَظَاهَا، وَعَلاَ سَنَاهَا، وَٱسْتَشْعِرُوا ٱلصَّبْرَ، فَإِنَّهُ أَدْعَىٰ إِلَىٰ ٱلنَّصْرِ.

اللغة

١ ـ النذير : فعيل بمعنى المنذر وهو المخوف، الرسول لأن إحدى مهماته ذلك.

٢ ـ الأمين : جمعه أمناء، المأمون، الثقة، الذي لا يخون.

٣ ـ التنزيل : القرآن، ما ينزل من علو شيئاً فشيئاً.

٤ ـ منيخون : مقيمون من أناخ الناقة إذا أبركها.

٥ ـ خشن : خلاف لان ونعم.

٦ ـ حيات صم : الصم: أما الأرض الصلبة، أو من الصمم الذي هو عدم السمع.

٧ ـ الكدر : نقيض الصفاء.

٨ ـ الجشب : من الطعام الغليظ أو الذي بدون ادام.

٩ ـ سفك الدم : صبه وسفك دمه إذا قتله.

١٠ ـ قطع الرحم : ضد وصله، عدم الإحسان إلى أقاربه بما يعد في العرف إحساناً.

١١ ـ الآثام : الخطايا، فعل ما لا يحل.

١٢ ـ معصوبة : مشدودة.

١٣ ـ المعين : المساعد.

١٤ ـ ضننت : بخلت من الضن وهو البخل.

١٥ ـ أغضيت : على كذا أطبقت عليه جفني.

١٦ ـ القذى : ما يقع في العين ويوجب أذيتها.

١٧ ـ الشجا : ما يعترض في الحلق.

١٨ ـ الكظم : مجرى النفس.

١٩ ـ العلقم : شجر بالغ المرارة.

٢٠ ـ ظفر : فاز، أدرك ما طلبه.

٢١ ـ خزيت : من الخزي وهو الذب والإهانة.

٢٢ ـ المبتاع : المشتري.

٢٣ ـ الأهبة : الاستعداد.

٢٤ ـ شب لظاها : أوقدت نارها وأثيرت أو ارتفع لهبها.

٢٥ ـ علا سناها : ارتفع ضوؤها.

الشرح

(إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل).

هذه الخطبة تستعرض ثلاثة أمور:

الأول: أمر الناس قبل بعثة الرسول وما كانوا عليه من التخلف والانحلال..

الثاني: حاله وأهل بيته بعد وفاة رسول الله.

الثالث: حالة عدوه المتمثلة بمعاوية وعمرو بن العاص وكيف تمت الصفقة بينهما والاتفاق على قتاله...

أما الأول فقد استهله بذكر بعثة رسول الله وذكر إحدى غايات البعثة وهي كونه صلوات الله عليه نذيراً للعالمين يخوفهم عذاب الله ويحذرهم عقابه وذكر هذه الصفة لما في غريزة الإنسان من دفع الضرر ورفعه عن نفسه باعتبار أنه أولى من جلب المنفعة فكثيرون من الناس قد لا يريدون النفع ولكنهم لا يقبلون الخسارة وقد يرضون بعدم النصر ولكنهم لا يقبلون الهزيمة وهكذا وهذه الصفة لرسول الله قد ذكرها القرآن ووصفه بها قال تعالى: **﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً[1] ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾**. كما إنه عليه السلام وصف النبي بالأمانة على ما أنزله الله من وحي بحيث أدى إلى العباد ما حمله الله دون زيادة أو نقيصة.

(وأنتم معشر العرب على شر دين) وصف العرب بما كانوا عليه من بؤس وتعاسة ابتداءً بعقيدتهم الدينية حيث أسفوا فيها حتى عبدوا الأحجار وقدسوا الأباطيل وتقربوا بما يتنافى والالتفات إلى الله.. هبطوا في عقيدتهم إلى عبادة الأصنام والأوثان.. يصنعون من التمر إلهاً يعبدونه حتى إذا جاعوا أكلوه.. يستحسنون الحجر فيتوجهون إليه بالعبادة حتى إذا وجدوا أحسن منه نبذوه واتخذوا غيره وهكذا... وهل هناك شر وأفسد من عقيدة يختلقها الإنسان لنفسه متى شاء ويستبدلها بغيرها متى شاء بل قد يمسخها ويبطلها متى يشاء؟!.. ولو أردنا أن نستعرض عقيدة العرب وما كانوا عليه لرأينا العجب العجاب كيف انحدروا إلى هذا المستوى المنخفض.. ثم استعرض بعض أوصافهم القبيحة فذكر أنهم:

(وفي شر دار) قال الشراح أنه أراد بها نجد أو تهامة والحجاز وبين شرها بذكر هذه الأوصاف.

---

(١) سورة البقرة، آية ١١٩.

(منيخون بين حجارة خشن وحيات صم) فمن سوء اختيارهم أنهم اختاروا الإقامة والاستقرار في بلاد ذات أحجار خشنة وحيات صماء لا تسمع وهي شر الحيات وأقواها أذى وضرراً هذا إذا أردنا أن نحمل الكلام على ظاهره وقد يراد به المجاز وإن الأعداء من حولهم في خشونة كالحجارة وفي أذية كالحيات الصم الشديدة الإيذاء..

(تشربون الكدر وتأكلون الجشب) يشربون الماء الملوث غير الصافي الذي تجمع في غدران وآبار قد سفت عليه الريح بأوساخها وأما أكلهم فقد كان جراد يلتقطونه ودواب يصطادونها من ضب ودب وثعلب وأرنب وأين هذا من موائد غيرهم وطعامهم.. وعابهم بهذا باعتبار ما للغذاء من أثر في نفسية الإنسان ونموه ومزاجه..

(وتسفكون دماءكم) فقد كانت الغارات تشن منهم على بعضهم وكانت حروبهم على أتفه الأمور وأحقرها كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء وغيرهما من المعارك التي أثارتها أتفه الأسباب وأقلها شأناً..

(وتقطعون أرحامكم) فإن هذه الحروب كانت تقطع وشائج القربى وتفصل القريب عن قريبه فقرابة النساء معدومة لا توصل..

(الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة) فقد كانت كل قبيلة تتخذ صنماً لها تعبده من دون الله وقد تعرض لها المؤرخون الذين كتبوا في حياة العرب ودياناتهم وعددوا الأصنام واسماءها واسم كل صنم ولمن كان...

وأما الآثام فقد كانت محيطة بهم دائرة حولهم لا ينفكون عنها ولا يتركون ممارستها فمن لا يعرف الله ينحرف عن عبادته ويأخذ في ممارسة الرذائل والمعاصي ويرتكب الفواحش...

ثم إن هذا الذي عدده من الرذائل والأمور السلبية يقابلها النعمة العظمى ببعثة رسول الله وكيف أن الله قد أبدل سوء حالهم بأحسن حال فمن جهة العقيدة قد عادت إليهم عقولهم ورد إليهم رشدهم فاهتدوا إلى الله وعبدوه وتبدلت الأحوال الاجتماعية فصفى الود ووصلة الرحم ونبذت الأصنام وهجرت الآثام وحفظت الدماء وعاشوا خير عيشة وأرغد حياة..

(فنظرت فإذا ليس لي معين إلا أهل بيتي فضننت بهم عن الموت) يشرح الإمام حالة بعد وفاة رسول الله وما حلّ به وبأهله.. إنه نظر إلى ما وقع من أمر الخلافة حيث تمت لأبي بكر في غياب الإمام وبني هاشم فرأى أن القيام في وجه الحالة القائمة يكلفه

التضحية بأهل بيته دون أن يحقق المطلوب أو يدرك الغاية التي من أجلها يقوم فحفظهم ولم يغامر بهم ويعرضهم طعمة للموت دون ثمرة..

(وأغضيت على القذى وشربت على الشجى) أي تحملت ما لا يتحمل وصبرت على ما لا يُصبر عليه.. أغمضت عيني على الألم الذي نالني من انحراف المجتمعين عني وتوليتهم لأبي بكر وشربت على الشجى ففي حين أن الشجي الذي علق شيء في حلقه يصعب أن يشرب والحال كذلك لكن أنا برغم أنهم سلبوا حقي صبرت واحتسبت..

(وصبرت على أخذ الكظم وعلى أمر من طعم العلقم) أخذوا عليّ جميع المسالك وضيقوا جميع الجوانب ولم يتركوا لي منفذاً أستطيع أن أخرج منه للدفاع عن حقي فقد عقدوا البيعة وتمموا الصفقة وأغروا بعض الناس وأرعبوا آخرين وهدّدوا فئة ثالثة وهكذا لم يبق إلا الإمام وبنو هاشم وبعض خواصهم وذكر أنه صبر على أمر من طعم العلقم فإن العلقم لا يصبر عليه أحد وقد صبر الإمام على ما هو أمر منه...

وفي هذا الكلام الشريف احتجاج واضح على رفض البيعة وإنه عليه السلام لم يعط بيده طوعاً بل كان يطلب مناهضتهم وجهادهم لو كان يملك الأعوان والأنصار ويقدر على إعادة الحق وإزهاق الباطل ولكنّ قلة الناصر وفقد المعين جعله يصر ويحتسب وعند الله الحساب ولا يمكن الخروج عن هذا الظهور في الكلام إلا بقرينة أو تصريح يخالفه وهو مفقود.

(ولم يبايع حتى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمناً فلا ظفرت يد البايع وخزيت أمانة المبتاع).

صفقة التجار بين معاوية وعمرو بن العاص:

يشير الإمام هنا إلى ما جرى بين معاوية وعمرو بن العاص وما اتفقا عليه من قسمة المغانم بينهما إن انتصر معاوية على علي واستطاع بسط سلطانه على بلاد الإسلام...

وإن هذه الصفقة بينهما قد تناقلتها الأخبار ورواها المؤرخون ووصلت انباؤها إلى القاصي والداني وعرفها القريب والبعيد ولم تغب معالمها حتى عن ربات الحجال والأطفال.. وأضحت كل شركة ضلالة ولقاء كفر واجتماع باطل منها يؤخذ وعلى منوالها ينسج.. معاوية وعمرو شريكان على قتال الحق ورفيقان في درب الباطل ولا أتصور نفعياً في العالم وانتهازياً باع دينه وضميره بمستوى عمرو بن العاص.. باع عمرو

دينه وشرفه وكرامته وإنسانيته إن كان فيه شيء منها ـ بدنيا حقيرة قليلة عفنة باطلة . . .

صورة من الضرورة أن نذكرها بإيجاز لتبقى شاهداً على مظلومية الحق الذي جسده الإمام واجتمع ضده معاوية وعمرو في صفقة من الرذالة يبقى عارها عليهما مدى الدهر . . .

أشار عتبة بن أبي سفيان على أخيه معاوية أن يستعين بعمرو بن العاص فكتب له يستدعيه ويعلمه أن علياً أرسل إليه جريراً بن عبد الله البجلي لأخذ البيعة منه وقد حبس نفسه عليه فقدم عمرو على معاوية وعند دخوله عليه قال له يا أبا عبد الله : إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشق عصا المسلمين وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرّق الجماعة وقطع الرحم فقال عمرو : من هو؟ .

قال : علي . .

قال : والله يا معاوية ما أنت وعلي حملى بعير ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه ووالله إن له مع ذلك لحظاً في الحرب ليس لأحد غيره ولكني قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاء جميلاً فما تجعل لي أن شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر .

قال : حكمك .

قال : مصر طعمة ، فتلكأ عليه معاوية ثم قال له معاوية : يا أبا عبد الله إني أكره لك أن تتحدث العرب عنك إنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا .

قال عمرو : دعني عنك .

قال معاوية : إني لو شئت أن أمنّيك وأخدعك لفعلت .

قال عمرو : لا لعمر الله ما مثلي يخدع لأنا أكيس من ذلك .

قال معاوية : أدن مني أسارك فدنا منه عمرو ليساره فعض معاوية أذنه وقال : هذه خدعة هل ترى في البيت أحد؟ ليس غيري وغيرك .

ثم قال معاوية لعمرو : يا أبا عبد الله أما تعلم إن مصر مثل العراق؟ .

قال : بلى ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك وإنما تكون لك إذا غلبت علياً على العراق .

وسمع المحاورة عتبة بن أبي سفيان فقال لمعاوية :

أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر إن هي صفت لك ليتك لا تغلب على الشام.

فقال معاوية لعتبة بت عندنا الليلة فلما بات عنده أنشد شعراً يحث معاوية على اشتراء عمرو بما قال. . وسمع معاوية قول عتبة فأرسل إلى عمرو فأعطاه مصر.

فقال عمرو: لي الله عليك بذلك شاهد.

قال: نعم، لك الله عليّ بذلك إن فتح الله علينا الكوفة.

فقال عمرو: والله على ما نقول وكيل.

فخرج عمرو من عنده فقال له إبناه: ما صنعت؟.

قال: أعطانا مصر طعمة.

قالا: وما مصر في ملك العرب.

قال: لا أشبع الله بطونكما إن لم تشبعكما مصر.

وكتب له معاوية بمصر كتابه وكتب على ألا ينقض شرط طاعته فكتب عمرو. . على ألا تنقض طاعة شرطاً فكايد كل واحد منهما صاحبه.

وسمع مروان فغضب وقال ما بالي لا أُشترى كما اشتري عمرو.

فقال معاوية: إنما يشترى الرجال لك.

والإمام يشير في كلامه هذا الذي نحن بصدده إلى هذه الصفقة التي تمت على حساب الإسلام والمسلمين والحق والدين فإن عمراً لم يبايع معاوية ويشايعه ويتابعه حتى شرط عليه أن يؤتيه مصر ثمناً للبيعة وأجراً لمتابعته في حرب الحق.

ثم دعا عليهما معاً بأن يخسر البايع وهو معاوية وقد خسر الدنيا فلا تسمع له ذكراً الآن إلا بكل سوء وخزي وأما في الآخرة فله عذاب أليم.

ودعا على عمرو أيضاً بالخزي لما أؤتمن عليه فخانه وهو عهد الله وميثاقه والالتزام بالإيمان ومقتضياته. . وأي خزي حاق بعمرو وقد أصبحت صفقته عنواناً لكل من باع دينه بدنيا زهيدة لا قيمة لها. . .

(فخذوا للحرب أهبتها وأعدوا لها عدتها فقد شب لظاها وعلا سناها واستشعروا الصبر فإنه أدعى إلى النصر) بعد أن رأى أعلام الحرب قد رفعت وطبولها قد قرعت أمرهم أن يتأهبوا لها ويعدوا لها عدتها وما تحتاجه من أمور معنوية أو مادية. . لقد ارتفعت حرارتها واقتربت ساعتها بحيث انكشف للناظرين وقوعِها فاتخذوا الصبر في قلوبكم وعيشوا حقيقته فإنه أجدر بالنصر ومن صبر ظفر. .

٢٧ ـ ومن خطبه له عليه السلام

وقد قالها يستنهض بها الناس حين ورد خبر غزو الأنبار بجيش معاوية فلم ينهضوا. وفيها يذكر فضل الجهاد، ويستنهض الناس، ويذكر علمه بالحرب، ويلقي عليهم التبعة لعدم طاعته

فضل الجهاد

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّةِ، فَتَحَهُ ٱللَّهُ لِخَاصَّةِ[١] أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ، وَدِرْعُ[٢] ٱللَّهِ ٱلْحَصِينَةُ[٣]، وَجُنَّتُهُ[٤] ٱلْوَثِيقَةُ. فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ[٥] أَلْبَسَهُ ٱللَّهُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ[٦]، وَشَمِلَهُ[٧] ٱلْبَلَاءُ[٨]، وَدُيِّثَ[٩] بِالصَّغَارِ[١٠] وَٱلْقَمَاءَةِ[١١]، وَضُرِبَ عَلَىٰ قَلْبِهِ بِٱلإِسْهَابِ[١٢]، وَأُدِيلَ[١٣] ٱلْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ[١٤] ٱلْجِهَادِ، وَسِيمَ[١٥] ٱلْخَسْفَ[١٦]، وَمُنِعَ ٱلنَّصَفَ[١٧].

استنهاض الناس

أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ قِتَالِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِرًّا وَإِعْلَاناً، وَقُلْتُ لَكُمْ: ٱغْزُوهُمْ[١٨] قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَٱللَّهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ[١٩] إِلَّا ذَلُّوا. فَتَوَاكَلْتُمْ[٢٠] وَتَخَاذَلْتُمْ[٢١] حَتَّىٰ شُنَّتْ[٢٢] عَلَيْكُمُ ٱلْغَارَاتُ[٢٣]، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَوْطَانُ. وَهٰذَا أَخُو غَامِدٍ وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ ٱلْأَنْبَارَ[٢٤]، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ ٱلْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ

مَسَالِحِهَا[٢٥]، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلى ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُسْلِمَةِ، وَٱلأُخْرَىٰ الْمُعَاهَدَةِ[٢٦]، فَيَنْتَزِعُ[٢٧] حِجْلَهَا[٢٨] وَقُلْبَهَا[٢٩] وَقلَائِدَهَا[٣٠] وَرُعُثَهَا[٣١]، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاَّ بِالاِسْتِرْجَاعِ[٣٢] وَالاِسْتِرْحَامِ[٣٣]. ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا وَافِرِينَ[٣٤] مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ[٣٥]، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ[٣٦]؛ فَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً[٣٨]، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً؛ فَيَا عَجَباً! عَجَباً ـ وَٱللّهِ ـ يُمِيتُ ٱلْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ[٣٩] مِن ٱجْتِمَاعِ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً[٤٠]، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً[٤١] يُرْمَىٰ: يُغَارُ عَلَيْكُمْ[٤٢] وَلاَ تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ، وَيُعْصَىٰ ٱللّهُ وَتَرْضَوْنَ! فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ ٱلْحَرِّ قُلْتُمْ: هٰذِهِ حَمَارَّةُ ٱلْقَيْظِ[٤٣]، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا ٱلْحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ: هٰذِهِ صَبَارَّةُ ٱلْقُرِّ[٤٥]، أَمْهِلْنَا[٤٦] يَنْسَلِخْ[٤٧] عَنَّا ٱلْبَرْدُ، كُلُّ هٰذَا فِرَاراً مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْقُرِّ، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْقُرِّ تَفِرُّونَ؛ فَأَنْتُمْ وَٱللّهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ!.

البـرم بالنـاس

يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ[٤٨] ٱلأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ[٤٩]، لَوَدِدْتُ[٥٠] أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً ـ وَٱللّهِ ـ جَرَّتْ[٥١] نَدَماً، وَأَعْقَبَتْ سَدَماً[٥٢]. قَاتَلَكُمُ ٱللّهُ! لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً[٥٣]، وَشَحَنْتُمْ[٥٤] صَدْرِي غَيْظاً[٥٥]، وَجَرَّعْتُمُونِي[٥٦] نُغَبَ[٥٧] التَّهْمَامِ[٥٨] أَنْفَاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِٱلعِصْيَانِ[٥٩] وَٱلْخِذْلَانِ[٦٠]؛ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَلٰكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِٱلْحَرْبِ.

لِلّهِ أَبُوهُمْ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً[٦١]، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي!

لَقَدْ نَهَضْتُ(٦٢) فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَهَأَنَذَا قَدْ ذَرَّفْتُ(٦٣) عَلَى السِّتِّينَ! وَلَكِنْ لاَ رَأْيَ لِمَنْ لاَ يُطَاعُ!.

اللغة

١ ـ الخاصة : جمعها خواص ضد العامة، المقربون والذين تخصهم بنفسك.
٢ ـ الدرع : مؤنث سماعي.
٣ ـ الحصينة : المنيعة.
٤ ـ الجُنة : بالضم كل ما اشترت به ووقى.
٥ ـ رغب عنه : زهداً فيه، وأعرض عنه ورغب فيه أراده وأحبه.
٦ ـ الذل : الهوان.
٧ ـ شمله : لفه وغطاه.
٨ ـ البلاء : الغّم.
٩ ـ ديث : ذلّل.
١٠ ـ الصغار : الذل والضيم.
١١ ـ القماءة : الذل والصغار.
١٢ ـ الإسهاب : ذهاب العقل، أو كثرة الكلام.
١٣ ـ أديل : من الإدالة وهي الغلبة.
١٤ ـ تضييع : من ضيّع الشيء إذا أهمله/ أو أهلكه وفقده.
١٥ ـ سيم : من سامه خسفاً أي كلفه وأولاه.
١٦ ـ الخسف : الذل والمشقة.
١٧ ـ النصف : الانصاف والعدل.
١٨ ـ الغزو : قصد الآخرين بالحرب وسلب الأموال.
١٩ ـ عقر الدار : وسطها وأصلها.
٢٠ ـ فتواكلتم : يكل كل واحد منكم الأمر إلى صاحبه.
٢١ ـ تخاذلتم : خذل بعضكم بعضاً والخذل هو ترك النصرة والإعانة.
٢٢ ـ شنت : من شن الماء إذا صبه متفرقاً وشن عليهم الغارة إذا وجهها نحوهم من كل جهة.
٢٣ ـ الغارات : مفردها غارة، النهب، الخيل المسرعة المغيرة، هجوم الخيل من كل جهة.

٢٤ ـ الأنبار : بلد في العراق على الجانب الشرقي من الفرات.
٢٥ ـ مسالحها : المسالح جمع مسلحة الثغر والحدود.
٢٦ ـ المعاهدة : الذمية.
٢٧ ـ ينتزع : من نزع بمعنى اقتلع.
٢٨ ـ الحجل : الخلخال.
٢٩ ـ وقُلبها : جمع قُلْب، السوار.
٣٠ ـ قلائدها : مفردها قلادة ما جعل في العنق من الحلي.
٣١ ـ رُعُثها : بضم الراء والعين جمع رعاث القرط.
٣٢ ـ الاسترجاع : قول إنا لله وإنا إليه راجعون.
٣٣ ـ والاسترحام : طلب الرحمة أو مناشدته بالرحم.
٣٤ ـ وافرين : الوافر التام.
٣٥ ـ الكلم : الجرح.
٣٦ ـ أريق الدم : صبّه وسفكه وقولهم أراق دمه كناية عن أنه قتله.
٣٧ ـ الأسف : التحسر.
٣٨ ـ الملوم : من اللوم وهو العذل، وهو المواجهة بكلام لأتيانه بما لا يناسبه..
٣٩ ـ الهَم : جمع هموم، الحزن.
٤٠ ـ الترح : ضد الفرح، الحزن.
٤١ ـ الغرض : الهدف.
٤٢ ـ يغار عليكم : تُغزون، تشن عليكم الغارة.
٤٣ ـ حمارة الغيظ : شدة حره.
٤٤ ـ يسبّخ عنا الحر : يخفف عنا الحر.
٤٥ ـ صبارة القر : شدّة البرد والقر بضم القاف البرد.
٤٦ ـ أمهلنا : اصطبر علينا، انتظرنا.
٤٧ ـ ينسلخ : يذهب، وينكشف وسلخ الخروف إذا كشط جلده.
٤٨ ـ الحلوم : مفرده حلم، ضد الطيش، العقل...
٤٩ ـ ربات الحجال : النساء والحجال جمع حجلة بيت يزين بالستور والثياب والأسّرة.
٥٠ ـ وددت : تمنيت، وأحببت.
٥١ ـ جرّت : من جر الشيء إذا جذبه.
٥٢ ـ السدم : الحزن.
٥٣ ـ القيح : الصديد الذي يكون في القرحة.
٥٤ ـ شحنتم : ملأتم والشحناء، العداوة.

٥٥ ـ الغيظ : الغضب أو شدته.
٥٦ ـ جرعتموني : من جرع بمعنى ابتلع وجرّعه الماء أبلعه إياه جرعة بعد جرعة.
٥٧ ـ النغب : الجرعة.
٥٨ ـ التهمام : الهم.
٥٩ ـ العصيان : ترك الطاعة وعدم الانقياد.
٦٠ ـ الخذلان : عدم النصرة.
٦١ ـ المراس : الممارسة.
٦٢ ـ نهضت : من نهض بالأمر إذا قام به.
٦٣ ـ ذرّفت : زدت.

الشرح

(أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة) هذه الخطبة الشريفة كانت بعد الانصراف من واقعة صفين وقد بعث معاوية بجنده ورجاله يغزون أطراف البلاد الخاضعة لسلطة الإمام ويرهبونهم وقد وجه من جملة من وجه سفيان بن عوف الغامدي ومعه ستة آلاف مقاتل وأمره أن يلزم جانب الفرات ويمر على هيت والأنبار ويتوغل إلى المدائن وأعلمه أن غارته هذه كغارته على الكوفة وقال له: يا سفيان إن هذه الغارات على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وأخرب كل ما مررت به من القرى وأحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب..

وخرج سفيان ونفذ ما أمره به أستاذه معاوية فأغار على هيت فلم يجد فيها أحداً لأن أهلها عرفوا بغارته عليهم فتركوها وهربوا..

ثم أكمل سيره إلى الأنبار وكان عليها من قبل الإمام أشرس بن حسان البكري وقد عرف بقدومهم فعبأ أصحابه وكانوا فيما يقرب الخمسماية وعرف الأشرس وأصحابه أنهم لا طاقة لهم بهم ولكنه أراد الجهاد والمواجهة فقرر الأشرس ونصف أصحابه قتالهم فخرج إليهم وهو يقرأ: **«فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً»** ثم قال لأصحابه: من كان لا يريد لقاء الله ولا يطيب نفساً بالموت فليخرج عن القرية ما دمنا نقاتلهم فإن قتالنا إياهم شاغلٍ لهم عن طلب هارب ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار ثم نزل في ثلاثين رجلاً وقاتلوا حتى قتلوا وهرب الباقون...

وبعد هذا الحدث قدم علج من أهل الأنبار على الإمام فأخبره الخبر فصعد المنبر وقال:

إن أخاكم البكري قد أصيب بالأنبار وهو معتز لا يخاف ما كان واختار ما عند الله على الدنيا فانتدبوا إليهم حتى تلاقوهم فإن أصبتم منهم طرفاً أنكلتموهم عن العراق أبداً ما بقوا. ثم سكت عنهم رجاء أن يجيبوه أو يتكلم منهم متكلم فلم ينبس أحد منهم بكلمة.

فلما رأى صمتهم نزل وخرج يمشي راجلاً حتى أتى النخيلة والناس يمشون خلفه حتى أحاط به قوم من أشرافهم فقالوا: إرجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك فقال: ما تكفونني ولا تكفون أنفسكم فلم يزالوا به حتى رجع..

ثم وجه سعيد بن قيس في ثمانية آلاف وراء سفيان بن عوف الغامدي وبقي الإمام في حزن حتى عاد سعيد وكان الإمام في مرض فجلس بباب السدة التي تصل إلى المسجد ومعه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ودعا سعداً مولاه فدفع إليه كتاباً يقرأه على الناس، فكان هذه الخطبة.. وهذه الخطبة روعة في البيان.. سلسة على اللسان.. عذبة الألفاظ، فيها لذة ونخوة واندفاع حتى إنها انتخبت في الأدب العربي لتدريس الطلاب لجمالها وقوة بيانها...

وذكر الإمام إن الجهاد باب من أبواب الجنة ترغيباً للناس وبياناً للحقيقة وإذا كان من أبواب الجنة فعلى الراغبين فيها أن يدخلوا منه وأن يلجوا إليها عن هذا الطريق...

الجهاد باب من أبواب الجنة ولكنه لم يفتح لكل الناس ولن يفتح إلا لفئة واحدة.. إنها فئة المجاهدين.. فئة المناضلين والمدافعين عن شرف الإسلام وعزته ورفعته وسمو منزلته... باب مغلق في وجه الناس ويفتحه المجاهد بدمه وجراحه.. بسيفه ورمحه وسنانه.. بالكلمة المحقة في وجه الباطل الذي يعربد وينتفخ.. الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه.. لأناس اختصوا بالله وباعوا أنفسهم منه فكان الله لهم... إنهم خواص الله وأحباؤه الذين نظروا إليه فعشقوا المسير نحو كرامته...

ثم وصف الجهاد بأنه لباس التقوى فمن كان تقياً كان مجاهداً. ومن كان مع الله كان مجاهداً. وهنا يظهر زيف المقولة التي رسمها لنا الاستعمار وتقبلها بعض البسطاء من أبناء الأمة.. المقولة التي تقول إن القتال يتنافى مع التقوى ولا يجتمع معها.. فليسمع البسطاء كيف يرد الإمام على أصحاب هذه المقولة وكيف يعري أقوالهم عن

الصحة وينسب الجهاد إلى التقوى ويجعله لباساً لها . . .

ثم يصفه بأنه درع الله الحصينة . . الجهاد هي الدرع الواقي من الخطيئة . . التي تحصّن الإنسان من الوقوع في الحرام وتحصنه بعقيدته فيبقى مؤمناً تقياً عزيزاً كريماً . . .

الجهاد يحصّن الأمة من الوقوع بين براثن الأعداء، ويجعل لأبنائها العزة والكبرياء بجعل الإسلام عزيزاً وأبناءه أعزاء أقوياء . . .

كما وصفه بأنه جنة الله الوثيقة فبه تحفظ النفوس والكرامات والأرض والأموال . . به تحكم الأمور وتوثق فلا تزال الأمة تُرهب وتتقى وفي حفظ ومهابة طالما بقي الجهاد قائماً، وإن شواهد التاريخ حاضرة فعندما كان الجهاد شعار هذه الأمة كان النصر حليفها والعز لا يفارقها والفتوحات أمامها ولكنها عندما تركت الجهاد أصيبت بالهوان والذل وتسلطت عليها أضعف الأمم وأحقرها وهانت حتى ذلت ولم يعد لها في حساب الأمم حساب ولم يبق لها دور يذكر . .

جولة سريعة في الجهاد :

الجهاد في الإسلام «هو القتال من أجل إعلاء كلمة الله» بهذا التعريف يمكن أن نحدد مفهوم الجهاد وأبعاده وخلفياته وما يراد منه . . وهو من أهم الواجبات التي حضّ الشارع عليها . . إنه القتال من أجل الله ومن أجل عباد الله . . من أجل أن ترتفع كلمة الله عالية في الأرض، من أجل أن يتحرر الإنسان من ظلم أخيه الإنسان واضطهاده . .

الجهاد في الكتاب :

شرّع الله الجهاد في كتابه وذكره في آيات عديدة وحض عليه المؤمنين ودفعهم نحوه . . .

قال تعالى :

﴿كتب عليكم القتال[1] وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ .

وقال تعالى : **﴿وقاتلوا في سبيل[2] الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾** .

(١ ـ ٢) سورة البقرة، آية/ ٢١٦ ـ ١٩٠ .

وقال تعالى: ﴿**يا أيها النبي جاهد**[١] **الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير**﴾.

وهذه عينات من آيات كثيرة . . .

الجهاد في السنة:

لا نريد أن نذكر كل ما جاء في هذا وما فصّله رسول الله والأئمة ولكن أيضاً هذه عينات من تلك النفحات الكريمة . . .

١ ـ قال رسول الله (ص): فوق كل ذي بر بر حتى يقتل في سبيل الله فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه بر.

٢ ـ قال رسول الله (ص): الخير كله في السيف وتحت السيف وفي ظل السيف.

٣ ـ قال الصادق عليه السلام: قال رسول الله (ص): للجنة باب يقال له باب المجاهدين يمضون إليه فإذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم والجمع في الموقف والملائكة ترحب بهم قال: فمن ترك الجهاد ألبسه الله ذلاً وفقراً في معيشته ومحقاً في دينه، إن الله أغنى (أعز) أمتي بسنابك خيلها ومراكز رماحها. .

غاية الجهاد:

الجهاد في الإسلام لا يعني بوجه من الوجوه السيطرة على الناس واستعبادهم، بل هو من أجل دحر الطواغيت المتسلطين على رقاب الناس الذين يفرضون سلطانهم عليهم ويمارسون الظلم والقهر، ولذا عندما يتحرر الإنسان وينطق بكلمة الإسلام يصبح في عداد المسلمين له ما لهم وعليه وما عليهم ولا يجوز التعدي عليه بأي شكل بل يحفظ دمه وماله وعرضه . . .

وليس القتال من أجل المال والغنيمة فإن المسلم المجاهد أبعد ما يكون عن هذا المتاع الحقير.

وليس القتال من أجل أمر من أمور الدنيا ورسول الله في جواب الأعرابي الذي سأله: الرجل يقاتل للغنيمة والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل

---

(١) سورة التوبة، آية/ ٧٣.

الله؟ فيقول النبي مجيباً: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله . . .

إذن القتال من أجل الله ومن أجل الإسلام هو الهدف الأعلى للمجاهد المسلم.

الجهاد على أقسام:

١ ـ جهاد المشركين ابتداء لدعوتهم إلى الإسلام المعبر عنه «الجهاد الابتدائي».
٢ ـ جهاد من يريد غزو المسلمين وقتالهم وسلب مالهم والاستيلاء على أرضهم وهو المعبر عنه (بالدفاع).
٣ ـ جهاد من يريد قتل نفس محترمة.
٤ ـ جهاد البغاة على الإمام وهم الخارجون عن سلطان الإمام العادل.

جهاد المشركين ابتداء:

يجب نشر الإسلام وإيصاله إلى كل الناس بحيث لا يبقى فرد إلا والدعوة الإسلامية قد وصلته وبما أن الطواغيت يبسطون سلطانهم على الضعفاء فلا يمكن أن يتم إيصال الدعوة إليهم إلا بدحر الطواغيت وإزالة عروشهم الظالمة ومن هنا يدفع الإسلام بالمسلمين إلى أن يحطموا الأسوار المضروبة على الإنسان المستضعف بإزالة الحكم الكافر الذي يقف سداً بين الدعوة وبينه ويتعين على المسلمين أن يشنوا الحرب لإزالة هذا الحكم الكافر ولكن قبل البدء يجب أن يتوجه الدعاة إلى إيضاح الإسلام وبيان وشرح أحكامه وخصوصياته فإذا رفضت الحكومة الظالمة أن تذعن لحكم الله وإرادته عندها تشن الحرب عليها. .

وهذه الحرب هدفها الأول والأخير أن تجعل الناس مسلمين يدينون لله في كل أمر ونهي ويجب تنفيذها متى رأى الإمام المصلحة في شنها عليهم بدون تحديد لعددها وكم مرة يجب أن تُشن في السنة.

ويشترط لإقامة الجهاد الابتدائي أمور:

١ ـ أن يكون الإمام موجوداً أو نائبه الخاص وهو المنصوب للجهاد وبعض الفقهاء لا يشترط وجود الإمام بل يكتفي برأي الفقيه في غياب حضرته الشريفة.
٢ ـ احتمال النصر في المعركة.

٣ ـ أن يسبق المعركة تعريف الإسلام للأعداء حتى إذا رفضوه قامت الحجة عليهم وجاز قتالهم.

ويجب هذا الجهاد على عامة المكلفين وجوباً كفائياً فتوفر الأمة من يقوم بهذه الفريضة وإذا توانت أو تأخرت عصت وأثمت.

شروط المجاهد:

يجب أن تجتمع في المجاهد شروط عدة فإذا تمت فيه وجب عليه أن ينضم إلى جهاد الفتح ـ الجهاد الابتدائي ـ وهذه الشروط هي:

١ ـ البلوغ.
٢ ـ العقل.
٣ ـ الحرية فلا يجب على العبد.
٤ ـ البصر فلا يجب على الأعمىٰ.
٥ ـ السلامة من المرض.
٦ ـ عدم العرج البالغ حد الإقعاد.
٧ ـ عدم الفقر فلو كان فقيراً لا يملك نفقته ونفقة عياله فلا يجب.
٨ ـ الرجولة فلا جهاد على المرأة.

الجهاد الدفاعي:

وهو فيما لو هدّد الكفار بلاد المسلمين وخيف من أن يكون هجومهم موجباً لمحق الدين وإذلال المسلمين ففي مثل ذلك تسقط جميع الشروط فيجب عندها على كل قادر أن يدفع عن بلاد المسلمين، الصغير والكبير، الذكر والأنثى البالغ وغير البالغ، الأعمى والبصير، العبد والحر..

الدفاع عن النفس:

إذا هددك أحد بالقتل وأراد أن ينفذ ذلك وجب عليك أن تدفعه عن نفسك وإن أدى إلى قتله..

جهاد البغاة:

وهم الخارجون على حكم الإمام الذين يريدون أن يزرعوا الرعب في قلوب المسلمين وهؤلاء يجب قتالهم حتى يعودوا إلى طاعة الإمام ومن هذا القبيل كان قتال الإمام علي لأهل الجمل وصفين...

(فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء) بعد أن وصف الجهاد بالصفات الإيجابية ذكر الصفات السلبية والتبعات التي تلحق من يتخلف عنه ويزهد فيه وفي هذا الكلام ترغيب فيه وترهيب عن التخلف عنه فمن ترك الجهاد ألبسه الله ثوب الذل بحيث يصبح الذل ملازماً له شاملاً لبدنه وقد أحاط به الغم والهم ومن كان بهذه الصفات كان موته خيراً من حياته . . .

(وديّث بالصغار والقماءة) استولى عليه الأعداء وذللوه ذلة أصبح معها صغيراً حقيراً تمارس عليه ألوان الظلم والقهر والاضطهاد.

(وضرب على قلبه بالإسهاب) أصيب من جراء ترك الجهاد بعجز عن تدبير أموره وصعب عليه الخلاص عما يحيط به لأن نتيجة ترك الجهاد أن يستولي الأعداء عليه.

ومن كانت نتيجته هذا أصيب بشلل فكري وعجز عن حلول ما يصيبه من مشاكل . . .

أو يراد أصيب بكثرة الكلام لما يصيبه من الخوف والفزع من جراء الغارات عليه.

(وأديل الحق منه بتضييع الجهاد) من ضيّع الجهاد ولم يقم به اقتص الحق منه بأن أصيب بالذل والحقارة . .

(وسيم الخسف ومنع النصف) ناله الذل والهوان وامتنع أحد عن نصره وإعطائه حقه أما ظالمه وعدوه فلن يعطيه حقه لأنه هو الظالم والمعتدي ولم نر ظالماً أعطى مظلومه حقه وأما غيره فلان من كان مقصراً في حق نفسه ولم ينتصر لها فغيره أشد تقصيراً في الانتصار له والاندفاع من أجله . .

(ألا وأنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً) أخذ الإمام على نفسه قتال البغاة وكان يصيح في وجوه أتباعه ويصرخ باستمرار لقتالهم وكان يحضهم على الدوام أن ينهضوا فإن في مواجهتهم أجر وثواب وعز وقوة وفي هذا المقام لوم لهم واعتذار له وإنه لم يقصر في دعوتهم إلى القتال فقد دعاهم في جميع الحالات وعيّن لهم الأعداء.

(وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلاّ ذلوا) هذه مقولة الإمام يقولها لأهل العراق وصيحته التي صمّت الآذان ولكنها لم تؤثر بهم أو تهز عضواً من أعضائهم كان يقول لهم اغزوهم فإن الحق معكم ولكم . . حرروا الأوطان والمقدسات وردّوا العصاة إلى حظيرة الطاعة والإيمان . . ليكن غزوكم لهم قبل أن

تدفعهم الجرأة إلى غزوكم والنيل من أطرافكم ويعلل الإمام سبب أمرهم بالغزو وابتدائهم به بأنه ما غزي قوم في أصل دارهم ومقرهم إلا ذلوا، فإن الأمر الطبيعي إن الذي يتقدم من العدو ويدخل عليه هو الذي يمتلك القوة المادية والمعنوية ويعتد بنفسه للإقدام والغزو. . ومضافاً إلى هذا أن المغزو يتضعضع حاله وتتشتت أفكاره ويدخل عليه وعلى أهله وابنائه وذريته الوهن والضعف ويأخذه الهم والغم الذي تسقط به معنوياته وبالتالي ينهزم نفسياً ويكون هذا ابتداء الفشل وأول الهزيمة. .

(فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنّت عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان) إن صيحات الإمام كانت تقابل من أهل العراق بالاتكالية، فكل واحد يدفع الأمر عن نفسه ويكله إلى غيره. . هذا يقول غيري يقوم بالجهاد، وذاك يبادله الرأي وهكذا كان كل واحد يدفع الأمر عن نفسه ولا ينصر أحدهم الآخر ويندفعوا جميعاً إلى القتال وقد بقوا في اتكالية وانهزامية وتسويف وتأخير حتى وجّه معاوية جنده إلى غزوهم فكان يبعث بالسرايا لغزو البلاد الخاضعة لسلطة الإمام بل ملكت عليهم الأوطان فلم يستطيعوا الخروج من أماكنهم لأن معاوية أخذ في احتلال البلاد وغزوها والتسلط عليها وهم لا يدرون متى تمر الغارة ومتى تجيء فيخافون مفاجأتها لهم. .

(وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها) يذكر الإمام ما جاءه من الأخبار وهي نتيجة سكوتهم وعدم إقدامهم على حرب معاوية فإن سفيان بن عوف الغامدي الذي وجهه معاوية في ستة آلاف مقاتل للغزو والإرهاب قد دخل الأنبار التي يتولى عليها من قبل الإمام حسان بن حسان البكري وكانت معركة استشهد فيها حسان مع ثلاثين من أتباعه ثم ذكر كيف أزال خيل أهل العراق عن حدودهم ودفعهم عنها واستولى عليها. .

(ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعثها) ثم أشار إلى ما وصله من الأنباء وما نقله إليه الراؤن وكيف كان فعل سرايا معاوية التي كان يبعثها لغزو أطراف مملكة الإمام. . صورة بشعة يتنكر لها الإسلام ويبرأ من فاعلها والآمر بها. . .

كان يدخل الرجل من جند معاوية على المرأة المسلمة والأخرى الذمية لا يمنعه حياء ولا يحجزه دين، يدخل فينتزع خلخالها من رجلها الذي لا يظهر إلا لزوجها وسوارها الذي في يدها وقلائدها التي تعلقها في رقبتها وأقراط أذنيها. . فلا يرعون حرمة ولا يحفظون عفة. .

(ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلم ولا أريق لهم دم) أراد توبيخهم والطعن فيهم بأنهم لو كانوا رجالاً لدفعوا ودافعوا عنها ولكنها لا تملك قوة فكانت تسترجع تقول كما يقول المصاب «إنا لله وإنا إليه راجعون» وتطلب منهم الرحمة لضعفها وجبروتهم، لقد أخذوا ما وقع تحت أيديهم وغنموا ما لاقوه ثم عادوا إلى بلادهم محمّلين موفورين لم يصب أحد منهم بجرح ولم يسقط لهم قتيل.. صورة للفظاظة والقسوة التي مارسها جيش معاوية يقابلها صورة أخرى للمستضعف الذي لا ناصر له ولا معين..

(فلو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً..) أراد استنهاض هممهم ودفعهم للثأر ورد الضربة بأن هذا الأمر الذي حدث لشدته وقوة وقعه لو مات المسلم حسرة وأسى من بعده لكان معذوراً بل ترقى ليقول إن الموت بعده حقيق وأهل أن يموت الإنسان بعد هذا الحادث المؤلم الممضّ..

(فيا عجباً! عجباً والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم) فيا عجباً يثير عجباً إنه العجب والله الذي يميت القلب لا يدعه حياً نابضاً متحركاً ويجلب الهم والغم والحزن والذي يعمل كل ذلك هو اجتماع معاوية وقومه وائتلافهم على باطلهم الذي هم فيه حيث أنهم بغاة خارجون على الحكم الشرعي، وتفرقكم وتشتتكم عن حقكم فلكم الحق ومعكم الحق ومع هذا في تشتت وفرقة وعدم وحدة كلمة أو موقف أو رأي...

(فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمى) دعا عليهم بالسوء والحزن والهم والغم يصيبهم عندما تحولوا إلى هدف يرميه معاوية ويقصده في غزوه وغاراته..

(يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون ويعصى الله وترضون) وهل هناك أقسى على القلب من أن يغير معاوية وجنده عليهم وهم لا يردون غارة أو يقابلونها بغارة مثلها تنزل بالأعداء الإساءة، ويتوجه معاوية وجنده بغزوهم وأخذ أموالهم وهم لا يغزونهم ولا يردون غزوهم وكذلك يعصى الله عندما يشن معاوية غاراته ولا يدفعونها بل يرضون بها بسكوتهم عنها وعدم ردها بالقوة والقهر..

(فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: هذه حمّارة القيظ أمهلنا يسبّخ عنا الحر وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبارة القرّ أمهلنا ينسلخ عنا البرد كل هذا فراراً من الحر والقر فإذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم والله من السيف أفر) هكذا كانت حالة الإمام مع أهل العراق صورة ينقلها الإمام بدقة ويحكي واقعهم بل يحكي

كلامهم.. بألفاظه.. صورة المعاناة والألم من هذا الشعب...

المفارقة الواضحة بين قائد يريد أن ينتزع لهم النصر ويوفر لهم العزة وبين شعب يتعلل بالحر وشدته تارة وبالبرد وقساوته أخرى...

إذا قال لهم سيروا لقتال أعدائكم في أيام الصيف قالوا وبصوت واحد هذا أوان الحر وشدته إنتظرنا حتى يخف الحر ويعتدل المناخ ويبرد الجو وإذا أمرهم في أيام الشتاء تعللوا بأن هذا أوان شدة البرد أمهلنا وأخرنا حتى يذهب عنا البرد وهكذا بين الحر والبرد تركوا الجهاد وعطلوه ومنعوا أنفسهم أجره وثوابه وبالتالي إذا كانوا من الحر والقر يفرون ومنهما يهربون فهم من ملاقاة حرّ السيف ووقعه أشد فراراً وأقوى هرباً... إنهم لا يفرون من الحر ولا القر وإنما يفرون من حر السيوف ووميضها...

أكتب هذه الكلمات في يوم الخميس الواقع في ١٦ كانون الثاني سنة ١٩٩١ ميلادية وأنا استمع إلى الراديو يذيع بيانات الحرب التي ابتدأت صباح هذا اليوم بين العراق وبين أمريكا خاصة ومتعددة الجنسيات بشكل عام...

فإن العرب والمسلمين يرون كيف يشن الأمريكيون والبريطانيون والفرنسيون والإيطاليون وغيرهم يشنون حربهم ضد العراق وشعبه وتخرج ألف وثلاثمائة طائرة دفعة واحدة في هجوم واحد على العراق.. وإنني استمع إلى بعض وكالات الأخبار الأجنبية تنقل أن ما ألقي على بغداد من المتفجرات يعادل ضعفي ما ألقي على هيروشيما اليابانية.. أستمع هذا وأتوجع وأتألم بل أبكي لهذا الشعب العراقي الذي يعاني من ظلم حكامه وظلم العالم له.. أقول إنني أسمع ما أسمع وأعيد إلى ذهني صورة الإمام وكلماته ومدى عذابه منهم ومعهم.. رفضوه ولم يطيعوه فكانت نتيجتهم أن أصيبوا بحكام لا يرحمون وبأعداء أيضاً لا يرحمون..

(يا أشباه الرجال ولا رجال حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال) وصف حالهم وواقع أمرهم فقد شبههم بالرجال شكلاً وهيئة ثم نفى عنهم الرجولة باعتبار أنهم فقدوا الغيرة والحمية والدفاع عن الكرامة والعزة.. ووصف أحلامهم بأحلام الأطفال حيث يقودهم عجزهم إلى تخيل ما لا يصح أو يدرك ووصف عقولهم بالعجز فعقول النساء والمرأة بطبعها أبعد ما تكون عن الحرب وإدارتها..

(لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة ـ والله ـ جرّت ندماً وأعقبت سدماً) تمنى الإمام أنه لم يرهم ولم يعرفهم لقبح أفعالهم وسوء تصرفاتهم فهو يرى سلوكهم ويعرف قلوبهم.. ثم قال إنها معرفة والله كنت أتمنى أن تدفع إلى راحة نفس وفرح

وسرور حينما يترقب انتصاره بهم ولكن معرفته بهم أدت إلى ندمه على هذه المعرفة وأتت له بالحزن والغم حيث كانت على خلاف ما يتوقع . .

(قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً) ثم دعا عليهم بالطرد عن رحمة الله والبعد عن كرامته ومقاتلة الله للعبد تعني أبعاده وطرده عن ساحة رحمته.

ثم ذكر تألمه وشدة تحسره بأنهم قد ملأوا قلبه قيحاً كناية عن المعاناة وبلوغ الألم منتهاه وكذلك ملأتم صدري غيظاً أي حقداً وغضباً عليكم لما فعلتم . .

(وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان) جعلتم أنفاسي هماً أتنفسه جرعة جرعة وأتناوله شيئاً فشيئاً فيكون موتاً بطيئاً قاسياً على النفس مؤلماً لها . . .

وأبطلتم عليّ ما أنا فيه من رأي صحيح سليم بعصيانكم وتمردكم ومخالفتكم لي . . وتخلفكم عني وعن أمري . .

(حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب) من جراء تمردهم عليه وعصيانهم له قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع لا يخاف الأعداء ولا يهاب الموت ولكنه لا خبرة له بالحرب ولا علم له بفنونها وتنظيمها وكيف يكتسب النصر ويحقق الفوز وذلك على سيرة من ينسب إلى القائد النصر أو الفشل ولكنهم لم يعرفوا أن قوم عليّ خالفوا علياً ولم يطيعوه فيما يرسم من خطط ويضع من ترتيبات فيظنون أن علياً هو الذي يفشل في الحرب . . إن الإمام كان يصر على قتال البغاة ولا يرى غير هذا رأياً، لا يقبل حلاً وسطاً ولا مفاوضات مستجدة بعد الأولى التي جرت، ولكن معاوية وعمرو بن العاص ومن معهما رفعوا المصاحف فخدعوا المغفلين والبسطاء من أتباع الإمام فأجبروه على وقف القتال وقد نهاهم عن ذلك وقال لهم إن معاوية وعمرو بن العاص وغيرهما ليس لهم دين ولا أخلاق فأبوا عليه ولجو حتى أجبروه على التحكيم ثم فرضوا عليه أبا موسى الأشعري مفاوضاً عنه حتى قال: «لقد جاؤني بأبي موسى الأشعري مبرنساً» وهكذا كان يرشدهم إلى طرق النصر ومسالك الفوز فكانوا يقابلونه بالرفض والتمرد والعصيان وهل بعد هذا تخفى على الإمام عوامل النصر ولا يعرف كيف يحقق الفوز . . .

لقد أدرك العالم وكل مفكر حر وباحث مدقق أن علياً لو كان يطاع لانتزع النصر العسكري من معاوية وأصحابه وقضى عليهم بمن معه ولكن تمرد أصحابه وعصيانهم له

كان السبب المباشر وراء كل إخفاق وفشل يتهم به الإمام. .

(لله أبوهم وهل أجد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني، لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وها أنذا قد ذرفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع) هذا رد على قريش وما تتهمه به من عدم علمه بالحرب وبيان لوجه الفشل الذي يترائى لهم أنه منه. . .

لله أبوهم مدح لهم لو كانوا يعرفون الحقيقة أو يتعرفون عليها مني فليأخذوها إن شاؤا صافية من معدنها واستفهمهم تنبيهاً لهم وتوبيخاً هل هناك من العرب من مارس الحرب ودخل في لهواتها مثل عليّ وهل هناك من هو أقدم بها منه، إنه قد قام بها وهو فتى لم يبلغ العشرين من عمره وهو الآن قد تجاوز الستين ومن كان طيلة هذه الفترة في الحرب عرف أسرارها وأدرك أسبابها ووقف على أبواب النصر وكيف ينتزع؛ وقد أدرك القريب والبعيد والمسلم والمشرك والولي والعدو كيف كان يسير النصر عندما يسير عليّ؟ وكيف تفتح أبواب الحصون المنيعة عندما يسمع أهلها بقدوم عليّ؟، وكيف يخاف الأبطال ويسقطون عند مواجهتهم لعلي؟. . وليذكر لنا التاريخ أن علياً فرّ في موقعة أو خاف من بطل أو جبن في حالة؟!. . نتحدى العالم بأن يأتوا بحادثة واحدة قد طرق الخوف فيها قلب علي؟. . .

فترة طويلة يسجل الإمام فيها أشرف صفحات العز والكرامة لا يخدش له موقف ولا يطعن له في رأي. . .

وبعد ذلك يبيّن سبب الفشل في الحرب وإدارتها وإن من لا يطاع فيما يرتئيه كأنه بدون رأي أو كان رأيهفاسداً لعدم الأخذ به وإن كان صحيحاً سليماً. . وهو سلام الله عليه كان يدخل في هذه الكبرى فلم يقبل رأيه فكأنه بدون رأي أو يجب أن لا يبدي رأيه إذا كان لا يطاع وهذا هو السبب الذي دعا قريشاً لاتهامه بعدم معرفته بالحرب وفنونها وأسباب انتزاع النصر من العدو. .

٢٨ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وهو فصل من الخطبة التي أولها «الحمد لله غير مقنوط من رحمته» وفيه أحد عشر تنبيهاً

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا أَدْبَرَتْ(١)، وَآذَنَتْ(٢) بِوَدَاعٍ(٣) وَإِنَّ ٱلآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ(٤) بِاطِّلَاعٍ(٥)، أَلَا وَإِنَّ ٱلْيَوْمَ المِضْمَارَ(٦)، وَغداً السِّبَاقَ(٧)، وَالسَّبَقَةُ(٨) ٱلْجَنَّةُ، وَٱلْغَايَةُ النَّارُ؛ أَفَلَا تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ(٩)! أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ(١٠)! أَلَا وَإِنَّكُمْ في أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ؛ فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ(١١) فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ، وَلَمْ يَضْرُرْهُ(١٢) أَجَلُهُ. وَمَنْ قَصَّرَ(١٣) في أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجلِهِ، فَقَدْ خَسِرَ(١٤) عَمَلَهُ، وَضَرَّهُ أَجَلُهُ. أَلَا فَٱعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ(١٥) كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ(١٦)، أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَٱلْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ ٱلْحَقُّ يَضُرُّهُ البَاطِلُ، وَمَنْ لا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَىٰ، يَجُرُّ(١٧) بِهِ الضَّلَالُ إِلَىٰ الرَّدَىٰ(١٨). أَلَا وَإِنَّكُمْ قد أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ(١٩)، وَدُلِلْتُمْ عَلى الزَّادِ(٢٠)، وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ ٱثْنَتَانِ: ٱتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ ٱلأَمَلِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ(٢١) بِهِ أَنْفُسَكُمْ غداً.

قال السيد الشريف ـ رضي الله عنه ـ وأقول: إنَّهُ لو كان كلامٌ يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا، ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار، ومِنْ أعجبه قوله عليه السلام: «ألا وَإنّ اليَوْمَ المِضْمَارَ وَغداً السِّبَاقَ، وَالسَّبَقَةُ الجَنّة وَالغَايَة النّار» فإن فيه ـ مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل،

وواقع التشبيه ـ سرّاً عجيباً، ومعنى لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: «والسّبَقَة الجَنّة، وَالغَايَة النّار» فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين، ولم يقل: «السّبَقَة النّار» كما قال: «السّبَقَة الجَنّة»؛ لأن الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوبٍ، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنة وليس هذا المعنى موجوداً في النار، نعوذ بالله منها! فلم يجز أن يقول: «والسّبَقَة النّار» بل قال: «والغَايَة النّار»: لأن الغاية قد ينتهي إليها من لا يسره الانتهاء إليها، ومن يسره ذلك، فصَلح أن يعبر بها عن الأمرين معاً، فهي في هذا الموضع كالمصير والمآل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَعُوا فَإِنّ مَصِيرَكُمْ إلى النّارِ﴾ ولا يجوز في هذا الموضع أن يقال: سبقتكم ـ بسكون الباء ـ إلى النار، فتأمل ذلك، فباطنه عجيب، وغوره بعيد لطيف. وكذلك أكثر كلامه عليه السلام. وفي بعض النسخ: وقد جاء في رواية أخرى «والسّبْقَة الجنة» ـ بضم السين» والسّبقة عندهم: اسم لما يجعل للسابق إذا سبق من مال أو عرض؛ والمعنيان متقاربان، لأن ذلك لا يكون جزاءً على فعل الأمر المذموم وإنما يكون جزاءً على فعل الأمر المحمود.

اللغة

١ ـ أدبرت	:	تصرمت ومضت.
٢ ـ آذنت	:	أعلمت.
٣ ـ الوداع	:	من المسافر تركه لأهله خافضين ومن الناس تشيعهم له والدعاء له...
٤ ـ أشرفت	:	من أشرف على الشيء إذا طلع عليه من فوق.
٥ ـ الاطلاع	:	يقال أشرفت باطلاع أي أقبلت علينا بغتة.
٦ ـ المضمار	:	المكان أو الزمان الذي تضمر فيه الخيل للمسابقة والتضمير إحداث الضمور وقلة اللحم.
٧ ـ السباق	:	سباق الخيل إجراؤها في مضمار تتسابق فيه.
٨ ـ السبقة	:	الغاية التي يتسابق عليها.
٩ ـ المنية	:	الموت.
١٠ ـ البؤس	:	الشقاء، الشدة.
١١ ـ أجل	:	الموت، الوقت المحدود.
١٢ ـ يضره	:	من الضرر ضد النفع، الشدة والضيق وسوء الحال.
١٣ ـ قصّر	:	في الأمر توانى فيه.
١٤ ـ خسر	:	ضد ربح، ضل وهلك.

١٥ ـ الرغبة : فيه إرادته ومحبته.
١٦ ـ الرهبة : من رهب على وزن علم خاف.
١٧ ـ يجر : به يجذبه ويسحبه.
١٨ ـ الردى : الهلاك.
١٩ ـ الظعن : الرحيل.
٢٠ ـ الزاد : جمعه أزودة وأزواد ما يتخذ من الطعام للسفر.
٢١ ـ تحرزون : تحفظون.

الشرح

(أما بعد فإن الدنيا أدبرت وآذنت بوداع وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع) حديث الدنيا حديث ذو شجون نعت إلينا نفسها منذ دخلنا فيها وصرنا من أبنائها ومن أول يوم يولد فيه الإنسان يبتدأ بهدم عمره ويتحرك نحو الآخرة فهو يمشي وكلما مشى خلّفها وراء ظهره وتركها وهكذا تغيب عنا وتبتعد إنها أعلمتنا أننا في مرحلة وداع لها لا لقاء بعده.. يودّعها الانسان وهو محزون عليها متأسف على ما فاته منها وهو العارف بحقيقتها وإنه لم يخلق لها...

وأما الآخرة فقد أقبلت لأن الإنسان يسير نحوها ومن سار نحو هدف وصل إليه والإنسان يقطع أيام عمره ودورة الفلك تجري شاء أم أبى وسيصل إلى نهاية العمر في الدنيا ويصل إلى الآخرة لقد ظهرت طلائعها وستتبيّن الأعمال التي قام بها هذا الإنسان...

(ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق والسبقة الجنة والغاية النار) في هذه الدنيا يكون الاستعداد للآخرة فمن تنّبه إلى مخاطر الدنيا إذا تعلّق بها وتمسك بمتاعها خرج منها وهو خفيف الظهر وهذا بعكس المثقل الذي حمل من أوزار الدنيا وآثامها فإن الأول مصيره إلى الجنة بينما الثاني مصيره إلى النار...

الدنيا حلبة سباق يتبارى عليها الناس فهذا يعرفها ويعرف آثارها وخطرها فيسلك مسالك الأبرار والأخيار ويأخذ طريق الشرفاء ويكون نظره إلى الجنة يسعى إليها ويبذل قصاراه من أجلها بينما ذاك جهلها أو غفل عنها فغرته بمفاتنها وتزّينت له فاستهوته فسار خلفها وأرادها وطلب ودّها فأردته وأوصلته إلى النار...

الدنيا ساحة على ثراها يتسابق الناس وغداً يوم القيامة تكون النتيجة فأما إلى الجنة وأما إلى النار وبيد هذا الإنسان يكون الخيار وهو يرسم نتيجته التي يريدها . .

(أفلا تائب من خطيئته قبل منيته) هذا أول النجاح وبدء الفلاح أن يضع الإنسان قدميه على الطريق الصحيح وهذا لا يكون إلا بأن يبتدأ بالتوبة عن كل ذنب إرتكبه . . .

التوبة هي المدخل الصحيح لبدء العمل الناجح . . . أن تندم على سيئاتك وتعود إلى ربك وتصحح مسارك . . التوبة قبل الموت . . وأنت صحيح، قوي، قادر نشيط، وأنت في كمال عقلك وتمام قوتك ومع ذلك تبكي على خطيئتك وتعود لربك . . التوبة هي المفتاح الذي يفتح أمامك أبواب الرحمة والعطف وتوصلك إلى المقام الكريم . . فهل من تائب عن ذنبه قبل الموت . .

(ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه) بعد أن ذكر التوبة أتبعها بالعمل الصالح من أجل نفسه . . من أجل سعادتها وكرامتها . . من أجل أن تعيش في رحمة الله ورضوانه قبل أن يأتي يوم الشقاء وقد فات أوان العمل ومضت أزمانه . .

(ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضرره أجله) حضّ عليه السلام الناس على العمل قبل حلول الموت فإن الإنسان يأمل بأمر ويستطيع أن يعمل له في دار الدنيا فمن عمل في أيام أمله ما يريده من الأعمال وهو قادر على ذلك قبل الموت لم يضره الموت لو جاءه لأنه ينقله من دار العمل والتعب إلى دار الجزاء والثواب وهناك يتلقى جزاء ما عمله وما قام به ولا يكون هذا الموت ضاراً له أو مؤثراً عليه . .

(ومن قصّر في أيَّامِ أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله) من قصر في دار الدنيا وتوانى عن العمل في أيام الأمل قبل أن يحضره الموت ثم جاءه الموت خسر العمل من حيث أنه لم يعمل وقت العمل وقد فات وقته الآن وضره الأجل أي ألحق به الضرر وهو العقاب لأن هذا الموت نقله إلى عالم صعب عجيب يحاسب المرء فيه على تقصيره وقلة عمله . . .

وبعبارة موجزة: من عمل في دار الدنيا وجاءه الموت لم يؤذيه شيء ومن لم يعمل وجاءه الأجل كان الموت مصيبة له حيث ينْقله إلى العذاب والهوان . .

الإيمان الصحيح:

(ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة) وهذه من قواعد الإيمان وأسسه

عليها يمكن الحكم بالإيمان الصحيح وبها توزن قوته وضعفه وقلقه واستقراره. . .

بعض الناس يعبدون الله حالة ضعفهم وفقرهم وبؤسهم وشقائهم. . عندما تشتد الأزمات عليهم وتحيط بهم يتوجهون إليه يستنجدون به ويستجيرون به. . ترتفع أصواتهم بالدعاء والنداء. . في حالة الفقر تراهم لا يقطعون جمعة ولا جماعة. ولا يفارقون تجمعات المؤمنين ومجالسهم ولكن عندما تأتيهم الدنيا وتقبل عليهم ويحسون بلذتها ويتذوقون طعمها يتنكرون للإيمان وتنطفيء جذوته في نفوسهم ولا يعودون يذكرون الله إلا قليلاً ـ عفواً ـ بل قد ينسون الله تماماً ويتنكرون لمجالسهم التي تربوا فيها وعاشوا في أكنافها. .

وفي زمن النبي حادثة وقصة مرت على رجل يسمى ثعلبة فيها عبرة للذين اغتنوا بعد فقر فبطروا وكفروا فأنزل الله فيه وفيهم آيات يتلوها الناس ويذكرون قصته. . .

ثعلبة بن حاطب كان من الأنصار ـ فقيراً ـ قال للنبي (ص) أدع الله أن يرزقني مالاً.

فقال له النبي (ص): يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه أما لك في رسول الله أسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك فقال له يا رسول الله: أدع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله لأعطين كل ذي حق حقه.

فقال النبي (ص): اللهم ارزق ثعلبة مالاً، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها ثم كثرت نمواً حتى تباعد عن المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة وبعث إليه رسول الله المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل وقال: ما هذه إلا أخت الجزية.

فقال رسول الله (ص): يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة فأنزل الله فيه قوله تعالى: **﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن[1] من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾**.

فالمسلم هو الذي يعبد الله في السراء والضراء وفي الشدة والرخاء. .

---

(١) سورة التوبة، آية/ ٧٥ ـ ٧٦.

(ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها) وهذا تصوير لحالة الناس وما يعيشون فيه، كلنا يطلب الجنة ويريدها ولكن ننام عنها ولا نسعى لها.. الجنة طريقها العمل الصالح.. الصلاة.. الصيام.. الحج.. إعانة المحتاجين.. سد عوزهم.. القيام بالواجبات ومع ذلك العلم والمعرفة بالطريق لا نمشي عليها ولا نسعى لها...

ونخاف النار.. نرتجف منها، نسأل الله أن لا نراها ولا ترانا ولكن مع ذلك لم نجعل الحواجز بيننا وبينها، لم نمنعها من الوصول إلينا.. إننا نهرب منها بلساننا ونقترب منها بأعمالنا وسلوكنا.. وهذا هو موضع العجب ومكانه تريد أمراً وتنام عنه وتخاف من أمر ولا تفر منه..

(ألا وأنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل) الحق يجب أن يتبع لأن فيه المصلحة العامة والخير والمنفعة لكل الناس.. القانون الشرعي هو الحق ولربما تنزلاً ومجاراة إنه لا ينفع بعض الأفراد فإن الباطل يضرهم قطعاً.. إذا كان العدل لا ينفعك شخصياً فالظلم إذا عم شملك وضرك..

(ومن لا يستقيم به الهدى يجر به الضلال إلى الردى) من لا تجعله آيات الله وبيناته مستقيماً عدلاً يبصر الحق ويهتدي إليه فالانحراف يدفعه إلى العمى والموت.. والهدى نور يضعك على مستقيم الصراط والضلال ظلام يجرك إلى الهلاك..

(ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد) أمرنا بالرحيل عن دار الدنيا والتوجه إلى الآخرة وكل راحل لا بد له من زاد يناسبه ويناسب رحلته لئلا يجوع ويتألم ويحتاج، وزاد الآخرة التقوى والعمل الصالح قال تعالى: **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقوني يا أولي الألباب...﴾** فقد أرشدنا الله إلى زاد الآخرة وما ينفع لها وقد تزود الأخيار والأبرار من أبناء الأمة بزاد ينفعهم ونسأل الله أن نقتدي بهم ونتزود كما تزودوا..

(وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى وطول الأمل).

إتباع الهوى وطول الأمل:

تخوف علينا من خصلتين سيئتين يمكن أن تكونا سبب شقائنا.

الأولى: اتباع الهوى وهوان يسير الإنسان وراء رغبته وما يحب دون أن يتبصر في

موافقة الشرع على ما يحب أو يكره وفي ذلك وقوع في المآثم والمعاصي وانحراف في السلوك والعمل. . .

الهوى يدفع الإنسان إلى معاداة الأولياء وصداقة الأشقياء وإذا استولى على نفس إنسان أضله ومنعه عن الحق والإنصاف وقد سمى الله اتباع الهوى عبادة للهوى. قال تعالى: ﴿**أفرأيت الذي اتخذ إلَهه هواه**﴾ فالذي يعبد الله يتقيد بأوامره ويلتزم بأحكامه وأما من لم يلتزم بأحكام الله ويتبع الهوى فهو عابد له من دون الله.

قال الصادق عليه السلام: احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس بشيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم.

الثانية: طول الأمل وبالطبع الأمل المنسي للآخرة وطول الأمل رذيلة عامة تشمل الناس جميعاً باستثناء بعض الخواص الذين وقفوا على الحقيقة وعرفوا أن العمر ينقضي وإن الموت آت لا محالة. .

(**فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً**) أمرنا بأن نتزود ونحن في دار الدنيا ونعيش فيها نتزود فيها بما فيها بأن نتصدق بما أعطانا الله منها ونكرم عباده ولا نبخل على أحد ونساعد كل أحد وبهذه وأمثالها نحفظ أنفسنا من النار ونقيها عذاب الملك الجبار وندرك جنة الله وغفرانه. . .

٢٩ ـ ومن خطبه له عليه السلام

بعد غارة الضحاك بن قيس صاحب معاوية على الحاج بعد قصة الحكمين وفيها يستنهض أصحابه لما حدث في الأطراف

أَيُّهَا النَّاسُ، ٱلْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ[١]، ٱلْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ[٢]، كَلامُكُم يُوهِي[٣] الصُّمَّ[٤] ٱلصِّلابَ[٥]، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ[٦] فِيكُمُ ٱلأَعْدَاءَ! تَقُولُونَ فِي ٱلمَجَالِسِ[٧]: كَيْتَ وَكَيْتَ[٨]، فَإِذَا جَاءَ ٱلْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ[٩]! مَا عَزَّتْ[١٠] دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلاَ ٱسْتَرَاحَ[١١] قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ[١٢]، أَعَالِيلُ[١٣] بِأَضَالِيلَ[١٤] وَسَأَلْتُمُونِي التَّطْوِيلَ[١٥]، دِفَاعَ ذِي ٱلدَّيْنِ ٱلْمَطُولِ[١٦]. لاَ يَمْنَعُ ٱلضَّيْمَ[١٧] ٱلذَّلِيلُ! وَلاَ يُدْرَكُ ٱلْحَقُّ إِلاَّ بِالْجِدِّ[١٨]! أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟ ٱلْمَغْرُورُ[١٩] وَٱللّهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ ـ وٱللّهِ ـ بِالسَّهْمِ[٢٠] ٱلأَخْيَبِ[٢١]، وَمَنْ رَمَى[٢٢] بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ[٢٣] نَاصِلٍ[٢٤]. أَصْبَحْتُ وَٱللّهِ لا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلاَ أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلاَ أُوعِدُ[٢٥] ٱلْعَدُوَّ بِكُمْ. مَا بَالُكُمْ[٢٦]؟ مَا دَوَاؤُكُمْ[٢٧]؟ مَا طِبُّكُمْ[٢٨]؟ ٱلْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ. أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ! وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ[٢٩]! وَطَمَعاً في غَيْرِ حَقٍّ!؟.

اللغة

١ ـ الأبدان: الأجساد.

٢ ـ الأهواء	: الآراء.
٣ ـ يوهي	: يضعف.
٤ ـ الصم	: جمع أصم وهو من الحجارة الصلب.
٥ ـ الصلاب	: جمع صليب وهو الشديد.
٦ ـ يطمع	: من الطمع وهو نزوع النفس إلى الشيء شهوة له.
٧ ـ المجالس	: مفرده مجلس موضع الجلوس والقعود.
٨ ـ كيت وكيت	: كناية عن الحديث.
٩ ـ حيدي حياد	: من الحيدان وهو الميل والانحراف عن الشيء وهو كلمة يقولها الهارب.
١٠ ـ ما عزت	: ما قويت ولا اشتدت.
١١ ـ استراح	: وجد الراحة وهي ضد التعب، السرور.
١٢ ـ قاساكم	: قاسى مقاساة الألم كابده وعالج شدته.
١٣ ـ أعاليل	: جمع أعلولة ما يحتج به ويجعله علة لعمله..
١٤ ـ أضاليل	: مفردها أضلولة ضد الهدى.
١٥ ـ التطويل	: جعله طويلاً وهو ضد القصر.
١٦ ـ المطول	: كثير المطل وهو التسويف في أداء الدين وتأجيله.
١٧ ـ الضيم	: الظلم.
١٨ ـ الجد	: الاجتهاد.
١٩ ـ المغرور	: المخدوع.
٢٠ ـ السهم	: جمعه سهام، قدح الميسر يقارع به، واحد النبل.
٢١ ـ الأخيب	: هو الأشد خيبة وهي عدم الظفر والفشل في تحصيل المطلوب.
٢٢ ـ رمى	: ألقى.
٢٣ ـ الأفوق	: مكسور الفوق والفوق موضع الوتر من السهم.
٢٤ ـ الناصل	: العاري عن النصل.
٢٥ ـ أوعده	: أهدده وأوعد بكم الأعداء أهددهم بكم.
٢٦ ـ ما بالكم	: ما شأنكم والبال القلب والخاطر.
٢٧ ـ ما داواؤكم	: ما هو الدواء الذي يشفيكم ويصححكم.
٢٨ ـ ما طبكم	: ما علاجكم.
٢٩ ـ الورع	: التقي، من يجتنب المحرمات والمشتبهات.

الشرح

(أيها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم) هذه الخطبة الشريفة كانت بعد التحكيم وقبل قتال علي لأصحاب النهروان وذلك أن الإمام كان يتهيأ لقتال معاوية وأراد الخروج إليه فوقع النزاع بينه وبين الخوارج فارتاح معاوية واطمأن وعاد الإمام إليهم فقتلهم فسُرّ معاوية كثيراً. . .

وعندما وصل النبأ إلى معاوية استدعى الضحاك بن قيس الفهري وقال له: سر حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي عليه السلام فأغر عليه وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغر عليها وإذا أصبحت في بلد فامس في أخرى ولا تُقيمن لخيل بلغك إنها قد سُرّحت إليك لتلقاها فتقاتلها، فسرحه في ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف. .

فأقبل الضحاك فنهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب حتى مر بالثعلبية فأغار على الحاج ثم أقبل فلقى عمرو بن عميس بن مسعود وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود فقتله في طريق الحاج وقتل معه ناساً من أصحابه.

فقام الإمام عندما وصله النبأ وحثهم على الخروج وأن يمنعوا عدوهم عن حريمهم وبلادهم، فردوا عليه رداً ضعيفاً ورأى منهم عجزاً وفشلاً.

فقال: والله لوددت أن لي بكل ثمانية منكم رجلاً منهم ويحكم أخرجوا معي ثم فروا عني ما بدا لكم فوالله ما أكره لقاء ربي على نيتي وبصيرتي وفي ذلك روح لي عظيم وفرج من مناجاتكم ومقاساتكم. . .

ثم خطبهم هذه الخطبة. . .

صورة أمينة ينقلها الإمام إلينا، يصف حال أصحابه وما كانوا عليه من التشتت والفرقة. . صورة بشعة لقوم لا يجمعهم جامع ولا يوحد كلمتهم هدف. . .

فالأجسام مجتمعة تراهم جميعاً ولكن قلوبهم شتى وأراؤهم مختلفة فهذا يريد الدعة والسلامة وذاك يريد التحكيم أن يجري والقضايا تمشي وذلك لا يهمه شيء ولا يلتفت لشيء وهكذا تتوزعهم الآراء وتتقسمهم النظريات. . .

(كلامكم يوهي الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم الأعداء) لو استمع أحدٌ إليكم لأخذته نشوة كلامكم واستيقن النصر وإنه لا يفصله عنه إلا أن يمد إليه يده فيطاله. .

كلامكم يفتت الصخور القوية الصلبة لكثرة تهديدكم ووعيدكم وما تقولونه من الاستعداد لقتال عدوكم والتهيؤ لهم ولكن مقابل هذا فأنتم ضعفاء الأفعال لا تعملون ولا تتحركون بل تُغزَون فلا تتأثرون مما يجعل اعداءكم يطمعون فيكم ويتوقعون أخذكم والنصر عليكم.. فأنتم تقولون ما لا تفعلون..

(تقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء القتال قلتم: حيدي حياد) هكذا كانت مجالسهم يحكيها الإمام لهم وينقلها إليهم.. إنهم يتبجحون وينتفخون ويخططون ويرسمون وينتصرون ولكنهم لا يزالون في مجالسهم لا يحركون ساكناً... صورة ينقلها عن قوم عاشوا معه وتنطبق على واقعنا العربي والإسلامي بأنظمته وحكامه وقادته ومسؤوليه... فإن عادت العرب والمسلمين قاطبة تتحدث عن فلسطين وتحريرها وتظن بل تتيقن سقوط اسرائيل إذا استمعت إليهم في قممهم وجلساتهم ولكن إلى الآن يخشى أحدهم ويخاف أن يطلق طلقة واحدة على اسرائيل.. إنه يخاف أن يغضبها لأن الذي جاء به إلى كرسي الحكم هو نفسه الذي زرع الكيان الصهيوني في فلسطين وهو الذي يحرسها ويدافع عنها...

في المجالس تزحفون على الأعداء وتحررون العباد والبلاد ولكن في ساحات القتال تبتعدون وتتنحون وتنكرون بل تتنكرون لما قيل...

وفي هذا اليوم يصدق هذا الكلام على العرب كما صدق على أصحاب الإمام يومها... اليوم بتاريخ العشرين من شهر كانون الثاني لسنة ألف وتسعماية وواحد وتسعين هجرية تحترق العراق بقذائف أمريكا وفرنسا وبريطانيا وإيطالية وكندا والسعودية ومصر ولا من سامع أو رافع لصوته... كلهم ينادون الموت لأمريكا ولكنهم يساندونها ويساعدونها..

(ما عزت دعوة من دعاكم) من استجار بكم وطلب النصر منكم لم ينجح ولم يفلح ولم يفز بعز ونصر لأنكم لا تستجيبون له ولا تعزونه بنصركم..

(ولا استراح قلب من قاساكم) من أجرى عليكم الفظاظة واستعمل فيكم القساوة لم يسترح قلبه لأن في ذلك خروج عن طبيعته وفيه مخالفة لربه كما إنكم تهربون إلى الأعداء وتلتحقون بهم...

(أعاليل بأضاليل) يعللون عدم استجابتهم له وتأخرهم عنه بعلل باطلة فاسدة لا صحة لها ولا طائل تحتها.

(وسألتموني التطويل دفاع ذي الدين المطول) إنكم سألتموني تأخير الحرب وتأجيلها رغم أنها ملزمة لكم وواجبة عليكم على مستوى المدين المماطل الذي يمتنع عن أداء دينه مع كونه قادراً وموسراً ولكن لا يبادر إلى الوفاء تمرداً وعصياناً وأنتم كذلك . .

(لا يمنع الضيم الذليل) فمن شرب كأس الذل والمهانة وتربى على الضعة والحقارة لا يستطيع أن يتحرر أو يرفع الظلم عن نفسه .

(ولا يدرك الحق إلا بالجد) الحصول على الحقوق لا يكون إلا بالتعب والتضحية وبذل الدماء والأموال، ولم تتحرر أمة من الأمم إلا بالجهاد والكفاح ولن تتحرر فلسطين من اليهودي الغاصب إلا بالجهاد المقدس وتوطين النفس على القتل والصبر على الأذى . .

(أي دار بعد داركم تمنعون ومع أي إمام بعدي تقاتلون) توبيخ لهم وتقريع وبيان وتوضيح بأن الشرفاء يدافعون عن أوطانهم وديارهم وأنتم لا تدفعون عنها بشيء وهذا قبيح منكم فإذا كنتم لا تدفعون عن أوطانكم فلن تدفعوا الضيم عن أحد ولن تنتصروا لمظلوم قط . . .

ثم إذا لم تقاتلوا معي وأنا علي بن أبي طالب صاحب اليد البيضاء والجهاد الميمون والسابقة والأخلاق والخليفة الشرعي فمع أي إمام بعدي تقاتلون، إنكم لن تقاتلوا وإذا قاتلتم فمع الطغاة والظالمين ضد مصالحكم ومنافعكم . . .

(المغرور والله من غررتموه) من استمع كلامكم المعسول وصدَّق به فهو المخدوع الذي سيرى كذبكم ويدرك غفلته عنكم وعن أعمالكم . .

(ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب) إذا خرجتم من نصيب واحد وسهمه وفاز بكم فقد فاز بأخسر صفقة وضل سهمه وسقط نصيبه لأنه لن يدرك فيكم إلا التعب والعناء وهمّ الفكر والبال . .

(ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل) من وجهكم لقتال الأعداء ومناجزتهم فقد رماهم بما لا يهزمهم ولا يحقق نصراً أو فوزاً عليهم . . وشبههم بالسهم الذي يرمى به الهدف ولكن قوسه غير سليم فلا يَصل إلى الهدف، وهم كذلك لا يصل دافعهم إلى الجهاد إلى نصر أو فوز . .

(أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع في نصركم ولا أوعد العدو بكم) لقد

وصل اليأس بالإمام أنه أقسم على هذه الأمور الثلاثة أنه أصبح لا يصدقهم فيما يقولون لكثرة ما قالوا وتحدثوا دون أن يفعلوا أو يعملوا بما قالوا وتحدثوا. . لقد قالوا وكذبوا. . وقالوا وكذبوا وهكذا حتى انتزعت الثقة من كلامهم ولم يعد يصدقهم فيما يقولون. .

ثم إنه لم يعد يطمع في نصرهم وكيف يطمع في نصر المتخاذلين والقاعدين الذين لا يتحركون ولا يقومون وقد جربهم فلم يقعوا عند حسن ظنه بهم. .

وأيضاً لا يقدر بعد اليوم أن يهدد العدو بهم ويقول له إنه قادم بهم إليه. .

(ما بالكم؟ ما دوؤاكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم) أراد أن يثير حفائظهم ويحرك شعورهم إن بقي لهم شعور وحفائظ. . إنه يقول لهم إن أنصار معاوية وأتباعه رجال مثلكم. . .

ليسوا هم أفهم منكم أو أعلم أو أشد في الحرب ممارسة. . ما بالكم لا تفكرون وتجتمعون وتحاربون كما يفعل أهل الشام وهم بشر مثلكم وما دواؤكم الذي إذا عالجتكم به أصبحتم كأهل الشام طاعة وإقداماً والتزاماً وهم رجال أمثالكم. . استفهامات فيها توبيخ واستنكار لحالهم وما هم عليه لعلهم يرجعون وإلى الحق يفيئون. .

(أقوالاً بغير علم وغفلة من غير ورع وطمعاً في غير حق) تقولون ما لا تفعلون وهذه صفة قبيحة قال تعالى: **﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾** تكثرون الكلام بدون أعمال هذا إذا كانت النسخة أقوالاً بغير عمل.

أما إذا كانت أقوالاً بغير علم فهو رمي لهم بالجهل وأنهم يرمون كلامهم بدون رصيد شرعي له أو مستند يعتمدون عليه. . .

ثم يقول لهم إنهم يغفلون عن مصالحهم ويتركون واجباتهم بدون أن يكون ذلك عن خوف من الله أو تورع عن الحرام. . .

وبعبارة أخرى إنهم يغفلون عن بعض الواجبات فلا يؤدونها وليس ذلك لتورعهم الذي ربما اخطأوا في تصوره. . .

وأخيراً قال لهم إنهم يطمعون في غير حق يريدون زيادة في عطائهم بدون استحقاق منهم له. .

٣٠ ـ ومن كلام له عليه السلام

في معنى قتل عثمان

وهو حكم له على عثمان وعليه وعلى الناس بما فعلوا وبراءة له من دمه

لَوْ أَمَرْتُ(١) بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ(٢) عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً(٣)، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: خَذَلَهُ(٤) مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي. وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ(١) ٱسْتَأْثَرَ(٥) فَأَسَاءَ(٦) ٱلأَثَرَةَ(٧)، وَجَزِعْتُمْ(٨) فَأَسَأْتُمُ ٱلْجَزَعَ، وَلِلّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي ٱلْمُسْتَأْثِرِ وَٱلْجَازِعِ.

اللغة

١ ـ الأمر : هو الطلب من العالي إلى الداني.
٢ ـ النهي : هو الكف عن الفعل.
٣ ـ الناصر : المعين.
٤ ـ خذله : لم ينصره، ترك إعانته.
٥ ـ استأثر : بالشيء استبد به وخص نفسه به.
٦ ـ أساء : من ساء فلاناً إذا أحزنه؛ فعل به ما يكره.
٧ ـ الأثرة : الاختيار، الأنانية.
٨ ـ جزعتم : من الجزع وهو عدم الصبر.

الشرح

(لو أمرت به لكنت قاتلاً) الحديث عن عثمان وقتله،.. وقد تبرأ الإمام من ذلك وبيّن براءته بأقصر عبارة وأخصرها وهو حتى ينسب القتل لشخص إنما يكون بأحد

أمرين؟ إما أن يباشر القتل أو يأمر به والإمام لم يباشر القتل ولم يدّعه عليه أحد حتى اعداؤه ومناؤوه وأما الأمر فإنه ينفيه ويشهد بذلك موقفه وسفارته بين الثوار وبين عثمان وهذا الكلام منه يشهد أيضاً بذلك . .

(أو نهيت عنه لكنت ناصراً) ولو نهى عن قتله لكان ناصراً له ولكنه لم ينه عن قتله لما فعله من أحداث ولوجود الثوار وقيام الثورة في وجهه وضياع كلامه هدراً في تلك الأجواء الصعبة التي لا يستمع فيها صوت على عادة العامة عندما يرغبون في أمر أو يكرهون أمراً . .

(غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول: خذله من أنا خير منه) وهذا من الإمام ذم لأنصار عثمان الذين هم السبب في قتله حيث تجاوزوا المعقول وأخذوا المحصول وأوردوه موارد الهلكة بأعمالهم الشائنة وتصرفاتهم السيئة كمروان وغيرهم من حثالة الأمويين فإنهم هم الذين نصروه فلم يكونوا أفضل ممن لم ينصره ولا يستطيعون إدعاء ذلك فإن الصحابة كانوا في المدينة وهم أفضل من مروان وجماعته . .

(ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير مني) والصحابة هم الذين خذلوا عثمان وتركوا نصرته والدفاع عنه وهم يعرفون قيمتهم وفضيلتهم وأنهم أشرف وأفضل ممن نصر عثمان وانتصر له لأنه لم ينصره إلا مروان وجماعة بني أمية المنتفعين بخلافته والمستفيدين من مقامه . .

(وأنا جامع لكم أمره استأثر فأساء الأثرة وجزعتم فأسأتم الجزع ولله حكم واقع في المستأثر والجازع) وأنا ملخّص لكم وبعبارة موجزة قضيته وقصته أما هو فإنه استبد بالأمور وأخذ لنفسه ولعشيرته ما هو للمسلمين وجنى سيوفهم فأساء بهذا التقديم لنفسه وأهله على عامة المسلمين إساءة بالغة وأما المسلمون فقد جزعوا وضاقت صدورهم ولم يتحملوا ويصبروا فأساؤا بقتله، فهو أساء بالاستئثار لأنه تجاوز حده وهم اساؤا بالجزع لأنهم تجاوزوا حده . .

هذا هو رأي الإمام وما يجري عليه في الدنيا وأما عند الله فإن لكل منهما حكم خاص به للقاتل والمقتول هو يعلمه وسوف يلحق مستحقه لا محالة . .

٣١ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير يستفيئه[١] إلى طاعته قبل حرب الجمل

لا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ[٢] عَاقِصاً قَرْنَهُ[٣]، يَرْكَبُ الصَّعْبَ[٤] وَيَقُولُ: هُوَ الذَّلُولُ[٥]. وَلٰكِنِ ٱلْقِ الزُّبَيْرَ، فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً[٦]، فَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ ٱبْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَني بِٱلْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي[٧] بِٱلْعِرَاقِ، فَمَا عَدَا[٨] مِمَّا بَدَا.

قال السيد الشريف: وهو ـ عليه السلام ـ أوّل من سمعت منه هذه الكلمة، أعني: «فما عدا مما بدا».

اللغة

١ ـ يستفيئه	:	من فاء بمعنى رجع ويستفيئه يسترجعه.
٢ ـ الثور	:	ذكر البقر وجمعه ثيران وأثوار وثيار وثيرة.
٣ ـ عقص الشعر	:	فتله ولواه والأعقص من التيوس ما التوى قرناه على أذنيه من خلفه.
٤ ـ الصعب	:	الدابة الجموح.
٥ ـ الذلول	:	الدابة المنقادة المطيعة.
٦ ـ ألين عريكة	:	أسلس خُلقاً، والعريكة الطبيعة.
٧ ـ أنكرتني	:	جهلتني ولم تعرفني.
٨ ـ عداه	:	عن الأمر صرفه وشغله.

الشرح

(لا تلقين طلحة فإنك أن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول) في البصرة تواجه الجيشان وقبل بدء المعركة، في موقعة الجمل أحب الإمام أن يرمي آخر سهم معه لعله يُرجع ضالاً أو يهدي تائهاً ولذا أرسل ابن عباس إلى الزبير ثالث ثلاثة قاد الناس لقتال الإمام ومع أن طلحة ثاني الثلاثة فإنه نهاه عن لقائه قائلاً له هذا القول الذي يحكي نفسية طلحة ويقرأها كما هي. ينهاه أن يأتي طلحة لما يعرفه عنه من كبرياء وغطرسة وما فيه من عناد ويعبر عنه الإمام بقوله تجده كالثور عاقصاً قرنه أي يستعد للقتال لا يفهم ولا يعي وللكبر الذي فيه يعمل ما فيه هلاك دينه ودنياه ويخوض الحرب ومع ذلك يدعي ويقول إنه لم يعمل إلا الأمور المطلوبة التي تحفظ الدين.. وإنه طيب مطيع..

(ولكن الْقَ الزبير فإنه ألين عريكة فقل له: يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق فما عدا مما بدا) بعد أن نهاه عن لقاء طلحة لما يعرفه عنه من نفسية فاسدة أمره أن يلقى الزبير وعلل ذلك بأنه سلس ينقاد ويسمع أمره أن يقول له: يقول لك ابن خالك وعدل عن قوله: يقول لك أمير المؤمنين لما في كلمة ابن خالك من القربى والرحم تذكيراً له بآصرة مهمة طيبة لعلها تحرك فيه بقايا نخوة رحمية ترجعه إلى الحق وتلويه عن الباطل...

عرفتني بالحجاز أيام السقيفة عندما وقفت إلى جانبي وطالبت بحقي وأبيت أن تبايع أبا بكر ثم عندما جعلها عمر شورى كنت معي وقد بايعتني عرفتني في الحجاز وجهلتني ولم تعرفني في العراق حيث قدت الجيوش لحربي وقتالي...

ثم قال له «ما عدا مما بدا» ما الذي ظهر لك من أموري حتى تنكرت لما ابتدأت به من بيعتي ومتابعتي.. إن الإمام لم يغيّر ولم يبدّل وإنما الزبير هو الذي بدّل وغيّر حيث رأى الأمرة فأحبها وطلبها وسعى جهده من أجلها حتى قاد الجيوش لانتزاعها من أهلها وممن هو أحق بها منه...

تقول الرواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: سألت ابن عباس رضي الله عنه عن ذلك فقال: إني أتيت الزبير فقلت له: فقال له: إني أريد ما تريد كأنه يقول المُلك لم يزدني على ذلك فرجعت إلى علي عليه السلام فأخبرته...

فكان الزبير يطلب الأمر لنفسه أو يكون شريكاً للإمام بها وهذا ما كان يتوقعه من خلافة الإمام هو وطلحة فلما تبين لهما أن لا نصيب لهما من الحكم أعلنا التمرد والحرب..

٣٢ ـ ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يصف زمانه بالجور، ويقسم الناس فيه خمسة أصناف، ثم يزهد في الدنيا

معنى جور الزمان

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا في دَهْرٍ[١] عَنُودٍ[٢]، وَزَمَن كَنُودٍ[٣]، يُعَدُّ[٤] فِيهِ ٱلْمُحْسِنُ مُسِيئاً، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً[٥]، لاَ نَنْتَفعُ بِمَا عَلِمْنَا، وَلاَ نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا، وَلاَ نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً[٦] حَتَّى تَحُلَّ بِنَا[٧].

أصناف المسيئين

وَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لاَ يَمْنَعُهُ ٱلْفَسَادَ في ٱلأَرْضِ إِلاَّ مَهَانَةُ نَفْسِهِ[٨]، وَكَلاَلَةُ حَدِّهِ[٩]، وَنَضِيضُ وَفْرِهِ[١٠]، وَمِنْهُمُ ٱلْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ[١١]، وَٱلْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ[١٢]، وَٱلْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ[١٣] وَرَجِلِهِ[١٤]، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ[١٥]، وَأَوْبَقَ دِينَهُ[١٦] لِحُطَامٍ[١٧] يَنْتَهِزُهُ[١٨]، أَوْ مِقْنَبٍ[١٩] يَقُودُهُ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ[٢٠]. وَلَبِئْسَ ٱلْمَتْجَرُ أَنْ تَرَىٰ الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عِوَضاً! وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ ٱلآخِرَةِ، وَلاَ يَطْلُبُ ٱلآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا، قَدْ طَامَنَ[٢١] مِنْ شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ، وَشَمَّرَ[٢٢] مِنْ ثَوْبِهِ، وَزَخْرَفَ[٢٣] مِنْ نَفْسِهِ لِلأَمَانَةِ، وَٱتَّخَذَ سِتْرَ ٱللَّهِ ذَرِيعَةً[٢٤] إِلَىٰ ٱلْمَعْصِيَةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ ٱلْمُلْكِ ضُؤُولَةُ نَفْسِهِ[٢٥]، وَٱنْقِطَاعُ سَبَبِهِ، فَقَصَرَتْهُ

ٱلْحَالُ عَلَىٰ حَالِهِ، فَتَحَلَّىٰ[٢٦] بِٱسْمِ ٱلْقَنَاعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ ٱلزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذٰلِكَ فِي مَرَاحٍ[٢٧] وَلاَ مَغْدَىً[٢٨].

الراغبون في الله

وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ[٢٩] ذِكْرُ ٱلْمَرْجِعِ[٣٠]، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ[٣١] خَوْفُ ٱلْمَحْشَرِ[٣٢]، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ[٣٣] نَادٍّ[٣٤]، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ[٣٥]، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ[٣٦]، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلاَنَ[٣٧] مُوجَعٍ[٣٨]، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ[٣٩] ٱلتَّقِيَّةُ[٤٠]، وَشَمِلَتْهُمُ[٤١] ٱلذِّلَّةُ[٤٢]، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ[٤٣]، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ[٤٤]، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ[٤٥]، قَدْ وَعَظُوا حَتَّىٰ مَلُّوا[٤٦]، وَقُهِرُوا[٤٧] حَتَّىٰ ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّىٰ قَلُّوا.

التزهيد في الدنيا

فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ[٤٨] ٱلْقَرَظِ[٤٩]، وَقُرَاضَةِ ٱلْجَلَمِ[٥٠]، وَٱتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَٱرْفُضُوهَا ذَمِيمَةً[٥١]، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ[٥٢] بِهَا مِنْكُمْ.

قال الشريف ـ رضي الله عنه ـ: أقول: وهذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية، وهي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه، وأين الذهب من الرّغام! وأين العذب من الأجاج! وقد دلّ على ذلك الدليل الخِرّيت ونقده الناقد البصير عمرو بن بحرٍ الجاحظ؛ فإنه ذكر هذه الخطبة في كتاب «البيان والتبيين» وذكر من نسبها إلى معاوية، ثم تكلم من بعدها بكلام في معناها، جملته أنه قال: وهذا الكلام بكلام علي عليه السلام أشبه، وبمذهبه في تصنيف الناس، وفي الإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف، أليق. قال: ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد، ومذاهب العُبّاد!.

اللغة

١ ـ الدهر : العصر، الزمان.
٢ ـ عنود : جائر.
٣ ـ كنود : كفور.
٤ ـ يعدّ : يحسب.
٥ ـ العتو : الاستكبار وتجاوز الحد والعاتي هو الجبار.
٦ ـ القارعة : الخطب يقرع من ينزل به أي يصيبه، الداهية.
٧ ـ تحل بنا : تنزل بنا.
٨ ـ المهانة : الحقارة.
٩ ـ كلالة حده : ضعف سلاحه، وكلّ السيف إذا لم يعد يقطع.
١٠ ـ نضيض وفره : قلة ماله، والنضيض القليل، والوفر المال.
١١ ـ أصلت سيفه : أخرجه من غمده وشهره.
١٢ ـ إعلان شره : المظهر لشره والمجاهر به.
١٣ ـ أجلب بخيله : أجلب عليهم أعان عليهم.
١٤ ـ الرجل : جمع راجل الماشي على رجليه.
١٥ ـ أشرط نفسه لكذا : هيأها وأعدها.
١٦ ـ أوبق دينه : أهلكه.
١٧ ـ الحطام : أصله ما تكسر من العشب اليابس وهنا المال.
١٨ ـ انتهز : اختلس واستلب.
١٩ ـ المقنب : الجمع من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين.
٢٠ ـ فرع المنبر : علاه.
٢١ ـ طامن : خفض.
٢٢ ـ شمّر : من ثوبه قصّر.
٢٣ ـ الزخرف : التزيين والتنميق.
٢٤ ـ الذريعة : الوسيلة.
٢٥ ـ ضؤولة النفس : حقارتها.
٢٦ ـ تحلى : تزيّن.
٢٧ ـ المراح : المكان الذي تأوي إليه الماشية في الليل.
٢٨ ـ مغدى : من غدا إذا ذهب في الصباح.
٢٩ ـ غض بصره : كفه وكسره عما لا يحل له.

٣٠ ـ المرجع : محل الرجوع، المعاد والرجوع إلى الله.
٣١ ـ أراق الدموع : صبّها وأجراها.
٣٢ ـ المحشر : المعاد والحساب، يوم المحشر يوم يحشر الناس فيه للحساب.
٣٣ ـ الشريد : المشرد، المطرود.
٣٤ ـ نادّ : المنفرد، الهارب إلى الوحدة.
٣٥ ـ المقموع : المقهور.
٣٦ ـ المكعوم : من كعم البعير إذا شد فاه لئلا يعض.
٣٧ ـ ثكلان : من الثكل وهو الحزن.
٣٨ ـ موجع : متألم، مريض.
٣٩ ـ أخملتهم : من الخمول وهو الذي لا نباهة له، الساقط.
٤٠ ـ التقية : الخوف.
٤١ ـ شملتهم : عمتهم.
٤٢ ـ الذلة : ضد العزة من ذلّ إذا هان.
٤٣ ـ الأجاج : الملح.
٤٤ ـ ضامزة : ساكنة.
٤٥ ـ قرحة : مجروحة.
٤٦ ـ ملّوا : سئموا وضجروا.
٤٧ ـ قهروا : غُلبوا.
٤٨ ـ الحثالة : الثفل.
٤٩ ـ القرظ : ورق السلم يدبغ به.
٥٠ ـ قراضة الجلم : الجلم هو المقراض تجز به أوبار الإبل وقراضته ما تساقط من قرضه.
٥١ ـ الذميمة : القبيحة.
٥٢ ـ أشغف : من الشغاف وهو الحب الذي يصل إلى شغاف القلب/ الوله.

الشرح

(أيها الناس إنّا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن كنود) وصف عليه السلام زمانه وحال الناس فيه وبيّن معايب ذلك الزمن الذي أشبه ما يكون انطباقاً على زماننا.. قد كان الزمن في عهد رسول الله زمن جهاد ووفاء وإخلاص، زمن ترتفع فيه قيمة المحسن وتعلو منزلته ويؤخذ على يد الظالم حتى يرتدع أو يتوب، يبحث الناس عن العلم

وينتفعون به وهو بأمن وسلامة من كل نازلة ببركة وجود النبي وحضوره ولكن اقد أصبحنا اليوم في زمن ظالم ووقت كافر ونسب الظلم والكفر إلى الزمان لوجودهما فيه وإن كان في الحقيقة الظلم والكفر من أهله، وقد رأى الإمام تحول الناس عن الحق وعدولهم عن الإيمان، . رأى الظلم يستشري ويتخذ أعواناً وأنصاراً، يرى معاوية وجنده ويرى طلحة والزبير وعائشة. . يرى الانحراف والظلم. .

(يعد فيه المحسن مسيئاً) وهكذا تنعكس وتتبدل المقاييس والموازين. . من سيئات الزمن أن يتحول المحسن البار فاعل الخير إلى مسيىء فاسد. .

(ويزداد الظالم فيه عتواً) في زمن الظلم والكفر يكثر الظالمون ويزدادون في غيهم ويسترسلون في ضلالهم لأنهم بمأمن من سطوات الشريعة وأخذها ومن أمن العقوبة أساء الأدب. .

(لا ننتفع بما علمنا) وهذا توبيخ للمقصرين الذين لا يعملون بما يعلمون.

(ولا نسأل عما جهلنا) وهذا من حظ سوء الإنسان وشقاوته إنه لا يعرف الأمر الفلاني ثم لا يسأل عنه تكبراً عن المسألة أو جبناً وخجلاً أو لغيرها من الدواعي، إنه يبقى في الجهل ولا يكلف نفسه عناء السؤال. . .

(ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا) لا نحسب للأحداث حسابها ولا نعد لها عدتها، لا نفكر في عواقب الأمور ونتطلع إلى المستقبل وما يحمله حتى إذا نزلت بنا المصيبة وحلت الكارثة عندها التفتنا إلى أنفسنا وانتبهنا من غفلتنا ولكن أين المخرج وكيف السبيل؟ .. ولا مخرج ولا سبيل. . .

(والناس على أربعة أصناف منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلالة حده ونضيض وفره) هذا هو الصنف الأول من الأربعة وهو في طبعه الفساد والانحراف ويريدهما ولكن الحواجز والموانع تقف في وجهه وتمنعه من القيام بالرذيلة، فإن جبلته مطبوعة على الفساد ولكن لحقارته وضعته أولاً ولعدم قدرته وعجزه ثانياً ولقلة ماله وإفلاسه ثالثاً، فهذه الحواجز هي التي تقف دون سعيه في الفساد والاضلال فلم يمتنع زهداً وإنما امتنع عجزاً، . .

(ومنهم المصلت لسيفه والمعلن بشره والمجلب بخيله ورجله) وهذا ثاني الأربعة من الأشرار الذين يطلبون الدنيا وقد بين كيف يكون سلوكهم للحصول عليها إنهم قد جردوا السيف واستعملوه في كل ما يحقق أغراضهم فقتلوا وسفكوا الدماء وأعلنوا شرهم

وجهروا بظلمهم واستعملوا كل الوسائل المتاحة لهم وكنى عن ذلك بأجلاب الخيل والرجل . .

(قد أشرط نفسه وأوبق دينه) إن هذا الرجل الشرير قد هيأ نفسه واستعد بجميع الوسائل المعنوية والمادية لإحراز الدنيا واصطيادها ولكنه قد أفسد دينه وأهلك نفسه بهذا الطلب القبيح . .

(لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يفرعه) بيّن عليه السلام الأسباب الداعية لهذا الشخص إلى فعل ما يفعله والعلل التي من أجلها كان يسعى، إنه كان يسعى من أجل مال الدنيا ليحصل عليه . . إنه يسعى من أجل حطام الدنيا وما فيها أو كان يسعى من أجل الزعامة الدنيوية فيتحول إلى رئيس تحت أمرته الناس والجند يأمر فيطاع فإن صاحب المقنب هو الرئيس الذي تحت أمرته ثلاثين أو أربعين فرساً برجالها وبهم يحقق ما يريد . .

أو يكون بكل سعيه يسعى ليعتلي منبراً كناية عن كونه زعيماً دينياً له سيطرة على قلوب الناس وتوجيههم فهو يطلب بواسطة الدين الدنيا وزعامتها . .

(ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ومما لك عند الله عوضاً) والإمام لا يترك الهفوة تمر والرذيلة تسري حتى يبين فسادها وضررها ويحذّر من شرها لعل إنساناً ينظر لنفسه أو يرجع إلى ربه . . .

إنه من الشقاء والتعاسة أن يتجر الإنسان بهذه التجارة الخاسرة من أجل المال أو الرياسة بفرعيها الديني والدنيوي يبيع نفسه ويجعلها ثمناً لهذه الدنيا وعوضاً عما أعده الله له في الآخرة من جنات وقصور وعيون وحور عين . . .

فهو يبيع نفسه وما أعده الله له في الآخرة بمال الدنيا أو زعامتها وهي تجارة خاسرة ومعاملة سفهية وهل من عاقل راشد يقوم على مثل هذه التجارة؟ . .

(ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا) هذا ثالث الأربعة من الذين يطلبون الدنيا . . إنه الذي يظهر بعمله أنه يعمل للآخرة ولكن في الواقع يطلب بعمله الدنيا . . يصلي من أجل أن يصطاد قلوب الناس وثقتهم ليفتك بهم وبما معهم . . . يظهر الزهد والنسك ولكن يريد أن تضع الناس أموالها بين يديه فيستغلها لصالحه وصالح أسرته، ينادي بالدين من أجل أن يترأس على الناس، إن صوته يعلو من أجل الآخرة ظاهراً ولكنه يطلب الدنيا في قرارة نفسه وعمقها . . إنه لا يطلب بعمل الدنيا الآخرة بل العكس يطلب بعمل الآخرة الدنيا . .

(قد طامن من شخصه وقارب من خطوه وشمر من ثوبه وزخرف من نفسه للأمانة واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية) بين عليه السلام الوسائل والطرق التي يصطاد بها هذا الرجل قلوب الناس. . إنها طرق شريفة يسلكها الصالحون وأرباب المعرفة، وأهل التقى والإيمان يسلكها هذا الشخص بنفسه ويقلدهم فيها. .

إنه قد طامن من نفسه أي تواضع والتواضع علامة الدين فإن المتكبر بعيد عن الدين لأنه خلاف تعاليمه ووصاياه وقارب من خطوه ليظهر عليه الوقار والسكينة وعدم الطيش والخفة وشمّر من ثوبه ليظهر أنه محتاط في طهارته وبالتالي متدين ملتزم وأيضاً يزخرف من نفسه للأمانة فهو يمدحها أمام الناس ويعدّد طاعاته المقربة من الله وأعماله الشرعية كي يكون موضع أمانات الناس وأسرارهم.

إنه اتخذ هذه الأفعال ذريعة إلى المعصية. . فهذه كانت ستراً ووقاية جعلها الله ليدخل منها الإنسان إلى الطاعة والجنة وما فيه رضى الله وإذا بهذا الشخص يتخذ هذه الأمور التي يطمأن إلى أن من اتخذها كان من عباد الله الصالحين، يتخذها هذا وسيلة من أجل معصية الله التي هي طلب الدنيا والترأس فيها على الناس. .

(ومنهم من أبعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه فقصرته الحال على حاله فتحلى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة وليس من ذلك في مراح ولا مغدى) وهذا رابع الأربعة ممن يطلب الدنيا ويريدها ولكن العجز أقعده والقلة منعته. . إنه في قرارة نفسه يريد الملك والرياسة والسلطة ولكن ضعته وحقارة نفسه وعدم ملكه للأسباب التي توفر ذلك كان وراء قعوده وسكونه وأضحى كما هو على حاله التي يقدر عليها فتحلى باسم القناعة وهذا كثير ما يستعمله العاجز وغير المتمكن فهو لا يقدر على شراء سيارة فيشتري دراجة ويظهر أمام الناس أنه قانع راض ولكن في الحقيقة لم تكن قناعة عن قدرة وإنما كانت عن عجز. .

وتزين بلباس أهل الزهادة من ممارسة العبادات والبعد عن المحرمات والقيام ببعض المستحبات.

ثم إنه عليه السلام نفى عنه القناعة والزهد أصلاً وعبّر عنهما بقوله وليس من ذلك في مراح ولا مغدى. .

(وبقي رجال غضّ أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر) هذا هو القسم الخامس الذي لم يذكره الإمام مع الأربعة المتقدمين إنه قسم أفرده لخصوصياته وخصائصه وما يتمتع به من مناقب وصفات. . صنف عز وجوده في زماننا، أقل من

الكبريت الأحمر.. لم تقع أعيننا على واحد منهم فعسى أن يجود الزمان بمن يصف الإمام...

هؤلاء الرجال غض أبصارهم ذكر المرجع فقد وضعوا الآخرة نصب أعينهم وعرفوا أنهم سوف يعودون إليها.. يعرفون المصير المحتوم الذي ينتظرهم، هذا المصير هو وحده الذي منعهم عن الحرام وعن ممارسة الممنوعات.. فإن الإنسان إذا أيقن أنه سيرجع إلى الله عرف مصيره ونهايته فإنه لابد وأن يمتنع عن كل حرام ويمتنع عن كل فساد...

وكذلك بكوا في ظلمات الليل خوفاً من الوقوف بين يدي الله.. إنهم ينتحبون لعلهم في الآخرة يضحكون..

(فهم بين شريد ناد) أهل الآخرة الذين لا يداهنون ولا يسايرون على حساب الدين.. الذين هم لله وهمهم كلمة الله.. هؤلاء مشرّدون في أطراف الأرض بعيدون في بقاعها.. قالوا كلمة الحق فأغضبت الظالمين فأرادوهم فهربوا ونأوا في طول الأرض وعرضها..

(وخائف مقموع) ومن لم يقدر على الهرب والفرار فهو يعيش الخوف والفزع على نفسه ودينه في قهر وإذلال..

(وساكت مكعوم) فهو ساكت قهراً عنه ممنوع من الكلام والحديث لا يقدر أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن منكر..

(وداع مخلص) فهذا يتوجه إلى الله يدعوه بإخلاص ولا يدعو غيره.

(وثكلان موجع) وهذا متألم حزين لما يصيب الدين على أيدي الظالمين..

(قد أخملتهم التقية) فمن الخوف لا يظهرون ولا يُعرفون فمن هنا ليسوا في الواجهة والمقدمة، لم تعرفهم وسائل الإعلام ولم تكتب عنهم الصحف والمجلات..

(وشملتهم الذلة) والاتقياء أذلة في دولة الظالمين والمعتدين يمارس عليهم أنواع من الاستهزاء والسخرية ولكن إلى حين.

(فهم في بحر أجاج) يعيشون منفردين ضمن هذا العالم الفاسد الذي لا يرعى الحقوق ولا يحفظ الحدود..

(أفواههم ضامزة) أفواههم ساكتة لا تستطيع إنكار المنكر ورفع الصوت في وجه الانحراف والفساد..

(وقلوبهم قرحة) قلوبهم مجروحة بما يجري أمامهم من المنكرات فلا يستطيعون تغييرها كناية عن أساهم ولوعتهم وأسفهم . .

(قد وعظوا حتى ملوا) قاموا قدر استطاعتهم في إرشاد الناس وبيان الأحكام حتى سئمت نفوسهم لعدم الاستجابة لهم . .

(وقهروا حتى ذلوا) جرت عليهم عملية القهر والضغط حتى أذلهم الطغاة فلذا نجد من شدة سوط السلطان وسيفه لا يظهر الإنسان علناً ولا يمارس عبادته بحرية كاملة . .

(وقتلوا حتى قلوا) فلذا نرى رجال الله قلة بل نوادر لأن الداعية لله سيواجه العالم بلسانه وموقفه وقلمه ويده وهذا يعرّضه للهلاك والقتل ولكثرة الظالمين وممارساتهم وما يلاحقون به هؤلاء الرجال قلوا وأصبحوا أقل من القليل . .

(فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ وقراضة الجلم) توجه الإمام في نهاية هذه الخطبة إلى موعظة الناس وردهم إلى الله وذلك باستصغار الدنيا ونبذها وتركها والتخلي عنها لأنها السبب في بعد الإنسان عن الله .

وعلى الإنسان أن يجعلها في عينه أصغر وأحقر من بقايا النبات الذي يدبغ به أو ما يتساقط عندما يجز الغنم فإن ذلك شيء تافه حقير لا يسأل عنه أحد ولا يبحث عنه أحد فكذلك أنتم إنبذوا الدنيا واحتقروها واحتقروا ما فيها .

(واتعظوا بمن كان قبلكم) فقد سبقتنا أمم كثيرة لم يبق منها أثر، ماتوا جميعاً وقضوا كلهم ولم يبق إلا ذكرهم نسمع بهم ونعلم أخبارهم قد لقوا وجه ربهم وعنده الحساب ولهم الثواب أو العقاب فهؤلاء يجب أن نأخذهم عبرة لنا وموعظة نأخذ من أعمالهم ما يفيدنا ونجتنب عنها ما يضرنا . . فنعمل بالأولى ونترك الثانية وهكذا تكون طريقة العاقل يرى غيره فيأخذ تجربته ويستفيد منها ولا يرضى أن يكون هو محط التجربة . .

(قبل أن يتعظ بكم من بعدكم) لا تكونوا أنتم محط التجربة فيستفيد منكم غيركم مما يأتي بعدكم ولا تستفيدون أنتم ممن سبقكم .

(وارفضوها ذميمة فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم) اتركوها قبيحة سيئة فإنها لقبحها وسيئاتها قد تركت من كان أشد حباً لها منكم وأشد رغبة . . . إنها تخلّت عمن كان أشد حباً لها فهي بالأولى أن تترككم ولم تحبوها كحبهم . .

٣٣ ـ ومن خطبه له عليه السلام

عند خروجه لقتال أهل البصرة، وفيها حكمة مبعث الرسل، ثم يذكر فضله ويذم الخارجين

قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار[١] وهو يخصِف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمةَ لها! فقال عليه السلام: والله لَهِيَ أَحَبُّ إِليَّ من إِمرتكم، إِلا أَن أُقيم حقًّا، أَو أَدفع باطلاً، ثم خرج فخطب الناس فقال:

حكمة بعثة النبي

إِنَّ ٱللّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلاَ يَدَّعِي[٢] نُبُوَّةً، فَسَاقَ[٣] النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ[٥]، فَٱسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ[٦]، وَٱطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ[٧].

فضل علي

أَمَا وَٱللّهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا[٨] حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا[٩]: مَا عَجَزْتُ[١٠] وَلاَ جَبُنْتُ[١١]، وَإِنَّ مَسِيرِي هٰذَا لِمِثْلِهَا؛ فَلأَنْقُبَنَّ ٱلْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ ٱلْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ.

توبيخ الخارجين عليه

مَالِي وَلِقُرَيْشٍ! وَٱللّهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ[١٣]،

وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ! وَاللّهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ اللّهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ، فَأَدْخَلْنَاهُمْ في حَيِّزِنَا[١٤]، فَكَانُوا كَمَا قَالَ الأَوَّلُ:

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ الْمَحْضَ[١٥] صَابِحاً
وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ الْبُجْرَا[١٦]
وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ الْعَلاءَ وَلَمْ تَكُنْ
عَلِيًّا، وَحُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرَا[١٧]

اللغة

ذي قار : موضع قريب من البصرة.
٢ ـ أدعى : الشيء زعم أنه له حقاً أو باطلاً.
٣ ـ ساق : الماشية حثها على المشي من خلف.
٤ ـ بوأهم : أسكنهم.
٥ ـ المنجاة : جمعها مناجٍ الباعث على النجاة.
٦ ـ القناة : الرمح، عمود الظهر المنتظم للفقار.
٧ ـ الصفاة : الحجر الأملس.
٨ ـ الساقة : جمع سائق.
٩ ـ تولت بحذافيرها : أي بأسرها.
١٠ ـ العجز : عدم القدرة.
١١ ـ الجبن : الفزع والخوف.
١٢ ـ نقّب : ثقب.
١٣ ـ مفتونين : ضالين.
١٤ ـ الحيز : المكان وهو مأخوذ من الحوز أي الجمع وهذا في حيز فلان أي في جهته ومكانه.
١٥ ـ المحض : اللبن الخالص.
١٦ ـ البجر : الأمر العظيم.
١٧ ـ الجرد : جمع أجرد وهو الفرس الذي دق شعره وقصر ويمدح به الفرس.
١٨ ـ السمر : مفرده أسمر وهو الرمح.

الشرح

قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله.

فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟.

فقلت: لا قيمة لها.

فقال عليه السلام: والله لهي أحب إليّ من أمرتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً ثم خرج فخطب الناس فقال) خرج الإمام من المدينة قاصداً البغاة في البصرة وعندما وصل إلى ذي قار قرب البصرة كانت بينه وبين ابن عباس هذه المحاورة الرائعة التي تكشف عن الهدف الأعلى للإمام من الخلافة وإن غاية الحكم عنده ليس أن يعتلي كرسي الحكم بل مهمة الحكم وغاية الحاكم أن يبسط سلطان الحق والعدل بين الناس وإلا فلا قيمة للحكم بل يسقط اعتباره ولا يعود له مبرر في الوجود والبقاء...

والإمام خطب الناس بعد ذلك فقال:

(إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة فساق الناس حتى بوأهم محلتهم وبلغهم منجاتهم فاستقامت قناتهم واطمأنت صفاتهم) قدم الإمام هذه المقدمة ليدخل منها إلى مقصوده وهو مبررات حربه للبغاة وإنها كحرب رسول الله لقريش وهي كافرة بينما الآن يحاربها الإمام وهي ضالة منحرفة ثم بين نقمة قريش عليه وسبب ذلك.. ذكر مبعث رسول الله المبارك وإنه سبحانه بعثه نبياً وليس في العرب كافة من يقرأ كتاباً فهي أمة أُميّة لا تحسن القراءة ولا تجيدها ولم يدع أحد من ابنائها نبوة وأنه رسول من قبل السماء إلى الناس في تلك الحالة بعث الله رسوله محمداً فقام بدوره الرسالي في تقويم الأمة وتعديلها فساق الناس بجهاده وكفاحه حتى أسكنهم مكانهم اللائق بهم من حيث إيصالهم إلى ريادة الأمم وقيادة العالم وأوصلهم إلى سعادتهم وما ينجيهم من النار، وبعبارة أخرى جعلهم أمة تحتل مكانها في قيادة العالم وفي ذلك سعادة الدنيا كما جعلها أمة ناجية من عذاب الله وعقابه وبذلك سعادة الآخرة فاعتدلت اقوتها لأنها وضعت في موضعها من حيث أن هذه القوة تحولت إلى الجهاد في سبيل الله بعد أن كانت في طرق الغزو والنهب والسلب وذلك هو الاعوجاج والانحراف التي كانت عليه قبل بعثة الرسول واطمأنت صفاتهم أي كانوا مهزوزين مضطربين مهددين من قبل بعضهم بغارة يشنها عليه الآخرون أو حرب يوقدها

عدوهم وأما الآن فقد استقر الوضع وارتاحت القلوب والنفوس. .

(أما والله إن كنت لفي ساقتها حتى تولت بحذافيرها ما عجزت ولا جبنت) ذكر عليه السلام دوره في استقامة أمور العرب واستقرارهم وإنه من الذين ساقوها أمامهم ودفعوها للإسلام والإيمان وهذا واضح سليم فإن نظرة واحدة إلى معارك الإسلام وغزواته يقف الإنسان على مدى ما قدمه الإمام في هذا السبيل ويرى بأم عينه دوره في نشر الإسلام والقضاء على الكفر وهكذا بقي مجاهداً حتى تولت الجاهلية بكل عاداتها وتقاليدها ومواريثها السخيفة، لم يعجز عن أداء مهمة أو ينكل في موقف أو يتخاذل ويخاف من عدو في حال بل هو القوي في كل موقف والشجاع أمام كل حادثة وأمام كل بطل. . .

(وإن مسيري هذا لمثلها فلأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه) يشد عزائم أتباعه وأنصاره ويقوّي شوكتهم بأنه لن يجبن ولن يضعف وهو كما كان سيبقى وهذه المسيرة التي هو فيها والتي يقودها مثل التي كانت مع رسول الله على الحق ولسوف يشق الباطل فيقضي على البغاة من أجل أن تتحد الأمة وتتوحد وتفيىء الفئة الباغية إلى حكم الله أو يقضى عليها. .

(مالي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم) استفهم عليه السلام عما تنكر عليه قريش استفهاماً استنكارياً وإنه ليس عليه شيء يمكن أن يؤخذ عليه حتى تقف منه هذا الموقف العدائي. . .

ثم أراد أن يذكّرهم بماضيهم ويخوّفهم من مستقبلهم بأنه قد قاتلهم على زمن رسول الله وقد كانوا كفاراً فهداهم الله بسيفه وجهاده وهو الآن سيقاتلهم بغاة ضلالاً منحرفين وأنا كما عهدوني بالأمس، أنا صاحبهم الذي يعرفونه جيداً ويعرفون مواقفه المشهورة وأنا صاحبهم اليوم أيضاً. أنا الذي يقف في وجوههم ويقاومهم ويردهم إلى الطاعة والانقياد ويخلصهم من الفتنة والانحراف. . أنا لهم اليوم مفتونين كما كنتم لهم بالأمس كافرين. .

(والله ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيزنا فكانوا كما قال الأول:

أدمت لعمري شريك المحض صابحاً   وأكلك بالزبد المقشرة البجرا
ونحن وهبناك العلاء ولم تكن   علياً وحطنا حولك الجرد والسمرا)

أقسم عليه السلام أن قريشاً لا تشكو من علي خاصة وأهل البيت عامة إلا اختيار الله لهم واصطفائهم عليهم وهذه هي عقدة النقص في قريش ترى نفسها قاصرة عن بني هاشم لا تدرك علاها ولا تبلغ ذراها فيؤذيها أن ترى من هو أفضل منها، وبهذه الفضيلة الإلهية والاختصاص الرباني كان الطريق لإدخال قريشٍ في الحيز الذي عم البشرية وهو إدخالهم في الإسلام وقد أصبح لهم عزاً وقوة واقتداراً. . . واستشهد بهذين البيتين من الشعر على أن ما هم فيه من الفضل والنعيم فضل جهاد أهل البيت وتضحياتهم وما قدموه في سبيل انتشار الإسلام وبسط سلطانه الذي منه استمدت قريش مقامها وأمجادها. .

٣٤ - ومن خطبة له عليه السلام

في استنفار الناس إلى أهل الشام بعد فراغه من أمر الخوارج، وفيها يتأفف بالناس، وينصح لهم بطريق السداد

أُفٍّ لَكُمْ[١]! لَقَدْ سَئِمْتُ[٢] عِتَابَكُمْ[٣]! أَرَضِيتُمْ بِٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ ٱلآخِرَةِ عِوَضاً[٤]؟ وَبِالذُّلِّ مِنَ ٱلعِزِّ خَلَفاً[٥]؟ إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ[٦]، كَأَنَّكُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ[٧]، وَمِنَ ٱلذُّهُولِ[٨] فِي سَكْرَةٍ[٩]. يُرْتَجُ[١٠] عَلَيْكُمْ حَوَارِي[١١] فَتَعْمَهُونَ[١٢]، وَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ[١٣]، فَأَنْتُمْ لاَ تَعْقِلُونَ. مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ ٱللَّيَالِي[١٤]، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ[١٥] يُمَالُ بِكُمْ، وَلاَ زَوَافِرُ[١٦] عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ. مَا أَنْتُمْ أَلاَّ كَإِبِلٍ ضَلَّ[١٨] رُعَاتُهَا[١٩]، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ ٱنْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ، لَبِئْسَ - لَعَمْرُ ٱللَّهِ - سُعْرُ[٢٠] نَارِ ٱلْحَرْبِ أَنْتُمْ! تُكَادُونَ وَلاَ تَكِيدُونَ، وَتُنْتَقَصُ[٢١] أَطْرَافُكُمْ فَلاَ تَمْتَعِضُونَ[٢٢]؛ لاَ يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ[٢٣]، غُلِبَ وَٱللَّهِ ٱلْمُتَخَاذِلُونَ[٢٤]! وَٱيْمُ ٱللَّهِ إِنِّي لأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ[٢٥] ٱلْوَغَى[٢٦]، وَٱسْتَحَرَّ ٱلْمَوْتُ[٢٧]، قَدِ ٱنْفَرَجْتُمْ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱنْفِرَاجَ الرَّأْسِ. وَٱللَّهِ إِنَّ ٱمْرَأً يُمَكِّنُ[٢٨] عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرُقُ لَحْمَهُ[٢٩]، وَيَهْشِمُ[٣٠] عَظْمَهُ، وَيَفْرِي[٣١] جِلْدَهُ، لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ. أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ؛ فَأَمَّا أَنَا فَوَٱللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِٱلْمَشْرَفِيَّةِ[٣٢] تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ ٱلْهَامِ[٣٣]، وَتَطِيحُ[٣٤] السَّوَاعِدُ وَٱلأَقْدَامُ، وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَا يَشَاءُ.

طـريق السـداد

أَيُّهَا النَّاسُ، أَنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ(٣٥) عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالوَفَاءُ بِٱلبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ في ٱلْمَشْهَدِ وَٱلْمَغِيبِ، وَٱلإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ.

اللغة

١ ـ أف : كلمة تضجر، واستقذار ومهانة.
٢ ـ سئم : ضجر وملّ.
٣ ـ العتاب : اللوم، الإنكار عليه بشيء من فعله.
٤ ـ العوض : البدل.
٥ ـ الخلف : العوض.
٦ ـ دارت أعينكم : اضطربت من الجزع.
٧ ـ الغمرة : من الغمر وهو الستر.
٨ ـ الذهول : النسيان.
٩ ـ سكرة : الموت غشيته وشده والسكر ضد الصحو.
١٠ ـ يرتج : يغلق.
١١ ـ الحوار : المحاورة.
١٢ ـ تعمهون : من عمه تحير وتردد.
١٣ ـ المألوسة : المخلوطة بمس الجنون.
١٤ ـ السجيس : الأبد.
١٥ ـ الركن : ما يقوى به، العز والمنعة ومن البناء الجانب الأقوى منه، الشريف.
١٦ ـ الزوافر : جمع زافرة وزافرة الرجل أنصاره وعشيرته.
١٧ ـ الإبل : الجمال.
١٨ ـ ضل : ضاع وذهب.
١٩ ـ الرعاة : مفردها الراعي كل من ولي أمر قوم ومن يتولى تدبير شؤون قطيع من الحيوانات.

٢٠ ـ السعر : جمع ساعر موقد النار.
٢١ ـ تنتقص : من نقص الشيء ذهب منه شيء بعد تمامه.
٢٢ ـ تمتعضون : تغضبون وتأنفون.
٢٣ ـ ساهون : غافلون.
٢٤ ـ المتخاذلون : من خذل إذا ترك نصرته ومعونته.
٢٥ ـ حمس : كفرح اشتد وصلب في دينه.
٢٦ ـ الوغى : الحرب وساحة الوغى ساحة الحرب وفي الأصل للصوت والجلبة.
٢٧ ـ استحر : بلغ في النفوس غاية شدته.
٢٨ ـ يمكّن : عدوه منه يجعل له سلطاناً عليه وقوة.
٢٩ ـ يعرق لحمه : يأكل اللحم حتى لا يبقى منه شيء على العظم.
٣٠ ـ هشم : العظم كسرّه.
٣١ ـ يفري : لحمه أي يمزقه.
٣٢ ـ المشرفية : السيوف.
٣٣ ـ فراش الهام : العظام الرقيقة التي تلي القحف.
٣٤ ـ تطيح السواعد : تسقط.
٣٥ ـ الفيء : الخراج وما يحويه بيت المال.

الشرح

(أفٍ لكم لقد سئمت عتابكم أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً وبالذل من العز خلفاً) بعد انتهاء أمر الخوارج في النهروان أراد الإمام أن يكمل شوطه في جهاد معاوية فدعاهم للخروج فوراً إليه ولكنهم أصروا أن يدخلوا الكوفة ويرجعوا إلى أهلهم فيستعدوا فرجع بهم إلى النخيلة فعسكر هناك وأمرهم أن يلزموا ذلك المكان فكانوا يتسللون ويدخلون الكوفة فتركوه عليه السلام وما معه من الناس إلا رجال من وجوههم قليل وبقي المعسكر خالياً فلا من دخل الكوفة خرج إليه ولا من أقام معه صبر فلما رأى ذلك دخل الكوفة فخطب الناس وحثهم فلم ينفروا فتركهم أياماً ثم خطبهم هذه الخطبة. . .

«أف لكم» لم يقلها الإمام إلا بعد أن طفح الكيل. . إنهم لم يستجيبوا له ولم يمتثلوا أمره وقد خطبهم أكثر من مرة وحثهم فلم يجد منهم استجابة فآذاه تمردهم وعدم

استجابتهم فبادرهم بكلامه «أف لكم لقد سئمت عتابكم» مللت من كثرة تأنيبكم وذكر سقطاتكم ولم يعد بإمكاني أن أعدد أفعالكم.

أرضيتم أن تبيعوا الآخرة الباقية وما فيها من النعيم والحور والخير بالدنيا الزائلة الفانية؛ إنها صفقة خاسرة من غير راشد ورضيتم بالذل يطالكم بقعودكم وسكوتكم وعدم قيامكم بالجهاد.. وهذا استفهام استنكاري توبيخي يقصد به الحث والدفع..

(إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة ومن الذهول في سكرة) إذا دعاهم الإمام لحرب معاوية والخروج إليه أصيبوا بالخوف والفزع وكان حالهم كحال الذي يغشى عليه من الموت وهو الذي قرب من حال الموت وغشيته أسبابه فيذهل ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف وهذا تصوير لشدة كراهتهم للحرب بحيث صارت دعوتهم إليه مؤذية لهم منغصة عليهم هدؤهم وسكونهم..

(يرتج عليكم حواري فتعمهون وكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون) بيّن حاله معهم عندما يحاورهم ويطرح عليهم القضايا ويحشرهم في أفعالهم وتصرفاتهم فيترددون ويضطربون وهذه حالة العاجز الذي يرى خطأه ولا يستطيع أن يجيب على تصرفه جواباً صحيحاً مقنعاً فينغلق عليه الجواب ويعجز عن الرد ويصبح حالهم كمن أصابه مس في عقله فهو يتصرف بغير شعور وبالتالي لا تكون تصرفاته محكومة بالسداد والتوفيق فهم لا يفكرون ولا عقل لهم يحكم تصرفاتهم..

(ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي) نزع الإمام ثقته منهم حيث كانوا يعدونه ثم لا يفون دخلوا الكوفة على أمل الخروج منها لحرب عدوهم فاستطابوا الجلوس بين الأهل والعيال وامتنعوا وهكذا كانوا يخالفون ما يقولون فأنا لا أثق بكم أبداً وعلى طول الدهر وهذا لشدة ما رأى منهم من المخالفات..

(وما أنتم بركن يمال بكم) نفى عنهم أن يكونوا قوة يعتمد عليها في انتزاع النصر أو قوة تقهر الأعداء وينتصر بهم عليهم..

(ولا زوافر عز يُفتقر إليكم) لستم أنصار عز لمن يحتاج إليكم لأنكم أذلاء فلا تدفعون ضيماً ولا ترفعون حيفاً..

(ما أنتم إلا كإبل ضل رعاتها فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر) لاختلاف آرائهم وتشتت كلماتهم وعدم اجتماعهم على أمر واحد شبههم بالجمال التي غاب عنها المسؤولون عن حفظها ورعايتها فلغيابهم عنها إذا اجتمعت من جهة تفرقت من أخرى

لعدم الرابط بينها وعدم الجامع فكل فرد يختار ما يحب ويتجه كيف يشاء. .

(**لبئس ـ لعمر الله ـ سعر نار الحرب أنتم**) بئس الرجال أنتم للحرب إذا اشتعلت نارها لأنها تحتاج إلى رجال أشداء أقوياء وأنتم لستم على مستوى ذلك. .

(**تكادون ولا تكيدون وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون**) يرسم لكم الأعداء طرق الاحتيال والمكر التي تضر بكم وتؤذيكم ولا تردون لهم أمثالها أو تقابلونها بأشباهها فهم أقدر منكم على الفتك.

وأما بلادكم فإنها تتقلص من نواحيها حيث يشن عدوكم عليها الغارات فيستولي على بعضها وبذلك يحوزها ولا تتأثرون أو تغضبون شأن من لا يعنيهم الأمر ولا يخصهم وهذه صفات رذيلة يجتنبها الشرفاء. .

(**لا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون غلب والله المتخاذلون**) معاوية كان يخطط باستمرار للتغلب على أهل العراق يستدعي عمرواً من فلسطين ويشتري الضمائر ويرشي الرؤساء ويحيك المؤامرات. . في الشام مركزه ولكن عملاؤه في عاصمة حكم الإمام ينقلون إليه ما يجري بحذافيره، كانوا يكتبون إليه ويبينون له مواطن الضعف. . إنه لم ينم بل يفكر في الوسائل التي يغلب بها الإمام وأنصاره ولكن في مقابل هذه اليقظة من قبل أهل الشام وقيادتهم كان أهل العراق في غفلة لا يتنبهون ولا يتحسسون وكان الإمام يعيش هذا الفارق الكبير فينذرهم ويرشدهم ويحرك فيهم الهمم ويبعث فيهم روح الاندفاع كأنه يقرأ بين القبور فلا أحد يسمع.

ثم أراد أن يعطيهم النتيجة التي سيصلون إليها إن استمروا على ذلك وهي أن كل متخاذل غير مندفع في تحصيل حقه سينهزم ويغلبه خصمه فلا تكونوا متخاذلين لئلا تغلبوا. .

(**وأيم الله إني لأظن بكم أن لو حمس الوغى واستحر الموت قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس**) وهذا قسم منه وهو صادق فيما يقسم أنه إذا كان في قلب المعركة وقد اشتد أوراها وحمى وقعها وارتفعت حراراتها وبلغت من الشدة مداها، في تلك اللحظات الصعبة سيفرون عنه ويتركونه وحيداً لا يعودون إليه أبداً كما لا يعود الرأس إلى الالتئام إذا تحطم وتهشم وتكسر. .

(**والله أن أمرأ يمكّن عدوه من نفسه يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفري جلده لعظيم عجزه ضعيف ما ضمّت عليه جوانح صدره**) أقسم عليه السلام بأن أي إنسان يتخاذل عن مقارعة الأعداء ويتوانى فيمكّنهم من نفسه يمارسون عليه أنواع الذل والانتقام فيأخذون

أمواله ويسلبون كرامته ويدوسون مقدساته فهذا من أعجز الناس فكراً ومنطقاً وقوة لا يملك قلباً شجاعاً ولا قوة يواجه بها جبروت الظالمين وفي هذا الكلام حث على أن لا يكونوا كذلك . .

(أنت فكن ذاك إن شئت فأما أنا فوالله دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفية تطير منه فراش الهام وتطيح السواعد والأقدام ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء) بعد أن بين أن الأقوياء والشرفاء لا يسلمون أنفسهم إلى أعدائهم ليمارسوا عليهم أنواع الذل والقهر أبى لنفسه أن يكون من أولئك الضعفاء الذين استسلموا للأعداء وخاطب من تقبل نفسه ذلك بأنك أنت إذا اخترت أن تكون ذلك الذي يمكّن عدوه من نفسه فأنت وشأنك وما اخترت، تختار الذل فأنت وما تختار تتحمل مسؤولية نفسك وتختار ما تريد من أنواع الذل أما أنا علي بن أبي طالب فلن أمكن أعدائي مني ولن أقبل أن أدفع إليهم بنفسي يمارسون ما يشاؤون من إذلال عليها وقهر واضطهاد، . . لا يكون ذلك بل سأعطيهم السيف الذي به تطير رؤوسهم وتنفصل سواعدهم وأقدامهم وبعد هذه المقاومة ليكن ما يريد الله وما يشاء أُغلب أم أغلب. . فهو عليه السلام أخذ على نفسه وعلمنا كيف تكون الصلابة في مواجهة الباطل وإن العاقل لا يعطي عدوه شيئاً يمكنه به من نفسه بل يبذل قصارى جهده في مواجهته ويدفعه بكل وسيلة حتى لو كانت المقارعة بالسيوف التي تنال الرؤوس والأطراف. .

(أيها الناس إن لي عليكم حقاً ولكم عليّ حق فأما حقكم علي فالنصيحة لكم) الحقوق بين الحاكم والمحكوم متبادلة فليس الحاكم طاغوتاً يتحكم في رقاب الناس ويمارس عليهم ما يشاء وما يحب دون ضوابط تحكم تصرفاته وتحد من صلاحياته، بل إنه محكوم لقانون شرعي لا يخرج عنه أو يتعداه وهو بعد ذلك كله مسؤول عن رعيته ويذكر الإمام جملة من هذه الواجبات والمسؤوليات فأولها النصيحة للرعية بأن يتوخى لهم ما ينفعهم ويفيدهم فيرشدهم إليه ويأمرهم به وينصحهم بممارسته والقيام به، فيدلهم على الطريق السليمة التي يسعدوا بها في دنياهم وآخرتهم . .

(وتوفير فيئكم عليكم) وهي أموال المسلمين وما جنته سيوفهم تكون لهم فلا يصرفها الحاكم في شهواته وقراباته كما فعل ذلك الخليفة الثالث فأثار المسلمين عليه وكانت من جملة الأسباب التي دعت للتخلص منه. . ففيء المسلمين وما في بيت المال هو للمسلمين يقسم بينهم بالسوية وقد كانت سيرة الإمام مع ابن أمه هي نفسها التي أجراها مع جميع المسلمين وعليهم دون تفاوت أو تمييز . .

(وتعليمكم كيلا تجهلوا) فالجهل والأمية وراء كل تأخر وتقهقر ولم ترتق الأمم إلا بالعلم والمعرفة وواجب الحاكم أن يوفر للرعية الظروف المناسبة كي يتعلموا بل فرض الإسلام على المسلم المعرفة وأشاد بالعلم والعلماء وحث على ذلك.. وإن الدول الراقية تفرض على شعبها أن يتعلم وتسلك جميع الطرق من أجل القضاء على الأمية والجهل..

(وتأديبكم كيما تعلموا) وكذلك من واجبات الحاكم أن يؤدب المسيئين الذين يتجاوزون القانون وردهم إلى الطاعة فمن قتل قُتل ومن اعتدى اقتص منه ومن تجاوز الحد أقيمت عليه الحدود وهكذا دواليك فيأخذ قصاصه المجرم ويتأدب به غيره ويعلم الحكم من يجهله، وإقامة الحدود والاقتصاص من المنحرفين وظيفة الحاكم وله هذا المقام وعليه تجري هذه الأمور..

(وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة) بعد أن ذكر ما للرعية من حقوق على الحاكم ذكر هنا حقه عليهم وأول الحقوق وأهمها أن يكونوا أوفياء له فيما بايعوه عليه.. بايعوه على أن يكون خليفة يقوم بشؤونهم ويدبر أمورهم فيجب عليهم أن يفوا بذلك فلا يبايعوا غيره ولا يعطوا يداً لسواه ولا يقبلوا إلا به.. إنهم رضوا به قائداً لهم وخليفة عليهم فليس لهم بعد ذلك أن يعطوا لغيره ما أعطوه له..

(والنصيحة في المشهد والمغيب) بأن يكونوا في حال غيابه كما هم في حال حضوره إذا رأوا أمراً فيه مصلحة بادروا إلى بيانه والافصاح عنه وإذا رأوا عورة بينوها وأوضحوا معالمها فإن النصيحة ـ بيان الصالح وما فيه منفعة وفائدة ـ تجري بين المسلمين عامة وتتأكد فيما بين الحاكم والمحكوم لأثرها على المجتمع فيما لو تركت ولم يُخبر بها الحاكم..

(والإجابة حين أدعوكم والطاعة حين آمركم) فإذا دعوتكم لأمر لبيتم الأمر واستجبتم لدعائي فبادرتم بدون تسويف أو تأخير فليس لكم أن تتمردوا أو تتوقفوا أو تتعللوا وتتساءلوا فإن الحاكم يبحث عن مصلحة شعبه وما ينفعهم فهو عندما يأمرهم يجب عليهم الامتثال والطاعة والانقياد لتحصيل منافعهم وما فيه مصلحتهم..

٣٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

بعد التحكيم وما بلغه من أمر الحكمين
وفيها حمد الله على بلائه، ثم بيان سبب البلوى

الحمد على البلاء

اَلْحَمْدُ لِلّهِ وَإِنْ أَتَىٰ الدَّهْرُ[١] بِٱلْخَطْبِ[٢] ٱلْفَادِحِ[٣]، وَٱلْحَدَثِ[٤]، ٱلْجَلِيلِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلا ٱللّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلٰهٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى ٱللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

سبب البلوى

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ ٱلْعَالِمِ ٱلْمُجَرِّبِ[٥] تُورِثُ ٱلْحَسْرَةَ[٧]، وَتُعْقِبُ[٨] النَّدَامَةَ[٩]. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ في هٰذِهِ ٱلْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ[١٠] لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ! فَأَبَيْتُمْ[١١] عَلَيَّ إِبَاءَ ٱلْمُخَالِفِينَ ٱلْجُفَاةِ[١٢]، وَٱلْمُنَابِذِينَ[١٣] ٱلْعُصَاةِ، حَتَّىٰ ٱرْتَابَ[١٤] النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ[١٥] الزَّنْدُ[١٦] بِقَدْحِهِ[١٧]، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ[١٨]:

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَىٰ[١٩] فَلَمْ تَسْتَبِينُوا[٢٠] النُّصْحَ إِلاَّ ضُحَىٰ ٱلْغَدِ

اللغة

١ ـ الدهر : الزمن.
٢ ـ الخطب : الأمر العظيم.
٣ ـ الفادح : من فدحه الأمر إذا أعاله وأبهظه وأعجزه.
٤ ـ الحدث : الحادث.
٥ ـ المجرّب : الذي جربته الأمور وأحكمته.
٦ ـ تورث : تترك وتُخلّف.
٧ ـ الحسرة : التلهف، والحسران من اشتدت حسرته وندامته على أمر فاته.
٨ ـ تعقب : تخلف.
٩ ـ الندامة : الحزن والأسف.
١٠ ـ نخل : الدقيق صفاه وأخلصه.
١١ ـ أبيتم : من أبى الشيء إذا كرهه ولم يرضه وأبى عليه امتنع وأبى الشيء عليه منعه عنه.
١٢ ـ الجفاة : هم الخُشن الغلاظ الذين لا يؤلفون.
١٣ ـ المنابذين : من نبذ الشيء إذا طرحه.
١٤ ـ ارتاب : أشك وأتردد.
١٥ ـ ضنّ : بخل.
١٦ ـ الزند : العود الذي يقدح به النار.
١٧ ـ القدح : بالزند محاولة إخراج النار منه.
١٨ ـ هوازن : قبيلة عربية.
١٩ ـ منعرج اللوى : اسم المكان.
٢٠ ـ تستبينوا : من أبان الشيء إذا اتضح واستبان الشيء وضح.

الشرح

(الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل) إبتدأ عليه السلام بحمد الله على ما جاء به الزمن من الضراء والبلاء فإنه أتى بأمر عظيم وحادث كبير ألا وهو انحراف الحكمين في حكمهما وعدولهما عن الحق إلى الضلال من حيث خلعا الخليفة الشرعي بدون مبررٍ وهو حمد على السراء والضراء..

(وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له ليس معه إله غيره وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله) اعتراف وإقرار للبركة والتذكير تعليماً لنا وتأديباً بأن الله واحد لا شريك له وأراد تأكيد هذا المضمون بنفي الشريك معه واتبع ذلك بالشهادة لمحمد بأنه عبد الله ورسوله. .

(أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة) قبل أن يدخل في مقصوده أراد أن يبين كبرى كلية وقضية حقيقية ومفادها أن رفض قبول رأي الإنسان الناصح الذي يؤدي النصيحة وهي لا تؤدي إلا إذا قلب الناصح وجه الأمور وصدرها وعرف أسفلها وأعاليها ودخل إلى عمقها الشفيق الذي دفعه العطف والحب ومن كان شفوقاً على إنسان بحث عما يريحه وينفعه. . .

العالم الذي يعرف الأمور وله خبرة بها واطلاع عليها المجرب، الذي تتبع القضايا وأدرك صحتها فإن هذا الإنسان الذي اجتمعت فيه هذه الصفات إذا خالفه أحد كان خلافه ورفض قوله وعدم قبوله يورث الألم والحسرة ويأتي بالندامة والملامة. .

(وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري) إشارة منه بل تصريح إلى أنه رفض التحكيم ولم يقبل به وقال لأهل العراق لا تضعوا سيوفكم إلا بعد النصر وتحقيق الأمر وإن معاوية وعمرو بن العاص ومن خلفهما لم يرفعوا المصاحف طاعة لحكمها وإنما رفعوها خدعة وغدراً فأبوا عليه ورفضوا قوله وخرجت الخوارج عليه وأجبرته على قبول التحكيم. .

(ونخلت لكم مخزون رَأْيِي لو كان يطاع لقصير أمر) استخلصت لكم الرأي الصحيح مما جربته ووقفت عليه وعلمته وهو رفض التحكيم ومتابعة القتال ولكن لم تطيعوا رأيي بل عصيتم وتمردتم.

والحق معي ومع ما ذهبت إليه من الرأي وقوله لو كان يطاع لقصير أمر فهو مثل يضرب لكل ناصح عصى وهو مصيب في رأيه.

وأصله: إن جذيمة الأبرش من ملوك العرب كان قد قتل أبا الزباء ملكة الجزيرة وبعد فترة بعثت إليه ليتزوجها خدعة منها له وسألته القدوم عليها فأجابها إلى ذلك وخرج إليها في ألف فارس وخلّف باقي جنوده مع ابن أخته عمرو بن عدي وكان قصير مولى له أشار عليه أن لا يتوجه إليها فلم يقبل رأيه فلما قرب جذيمة من الجزيرة استقبله جنود الزباء بالعدة ولم ير منهم إكراماً له فأشار عليه قصير بالرجوع عنها وقال: إنها امرأة ومن شأن النساء الغدر فلم يقبل فلما دخل إليها غدرت به وقتلته فعندها قال قصير:

«لا يطاع لقصير أمر» فذهبت قولته مثلاً. . .

(**فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة**) امتنعتم عن قبول رأيي امتناع المعاندين البعداء عني في جفاء وغلظة المحاربين لي المتمردين على أمري وهكذا كانوا فلم يحاوروا الإمام ويستمعوا منه بل بخشونة ورعونه كان حديثهم معه ومنطقهم. ، لم يقبلوا إلا التحكيم ولم يسمعوا لكلام الإمام ومقولته وقد كان الخوارج بهذه الصفات وعاملوه بأشد ما يكون حتى هددوه بأنه إذا لم يقبل بالتحكيم سوف يقتلونه كما قُتل عثمان. . إلى كلام جاف غليظ حتى حملوه على القبول كرهاً وقسراً. . .

(**حتى ارتاب الناصح بنصحه وضن الزند بقدحه فكنت انا وإياكم كما قال أخو هوازن:**

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى ... فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد)

هذا منه بيان لكثرة ما اجتمع منهم على رأي واحد يخالف الحق حتى أن الناصح عندما يراهم مجتمعين على رأي واحد يشكك في رأيه حيث يذهب إلى أن هذه الكثرة لم تكن لتذهب كلها إلى الباطل ويجتمع رأيها على غير الحق.

وأما قوله وضن الزند بقدحه أي امتنعت عن ابداء الآراء المفيدة الصائبة عندما رأيت رفضكم وامتناعكم عن قبول رأي وهو مثل يضرب لمن يبخل بفوائده لما يجده من رفض قوله. . .

ثم إنه كان أمره وأمرهم كما قال أمرهم ونصحهم وأرشدهم فلم يقبلوا منه ولكنهم أدركوا خطأهم وندموا على تمردهم عندما اتضحت لهم الأمور فتبين لهم سوء اختيارهم بعد حين. . .

وهذا البيت من الشعر لدريد بن الصمة يشرح قصته مع أخيه وتفصيلها أن أخاه عبد الله غزا بني بكر بن هوازن فغنم منهم واستاق إبلهم فلما كان بمنطقة منعرج اللوى قال: والله لا أبرح حتى أنحر البقيعة وهي ما ينحر من النهب قبل القسمة وأجيل السهام فقال له أخوه دريد: لا تفعل فإن القوم في طلبك فأبى عليه فأقام ونحر البقيعة وبات فلما أصبح هجم القوم عليه فطعنوه فاستغاث بأخيه دريد فدفع عنه فطعن أيضاً وحال الليل فنجا دريد ومات أخوه فقال دريد قصيدة من جملتها هذا البيت من الشعر.

تاريخ وموقف:

بايع المهاجرون والأنصار علياً خليفة بعد قتل عثمان ولكن طلحة والزبير وأم

المؤمنين عائشة خرجوا إلى البصرة فكانت موقعة الجمل الذي قتل فيها جمع غفير من المسلمين بما فيهم طلحة والزبير ونجت المرأة وبعد ذلك النبأ المروع تمرد معاوية في الشام ولم يكن قد أعطى الطاعة أو أعلن البيعة فجرت الرسل فأبى ابن أبي سفيان إلا تمرداً وعناداً فما كان من الإمام إلا أن جهز جيشاً لقتاله وهو أيضاً في مقابله جهز جيشاً بعد أن استدعى عمرو بن العاص واتخذه وزيراً وأعطاه مصراً طعمة. . .

وفي أواخر سنة ست وثلاثين كان الجيشان في مواجهة بعضهما وهما على أهبة الاستعداد للقتال ولكنهما توادعا في شهر محرم من سنة سبع وثلاثين على أن يتركا الحرب هذا الشهر لعلهما يصلان إلى صلح فلما انقضى أنذرهم الإمام ودعاهم إلى الطاعة فأبوا وتمردوا فكانت موقعة صفين التي ذهبت بأعيان الصحابة ووجهاء الأمة وزعماء الملة والتي خلفت جرحاً أعقبه شهادة الإمام وانتقال الخلافة إلى ابن هند. . .

ونحن سنوجز الواقعة ونقتصر في تفاصيلها ونبين منها رأي الإمام وكيف رفض الهدنة مع معاوية ولم يقبل بوقف الحرب ولكنه غلب على رأيه ورأي الأشتر ومن معهما. . .

كان القادة من جيش علي الأشتر النخعي على خيل الكوفة وسهل بن حنيف على جند البصرة وعمار بن ياسر على رجالة الكوفة وقيس بن سعد على رجالة البصرة وهاشم بن عتبة المرقال معه الراية وجعل مسعر بن فدكي على قراء الكوفة وأهل البصرة.

وأما معاوية فجعل على ميمنتة ذي الكلاع الحميري وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري وعلى مقدمته أبا الأعور السلمي وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص وعلى رجالة دمشق مسلم بن عقبة المري وعلى الناس كلهم الضحاك بن قيس. . .

ابتدأ القتال في أول صفر من سنة سبع وثلاثين وأخذ يشتد ويقوى حتى بلغ ذروته ومداه في ليلة هي أعظم ليلة لم يشهد مثلها العرب من ذي قبل تسمى ليلة الهرير.

وقد أشرف الأشتر في صبيحتها على عسكر معاوية ليدخله حتى وصل الأمر بمعاوية أن وضع رجله بالركاب وأراد الفرار.

وعندئذ أشار عمرو على معاوية بقوله إلقِ إلى القوم أمراً إن قبلوه إختلفوا وإن ردوه إختلفوا أدعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم فإنك بالغ به حاجتك في القوم وإني لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه.

فعرف معاوية ذلك وقال: صدقت.

ثم أمر معاوية بالمصاحف أن ترفع فرفع خمسماية مصحف من جملتها مصحف المسجد الأعظم.

ثم نادوا يا معشر العرب الله الله في النساء والبنات والأبناء من الروم والترك وأهل فارس غداً إذا فنيتم.. الله الله في دينكم هذا كتاب الله بيننا وبينكم.

وعندما سمع أصحاب الإمام ذلك اختلفوا فيما بينهم فطائفة قالت: القتال، وطائفة قالت: المحاكمة إلى كتاب الله ولا يحل لنا الحرب وقد كان الأشعث قد خطب في أصحابه من كندة ولوح بوقف الحرب.

وعندما رأى الإمام من أصحابه هذا الاختلاف قام خطيباً فقال: «أيها الناس إني أحق من أجاب إلى كتاب الله ولكنّ معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وابن أبي سرح وابن مسلمة ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إني أعرف بهم منكم صحبتهم صغاراً ورجالاً فكانوا شر صغار وشر رجال ويحكم إنها كلمة حق يراد بها باطل إنهم ما رفعوها وإنهم يعرفونها ويعملون بها ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا...

فجاءه من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكي سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود يتقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد فنادوه بإسمه لا بأمرة المؤمنين: يا علي أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم.

فردهم الإمام وبين لهم أنها المكيدة والمكر فأبوا وطلبوا منه أن يبعث وراء الأشتر ويرده عن القتال فأرسل وراءه فاستمهله الأشتر عدو الفرس فأصروا عليه حتى أنبأه أن القوم خيرّوه بين قتل الإمام أو يرجع الأشتر فرجع الأشتر وسبهم وسبوه.

وابتدأت المفاوضات على أن يحيوا ما أحيا القرآن ويميتوا ما أمات القرآن...

فاختار أهل الشام عمرو بن العاص.

فقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج اخترنا أبا موسى الأشعري.

فقال الإمام: لا أرضى بأبي موسى ولا أرضى أن أوليه فهذا ابن عباس.

قالوا: والله ما نبالي أكنت أنت أو ابن عباس ولا نريد إلا رجلاً هو منك ومن

معاوية سواء ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر.

قال عليه السلام: فإني أجعل الأشتر.

فقال الأشعث: وهل سعّر الأرض علينا إلا الأشتر وهل نحن إلا في حكم الأشتر.

قال عليه السلام وما حكمه؟.

قال: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد.

فلما أبىٰ الناس إلا أبا موسى والرضا[1] بالكتاب وأرادوا أن يكتبوا الكتاب.

كتبوا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين فقال عمرو: إكتب إسمه واسم أبيه هو أميركم وأما أميرنا فلا.

فقال الأحنف: لا تمح اسم إمارة المؤمنين فإني أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبداً، لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً فأبى ذلك علي ملياً من النهار ثم أن الأشعث بن قيس قال: إمح هذا الإسم فمحى فقال علي: الله أكبر سنة بسنة والله إني لكاتب رسول الله (ص) يوم الحديبية فكتب محمد رسول الله وقالوا: لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فأمرني رسول الله (ص) بمحوه فقلت: لا أستطيع.

فقال: أرنيه فمحاه بيده وقال: إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب...

وكتب الكتاب: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم. إننا ننزل على حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به وما لم يجداه في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة لا يرادها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجل القضاء إلى رمضان وأن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وشهد الشهود من الطرفين وأبى الأشتر أن يشهد.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ج/ ٣ حوادث سنة ٣٧.

إجتمع الحكمان في دومة الجندل ومع كل منهما فرقة من أتباعه.

وبعد أخذ ورد وطول جدال أرتأ أبو موسى الأشعري أن يخلع الرجلين ويجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا.

فقال عمرو: الرأي ما رأيت فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون.
فقال عمرو: يا أبا موسى أعلمهم أن رأينا قد اتفق فتكلم أبو موسى.
فقال: إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة.
فقال عمرو: صدق وبر تقدم يا أبا موسى فتكلم، فتقدم أبو موسى.

فقال له ابن عباس: ويحك والله إني لأظنه قد خدعك، إن كنتما اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم به قبلك ثم تكلم به بعده فإنه رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما فإذا قمت في الناس خالفك.

وكان أبو موسى مغفلاً فقال: إنا قد اتفقنا وقال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها وألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو أن نخلع علياً ومعاوية ويولي الناس أمرهم مَنْ أحبوا وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه أهلاً ثم تنحى.

وأقبل عمرو فقام وقال: إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه.

فقال سعد: ما أضعفك يا أبا موسى عن عمرو ومكايده.

فقال أبو موسى: فما أصنع؟ وافقني على أمر ثم نزع عنه.
فقال ابن عباس: لا ذنب لك يا أبا موسى، الذنب لمن قدّمك في هذا المقام.
قال: غدر فما أصنع؟.

فقال ابن عمر أنظروا إلى ما صار أمر هذه الأمة، صار إلى رجل ما يبالي ما صنع وإلى آخر ضعيف.

وقال أبو موسى لعمرو: لا وفقك الله غدرت وفجرت إنما مثلك «كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث».

فقال عمرو: إنما مثلك «كمثل الحمار يحمل أسفاراً» وبين الكلب والحمار ضاع أمر الأمة وتوجهت إلى غير وجهتها السليمة.

فعاد أصحاب الإمام إلى الكوفة في هم وغم أرادوا مع إمامهم أن يهيئوا أنفسهم ليخرجوا إلى قتال معاوية ورجع أصحاب معاوية إليه بالبهجة والسرور ولم تهمل الأيام علياً أو تتركه حتى ينفجر الموقف مع أهل النهروان من أصحاب الإمام فيقتلهم ثم يُقتل الإمام بيد خارجي كافر وينتقل الأمر إلى الحسن عليه السلام ولظروف صعبة يذكرها التاريخ يستولي معاوية على مقاليد الحكم ويتولى الأمر بالغلبة والقهر . . .

ومقصودنا من سرد ما أوردناه أن الإمام رفض مبدأ التحكيم وحذر أصحابه من قبوله ولكنهم رفضوا أمره وأبوا عليه إلا القبول. . وبعد القبول فرضوا عليه أبا موسى الأشعري والإمام يعرفه ويعرف موقفه منه وهكذا كانت مسيرة الأحداث. .

٣٦ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في تخويف أهل النهروان[(١)]

فَأَنَا نَذِيرٌ[(٢)] لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَىٰ[(٣)] بِأَثْنَاءِ هٰذَا النَّهَرِ[(٤)]، وَبِأَهْضَامِ[(٥)] هٰذَا ٱلْغَائِطِ[(٦)]، عَلَىٰ غَيْرِ بَيِّنَةٍ[(٧)] مِنْ رَبِّكُمْ، وَلاَ سُلْطَانٍ[(٨)] مُبِينٍ مَعَكُمْ: قَدْ طَوَّحَتْ[(٩)] بِكُمُ الدَّارُ، وَٱحْتَبَلَكُمُ[(١٠)] ٱلْمِقْدَارُ[(١١)]، وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ[(١٢)] عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُنَابِذِينَ[(١٣)]، حَتَّى صَرَفْتُ[(١٤)] رَأْيِي إِلَىٰ هَوَاكُمْ، وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ[(١٥)] أَخِفَّاءُ ٱلْهَامِ[(١٦)]، سُفَهَاءُ ٱلأَحْلاَمِ[(١٧)]؛ وَلَمْ آتِ ـ لاَ أَبَا لَكُمْ ـ بُجْراً[(١٨)]، وَلاَ أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرّاً[(١٩)].

اللغة

١ ـ النهروان : بلدة قريبة من بغداد.
٢ ـ النذير : المنذر وهو المخوف والنذير هو الذي يعلم بالشيء ويحذر من عواقبه.
٣ ـ صرعى : جمع صريع أي طريح.
٤ ـ أثناء النهر : منعطفاته.
٥ ـ الأهضام : جمع هضم وهو المطمئن من الوادي.
٦ ـ الغائط : من الأرض ما انخفض منها.
٧ ـ البينة : الدليل والحجة ما يظهر به الشيء.
٨ ـ السلطان : جمعه سلاطين.
٩ ـ طوحت : من طاح إذا هلك وسقط وطوح به رماه.
١٠ ـ احتبلكم : أوقعكم في حبالته.

١١ ـ **المقدار** : القدر الإلهي.
١٢ ـ **أبيتم** : من أبى الشيء إذا كرهه وأبى عليه امتنع وأبى الشيء عليه منعه عنه.
١٣ ـ **المنابذين** : من نبذ الشيء إذا طرحه.
١٤ ـ **صرفت** : الرأي عن كذا حولته عنه ودفعته.
١٥ ـ **معاشر** : مفرده معشر الجماعة.
١٦ ـ **أخّفاء الهام** : الهام الرأس والخفة في العقول الطيش.
١٧ ـ **سفهاء الأحلام** : السفهاء الحمقى والأحلام العقول.
١٨ ـ **البجر** : بالضم الشر والأمر العظيم والداهية.
١٩ ـ **الضر** : ضد النفع، الشدة والضيق، سوء الحال.

الشرح

(فأنا نذير لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر) وجّه الإمام كلامه إلى الخوارج المعبر عنهم أيضاً في لسان الأحاديث النبوية بالمارقين وقد أخبر صلوات الله عليه أنهم شرار الناس وأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وكانوا قد أجبروا الإمام على التحكيم ثم حكموا بكفر من رضي به بما فيه أنفسهم ولكنهم تابوا وأمروا غيرهم بالتوبة منه فوعظهم الإمام وخوفهم وأنذرهم وكانت هذه الخطبة بمثابة إنذار لهم وتهديد بأنه لن يتركهم يعيثون في الأرض فساداً بل سيأخذهم ويقضي عليهم.

خوفهم وحذرهم من أن يكونوا ضحايا وأمواتاً في أطراف هذا النهر ومنعطفاته حيث يتجمعون ويلتقون لقتاله وقد أنذرهم الإمام وحاورهم وناقشهم وأوضح لهم السبيل وبين لهم الحق ولكن لقصورهم الفكري والثقافي وضيق أفقهم الذي يرونه كانوا مصرين على موقفهم الخاطىء...

(وبإهضام هذا الغائط على غير بينة من ربكم ولا سلطان مبين معكم) حذرهم وأنذرهم أن يكونوا قتلى في منعطفات النهر وتعرجاته وفي منبسط الأرض وسهلها وموتهم هذا يكون بدون بينة لهم ولا حجة تدعم موقفهم وما ذهبوا إليه من الرأي والموقف وهذا إسقاط لأعذارهم وأنهم حمقى يقدمون على الموت بدون مبرر شرعي أو حجة...

(قد طوحت بكم الدار واحتبلكم المقدار) دفعتكم الدنيا وطرحتكم بعيداً في

مهاوي الهلكة وقضت عليكم شهواتكم وتعصبكم الأعمى وكبلتكم أقدار الله في حبالة لا يمكنكم الفكاك منها . .

(وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فأبيتم عليّ إباء المنابذين) رفض الأمام التحكيم ولم يقبل به وقال للناس إن هذه خدعة ونهاهم عن قبوله ولكنهم رفضوا قوله وقالوا له : إن أن تقبل وإن أن نقتلك كما قتلنا ابن عفان فقد رفضوا رأيه رفض الأعداء الحاقدين والتاريخ ينقل رفض الإمام وتحذيره لهم وكلماته في هذا الرفض . .

(حتى صرفت رأيي إلى هواكم) فما ذهب إليه الإمام من رفض التحكيم والإصرار على متابعة الحرب حتى النهاية هو الرأي الصائب الذي يجب أن يعمل به ولكن الإمام تنازل عنه أمام ضغط الرأي المخالف الذي اجتمع عليه القراء وأصحاب الأهواء ممّن كانت نظرتهم محدودة أو محكومة بحكم الهوى ولكن الإمام سجله للتاريخ وقاله أمام الناس ليكون له حجة عليهم إذا غيّروا مواقفهم وبدلوها وقد كان ما حسب الإمام وقدره . .

(وأنتم معاشر أخفاء الهام سفهاء الأحلام ولم آت ـ لا أبا لكم ـ بجراً ولا أردت لكم ضراً) وأنتم جماعات لضعف عقولكم تتحولون في كل وقت عن آرائكم وتغيّرون مواقفكم لم تبلغوا الرشد في تصوراتكم وتقديراتكم للأمور وهذا الوصف منه لهم في موقعه فقد عرفوا بقصور النظر والانكماش على الذات وعدم إمكان التحاور، والإصرار على ما يرون مع خطأ مصدره ومقصده فالعقول ضعيفة والأحلام خفيفة ثم بيّن أنه لم يأت بسيئة أو شر ولا أراد لهم ضراً عندما قبل معهم وتحت ضغوطهم وما أجبروه عليه من التحكيم حفظاً لوحدتهم وعدم تشتتهم خوفاً عليهم أن يضرب بعضهم بعضاً وتذهب ريحهم . .

الخوارج :

الخوارج جماعة انشقت من جيش الإمام علي عليه السلام وقد ذهبت أول أمرها إلى إجباره ومن كان على رأيه إلى التحكيم عندما رفع معاوية المصاحف أمامها ودعاها إلى النزول على حكمه ثم عدلت عن رأيها ورأت خطأ ما ذهبت إليه من التحكيم وعدته كفراً يحتاج إلى التوبة منه والإقلاع عنه وقد أرادوا من الإمام ذلك وأصروا عليه أن يرفض التحكيم بعد أن أجبروه عليه فكان جوابه أبعد أن أعطاهم العهد ورضي بالحكومة ينتقضها دون مبرر فما كان منهم إلا أن اعتزلوه ونابذوه ونحن ننقل بعض أخبارهم بشكل موجز يتناسب والمقام الذي نحن فيه . . .

إخبار النبي (ص) عنهم:

وردت الأخبار عن النبي بهذه الفرقة المارقة وقد رواها أصحاب الصحاح ونقلها المفسرون وبلغت في كثرتها حد التواتر أذكر منها.

١ ـ عن أبي سعيد الخدري كما في صحيح البخاري[1] قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسّم قسماً أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم.

فقال: يا رسول الله أعدل.

فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل.

فقال عمر: يا رسول الله إئذن لي فيه فاضرب عنقه.

قال: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية (إلى أن قال) آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدر در ويخرجون على خير فرقة من الناس.

(قال أبو سعيد) فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتى به حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعت...

٢ ـ روى بسنده عن عبيدة عن علي كما في صحيح مسلم في باب التحريض على قتل الخوارج قال: ذكر الخوارج فقال: فيهم مخدج اليد أو مؤدن اليد أو مثدون اليد لولا أن تبطروا لحدثتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ قال: قلت: أنت سمعته من محمد ﷺ؟.

قال: إي ورب الكعبة إي ورب الكعبة...

وروى مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج روى بسنده عن زيد بن وهب الجهني إنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي الذين ساروا إلى الخوارج.

فقال علي: أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج قوم من أمتي يقرؤن القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا

---

(١) صحيح البخاري باب بدء الخلق.

صيامكم إلى صيامهم بشيء يقرؤن القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لو يعلم الجيش الذي يصيبونهم ما مضى لهم على لسان نبيهم لاتكلوا على العمل وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض (إلى أن قال) وقتل بعضهم على بعض وما أصيب من الناس يومئذٍ إلا رجلان.

فقال علي: إلتمسوا فيهم المخدج فالتمسوه فلم يجدوه فقام علي بنفسه حتى أتى أناساً قد قتل بعضهم على بعض قال: أخرجوهم فوجدوه مما يلي الأرض فكبر ثم قال: صدق الله وبلغ رسوله فقام إليه عبيدة فقال: يا أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ؟ قال: إي والله الذي لا إله إلا هو حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلف له.

وروى مضمون هذا الحديث في قتال الخوارج.

ابن ماجة في صحيحه باب ذكر الخوارج وكذلك أبو داود في باب قتال الخوارج وأحمد بن حنبل في مسنده ورواه في مستدرك الصحيحين وفي الطبقات لابن سعد وفي الحلية لأبي نعيم وتاريخ بغداد والهيثمي في مجمعه وكنز العمال.

وبالجملة فكما قلنا بلغ حد التواتر عن النبي (ص)...

قصة الخوارج:

رفع معاوية المصاحف على الرماح بعد أن كاد يهلك وقال جماعته بيننا وبينكم كتاب الله من لثغور الشام بعد أهله؟! من لثغور العراق بعد أهله؟...

فلما رآها الناس قالوا: نجيب إلى كتاب الله...

فقال لهم علي: عباد الله أمضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم فإن معاوية وعمراً وابن أبي معيط وحبيباً وابن أبي سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً ثم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم والله ما رفعوها إلا خديعة ووهناً ومكيدة.

فقالوا له: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله فقال لهم علي: فإني إنما قاتلتهم ليدينوا لحكم الكتاب فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم[1] ونسوا عهده ونبذوا كتابه

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج/ ٣ ص ٣١٧.

فقال له مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي في عصابة من القراء الذين صاروا خوارج فيما بعد: يا علي أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلناه بابن عفان.

قال الإمام: فاحفظوا عني نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم لي فإن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم...

وفي شرح النهج لأبن أبي الحديد.

فجاءه من أصحابه ـ أصحاب الإمام[١] ـ زهاء عشرين ألفاً مقنعيّن في الحديد، شاكي سيوفهم على عواتقهم وقد أسودت جباههم من السجود يتقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد فنادوه باسمه لا بأمرة المؤمنين: يا علي أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم...

فقال لهم: ويحكم! أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب إليه وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله، إني إنما قتلتهم ليدينوا بحكم القرآن فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ونبذوا كتابه ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوك وأنهم ليس العمل بالقرآن يريدون..

قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتينك وقد كان الأشتر صبيحة ليلة الهرير أشرف على عسكر معاوية ليدخله..

تنبيه: يجب أن نتنبه إلى أمرين مهمين.

الأول: إن الإمام كان يرفض التحكيم ويأباه ويصر على مواصلة المعركة حتى نهايتها فإن النصر بعد ساعات وهذا ما صرح به في كلماته واستشهد القوم عليه.

الثاني: إن الخوارج كانوا أسرع الناس إلى قبول فكرة التحكيم وإنهم هددوا الإمام بتسليمه لمعاوية أو قتله إن هو لم يوقف المعركة ويقبل بالتحكيم..

اعتزال الخوارج علياً:

تحت ضغط الخوارج ومن يجتمع معهم في الرأي اضطر الإمام أن يوقف معركة

---

(١) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج/ ٣ ص ٣١٧.

صفين وقد قهروه أيضاً على اختيار من يفاوض عنه بارتضائهم لأبي موسى الأشعري مع رفض الإمام له. . .

وكتبت صحيفة الهدنة واختيار الحكمين وبعد أن تم ذلك ورجع الإمام إلى الكوفة والهدنة قائمة ينتظر الناس ما يرجع به الحكمان وإذا بالخوارج يعلنون التمرد والعصيان وينشقون عن جيش الإمام متخذين لأنفسهم حكومة حرب مؤقتة في حروراء في إثني عشر ألفاً من الزهاد والعباد ونادى مناديهم: إن أمير القتال شبث بن ربعي التميمي وأمير الصلاة عبد الله بن الكوّا اليشكري والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . .

وسمع الإمام بموقف الخوارج وجاءته أخبارهم فأرسل ابن عباس وأمره أن لا يعجل في خصومتهم حتى يقدم عليهم. . .

قدم الإمام عليهم وهم يخاصمون ابن عباس فقال له: ألم أنهك عن كلامهم. . .

ثم تكلم فقال: اللهم هذا مقام من يفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة.

ثم قال لهم: من زعيمكم؟.

قالوا: ابن الكوا.

قال: فما أخرجكم علينا؟.

قالوا: حكومتك يوم صفين.

قال: أنشدتكم الله أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف وقلتم نجيبهم قلت لكم إني أعلم بالقوم منكم إنهم ليسوا بأصحاب دين؟ وذكر ما كان قال لهم، ثم قال لهم قد اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف وإن أبيا فنحن عن حكمهما براء. . .

قالوا: فخبرّنا أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء.

فقال: إنا لسنا حكمنا الرجال، إنما حكمّنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال.

قالوا: فخبرنا عن الأجل لما جعلته بينكم؟.

قال: ليعلم الجاهل ويثبت العالم ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة. . .

ثم لم يقتنعوا بمقالة الإمام ولم يحجوه بشيء عندهم بل كانوا يعكرون صفو

الجماعة وينابذونها ويرون الأمة كلها قد كفرت بهذا التحكيم وعليها أن تتوب ورفعوا شعار «لا حكم إلا لله» فكان الإمام يقول: لا حكم إلا لله يريد به غير ما أرادوا ويطلب غير ما طلبوا. . حتى قال له بعض قادتهم: تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا حتى نلقى ربنا فقال له علي عليه السلام: أردتكم على ذلك فعصيتموني وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتاباً وشرطنا شروطاً وأعطينا عليها عهوداً وقد قال الله تعالى: ﴿وافوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾. .

فقال حرقوص بن زهير: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب عنه.

فقال علي: ما هو بذنب ولكنه عجز عن الرأي وقد نهيتكم.

فقال زرعة أحد قادتهم: يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقتلنك أطلب وجه الله تعالى.

فقال علي: بؤساً لك ما اشقاك كأني بك قتيلاً تسفي عليك الرياح. . .

قال: وددت لو كان ذلك. . .

وخطب الإمام ذات يوم فحكمت المحكمة في جوانب المسجد «قالوا لا حكم إلا لله».

فقال الإمام: كلمة حق أريد بها باطل إن سكتوا غممناهم وإن تكلموا حججناهم وإن خرجوا علينا قاتلناهم. . .

ثم خطب الإمام في يوم آخر فقام رجل فقال: «لا حكم إلا لله» ثم توالى عدة رجال يحكمون.

فقال علي: الله أكبر، كلمة حق أريد بها باطل.

أما إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا نمنعكم الفيىء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا وإنما فيكم أمر الله.

ثم إن الخوارج التقوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فخطبهم وزهدهم في الدنيا فأمّروه عليهم بعد أن رفضها غيره. . .

قرروا جميعاً أن يخرجوا عن دائرة حكم الإمام وينفصلوا عنه وخططوا لذلك بنصب رئيس لهم بايعوه فكان عبد الله بن وهب الراسبي وخرجوا إلى جسر النهروان وكتبوا إلى إخوانهم في الآفاق أن يوافوهم. . .

خرجت الخوارج وقد جرى التحكيم على غير كتاب الله وقد اتخذوا موقفاً من الإمام على مستوى عدائهم لمعاوية. . .

وكتب الإمام إلى الخوارج المجتمعين بالنهر: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس: أما بعد فإن هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا القرآن حكماً فبرىء الله منهما ورسوله والمؤمنون فإذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا إلينا فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه.

فكتبوا إليه: أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نبذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

فلما قرأ الكتاب يئس منهم فرأى أن يدعهم ويمضي لحرب أهل الشام.

ثم كتب الإمام إلى ابن عباس في البصرة أن يشخص إليه من أهلها المقاتلة فخرج إليه ثلاثة آلاف ومائتان وكتب إلى سعد بن مسعود في المدائن بإرسال من عنده من المقاتلة.

وفي تلك الأثناء، ترتفع بعض الأصوات بقتال الخوارج والتخلص منهم حتى يتفرغوا لقتال أهل الشام وتكون أظهرهم في أمن وكذلك أموالهم وذريتهم. . .

فقال لهم الإمام: بلغني إنكم قلتم كيت وكيت وإن غير هؤلاء الخارجين أهم إلينا فدعوا ذكرهم وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكاً ويتخذوا عباد الله خولا فناداه الناس: أن سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت. .

الخوارج والإفساد في الأرض:

أخذ الإمام على نفسه أن لا يقاتل الخوارج طالما أنهم لم يقاتلوه ولم يفسدوا في الأرض أو يرّوعوا الناس ويعتدوا عليهم. . ولكن هذه العصابة المتحجرة غير الواعية لم تكتف بالاعتزال عن الإمام ومخالفته في نهجها الفكري الخاطىء حتى سلكت طريق الإفساد وترويع الناس بل هددت نظام حكم الإمام عندما عمدت إلى المسلمين تقتل من خالفها منهم في الرأي والمعتقد ومن ذلك كما يرويه التاريخ وأنقل نص ابن الأثير في كامله فيقول:

لما أقبلت الخارجة من البصرة حتى دنت من النهروان رأى عصابة منهم رجلاً يسوق بامرأة على حمار فدعوه فانتهروه فأفزعوه وقالوا له: من أنت.

قال: أنا عبد الله بن خبّاب صاحب رسول الله ﷺ فقالوا له: أفزعناك؟.

قال: نعم.

قالوا: لا روع عليك، حدثنا عن أبيك حديثاً سمعه من رسول الله ﷺ تنفعنا به.

فقال: حدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه قال: تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه يُمسي فيها مؤمناً ويصبح كافراً ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً.

قالوا: لهذا الحديث سألناك.

فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيراً.

قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟..

قال: إنه كان محقاً في أولها وفي آخرها.

قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده؟.

قال: إنه أعلم بالله منكم وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة.

فقالوا: إنك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً.

فأخذوه وكتفوه ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متم حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت منه رطبة فأخذها أحدهم فتركها في فيه.

فقال آخر: أخذتها بغير حلها وبغير ثمن فألقاها، ثم مرّ بهم خنزير لأهل الذمة فضربه أحدهم بسيفه فقالوا: هذا فساد في الأرض فلقى صاحب الخنزير فأرضاه.

فلما رأى ذلك منهم ابن خبّاب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما عليّ منكم من بأس، إني مسلم ما أحدثتُ في الإسلام حدثاً ولقد آمنتموني، قلتم: لا روع عليك فاضجعوه فذبحوه فسال دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة فقالت: أنا امرأة ألا تتقون الله فبقروا بطنها وقتلوا ثلاث نسوة من طيىء وقتلوا أم سنان الصيداوية.

فلما بلغ علياً قتلهم عبد الله بن خباب واعتراضهم الناس بعث إليهم الحارث بن مرة العبدي ليأتيهم وينظر ما بلغه عنهم ويكتب به إليه ولا يكتمه فلما دنا منهم يسائلهم قتلوه وأتى علياً الخبر والناس معه.

فقالوا: يا أمير المؤمنين علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا؟ سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام. . .

فخرج إليهم الإمام بالناس ولما وصل إليهم قال لهم: إدفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم فقالوا: كلنا قتلهم وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم فدار حوار ونقاش وخطبهم الإمام بقوله:

إني نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمة غداً صرعى بأثناء هذا الوادي وبأهضام هذا الغائط بغير بينة من ربكم ولا برهان مبين. . الخطبة المتقدمة. . .

فتنادى الخوارج: لا تخاطبوهم ولا تكلموهم وتهيأوا للقاء الله. . الرواح الرواح إلى الجنة فعاد علي عنهم.

ثم إن الخوارج قصدوا جسر النهر وكانوا غربه فقال لعلي أصحابه: إنهم قد عبروا الجسر.

فقال: لن يعبروا فأرسلوا طليعة فعاد وأخبرهم أنهم عبروا النهر وكان بينهم وبينه عطفة من النهر فلخوف الطليعة منهم لم يقربهم فعاد فقال: إنهم عبروا النهر.

فقال علي: والله ما عبروه وإن مصارعهم لدون الجسر ووالله لا يقتل منكم عشرة ولا يسلم منهم عشرة وتقدم علي إليهم فرآهم عند الجسر لم يعبروه وكان الناس قد شكوا في قوله وارتاب به بعضهم فلما رأوا الخوارج لم يعبروا كبروا وأخبروا علياً بحالهم فقال: والله ما كذبت ولا كُذبت ثم أنه عبأ أصحابه فجعل على ميمنته حجر بن عدي وعلى ميسرته شبث بن ربعي أو معقل بن قيس الرياحي وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري وعلى أهل المدينة وهم سبعمائة أو ثمانمائة قيس بن سعد بن عبادة.

وعبأت الخوارج فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي وعلى الميسرة شريح بن أوفى العبسي وعلى خيلهم حمزة بن سنان الأسدي وعلى رجالتهم حرقوص بن زهير السعدي.

وأعطى علي أبا أيوب الأنصاري راية الأمان فناداهم أبو أيوب فقال: من جاء تحت هذه الراية فهو آمن ومن لم يقتل ولم يستعرض ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم فقال فروة بن نوفل الأشجعي: والله ما أدري على أي شيء نقاتل علياً أرى

أن أنصرف حتى يتضح لي بصيرتي في قتاله أو أتابعه فانصرف في خمسماية فارس حتى نزل البندنجين والدسكرة،وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلوا الكوفة وخرج إلى علي نحو مائة وكانوا أربعة آلاف فبقي مع عبد الله بن وهب ألف وثمانماية فزحفوا إلى علي وكان علي قد قال لأصحابه كفوا عنهم حتى يبدأوكم فتنادوا الرواح إلى الجنة وحملوا على الناس فافترقت خيل علي فرقتين.. فأهلكوا في ساعة فكأنما قيل لهم موتوا فماتوا...

ولما فرغ علي من المعركة أمر أصحابه أن يلتمسوا المخدج فالتمسوه فقال بعضهم: ما نجده حتى قال بعضهم ما هو فيهم فقال الإمام: والله إنه لفيهم، والله ما كذبتُ ولا كُذبت ثم إنه جاءه رجل فبشره فقال يا أمير المؤمنين قد وجدناه وقيل بل خرج علي في طلبه قبل أن يبشره الرجل ومعه سليم بن ثمامة الحنفي والريان بن صبرة فوجده في حفرة على شاطىء النهر في خمسين قتيلاً فلما استخرجه نظر إلى عقده فإذا لحم مجتمع كثدي المرأة وحلمة عليها شعرات سود فإذا مدت امتدت حتى تحاذي يده الطولى ثم تترك فتعود إلى منكبيه فلما رآه قال: الله أكبر ما كذبت ولا كُذبت لولا أن تنكلوا عن العمل لأخبرتكم بما قص الله على لسان نبيه ﷺ لمن قاتلهم مستبصراً في قتالهم عارفاً للحق الذي نحن عليه.

وقال حين مر بهم وهم صرعى: بؤساً لكم لقد ضركم من غركم.

قالوا: يا أمير المؤمنين من غرهم؟.

قال: الشيطان وأنفس أمارة بالسوء غرتهم بالأماني وزينت لهم المعاصي ونبأتهم أنهم ظاهرون.

ولم يقتل من أصحاب علي إلا سبعة كان فيهم يزيد بن نويرة الأنصاري وله صحبة وسابقة وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة وكان أول من قتل..

الخلاصة:

إن الخوارج كانوا على ضلال في خروجهم وقد خرجوا على الخليفة الشرعي بدون مبرر إلا ما تصوّروه حجة لديهم وهي حجة قد بيَّن الإمام فسادها وأوضح لهم طريق الحق...

ثم إنهم لو خالفوه في وجهة النظر واقتصروا على المعارضة السياسة لما حاربهم

الإمام وقتلهم ولكن باعتبار خروجهم عليه بقوة السلاح والعسكر والتجمعات ثم منابذته وإعلان الحرب عليه كان لا بد له من محاربتهم وقتالهم وردهم إلى الطاعة أو القضاء عليهم. . .

ثم لا ننسى ما أخبر به من أنه لن ينجو منهم إلا دون العشرة ولن يقتل من جيشه إلا دون العشرة وأيضاً يجب أن نتذكر ذو الثدية وكشف الإمام عن هذه العلامة وبيانها للناس وإنه قد أخبر النبي به وبما يجري عليه وبما هو فيه من الضلال. .

٣٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

يجري مجرى الخطبة

وفيه يذكر فضائله ـ عليه السلام ـ قاله بعد وقعة النهروان

فَقُمْتُ بِٱلْأَمْرِ(١) حِينَ فَشِلُوا(٢)، وَتَطَلَّعْتُ(٣) حِينَ تَقَبَّعُوا(٤)، وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا(٥)، وَمَضَيْتُ بِنُورِ ٱللّهِ حِينَ وَقَفُوا. وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ(٦) صَوْتاً، وَأَعْلاَهُمْ فَوْتاً(٧)، فَطِرْتُ(٨) بِعِنَانِهَا(٩)، وَٱسْتَبْدَدْتُ(١٠) بِرِهَانِهَا(١١). كَٱلْجَبَلِ لاَ تُحَرِّكُهُ ٱلْقَوَاصِفُ(١٢)، وَلاَ تُزِيلُهُ(١٣) ٱلْعَوَاصِفُ. لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ(١٤) وَلاَ لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ(١٥)، الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّىٰ آخُذَ ٱلْحَقَّ لَهُ، وَٱلْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّىٰ آخُذَ ٱلْحَقَّ مِنْهُ. رَضِينَا عَنِ ٱللّهِ قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَا(١٦) لِلّهِ أَمْرَهُ. أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ ٱللّهِ صَلَّى ٱللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَٱللّهِ لأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ، فَلاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ. فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي، فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي، وَإِذَا ٱلْمِيثَاقُ(١٧) فِي عُنُقِي لِغَيْرِي.

اللغة

١ ـ قمت بالأمر : نهضت به.

٢ ـ فشلوا : من الفشل وهو الخور والجبن.

٣ ـ تطلعت : أشرفت.

٤ ـ تقبعوا : اختبأوا وأصله من تقبع القنفذ إذا أدخل رأسه في جلده.

٥ ـ تعتعوا : من التعتعة وهي التردد والاضطراب في الكلام من عي أو حصر.

٦ ـ أخفضهم : خفض صوته ضد رفعه غضه وأخفاه.
٧ ـ الفوت : السبق.
٨ ـ طار به : سبق به وسارع.
٩ ـ العنان : سير اللجام الذي تضبط به الفرس.
١٠ ـ استبد : بالأمر إنفرد به واستقل.
١١ ـ الرهان : الجعل الذي وقع التراهن عليه.
١٢ ـ القواصف : من قصف العود إذا كسره.
١٣ ـ أزاله : نحاّه، ومحاه.
١٤ ـ المهمز : من الهمز الوقيعة بالعيب.
١٥ ـ المغمز : من الغمز. وهو الطعن.
١٦ ـ سلّمنا : رضينا وانقدنا.
١٧ ـ الميثاق : العهد.

الشرح

(فقمت بالأمر حين فشلوا) يذكر عليه السلام بعض مفاخره رداً لمن أتهمه بما لا يليق به فذكر أنه نهض بأمر الإسلام والدعوة له بلسانه وسنانه فقد عرفته ساحات الوغى وفي كل غزوة لسيفه صولة حتى قيل ما قام الإسلام إلا بسيف علي ومال خديجة ونظرة سريعة نحو غزوات النبي تتضح الأمور وتتبين فلم تخل غزوة من حضوره بل كان في كل واحدة بطلها غير المنازع وفارسها غير المقارع وفي مقابل ذلك ترى غيره يجبن ويتردد ويخور ولا يقدر على مواجهة الأعداء حتى قالوا عن عمر عندما أرسله النبي لفتح خيبر رجع وهو يجبن أصحابه وأصحابه يجبنونه، نعم كان من دأب عمر أن يقول للنبي إذا جاءه أسير: دعني يا رسول الله أضرب عنقه أو إذا كان أحد من أصحابه الضعفاء يقول: إئذن لي يا رسول الله أن أضرب عنق هذا المنافق..

(وتطلعت حين تقبعوا) بحثت عن الأمور الغامضة وعما يفيد الأمة وسألت رسول الله عن كل صغيرة وكبيرة ولم يشغلني شاغل عن محادثته والاستفادة منه وقد كان الإمام تربى في بيت النبي وسمع منه ما لم يسمعه أحد حتى قال: علمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب.. وفي المقابل كان غيره يضم جوانحه وينزوي خلف تجارة يديرها أو مصالح يبحث عنها فكان ضعيف الهمة عن طلب ما يطلبه الإمام.

(ونطقت حين تعتعوا) أفصحت عن المسائل المهمة والمشكلات المدلهمة في حين أصيبوا بالعجز والعي ولم يستطيعوا أن يدركوا ما أدركت وقد ثبت أن الخلفاء عادوا إلى الإمام وسألوه عما أشكل عليهم حتى قال عمر قولته المشهورة لا بقيت لمعضلةٍ ليس لها أبو الحسن. . وقوله: لولا علي لهلك عمر. .

(ومضيت بنور الله حين وقفوا) سرت وفق الأمر الإلهي واهتديت إليه، فإنه عليه السلام فتح عينيه على رسالة الله وما رسمته لهذا الإنسان من منهج عقيدي وحركي بينما غيره وقف عن هذا الوحي الإلهي وهذه الرسالة المنجية. .

(وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فوتاً) وعلى عادة أهل الحركة، الذين يعملون بهدوء وصمت فقد كان عليه السلام بهدوء المؤمن الواعي الذي لا يملأ الدنيا إعلاماً وأخباراً كان يجري نحو الهدف الإلهي المرسوم ولذا مع هذا الهدوء كان له قصب السبق في كل الحقول وعلى كل المستويات وفي جميع الميادين. .

(فطرت بعنانها واستبددت برهانها) تملك الإمام ناصية الفضائل والكمالات ولم تقدر أن تزّل قدمه في موقف ولذا كان يؤخذ عليه موقفه المبدئي الرسالي الذي لا يساوم عليه ولا يتنازل عنه، لقد ذهب بالفضائل كلها واجتمع فيه ما تفرق في غيره. وقد انفرد بها وفاز بنتيجتها التي أهلته للإمامة وقيادة الأمة وبالحقيقة لقد كان هذا الرجل يتيم المعدن جاد به الدهر فرداً لم يشفع بنظير أو شبيه، حارت العقول والألباب في تفسيره وبعد تطواف كبير حول أعتاب هذه الشخصية أقرت بالعجز وتيقنت الفشل في الوصول إلى تفسير معقول لهذه الشخصية الإلهية وصدق رسول الله الذي قال له: يا علي لم يعرفك إلا الله وأنا. . .

(كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف) وأي جبل كان ابن أبي طالب. . كان جبل الإيمان والعقيدة والتقوى وإن الجبل ليفل منه وابن أبي طالب لا يفل منه وقف في حروبه مع النبي موقفاً ينفرد فيه ويعز على غيره مثله. . وتلك مواقفه مسطورة مذكورة وضرباته مشهورة مذكورة يتحدث بها الجبناء فتشد من عزائمهم وتطرد فشلهم ويتذكرها أهل الشجاعة فتقوى شجاعتهم وتشتد. . وليس الأمر بمقتصر على فترة النبوة بل في كل مراحل حياته كان ثابت الجنان قوي البرهان لم تفل منه الأيام ضعفاً ولم تصبه بوهن وإنما كان يزداد صلابة وقوة وثباتاً على الموقف الذي يتبناه ويذهب إليه قال أحمد شوقي أمير الشعراء مخاطباً الإمام قائلاً:

يا جبلاً تأبى الجبال ما حمل ماذا رمت عليك ربة الجمل

(لم يكن لأحد فيّ مهمز ولا لقائل فيّ مغمز) وبأي شيء يعاب ابن أبي طالب ولا عيب فيه فهو طاهر من الذنوب نقي من العيوب نعم إذا كانت تعاب الفضائل والمكارم فلأبن أبي طالب أن يعاب لأنه جمع ما تفرق في غيره والتقى فيه ما توزع في سواه.. وهل يعاب الإيمان والسبق إليه؟ وهل يعاب الجهاد في سبيل الله ودفع الظلم والجور؟..

(الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه) الحق هو الميزان في نظر الإمام وقد عاش الإمام هذا الميزان ولم يغيّر عنه أو يبدله بسواه وقد أجراه على نفسه حتى جاء معه في لسان النبي عندما قال له: الحق مع علي وعلي مع الحق وأراد أيضاً أن يجري بين الناس فيصغر الكبير العزيز أمام هذا الحق ويكبر الضعيف الحقير الذي له هذا الحق...

الذليل.. الضعيف.. الذي ليس له عشيرة تحميه وتدفع عنه هو عند علي عزيز كبير طالما أن له الحق وهو يبقى كذلك حتى يأخذ له الحق وأما العزيز بقوته وعشيرته وماله وسلطانه فهو الضعيف أمام الحق وسيبقى هكذا حتى يأخذ منه الحق..

(رضينا عن الله قضاءه وسلمنا لله أمره) يقول شرّاح النهج أن هذا الكلام منه كان لما تفرّس في قوم من عسكره أنهم يتهمونه فيما يخبر به عن النبي (ص) من أخبار الملاحم والغائبات وقد كان شك منهم جماعة في أقواله ومنهم من واجهه بالشك والتهمة.

وهو هنا يرضى بقضاء الله الذي يحكمه ويسلم بأمره الذي يأمره من حيث أنه يواجه بهذه التهم الباطلة والشكوك الزائفة..

(أتراني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ والله لأنا أول من صدقه فلا أكون أول من كذب عليه) استفهام استنكاري وإن ذلك لا يكون أبداً.. وإنه عليه السلام لا يجري في حقه أن يكذب على رسول الله ويقول عنه ما لم يقله وقد بين صدق ذلك بأنه أول من صدقه وآمن بنبوته وتابعه في مسيرته يوم لا منافع ولا أطماع فهل يكون أول من يكذب عليه وهو المحامي والمدافع عنه ومن بادر إلى الإيمان بشيء لا يبادر إلى نقضه وإبطاله وهو قد آمن بالنبي وصدقه فلن يخالفه أو يفتري عليه وهو هو بالنسبة إليه..

(فنظرت في أمري فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي وإذا الميثاق في عنقي لغيري) قالوا إنه ينظر إلى بيعة الخلفاء الذين تقدموه وإلى وصية النبي له بالصبر عليهم والكف عن مواجهتهم بأنه نظر فيما آل إليه أمره بعد البيعة لهم وتسلطهم فإذا طاعته لهم بوصية النبي له سبقت بيعته لهم فهو مأمور بطاعتهم وعدم منابذتهم قبل أن يأخذوا البيعة منه وإذا

الميثاق الذي أمرني به النبي بعدم قتالهم في عنقي لهؤلاء الجماعة المغتصبين للحق.

ويمكن أن يكون مراده ـ والله وقائله أعلم ـ نظرت فيما أنا عليه فإذا طاعتي واجبة على القوم لأنني الوصي وصاحب الحق وهذا ثابت قبل البيعة لي منهم وإذا العهد بالقيام في شؤون الإمارة الذي هو في رقبتي ومن مهمتي إذا به لغيري ممن اغتصب الحق وتولى الأمر..

٣٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

وفيها علة تسمية الشبهة شبهة ثم بيان حال الناس فيها

وَإِنَّما سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لأَنَّهَا تُشْبِهُ ٱلْحَقَّ: فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ[١] ٱللّهِ فَضِيَاؤُهُمْ[٢] فِيهَا ٱلْيَقِينُ[٣]، وَدَلِيلُهُمْ[٤] سَمْتُ[٥] ٱلْهُدَىٰ وَأَمَّا أَعْدَاءُ ٱللّهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا ٱلضَّلالُ[٦]، وَدَلِيلُهُمُ ٱلْعَمَىٰ، فَمَا يَنْجُو[٧] مِنَ ٱلْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ[٨]، وَلاَ يُعْطَىٰ ٱلْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ.

اللغة

١ ـ الأولياء : مفردها ولي النصير، المحب التابع الحليف، كل من ولي أمر أحد، المطيع لله.

٢ ـ الضياء : النور وأضاء البيت إذا أناره.

٣ ـ اليقين : إزاحة الشك وتحقيق الأمر/ العلم الحاصل عن استدلال ونظر.

٤ ـ الدليل : جمعه أدلة وأدلاء، المرشد، البرهان، الهادي.

٥ ـ السمت : الطريق.

٦ ـ الضلال : ضد الهدى، الانحراف عن الدين وعن الطريق.

٧ ـ ينجو : نجا من كذا إذا خلص منه والنجاة الخلاص.

٨ ـ خافه : من الخوف وهو الفزع.

الشرح

(وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق) سميت الشبهة شبهة لشبهها بالحق أي فيها جانب يشبه الحق ولو صورة...

والشبهة تغرّ الإنسان وتحرفه إذا كان بسيطاً ضعيفاً ويتمسك بها أهل الأهواء والميول فيلوحون بها أمام البسطاء والجماهير ويستغلونهم من خلالها بحجة أنها الحق لوجه الشبه الموجود بينها وبين الحق وقد استغل كثيرون من الناس بعض الشعارات المشتبه بها وبعض المواقف وعن طريقها استغلوا الناس ووصلوا إلى مآربهم وقد وردت الأحاديث عن النبي والأئمة وقسمت الأشياء إلى ثلاثة أمور . .

١ ـ قال رسول الله (ص): حلال بيّن[١] وحرام بيّن وشبهات بين ذلك فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات وهلك من حيث لا يعلم.

٢ ـ وعن رسول الله (ص) الأمور ثلاثة: أمر تبيّن لك رشده فاتبعه وأمر تبين لك غيّه فاجتنبه وأمر اختلف فيه فرده إلى الله عز وجل . .

(فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت الهدى) قسّم الإمام الناس إلى قسمين بحسب موقفهما من الشبهة فهذا القسم الأول وهو الواعي المثقف المتعلم الملتزم الذي يرى بنور الله فأمامهم أضواء كاشفة يستطلعون بها الحق ووجه الصواب . . إنهم الذين غرفوا من علوم الإسلام ووقفوا على أصول الشريعة الذين وصلوا إلى درجة عالية من العلم والمعرفة هؤلاء بنور اليقين الذي هو العلم الصحيح يسيرون نحو تبديد ما يعترضهم من شبهات ودليلهم الذي يقودهم ويرشدهم هو الهدى ونور العلم والمعرفة . .

(وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى) وهذا هو القسم الثاني الذين هم أعداء الله البعيدون عنه العاصون لأمره هؤلاء يستغلونها في سبيل الانحراف والضلال ويتخذونها ممسكاً بأيديهم يدخلون من خلاله إلى الإفساد والإضلال ولا دليل لهم صحيح على مدعاهم وإنما الجهل وعدم الوعي وعدم العلم وراء هذا الانحراف والسلوك الشاذ . .

(فما ينجو من الموت من خافه ولا يعطى البقاء من أحبه) من خاف الموت وفزع منه لا ينجو منه أو يقدر على التخلص من ملاقاته وهذه حقيقة واقعية وإسلامية قال تعالى: **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت[٢]﴾** . .

وهذا منه عليه السلام تذكير بهذه الحقيقة التي سوف يصل إليها الإنسان فيجب أن

---

(١) وسائل الشيعة كتاب القضاء باب ١٢ .

(٢) سورة النساء، آية/ ٧٨ .

يعد العدة لما بعدها وما ينتظره وراءها . . .

ومن أحب البقاء ودوام الحياة فلن يعطاه وأي إنسان يحب الموت والخروج من الدنيا إنهم قلة بل صفوة الناس وخيرتهم الذين عرفوا الله وما عنده فأطاعوه واشتاقوا إلى رحمته ولم يقدروا على الصبر عما عنده وهذه أيضاً حقيقة تذكّر الإنسان بقيمة هذه الحياة وإن هذا الإنسان لن يخلد فيها ولن يبقى أكثر مما كتبه الله له فيها . .

٣٩ ـ ومن خطبة له عليه السلام

خطبها عند علمه بغزوة النعمان بن بشير صاحب معاوية لعين التمر، وفيها يبدي عذره، ويستنهض الناس لنصرته

مُنِيتُ(١) بِمَنْ لاَ يُطِيعُ(٢) إِذَا أَمَرْتُ وَلا يُجِيبُ(٣) إِذَا دعَوْتُ، لاَ أَبَا لَكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ؟ أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلاَ حَمِيَّةَ(٤) تُحْمِشُكُمْ(٥)! أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً(٦)، وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً(٧)، فَلاَ تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً، وَلاَ تُطِيعُون لِي امْراً، حَتَّىٰ تكَشَّفَ(٨) ٱلْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ(٩) ٱلْمَساءَةِ(١٠)، فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَارٌ(١١)، وَلاَ يُبْلَغُ(١٢) بِكُمْ مَرَامٌ(١٣)، دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ(١٤) جَرْجَرَةَ ٱلجْمَلِ ٱلْأَسَرِّ(١٥)، وَتَثَاقَلْتُمْ(١٦) تَثَاقُلَ ٱلنِّضْوِ(١٧) ٱلْأَدْبَرِ(١٨)، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ(١٩) مُتَذَائِبٌ(٢٠) ضَعِيفٌ «كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلىٰ ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ».

قال السيد الشريف: أقول: قوله عليه السلام: «مُتَذَائِبٌ» أي مضطرب، من قولهم: تذاءبت الريح، أي اضطرب هبوبها. ومنه سمي الذئب ذئباً، لاضطراب مشيته.

اللغة

١ ـ **منيت** : ابتليت.

٢ ـ **يطيع** : ينقاد.

٣ ـ **أجاب** : عن السؤال رد له الجواب.

٤ ـ **الحمية** : النخوة والمروة.

٥ ـ **تحمشكم** : تجمعكم وتغضبكم.
٦ ـ **المستصرخ** : المستنصر.
٧ ـ **متغوثاً** : قائلاً واغوثاه والغوث الإغاثة.
٨ ـ **تكشّف** : تنجلي، وتظهر.
٩ ـ **العواقب** : آخر كل شيء، الجزاء.
١٠ ـ **المساءة** : الحزن أو فعل ما يكرهه.
١١ ـ **الثار** : الدم والطلب به، الذحل.
١٢ ـ **يبلغ** : يوصل، والبلاغ الإيصال إلى الشيء المطلوب.
١٣ ـ **المرام** : جمعه مرامات المطلب، المقصود.
١٤ ـ **جرجرتم** : الجرجرة صوت يردده الجمل وأكثر ما يكون عند الإعياء.
١٥ ـ **الأسّر** : داء يأخذ البعير في سرته.
١٦ ـ **تثاقلتم** : تباطأتم وتماهلتم وأثاقل إلى الدنيا ركن إليها والأصل الثقل الذي هو ضد الخفة.
١٧ ـ **النضو** : المهزول.
١٨ ـ **الأدبر** : المعقور، القرح يصيب الدابة وغيرها من حمل وشبهه.
١٩ ـ **جنيد** : تصغير الجند للتحقير.
٢٠ ـ **متذائب** : مضطرب.

الشرح

(منيت بمن لا يطيع إذا أمرت ولا يجيب إذا دعوت) ففي حين تُبتلى الشعوب بقادتها وحكامها ابتلي علي بشعبه ورعيته فكان هو المظلوم بينهم المبتلى بهم وفي هذه الخطبة ألم شديد من أصحابه الذين تقاعسوا عن نصرته ولم يدفعوا معه غارات معاوية التي كان يشنها على أطراف البلاد التي تحت حكمه خطبها عندما أغار النعمان بن بشير من قبل معاوية على عين التمر الذي كان يتولاها مالك بن كعب الأرحبي من قبل الإمام ولم يكن معه إذ ذاك سوى مائة رجل فكتب مالك إلى الإمام يخبره الخبر فصعد عليه السلام على المنبر وحثهم على الخروج إليه ونجدته فلم يخرج منهم إلا ثلاثماية رجل فقام عندها وخطب بهم بهذه الخطبة التي تحكي مدى ألمه وأساه وعمق جرحه وأذاه.

ابتليت بشعب لا يطيع أمري أو يلتزم به إذا أمرت مع إن ما أنشده إنما هو لصالحهم

ومن أجل منافعهم وإذا دعوتهم إلى قتال عدوهم لا يلبون ولا يسرعون وأي أذية أكبر من قائد يريد العزة لشعبه وهو يتمنّع عنها ويرفض قبولها . .

(لا أبا لكم ما تنتظرون بنصركم ربكم أما دين يجمعكم ولا حمية تحمشكم) أراد أن يستفزهم ويحثهم عن طريق هذا الاستفهام الاستنكاري بإنكم لأي شيء تؤخرون الانتصار لله والمقاتلة من أجله؟. أي شيء تنتظرون حتى تنتصروا لله وتدفعوا الظالمين، وتحققوا إرادة الله؟!. .

ثم بيّن لهم دوافع القتال والإثارة لعلهم يعودون لأنفسهم فيتحركون وينهضون وقد حرك فيهم الحس الديني الذي يدفع عنه الإنسان برغبة وشوق ويشعر من خلاله أنه مع الله وإن جهوده مقبولة، أما دين يجمعكم وتلتقون عليه فتحاربون من أجل عدوكم؟ ولا غيرة وأنفة تغضبكم وتحرك فيكم ردّ الإعتداء ودفع الأعداء. . .

(أقوم فيكم مستصرخاً وأناديكم متغوثاً فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي أمراً) استصرخكم وأطلب نصركم وأقف على أعواد المنبر أدعوكم لإعانتي في دفع الأعداء. . إنني في كل يوم أقف خطيباً أطلب منكم المساعدة والعون ولكن لا تسمعون ندائي. . . نزلهم منزلة من لم يسمع من حيث الأثر ولا تطيعون لي أمراً بل تتكاسلون وتتأففون ولا تستجيبون. . .

(حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءة فما يدرك بكم ثار ولا يبلغ بكم مرام) وسأبقى استنصركم وأناديكم ولكن ستبقون تتمردون ولا تستجيبون حتى تظهر العواقب السيئة لعدم هذه الاستجابة ثم أراد أن يحكي لهم واقعهم وما هم عليه وما يشعر به نحوهم لعلهم يتحفزون ويتحركون قال لهم: إن من يريد أن يطلب ثأره وحقه المهدور لا يحصل عليه ولا يناله لأنكم أعجز من أن تحصلوا لطالب الثأر حقه كما إن من أراد مقعداً ومطلباً بكم لا يدركه ولا يصل إليه لأنكم عاجزون عن البلوغ به إلى مطلبه ومقصده. . .

(دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جررة الجمل الأسر وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر) دعوتكم إلى الخروج لنصرة إخوانكم المهددين من قبل العدو فكنتم كالجمل المريض الذي يتحرك بإعياء وكلل لا طاقة له ولا قدرة وتباطأتم تباطوء المهزول المقروح فإنه يعجز عن الحمل ويتوجع منه وهم كانوا بصورتهم كذلك كانت كلمات الإمام لا تحركهم ولا تدفعهم بل كانوا يسوّفون ويتأخرون ويطلبون الدعة والبعد عن الحرب وكانت كلماته عليه السلام تؤذيهم وتؤلمهم مع إنها كانت الحق والعدل ولكنهم لا يطيقون سماعها لحبهم للسلامة. وإن جرت إلى الهوان والمذلة. . .

(ثم خرج إليَّ منكم جنيد متذائب ضعيف «كإنما يساقون إلى الموت وهم ينظـرون) تصغير لشأنهم وبيان لقلة من خرج منهم ولبى نداءه إنهم جنود قليلون ثلاثماية لا غير بغير استقرار ولا عزيمة إنني أشعر من القراءة في صفوفهم ومن النظر إليهم إنهم خارجون كُرهاً عنهم، حياء وخجلاً فكأنهم يساقون إلى الموت قهراً عنهم وإلى ما لا يرغبون فيه..

ترجمة النعمان بن بشير:

النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي وأمه عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة ولد في السنة الأولى للهجرة وكان أول مولود للأنصار بعد الهجرة كما كان عبد الله بن الزبير أول أولاد المهاجرين بعد الهجرة وكان النعمان من جملة من لم يبايع الإمام علي وقد كان عثماني الهوى وعندما قتل عثمان أخذ قميصه وأصابع زوجته نائلة فلحق بالشام وسلمهم لمعاوية الذي رفعهم أمام أهل الشام وأخذ يحرك عواطفهم للثأر له من الإمام علي الخليفة الشرعي وهناك رواية ينقلها ابن[1] أبي الحديد في شرحه عن صاحب الغارات ننقلها مع التحفظ عليها بل استبعادها عن مثل النعمان الذي لم يبايع علياً بل هرب بقميص عثمان وأصابع نائلة إلى معاوية تقول الرواية:

إن النعمان بن بشير قدم هو وأبو هريرة على علي عليه السلام من عند معاوية بعد أبي مسلم الخولاني يسألانه أن يدفع قتلة عثمان إلى معاوية ليقيدهم بعثمان لعل الحرب أن تطفأ ويصطلح الناس وإنما أراد معاوية أن يرجع مثل النعمان وأبي هريرة من عند علي عليه السلام إلى الناس وهم لمعاوية عاذرون ولعلي لائمون وقد علم معاوية أن علياً لا يدفع قتلة عثمان إليه فأراد أن يكون هذان يشهدان له عند أهل الشام بذلك وأن يظهر عذره.

فقال لهما: إئتيا علياً فأنشداه الله وسلاه بالله لما دفع إلينا قتلة عثمان فإنه قد آواهم ومنعهم ثم لا حرب بيننا وبينه فإن أبى فكونوا شهداء الله عليه.

وأقبلا على الناس فأعلماهم بذلك فأتيا إلى علي عليه السلام فدخلا عليه فقال له أبو هريرة: يا أبا حسن: إن الله قد جعل لك في الإسلام فضلاً وشرفاً، أنت ابن عم محمد رسول الله ﷺ وقد بعثنا إليك ابن عمك معاوية، يسألك أمراً تسكن به هذه الحرب

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ج/٢ ص ٣٠١.

ويصلح الله تعالى ذات البين، أن تدفع إليه قتلة عثمان ابن عمه فيقتلهم به ويجمع الله تعالى أمرك وأمره ويصلح بينكم وتسلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة ثم تكلم النعمان بنحو من ذلك. .

فقال لهما علي: دعا الكلام في هذا: حدثني عنك يا نعمان أنت أهدى قومك سبيلاً؟ يعني الأنصار.

قال: لا. قال: فكل قومك قد اتبعني إلا شذاذاً منهم ثلاثة أو أربعة، أفتكون أنت من الشذاذ فقال النعمان: أصلحك الله، إنما جئت لأكون معك وألزمك وقد كان معاوية سألني أن أؤدي هذا الكلام ورجوت أن يكون لي موقف أجتمع فيه معك وطمعت أن يجري الله تعالى بينكما صلحاً فإذا كان غير ذلك رأيك فأنا ملازمك وكائن معك.

فأما أبو هريرة فلحق بالشام وأقام النعمان عند علي عليه السلام فأخبر أبو هريرة معاوية بالخبر فأمر أن يعلم الناس ففعل وأقام النعمان بعده شهراً ثم خرج فاراً من علي عليه السلام حتى إذا مر بعين التمر أخذه مالك بن كعب الأرحبي ـ وكان عامل علي عليه السلام عليها فأراد حبسه وقال له: ما مرّ بك بيننا.

قال: إنما أنا رسول بلغّت رسالة صاحبي ثم انصرفت فحبسه وقال: كما أنت حتى أكتب إلى علي فيك فناشده وعظم عليه أن يكتب لعلي فيه فأرسل النعمان إلى قرظة بن كعب الأنصاري وهو كاتب عين التمر يجبي خراجها لعلي عليه السلام فجاءه مسرعاً فقال لمالك بن كعب: اخل سبيل ابن عمي يرحمك الله فقال: يا قرظة: إتق الله ولا تتكلم في هذا فإنه لو كان من عباد الأنصار ونساكهم لم يهرب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين.

فلم يزل به يقسم عليه حتى خلى سبيله وقال له يا هذا لك الأمان اليوم والليلة وغداً والله إن أدركتك بعدها لأضربن عنقك فخرج مسرعاً لا يلوي على شيء وذهبت به راحلته فلم يدر أين يتسكع من الأرض ثلاثة أيام لا يعلم أين هو فكان النعمان يحدث بعد ذلك ويقول: والله ما علمت أين أنا حتى سمعت قوله قائلة تقول وهي تطحن. .

شربت مع الجوزاء كاساً ردية ... وأخرى مع الشعري إذا ما استقلت
معتقة كانت قريش تصونها ... فلما استحلوا قتل عثمان حلّت

فعلمت أني عند حي من أصحاب معاوية وإذا الماء لبني القين فعلمت أني قد انتهيت إلى الماء.

ثم قدم على معاوية فخبره بما لقي ولم يزل معه مصاحباً لم يجاهد علياً ويتبع قتلة عثمان حتى غزا الضحاك بن قيس أرض العراق ثم انصرف إلى معاوية وقد كان معاوية قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة. أما من رجل أبعث به بجريدة خيل حتى يغير على شاطىء الفرات فإن الله يرعب بها أهل العراق فقال له النعمان: فابعثني فإن لي في قتالهم نية وهوى وكان النعمان عثمانياً.

قال: فانتدب على اسم الله فانتدب وندب معه ألفي رجل وأوصاه أن يتجنب المدن والجماعات وألا يغير إلا على مسلحة.

فأقبل النعمان بن بشير حتى دنا من عين التمر وبها مالك بن كعب الأرحبي الذي جرى له معه ما جرى ومع مالك ألف رجل وقد أذن لهم فرجعوا إلى الكوفة فلم يبق معه إلا مائة أو نحوها فكتب مالك إلى علي عليه السلام أما بعد فإن النعمان بن بشير قد نزل بي في جمع كثيف فرأيك سددك الله وثبتك والسلام.

فوصل الكتاب إلى علي عليه السلام فصعد المنبر وقال للناس: إخرجوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم فإن النعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام ليس بالكثير فانهضوا إلى إخوانكم لعل الله يقطع بكم من الكافرين طرفاً ثم نزل.

فلم يخرجوا فأرسل إلى وجوههم وكبرائهم فأمرهم أن ينهضوا ويحثوا الناس على المسير فلم يصنعوا شيئاً واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلاثمائة أو دونها فقام عليه السلام وخطب خطبته المتقدمة «منيت بمن لا يطيع».

ثم ورد الخبر عليه بهزيمة النعمان بن بشير ونصرة مالك بن كعب..

وفي مقابل هذه اليد البيضاء عند معاوية كافأه بولاية الكوفة حيث نصبه أميراً عليها سنة ٥٩.

وقد تزوج بنائلة بنت عمارة الكلابية بعد ـ أن طلقها معاوية وتزويجها حبيب بن مسلمة الفهري وطلاقها منه ـ وقد كان على الكوفة حتى كتب أهلها إلى الحسين يستقدمونه إليهم...

وقد التحق بالشام عندما ولى يزيد لابن زياد الكوفة وقد أرسله يزيد إلى أهل المدينة حيث كانت تعيش الغليان وكان عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة يحدثهم بأفعال يزيد القبيحة وسيئاته ويدعوهم إلى الثورة عليه.

فجاء النعمان ليهدأ المدينة وكان الأنصار[١] فيها فأتى قومه وأمرهم بلزوم الطاعة وخوفهم الفتنة وقد كان بالشام عند قدوم السبايا والرؤوس إليها ولما مات يزيد بن معاوية واستخلف معاوية بن يزيد عن قرب دعا النعمان[٢] إلى ابن الزبير ثم دعا إلى نفسه فواقعه مروان بن الحكم بعد أن واقع الضحاك بن قيس فقتل النعمان بن بشير وذلك سنة خمس وستين . .

(١) ابن الأثير ج/ ٤ ص ١٠٤ .
(٢) الإصابة ج/ ٣ . .

٤٠ ـ ومن كلام له عليه السلام

في الخوارج لما سمع قولهم: «لا حكم إلا لله»

قال عليه السلام: كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لا حُكْمَ إِلاَّ لِله، وَلٰكِنَّ هٰؤُلاَءِ يَقُولُونَ: لاَ إِمْرَةَ[١] إِلاَّ لِله، وَإِنَّهُ لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ[٢] أَوْ فَاجِرٍ[٣] يَعْمَلُ في إِمْرَتِهِ ٱلْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ[٤] فِيهَا ٱلْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ[٥] ٱللّٰهُ فِيهَا ٱلأَجَلَ[٦]، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ[٧]، وَيُقَاتَلُ بِهِ ٱلْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ[٨]، وَيُؤْخَذُ[٩] بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلْقَوِيِّ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ[١٠] بَرٌّ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ.

وفي رواية أُخرى أنه عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال:

حُكْمَ ٱللّٰهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ.

وقال: أَمَّا ٱلإِمْرَةُ ٱلْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ؛ وأَمَّا ٱلإِمْرَةُ ٱلْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ؛ إِلى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ، وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ[١١].

اللغة

١ ـ الإمرة : الولاية.
٢ ـ البر : جمعه أبرار المحسن الخيّر.
٣ ـ الفاجر : الفاسق المسترسل في عمل المعاصي، الزاني..
٤ ـ يستمتع : يتمتع ويتلذذ.
٥ ـ يبلّغ : من بلغ إذا وصل.
٦ ـ الأجل : الوقت، نهاية العمر.

٧ ـ الفيء : مال الخراج والغنيمة وما يحويه بيت مال المسلمين.
٨ ـ السبل : الطرق.
٩ ـ يؤخذ به : يقتص به.
١٠ ـ يستريح : يسكن ويجد الراحة.
١١ ـ المنية : الموت.

الشرح

(**قال عليه السلام: كلمة حق يراد بها باطل نعم إنه لا حكم إلا لله**) هذا هو الشعار الذي رفعه الخوارج ونادوا به وحاربوا من أجله شعار «لا حكم إلا لله».. وهو شعار صحيح وبراق.. شعار يحرك الناس ويصطاد قلوبهم ويجعلهم أسرى تحت حروفه لا يستطيعون مواجهته أو رده أو مجابهته.. الحكم لله وحده.. الأمر لله والنهي لله بيده التحريم وبيده التحليل.. شعار منتزع من عمق عقيدة المؤمن والتزامه.. بهذا يدين الله وبمضمونه يعتقد ولكن هذا الشعار الصحيح السليم قد استغل من أجل تمرير موقف أراده الخوارج.. إنهم انحرفوا به وفسروه بما يلائم طبيعة تعقيدهم وانكماشهم على أنفسهم وتحجرهم الفكري والثقافي...

كلمة حق ولكن يراد بها باطل، يراد من خلال هذا الشعار تعطيل دورة الحياة، يريدون الفوضى واختلال النظام والتسيب.. يريدون كما يقول الإمام:

(**ولكن هؤلاء يقولون: لا أمرة إلا لله**) إنهم ينفون الأمرة التي تتولى تسيير شؤون الناس وتنظر في قضاياهم وتحكم في منازعتهم وتفصل في مشكلات حياتهم... ينفون الإمرة التي تستتبع أمراً أو نهياً لم ينص الشارع عليه بخصوصه فكأنهم ينظرون إلى أن الأمير لا يجوز له الخروج عن المنصوص من القضايا والأمور ومن هنا لا حاجة للأمير طالما أن القضايا ظاهرة وأفرادها محصورة ومصاديقها معدودة وأما غير المنصوص فلا يمكن للأمير أن يدخل فيه فمن هنا ينفون الإمارة التي تتولى تنفيذ بعض القضايا التي تعترض مسيرة الأمة ومن هنا قالوا «لا حكم إلا لله»...

ولكن هؤلاء الخوارج نسوا أن النصوص الشرعية أغلبها عامة ومحدودة فيها قواعد عامة تندرج تحتها مصاديق القضايا التي كانت يوم صدورها كما تدخل تحتها المستجدات من الأمور والقضايا الحادثة.

ومن أعجب ما رأيت أنني رأيت بعض العلماء المتدينين والمعروفين بصدق الإيمان يشن حملة عنيفة على من يذهب لعيادة الطبيب بحجة أن هذا يتنافى والإيمان بالله ولحسن الصدف وجدته يضع نظارته على عينيه فقلت له وكيف أنت حصلت على هذه النظارات وكيف تستعملها وهي لم تكن على عهد رسول الله وتتنافى أيضًا مع الإيمان بالله فعندها غمغم القضية وارتبك ولم أحب أن أحرجه أكثر من ذلك أو أتابع معه الحديث في هذا الشأن . . .

ثم بين الإمام العلل والأسباب الداعية لوجوب الإمارة.

(وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر) لا بدية الإمارة على الناس أمر يفرضه العقل فإن الجسد لا بد له من رأس يديره ويدبر شؤونه ويوجهه لما فيه المصلحة، والناس لا يصلحهم إلا أمير المؤمنين يرعى شؤونهم ويصلح أحوالهم وإلا دبت الفوضى وسواء كان هذا الأمير براً أم فاجراً فإنه ضروري الوجود ولا بد من حضوره أما إذا كان براً فيعمل المؤمن بتكاليفه المفروضة عليه وتعميم شعائره المطلوبة منه ويؤدي واجباته كاملة غير منقوصة بحرية وإرادة وأما في إمرة الفاجر فيتمتع بها الكافر حيث تباح له المحرمات ولا يمنعه عن ممارستها مانع.

وبعضهم أرجع ضمير في إمرته إلى الأمير الفاجر بخصوصه ولكن لا داعي لذلك بعد أن كان الأقرب إلى الفهم وما ينسجم مع التفسير أن يرجع الأول للأول والثاني للثاني بحيث يعمل في إمرة البر المؤمن ويستمتع في إمرة الفاجر الكافر . . .

(ويبلّغ الله فيها الأجل) أي هذه الإمرة لا بد وأن تنتهي إلى أجلها المضروب لها عندها تنتهي وتتوقف ويتعطل مفعولها ويرجع الإنسان إلى الله وفي هذا تذكير للإنسان بنهايته وإن مدة بقائه قصيرة محدودة . . .

(ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو وتأمن به السبل ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بر ويستراح من فاجر) وهذه من خصائص الإمرة ومن ضروريات وجودها إنها تجمع ما توفر من الأموال العامة العائدة إلى المسلمين ومصالحهم من خراج وجزية وغنيمة وغيرها من الموارد فتوزعها على أهلها والمستحقين منهم . . .

كما إنها تجمع الجند وتنظمه وتبعث به إلى قتال العدو وفتح البلاد . . .

وبهذه الإمرة وما لها من سطوة وسلطة وقهر وقوة وعزيمة وشوكة يخافها الأشرار وقطاع الطرق والسراق فلا يقدمون على هذه الأفعال خوفاً منها فتأمن الطرق ويعم الأمن والسلام ويطمئن الناس إلى أعمالهم وأموالهم.

وبهذه الإمرة يؤخذ من القوي الظالم للضعيف المظلوم وهذا يمكن تحققه من حيث أنه لا يضر بمصلحة الحاكم ومقامه.

وهذه الأمور تتحقق في إمرة الفاجر كما تتحقق في إمرة البر ويشهد به الواقع وما نشاهده ونراه من حكومات الجور ودول الضلال حيث يقومون بذلك وتتحقق في أيامهم هذه الأمور.

وهكذا تبقى الأمور حتى يستريح بر بموته أو تبديل حكم الظالم الذي هو في عهده أو يستراح من فاجر بموته أو عزله واقتلاع جذوره...

وأما على الرواية الأخرى.

(حكم الله أنتظر فيكم) أي سوف أنفذ فيكم حكم الله من القتل إذا تجاوزتم الكلام إلى الإخلال بالأمن والنظام والاعتداء على الناس...

(وقال: أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقي) تكون له الساحة مفتوحة والفرص متوفرة فيستطيع أن يؤدي واجباته ويسارع إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السموات والأرض...

(وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقي إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته) ففي دولة الظالمين يأخذ المنحرف قسطه الأوفر من الملذات المحرمة حيث أنها توفر له الأجواء لمثل هذه الأفعال القبيحة ويبقى يمارس الرذائل والقبائح حتى تنتهي مدته المحدودة ويأتيه الموت فينقلب من داره القبيحة إلى دار الحساب والعذاب..

٤١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وفيها ينهى عن الغدر ويحذر منه

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْوَفَاءَ(١) تَوْأَمُ(٢) الصِّدْقِ، وَلاَ أَعْلَمُ جُنَّةً(٣) أَوْقَى(٤) مِنْهُ، وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ ٱلْمَرْجِعُ(٦). وَلَقَدْ أَصْبَحْنا في زَمَانٍ قَدِ ٱتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ ٱلْغَدْرَ كَيْساً(٧)، وَنَسَبَهُمْ(٨) أَهْلُ ٱلْجَهْلِ فِيهِ إِلى حُسْنِ ٱلْحِيلَةِ(٩). مَا لَهُمْ! قَاتَلَهُمُ ٱللّهُ! قَدْ يَرَىٰ ٱلْحُوَّلُ ٱلْقُلَّبُ(١٠) وَجْهَ ٱلْحِيلَةِ(١١) وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ ٱللّهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا(١٢) رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ(١٣) فُرْصَتَهَا(١٤) مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ.

اللغة

١ ـ الوفاء : بالوعد اتمامه والمحافظة عليه.
٢ ـ التوأم : جمعه توائم المولود مع غيره في بطن واحدة.
٣ ـ الجُنة : بالضم الوقاية وأصلها ما استتر به من درع ونحوه.
٤ ـ أوقي : من الوقاية، الحفظ والصيانة.
٥ ـ يغدر : يخون، من الغدر وهو الخيانة ونقض العهد.
٦ ـ المرجع : محل الرجوع، الآخرة.
٧ ـ كيساً : فطنة وذكاء.
٨ ـ نسبهم : وصفهم.
٩ ـ الحيلة : القدرة على التصرف.
١٠ ـ الحول القلّب : البصير بتحويل الأمور وتقليبها.
١١ ـ وجه الحيلة : مأخذها وسُبلها.

١٢ ـ يدعها : يتركها.
١٣ ـ ينتهز : يبادر.
١٤ ـ الفرصة : جمعها فرص الوقت المناسب والنهزة يقال انتهز الفرصة أي اغتنمها.
١٥ ـ الحريجة : التحرج والتحرز من الآثام.

الشرح

(أيها الناس إن الوفاء توأم الصدق).

الوفاء:

الوفاء كلمة مضمونها العمل بما تقول اوتعطي.. أن تقف عند كلامك الذي تأخذه على نفسك وتشرطه للآخرين عليها.. أن يتوافق عملك وقولك وتنسجم مع نفسك ومع مواقفك... أعطيت لله عهداً أن تعبده لا تشرك به شيئاً فهل وفيت؟ وشهدت بأن محمداً رسول الله فهل تقبّلت ما جاء به ونفذّته على نفسك وعلى الحياة والأحياء.. هل وفيت لله وللناس ولنفسك بما أخذت على نفسك؟...

الوفاء كلمة جفّ معناها في سلوك الناس ونضب معينها عند الناس، فلا وفاء إذا أضرّ بمصلحتك وأفسد عليك بعض هدوئك.. ولا وفاء إذا تعارض مع بعض متع الدنيا وشهواتها...

الوفاء سمة المؤمنين وشيمة المسلمين وأخلاق المتدينين وهو مع الصدق أشقاء تربيا في رحم واحدة وفي نفس الوقت معاً فمن وفى فقد صدق...

وقد مدح الله الأوفياء في كتابه فقال: من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً وقال رسول الله (ص): من كان[1] يؤمن بالله واليوم الآخر فليف إذا وعد وعن هشام بن سالم قال: سمعت[2] أبا عبد الله عليه السلام يقول: عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله بدأ ولمقته تعرّض وذلك قوله: يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾..

---

(١) (٢) الكافي ج/ ٢ ص ٣٦٤ باب خلف الوعد.

(ولا أعلم جنة أوقى منه) من عرف ثواب الوفاء وأجره وإنه مصداق من مصاديق الطاعة لله وعرف أن طاعة الله تأخذ بيد الإنسان الوفي إلى الجنة عرف أنه من أشد الأمور وقاية من النار وحجاباً عنها وهو ترغيب في الوفاء وحث عليه لما فيه من التزام بأوامر الله وتكاليفه التي التزم بها الإنسان وعليه الوفاء بها وتطبيقها. . .

(وما يغدر من علم كيف المرجع) من عرف الآخرة والحساب وإن هذا الإنسان سوف يرجع إلى الله ليوفيه حسابه ويعطيه جزاءه ثواباً وعقاباً لم يغدر أبداً بما أعطى من العهود والمواثيق ولا يخالفها أو ينقضها بل يلتزم بها وينفذها وإن أدت إلى ضرره أو خسارته. . .

(ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة). . نعى عليه السلام زمانه وهو قد اختبره عن قرب وعاش في قلب الحركة الحياتية ووقف على مراحل الحياة وما يعترض سبيل الرجال. . عرف الرجال واختبرهم في المواقف وفي الحديث وفي الصبر وفي الولاية وفي جميع مجالات الحياة فرأى أن أكثرهم استعمل فطنته ومهارته في الغدر ونكث العهد وعدم الوفاء بما يقطع على نفسه وقد عدَّ أهل الجهل ذلك التصرف منهم لباقة ودراية في شؤون الحياة وكيفية اصطيادها والوقوف عليها، فمن وصل إلى الزعامة والرياسة بالغدر والخيانة فهو الفطن اللبيب الواعي المدرك الملهم الذي يعرف كيف يعيش. . نسبوا إليه الذكاء وحسن التدبير والدراية وإن كانت كلها وليدة الغدر والخيانة. . .

(ما لهم قاتلهم الله قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين).

الحاجز هو تقوى الله:

دعى عليهم لأنهم رموه بقصور في السياسة متجاهلين معرفته وما له من خبرة ودراية ولذا يضع هنا المبرر لسلوكه وسياسته كما إنه يرسم بذلك قانون السياسة الإسلامية. . .

يقول إن المحنك المجرب الذي عاش تقلبات الحياة وتحولاتها وعرف ما فيها من أحداث ومشاكل ووقف على كل أسبابها ومسبباتها وشروط النجاح فيها والفشل هذا الإنسان يستطيع أن يقتطف ثمارها وينال رغباته منها ويحقق شهواته ولكن مع ذلك يحتاج لكي يحقق ذلك أن يتحلل من دينه ويتخلى عن معتقداته ويبيع شرفه وضميره. .

فالفرصة مؤاتية والطريق مفتوحة والباب على مصراعيه يستطيع الدخول منه بيسر وسهولة ولكن شرط أن يتنازل عن دينه وتقواه ويرتكب المعصية والإثم. . .

ولكن هذه الأمور يتنازل عنها بعض الناس فتأتيه فرصة يصطاد منها ما يتمناه ويحقق طموحاته الظالمة وشهواته الباطلة. . .

فالفرصة لكلا الرجلين متاحة ولكنّ الأول يمتنع عن الإقدام عليها لأنها تخالف دينه وعقيدته بينما الآخر يقدم عليها دون مانع من دين أو حاجز من شرف وكرامة. . .

وهذا يصدق مطابقة على علي ومعاوية فعلي كان يعرف الأبواب التي بها يستطيع أن يحقق لشخصيته منزلة عظيمة ويعرف السبل التي يقضي بها على معاوية ولكن الإلتزام الشرعي كان يقف دون اقتحامه لتلك الأبواب. . بينما معاوية كان لا يحجزه شيء ولا يردعه أو يقف في وجهه شيء. . .

علي يريدها بيضاء صافية طاهرة لا تشوبها شائبة ولا يعكر صفوها شيء. . يريدها إسلامية في مقدماتها ونتائجها عكس معاوية يريدها كيف جاءت وعن أي طريق كانت. . ولذا رفع قميص عثمان بدون حق. . ورفض بيعة علي بدون حق. . وجمع إليه عمرو بن العاص بدون حق وأعطاه مصر طعمة بدون حق وهكذا عدّد ما شئت تجد كل خطواته معصية وانحرافاً وتمرداً وعصياناً وإن علياً يعرف كل تلك الطرق ولكن تقوى الله كانت تحجزه عن ممارسة مثل هذه الأفعال. . .

وإن معاوية الرمز أضحى تلامذته اليوم من الكثرة بحيث نعجز عن الإحاطة بعددهم، إنهم كثيرون. . وكثيرون جداً. . عن يديه تخرجوا وإلى مدرسته انتموا وببراعة أدوا دوره. . لقد احتلوا الصدارة وتربعوا كراسي الحكم وتولوا أمر الأمة. . لهم الكلام وبيدهم مفتاح الحل والعقد. . استغلوا الظروف باعوا الدين وتخلوا عنه وراحوا وراء مناصبهم يلهثون. . .

علي الرمز تخرج من مدرسته ثلة قليلة وقليلة جداً آثروا الحرمان والجوع والعري. . آثروا الصمت والعزلة والاضطهاد آثروا كل ذلك على أن يعطوا من دينهم وعقيدتهم شيئاً وأنت ترى الأحرار والشرفاء يلزمون بيوتهم بينما الأشرار والفساق يصولون ويجولون وما جلوس الشرفاء لعجز وعدم قدرة ولكن تقوى وإيماناً وعقيدة والتزاماً. .

٤٢ ـ ومن كلام له عليه السلام

وفيه يحذر من اتباع الهوى وطول الأمل في الدنيا

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَخْوَفَ[١] مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ ٱثْنَانِ: ٱتِّبَاعُ ٱلْهَوَىٰ[٢]، وَطُولُ ٱلأَمَلِ؛ فَأَمَّا ٱتِّبَاعُ ٱلْهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ ٱلْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ ٱلأَمَلِ فَيُنْسِي ٱلآخِرَةَ. أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ[٥]، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاّ صُبَابَةٌ[٦] كَصُبَابَةِ ٱلإِنَاءِ ٱصْطَبَّهَا[٧] صَابُّهَا[٨]. أَلاَ وَإِنَّ ٱلآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ[٩]، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ ٱلآخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ، وَإِنَّ ٱلْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ، وَلاَ عَمَلَ.

قال الشريف: أقول: الحذاء، السريعة، ومن الناس من يرويه «جذّاء».

اللغة

١ ـ الخوف : الفزع.

٢ ـ الهوى : جمعه أهواء إرادة النفس وميلانها إلى مستلذاتها.

٣ ـ صد : منع.

٤ ـ ولت : راحت وأدبرت.

٥ ـ حذّاء : بالتشديد الماضية السريعة.

٦ ـ الصبابة : بالضم البقية من الماء واللبن في الإناء.

٧ ـ اصطبها : سكبها.

٨ ـ صابها : ساكبها.

٩ ـ بنون : أولاد.

الشرح

(أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان اتباع الهوى وطول الأمل) يتخوف الإمام علينا وضمن هذا الخوف تحذير لنا لا يخاف علينا من شيء كما يخاف علينا من اثنين:

اتباع الهوى وطول الأمل...

واتباع الهوى هو السير وفق ما تشتهيه النفس وترغب فيه دون النظر إلى حكم الله ومراقبة ما ينبغي ومن عادة النفس أنها تأمر بالسوء إلا من عصم الله ولذا يجب أن يكون المؤمن في حالة يقظة باستمرار وفي حالة طوارىء مع نفسه يدقق فيما ترغب وتشتهي ويحاسبها فيما تريد...

وأما طول الأمل فهو أن يمتد بصره إلى الأفق البعيد من الدنيا فيطلب ما فيها ويقطع النظر عن الآخرة...

(فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة) وهذه علة خوف الإمام علينا من اتباع الهوى وطول الأمل وهنا يكمن الخطر، هنا تزلّ الأقدام ويعثر الفطن اللبيب وتضيع الأحلام ويسقط الحق صريعاً. الهوى الذي يصد عن الحق ويمنع من الحكم بالعدل...

عندما يتحكّم الهوى في نفس الفرد يقوده إلى الردى، فالهوى هو الذي يمنعك من الحكم بالحق، والهوى هو الذي يدفعك لترى شرار أهلك أفضل من غيرهم من الكرام، والهوى هو الذي يدفعك لتقف إلى جانب عشيرتك الظالمة وأرحامك المعتدين.. الهوى هو الذي يصدك ويمنعك عن قبول الحق والعدل ومن مشى وراء هواه يتردى ويسقط في نار جهنم وأما من يعدل عن ذلك ويخالف هواه فإن الجنة هي المأوى كما قال تعالى: **﴿وأما من خاف مقام[1] ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى..﴾**..

وفي الحديث عن الصادق قال: إحذروا[2] أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس بشيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم..

وعن أبي الحسن: لا تدع النفس وهواها فإن هواها في رداها وترك النفس وما

(١) (٢) وسائل الشيعة كتاب الجهاد باب ٨١ حديث ١ ـ ٣.

تهوى أذاها وكفّ النفس عما تهوى دواؤها . .

وأما علة الخوف من الأمل فإنه ينسى الآخرة ومن هنا يأتي الخطر في الأمل وهو أن يمتد أمله فيسيىء عمله وينسى آخرته . . أمله أن يصبح صاحب ثروة ضخمة فيعمل من أجل ذلك ويسعى في سبيل ذلك فيروح يجمع المال من حله ومن حرامه من الطرق المشروعة والأخرى الممنوعة ناسياً آخرته وإنه سيعود إلى ربه فيحاسبه على المال الحرام . . .

ويمتد أمله إلى بناء شخصيته فيعمل على قطع أرحامه ومنازعة أصحاب الحق حقوقهم ويعتدي ويتجاوز المرسوم وهكذا ينسى الآخرة وحسابها وهذا هو الأمل المذموم المكروه . .

وأما إذا كان الأمل مع حفظ الآخرة وعدم نسيانها فإن الإسلام يرغب فيه ولولاه لانقطع العمل . . لولاه لم يسع الإنسان لعزته ولم يبنِ الحياة ويسعدها أو ينطلق في أجواء الحضارة . . لولا الأمل ما أرضعت أم ابنها ولا سعى والد من أجل ولده ولا وضع الإنسان حجراً فوق حجر . .

ومن هنا ورد الذم للأمل المنسي للآخرة ففي الصحيفة السجادية :

اللهم صلِّ على محمد وآل محمد واكفنا طول الأمل وقصّره عنا بصدق العمل حتى لا نؤمل استتمام ساعة بعد ساعة ولا استيفاء يوم بعد يوم ولا اتصال نفس بنفس ولا لحوق قدم بقدم وسلمنا من غروره وأمنا من شروره . . .

(ألا وإن الدنيا قد ولّت حذّاء فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء اصطبها صابُّهَا) تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة أما الدنيا فإنها مضت مسرعة وما أسرعها في عمر الإنسان ولم يبق منها إلا قليل جداً لا ينظر إليه ولا يهتم به وشبهها ببقايا الإناء التي شُرب ماؤها ولم يبق إلا حثالة قليلة لا ينظر إليها كذلك من مضت أيامه وانقضت أوقاته ولم يبق له من الدنيا إلا هذه الجرعة الباقية من عمره يجب أن يزهد فيها وينعى وجودها عنده . . .

(ألا وإن الآخرة قد أقبلت) لأن الدنيا إذا ذهبت ومضت وجاءت الآخرة وما أسرع ما يصل إليها الإنسان . . إنه يمشي نحوها بسني عمره القصيرة فكل يوم يمضي يقترب من الآخرة وبمقدار بُعده عنه يلتقي مع آخرته . . .

(ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن كل ولد

سيلحق بأبيه يوم القيامة وإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل) للدنيا أبناء إنهم الذين يعبدونها ويقدسونها ويسعون فيها الفساد ناسين أوامر الله ونواهيه ضاربين عرض الجدار دعوات الأنبياء والمصلحين. . أبناء الدنيا هم الذين عصوا الله فيها وتمردوا على إرادته وحاربوا أولياءه. . أبناء الدنيا هم الذين استعلوا على الناس وتكبروا عليهم واستعبدوهم وحطموا فيهم شعور العزة والكرامة. . .

وكما إن للدنيا أبناء فللآخرة أبناء وأبناء الآخرة هم الذين نظروا إلى الله نظرة الربوبية وإنه الحاكم المطلق بيده الأمر وبيده النهي. . أبناء الآخرة هم المطيعون لله العاملون بأمره الذين يعمرون الدنيا بإخلاصهم لله وعبادتهم له وطاعتهم لحكمه. . أبناء الآخرة هم المصلون، الصائمون العابدون، الخاشعون، المتصدقون، المحسنون، العاملون. . وإن كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة فمن كان من أبناء الآخرة ونظر إليها وأعد لها عدتها وسينال ما أعده الله فيها وهي باقية له لأنها باقية بينما أبناء الدنيا سيلتحقون بها وهي لا دوام لها ولا بقاء، وابناؤها لن يبقوا ولن يدوموا ولن يحصلوا منها على شيء لأنها زائلة فانية وكذلك ابناؤه تبعاً يفنون ولا يبقون. . .

ثم رغبّ في العمل وحضّ عليه بأن دار الدنيا هي دار العمل ودار الجهاد. . الدار التي يتقرّر بها مصير هذا الإنسان فإن عمل وجّد واجتهد فإلى الجنة مصيره وإن أهمل وضيّع وسوّف ولم يعمل فهناك الخسارة الكبيرة التي لا يستطيع معها أن يعوض أو يستدرك لأنه متى وصل إلى الآخرة انقطع العمل وتوقف السعي فمن يزرع في الدنيا يحصد في الآخرة ومن لا يزرع فإنه لن يحصد إلا الندامة والعذاب. . .

وإذا كانت الدنيا هي شوط الإنسان الوحيد للعمل فيجب أن يغتنم الفرص ولا يفوت وقتاً إلا يكتسب فيه عملاً صالحاً يقربه من الله ويدرك نتيجته في الآخرة سروراً وسعادة وجنة وحريراً. .

٤٣ ـ ومن كلام له عليه السلام

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام بعد إرساله جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية ولم ينزل معاوية على بيعته

إِنَّ ٱسْتِعْدَادِي[١] لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ، إِغْلاَقٌ[٢] لِلشَّامِ، وَصَرْفٌ[٣] لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ. وَلٰكِنْ قَدْ وَقَّتُّ[٤] لِجَرِيرٍ وَقْتاً لاَ يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلاَّ مَخْدُوعاً[٥] أَوْ عَاصِياً. وَالرَّأْيُ عِنْدِي مَعَ ٱلأَنَاةِ[٦] فَأَرْوِدُوا[٧]، وَلاَ أَكْرَهُ لَكُمُ ٱلإِعْدَادَ[٨].

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هٰذَا ٱلأَمْرِ وَعَيْنَهُ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرَ لِي فِيهِ إِلاَّ ٱلْقِتَالَ أَوِ ٱلْكُفْرَ بِمَا جَاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ. إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى ٱلأُمَّةِ وَالٍ[١٠] أَحْدَثَ أَحْدَاثاً[١١]، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالاً[١٢]، فَقَالُوا، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا[١٤].

اللغة

١ ـ الاستعداد : التهيؤ.
٢ ـ إغلاق : الباب عدم فتحه.
٣ ـ صرفه : رده ومنعه ودفعه.
٤ ـ وقّت : جعل له وقتاً محدوداً.
٥ ـ المخدوع : من خدع إذا مكر به واحتال عليه.
٦ ـ الأناة : التأني التثبت، الرفق.

٧ ـ أرودوا : أرفقوا.
٨ ـ الإعداد : التهيئة.
٩ ـ قلّبت : من قلب الشيء إذا حوله جعل باطنه ظاهره وأعلاه أسفله ويراد هنا إختبره.
١٠ ـ والٍ : حاكم.
١١ ـ الأحداث : مفرده حدث الأمر الحادث المنكر.
١٢ ـ المقال : مصدر القول وهو الكلام.
١٣ ـ نقموا : كرهوا.
١٤ ـ غيروا : حولوا وبدلوا ما كان عليه وهنا قتلوه.

الشرح

(إن استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم إغلاق للشام وصرف لأهله عن خير إن أرادوه) كان همّ الإمام أن يقيم الحجة القاطعة على معاوية وأهل الشام ويُعذر إن هو حاربهم وقاتلهم ولذا أرسل جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يدعوه إلى بيعته ولزوم طاعته وكتب له كتاباً يبيّن له فيه أن القوم الذين بايعوا من تقدمه قد بايعوه وإن بيعته قد لزمته وهو في الشام وليس له أن يختار أو يفسخ وصورة الكتاب: إني قد عزلتك ففوض الأمر إلى جرير والسلام.

وقال لجرير: صن نفسك عن خداعه فإن سلم إليك الأمر وتوجّه إليّ فأقم أنت بالشام وإن تعلل بشيء فارجع.. فلما عرض جرير الكتاب على معاوية تعلل بمشاروة أهل الشام وهكذا بقي يدافع بجرير ويسوفه ويؤخره وهنا طلب أنصار الإمام وأتباعه أن يستعد لحرب أهل الشام علناً ويشهر ذلك فأجابهم الإمام إن الاستعداد لحرب أهل الشام وجرير عندهم لم يعدْ فهذا معناه إننا اتخذناهم أعداء وابتدأنا في حربهم وهذا يثير حفائظهم ويجعل بيننا وبينهم سداً لا نتفاهم بعده ويمنعهم أيضاً من البيعة التي هي خير جامع إن أرادوا الخير وأحبوه...

(ولكن قد وقّت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً) والإمام هنا في غاية الضبط للأمور والدقة فيها إنه قد حدّد لجرير وقتاً معيناً لا يتجاوزه فإن مضى الوقت ولم يعد جرير فإن ذلك يكون لأحد أمرين إمّا أن معاوية خدعه وأخذ يماطله في الجواب

ويسوّف في الرد وإمّا أن جريراً نفسه قد تمرد وعصى وأحب معاوية والبقاء عنده وعلى كل حال فالوقت المعين يأتي بالخبر اليقين. . .

(والرأي عندي مع الأناة فأرودوا ولا أكره لكم الإعداد) ثم بيّن لهم رأيه وهو الرأي الصحيح والسليم وهو التأني والرفق والانتظار وعدم استعجال الأمور فتمهلوا قليلاً عسى أن تتضح الأمور وتستبين ومع ذلك لا أكـره لكم أن تستعدوا ولكن ليس بشكل ظاهر لأن ذلك كما تقدم يغلق الشام ويمنع أهلها من خيرٍ إن أرادوه. .

(ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه وقلّبت ظهره وبطنه فلم أر لي فيه إلا القتال أو الكفر بما جاء محمد صلى الله عليه) بين الإمام نقطة ذات أبعاد كبيرة أوضح فيها مشروعية قتاله لمعاوية بل وجوبها عليه بحيث يكون التباطؤ بها وعدم الإقدام عليها يعادل الكفر وذلك بأنه فحَصَ الأمر بينه وبين معاوية من جميع جوانبه ودرسه بكل أحواله وشؤونه وفكر فيه باستيعاب واستيفاء فلم يجد إلا الكفر أو القتال وذلك لأن النص قد ورد عن النبي وهو الصادق الأمين: يا علي ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين ومعاوية رأس الفرقة القاسطة ولا يجوز الاجتهاد في مورد النص ـ إن قلنا إن الآئمة يجتهدون ـ وإلا فهم أصحاب الشرع والدين أقوالهم وأفعالهم حجة وبما أن الكفر على الإمام محال فتعين القتال إن أصرَّ معاوية على الشقاق والعناد. . .

ثم مضافاً إلى ذلك فإنه الولي الشرعي الذي انعقدت له الخلافة ـ على مبنى القوم ـ ولا يجوز للإمام أن يهمل قضية تهدد وحدة المسلمين التي هي من أهم مصالحهم إذ بها عزتهم وقوتهم وهنا لا بد من قتال معاوية حتى يرده إلى الطاعة وعليه فتوى الجميع وإن الخارج عليه باغٍ عادٍ يجب قتاله وإلا إذا لم يقم الإمام بذلك كان فاسقاً متهاوناً وهو على حد الكفر بل فيٍ لسان بعض الأحاديث يصدق عليه ذلك. . .

(إنه قد كان على الأمة والٍ أحدث أحداثاً وأوجد الناس مقالاً، فقالوا ثم نقموا فغيروا) ثم أشار الإمام إلى عثمان وأضرب عن تسميته تكرماً وترفعاً فقال: إنه الخليفة المتولي لأمر الأمة الإسلامية أحدث أموراً منكرة عظيمة خالفت العدل والحق وما عليه شريعة الله. من استئثاره بالفيىء وتولية أقاربه على رقاب الأمة بدون كفاءة أو جدارة واقطاعهم القطايع وإبطاله الحدود وبعبارة جامعة حولّ الإسلام إلى منافع العصابة الأموية التي لم تؤمن بالله ولهذه الأسباب وغيرها مما هو مذكور في محله جعل للمسلمين عليه سبيلاً إلى الطعن فيه والقدح في تصرفه وكانت هذه هي الخطوة الأولى التي سلكوها ثم لماأصر على عمله ولم يرتدع أو يرعو وعجزوا عن إصلاحه بالوعظ والإرشاد والنقد البناء أظهروا معايبه واتخذوا المواقف السلبية منه ثم أخيراً بعد اليأس من

إصلاحه عمدوا إلى قتله وكان لا بد من هذا التغيير الدموي الذي يقضي على رأس الضلال والانحراف ويمنع الأمويين من استغلال الإسلام وتحويله لمصالحهم الشخصية وإن عثمان الذي كانت سيرته على هذا النهج المنحرف لا يثأر له وخصوصاً من معاوية الذي كان يقدر على نصرته فأخرها عنه عمداً حتى قتل ثم عمد إلى الطلب بالثأر له خدعة منه ومكراً يطلب من وراء ذلك منصب الخلافة والجلوس محله وهكذا كان وعليه جرت الأحداث. .

ترجمة جرير بن عبد الله البجلي:

جرير بن عبد الله بن جابر(١) بن مالك بن نضرة بن ثعلبة بن جشم بن عوف بن خزيمة بن حرب بن علي البجلي يكنى أبا عمر وقيل أبا عبد الله الصحابي الشهير.

جزم ابن عبد البر بإنه أسلم قبل وفاة النبي (ص) بأربعين يوماً وقد غلّطه صاحب الإصابة وقال إنه في حجة الوداع قد استنصت الناس وجزم الواقدي أنه وفد على النبي في شهر رمضان سنة عشر. .

وذكر الشيخ الطوسي في رجاله أنه من أصحاب الرسول فقال: جرير بن عبد الله أبو عمرو ويقال أبو عبد الله البجلي سكن الكوفة وقدم الشام برسالة أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية وأسلم في السنة التي قبض فيها النبي (ص) وقيل أن طوله كان ستة أذرع.

وفي حواشي الخلاصة للشهيد الثاني ـ أقول ـ إن إرسال علي عليه السلام وإن دل على مدح أولاً لكن مفارقته له عليه السلام ولحوقه بمعاوية كما هو معلوم مشهور يدفع ذلك المدح ويخرجه من هذا القسم وسيرته وتخريب علي داره بالكوفة بعد لحوقه بمعاوية مشهور.

وفي منهج المقال بعد نقله ـ أقول ـ وكذا ما روي أن مسجده بالكوفة من المساجد المحدثة فرحاً بقتل الحسين عليه السلام وكذا انحرافه عن أهل البيت. . .

تولى جرير همدان من قبل عثمان وكان عليها والياً عندما قتل عثمان فبعث وراءه الإمام علي وعزله عنها وأرسله إلى معاوية ثم إنه بعد رجوعه إلى العراق لم يطل به المقام حتى هرب إلى معاوية أو إلى قرقيسيا وهي أيضاً من البلدان الخاضعة لسلطان معاوية وتوفي سنة إحدى وخمسين وقيل أربع وخمسين. .

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ج/ ١ ص٢٣٢.

(٢) أعيان الشيعة جزء/ ١٥.

٤٤ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما هرب مَصْقَلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية، وكان قد ابتاع سَبْيَ بني ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقهم، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام

قَبَّحَ ٱللّٰهُ[1] مَصْقَلَةَ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ[2]، وَفَرَّ[3] فِرَارَ ٱلْعَبِيدِ! فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ[4] حَتَّىٰ أَسْكَتَهُ، وَلاَ صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّىٰ بَكَّتَهُ[5]، وَلَوْ أَقَامَ لأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ[6]، وَٱنْتَظَرْنا بِمَالِهِ وُفُورَهُ[7].

اللغة

١ ـ **قبحه الله** : نحاه عن الخير.
٢ ـ **السادة** : الأشراف، المقدمون عند الناس.
٣ ـ **فرّ** : هرب.
٤ ـ **المادح** : من مدح أحسن الثناء عليه، ضد ذمه.
٥ ـ **بكتّه** : عنّفه وقرّعه.
٦ ـ **الميسور** : ما تيسر له ضد المعسور.
٧ ـ **الوفور** : مصدر وفر المال إذا تم.

الشرح

(**قبحّ الله مصقلة فعل فعل السادة وفرّ فرار العبيد**) سبب هذا الكلام من الإمام أن الخريت بن راشد الناجي قد شهد مع الإمام في صفين ثم انحرف عنه وجمع معه جموعاً

وهدد أمن المواطنين حتى قتل بعضهم فوجّه إليه الإمام معقل بن قيس فتعقبه نحو جبال رمهرمز فانهزم الخريت ولكنه هرب مع جماعة إلى بلاد فارس حتى انتهوا إلى أسياف البحر وكان هناك قوم نصارى قد ارتدوا عندما رأوا ما يحدث بين المسلمين فأكمل معقل طريقه وهجم على الخريت فقتله وانهزم أتباعه فأعمل السيف في مستحقهم ثم أخذ النصارى أسرى وسار بهم حتى مرّ على مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو عامل الإمام علي على أردشير خرة وهم خمسماية إنسان فبكى إليه النساء والصبيان وتصايح الرجال واستغاثوا به فاشتراهم بخمسماية ألف درهم وأطلقهم وأكمل معقل مسيره حتى وصل إلى أمير المؤمنين فأخبره الخبر وما كان من أمر مصقلة فقال له: أحسنت وأصبت ووفقت وانتظر الإمام أن يبعث مصقلة بالمال فأبطأ به فكتب إليه أن يدفع المبلغ المرقوم وإلا فليأتي إليه فأتى إلى الكوفة فأقره أياماً ثم طالبه بالمال فأدى إليه مائتي ألف درهم وعجز عن الباقي ثم فر إلى معاوية فكانت هذه الكلمة المباركة من الإمام في حقه فقد دعا عليه أن يبعده الله عن الخير ويقذف به جانباً عن فعل المعروف لما ارتكبه من فعل شائن حيث أنه فعل فعل ذوي الكرامة والشهامة الذين إذا استغاث بهم مغيث لبوا استغاثته واستجابوا لطلبه.. فعل ذوي المروءات الذين لا تغمض لهم عين وعيون اللاجئين إليهم ساهرة ولكنه مقابل هذا الفعل الشريف فرّ من الحق والعدل فرار العبيد خوفاً من المواجهة فإن الجبان العاجز لا يقدر على مواجهة خصمه فيلوذ بالفرار وكذلك حال العبيد...

(فما أنطق مادحه حتى أسكته ولا صدّق واصفه حتى بكته) فلم يكد يسمع السامع بفعله الكريم ويبتدأ بمدحه والثناء عليه والإشادة بهذا العمل الشريف حتى يطرق سمعه نبأ فراره وهربه من وجه العدالة فلا يكمل المدح ولا يستمر بالإطراء...

وكذلك لم يصدق واصفه بالفعل الكريم والعمل الشريف حتى يضطر أن يعنفه ويسبه ويتكلم عليه بما يشينه لأنه اتبع الفعل الجميل بفعل قبيح فغطّى عليه وقضى على حسنه...

(ولو أقام لأخذنا ميسوره وانتظرنا بماله وفوره) ثم بيّن الإمام أسلوبه وطريقة عمله فيما لو بقي الشريف على مقامه المحمود ولم يفر بأنه كان سيتخذ معه طريق الكرام فيقبل ما هو متيسر له وموجود عنده ثم يمهله بالباقي إلى وقت وجوده وتوفره فيأخذه وبذلك يحفظ ماء وجه الكريم كما يحفظ أموال الأمة وعامة المسلمين.

ترجمة مصقلة بن هبيرة الشيباني :

ذكر ابن أبي الحديد فقال :

مصقلة بن هبيرة بن شبل بن تيري بن امرىء القيس بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن شيبان بن عكاية بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أقصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان . . ولاه الإمام علي على أردشير خرة . .

ولما مرّ به بنو ناجية اشتراهم وافتداهم من معقل بن قيس الذي سباهم ولما عجز عن أداء ما التزم به هرب إلى معاوية فكتب إليه الإمام هذه الكلمات الكريمة التي مرّ ذكرها . .

٤٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وهو بعض خطبة طويلة خطبها يوم الفطر، وفيها يحمد الله ويذم الدنيا

حمد الله

اَلْحَمْدُ لِلّهِ غَيْرَ مَقنُوطٍ(١) مِنْ رَحْمَتِهِ، ولاَ مَخْلُوٍّ(٢) مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلاَ مَأْيُوسٍ(٣) مِنْ مَغْفِرَتِهِ، ولاَ مُسْتَنْكَفٍ(٤) عنْ عِبادَتِهِ، الَّذِي لاَ تَبْرَحُ(٥) مِنْهُ رَحْمَةٌ، ولاَ تُفْقَدُ(٦) لَهُ نِعْمةٌ.

ذم الـدنيا

وَالُدنْيَا دَارٌ مُنِيَ(٧) لَهَا اَلْفنَاءُ(٨)، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا اَلْجَلاَءُ(٩)، وهِيَ حُلْوَةٌ خَضْرَاءُ، وَقَدْ عَجِلَتْ(١٠) لِلطَّالِبِ، وَاَلْتَبَسَتْ(١١) بِقَلْبِ النَّاظِرِ؛ فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ(١٢)، وَلاَ تَسْأَلُوا فِيها فَوْقَ اَلْكَفَافِ(١٣)، وَلاَ تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ اَلْبَلاَغِ(١٤).

اللغة

١ ـ مقنوط : القنوط هو اليأس.
٢ ـ مخلو : من خلا إذا انفرد، ومضى، ترك وألقى.
٣ ـ مأيوس : من اليأس وهو القنوط.
٤ـ مستنكف : من الاستنكاف وهو الاستكبار.
٥ ـ لا تبرح : لا تزال يقال ما برح غنياً أي لم يزل كذلك..
٦ ـ تُفقد : تغيب.

٧ ـ مُني : قدّر من منّاه الله إذا قدّره.
٨ ـ الفناء : الهلاك ضد البقاء.
٩ ـ الجلاء : الخروج عن الوطن.
١٠ ـ عجلت : من عجل ضد بطؤ، أسرع.
١١ ـ التبست : اختلطت وامتزجت.
١٢ ـ ارتحلوا : من رحل عن المكان إذا تركه وانتقل عنه.
١٣ ـ الزاد : ما يتخذ من الطعام للسفر.
١٤ ـ الكفاف : ما أغنى عن الناس، سد الحاجة.
١٥ ـ البلاغ : الكفاية.

الشرح

(الحمدلله غير مقنوط من رحمته) حمد الله سبحانه في هذه المواطن لم لها من المواقع والأهمية وأولها أنه لا ييأس من رحمة الله ولا يصاب بهذا المرض من عرف الله وعرف رحمته فهو الرحمن الرحيم ومن صفاته الرحمة وبها أوجد هذا الإنسان وأخرجه من زاوية العدم إلى الوجود، وبها رزقه وأعطاه وحسّن صورته، وبها كانت الخيرات والعطايا.. الرحمة التي هي عين كفاية المرء وعطائه وإمداده وإرفاده.. وما الرحمة التي يعيش بها الناس وتسري فيما بينهم إلّا جزء من تلك الرحمة الإلهية الكبرى...

(ولا مخلو من نعمته) لا تخلو من نعم الله وعطاياه ونعمه علينا متتالية متتابعة مترادفة من أصل الوجود إلى كل موجود وكما قال تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾ وهي نعم ظاهرة تراها الأبصار وهناك نعم باطنة تراها البصائر وفي كل نفسٍ نعمة وفي كل حركة نعمة وفي كل مقام ومقال ومكان وزمان نعمة، جّلت نعمك يا ربِّ وبُوركت عطاياك...

(ولا مأيوس من مغفرته) وهذه هي عقيدة المؤمنين فإنهم قوم لا يدّب اليأس في قلوبهم، فمهما أساؤا وأخطاؤا وتنكبوا عن الطريق يبقى أملهم في الله كبير وأملهم في غفران ذنوبهم عظيم، إن ذنوب العباد ليست أكبر من عفو الله ومن ظن ذلك كان ظنه أكبر من خطيئته.. الأمل في غفران الذنوب عقيدة إيمانية في قلب كل مسلم قال تعالى: ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً..**﴾..

وقال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ . .

(**ولا مستنكف عن عبادته**) لا يتكبر المخلوق عن عبادة الخالق وكيف؟ والله سبحانه هو الكمال المطلق المستحق للعبادة دون غيره فلا يتكُبر عن عبادته وقد أذعن لهذه الحقيقة الأنبياء والملائكة والصالحون وكل ذي عقل فطن لبيب. . .

قال تعالى: ﴿**إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون**﴾.

(**الذي لا تبرح منه رحمة ولا تفقد له نعمة**) فالله كله رحمة ورحماته تتوزع على خلقه وتنال الجميع لا تنفذ تلك الرحمات ولا تنتهي بل هو الغني بها وما في الخلق إلا رشحات منها أفاضها عليهم وهي أيضاً من رحماته وأما نعمه فلا تفقد في موقع ولا تنعدم في محل بل هي حتى فيما يظن أنها نقمة فلربما كانت هي نعمة كما هو المشاهد في ابتلاء الأنبياء والصالحين وما يمر على الأولياء والمخلصين. . .

(**والدنيا دار مني لها الفناء ولأهلها منها الجلاء**) وهذه دخول في الموعظة وتذكير لنا بحال الدنيا وصفاتها وإنها الدار التي قدر الله لها الفناء فلن تدوم ولن تستمر بل وجودها إلى زوال وبقاؤها إلى فناء. . فالأحياء يموتون وعنها يرحلون ولا يبقون والأشياء ينسفها ربي نسفاً فيجعلها قاعاً صفصفاً. . .

وإذا كانت إلى فناء وأهلها إلى جلاء عنها فكيف يتعامل معها الإنسان وكيف يحوّل وجوده فيها؟ إن على هذا الإنسان أن ينظر إلى ما وراءها من الحياة الباقية التي لا تفنى. . .

(**وهي حلوة خضراء وقد عجلّت للطالب والتبست بقلب الناظر**) بيّن أسباب التهالك عليها والركون إليها والاطمئنان بحالها إنها حلوة المنظر تسّر من رآها وتدفعه لطلبها، إنه يرى الحكم والسلطة فيغره ذلك ويسعى للسيطرة والحكم ناسياً أن ملوكاً تعاقبوا عليها ولم يبقوا. . .

وإنه يرى المال فيعجبه اقتناؤه فيسعى من أجله من الحلال والحرام وينسى أن قارون جامع المال قد مات وهكذا مات من أتى بعده. . .

يرى الطيبات فيسعى إليها ناسياً من أكلوها واستلذوا بها فإن ديدان الأرض وحشراتها قد أكلتهم وهكذا. . .

إنها قد توفرت عند من يطلبها ويرغب فيها ويريدها قال تعالى: ﴿من كان يريد

العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾ .

وهذه الدنيا الحلوة إذا نظر إليها الإنسان فإنها تدخل إلى قلبه وخصوصاً إذا كانت ملائمة للطباع موافقة للمزاج فيصبح مولعاً بها متيماً بحبها.

(**فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد**) وإذا كان لا بد من الارتحال عنها والجلاء منها وكان لا بد لهذا السفر من زاد فليكن أفضل الزاد وأحسنه ألا وهو التقوى كما قال تعالى: **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾** .

(**ولا تسألوا فيها فوق الكفاف**) نهى عليه السلام أن يطلب الإنسان فوق حاجته وما يسد عوزه لأن الزيادة تتطلب السعي لها وفي ذلك صرف للعمر فيما يفنىٰ ولا أجر فيه ثم إنه إذا حصل عليه فإنه سيرتحل عنه ويتركه لغيره فإن كان من العصاة يكون قد أعان غيره على المعصية وإن كان من أهل الطاعة فإنه يسعد به غيره فلو صرف من أوقاته الزائدة عن تحصيل كفافه فيما فيه سعادته من طاعة الله لكان فيه كل الخير والسعادة الدائمة. . .

قال رسول الله (ص): اللهم ارزق محمداً وآل محمد ومن أحب محمداً وآل محمد العفاف والكفاف وارزق من أبغض محمداً وآل محمد المال والولد. . .

وعن الصادق عليه السلام: طوبى لمن أسلم وكان عيشه كفافاً. .

(**ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ**) اتركوا طلب ما زاد منها عن حاجتكم وقدر كفايتكم لئلا تندموا على ما تخلفونه منها وما زاد عن قدر الحاجة فهو للحوادث أو للوارث.

٤٦ ـ ومن كلام له عليه السلام

عند عزمه على المسير إلى الشام
وهو دعاء دعا به ربه عند وضع رجله في الركاب

اَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ(١) بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ(٢) السَّفَرِ(٣)، وَكَآبَةِ(٤) اَلْمُنْقَلَبِ(٥)، وَسُوءِ اَلْمَنْظَرِ(٦) فِي اَلْأَهْلِ واَلْمَالِ وَاَلْوَلَدِ. اَللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، وَأَنْتَ اَلْخلِيفَةُ فِي اَلْأَهْلِ، وَلاَ يَجْمَعُهُما غَيْرُكَ؛ لِأَنَّ اَلْمُسْتَخْلَفَ لاَ يَكُونُ مُسْتَصَحباً، وَاَلُمسْتَصْحبُ لاَ يَكُونُ مُسْتَخلَفاً.

قال السيد الشريف رضي الله عنه: وابتداء هذا الكلام مرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد قفّاه أمير المؤمنين عليه السلام بأبلغ كلام وتممه بأحسن تمام؛ ومن قوله: «ولا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ» إلى آخر الفصل.

اللغة

١ ـ **أعوذ** : أستجير.
٢ ـ **الوعثاء** : المشقة وأصل الوعث المكان السهل الكثير الدهس تغيب فيه الأقدام ويشق المشي فيه.
٣ ـ **السفر** : قطع المسافة والخروج من المكان المقيم فيه.
٤ ـ **الكآبة** : الحزن.
٥ ـ **المنقلب** : الرجوع.
٦ ـ **المنظر** : المرأى وسوء المنظر قبح المرأى.

الشرح

(اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد) هذا الدعاء من أمير المؤمنين عندما وضع رجله في الركاب من منزله بالكوفة

متوجهاً إلى الشام لحرب معاوية وأصحابه وقد ورد عن الأئمة أدعية كثيرة لمن أراد السفر وهذا تعبير عن ولاء المسلم لله وتوجهه إليه وإنه يبتدىء مسيره في طاعة الله ويستمد منه القوة والعون . .

والإمام يستجير بالله ويطلب منه العون أن لا يلحقه مشقة في سفره ولا يصيبه حزن وأسى عند عودته ولا تقع عيناه على ما يسؤه ويؤذيه في أهله وماله وولده . .

والسفر مهما كان قصيراً طالما إنه سفر ففيه مشقة وتعب ومخالفة للعادة التي اعتادها الإنسان فإن من عادة كل واحد أن يقيم في وطنه ويستقر فيه وذلك موجب لاستقرار النفس وارتياحها ولذا يطلب الإمام ويعلّمنا كيف نستجير بالله من تعب السفر . . كما يطلب من الله ويدعوه أن يرجع بدون حزن بل يرجع بسرور من تجارة رابحة وزيارة مقبولة وجهاد مبارك ميمون يُرضي الله وكذلك إذا عاد أن يكون أهله وأمواله وأولاده على ما أحب لا يرى فيهم سوءاً أو أذية .

(اللهم أنت الصاحب في السفر) أنت تصحبني في سفري وأنت رفيقي في رحلتي ومن كان الله صاحبه ورفيقه فإنه لن يتخلى عنه أو يهمله بل سيوفر له كل ما يسعده ويخفف عنه الأذى ، إنه يكفيه مهمات الأمور . . .

(وأنت الخليفة في الأهل) أي المتولي لأمور أهلي والمدبر لشؤونهم والقائم بأمرهم ومن كان الله خليفته على أهله أطمأن وارتاح وذهب في سفره وهو في غاية القوة وهدوء الأعصاب والفكر . . .

(ولا يجمعهما غيرك ، لأن المستخلف لا يكون مستصحباً والمستصحب لا يكون مستخلفاً) لا يجمع الصحبة والاستخلاف غير الله لأنه القادر المطلق والعالم المطلق المحيط بالأمور كلها وهي تحت يده ومستجيبة له وأما غيره فإنه إذا كان في مكان خلى منه آخر وهكذا يستحيل أن يكون غيره مستخلفاً ومستصحباً لأن المستخلف هو الباقي خليفة على الأهل والمستصحب هو المرافق في السفر وهذا لا يجتمع مع الأول . .

٤٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

في ذكر الكوفة

كَأَنِّي بِكِ يَا كُوفَةُ[١] تُمَدِّينَ مَدَّ[٢] الأَدِيمِ[٣] الْعُكَاظِيِّ[٤]، تُعْرَكِينَ[٥] بِالنَّوَازِلِ[٦]، وَتُرْكَبِينَ[٧] بِالزَّلاَزِلِ، وإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِك جَبَّارٌ سُوءاً[٨] إِلاَّ ٱبْتَلاَهُ ٱللّهُ بِشَاغِلٍ، ورَمَاهُ بِقَاتِلٍ!

اللغة

١ ـ الكوفة : بلدة على شط الفرات اتخذها الإمام علي عاصمة حكمه.

٢ ـ مدّ : بسط وتمدد انبسط.

٣ ـ الأديم : الجلد المدبوغ.

٤ ـ العكاظي : نسبة إلى عكاظ وهو سوق قرب مكة كانت تجتمع فيه العرب ببضاعتها وتتفاخر وتنشد أجود أشعارها.

٥ ـ تعركين : من العرك وهو الدلك.

٦ ـ النوازل : المصائب.

٧ ـ تركبين : من ركب الدابة إذا علاها، وضع الشيء فوق الشيء.

٨ ـ السوء : الشر، الفساد، الآفة.

الشرح

(كأني بك يا كوفة تمدين مد الأديم العكاظي، تعركين بالنوازل وتركبين بالزلازل)

علاقة الإنسان بالأرض علاقة طبيعية وحب الوطن من الإيمان فمن نشأ في تربة أحبها وألفها فإذا أراد فراقها صعب عليه فراقها وعز عليه تركها.

فكيف إذا كانت ملتقى الأحبة والأتباع وفيها العز والوفاء وبالأخص إذا كان فيها مضافاً إلى ذلك بركة وقدسية وبعض الخصوصيات الإيمانية فإن الإنسان يزداد تعلقه بها وارتباطه بكل ذرة تحويها، تشده إليها هذه الخصوصيات فيدافع عنها ويكافح من أجلها. .

والإمام كان يرتبط بالكوفة برابطة قوية، فقد كانت عاصمة حكمه، وملتقى أصحابه وفيها مسجدها الجامع المبارك الذي صلى فيه النبي وقد كانت تضم بيوتات العرب وأشرافها والإمام ينظر بعين الغيب فيحكي ما سيجري على الكوفة بعده وما سيصيبها ويحل بأهلها، يقول ذلك بحسرة وألم. . .

كأني بك يا كوفة، كأني أبصرك وأشاهدك وأرى رؤية العين حالك وقد حكم فيك الجبابرة ومارسوا عليك أقسى أنواع الظلم والاضطهاد والقهر، تصيبك الحوادث المؤلمة والمصائب المرعبة وقد لاقت الكوفة من الأمويين وعملاؤهم الشيء الكثير فقد صبّوا جام غضبهم عليها لكثرة من بها من الشيعة. . .

(وإني لأعلم أنه ما أراد بك جبار سوءاً إلا ابتلاه الله بشاغل ورماه بقاتل) وبعد أن أخبر بما يجري على الكوفة ويمر عليها من المصائب والمحن أخبر أيضاً بأن كل جبار عنيد يخالف الله في عباده ويقصدها بسوء لا بد وأن يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر فيبتلي بعضهم بشغل في نفسه بأن تصيبه آفة أو عاهة لا تدعه يكمل مخططه الجهنمي الرهيب، كزياد بن أبيه الذي جمع أهل الكوفة للبراءة من علي فأصابه الفالج وشغل بنفسه عن غيره ومنهم من رماه الله بقاتل أذاقه حر الحديد والنار كابن زياد وابنه عبيد الله والحجاج وابن الزبير وغيرهم. .

الكوفة:

بعد فتح العراق كتب حذيفة إلى عمر: إن العرب قد رقت بطونها وجفت أعضاءها وتغيرت ألوانها وكان مع سعد فكتب عمر إلى سعد: أخبرني ما الذي غيّر ألوان العرب ولحومهم؟.

فكتب إليه سعد: إن الذي غيرهم وخومة البلاد وإن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان فكتب إليه عمر أن إبعث سلمان (الفارسي) وحذيفة (ابن اليمان) رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر فأرسلهما سعد، فخرج سلمان حتى يأتي الأنبار فسار غربي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة وسار حذيفة

في شرقي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة ـ وكل رمل وحصباء مختلطين فهو كوفة ـ فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاثة: دير حرمة ودير أم عمرو ودير سلسلة وخصاص فأعجبتهما البقعة فنزلا فصليا ودعوا الله تعالى أن يجعلها منزل الثبات فلما رجعا إلى سعد بالخبر وقدم كتاب عمر إليه أيضاً كتب سعد إلى القعقاع بن عمرو وعبد الله بن المعتم أن يستخلفا على جندهما ويحضرا عنده ففعلا وكان بين نزول الكوفة ووقعة القادسية سنة وشهران. .

وأول شيء خط فيها وبني مسجدها ثم رمى رجل شديد النزع بسهم وأمر أن يبنى فيما وراء ذلك. .

وبنوا لسعد داراً بحياله وهي قصر الإمارة الذي لا يزال أثره إلى اليوم.

ثم اتخذها الإمام علي عاصمة لحكمه لكثرة من بها من شيعته ولقربها من دمشق حيث معاوية الذي أعلن التمرد. . .

ولقد نالت نصيباً وافراً من غضب الحكام وسوطهم وخصوصاً في زمن عبيد الله بن زياد وأبيه والحجاج وعموم الأمويين، وهي إلى الآن قاعدة التشيع وولاؤها لأهل البيت ثابت راسخ قوي لم يتزعزع أو يتزلزل بل كلما اشتدت الأزمات يشتد التمسك بالعترة والرجوع إليها. .

٤٨ ـ ومن خطبة له عليه السلام

عند المسير إلى الشام

قيل: إنه خطب بها وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة إلى صفين

ٱلْحَمْدُ لِلّهِ كُلَّمَا وَقَبَ(١) لَيْلٌ وَغَسَقَ(٢)، وٱلْحَمْدُ لِلّهِ كُلَّمَا لاَحَ(٣) نَجْمٌ وَخفَقَ(٤)، وَٱلْحمْدُ لِلّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ(٥) ٱلإِنْعَامِ(٦)، وَلاَ مُكَافإٍ(٧) ٱلإِفْضَالِ(٨).

أَمَّا بَعْدُ، فَقدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي(٩)، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ(١٠) هٰذَا ٱلْمِلْطَاطِ(١١) حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هٰذِهِ ٱلنُّطْفَةَ(١٢) إِلَى شِرْذِمَةٍ(١٣)، مِنْكُمْ، مُوَطِّنِينَ(١٤) أَكْنَافَ(١٥) دَجْلَةَ(١٦)، فَأُنْهِضَهُمْ(١٧) مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ(١٨) ٱلْقُوَّةِ لَكُمْ.

قال السيد الشريف: أقول: يعني ـ عليه السلام ـ بالملطاط ها هنا السَّمْتَ الذي أمرهم بلزومه، وهو شاطىء الفرات، ويقال ذلك أيضاً لشاطىء البحر، وأصله ما استوى من الأرض. ويعني بالنطفة ماء الفرات، وهو من غريب العبارات وعجيبها.

اللغة

١ ـ وقب	:	دخل.
٢ ـ الغسق	:	من غسق الليل إذا أظلم.
٣ ـ لاح	:	بدا وظهر.
٤ ـ خفق	:	غاب.
٥ ـ مفقود	:	من فقد غاب عنه وعدم.
٦ ـ الإنعام	:	العطايا.

٧ ـ مكافأ	:	مجازاة.
٨ ـ الإفضال	:	الإحسان وقيل الابتداء به بدون علة.
٩ ـ مقدمتي	:	من المقدمة وهي طليعة الجيش التي تتقدم عليه.
١٠ ـ لزوم	:	ثبت ودام.
١١ ـ الملطاط	:	ساحل البحر، عدم المفارقة، التعلق بالشيء.
١٢ ـ النطفة	:	الماء الصافي.
١٣ ـ الشرذمة	:	النفر القليلون.
١٤ ـ موطنين	:	من وطنه واستوطنه اتخذه وطناً.
١٥ ـ الأكناف	:	الجوانب واحدها كنف.
١٦ ـ دجلة	:	نهر ينبع من جبال طوروس في تركيا ويمر بديار بكر والموصل وبغداد.
١٧ ـ أنهضهم	:	من نهض بمعنى قام وأنهضهم أقامهم.
١٨ ـ الإمداد	:	جمع مدد وهو ما يمد به الجيش تقوية له.

الشرح

(الحمد لله كلما وقب ليل وغسق) الحمد لله صيغة افتتح الله بها قرآنه، إنها اعتراف وإقرار بحق الله وإنه المستحق للحمد ولكي تنطلق الشفاه بها وتكون صادقة يجب أن يكون ناطقها ملتزماً بأوامر الله وأحكامه يقوم بالواجبات ويترك المحرمات ولا يتعدى حدود ما رسمه الله له في شريعته..

ـ عن الصادق عليه السلام قال: الشكر للنعم اجتناب المحارم وتمام الشكر قول: الحمد لله رب العالمين..

ـ وورد عن النبي (ص) قوله: لا إله إلا الله نصف الميزان والحمد لله يملأه.

ـ وعن رسول الله (ص) من ظهرت عليه النعمة فليكثر قول الحمد لله..

والإمام سيد العابدين وأصدق العارفين يحمد الله في كل أوقاته ولكنه يخصص هذه الأوقات والحالات لما فيها من خصوصية تنبه الفرد إليها فهو يحمد الله كلما دخل الليل وأظلم لما في تلك الآية من لفت النظر وإنها موضع السكون والهدوء والاستقرار.

(والحمد لله كلما لاح نجم وخفق) وكذلك الحمد أمام هذه الظاهرة الكونية العظيمة التي يشير ظهور الكواكب وغيابها إلى عظمة خالقها ومبدعها ولما فيها من الزينة

والجمال والأنس لدى النفوس وإن كانت بعيدة عنه لا تطالها يده. . .

(والحمد لله غير مفقود الإنعام ولا مكافأ الإفضال) والحمد لله الذي لا تفقد نعمه بل هي متوالية متتالية متكررة مستمرة من أصغر النعم إلى أعظمها كما أن له الحمد لعدم قدرتنا على مجازاته على هذه النعم وهذا الإحسان وكيف يقابل من كان عطاؤه ابتداءً وبدون استحقاق بل تفضلاً وإحساناً. . .

(أما بعد فقد بعثت مقدمتي وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط حتى يأتيهم أمري) عندما توجه الإمام إلى صفين وجه زياد بن النضر وشريح بن هاني في إثنتي عشر ألف فارس مقدمة له وأمرهم أن يلزموا جانب الفرات فساروا حتى وصلوا إلى عانات وأما هو فقد خرج من الكوفة إلى المداين وإليها أشار بأنه سيقطع الفرات إلى الجانب الآخر حيث تقع المداين. .

(وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة إلى شرذمة منكم موطنين أكناف دجلة) إنه رأى أن يعبر النهر إلى الجهة الأخرى حيث أهل المدائن القلة القليلة الساكنة والمستوطنة هناك في جوانب دجلة. . .

(فأنهضهم معكم إلى عدوكم واجعلهم من أمداد القوة لكم) استنهضهم وأحثهم على الخروج إليكم ليقاتلوا معكم عدوكم معاوية وأصحابه واجعلهم المدد لكم والقوة على عدوكم. .

٤٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

وفيه جملة من صفات الربوبية والعلم الإلهي

ٱلْحَمْدُ لِلّهِ ٱلَّذِي بَطَنَ[١] خَفِيَّاتِ[٢] ٱلأُمُورِ، وَدَلَّتْ[٣] عَلَيْهِ أَعْلاَمُ[٤] الظُّهُورِ، وَٱمْتَنَعَ[٥] عَلَىٰ عَيْنِ ٱلْبَصِيرِ[٦]؛ فَلاَ عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ[٧]، وَلاَ قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ[٨] يُبْصِرُهُ: سَبَقَ فِي ٱلْعُلُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَعْلَىٰ مِنْهُ، وَقَرُبَ فِي ٱلدُّنُوِّ[٩] فَلاَ شَيْءَ أَقْرَبَ مِنْهُ. فَلاَ ٱسْتِعْلاَؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلاَ قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ[١٠] فِي ٱلْمَكَانِ بِهِ. لَمْ يُطْلِعِ[١١] ٱلْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ[١٢] صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا[١٣] عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ ٱلَّذِي تَشْهَدُ[١٤] لَهُ أَعْلاَمُ ٱلْوُجُودِ، عَلَىٰ إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي ٱلْجُحُودِ[١٥]، تَعَالَىٰ ٱللّهُ عَمَّا يَقُولُهُ ٱلْمُشَبِّهُونَ[١٦] بِهِ وَٱلْجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً!.

اللغة

١ ـ بطن : بطنت الوادي إذا دخلته وبطنت الأمر علمت باطنه.

٢ ـ الخفيات : المستورات، البواطن، الأسرار.

٣ ـ دلت : أرشدت وهدت.

٤ ـ الأعلام : الأعلام جمع العلم المنار يهتدى به ثم جعل لكل ما يستدل به على شيء.

٥ ـ امتنع : العزيز، الشديد الذي لا يقدر عليه وحصن منيع يتعذر الوصول إليه.

٦ ـ البصير : المبصر الذي يرى بنظره.

٧ ـ أنكره : جحده، جهله.

٨ ـ أثبته : عرفه حق المعرفة، بينه بالبينات.

٩ ـ الدنو : القرب.
١٠ ـ ساواهم : ماثلهم، وساوى الشيء عادله.
١١ ـ يطلع : يُعلم.
١٢ ـ التحديد : رسم حدود الشيء عن الشيء الآخر وتميزه عنه.
١٣ ـ حجبه : منعه وستره.
١٤ ـ تشهد : تقر، تخبر.
١٥ ـ الجحود : الإنكار.
١٦ ـ المشبهون : قوم شبهوا الله بخلقه أي صوّروة مثلهم..

الشرح

(الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور) هذه جملة من الصفات الربوبية التي يصفه بها الإمام وهي في غاية التنزيه لله عن كل نقص أو عيب.

١ ـ إنه يعلم بواطن الأشياء وخفاياها لا يعزب عن علمه شيء من الذرة التائهة الصغيرة إلى المجرة الهائلة العظيمة. وعلمه بالأشياء الحادثة كعلمه بما لم يحدث لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

(ودلت عليه أعلام الظهور) ما ظهر من هذه الموجودات وبان كلها تدل على أن الله هو صانعها لحدوثها المفتقر إلى موجد لها غني بالذات ألا وهو الله، فمن الأثر نكتشف وجود المؤثر ومن المعلول نضع أيدينا على وجود العلة ومن وجود الكون وما فيه نعرف أن له صانعاً حكيماً هو الله تعالى. وقد استدل الأعرابي ببساطته وصفاء فكره عندما سئل عن الله فقال: البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا يدلان على اللطيف الخبير.

(وامتنع على عين البصير) فالبصير بأدق ما يبصر يعجز عن رؤية الله لأن الرؤية تستدعي تحديد الجهة للمرئي وأن يكون جسماً والله سبحانه منزه عن الجسمية والجهتية فلا جهة تحويه ولا تخلو منه جهة وهو ليس بجسم فلا يمكن رؤيته...

وعندما طلب موسى الرؤية قال: ﴿**لن تراني**﴾[1] فهو نفي مؤبد يشمل الآخرة

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٣.

فضلاً عن الدنيا.. وقال تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار[١] وهو اللطيف الخبير**﴾...

(**فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أثبته يبصره**) ليست الأشياء على مستوى واحد ولا ذات خصائص واحدة بل كل صنف له خصوصية وعناصر ذاتية تحكمه وتخرجه عن غيره ولذا لا يمكن إخضاعها جميعاً لمقياس واحد كما لا يمكن أن يحكمها قانون واحد وقد كانت أمور كشفها العلم الحديث تقرب هذا المعنى وتوضحه فالجراثيم مثلاً تفتك ببدن الإنسان وتقوض حركته وهو لا يراها بالعين المجردة ـ إنه يراها بالمجهر الذي يكّبرها ملايين المرات ـ ولولا ذلك لأمكنه إنكارها لأنه لم يرها ولكنه يكون مخطئاً في إنكاره لأنه لم يستعمل لها أدواتها المعدة لها...

والله سبحانه وتعالى جلت قدرته له صفات ذاتية تفوق تصور هذا الإنسان ولا يقع سبحانه تحت نظر هذا الإنسان العاجز فإذا استعمل بصره فلن يرى الله لقصور البصر وجلال الله عن ذلك ولكن مع ذلك لا يستطيع أن ينكر وجوده ويتنكر لجوده لأن العقل يحكم بوجوده ويصدق به...

وكذلك من أثبت وجود الله لعقله لا يمكن أن يدعي رؤيته بعينه لأن الأول طريق معرفته دون الآخر...

وبعبارة أخرى مختصرة إن طريق معرفة الله والإيمان به هو العقل فإذا حكم بوجوده فليس معنى ذلك أن يخضع للرؤية البصرية فذلك ما لا يمكن إدراكه كما أن من لم يره لا يقدر أن ينفيه لأن البصر ليس هو الطريق الصحيح لمعرفته...

(**سبق في العلو فلا شيء أعلى منه**) علوه كماله المطلق الذي تتفرع منه الكمالات النسبية الأخرى... فهو العالم، الحي، الدائم السرمدي الأزلي وجميع صفات الكمال الذي لا يقاس بها كمال آخر مما نعرف أو نرى...

(**وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه**) فهو مع كل شيء وكما قال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان[٢] ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾...

(**فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه ولا قربه ساواهم في المكان به**) أراد عليه السلام أن يطرد من أذهاننا ما ربما نتخيله ونتوهمه من أن استعلاؤه يبعده عنا فلا نلتقي به

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٠٣.

(٢) سورة ق، آية: ١٦.

أو أن قربه منا يساوينا معه في المكان والزمان فنجتمع معه كلا فليس ذلك مراده لأنه منزه عن المكان والزمان والجهة وعن الأين والكيف. . .

(لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته) معرفة الله بحقيقته وكنهه أمر لا تدركه العقول القاصرة وهذا هو الشيء الذي ينفيه الإمام ويمنع العقول أن تدركه لأن كل ما يتصوره الإنسان من صفات وخصائص فهي أمور تخيلّها وركبّها وهي تتنافى مع ذات الله وما هو عليه وكما في الحديث: لعل النمل ترى أن لله زبانيتين كمالها لأنها تتصور الكمال بهما. . .

نعم نحن أدركنا الصفات بحسب ما أعطانا من المعرفة وبهذا المقدار زودنا الله من العلم وأعطانا من العقل لندرك قدر الواجب في معرفة الصفات فهو سبحانه وهب لكل نفس قسطاً من المعرفة يعرف بها هذه الصفات قدر طاقته وقدرته. . .

(فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود تعالى الله عما يقوله المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً) فإن هذه الآيات الظاهرة والكائنات الحادثة كلها تحكي عن وجوده وتدل على ذاته، فكما أن الجاحد يستدل بالأثر على المؤثر وبالمعلول على العلة في غير هذه القضية فيجب أن يستدل هنا ويعرف أن للكون خالقاً وصانعاً فهذه حجة عليه وكما قال تعالى: **﴿وجحدوا[1] بها واستيقنتها أنفسهم﴾** تعالى الله وجلّ أن يشبّه بغيره وعلا علواً كبيراً عما يقوله المنكرون الذين هم جاحدون. .

---

(١) سورة النمل، آية: ١٤.

٥٠ ـ ومن كلام له عليه السلام

وفيه بيان لما يخرب العالم به من الفتن وبيان هذه الفتن

إِنَّمَا بَدْءُ[١] وُقُوعِ ٱلْفِتَنِ[٢] أَهْوَاءٌ[٣] تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ[٤]، يُخَالَفُ[٥] فِيهَا كِتَابُ ٱللّٰهِ، وَيَتَوَلَّىٰ[٦] عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً، عَلَىٰ غَيْرِ دِينِ ٱللّٰهِ. فَلَوْ أَنَّ ٱلْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ[٧] ٱلْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَىٰ ٱلْمُرْتَادِينَ[٨]؛ وَلَوْ أَنَّ ٱلْحَقَّ خَلَصَ[٩] مِنَ لَبْسِ[١٠] ٱلْبَاطِلِ، ٱنْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ ٱلْمُعَانِدِينَ؛ وَلٰكِن يُؤْخَذُ مِنْ هٰذَا ضِغْثٌ[١١]، وَمِنْ هٰذَا ضِغْثٌ، فَيُمْزَجَانِ[٢]! فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو «الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ ٱلْحُسْنَىٰ».

اللغة

١ ـ **البدء** : بفتح الباء وسكون الدال الابتداء، الأول.
٢ ـ **الفتن** : مفردها الفتنة الاختبار، الامتحان، الابتلاء، الضلال، الاختلاف.
٣ ـ **الأهواء** : مفردها الهوى إرادة النفس وميلانها إلى مستلذاتها.
٤ ـ **تبتدع** : من البدعة إحداث أمر لم يكن وشرعاً إدخال أمر في الدين على أنه منه.
٥ ـ **يخالف** : ضد يوافق.
٦ ـ **يتولى** : يتّبع.
٧ ـ **مزاج** : من المزج وهو الخلط.
٨ ـ **المرتادين** : الطالبين.
٩ ـ **خلص** : صفى.
١٠ ـ **اللبس** : لبس عليه الأمر خلطه وجعله مشتبهاً بغيره خافياً.

١١ ـ الضغث : بكسر الضاد قبضة من حشيش تشتمل على الرطب واليابس.
١٢ ـ يمزجان : من مزج الشراب بالماء إذا خلطه.

الشرح

(إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً على غير دين الله) أشار عليه السلام في هذا الكلام إلى ما وقع بين المسلمين من الاختلاف بعد وفاة رسول الله ـ ويمكن أن يعّمم الكلام لكل أمر يشبهه ـ وهو أن أول نشوء الاختلاف في الآراء وانتشار المذاهب الباطلة وتعدد وجهات النظر إنما كان من جهة هوى النفس والرغبة في المنصب والرياسة واصطياد الدنيا فهذا الإنسان له هوى في الزعامة فيبتدع من رأسه رأياً شخصياً وفكراً فطيراً يخالف به عمومات القرآن وما أنزل الله ثم إنه بما له من سلطة وقوة أو بماله من رصيد شعبي يتبعه ويحبه ترى الناس خلفه يأخذون بآرائه ويروجون لها وينشرونها بين الناس دعاة ومبشرين دون أن يتلفتوا إلى دين الله وحكمه ودون أن يعودوا إلى المنزل من كتابه لكي يفتشوا عن صحة هذا الرأي أو فساده.. إنهم يغلقون أفكارهم ويقلدون الرجل بل يكونون دعاة من دعاته وبوقاً إعلامياً من أبواقه...

إن أصحاب المذاهب الباطلة والفرق الفاسدة كانت أول ما ابتدأت وليدة الهوى ثم سارت الرجال خلف مبتدعيها دون فكر أو دراية وهكذا...

(فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين ولو أن الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى) بيّن عليه السلام أسباب ودواعي اتباع الناس للرجل المبتدع وهو أن التمويه والتضليل طريق يسلكه ومنهج يتخذه. فلو أن الباطل كان ظاهراً بيناً لم يخف على طلاب الحق ورواده الذين يهمهم الالتزام به واتباعه، إذ ليس بين الناس وبين الحق عداوة ولو أن الباطل كان واضحاً ظاهراً لاجتنبه الناس وابتعدوا عنه..

ولكن هذا المبتدع يأخذ من الباطل مضمونه وحقيقته ومن الحق شعاره وثوبه ثم يلبس الثوب للمضمون ويأخذ بعرض ذلك أمام الناس فيستهوي الضعفاء وأصحاب العقول الخفيفة فيجرهم إليه وإلى نهجه ويدعوهم إلى الإيمان بما يطرحه ويذهب إليه

فترى الكثير يتبعون أثره ويرفعون شعاره ويحاربون من أجله. . لقد خلط الحق بالباطل فاشتبه الأمر على من لا معرفة لهم بالأمور ولا دارية لهم في تمييز الحق من الباطل وهذا النموذج ما أكثر مصاديقه في الدنيا وفي كل يوم شعار يُرفع وناس تتبع وفي زماننا شيوعية واشتراكية ورأسمالية وداروينية وهندوسية وهكذا تتعدد المدارس وتكثر الآراء وتختلف النظريات. . .

ولكن الإنسان المسدد المؤيد بقوة عقلية الذي يرى بنور الله وما وضعه له من العلامات ونصبه له من الأدلة يهتدي إلى تزييف الباطل ورفضه ومعرفة الحق والإيمان به فهو من الذين سبقت لهم من الله الحسنى وأما غيرهم فمن أولياء الشيطان واتباعه الذين يمشون في ضلال وعمى. . .

٥١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفين ومنعوهم الماء

قَدِ ٱسْتَطْعَمُوكُمُ ٱلْقِتَالَ(١)، فَأَقِرُّوا(٢) عَلَىٰ مَذَلَّةٍ(٣)، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ؛ أَوْ رَوُّوا(٤) السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ ٱلْمَاءِ؛ فَالمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ(٥)، وٱلْحَيَاةُ في موْتِكُمْ قَاهِرِينَ. أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ(٦) لُمَةً(٧) مِنَ ٱلْغُوَاةِ(٨)، وعَمَّسَ(٩) عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحورَهُمْ(١٠) أَغْرَاضَ(١١) ٱلْمَنِيَّةِ(١٢).

اللغة

١ ـ استطعموكم القتال : طلبوا القتال منكم.
٢ ـ أقروا : أما من الإقرار وهو الاعتراف أو من القرار وهو الثبوت والسكون.
٣ ـ المذلة : الهوان.
٤ ـ روّوا : من روى إذا شبع من الماء.
٥ ـ المقهور : المغلوب، الذليل.
٦ ـ قاد : الدابة مشى أمامها آخذاً بقيادها وزمامها. .
٧ ـ اللمة : الجماعة القليلة.
٨ ـ الغواة : مفردها الغاوي وهو الضال المنقاد للهوى.
٩ ـ عمسّ : أبهم وعمي.
١٠ ـ النحور : مفردها نحر وهو أعلى الصدر.
١١ ـ الأغراض : جمع غرض وهو الهدف.
١٢ ـ المنية : الموت.

الشرح

(قد استطعموكم القتال فأقروا على مذلة وتأخير محلة أو رووا السيوف من الدماء ترووا من الماء).

وهذ فارق آخر بين علي ومعاوية:

سبق معاوية إلى شريعة الماء في صفين وقد أجمع وأصحابه أن يمنعوه عن علي وأصحابه ووصل النبأ إلى الإمام فدعا صعصعة بن صوحان فقال: ائت معاوية وقل له: إنّا سرنا إليك مسيرنا هذا وإنّا نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم وإنك قدّمت خيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالحرب ونحن ممن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك وهذه أخرى فقد فعلتموها قد حلتم بين الناس وبين الماء فخلِّ بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له وإن كان أحب إليك أن تدع ما جئتنا له وندع الناس يقتتلون حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا.

فلما مضى صعصعة برسالته إلى معاوية، قال معاوية لأصحابه ما ترون؟.

قال الوليد بن عقبة: إمنعهم الماء كما منعوه ابن عفان.

قال عمرو بن العاص: خلِّ بين القوم وبين الماء فإنهم لن يعطشوا وأنت ريّان ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم.

عاد الوليد مقالته.

وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح ـ وكان أخاً لعثمان من الرضاعة. إمنعهم الماء إلى الليل فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا وكان رجوعهم هزيمتهم.

ثم إن معاوية قرر أن يمنعهم الماء فعندها قام الإمام خطيباً وخطب هذه الخطبة التي يحثهم فيها على انتزاع الشريعة والاستيلاء عليها بقوة السلاح. . .

وفعلاً دخل الأشتر والأشعث وأصحاب الإمام وأزالوا أبا الأعور ومن معه من جند معاوية واستولوا عليها.

فقال عمرو بن العاص لمعاوية: ما ظنك يا معاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتهم أمس، أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه، ما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءة.

فقال معاوية: دع عنك ما مضى فما ظنك بعلي؟.

قال: ظني إنه لا يستحل منك ما استحللت منه وإن الذي جاء له غير الماء...

ثم قال أصحاب الإمام للإمام: إمنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك.

فقال: لا خلوا بينهم وبينه لا أفعل ما فعله الجاهلون سنعرض عليهم كتاب الله وندعوهم إلى الهدى فإن أجابوا وإلا ففي حد السيف ما يغني إن شاء الله يقول الراوي:

فوالله ما أمسى الناس حتى رأوا سقاتهم وسقاة أهل الشام وروايا هم وروايا أهل الشام يزدحمون على الماء ما يؤذي إنسان إنساناً...

والإمام يقول لأصحابه في هذه الخطبة إنهم طلبوا منكم القتال وأرادوا أن تطعموهم إياه عندما منعوكم من ارتياد المشرعة وأنتم بين أحد خيارين.

إما أن تقبلوا بذلك فلا تحركوا ساكناً ترضون بالذل والهوان وتتأخرون عن المحلة الرفيعة والمقام الكريم وهذا ما لا يرضاه الله لكم ولا ترضونه لأنفسكم فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

وإما أن تسقوا السيوف من دمائهم وعندها تسقون من الماء، فالمقدمة لكي تشربوا وترتوا أن تشرب سيوفكم من دمائهم فهي التي تمهد لكم الدخول إلى المشرعة وتسهل لكم شرب الماء وما أعظم هذا البيان العلوي الذي يحرك الجماد ويدفع بالجبان إلى لهوات المعارك والقتال ويؤهله ليكون من الشجعان...

(فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين).

نشيد الأحرار:

هذا نشيد رائع وضعه الإمام إمام القادة والأحرار فأخذوا يرددونه باستمرار أمام جيوشهم ورعيتهم يتغنون به ويعزفون معه موسيقى النصر وآيات المجد.. كلمات معدودة تختصر الموت كما تختصر الحياة.. على أساسها نعرف حياة الأمم ونعرف موتها كما نعرف حياتنا وموتنا.. ميزان صحيح وسليم يضعه الإمام بين أيدينا يدفعنا من خلاله أن نكون أحياء.. فحياة الذل والهوان والضعة والعار هي موت حقيقي وإن كانت في ثوب الأحياء، فالشعوب المستعمرة التي يمارس عليها الظلم وتستلب خيراتها وتصادر حرياتها هي شعوب ميتة وإن كانت تتنفس وتتحرك كالأحياء... فالموت هو في الحياة الذليلة الوضيعة المهانة...

وأما الحياة فهي في الموت الشريف الذي يزلزل بنيان الحكم الظالم وقواعده المستبدة، الحياة هي التي تخرج من الموت منتصرة تعيش على ألسنة الأحرار والثوار فالموت حياة عندما يموت الحر من أجل هدفه وغايته وأصدق شاهد على هذا ثورة أبي عبد الله الحسين أبيّ الضيم الذي خرج على الحكم الأموي فهشم بنيانه وحطم قواعده وأتى على كل شيء فيه فهدّه من أساسه وارتفع ذكره وعاش خالداً منتصراً... إنها هي الحياة في الموت... الملايين في شرق الأرض وغربها تقدسه تحتفل بذكرى ولادته وذكرى شهادته وأضحت عاشوراء رمزاً ومناراً لكل ثائر من أجل الله والحق...

مئات السنين بعد الألف قد مضت وكأنه يعيش في كل أمة وفي كل جيل.. يعيش في قلوبهم وفي ضمائرهم وفي حركة حياتهم.. أضحى رمزاً وشعاراً يعيش ما عاش إنسان على هذه الأرض... الحياة في الموت الشريف العزيز الذي يذل الطغاة والظالمين ويقضي على جبروتهم وظلمهم...

(ألا وإن معاوية قاد لمة من الغواة وعمّس عليهم الخبر حتى جعلوا نحورهم أغراض المنية) ثم بين حال معاوية مع من معه وكيف سار بهم، إنهم قلة من الذين أضلهم بحيله وأعمى عليهم الخبر الصحيح من وراء قتاله حيث رفع قميص عثمان وطالب بالثأر له وأخذ من هذا شعاراً يقاتل الحق به وقد هيأ كل الأمور التي تدعمه في هذه الحرب من شراء بعض الصحابة الضعفاء في إيمانهم كأبي هريرة وعمرو بن العاص والضحاك بن قيس وغيرهم ممن لا يعرف غير مصلحته ومنفعته في الحياة ثم اشترى من الرؤساء أنفسهم فوزع عليهم الأموال وأعطاهم الأعطيات ومناهم وأغراهم حتى ذلل كل صعب وعسير واستطاع من خلال ذلك أن يبني جبهة قوية دفعها بكل ما تملك لتقاتل تحت شعار الثأر لعثمان وإن كان يطلب من وراء ذلك الملك والإمارة على الناس...

وقد قدم أهل الشام أنفسهم وبذلوا دماءهم من أجل ما نادى به معاوية فاصطاد بذلك قلوبهم وأدرك أمنيتة في دفعهم لقتال الخليفة الشرعي وإن معاوية وإن مات شخصه ولكنه لا يزال يعيش برمزه..

٥٢ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وهي في التزهيد في الدنيا، وثواب الله للزاهد، ونعم الله على الخالق

التزهيد في الدنيا

أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ(١)، وَآذَنَتْ(٢) بِٱنْقِضَاءٍ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَدْبَرَتْ(٤) حَذَّاءَ(٥)، فَهِيَ تَحْفِزُ(٦) بِٱلْفَنَاءِ(٧) سُكَّانَهَا، وَتَحْدُو(٨) بِٱلْمَوتِ جِيرَانَهَا، وَقَدْ أَمَرَّ(٩) فِيهَا مَا كَانَ حُلْواً(١٠)، وكَدِرَ(١١) مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً(١٢)، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ(١٣) كَسَمَلَةِ ٱلإِدَاوَةِ(١٤) أَوْ جُرْعَةٌ(١٥) كَجُرْعَةِ ٱلْمَقْلَةِ(١٦)، لَوْ تَمَزَّزَهَا(١٧) الصَّدْيَانُ(١٨) لَمْ يَنْقَعْ(١٩). فَأَزْمِعُوا(٢٠) عِبَادَ ٱللهِ الرَّحِيلَ عَنْ هٰذِهِ الدَّارِ ٱلْمَقْدُورِ(٢١) عَلَىٰ أَهْلِهَا الزَّوالُ؛ ولاَ يَغْلِبَنَّكُمْ(٢٢) فِيهَا ٱلأَمَلُ، ولاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا ٱلأَمَدُ(٢٣).

ثـواب الزهـاد

فَوَٱللّٰهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ ٱلْوُلَّهِ(٢٤) ٱلْعِجَالِ(٢٥)، ودَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ ٱلْحَمَامِ(٢٦)، وَجَأَرْتُمْ(٢٧) جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي(٢٨) الرُّهْبَانِ(٢٩)، وَخَرَجْتُمْ إِلَى ٱللّٰهِ مِنَ ٱلأَمْوَالِ وَٱلأَوْلَادِ، ٱلْتِمَاسَ ٱلْقُرْبَةِ(٣٠) إِلَيْهِ فِي ٱرْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ، أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا(٣١) كُتُبُهُ، وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ، لَكَانَ قَلِيلاً فِيمَا أَرْجُو لَكُم مِنْ ثَوَابِهِ، وأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ.

نعم الله

وتَاللهِ لَوِ انْمَاثَتْ[٣٢] قُلوبُكمُ انْمِيَاثاً، وَسَالَتْ[٣٣] عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ[٣٤] إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ[٣٥] مِنْهُ دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ[٣٦] فِي الْدنْيَا، ما الدُّنيَا بَاقِيَةٌ، مَا جَزَتْ[٣٧] أَعْمَالُكُمْ عَنْكُمْ ـ وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ[٣٨] ـ أَنْعُمَهُ[٣٩] عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ، وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلإِيمَانِ.

اللغة

١ ـ تصرمت : انقطعت وفنيت.
٢ ـ آذنت : أعلمت.
٣ ـ تنكر : جهل.
٤ ـ أدبرت : ولت وذهبت من أدبر إذا جعله وراءه.
٥ ـ حذاء : سريعة.
٦ ـ تحفز : تسوق.
٧ ـ الفناء : العدم، الهلاك، خلاف البقاء.
٨ ـ تحدو : تسوق.
٩ ـ أمرّ : الشيء صار مراً.
١٠ ـ الحلو : ضد المر، الطيب اللذيذ.
١١ ـ كدر : تعكر وتغيّر لونه واختلط بما لا يستساغ شربه.
١٢ ـ صفواً : خالصاً نقياً.
١٣ ـ السملة : البقية من الماء في الإناء.
١٤ ـ الإداوة : المطهرة، الإناء يتطهر به.
١٥ ـ الجرعة : من الماء البلعة.
١٦ ـ المقلة : بفتح الميم وتسكين القاف حصاة يضعها المسافرون في الإناء ليعرف قدر ما يشرب كل منهم.
١٧ ـ التمزز : الامتصاص قليلاً قليلاً.
١٨ ـ الصديان : العطشان.
١٩ ـ لم ينقع : لم يُرو.

٢٠ ـ أزمعوا	:	أعزموا.
٢١ ـ المقدور	:	المكتوب.
٢٢ ـ لا يغلبنكم	:	لا ينتصر عليكم ويقهركم.
٢٣ ـ الأمد	:	الغاية.
٢٤ ـ الوله	:	في الأصل ذهاب العقل، كل أنثى فقدت ولدها.
٢٥ ـ العجال	:	جمع عجول ومن النوق من فقدت ولدها.
٢٦ ـ هديل الحمام	:	صوت الحمام عند بكائه لفقد إلفه، صوت نوحه.
٢٧ ـ جأرتم	:	الجؤار الصوت المرتفع.
٢٨ ـ متبتلي	:	من المتبتل وهو المنقطع للعبادة.
٢٩ ـ الرهبان	:	المبالغ في الخوف، من اعتزل عن الناس إلى الدير طلباً للعبادة.
٣٠ ـ التماس القربة	:	طلباً للقربة.
٣١ ـ أحصتها	:	عدّتها وضبطتها.
٣٢ ـ انماثت	:	ذابت وانماث الملح إذا ذاب.
٣٣ ـ سالت	:	جرت.
٣٤ ـ رغب إليه	:	أراده وأحبه ورغب عنه أعرض عنه وتركه.
٣٥ ـ الرهبة	:	الخوف، الفزع.
٣٦ ـ عمرتم	:	عشتم عمراً طويلاً.
٣٧ ـ جزت	:	وفت وكفت.
٣٨ ـ الجهد	:	الطاقة والقدرة.
٣٩ ـ أنعمه	:	الأنعم جمع نعمة، العطية.

الشرح

(ألا وإن الدنيا قد تصرمت وآذنت بانقضاء) بيّن عليه السلام حال الدنيا وزوالها ونفّر منها ومن الركون إليها ألا وإن الدنيا قد انقضت ومضت شيئاً فشيئاً فكل فرد يوجد فيها ينقضي من عمره ساعة فساعة ويوماً فيوماً وإنها أعلمت بانقضائها وأخبرت بزوالها حيث لم تبق لغيرنا ممن سبقنا وهي تحكي زوالها بمرورها علينا في كل يوم فلسان حالها كأنه ينطق بزوالها . . .

(وتنكّر معروفها وأدبرت حذاء) فما كنت تعرفه قد يأتي زمان تجهله، فالصورة التي كنت تحملها لأحبتك قد انمحت من ذهنك بعد غيابهم الطويل، وما كنت تعرفه من

العلوم والمعارف قد تجهله وتتنكر له ولم يعد لك صلة به، إنها تمشي بسرعة وتنقضي على عجل بل ما أعجل أيامها وأسرع سنين العمر فيها وعودة سريعة إلى ما اختزنه الإنسان في عقله أو حوته مفكرته عن ماضيه يدرك كيف مرت الأعمار وانقضت الأيام. . .

(فهي تحفز بالفناء سكانها وتحدو بالموت جيرانها) هذه الدنيا تسوق سكانها وتدفعهم إلى الفناء فإن كل يوم يمر يدفع بهذا الإنسان نحو الموت والفناء فالموت في كل يوم ومع كل لحظة فانت مجموعة أيام كلما مرّ يوم مات شطر منك فكأن الدنيا هي التي تدفعك إلى الفناء وإنها لتسوق جيرانها الذين هم الناس باعتبار قربهم منها إلى الموت وإن دنيا تدفع بهذا الإنسان إلى الموت جدير به أن يزهد فيها ويعدّ العدة لما بعدها. .

(وقد أمرّ فيها ما كان حلواً وكدر منها ما كان صفواً) ما كان حلواً لذيذ الطعم طيب المذاق قد يصبح مراً علقماً فالمريض يتحول العسل في فمه إلى خل والحلو إلى مرّ ويرى الأمور الجميلة قبيحة وتتحول الدنيا بسعتها إلى أضيق من سم الخياط، . . إن أيام الصفاء والهدوء قد تكدرت فالشباب أتى عليه المشيب والغنى أتى عليه الفقر والصحة أتى عليها المرض، والحياة أتى عليها الموت وهكذا عدّد ماشئت واذكر من شئت فستجد كل لذة يعقبها مرارة حتى ما تتصور اللذة فيه كالآكل والنكاح يتحول إلى أسباب للمرض والضغث والانحلال ويسرّع في فناء الإنسان وزواله عن الدنيا. . .

(فلم يبق منها إلا سملة كسملة الإدواة أو جرعة كجرعة المقلة لو تمززها الصديان لم ينقع) هذا تحقير للدنيا وتصغير لشأنها إذ أنه لم يبق منها إلا شربة قليلة وبقية حقيرة شبّه ما فيها وما يطمع الإنسان به منها ببقية الإناء التي يتطهّر به أو بما يتنازع به من الماء فلقلته،يجعل لكل واحد قليل منه لو أراد أن يشربها الإنسان لا ترويه ولا تطفىء ظمأه والدنيا بما فيها حقيرة بهذا المستوى لا يأكل منها إلا بمقدار شبعه ولا يشرب منها إلا بمقدار ما يرتوي ولا يلبس فوق حاجته وهكذا دواليك وهذا جزء قليل مما فيها وحقير لا يستحق التنازع عليه والقتال من أجله. . .

(فازمعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار المقدور على أهلها الزوال ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد) بعد أن بيّن هذه الدنيا وحقارتها وإنها لا تستحق الاهتمام قال إجمعوا أمركم واعزموا على الرحيل عنها فإن الرحيل مكتوب على أهلها فكل نفس ذائقة الموت ثم نهانا عن غلبة الأمل بأن يمّنينا بأن أمامنا آمال يجب أن نحققها. يجب أن نملك المال والثروة والجاه والسلطان. . يجب أن نسعى ونكد من

أجل تحقيق ما نصبو إليه هكذا وبهذا اللسان يدفعنا الأمل لننسى أننا على أهبة الاستعداد للرحيل وأنه لا بد منه وقد يكون طول العمر من أسباب نسيان الرحيل، فلأنه تقدم في العمر وفي صحة جيدة وعافية يظن أنه لا يزال الوقت بعيد. . . كلا فإن الذي يطلب الصغير يطلب الكبير فعلى كل واحد أن يستعدّ. . .

(فوالله لو حننتم حنين الوُّله العجال ودعوتم بهديل الحمام) أقسم عليه السلام بالله بأنهم لو عاشوا لوعة الشوق والألم الذي يبلغ منتهاه وأصبحوا كما هو الحال عند النياق إذا فقدن صغارهن فإنهن يظهر عليهن ذلك في حركاتهن وحيرتهن. . .

أو يكونوا في الوفاء لله كالحمام التي تفقد إلفها فتبقى تعيش الألم والحزن وتكاد تموت حزناً. .

(وجأرتم جؤار متبتلي الرهبان) كنتم في انقطاعكم لله ونداءكم له واستغاثتكم به كالرهبان الذين يُعرفون بذلك في الزمن الأول كما هو معروف يوم كان للمسيح مريدون أما الآن فأكثر ما يسمى رهبان عراة من هذه الصفة. . .

(وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد) بأن قدمتم أموالكم أمامكم حقوقاً وصدقات وإحسان وخيرات.

وأما الأولاد فقد آثرتم الله عليهم وطلبتم رضى الله وحبه على حبهم ورضاهم.

(التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده أو غفران سيئة أحصتها كتبه وحفظتها رسله لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه) لو قمتم بكل ما ذكرت وفعلتم كل ما قلت من أجل الله ومن أجل القرب منه وتحقيق رضاه لكان ذلك قليل في جنب ما أعده الله للمطيعين العاملين ولو كان ذلك أيضاً يطلب به غفران ذنب واحد لكان ذلك قليل مما أعده الله من عقابه. . .

وبعبارة مختصرة الإنسان يعمل من أجل أن يصل إلى درجة معينة أو من أجل أن يمحي سيئة معينة وكل ذلك لا يعد شيئاً مقابل ما أعده الله للمطيعين من الثواب وللعاصين من العقاب. . .

(وتالله لو انماثت قلوبكم انمياثاً) أي لو ذابت قلوبكم وتفتت.

(وسالت عيونكم من رغبة إليه أو رهبة منه دماً) بلغت بكم الحال مبلغاً عظيماً بحيث بكيتم بدل الدموع دماً ورغبة في ثوابه وما أعدّه الله لأهل طاعته أو خوفاً منه وفزعاً لما أعده لأهل معصيته. . .

(ثم عمرتم في الدنيا ما الدنيا باقية) أي بقيتم على ذلك الذي تقدم طيلة أعماركم التي لو كانت بعمر الدنيا وامتدادها لفعلتم كل ذلك طيلة الحياة. . .

(ما جزت أعمالكم عنكم ـ ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم أنعمه عليكم العظام وهداه إياكم للإيمان) لو فعلتم كل ما تقدم بجهدكم وطاقتكم ولم تتركوا شيئاً إلا بذلتموه ما وفت كل هذه الأعمال والأتعاب بعطايا الله ومنحه العظام فإن نعم الله لا تعد ولا تحصى وأعمالكم محصورة محدودة ولعل أعظم نعمة وأهم نعمة هي نعمة الإيمان والهداية إليه فإن الإيمان بالله ورسوله والالتزام بشرع الله ومنهاجه من أعظم المنح والعطايا على الإطلاق لأن بهذه الهداية يرتفع الإنسان من الحضيض إلى أرفع درجات الكرامة ويؤهل لخطاب الله وتكاليفه. . بهذه الهداية وهذا الإيمان أصبح الإنسان من أهل جنة الله وأهل كرامة الله. . . وما قيمة الأتعاب والجهد والعناء في مقابل ما أعده الله. . .

٥٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في ذكرى يوم النحر وصفة الأضحية

وَمِنْ تَمَامِ[١] ٱلأُضْحِيَةِ[٢] ٱسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا[٣]، وسَلاَمَةُ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ ٱلأُذُنُ وَٱلْعَيْنُ سَلِمَتِ ٱلأُضْحِيَةُ وَتَمَّتْ، ولَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ ٱلْقَرْنِ[٤] تَجُرُّ[٥] رِجْلَهَا إِلَىٰ ٱلمَنْسَكِ[٦].

قال السيد الشريف: والمنسك ها هنا المذبح.

اللغة

١ ـ التمام : الكمال.

٢ ـ الأضحية : جمعها أضاحي الشاة التي تذبح ضحى عيد الأضحى.

٣ ـ استشراف أذنها : تفقد أذنها حتى لا تكون مجدوعة أو مشقوقة.

٤ ـ عضباء القرن : مكسورة القرن.

٥ ـ تجر : تسحب وتجذب.

٦ ـ المنسك : المذبح.

الشرح

(ومن تمام الأضحية استشراف أذنها وسلامة عينها فإذا سلمت الأذن والعين سلمت الأضحية وتمت ولو كانت عضباء القرن تجر رجلها إلى المنسك) هذه فقرة التقطها الرضي من خطبة خطبها الإمام يوم النحر ويذكر فيها الأضحية وهي ما يذبح من

الحيوانات ضحى ذلك النهار وقد بيّن عليه السلام شروطها لتكون كاملة تامة وهي أن تكون سليمة الأذن غير مجدوعة ولا مشقوقة وقد عبر عن ذلك باستشراف أذنها أي طولها الدال على سلامتها وكذلك يجب أن تكون سليمة البصر غير عمياء فإذا تم ذلك فيها فقد كملت وسلمت وصحت أن تكون أضحية ولو كانت مكسورة القرن والرجل أو هزيلة. . .

هذا ما ذكره الإمام ولكن الفقهاء قالوا إن من حج حج التمتع وجبت عليه الأضحية المعبر عنها بالهدى ويجب أن يكون من الإبل أو البقر أو الغنم ويحددون لكل صنف سنّه الذي يجب أن يكون عليه ليجزي كما بينوا أنه يعتبر فيه أن يكون تام الأعضاء فلا يجزي الأعور والأعرج والمقطوع أذنه والمكسور قرنه الداخل ونحو ذلك وهناك بعض الاحتياطات التي أحببنا أن نعرض عنها. .

ويقولون: يستحب أن يكون الهدى.

١ ـ أن يكون بدنة ومع العجز فبقرة ومع العجز فكبش.

٢ ـ أن يكون سميناً غير هزيل.

٣ ـ أن يباشر المضحي الذبح بنفسه فإن لم يتمكن فليضع السكين بيده ويقبض الذابح على يده ولا بأس بأن يضع يده على يد الذابح.

٥٤ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف أصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام

فَتَدَاكُّوا[١] عَلَيَّ تَدَاكَّ ٱلإِبِلِ[٢] ٱلْهِيمِ[٣] يَوْمَ وِرْدِهَا[٤]، وقَدْ أَرْسَلَهَا[٥] رَاعِيهَا[٦]، وَخُلِعَتْ[٧] مَثَانِيهَا[٨]؛ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ، أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ[٩]. وَقَدْ قَلَّبْتُ[١٠] هٰذَا ٱلأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّىٰ مَنَعَنِي ٱلنَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلاَّ قِتَالُهُمْ أَوِ ٱلْجُحُودُ[١١] بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ[١٢] ٱلْقِتَالِ أَهْوَنَ[١٣] عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ ٱلْعِقَابِ، وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَن عَلَيَّ مِنْ موْتَاتِ ٱلآخِرَةِ.

اللغة

١ ـ تداكوا : ازدحموا.
٢ ـ الإبل : الجمال.
٣ ـ الهيم : العطاش.
٤ ـ الورد : الشرب.
٥ ـ أرسلها : بعثها وأطلقها، وجهّها.
٦ ـ الراعي : جمعه رعاة ورعيان ورعاء، المتولى لأمر قوم، المسؤول عن الماشية.
٧ ـ خلعت : نزعت.
٨ ـ مثانيها : المثاني حبل من صوف أو شعر يعقل به البعير.
٩ ـ لديّ : ظرف مكاني، عندي.
١٠ ـ قلّبت : الأمر فكرت فيه، واختبرته.

١١ ـ الجحود : الكفر.
١٢ ـ المعالجة : الممارسة، الدفاع.
١٣ ـ أهون : أسهل، أخّف.

الشرح

(فتداكوا عليّ تداك الإبل الهيم يوم وردها وقد أرسلها راعيها وخُلعت مثانيها حتى ظننت أنهم قاتلي أو بعضهم قاتل بعض لديّ)..

الناس وبيعة علي:

يصف الإمام حال بيعته وكيف اجتمع الناس عليه وازدحموا لمبايعته وقد شبههم بالجمال التي حلّ راعيها عقالها وأرسلها نحو مشربها المعدّ لها فإن من رأى ذلك رأى شيئاً عجيباً في المسابقة والتدافع من أجل الوصول إلى الماء، وقد كان المسلمون بعد مقتل عثمان يتعطشون لحكم الإمام وخلافته فلذا ازدحموا عليه يبايعونه ولم يتخلف منهم ألا بضع نفر أصحاب مصالح ومنافع أو كان في قلوبهم حقد وحسد على الإمام ويصف ذلك الازدحام بحيث بلغ مبلغاً ظن أنهم سيقتلونه أو يقتل بعضهم لبعض عنده وهو تصوير لمدى اندفاع الناس ومسارعتهم إلى بيعته.

وقد ذكر أرباب التاريخ وأصحاب السير كيف كانت بيعته وما جرى فيها وتتلخص في أن الإمام لم يرغب فيها لما يعرف من ظروفها وأحداثها وما سوف يعترض طريقه فيها وقد ذكر ابن أبي الحديد أن المهاجرين[1] والأنصار اجتمعوا وتداولوا الأمر واستقر رأيهم على أن يولوا الإمام على الناس «فأتوا علياً فاستخرجوه من داره وسألوه بسط يده فقبضها فتداكوا عليه تداك الإبل الهيم على وردها حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً فلما رأى منهم ما رأى سألهم أن تكون بيعته في المسجد ظاهرة للناس وقال: إني كرهني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر.

فنهض الناس معه حتى دخل المسجد فكان أول من بايعه طلحة فقال قبيصة بن ذؤيب الأسدي: تخوفت ألا يتم له أمره لأن أول يد بايعته شلاء ثم بايعه الزبير وبايعه المسلمون بالمدينة إلا محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وسعد بن أبي

(١) ابن أبي الحديد ج/ ٤ ص ٨.

وقاص وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبد الله بن سلام. . .

وقال ابن أبي الحديد أن هؤلاء الرهط إنما اعتذروا بما اعتذروا به لما ندبهم إلى الشخوص لحرب أصحاب الجمل وأنهم لم يتخلفوا عن البيعة وإنما تخلفوا عن الحرب. . .

(وقد قلّبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعني النوم فما وجدتني يسعني إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فكانت معالجة القتال أهون علي من معالجة العقاب وموتات الدنيا أهون عليّ من موتات الآخرة) فكّر الإمام في قتال هؤلاء القوم أو السكوت عنهم وكلا الطريقين مرّ وصعب ففي الأول إزهاق النفوس والقضاء عليها وفي الثاني الكفر بما جاء به النبي إما لأن الرسول أخبره وأمره كما في الحديث الصحيح «يا علي ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين» وإما لأن سكوت ولي الأمر يؤدي إلى تمزيق الدولة الإسلامية وتوزيعها بين أهل المطامع والولي دوره دور المحافظ على هذه الوحدة والحامي لها والمدافع عنها وسكوته خلاف ما نُصب من أجله وكان والياً، وقد رأى سلام الله عليه إنّ مباشرة القتال وشن الحرب مع ما فيها من قساوة ومرارة وإسالت دماء وعذاب وألم أسهل من عذاب الله في الآخرة وما فيها من العقاب لأن عذاب الدنيا ومصاعبها إلى انتهاء بينما عذاب الآخرة لا انتهاء له. . .

٥٥ ـ ومن كلام له عليه السلام

وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين

أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلَّ ذٰلِكَ كَرَاهِيَةَ(١) ٱلْمَوْتِ؟ فَوَٱللّٰهِ مَا أُبَالِي(٢)، دَخَلْتُ إِلَىٰ ٱلمَوْتِ أَوْ خَرَجَ ٱلموْتُ إِلَيَّ. وأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكًّا في أَهْلِ الشَّامِ! فَوَٱللّٰهِ مَا دَفَعْتُ(٣) ٱلْحَرْبَ يَوْماً إِلاَّ وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ(٤) إِلَىٰ ضَوْئِي، وَذٰلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَىٰ ضَلاَلِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ(٥) بِآثَامِها(٦).

اللغة

١ ـ الكراهية : البغض.
٢ ـ ما أبالي : لا أهتم.
٣ ـ دفعت : الحرب أخرتها وأبعدتها.
٤ ـ تعشو : تبصر بصراً خفيفاً، والأعشى هو الذي لا يرى بالليل إلا قليلاً.
٥ ـ تبوء : ترجع.
٦ ـ الآثام : الذنوب.

الشرح

(أما قولكم: أكلّ ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أبالي دخلت إلى الموت أو خرج الموت إليّ) يجيب الإمام في كلامه هذا عن حديث جرى بين أنصاره وأتباعه ومجمل القضية مع قولهم: إن الإمام بعد احتلاله لمشرعة الماء واستيلائه عليها من جند معاوية

بقي أياماً دون أن يرسل إلى معاوية رسولاً أو معاوية يرسل إليه خبراً أو رسولاً، يتوقع الإمام من أصحاب معاوية أن يروا عدله وحسن سيرته وسمته فيهتدي إلى الحق من أراد وفي هذه الفترة ضج أهل العراق وضاقت صدورهم وأخذوا يتحدثون فيما بينهم فهذا يقول إنّ الإمام كره الموت وخافه ولذا يؤخره وذاك يقول: إنه شك في قتال أهل الشام ولم يظهر له جواز قتالهم فلما سمع الإمام منهم ذلك قال كلمته رداً عليهم مفنداً مدعاهم وأنهم على خطأ وباطل من القول. . .

أما قولهم إن تأخيره القتال كراهيته الموت وبغضاً به فهذا ما لا يفكر فيه علي ويقسم بالله وهو البار الصادق في قسمه إنه لا يهمه الموت ولا يحسب له حساباً سواء قصده الموت أم هو قصد الموت فإن الموت لا يخيف المتقين الصادقين فكيف يخيف الأولياء المقربين. . .

(وأما قولكم شكاً في أهل الشام فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي وذلك أحب إليّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثمها) بعد أن رد على من قال إنه يؤخر الحرب خوفاً من الموت رد هنا على من قال إنه يؤخرها شكاً في أهل الشام يقول لهم: إنه لم يؤخرها لشكه في جواز قتالهم فإن وجوب قتالهم ظهر للعيان وهو عنده من المسلمات حيث أخبره النبي بقتاله لهم أو من حيث أنه الخليفة الشرعي الذي يجب أن يرد الناس إلى الطاعة والجماعة ومن خرج عن ذلك وجب قتاله وأهل الشام من هذا القبيل ولكن تأخيره للقتال كان ينظر من ورائه إلى غاية سامية عظيمة هي رجاؤه في أن يتبصّر بعض الناس ويدرك الحقيقة فيهتدي إلى طريق النجاة وما هو عليه فيلحقه ويدرك حظه في الخير والحق وهذا هو هدف كل الأنبياء والمصلحين فليس الحرب هدفاً في نفسها وإنما هي من أجل غاية أسمى؛ من أجل هداية الناس وإرشادهم وردهم إلى الطريق المستقيم والإمام لا يريد أن يقتل الكافر أو الفاسق وإنما يريد أن يقتل الكفر والفسق المتجسد في نفسه فإذا أدرك ذلك فلا يهمه قتله، فتأخير القتال رجاء عودة بعض الضالين والمنحرفين وهدايتهم إلى الحق أحب إليه من قتلهم وإن كان فيما لو قتلهم كانوا من أهل المعصية وعادوا إلى النار بما انحرفوا وارتكبوا من المحرمات. . . لقد كان همّ الإمام والأئمة من ولده أن يرشدوا الناس إلى الحق ويسعوا من أجل ذلك وقد كان يؤذيهم إصرار الناس وعنادهم على الكفر والضلال فكانوا لا يتركون فرصة إلا واغتنموها من أجل هدايتهم وإرشادهم. . .

٥٦ ـ ومن كلام له عليه السلام

يصف أصحاب رسول الله وذلك يوم صفين حين أمر الناس بالصلح

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ ٱللّهِ صَلَّىٰ ٱللّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ؛ نَقْتُلُ آباءَنا وأَبْناءَنا وَإِخْوَانَنا وَأَعْمَامَنَا: مَا يَزِيدُنَا ذلِكَ إلاَّ إيمَاناً وَتَسْلِيماً، وَمُضِيًّا عَلَىٰ اللَّقَم[١]، وَصَبْراً عَلَىٰ مَضَضِ[٢] ٱلألَمِ، وجِدًّا في جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ؛ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَٱلآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاولاَنِ تَصَاوُلَ[٤] ٱلْفَحْلَيْنِ[٥] يَتَخَالَسَانِ[٦] أَنْفُسَهُمَا: أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ ٱلْمَنُونِ[٧]، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا ومَرَّةً لِعَدُوِّنا مِنَّا، فلَمَّا رَأَىٰ ٱللّهُ صِدْقَنَا أَنْزلَ بِعدُوِّنَا ٱلْكَبْتَ[٨]، وأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصرَ، حَتَّى ٱسْتَقَرَّ الإسْلاَمُ مُلْقِياً جِرَانَهُ[٩]، وَمُتَبَوِّئاً[١٠] أَوْطَانَهُ. وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي ما أَتَيْتُمْ، ما قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلاَ ٱخْضَرَّ لِلإيمَانِ عُودٌ. وٱيْمُ ٱللّهِ لَتَحْتَلِبُنَّها دماً[١١]، وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَماً!.

اللغة

١ ـ اللقم : من الطريق الجادة الواضحة منها.
٢ ـ المضض : لذع الألم وبرحاؤه.
٣ ـ الجد : الاجتهاد.
٤ ـ التصاول : أن يحمل كل واحد من القرنين على صاحبه.
٥ ـ الفحل : الذكر من كل حيوان وفحول الشعراء المفضلون عموماً. .
٦ ـ التخالس : التسالب والانتهاب.
٧ ـ المنون : الموت.

٨ ـ الكبت : الإذلال.
٩ ـ الجران : للبعير مقدّم عنقه.
١٠ ـ تبوأ : المنزل نزله وسكن فيه.
١١ ـ الاحتلاب : استخراج ما في الضرع من اللبن.

الشرح

(ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وابناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم وصبراً على مضض الألم وجداً في جهاد العدو) هذا الكلام منه عليه السلام وجهه إلى أصحابه يريد من خلاله أن يحثهم على الجهاد والثبات ويدفعهم إلى القتال وقد شرح واقع المسلمين الذين عاشوا مع النبي وأحوالهم التي كانوا عليها بيّن فيها كيف كانوا يتخلون عن أقرب الناس إليهم وأشدهم لُحمة بهم بل كانوا يقتلون الآباء والأبناء والإخوة والأعمام من أجل الإسلام فلا يزيدهم ذلك إلا إيماناً بالله وتسليماً له ولرسول الله وسيراً واضحاً على الطريق الواضحة المستقيمة التي هي رائدة أصحاب النبي (ص) وكانوا يصبرون على شدة الألم والعذاب ويجتهدون في الجهاد حتى يحققوا إرادة الله وبعبارة أخرى كانوا مع النبي يتخلون عن كل عزيز، يطيعون أمر الله ويسلمون له ويصّممون على السير نحو الهدف المرسوم لهم في صبر واجتهاد..

(ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون) بيان لقوة صبر المسلمين وجلدهم ويذكر الإمام هذا المشهد الحي ويرسمه بريشته الصادقة التي أكثر ما تنطق عليه وهي أن الرجل من المسلمين والآخر من الكافرين كانا يتعاركان ويتجادلان في ساحة المعركة كل واحد منهما يريد القضاء على الآخر واستلاب روحه وإنهاء وجوده، كل واحد من الخصمين يريد أن ينتهي من صاحبه فهي معركة إنهاء الوجود، فالمسلم يريد إنهاء الكافر وكذلك الكافر يريد إنهاء المسلم...

(فمرة لنا من عدونا ومرة لعدونا منا فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت وأنزل علينا النصر) وبقيت القضية هكذا مرة تكون الغلبة لنا على عدونا وأخرى تكون لعدونا علينا فلما رأى الله أننا نصدقه فيما أنزل من البينات ونعدّ العدة ونجاهد في سبيله أنزل علينا النصر وعلى عدونا الهزيمة والقهر...

وهكذا في كل وقت عندما يلتزم المسلمون بقواعد الجهاد وأوامر الله ويعلم الله صدق التوجه ينزل نصره عليهم. . .

(**حتى استقر الإسلام ملقياً جرانه ومتبوئاً أوطانه ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم ما قام للدين عمود ولا أخضر للإيمان عُودٌ، وأيم الله لتحتلبنها دماً ولتتبعنها ندماً**) ما كان من الجهاد والصبر فإنما كان من أجل الإسلام وبقي الجهاد مستمراً حتى استطاع الإسلام أن يبسط سلطانه على الأرض وينشر تعاليمه في قلوب الناس ويستقر في أعمالهم وتصرفاتهم. . .

ثم يُقسم أن المسلمين لو كانوا يتعاملون مع النبي وهو القائد العام ويتعاملون مع بعضهم وفيما بينهم كما هم يتعاملون الآن معه ومع الإسلام وأحكام الجهاد لم يستطع الإسلام أن يقوى أو يصبح له دولة ولم يستطع المؤمنون أن يجهروا به أو يعملوا بأحكامه. . .

ثم أقسم أنهم سيحصدون نتيجة هذا التصرف الأرعن والتمرد والعصيان. . إنهم ونتيجة تقصيرهم لن يستطيعوا إحقاق الحق وإزهاق الباطل ودفع الظالم وكبت العدو بل هذا التخاذل سيجر عليهم المآسي والويلات ويأتي على كرامتهم وعزتهم ودينهم وأخيراً سيندمون على تقصيرهم وتأكلهم الحسرة ولكن لا ينفع الندم. .

٥٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

في صفة رجل مذموم، ثم في فضله هو عليه السلام

أَمَّا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ[١] بَعْدِي رجُلٌ رَحْبُ[٢] ٱلْبُلْعُومِ[٣]، مُنْدَحِقُ[٤] ٱلْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لاَ يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلنْ تَقْتُلُوهُ! أَلاَ وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي والْبَرَاءَةِ مِنِّي؛ فَأَمَّا السَّبُّ[٥] فَسُبُّونِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ[٦]، ولكُمْ نَجَاةٌ؛ وأَمَّا ٱلْبَرَاءَةُ فَلاَ تَتَبَرَّأُوا مِنِّي؛ فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ[٧]، وسَبَقْتُ إِلَى ٱلإِيمَانِ وٱلْهِجْرَةِ.

اللغة

١ ـ سيظهر عليكم : سيغلب من ظهر عليه إذا غلبه.
٢ ـ الرحب : الواسع.
٣ ـ البلعوم : مجرى الطعام.
٤ ـ المندحق : البارز.
٥ ـ السبّ : الشتم.
٦ ـ الزكاة : النمو.
٧ ـ الفطرة : الخلقة، وهنا الإسلام.

الشرح

(أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد)..

معاوية ودعاء النبي عليه:

هذا الكلام من الإمام يتطابق وما ورد من الأخبار عن النبي في حق معاوية وإنه المراد في هذا الحديث فقد ذكر ابن أبي الحديد عن صاحب كتاب الغارات عن الأعمش عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سيظهر على الناس رجل من أمتي عظيم السرم واسع البلعوم يأكل ولا يشبع يحمل وزر الثقلين يطلب الإمارة يوماً فإذا أدركتموه فابقروا بطنه قال: وكان في يد رسول الله صلى الله عليه وآله قضيب قد وضع طرفه في بطن معاوية. . .

وهذا هو ما استظهره ابن أبي الحديد وذهب إليه وأيضاً هو الذي يساعد عليه واقع الحال وما جرى على الإمام وشيعته من بعده. . .

يخبر عليه السلام أنه سيتغلب عليهم بعد الإمام معاوية ولم يسمه ترفعاً عن ذكر اسمه وإلا فإن الأوصاف عليه تنطبق والحر تكفيه الإشارة والكناية أبلغ من التصريح. . .

ومن صفته أنه رحب البلعوم أكول ذو بطن بارز منتفخ يأكل ما يجد ولشدة نهمه يطلب ما لا يجد وينقل الرواة أن معاوية كان بهذه الصفات فقد دعى عليه النبي (ص) فقال: لا أشبع الله بطنه. . .

فقد أخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان يلعب مع الصبيان فجاء له النبي (ص) فهرب وتوارى فجاء النبي وضربه بين كتفيه ثم قال: اذهب فادع لي معاوية قال: فجئت فقلت: هو يأكل ثم قال: اذهب فادع لي معاوية: قال: فجئت فقلت هو يأكل فقال (ص): «لا أشبع الله بطنه».

وقد استجاب الله للنبي دعوته فكان يأكل فلا يشبع وسيرته مروية حتى أصبح يضرب به المثل وقال بعضهم. . .

وصاحب لي بطنه كالهاوية كأن في أمعائه معاوية

وروى محمد بن إسحاق الأصبهاني عن مشايخه أن الإمام النسائي المحدث المعروف والمشهور خرج إلى دمشق فسئل عن معاوية ما يروي من فضائله فقال: «ما أعرف له فضيلة ألا لا أشبع الله بطنه». . .

(فاقتلوه ولن تقتلوه) أمرهم بقتله لفساده وضلاله وما عليه من الانحراف ثم أخبرهم بأنهم لن يستطيعوا قتله. . .

(ألا وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني: فأما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة

وأما البراءة فلا تتبرؤا مني فإني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة) بعد أن بيّن حال هذا الطاغية وبعض أوصافه وأخبرهم أنهم لن يقدروا على قتله بيّن أفعاله الشنيعة وما سيرتكبه في حق الإمام وما سيكلف القوم من القيام به وهذه مفردة من مفردات الإمام التي أخبر أنها ستجري في المستقبل فجاءت كفلق الصبح. . .

ألا وإنه سيأمركم بسبي، . . وقد حملت الأيام مضمون هذا النبأ. . لقد أمر معاوية عماله أن يسبوا الإمام على منابر المسلمين وقد جعلها سنّة في خطبة الجمعة يُذكّر بها إمام الجماعة إن نسيها أو أهملها. . .

وكذلك البراءة من علي كانت تعرض الرجال على السيوف فمن تبرأ من أبي تراب عاش ومن أبى قُتل وقد حصدت سيوف معاوية أشراف الناس وأهل الولاء لعلي. . .

وعندما ولىّ المغيرة بن شعبة على الكوفة جعلها وصيته التي لم تسمح له نفسه بتجاوزها. . .

قال له: «قد أردت إيصاءك[1] بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتماداً على بصرك ولست تاركاً إيصاءك بخصلة: لا تترك شتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب علي والإقصاء لهم». . .

وقال ابن أبي الحديد:

«وقد كان معاوية يلعنه[2] على رؤوس الأشهاد وعلى المنابر في الجمع والأعياد في المدينة ومكة وفي سائر مدن الإسلام. . ».

---

(١) الطبري حوادث سنة ٥١.

(٢) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج/ ٥ ص ١٣٠.

٥٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

كلم به الخوارج حين اعتزلوا الحكومة وتنادوا: أن لا حكم إلا لله

أَصَابَكُمْ(١) حَاصِبٌ(٢)، وَلاَ بَقِيَ مِنْكُمْ آثِرٌ(٣). أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللّهِ، وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ ٱللّهِ صَلَّى ٱللّهُ عَلَيْهِ، أَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِي بِٱلْكُفْرِ! «لَقَدْ ضَلَلْتُ(٤) إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ!» فَأُوبُوا(٥) شَرَّ مَآبٍ، وَٱرْجِعُوا عَلَىٰ أَثَرِ ٱلأَعْقَابِ(٦). أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلاًّ(٧) شَامِلاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَأَثَرَةً(٨) يَتَّخِذُهَا الظَّالِمونَ فِيكُمْ سُنَّةً(٩).

قال الشريف: قوله عليه السلام «ولا بقي منكم آبر» يروى على ثلاثة أوجه:

أحدها أن يكون كما ذكرناه: «آبِرٌ» بالراء، من قولهم للذي يأبر النخل ـ أي: يصلحه ـ ويروى «آثِرٌ» وهو الذي يأثر الحديث ويرويه أي يحكيه، وهو أصح الوجوه عندي، كأنه عليه السلام قال: لا بقي منكم مخبر! ويروى «آبِز» ـ بالزاي المعجمة ـ وهو الواثب. والهالك أيضاً يقال له: آبز.

اللغة

١ ـ أصاب : أدركه، استأصله، والسهم أصابه لم يخطئه.

٢ ـ الحاصب : ريح شديدة تحمل الحصى والتراب.

٣ ـ الآثر : الذي يروي الحديث ويحكيه.

٤ ـ ضللت : ما اهتديت، جرت عن دين الله.

٥ ـ أوبوا : من آب بمعنى رجع.

٦ ـ الأعقاب : جمع عقب بكسر القاف وهو مؤخر القدم.

٧ ـ الذل : الهوان.
٨ ـ الأَثَرة : الاستبداد بالشيء والتفرد به.
٩ ـ سنة : الطريقة، والعادة.

الشرح

(أصابكم حاصب ولا بقي منكم آثر) الخطاب موجّه إلى الخوارج الذين طلبوا منه على أثر قبول التحكيم أن يرجع عنه ويشهد على نفسه بالكفر من جراء قبوله له ثم يتوب ويقودهم إلى قتال معاوية فتوجه إليهم بالدعاء عليهم أن يصيبهم الله بالبلاء الشديد الذي يفقدوا فيه الرؤية ويكون فيه العذاب ولا بقي منهم أحد ينقل خبراً أو يرفع أثراً. . . .

(أبعد إيماني بالله وجهادي مع رسول الله صلى الله عليه أشهد على نفسي بالكفر لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين) رد عليهم بإنكار ما أرادوه منه وإبطاله بأنه بعد إيمانه بالله والإقرار بوجوده ووحدانيته وجهاده مع رسول الله (ص) الدلل على تصديقه والإيمان برسالته أبعد ذلك أشهد على نفسي بأني كفرت لا كان ذاك ولم يكن شيء منه فإن من يشهد على نفسه بالكفر فهو ضال منحرف وليس من أصحاب الهداية أو ممن عرف طعم الإيمان، . . وحاشا لعلي أن يخامره شك في الله أو في رسول الله. . . وهو القائل: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً» تعبير عن أنه وصل إلى مرتبة عليا تفوق الحس ولا يبلغها إنسان مثله. . .

إن من يؤمن بالله ويجاهد بين يدي رسول الله ويلقي نفسه في قلب المعارك ويعرّض نفسه للأخطار حاشاه أن يشك أو يتردد في الله أو في رسول الله. . .

(فأوبوا شر مآب وارجعوا على أثر الأعقاب) عودوا كما شئتم كفاراً فإنه شر رجوع أردتموه وارجعوا إلى الإيمان كما كنتم بمعنى أنكم إذا أردتم الكفر فأنتم وشأنكم ولكنه عود باطل يعقبه العودة إلى الإيمان والعودة إليه كما خرجتم منه. . .

(أما إنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة) أخبار بما سيجري عليهم بأن الطغاة سيمارسون عليهم الذل ويسومونهم الهوان ويسلطون عليهم السيف ويسيرون فيهم بالحرمان بحيث تصبح فيهم سنّة يتداولها الخلفاء الظالمون وقد كان هذا الأمر يجري عليهم وفيهم فقد جرد الولاة فيهم السيف وعرضوا عليه في كل مكان وحرمهم السلطان العطاء كما منعهم من بيت المال. . .

قال ابن أبي الحديد في شرحه: واعلم أن[1] الخوارج على أمير المؤمنين (ع) كان أصحابه وأنصاره في الجمل وصفين قبل التحكيم وهذه المخاطبة لهم وهذا الدعاء عليهم، وهذه الأخبار عن مستقبل حالهم وقد وقع ذلك فإن الله سلّط على الخوارج بعده الذل الشامل والسيف القاطع والأثرة من السلطان وما زالت حالهم تضحمل حتى أفناهم الله تعالى وأفنى جمهورهم ولقد كان لهم من سيف المهلب بن أبي صفرة وبنيه الحتف القاضي والموت الزؤام.

(١) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج/ ٤ ص ١٣٢.

٥٩ ـ وقال عليه السلام

لما عزم على حرب الخوارج، وقيل له:
إن القوم عبروا جسر النهروان!

مَصَارِعُهُمْ[١] دُونَ النُّطْفَةِ[٢]، وَٱللّٰهِ لَا يُفْلِتُ[٣] مِنْهُمْ عَشَرَةٌ، وَلَا يَهْلِكُ[٤] مِنْكُمْ عَشَرَةٌ.

قال الشريف: يعني بالنطفة ماء النهر، وهي أفصح كناية عن الماء وإن كان كثيراً جماً. وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم عند مضيّ ما أشبهه.

اللغة

١ ـ **مصارعهم** : هلاكهم وأصل الصرع الطرح على الأرض.

٢ ـ **النطفة** : ماء النهر، الماء الصافي.

٣ ـ **يُفلت** : ينجو ويخلص.

٤ ـ **يهلك** : يموت.

الشرح

(مصارعهم دون النطفة والله لا يُفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة).

أخبار علي بالغيب:

قال الإمام هذه الكلمة رداً على من جاءه قائلاً: البشرى يا أمير المؤمنين. .

قال: ما بشراك؟.

قال: إن القوم عبروا النهر لما بلغهم وصولك فابشر فقد منحك الله أكتافهم.

قال: أنت رأيتهم قد عبروا النهر.

قال: نعم فأَحلفه ثلاث مرات في كلها يقول: نعم. فقال: والله ما عبروا ولن يعبروا وإن مصارعهم لدون النطفة...

قال الشارح المعتزلي: هذا الخبر من الأخبار التي تكاد تكون متواترة لاشتهاره ونقل الناس له كافة وهو من معجزاته وأخباره المفصلة عن الغيوب...

ثم جاء أصحابه يخبرونه أنهم عبروا النهر وفي كل مرة كان الإمام ينكر ذلك.

وقالوا أنه كان شاب من الناس قال: والله لأكونن قريباً منه فإن كانوا عبروا النهر لأجعلن سنان رمحي في عينيه أيدعي علم الغيب فلما انتهى علي إلى النهر وجد القوم قد كسروا جفون سيوفهم وعرقبوا خيولهم وحبوا على ركبهم وتحكموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له زجل فنزل ذلك الشاب.

فقال: يا أمير المؤمنين إني كنت شككت فيك آنفاً وإني تائب إلى الله وإليك فاغفر لي.

فقال علي: إن الله هو الذي يغفر الذنوب فاستغفره وما انكشفت المعركة... إلا وهناك تسعة رجال قد أفلتوا من الخوارج وكان المقتول من جيش الإمام ثمانية.

٦٠ ـ وقال عليه السلام

لما قتل الخوارج فقيل له: يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم!

كَلَّا[١] وَٱللّه؛ إِنَّهُمْ نُطَفٌ[٢] فِي أَصْلَابِ[٣] الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ[٤] كُلَّمَا نَجَمَ[٥] مِنْهُمْ قَرْنٌ[٦] قُطِعَ[٧]، حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً[٨] سَلَّابِينَ.

اللغة

١ ـ كلاّ	:	نفي وردع.
٢ ـ نطف	:	مفردها النطفة وهي ماء الرجل.
٣ ـ الأصلاب	:	مفرده صلب وهي فقرات الظهر.
٤ ـ قرارات النساء	:	الأرحام.
٥ ـ نجم	:	ظهر وطلع.
٦ ـ قرن	:	رئيس.
٧ ـ قطع	:	الشيء جزّءه وأبانه وفصله.
٨ ـ لصوصاً سلاّبين	:	سراق مختلسون.

الشرح

(كلا والله، إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصاً سلابين) وهذا إخبار منه ورد على من قال إن الخوارج قد ماتوا ولم يبق منهم بعد قتلهم أحد فأجابهم الإمام كلا والله ليس الأمر كما تقولون من أنهم قد ماتوا بل إن هناك على رأيهم من لا يزال في أرحام النساء ينتظر السقوط ومنهم

من هو في أصلاب الرجال، إن هناك من يحمل أفكارهم ويعيش برأيهم وقد ثبت ذلك وظهر.

ثم أخبر أنهم كلما ظهر منهم رئيس أو قائد قتل وهكذا يبقى السيف قائماً فيهم حتى يتحولوا في نهاية المطاف إلى سرّاق مختلسين وأصحاب سلب ونهب يقول ابن أبي الحديد:

وقد صحّ إخباره عليه السلام عنهم أنهم لم يهلكوا بأجمعهم في وقعة النهروان وأنها دعوة سيدعو إليها قوم لم يخلقوا بعد وهكذا وقع وصح إخباره عليه السلام أيضاً أنه سيكون آخرهم لصوصاً سلاّبين فإن دعوة الخوارج اضمحلت ورجالها فنيت حتى أفضى الأمر إلى أن صار خلفهم قطاع الطريق متظاهرين بالفسوق والفساد في الأرض.

٦١ ـ وقال عليه السلام

لَا تُقَاتِلُوا ٱلْخَوَارِجَ بَعْدِي؛ فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ[١] الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ[٢]، كَمَنْ طَلَبَ ٱلْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ[٣].

قال الشريف: يعني معاوية وأصحابه.

اللغة

١ ـ طلب : أراد وسعى.

٢ ـ أخطأ : من الخطأ وهو ضد الصواب.

٣ ـ أدركه : بلغه.

الشرح

(لا تقاتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه)

قاتل الإمام الخوارج وأباد خضراءهم في حياته وهو يوصي أن لا يقاتلوا بعده: أما قتالهم فلأنهم مفسدون خارجون يهددون أمن الناس وينشرون الفوضى والذعر في أركان الدولة فكان على ولي الأمر أن يقاتلهم لئلا يغتر بهم الجاهلون ويشتبه الأمر على الآخرين...

وأما نهيه عن قتالهم بعده فلأنهم سيمثلون الشوكة الجارحة في عين الحكم الأموي وهو حكم ظالم فيجب أن لا يستقر ولا يرتاح فينشغل بهم عن الشيعة وملاحقتهم...

يضاف إلى ذلك أن حروب الخوارج للحكم الأموي أضعفته كثيراً وأغرت به الكثيرين.

وأيضاً فإن الخوارج وإن كانوا في نهجهم الفكري على ضلال وانحراف لكنهم أقل

خطراً من معاوية وأصحابه ففي حين أن الخوارج كانوا يطلبون الحق ولكنهم أخطأوا فيه فإن معاوية كان يطلب الباطل ويسعى له وقد كان له من القوة والسلطة ما يدرك به ذلك وقد أدركه حيث تولى أمر الخلافة وهو ليس من أهلها، فهو يطلبها ويعلم أنه على باطل لأنه ليس من أهلها ولا تحل لطليق مثله..

٦٢ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما خُوِّفَ من الغيلة

وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ ٱللَّهِ جُنَّةً[١] حَصِينَةً، فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي ٱنْفَرَجَتْ[٣] عَنِّي وَأَسْلَمَتْنِي[٤]؛ فَحِينَئِذٍ لاَ يَطِيشُ السَّهْمُ[٥]، وَلاَ يَبْرَأُ[٦] ٱلْكَلْمُ[٧].

اللغة

١ ـ **الجنة** : بالضم ما يستتر به من درع وترس، الوقاية.

٢ ـ **الحصينة** : المنيعة، المُحكمة.

٣ ـ **انفرجت** : انكشفت.

٤ ـ **أسلمتني** : تركتني وشأني.

٥ ـ **طاش السهم** : جاز ولم يصب هدفه.

٦ ـ **يبرأ** : يشفى.

٧ ـ **الكلم** : الجرح.

الشرح

(وإن عليّ من الله جنة حصينة فإذا جاء يومي انفرجت عني وأسلمتني فحينئذٍ لا يطيش السهم ولا يبرأ الكلم) هذه الكلمة قالها رداً على من خوّفه الغيلة إذ كان أعداؤه كثيرون وكان بعضهم يجهر بعدائه بل يُسمعه بعض ذلك.

فقال لهم عليه السلام إن هناك عناية إلّهية تحفظني وتمنع وصول الأسباب القاتلة إليّ ولا يقدر أحد من اغتيالي أو النيل مني وقد كان عليه السلام في الصفوف الأولى

للمجاهدين، كان يقذف بنفسه في وسط المعارك ويخوض الحروب مع الأبطال والفرسان وأصحاب الشجاعة فلا يعود إلا مظفراً منتصراً ونظرة سريعة إلى حروب الإسلام ومعاركه في أيام الرسول تجد علياً بطلها غير المنازع وفارسها غير المدافع فقد كانت العناية الإلّهية تحرسه وتوفر له أسباب الحماية ولكل واحد من الناس حماية خاصة تدفع عنه الموت طالما أنه بعدُ الموت لم يأت. . .

ثم يقول فإذا جاء يومي ـ وقت الموت ـ تخلّت هذه الحماية عني وابتعدت عن ساحتي فنفذت أسباب الموت إليَّ واستطاعت أن تؤثر عليَّ. . . عندما تسقط وسائط الدفاع وتنهار يسهل الغزو والدخول والتأثير، عندها يدخل الموت ويُنهي هذه الحياة وتقع إصابته في الصميم صائبة في الهدف التي أرادته وتوجهت نحوه ولا يكون فيها زلل أو انحراف ولا شفاء من جرح يصيبه سهم المنون. .

٦٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يحذر من فتنة الدنيا

أَلاَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لاَ يُسْلَمُ(١) مِنْهَا إِلاَّ فِيهَا، وَلاَ يُنْجَى(٢) بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا: ٱبْتُلِيَ(٣) النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً(٤)، فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ، وما أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ(٥) وَأَقَامُوا فِيهِ؛ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي ٱلْعُقُولِ(٦) كَفَيْءِ(٧) الظِّلِّ، بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً(٨) حَتَّىٰ قَلَصَ(٩)، وزَائِداً حَتَّىٰ نَقَصَ.

اللغة

١ ـ يُسلم : ينجى ويخلص.

٢ ـ يُنجى : من النجاة وهو الفوز والخلاص. . .

٣ ـ ابتُلي : الابتلاء، الاختبار.

٤ ـ الفتنة : الاختبار والامتحان.

٥ ـ قدموا عليه : أتوه وأقبلوا عليه.

٦ ـ ذوي العقول : ذوي الألباب.

٧ ـ الفيء : الظل.

٨ ـ السابغ : التام.

٩ ـ قِلص : انقبض.

الشرح

(ألا إن الدنيا دار لا يُسلم منها إلا فيها) تحذير من الدنيا وتنبيه منها بذكر بعض خصوصياتها وصفاتها لعل هذا الإنسان يتنبه إلى خطرها وأثرها فيبادر إلى علاجها واستصلاحها والسير على هدى الله ومنهاجه فيها، . وقد بيّن عليه السلام أن السلامة من

عيوب الدنيا لا يكون إلا فيها أما باجتناب كل محرّم وممنوع وفي ذلك سلامة لهذا الإنسان رأساً ونجاة فوراً، فمن لم يعص الله فقد سلم وأما أن يكون بالتوبة والعودة إلى الله وهذا أيضاً فيها ولا يمكن أن يقع في غيرها. . .

(ولا يُنجي بشيء كان لها) بيان لسبب النجاة والفوز وإن من عمل للدنيا وأراد النجاة بعمله فلا يوفق للنجاة ولا يدرك أسباب الفوز. . .

من عمل للدنيا ربما أدرك ذلك وفاز به ولكنه لا ينفعه في الآخرة، . . فمن سعى وراء الجاه والسلطان والحكم ربما أدرك ذلك ولكنه إذ أراد بذلك الزعامة لنفسها والحكم لنفسه فقد خاب ولم يدرك أسباب النجاة. . .

ومن طلب المال وسعى له وكد وتعب من أجل أن يقال عنه أنه ثري غني فحسب فهذا المال لن ينفعه أو يحقق له الفوز والنجاة من النار وهكذا كل من سعى في الدنيا لأجل الدنيا فإنه لن يدرك النجاة والفوز. . .

(ابتلي الناس بها فتنة) فما كُلف به العباد وما أصابهم من صعاب وشدائد أو منح ومحن فإنما هي اختبار وامتحان لهذا العبد كي يُرى صبره وإيمانه ومدى تحملّه وهل يقدر على الصمود أمام صعوبة الامتحان وهل ينجح فيه؟. . هل يقدّر نعمة الله فيحمده عليها فلا يبطر ويعصي الله فيها؟. . . إنّ الله وإن كان عنده علم الغيب ويعلم ما يؤول إليه أمر هذا الإنسان من طاعة أو معصية لكنه يريد أن يقيم عليه الحجة الفعلية ليقطع عذره ويمنعه من توجيه السؤال لو ابتلَيتُ لصبرتُ ولو أعصيتُ لشكرتُ. . .

(فما أخذوه منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه) هذا ترغيب للعمل من أجل الآخرة وتزهيد وتبعيد عن العمل الذي يكون للدنيا. .

فإن من جمع المال من الدنيا لأجل الدنيا زال عنه المال بموته وحوسب عليه لتقصيره في أخذه من غير حله أو لوضعه في غير محله.

ومن أحب السلطة والحكم لأجل السلطة والحكم وليس لله ومن أجل إقامة حكم الله فهذا سوف يزول عنه الملك والسلطان إن حصل عليه ثم يحاسب عليه في الآخرة، وهكذا كل ما أخذ من الدنيا لأجل الدنيا فإن الإنسان سوف يخرج منه ويتركه رغماً عنه وقهراً عن أنفه ثم يحاسب عليه. . .

وأما ما أخذ من الدنيا لأجل الآخرة فإنه يكون قد قدّمه أمامه وسوف يُقدم عليه

وراءه ويتنعم به ويُسّر بلقائه، فمن طلب المال من أجل مساعدة الفقراء والمساكين والتخفيف عنهم فإن هذا سوف يلاقي في الآخرة نتيجة عمله وسيجزى به الجزاء الأوفى، نعيم مقيم وظل ظليل وحور عين. . .

(فإنها عند ذوي العقول كفيء الظل بينا تراه سابغاً حتى قلص وزائداً حتى نقص) ثم أشار إلى الدنيا بنظر أهل العقول وإنها عندهم كظل ما أسرع ما يزول فإنك تجد الظل صباحاً يمتد طويلاً إلى المغرب ثم تأتي الساعات القليلة فتمحو آثاره ولا تُبقي له وجود وهكذا الدنيا سريعة المحور بينما العمر في ابتدائه طفولة لاهية وغير مسؤولة فإذا بالشباب ثم المشيب ثم إلى القبر الحبيب وكما يقول الإمام في بعض كلماته: ما أسرع الساعات في اليوم وما أسرع الأيام في الشهر وما أسرع الشهور في السنة وما أسرع السنين في العمر. . .

وإنني في يومي هذا أتذكر أول مجيئي إلى بلدي في سنة ١٩٦٧ وهي المرة الأولى التي ابتدأت فيها العمل فإنني كنت أصلي جماعة في مسجد نبي الله شيث وكان خلفي بضع عشر رجلاً لم يبق منهم اليوم مخبر وإنني أجد قوتي قد انهارت وقد مر عليّ منذ ذلك التاريخ إلى كتابة هذه الكلمات ما يقارب ربع قرن من الزمن. . .

٦٤ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في المبادرة إلى صالح الأعمال

فَاتَّقُوا ٱللّهَ عِبَادَ ٱللّهِ، وبَادِرُوا[١] آجَالَكُمْ[٢] بِأَعْمَالِكُمْ، وٱبْتَاعُوا[٣] مَا يَبْقَىٰ لِكُمْ بِما يزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا[٤] فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ[٥]، وَٱسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ[٦]، وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ[٧] فَٱنْتَبَهُوا[٨]، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَٱسْتَبدلُوا[٩]؛ فَإِنَّ ٱللّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً[١٠]، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى[١١]، وَمَا بَيْنَ أَحدِكُمْ وبَيْنَ ٱلْجَنَّةِ أَوِ ٱلنَّارِ إِلاَّ ٱلْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ[١٢]. وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِمُهَا[١٣] السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ[١٤] بِقِصَرِ ٱلْمُدَّةِ[١٥]. وإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ[١٦] ٱلْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، لَحَرِيٌّ[١٧] بِسُرْعَةِ ٱلأَوْبَةِ[١٨]. وإِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بِٱلفَوْزِ أَو الشَّقْوَةِ[١٩] لَمُسْتَحِقٌّ لأَفْضَلِ ٱلْعُدَّةِ[٢٠]. فتَزَوَّدُوا[٢١] فِي الدُّنْيَا، مَا تَحْرُزُونَ[٢٢] بِهِ أَنْفُسَكُمْ غداً. فَاتَّقَىٰ عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نفْسَهُ، وَقَدَّم تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ[٢٣] عَنْهُ، وأَمَلَهُ خَادِعٌ[٢٤] لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ[٢٥] لَهُ ٱلْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا، وَيُمَنِّيهِ[٢٦] التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا[٢٧]، إِذَا هَجَمَتْ[٢٨] مَنِيَّتُهُ[٢٩] عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا. فَيَا لَهَا حَسْرَةً[٣٠] عَلَىٰ كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وأَنْ تُؤَدِّيَهُ[٣١] أَيَّامُهُ إِلَىٰ الشِّقْوَةِ،! نَسْأَلُ ٱللّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنا وَإِيَّاكُم مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ[٣٢] نِعْمَةٌ، وَلاَ تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ، وَلاَ تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ نَدَامَةٌ[٣٣] ولاَ كَآبَةٌ[٣٤].

اللغة

١ ـ بادروا	:	سارعوا.
٢ ـ آجالكم	:	مفردها الأجل وقت الموت.
٣ ـ ابتاعوا	:	اشتروا.
٤ ـ ترحلوا	:	من الترحل وهو الانتقال.
٥ ـ جدّ بكم	:	حثثتم وأزعجتم إلى الرحيل.
٦ ـ أظلكم	:	دنا منكم حتى ألقى بظله عليكم.
٧ ـ صيح بهم	:	هلكوا.
٨ ـ انتبهوا	:	استيقظوا.
٩ ـ استبدلوا	:	من أبدل الشيء إذا أخذ عوضاً عنه وبادله أخذ منه مثل ما أعطاه.
١٠ ـ العبث	:	اللهو بما لا فائدة فيه.
١١ ـ سدى	:	مهملين.
١٢ ـ نزل به	:	حلّ.
١٣ ـ تهدمها	:	تنقضها وتسقطها.
١٤ ـ جديرة	:	بكذا: خليقة به وأهل له.
١٥ ـ قصر المدة	:	قلتها وصغرها.
١٦ ـ يحدوه	:	يسوقه.
١٧ ـ لحري	:	لحقيق، وجدير.
١٨ ـ الأوبة	:	الرجعة.
١٩ ـ الشقوة	:	ضد السعادة، الشدة والعسر.
٢٠ ـ العُدة	:	ما هيأته وأعددته من سلاح.
٢١ ـ تزودوا	:	من الزاد وهو ما يأخذه المسافر من الطعام.
٢٢ ـ تحرزون	:	تحفظون وتصونون.
٢٣ ـ المستور	:	المغطى.
٢٤ ـ خدعه	:	مكر به واحتال عليه.
٢٥ ـ يزيّن	:	يزخرف ويحسّن.
٢٦ ـ يمنيه	:	يرغبه في الأمر الباطل كذباً.
٢٧ ـ يسّوفها	:	يؤخرها.
٢٨ ـ هجم	:	عليه انتهى إليه بغتة على غفلة منه، أسرع دخوله.
٢٩ ـ المنية	:	الموت.

٣٠ ـ الحسرة : التلهف والتأسف.
٣١ ـ تؤديه : توصله.
٣٢ ـ البطر : الطغيان.
٣٣ ـ ندامة : من ندم إذا حزن وأسف.
٣٤ ـ كآبة : حزن.

الشرح

(فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم) أمر عليه السلام بتقوى الله والاحتراز من معصيته وباعتبار أن الموت يأتي مسرعاً وقد يأتي فجأة فأمرنا بأن نسبقه بأعمالنا بأن نسارع إليها ونجعل الموت نصب أعيننا ونبني على أننا وإياه في سباق فهو يريد أن يسبقنا بالقضاء علينا والانتهاء منا ونحن نريد أن نسبقه بالأعمال الصالحة والخيرات والمبرات...

(وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم) اشتروا الآخرة بهذه الدنيا واجعلوا زينة الدنيا وما فيها عوضاً عن الآخرة فإن الدنيا فانية زائلة غير باقية فإذا باعها الإنسان واشترى الآخرة فقد ربح الخلود والبقاء والنعيم المقيم وبيع الدنيا الفانية ليربح الآخرة إنما يكون بطاعة الله والتزام أمره سواء كان في الكلمة أو الموقف في السياسة أو الاقتصاد أو في أي مجال من مجالات الحياة...

(وترحلوا فقد جد بكم) تأهبوا وخذوا زادكم معكم فإنكم بعنف وعلى عجل تساقون نحو الموت ومن قطع المسافة بإزعاج كان لا بد له من الزاد...

(واستعدوا للموت فقد أظلكم) هيؤوا العدة لمقابلة الموت الذي هو فوق رؤوسكم لا تدرون متى يختطفكم ويحطّ بثقله عليكم والسلاح الذي يواجه به الموت وينتصر الإنسان به عليه هو سلاح الإيمان بالله ورسوله والأئمة من أهل بيت نبيه والعمل بكل ما أمر والوقوف عما نهى، بسلاح الإيمان والالتزام ينتصر الإنسان على الموت كما قال أمير المؤمنين عليه السلام عندما سقط شهيداً «فزت ورب الكعبة» فإنها الكلمة التي تعّبر عن الانتصار على الموت والحياة الدنيا وكل مشاكلها...

(وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا) كونوا من الذين نودي عليهم فأيقظهم النداء وأسمعهم الحق صوته فانتبهوا لأنفسهم وتيقظوا لها

فإن العاقل إذا تحرك عقله توجه نحو الخير والهدى وإذا انتبه علم أن الدنيا فانية زائلة فبحث عن البقاء والخلود ولن يجد ذلك إلا في رحاب الله وطاعته فإن عاقبته جنة خالداً فيها أبداً. . .

(فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى) إن الله لم يخلق هذا الإنسان للهو واللعب والأمور الباطلة بل خلقه من أجل هدف عظيم كبير وهو تكامله وصلاحه وقد استنكر الله هذه المقولة بقوله: **﴿أفحسبتم[1] إنما خلقناكم عبثاً وإنكم إلينا لا ترجعون﴾**. . .

كما إنه لم يتركنا بدون تكليف في الدنيا بل أرسل إلينا الرسل وأنزل الكتب وبيّن لنا ما هو المطلوب منا وما هو الواجب علينا، إنه سبحانه كلفنا بتكاليف والتكليف تشريف حيث أخرجنا به من زاوية الحيوانات إلى كرامة الإنسان وشرفه. . .

(وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة) كل واحد منا يتحدد مصيره بعد عبور هذا الحاجز المعبر عنه بالموت فإن هذه المحطة تحتوي على بابين باب إلى الجنة والآخر إلى النار فما بين المطيع لله والعامل بأمره إلا أن يقطع هذا الجسر المعبر عنه بالموت حتى يدخل إلى جنة النعيم وما بين العاصي والنار إلا أن يقطع نفس هذا الجسر ليدخل عذاب السعير. . .

ثم نبه إلى قصر عمر الإنسان في الدنيا وإن الحياة هي أنفاس المرء ولحظاته كناية عن سرعة أيام الإنسان في الدنيا وعدم استقراره بها وبالنهاية تهدمه ساعات الموت ومن كانت حياته بهذه السرعة من الانقضاء والزوال يجب أن يتنبه لها ويستعد لما بعدها. . .

(وإن غائباً يحدوه الجديدان: الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة) وإن الموت الذي هو غائب عنا يسوقه إلينا الليل والنهار فكلما مضى ليل أو نهار قرُب الموت منا وهكذا وما أسرع ما يصلان به إلينا، إنه سيعود إلينا بسرعة الليل والنهار. . .

(وإن قادماً يقدم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة) باعتبار أن الموت عندما يقدم علينا ويحل بنا سوف يحمل معه أحد أمرين إما الفوز بالجنة أو الشقاء بالنار فمثل هذا القادم علينا يحتاج إلى استعداد له وإعداد بأشد ما يكون الاستعداد والإعداد وأفضل عدة هي الإيمان والعمل الصالح وحسن الظن بالله. . .

(فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً) أمر عليه السلام أن يتزود

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ١١٥.

كل منا ونحن في الدنيا أحياء أن نتزود منها بما فيها من خيرات وحسنات ما نحفظ به أنفسنا غداً من النار ومن عذاب الملك الجبار فإن في الدنيا كثير من الأعمال التي بها يحفظ الإنسان نفسه يوم القيامة من العذاب. . .

(فاتقى عبد ربه، نصح نفسه وقدم توبته، وغلب شهوته) وهذه مفردات الزاد التي أمرنا عليه السلام بها وهي تقوى الله باجتناب معاصيه والعمل بأوامره وطاعته في كل صغيرة وكبيرة ونصح النفس هو توخي الخير لها وكل ما يقربها نحو الله من أعمال البر والصدقات والبعد عن الفساد والسيئات.

وتقديم التوبة قبل الموت من جملة الزاد والتوبة تعني الرجوع إلى الله والعودة إليه وهي واجبة عند التمرد والعصيان وقبل حلول الموت.

وأما غلبته لشهوته فهو أن لا يطيع نفسه فيما تشتهي وترغب والنفس ترغب في ترك التكليف لأنه يحللها من كل التزام ففي حين أن الصلاة والصوم والحج وغيرها تكاليف وهي موجبة لشيء من التعب فإن النفس تريد الراحة منها والتحلل من الالتزام بها ومن غلب شهوته قام بالواجبات وترك المحرمات. . .

(فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يزيّن له المعصية ليركبها ويمنيه التوبة ليسوفها إذا هجمت منيته عليه أغفل ما يكون عنها) وهذه جملة أمور أولها أن وقت موت الإنسان مطوي عنه لا يعلمه إلا علام الغيوب وإذا كان الأجل مستوراً فيجب على الإنسان أن يكون دائماً على طاعة الله لئلا يأتيه الموت وهو على أمر يكرهه الله.

وثانياً: فإن أمل الإنسان في الحياة وما فيها من شباب ومال وقوة يخدع الإنسان ويجعله يعتد بهذه الأمور ويسوف عمل الخير ويؤخر في أعمال البر وهذه سيئة الأمل الخادع الذي يضل الإنسان ويحرفه عن الطاعة إلى المعصية. . .

ومنها أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق كما في الحديث يأخذ في الوسوسة لهذا الإنسان ويزين له المعصية بأنها لذيذة وطيبة وإن في العمر سعة بعد ذلك يرمّم ما هدم ويصلح ما فسد ويتوب إلى الله ويرجع فيكون قد أدرك لذة الدنيا ونعيمها والآخرة ونعيمها ولكن هذا الإنسان قد تدركه منيته قبل توبته فيخسر الآخرة وذلك هو الخسران المبين. . .

(فيا لها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة وأن تؤديه أيامه إلى الشقوة) تحسّر عليه السلام وتأسف على كل إنسان غافل عن التوبة وعما ينفعه ويقربه من

الله لأن عمره يكون حجة عليه فإن الله أعطاه العمر ليؤدي الطاعة فإذا به يؤدي المعصية فبدلاً من أن يشهد عمره له يشهد عليه وتكون أيامه المملوءة بالمعصية والتمرد مؤدية به إلى العذاب والشقاء. . .

(نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة) ثم دعا له وللحاضرين ونسأل الله أن نكون مشمولين بهذا الدعاء. . .

١ ـ ممن لا تبطره نعمة أي لا تكون النعمة من مال أو جاه أو أولاد سبباً للإنحراف والطغيان فنستعلي بها على عباد الله أو نمارس بها الظلم أو نستعملها في الحرام فإن كثيراً ممن أنعم الله عليهم قد حولوا نعمه إلى وسائط للمعصية والتمرد عليه. . .

٢ ـ أن لا تكون أي غاية أو هدف أو أمر مهم ينظر إليه الإنسان أن لا يكون ذلك من أسباب التقصير في طاعة الله بل تكون طاعة الله هي المقدمة على كل غاية مهما كانت تلك الغاية محبوبة أو مرغوبة. . .

٣ ـ أن لا يحل بعد الموت به وبنا حزن أو يلحقنا ندم بأن نكون من أصحاب الجنة ولا نكون من أصحاب النار فإن أصحاب النار هم النادمون المحزونون. .

٦٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وفيها مباحث لطيفة من العلم الإلهي

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حالٌ حَالاً، فَيَكُونَ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً، ويَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً؛ كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيز غَيْرَهُ ذَلِيلٌ، وكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرَهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَيَعْجَزُ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرُهُ يَصَمُّ[١] عنْ لَطِيفِ الأَصْوَاتِ[٢]، ويُصِمُّهُ كَبِيرُهَا، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عنْ خَفِيِّ ٱلأَلْوَانِ وَلَطِيفِ ٱلأَجْسامِ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرَهُ بَاطِنٌ وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرَهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ. لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلاَ تَخَوُّف مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ، وَلاَ ٱسْتِعَانَةٍ عَلَىٰ نِدٍّ[٣] مُثَاوِرٍ[٤]، وَلاَ شَرِيكٍ مُكَاثِرٍ[٥]، وَلاَ ضِدٍّ مُنَافِرٍ[٦]؛ ولٰكِنْ خَلاَئِقُ مَرْبُوبُونَ[٧]، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ[٨]، لَمْ يَحْلُلْ فِي ٱلأَشْيَاءِ فَيُقَالَ: هُو كَائِنٌ، وَلَمْ يَنأَ[٩] عَنْهَا فَيُقَالَ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ[١٠]. لَمْ يَؤُدْهُ[١١] خَلْقُ مَا ٱبْتَدَأَ، وَلاَ تَدْبِيرُ مَا ذرَأَ[١٢]، ولاَ وقَفَ بِهِ عَجْزٌ[١٣] عَمَّا خلَقَ، ولا ولَجَتْ[١٤] عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيما قَضَىٰ وَقَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ[١٥]، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ[١٦]، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ[١٧]. ٱلْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ[١٨]، ٱلْمَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ!.

اللغة

١ ـ **يصمّ** : مضارع صم إذا أصيب بالصمم وفقد السمع.
٢ ـ **لطيف الأصوات** : المنخفض منها الذي لا يسمع.
٣ ـ **الند** : المثل والنظير.
٤ ـ **المثاور** : المواثب وهو المحارب.
٥ ـ **المكاثر** : المفتخر بالكثرة.
٦ ـ **الضد المنافر** : الذي يحاكم ضده في الرفعة والنسب.
٧ ـ **مربوبون** : مملوكون.
٨ ـ **داخرون** : ذليلون من دخر بمعنى ذل.
٩ ـ **نأ** : بعُد.
١٠ ـ **البائن** : المنفصل.
١١ ـ **لم يؤده** : لم يعجزه ويثقله.
١٢ ـ **ذرأ** : خلق.
١٣ ـ **العجز** : عدم القدرة.
١٤ ـ **ولجت عليه** : دخلت عليه.
١٥ ـ **المتقن** : من اتقن الأمر إذا أحكمه.
١٦ ـ **محكم** : المبرم، المتقن.
١٧ ـ **المبرم** : المحكم.
١٨ ـ **النقم** : جمع نقمة وهي العقوبة.

الشرح

(الحمد لله الذي لم تسبق له حال حالاً فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً) الله سبحانه وتعالى منزّه عن الجسمية والمكانية والزمانية لأن من يحتاج إلى هذه الأمور فهو الممكن والمخلوق وأما الخالق واجب الوجود فهو الذي أبدع هذه الأمور وهو الغني عنها ومن هنا كان سبحانه ولم يكن زمان ولا مكان ولم يكن شيء في الوجود وجميع صفاته عين ذاته لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه ولا تتكثر بحسب الذات. . .

ليس له حال يتقدم بها على حال وليس معنى كونه أولاً أنه في وقت آخر يكون آخراً

أو يكون ظاهراً ثم يكون باطناً فإن هذا يستحيل في حقه لأنه يؤدي إلى الحدوث والله منزه عن ذلك بل هو في نفس الوقت الذي يكون أولاً يكون آخراً وفي نفس الوقت الذي يكون ظاهراً يكون باطناً. . .

ومعنى أوليته أنه كان ولم يكن أحد معه ومعنى آخريته أنه يبقى ويفنى كل شيء.

ومعنى أنه ظاهر أي بيّن بآياته وعلاماته فكل ما في الوجود يحكي عنه وينطق بوجوده.

ومعنى أنه باطن أي لا تدرك حقيقته أدق العقول وأعلمها. . .

وهناك تفاسير للظاهر والباطن كثيرة نرى الإعراض عنها أولى. . .

(كل مسمى بالوحدة غيره قليل) باعتبار أن الواحد أقل الأعداد وأصغرها فإذا وصفت واحداً به وسميته به فقلت جاء واحد فهو تقليل له وتحقير، وأما بالنسبة لله فالوحدة تعني الغنى والعز. . .

وليس معنى الوحدة أنها العددية لأن الله ليس له ثاني، بل الوحدة تعني أنه متفرد في صفاته لا يشبهه أحد فهو واحد في الذات وفي الصفات وكل ما يقع في الأوهام فهو منزه عنه. . .

(وكل عزيز غيره ذليل) لأن العزيز وهو الممتنع بالأهل والسلطان والعشيرة والمال وغيرها من أمور الدنيا مهما كان عزيزاً سيصرعه الموت إن نجا من مصائب الدنيا ومحنها وما يعترض طريقها وأما بالنسبة لله فهو العزيز المطلق الذي لا يطرأ عليه شيء مما يذل أو يهين. . .

(وكل قوي غيره ضعيف) لأن القوة نسبية وهي في البشر تسقط أمام الموت والفناء بينما قوته هي القوة الحقيقية التي لا ضعف فيها ولا وهن يعتريها. . .

(وكل مالك غيره مملوك) كل مالك من الناس مهما كان يحوي ويملك فهو مملوك لله وتحت سلطانه لا يخرج عن إرادته وحكمه والله وحده المالك المطلق الذي لا يعارضه في حكمه أحد. . .

(وكل عالم غيره متعلم) فالعلماء يتعلمون من بعضهم حتى يصبحوا كذلك وهم جميعاً يتعلمون مما أفاض عليهم وأذن لهم فيه بينما هو سبحانه علمه عين ذاته العالم بكل شيء والمطلّع على كل شيء ولا يخفى عليه شيء بينما علوم الناس نسبية وتنتهي عند حدّ وتؤخذ ممن تقدم أو ممن هو أعلم. . .

(وكل قادر غيره يقدر ويعجز) فغير الله من مخلوقاته يقدر على شيء ويعجز عن شيء آخر ويقوم بشيء ويستحيل في حق شيء أما هو سبحانه فلأن قدرته عين ذاته فهو القادر المطلق الذي لا يعجزه شيء. . .

(وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها) كل إنسان له سمع يتوقف عند حد محدود من سماعه الأصوات ومهما كان سليماً وصحيحاً وفريداً فلن يدرك الأصوات الخفية كما إن الأصوات العالية تعطله عن السمع وتمنعه عنه فالصيحة إذا كانت عالية تصم الآذان وتفقد السمع لأن أدوات السمع لا تتحمل الضغط الشديد عليها كما إن الأصوات إذا خفيت عجز السمع عن إدراكها وإذا بعدت الأصوات عجز السمع عن التقاطها فهو يلتقط إلى مسافة معينة فإذا زادت لم يعد يسمع. . .

وأما الله فهو السميع لكل صوت مهما كان خفياً ولا يؤثر عليه صوت مهما كان قوياً. . .

(وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام) وحاسة البصر عند غير الله لها حد محدود لا يمكن أن تتجاوزه، فهي خاضعة للإمكان ومحدودة بحدوده فلا يرى الألوان في الظلمة ولا يرى مادق وصغر من الأجسام وإنّ المكروبات أجسام لا يراها البصر ولا يقع عليها. . .

وأما الله فهو البصير الذي لا يخفى عليه أمر يرى كل صغيرة وكبيرة بدون استثناء. . .

(وكل ظاهر غيره باطن وكل باطن غيره غير ظاهر) الأشياء إما أن تكون ظاهرة غير باطنة كما هي الحال في الإنسان والحيوان والأشياء التي نراها حولنا وتظهر لنا وللعيان وإما أن تكون باطنة ندرك آثارها كالحب والبغض وغيرها وإن كنا لا نراها ولا نحس بها عند الآخرين وإن كنا نحس بها كلٌ في انفراده. . .

وأما الله فإنه أظهر ما يكون وأخفى ما يكون ففي الوقت الذي يحكي وجوده كل ما في الكون وينطق بذلك الوجود كل موجود في نفس الوقت يخفى لشدة ظهوره عن أعين الناس ولا تقدر العقول على الوقوف عل كنه ذاته واستكشاف حقيقته فهو حي قادر عليم حكيم لأننا وجدنا الأحياء وأصحاب القدرة والعلماء والحكماء. . .

(لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان) نفى عليه السلام أن يكون ما خلقه الله من أجل

غاية راجعة إليه وفائدة عائدة عليه فإنه سبحانه الغني المطلق من كل الجهات ليس في ذاته ولا في صفاته نقص وذكر بعض ما يمكن أن يتصور كونه غاية ثم نفاه فلم يخلق سبحانه الخلق من أجل تقوية سلطانه وتشديده فإن أصحاب السلطان والقوة يدعّمون قوتهم بما يبنون ويعملون لأنهم ضعفاء السلطان والقوة. . .

(**ولا تخوف من عواقب زمان**) لم يخلق ما خلق خوفاً من غدر الزمان ونكباته كمن يجمع ويدخّر تخوفاً من ساعات العسر والحاجة وهذا إنما يجري في البشر الذين يحكمهم الإمكان والضعف وتؤثر عليهم عوامل الزمان أما الله فهو الذي خلق الزمان والمكان ولا يؤثر فيه شيء. . .

(**ولا استعانة على ند مثاور**) لم يخلق ما خلق من أجل أن يستعين به على شبيه له محارب ومقاتل وجل الله أن يكون له نظير أو شبيه.

(**ولا شريك مكاثر ولا ضد منافر**) فليس له شريك يفتخر بما يملك ويفاخر الله فيما له حتى يخلق الله هذا الخلق ليكاثره به ويفتخر به عليه ويعدّد ما يملك أو يذكر ما خلق.

كما أنه ليس له ضد يواجهه ويقف في وجهه ويفتخر عليه بجاهه وسلطانه حتى يخلق هذا الخلق فيعلو ويرتفع قدراً عليه. . .

(**ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون**) فكل موجود مخلوق لله وكل مخلوق مملوك له وهو ربهم وهم له عباد أذلاء ضعفاء إما بالمقال أو بلسان الحال. . .

(**لم يحلل في الأشياء فيقال: هو كائن ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن**) لم يحلل في شيء من الأشياء فيكون مثلها وداخل في صميمها لأن الحلول يستلزم الجسمية والمشابهة وهو منزه عن ذلك كما إنه لم يبتعد عنها بحيث ينقطع حبل الاتصال بينه وبينها فنسلبه سلطانه عليها وعلمه بها بل هو في نفس الوقت الذي يكون بعيداً فهو قريب بل أقرب من كل قريب. . .

(**لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ**) لم يعجز أو يصاب بجهد وتعب من جراء ما خلق كما هي الحال عند البشر بل سبحانه بعلمه بالشيء وإرادته يتحقق المطلوب كما إنه لا يعجزه تدبير ما خلق من رزق له وتقدير حياة وضبط نظام وقوام واستعداد. . .

(**ولا وقف به عجز عما خلق ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدّر**) لم يعجز عما خلق بل بكلمة كن التي لم يكن هناك أخصر منها كان ما كان من مخلوقات وكائنات.

كما إنه لم تدخل عليه شبهة فيما قضى من أمر أو قدر من تدبير لأن الشبهة تكون

وليدة الجهل وعدم وضوح الرؤية والله سبحانه العالم المطلق انكشفت له دقائق الأمور وجليلها، عظيمها وحقيرها. . .

(**بل قضاء متقن وعلم محكم وأمر مبرم**) فما قضاه وأوجده في مكانه كان يسير وفق ما رسم له من دور وحركة في دقة ونظام وحكمة بل الأمور لديه منكشفة وهو خالقها في أمر محكم متقن لا نقص فيه أو خلل يعتريه. . .

(**المأمول مع النقم المرهوب مع النعم**) وهذه قاعدة إيمانية وهي أن الله مع شدة نقمته وعذابه هو المأمول لكل خير ورحمة كما إنه مع النعم والمنح والعطايا يجب أن يرهبه الإنسان ويخاف من سطواته ونقماته، فمع وجود النقمة الفعلية هناك أمل فيه كبير بالرحمة ورفع العذاب، ومع وجود النعم الفعلية هناك خوف وحذر من نزعها عن هذا الإنسان وتبديلها بعذاب وعقاب. .

٦٦ ـ ومن كلام له عليه السلام

في تعليم الحرب والمقاتلة

والمشهور أنه قاله لأصحابه ليلة الهرير أو أول اللقاء بصفين

مَعَاشِرَ[١] ٱلْمُسْلِمِينَ: ٱسْتَشْعِرُوا[٢] ٱلْخَشْيَةَ[٣]، وَتَجَلْبَبُوا[٤] السَّكِينَةَ[٥]، وَعَضُّوا[٦] عَلَىٰ النَّوَاجِذِ[٧]، فَإِنَّهُ أَنْبَىٰ[٨] لِلسُّيُوفِ عَنِ ٱلْهَامِ[٩]. وَأَكْمِلُوا اللَّأْمَةَ[١٠]، وَقَلْقِلُوا[١١] السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا[١٢] قَبْلَ سَلِّهَا[١٣]. وَٱلْحَظُوا[١٤] ٱلْخَزْرَ[١٥]، وَٱطْعُنُوا[١٦] الشَّزْرَ[١٧]، وَنَافِحُوا[١٨] بِالظُّبَا[١٩]، وَصِلُوا السُّيُوفَ بِٱلْخُطَا[٢٠]، وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ ٱللّٰهِ، وَمَعَ ٱبْنِ عَمِّ رَسُولِ ٱللّٰهِ. فَعَاوِدُوا[٢١] ٱلْكَرَّ[٢٢]، وَٱسْتَحْيُوا مِنَ ٱلْفَرِّ[٢٣]، فَإِنَّهُ عَارٌ[٢٤] فِي ٱلأَعْقَابِ[٢٥]، وَنَارٌ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ. وَطِيبُوا[٢٦] عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً، وَٱمْشُوا إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً[٢٧]، وَعَلَيْكُمْ بِهذَا السَّوَادِ ٱلأَعْظَمِ[٢٨]، والرِّوَاقِ[٢٩] المُطَنَّبِ[٣٠]، فَٱضْرِبُوا ثَبَجَهُ[٣١]، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ[٣٢] في كِسْرِهِ[٣٣]، وَقَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ[٣٤] يَداً، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ[٣٥] رِجْلاً. فَصَمْداً صَمْداً[٣٦]! حَتَّىٰ يَنْجَلِيَ[٣٧] لَكُمْ عَمُودُ ٱلْحَقِّ «وَأَنْتُمُ ٱلأَعْلَوْنَ، وٱللّٰهُ مَعَكُمْ، ولَنْ يَتِرَكُمْ[٣٨] أَعْمَالَكُمْ».

اللغة

١ ـ معاشر : جمع معشر وهي الجماعة.

٢ ـ استشعروا : من الشعار وهو ما يلي الجسد من اللباس.

٣ ـ الخشية : الخوف.
٤ ـ تجلببوا : من الجلباب وهو الثوب الواسع.
٥ ـ السكينة : الثبات والوقار.
٦ ـ عضوا : العضّ هو الإمساك بالأسنان.
٧ ـ النواجذ : جمع ناجذ وهو أقصى الأضراس.
٨ ـ أنبى : من نبا السيف إذا لم يقطع.
٩ ـ الهام : مفردها هامة وهو الرأس.
١٠ ـ اللّامة : الدرع وتطلق على آلات الحرب.
١١ ـ قلقلوا : من القلقلة وهو التحريك.
١٢ ـ الأغماد : جمع غمد وهو جفن السيف.
١٣ ـ سلها : وسل السيف إذا أخرجه من الغمد.
١٤ ـ الحظوا : انظروا.
١٥ ـ الخزر : النظر بمؤخر العين عند الغضب.
١٦ ـ اطعنوا : من الطعن وهو الضرب والوخز.
١٧ ـ الشزر : الطعن عن اليمين والشمال.
١٨ ـ نافحوا : ضاربوا ودفعوا.
١٩ ـ الظبا : جمع ظبة وهي طرف السيف وحده.
٢٠ ـ الخطا : جمع خطوة ما بين القدمين عند المشي.
٢١ ـ عاودوا : ارجعوا وعودوا إلى حالتكم الأولى.
٢٢ ـ الكر : الرجوع.
٢٣ ـ الفر : الفرار، الهرب.
٢٤ ـ العار : العيب كل ما يعيب الإنسان من قول أو فعل.
٢٥ ـ الأعقاب : أما جمع عقب بالضم أي العاقبة أو على وزن كتف الأولاد..
٢٦ ـ طيبوا : هوّنوا.
٢٧ ـ السجح : السهل.
٢٨ ـ السواد الأعظم : عامة الناس وجمهورهم.
٢٩ ـ الرواق : الفسطاط.
٣٠ ـ المطنب : المشدود بالأطناب وهي جمع طنب بضمتين حبل يشد به سرادق البيت.
٣١ ـ الثبج : الوسط.
٣٢ ـ كامن : مستخفى.
٣٣ ـ كسره : بالكسر شقه الأسفل.

٣٤ ـ الوثبة : الطفرة.
٣٥ ـ النكوص : الرجوع.
٣٦ ـ الصمد : القصد.
٣٧ ـ ينجلي : ينكشف ويظهر.
٣٨ ـ لن يتركم : لا ينقصكم.

الشرح

(معاشر المسلمين استشعروا الخشية) تتضمن هذه الخطبة بعض الارشادات الحربية والتعاليم العسكرية وكذلك تحتوي على تقوية النفس معنوياً حتى تكتمل القوتان العسكرية والمعنوية...

وهذا الخطاب إلى معسكره وصاهم أن يعيشوا الخشية وهي الخوف من الله لأن من خاف الله قام بأداء حقه وجهاد عدوه ولم يتهاون أو يتكاسل أو يفرّ، ومن خاف من الله هانت عليه مصاعب الحياة واستطاع أن يطرد كل خوف من أي جهة ومن أي شخص كان...

(وتجلببوا السكينة) أمرهم أن يكون الوقار شاملاً في الحرب يعني ضبط الأعصاب والسيطرة عليها فلا تصاب بالاضطراب ويفقد صاحبها السيطرة عليها فإن ذلك يؤدي إلى اختلال في التوجه وعدم التركيز على المطلوب في تلك الساعات الصعبة...

(وعضوا على النواجذ فإنه أنبى للسيوف عن الهام) وهذا إما محمول على الحقيقة من أن العض على الأضراس الخلفية يوجب تصلب الجمجمة فلا يأخذ السيف منها مأخذه، أو كناية عن شدة الاهتمام بأمر الحرب وترك الاضطراب وأن يفعل المحارب فعل المقهور الذي يريد أن يتخلص من قاهره وعدوه...

(وأكملوا اللأمة) أي وزعوا آلات الحرب ولباسها على البدن كله كل واحدة في موقعها ومكانها المعدّ لها حتى لا يكون جزء من الجسد خالياً مما يجب أن يكون عليه...

(وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلها) أي حركوا السيوف وهي في الأغماد لتتأكدوا من سهولة إخراجها عندما تحتاجون إلى إخراجها...

(والحظوا الخزر) انظروا نظرة الغضبان الذي ينظر بمؤخرة عينه احتقاراً للمنظور واحتقاناً منه. . .

(واطعنوا الشزر) اضربوا يميناً وشمالاً عن جانبيكم فإن ذلك يعم ويستطيع المحارب خلاله أن تأخذ يده مجالها برحابة وسهولة. . .

(ونافحوا بالظبا) اضربوا الأعداء وادفعوهم بأطراف السيوف قبل أن تختلطوا بهم وتقتربوا منهم فيمنعكم القرب من حرية الحركة. . .

(وصلوا السيوف بالخطا) إن قصرت السيوف عن تناول الأعداء فلا تنتظروهم حتى يهجموا عليكم بل أنتم بادروا إلى القفز نحو العدو وتناوله وأخذه. . .

(واعلموا أنكم بعين الله ومع ابن عم رسول الله) أراد تسكين قلوبهم وإعطائهم الثقة وهذا من أهم الأمور وأفضلها أن يطمئن إلى أن الله يراه ويرعاه ويرضى عن سلوكه والإمام يقول لهم إنكم تحت نظر الله ورعايته هو المطلع عليكم الناظر إليكم ومن كان تحت نظر الله فاز ونجا ثم اتبع ذلك بإرشادهم وتذكيرهم إلى أنهم مع ابن عم رسول الله ولهذا الرجل موقعه ودوره وكل المسلمين يعرفون أنه القائم مقام النبي وإن الخلافة له وإن حربه كحرب رسول الله محققة مشروعة وإنه على المنهج الإلهي وإن عدوه عدو لله ولرسوله ولكل رسالات الأنبياء، وعندما تستشعر النفوس هذا المعنى وتقف عليه تحل فيها السكينة وتطمئن القلوب. . .

(فعاودوا الكر) إذا حصل منكم فرّ لحالة ضعف أو تحيزتم إلى فئة أو انحرفتم لقتال فعودوا إلى الحرب والنزال ولا تستمروا على النكوص والفرار. . .

(واستحيوا من الفر فإنه عار في الأعقاب ونار يوم الحساب) خوفهم من الفرار والهروب من المعركة بأمرين عظيمين أحدهما في الدنيا وهو أنه يبقى سمة وعلامة يعاب به الأولاد والأحفاد فيكون الفار قد ترك لعقبه ميراثاً قبيحاً يخجلون به بين الناس وفي المجتمع ويبقى يلاحقهم مدى الحياة. . .

والثاني أن في الفرار من المعركة غضب الله وعذابه، فإن الفرار معصية كبيرة يستحق صاحبها النار لأنه يوهن قوة المجاهدين ويفت في عزائمهم ويقضي على معنوياتهم ومن هنا كان جرماً كبيراً يستحق به النار. . .

(وطيبوا عن أنفسكم نفساً) اسخوا بأنفسكم وجودوا بها عن رضى وقناعة وحب ووطنوها على القتل والشهادة فإنكم ستنالون أفضل الجزاء وأحسنه ويعوض عليكم خيراً مما تقدمون. . .

(وامشوا إلى الموت مشياً سجحاً) أقبلوا على الموت واطلبوه طائعين راغبين فإن من يستسهل الموت ويسعى إليه برغبة يحقق المعجزات وينال الفوز والنصر . . .

(وعليكم بهذا السواد الأعظم والرواق المطنب فاضربوا ثبجه) بيّن عليه السلام لهم هذا الهدف المهم الذي يدير المعركة عند العدو ويوجهها وجهتها وكان معاوية قد أقام خيمة التف بها الناس واجتمع حولها العسكر فأمر عليه السلام بالهجوم عليه فإن مركز القيادة إذا ضُرب اختلت التوازنات عند الجيوش وتضعضعت الصفوف. . أمرهم أن يهجموا على مجتمع الناس حيث خيمة معاوية هناك وليضربوا وسطه. . .

(فإن الشيطان كامن في كسره وقد قدم للوثبة يداً وأخّر للنكوص رجلاً) أشار عليهم بأن معاوية وسماه شيطاناً لأنه مثلّ الشيطان في أفعاله وسلوكه وحكاه في جميع تصرفاته لأن الشيطان معاوية مختفي في جانبه ينتظر أحد أمرين فإن رأى ضعفاً منكم هجم عليكم وطالكم بيده وأخذكم بقوة.

وإن رأى إنكم أقوياء وقد قهرتموه وغلبتموه فإنه على استعداد للهروب والفرار ناجياً بنفسه ومن يلحق به. . .

(فصمداً صمداً حتى ينجلي لكم عمود الحق وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) أمرهم بالصمود والثبات والقتال من أجل حقهم حتى ينتصروا فينهزم معاوية وجنده وينتصر الحق وأصحابه وأنتم الأعلون لأنكم أصحاب الحق الذين تقاتلون من أجل الله وفي سبيله والله معكم لأنكم معه وهو الذي ينزل نصره عليكم ولن ينقصكم شيئاً من الثواب والأجر على كل عمل تقومون به أو فعل تفعلونه. .

٦٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

قالوا: لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة[١] بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال عليه السلام:

ما قالت الأنصار؟ قالوا: قالت منا أمير ومنكم أمير؛ قال عليه السلام:

فَهَلَّا[٢] ٱحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ[٣] بِأَنَّ رَسُولَ ٱللّهِ صَلَّىٰ ٱللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَّىٰ بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَىٰ مُحْسِنِهِمْ، وَيُتَجَاوَزَ[٤] عَنْ مُسِيئِهِمْ؟.

قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟.

فقال عليه السلام:

لَوْ كانَتِ ٱلْإِمَامَةُ فِيهِمْ لَمْ تكُنِ ٱلْوَصِيَّةُ بِهِمْ.

ثم قال عليه السلام:

فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ[٥]؟ قَالوا: احتجت بأَنها شجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال عليه السلام: ٱحْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا[٦] الثَّمَرَةَ.

اللغة

١ ـ **السقيفة** : منتدى للأنصار كانوا يجتمعون فيه معمول من خوص النخيل.

٢ ـ **هلّا** : كلمة تحضيض وحث على الفعل وهي مركبة من هل ولا.

٣ ـ **احتججتم عليهم** : أتيتم بالحجة عليهم وهي الدليل والبرهان.

٤ ـ **تجاوز** : المكان تخطاه وتجاوز عن سيئاته تركها ولم يؤاخذه بها.

٥ ـ قريش : قبيلة عربية منها النبي (ص).
٦ ـ أضاعوا : الثمرة أهملوها، أتلفوها والضياع هو الهلاك.

الشرح

(فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم) ذكرنا سابقاً ـ في الخطبة الشقشقية ـ أنباء السقيفة ومنطق أهلها بحيث أعطينا صورة وافية لا تخل بالمطلوب ولا تزرع الملل والسأم عند من يريد أخبارها وبعبارة موجزة تنسجم مع كلام الإمام هنا نقول: اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة عندما علموا بوفاة رسول الله وأرادوا أن يبايعوا أحدهم ليكون خليفة على المسلمين ولكن أبا بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف علموا بالاجتماع فتركوا النبي مسجى لم يتم تجهيزه ودفنه ودخلوا عليهم فأفسدوا عليهم خطتهم وحولوا الخلافة لصالح أبي بكر فبويع خليفة من قبل من كان في السقيفة ووصلت الأنباء إلى الإمام فكان منه هذا الحديث الذي رد فيه على الأنصار كما رد على قريش وما احتجت فيه لصالحها عندما حولت الخلافة لها دون الأنصار...

كان العزم من الأنصار أن يبايعوا سعد بن عبادة وكادت كلمتهم تجتمع على ذلك وإذا بأبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يفاجؤهم فيسقط ما في أيديهم ويدب الخلاف فيما بينهم ويدور حوار يصل فيه ضعف الأنصار أن قالو: منا أمير ومنكم أمير..

ويصل هذا الأمر إلى الإمام فيقول في بيان فساد هذا الرأي لمن أخبره: فهلاّ احتججتم عليهم بأن رسول الله وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ولكن المخاطبين لم يفهموا وجه الحجة في هذا الكلام العلوي فقالوا له: وما في هذا من الحجة عليهم.

فقال مفسراً لهم ومفهماً: لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم أي لو كان الحكم لهم وبيدهم السلطان لم يكونوا بحاجة إلى الوصية بهم فإن الناس تخاف ظلم السلطان وجوره فلو كان السلطان لهم فقد أمنوا الظلم فتنتفي الوصية بهم ولم يعد للوصية بهم من مبرر ولكن باعتبار أن النبي وصى بهم يدل ذلك على أنهم لا حظ لهم في الخلافة ولا تكون لهم.. ثم قال الإمام وماذا قالت قريش وما هي حجتها في انتزاع الخلافة لنفسها؟.

قالوا له: احتجت بأنها شجرة الرسول فالرسول يرجع إليها وهو منها فيجب أن تعود إليها الفوائد والعوائد فقال لهم الإمام «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة».

احتجوا بأن رسول الله منهم وبهذه القرابة ربحوا الجولة على الأنصار وانتصروا عليهم وعادوا بالخلافة ولكنهم نسوا أن أهله أقرب إليه من جميع قريش بما فيهم من تولى الخلافة، فإن الإمام من أقرب الناس إلى رسول الله فهو ابن عمه وزوج الزهراء ابنته ووالد ولديه الحسن والحسين.. فما احتجت به قريش على الأنصار يحتج به عليها فإن كانت حجتها صحيحة في انتزاع الخلافة يجب أن تنتزع منها الخلافة، إنها احتجت بالقرابة فنحن أقرب منها وإلا فالأنصار لهم الخلافة ولا يجوز انتزاعها منهم..

٦٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما قلد محمد بن أبي بكر مصر فملكت عليه وقتل

وَقَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ[١] مِصْرَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ؛ وَلَوْ وَلَّيْتُه إِيَّاهَا لَمَّا خَلَّى[٢] لَهُمُ ٱلْعَرْصَةَ[٣]، ولاَ أَنْهَزهُمُ[٤] ٱلْفُرْصَةَ[٥]، بِلاَ ذَمٍّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيباً، وَكَانَ لِي رَبِيباً[٦].

اللغة

١ ـ التولية : جعله والياً أي حاكماً.

٢ ـ خلّى : ترك.

٣ ـ العرصة : ساحة الدار، كل بقعة ليس فيها بناء والمقصود هنا دار الحرب.

٤ ـ أنهزهم : أمكنهم.

٥ ـ الفرصة : جمعها فرص، الوقت المناسب والنهزة.

٦ ـ الربيب : ابن زوجة الرجل من غيره إذا تربى عنده.

الشرح

(وقد أردت تولية مصر هاشم بن عتبة ولو وليته إياها لما خلّى لهم العرصة ولا أنهزهم الفرصة بلا ذم لمحمد بن أبي بكر ولقد كان إليَّ حبيباً وكان لي ربيباً) عندما تولى الإمام الخلافة أرسل قيس بن سعد إلى مصر والياً ثم استدعاه وولى محمد بن أبي بكر فلما كانت وقعة صفين اضطرب الأمر في مصر وكان معاوية قد أعطاها عمرواً طعمة ووجهه إليها ومعه ستة آلاف فارس. . .

عرف محمد بعمرو وقدومه فانتدب الناس فخرج معه أربعة آلاف رجل فوجه منهم

ألفين مع كنانة بن بشر لاستقبال عمرو وبقي هو في ألفين فأبلى كنانة في ذلك اليوم بلاء حسناً وقاتل حتى قتل فلما علم أصحاب محمد بذلك تفرقوا عنه فهرب محمد واختفى عن الأنظار ظناً منه أنه ينجو بنفسه فالتجأ إلى خربة اختبىء فيها ودخل عمرو الفسطاط ووجه معاوية بن خديج أحد قادة جنده يبحث عن محمد فوجده في الخربة فأخذه وقتله ووضعه في جيفة حمار وأحرقه وعندما وصل نبأ شهادته إلى الإمام قال هذه الكلمة: قد أردت تولية مصر هاشم بن عتبة الملقب بالمرقال ولو وليته إياها لما ترك مصر وساحة الحرب فيها ولا سمح لهم بوقت يستطيعون فيه تحقيق شيء من أحلامهم وآمالهم. . .

وهذا الكلام منه ثناء على هاشم بن عتبة ومدح له وخوفاً من أن يفهم الحضور أنه يذم محمداً قال: بلا ذم لمحمد بن أبي بكر لأن محمداً كان مخلصاً طيباً ولكن ليست له خبرة هاشم وتجربته وبيّن الإمام وعلل عدم ذمه لمحمد بأمرين. . .

الأول: أنه كان حبيباً له ومن كان يحبه الإمام لا شك أنه مؤمن طاهر مطيع لله ورسوله وقد كان محمد كذلك. . .

الثاني: أنه كان ربيباً له وبمستوى أولاده فقد عاش في بيته ورضع من لباناته وجاءته النجابة من تلك الأوقات الطيبة التي عاشها في كنفه وقد كان الإمام يقول: محمد ابني من ظهر أبي بكر. .

ترجمة محمد بن أبي بكر:

محمد بن أبي بكر وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية ولدته في طريق المدينة إلى مكة في حجة الوداع سنة عشرة للهجرة.

تربى محمد في حجر الإمام علي لأنه تزوج أمه بعد وفاة أبي بكر وقد نشأه الإمام على الإسلام ورباه على الإيمان فجاء طيب القلب ناسكاً عابداً محباً للخير. .

وقد ولاه عثمان على مصر بدل ابن أبي سرح تحت ضغط المصريين المطالبين بإقالة عبد الله بن أبي سرح ولما كتب له كتاب الولاية وسار ومن معه مسيرة ثلاث من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير وهو يخبط البعير خبطاً كأنه رجل يطلب أو يُطلب. .

فقال له أصحاب محمد بن أبي بكر: ما قصتك؟ وما شأنك؟ كأنك هارب أو طالب فقال لهم مرة: أنا غلام أمير المؤمنين وقال أخرى: أنا غلام مروان وجهني إلى عامل مصر برسالة ثم فتشوه فوجدوا معه كتاباً من عثمان يأمر فيه ابن أبي سرح أن يحتال

لقتل محمد وإبطال الكتاب وأن يقر على عمله فلما قرأ محمد الكتاب عاد ومن معه إلى المدينة وعرض الكتاب على أصحاب النبي (ص) فنقموا على عثمان وتصرفاته بل ازدادت النقمة. . .

اشترك محمد في قتل عثمان كما في بعض الروايات وفي بعضها أنه كاد ولم يفعل. . .

اشترك مع الإمام في حرب الجمل ضد أخته أم المؤمنين عائشة وضد طلحة والزبير.

ولما انجلت المعركة عن هزيمة أصحاب الجمل دخل على أخته عائشة فسلم عليها فلم تكلمه.

فقال لها: أنشدك الله أتذكرين يوم حدثتني عن النبي (ص) أنه قال: الحق لن يزال مع علي وعلي مع الحق ولن يختلفا ولن يفترقا.

فقالت: نعم.

ولاه الإمام مصر بعد قيس بن سعد وبعد صفين واضطراب الأمر وجه معاوية عمرو بن العاص إلى مصر وكان قد أعطاها له طعمة فدخلها ومعه ستة آلاف رجل فقام محمد في أهل مصر وخطبهم وحضهم على قتاله فانتدب معه أربعة آلاف رجل فوجه منهم ألفين مع كنانة بن بشر لاستقبال عمرو وبقي هو في ألفين وقد أبلى كنانة بلاءً حسناً وقاتل حتى قتل فلما رأى أصحاب محمد ذلك تفرقوا عنه فهرب متخفياً حتى انتهى إلى خربة فدخل عمرو الفسطاط وخرج معاوية بن خديج في طلبه فظفر به وكاد يموت عطشاً فأخذه وضرب عنقه ثم وضع جثته في جيفة حمار وأحرقها ولما بلغ الإمام مقتله حزن عليه حتى رئي ذلك فيه وتبيّن في وجهه.

وعندما قدم عبد الرحمن بن المسيب[1] الفزاري على الإمام وأخبره بفرح أهل الشام وسرورهم بقتله وقوله: ما رأيت يوماً قط سروراً مثل سرور رأيته بالشام حين أتاهم نبأ قتل محمد بن أبي بكر فقال علي: أما إن حزننا على قتله على قدر سرورهم به، لا بل يزيد أضعافاً. .

ولما بلغ عائشة مقتله جزعت جزعاً شديداً وقنتت في دبر كل صلاة تدعو على معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن خديج وحلفت لا تأكل شواء بعد

---

(١) ابن أبي الحديد في شرح النهج ج/ ٦ ص ٦١.

قتل محمد فلم تأكل شواء حتى ماتت، وما عثرت قط إلا قالت: تعس معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن خديج.

قتل محمد سنة ٣٨ للهجرة. . .

ترجمة هاشم بن عتبة:

قال صاحب الإصابة:

هاشم بن عتبة بن أبي وقاص بن أهيب بن زهرة بن عبد مناف الزهري الشجاع المشهور المعروف بالمرقال ابن أخي سعد بن أبي وقاص.

لقب بالمرقال لأنه كان يرقل في الحرب أي يسرع من الارقال وهو ضرب من العدو.

وقال ابن الكلبي وابن حبان له صحبة.

وقال أبو أحمد الحاكم يكنى أبا عمر وعده بعضهم في الصحابة.

وقال الخطيب: أسلم يوم الفتح وحضر مع عمه حرب الفرس بالقادسية وله بها آثار مذكورة.

وفي أعيان الشيعة «وفي كتاب لباب الآداب: أمد عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص في حرب القادسية بجيش عليه هاشم بن عتبة المرقال فوصلهم والعسكران متواقفان المسلمون ورستم فوقف هاشم مقابل موكب منهم ثم أخذ سهماً فوضعه في قوسه ورماهم فوقع سهمه في أذن فرسه فخلها فضحك وقال: واسوأتاه من رمية رجل كل من نرى ينتظره؛ أين ترون كان سهمه بالغاً لو لم يصب أذن الفرس قالوا: العتيق وهو نهر خلف ذلك الموكب فنزل عن فرسه ثم سار يضربهم بسيفه حتى أوصلهم العتيق ثم رجع إلى موقفه. . .

وقد حضر اليرموك وفقئت عينه بها وهو الذي افتتح جلولاء وكانت جلولاء تسمى فتح الفتوح. . .

وشهد صفين مع علي وكانت معه الراية وهو على الرجالة.

قتل هو وعمار بن ياسر في تلك الموقعة سنة ٣٨.

٦٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

في توبيخ بعض أصحابه

كمْ أُدَارِيكُمْ[١] كَمَا تُدَارَىٰ ٱلْبِكَارُ[٢] ٱلْعَمِدَةُ[٣]، وَالثِّيَابُ ٱلْمُتَدَاعِيَةُ[٤]! كُلَّما حِيصَتْ[٥] مِنْ جَانِبٍ تِهَتَّكَتْ[٦] مِنْ آخَرَ، كُلَّمَا أَطَلَّ[٧] عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ[٨] مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَٱنْجَحَرَ[٩] ٱنْجِحَارَ الضَّبَّةِ في جُحْرِهَا[١١]، وَالضَّبُعِ[١٢] فِي وِجَارِهَا[١٣]. الذَّلِيلُ وَٱللَّهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ! وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ[١٤]. إِنَّكُمْ ـ وَٱللَّهِ ـ لَكَثِيرٌ فِي ٱلْبَاحَاتِ[١٥]، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ[١٦]، وإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ[١٧]، وَلٰكِنِّي لاَ أَرَىٰ إِصْلاَحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي. أَضْرَعَ ٱللَّهُ خُدُودَكُمْ[١٨]، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ[١٩]! لاَ تَعْرِفُونَ ٱلْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ ٱلْبَاطِلَ، ولا تُبْطِلُونَ ٱلْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ ٱلْحَقَّ!.

اللغة

١ ـ اداريكم : ألاطفكم.

٢ ـ البكار : جمع بكر وهو الفتى من الإبل.

٣ ـ العمدة : هي الإبل التي انشدخت اسنمتها من الداخل وظاهرها صحيح لكثرة ركوبها.

٤ ـ الثياب المتداعية : الخلقة المتخرقة.

٥ ـ حيصت : خيطت والحوص الخياطة.

٦ ـ تهتكت : تخرقت.

٧ ـ أطل : أشرف.
٨ ـ منسر : قطعة من الجيش.
٩ ـ انجحر : استتر في بيته.
١٠ ـ الضبة : أنثى الضب والضب حيوان من الزواحف شبيه بالحرذون ذنبه كثير العقد.
١١ ـ الجحر : جمعه أجحار مكان تحتفره السباع والهوام لأنفسها.
١٢ ـ الضبع : ضرب من السباع معروف مؤنثة.
١٣ ـ الوجار : بيت الضبع.
١٤ ـ أفوق ناصل : الناصل المكسور الفوق، المنزوع النصل والفوق موضع الوتر من السهم.
١٥ ـ الباحات : جمع باحة وهي ساحة الدار.
١٦ ـ الرايات : مفردها الراية العلم.
١٧ ـ أودكم : اعوجاجكم.
١٨ ـ اضرع الله خدودكم: أذل وجوهكم.
١٩ ـ أتعس جدودكم : حط من حظوظكم، والتعس الهلاك والانحطاط.

الشرح

(كم أداريكم كما تدارى البكار العمدة والثياب المتداعية كلما حصيت من جانب تهتكت من آخر) عانى الإمام من أصحابه أشد العناء فخاطبهم وعاتبهم ووبخهم وأنكر عليهم ولكن دون فائدة فكأنه كان ينفخ في رماد وهذا الكلام منه لهم يدل على مدى هذه المعاناة وما كانوا عليه من اللامبالاة.

وبيّن مدى ملاطفته لهم وأخذه لهم بالرفق واللين وشبه هذه المداراة والملاطفة بما كان يمارسه العرب من مداراة البكر العمدة وهو الفتى من الإبل الذي انشدخ سنامه فانهم يدارونه ويرفقون به ولا يحملونه كغيرهم من الاصحاء فهم مرضى القلوب يهربون من الحمل الثقيل وهو الجهاد ومع ذلك كان يداريهم ويرفق بهم..

ثم شبههم بالثياب البالية التي إذا خيطت وأصلحت من جهة انخرقت وتمزقت من جهة أخرى لعدم تماسكها وهم أيضاً كذلك فلم يكد يصلحهم من جهة إلا وقد فسدوا من

جهة أخرى، ولم يكد يجمعهم للحرب من ناحية إلا وقد تفرقوا من أخرى. . .

(كلما أطلّ عليكم منسر من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه وانجحر انجحار الضبة في جحرها والضبع في وجارها) بيّن عليه السلام شدة خوفهم وفزعهم وما هم عليه من الهلع والهزيمة وقد حكى واقع حالهم وسوء فعالهم وانه عندما كانت تشرف كتائب معاوية وتطل عليهم ويسمعوا بها فعوضاً عن مقابلتها ومطاردتها وجهادها يغلق كل رجل منهم باب بيته ويدخله فزعاً وخوفاً أن يقع بين يدي ذلك الجيش الغازي المعادي وشبههم بأنثى الضب وأنثى الضبع في الجبن والغباء.

أقول: وما أشبه الليلة بالبارحة وما أشد انطباق هذا الكلام على واقعنا العربي والإسلامي حيث تعيش أسرائيل التي احتلت فلسطين وشردت أهلها تعيش بآلتها العسكرية تدمّر وتخرب، تغزو سماء لبنان وتضرب العراق وتجتاز إلى أوغندا وتقتل الفلسطينيين في تونس وكل قطر يسأل الله العافية ويدعوه أن يرفع عنه بلاء اسرائيل ويقول: انج سعد فقد هلك سعيد. . .

(الذليل والله من نصرتموه) بيّن أن نصرهم لإنسان إذلال له وهزيمة لأنهم جبناء المواقف لا يجمعهم رأي ولا يوحد كلمتهم مقام يهربون من مواجهة الأعداء ويجبنون عن ملاقاة الخصماء. . .

(ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل) ثم شبههم بالسهم المنزوع النصل المكسور الفوق الذي لا يرمى به وإذا رمي به لا يصيب وكذلك حالهم فإذا وجههم الإمام الى جهة أو إلى عدو فلن يصيب بهم عدوه ولن ينتصر بهم عليه بل هم مصدر الهزيمة والتراجع. . .

(إنكم والله لكثير في الباحات قليل تحت الرايات) وهذه صفة ذم ودليل انهيار المجتمع وفساد الأمة يصف بها الإمام أهل العراق. . إنهم كثيرون في النوادي والملاهي والملتقى العام الذي يقصده البطالون والعاطلون ولكنهم قليلون في ساحات الجهاد وفي مواجهة الأعداء، ففي المواطن التي يجب أن يكون فيها الرجال فهم مفقودون وفي المواطن التي يجب أن يتنزه عنها الشرفاء وأصحاب الكرامة فهم موجودون بكثرة. . .

(وإني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي).

علي عارف بما يصلح الناس:

وهذه حقيقة تمتع بها ابن أبي طالب وانفرد بها عن كل رجالات الحكم والسياسة ورد في هذه الكلمة على ما يمكن أن يكون قد سمعه من بعض أصحابه المخلصين له

الذين كانوا يشيرون عليه بما يكتسب به ود الناس وعطفهم عليه وإعانتهم له وهذه الكلمة يرّد بها على بعض من لا يفهم علياً ولا طريقته في الحياة. بعض الذين يتصورون علياً رجل الحكم والسلطة من أجل الحكم والسلطة كما أعتادوا وكما رأوا. . .

إن الإمام بدون شك على معرفة عظيمة بالحياة وبالأحياء وقد كان يتمتع بذكاء منقطع النظير وثقافة اسلامية قرآنية محمدية إلَهية لا يعدله أحد من المسلمين، ومن قرأ سيرة هذا الرجل ووقف على علمه وحلمه وحكمته وعدله ومعرفته بالأمور أدرك أنه نموذج فريد في نوعه هذا إذا انصفنا الرجل وكانت حساباتنا معه كما تحاسب الناس الذين لا يتمتعون بعصمة إلَهية. . .

أما إذا كانت العصمة من مختصاته فترتفع جميع التساؤلات وتسقط كل الاستفهامات لأن المعصوم لا يقع في خطأ بل يدرك وجه المصلحة والحق والعدل في كل أمر. . .

أقول: إذا كان الإمام بحساب الناس أفضلهم عقلاً وعلماً ودراية وحكمة هل يفوته معرفة ما يصلح الناس وخصوصاً إذا أشير عليه وبالأخص إذا عرف أسلوب عدوه مع الناس وشراء ضمائر الناس. . .

إن الإمام يعرف ما يصلح الناس وهو يصرح بهذا في هذه الكلمة. . إنه السيف والسوط وشراء الضمائر واستمالة القلوب كان باستطاعة الإمام أن يأخذ الناس بالقوة كما كان يأخذهم غيره. . ينكلّ بمن لا يطيع ويقتل من يتمرد ويقضي على من يخالف. . . كان بمقدوره أن يرشي الزعماء والوجهاء والمجتمع لا يزال يعيش روح القبيلة والعشيرة فيعّين هذا حاكماً وذاك والياً ويعطي هذا من أموال المسلمين ويقتطع لذاك قطعة من الأرض وهكذا. . .

كان بمقدور الإمام أن يفعل كل ذلك ولكن في ذلك مخالفة لله ومعصية لحكمه، في ذلك انحراف وإضلال يتنزه عنه الإمام. . .

الإمام رجل يسّن الطريق لمن بعده ويؤسس للأجيال وللعالم منهجاً عدلاً فهل يبدأ طريقه بالانحراف وأساسه بالاختلال، . إن هذا لا يكون فيمن أراد أن يرسم الدرب ويقيم العدل ويضع للأجيال المبدأ السليم. . .

إنه يعرف ما يصلحهم وما يجعلهم على الحق والعدل ولكن ذلك يضّر به كمشرع يريد أن يرسم للناس الطريق السليم. . .

(أضرع الله خدودكم وأتعس جدودكم) دعى عليهم بالذل أن يصيبهم كما أذلوا

مواقفه ولم يواجهوا معه عدوه وأن يقلّل حظوظهم ويهلكها فلا يرون خيراً لهروبهم من وجه الحق. . .

(لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل ولا تبطلون الباطل كإبطالكم الحق) وهذه علة دعائه عليهم إنهم لا يبحثون عن الحق ويتعرفون عليه كما يبحثون عن الباطل ويعرفونه، فمعرفتهم بالباطل عميقة وضليعة على خلاف ما يجب أن يكون عليه الإنسان الصالح في المعرفة.

وأما في العمل فإنهم يسعون في إبطال الحق ويجدّون في ذلك أكثر مما يجدّون في إبطال الباطل عكس ما يجب أن يكون عليه السلام، فهم يخالفون قواعد الإيمان نظرة وعملاً منهجاً والتزاماً. . .

٧٠ ـ وقال عليه السلام

في سحرة اليوم الذي ضرب فيه

مَلَكَتْنِي عَيْنِي(١) وَأَنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ(٢) لِي رَسُولُ ٱللّهِ صَلَّىٰ ٱللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللّهِ، مَاذا لَقيتَ(٣) مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ ٱلأَوَدِ(٤) وَاللَّدَدِ(٤)؟ فقَالَ: «ٱدْعُ عَلَيْهِمْ»(٦) فَقُلْتُ: أَبْدَلَنِي ٱللّهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدَلَهُمْ بِي(٧) شَرًّا لَهُمْ مِنِّي.

قال الشريف: يعني بالأود الأعوجاج، وباللدد الخصام. وهذا من أفصح الكلام.

اللغة

١ ـ ملكتني عيني : غلبني النوم.

٢ ـ سنح : لي عرض لي ومرّ بي.

٣ ـ لقيت : صادفت واستقبلت.

٤ ـ الأود : الاعوجاج.

٥ ـ اللدد : الخصام.

٦ ـ دعا عليه : طلب نزول السوء به.

٧ ـ أبدلني : به عوضني عنه واخلف علي عوضه.

الشرح

(ملكتني عيني وأنا جالس فسنح لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد؟).

فقال: «ادع عليهم» فقلت: أبدلني الله بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً لهم مني)
منام صادق يحكيه الإمام: فبينما هو جالس وإذا به ينام فيرى رسول الله بطلعته المباركة الكريمة، يلتقي الحبيب بالحبيب والروح بالروح.. طلعة غيبها الموت فاستحضرها المنام.. وما أن يتم اللقاء حتى يقوم الولد البار بشرح مشاكله وما يعترض سبيله أمام الوالد الحنون... في تلك اللحظات ومن شدة المعاناة ومن أشد الحالات صعوبة.. في تفاقم الأزمة وحدتها ينطلق لسان الإمام ببثه إلى الرسول ما لاقاه من الأمة من الانحراف ومن الخصام.. شرح له عناوين السقيفة وانحراف الخلافة وسلبها منه وغصب الزهراء حقها وضرب متنها.. شرح له ما مارسه الظالمون من سلب الحقوق ثم لما عادت إليه الخلافة كيف قام القاسطون والمارقون والباغون في قتاله...

لقد ضاق صدر الإمام من الأحداث ومن الناس، فالأحداث متتالية متتابعة والناس لا تسمع ولا تطيع فأخذت هذه من نفسه فراح يشرح لرسول الله ما جرى ويبثه الشكوى بحرارة.. ويستمع الرسول وهو لا شك متأثر حزين فيقول له: ادع عليهم.

فينطلق لسان الإمام من عذاباته وجراحاته وعمق مأساته فلا يجد إلا هذا الدعاء يطلب فيه أن يبدله الله أصحاباً خيراً من أصحابه الذين عصوه وتمردوا على رأيه وعاندوه ورفضوا كل عروضه التي فيها عزتهم وكرامتهم ومقامهم الرفيع كما دعا عليهم أن يبدلهم شراً منه وهو لا شر فيه ولكن بنظرهم أنه يوردهم موارد الحرب والقتال وهم لا يريدون ذلك وقد استجاب الله دعاءه فأبدله منهم مرافقة النبي محمد وآله والشهداء والصالحين كما أبدلهم به ولاة ظلمة مارسوا عليهم أبشع صور الاضطهاد والقهر فكان معاوية الطاغية وحكام بني أمية وأزلامهم من الحجاج وابن زياد والمغيرة بن شعبة فأذاقوهم المرارات وأكلوا لحومهم وهم أحياء..

٧١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في ذم أهل العراق

وفيها يوبخهم على ترك القتال والنصر يكاد يتم، ثم تكذيبهم له

أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَٱلْمَرْأَةِ ٱلْحَامِلِ[١]، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ[٢] أَمْلَصَتْ[٣] وَمَاتَ قَيِّمُهَا[٤]، وَطَالَ[٥] تَأَيُّمُهَا[٦]، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا. أَمَا وَٱللّٰهِ مَا أَتَيْتُكُمُ ٱخْتِيَاراً؛ وَلٰكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً[٧]. وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عَلِيٌّ يَكْذِبُ، قَاتَلَكُمُ ٱللّٰهُ تَعَالَىٰ! فَعَلَىٰ مَنْ أَكْذِبُ؟ أَعَلَىٰ ٱللّٰهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ! أَمْ عَلَىٰ نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! كَلَّا وَٱللّٰهِ، لٰكِنَّهَا لَهْجَةٌ[٨] غِبْتُمْ عَنْهَا، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، وَيْلُ أُمِّهِ[٩] كَيْلاً[١٠] بِغَيْرِ ثَمَنٍ! لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ[١]. «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ».

اللغة

١ ـ **الحامل** : الحبلى والحمل بتسكين الميم ما في البطن من ولد.

٢ ـ **أتمت** : أكملت.

٣ ـ **أملصت** : المرأة ألقت ولدها سقاطاً.

٤ ـ **القيم** : المتولي على الشيء وقيّم المرأة زوجها.

٥ ـ **طال** : نقيض قصر، امتد واستمر.

٦ ـ **التأيم** : من لا زوج له امرأة أم رجلاً.

٧ ـ **السوق** : الاضطرار.

٨ ـ **اللهجة** : اللسان، الكلام.

٩ ـ **ويل أمه** : في الأصل كلمة دعاء عليه ولكن تستعمل في مقام المدح أو استعظام الأمر.

١٠ ـ الكيل : آلة يكال بها مقابلة للموازين.
١١ ـ الوعاء : ما يجمع فيه الشيء ويحفظ.

الشرح

(أما بعد يا أهل العراق فإنّما أنتم كالمرأة الحامل حملت فلما أتمت أملصت ومات قيّمها وطال تأيمها وورثها أبعدها) في صفين لاح النصر للإمام بل لم يبق بينه وبين الوصول إليه مقدار عدو الفرس حتى وصل الأمر بمعاوية أن وضع رجله في ركاب فرسه وهّم بالفرار في تلك الأثناء ترفع المصاحف ويدعو أهل الشام بخدعة عمرو بن العاص أنهم يحتكمون إليها وعرف الإمام وبعض أصحابه ذلك ولكن كثيراً من جنده لم يقف على الخدعة فاستجاب للنداء وأجبر الإمام على التحكيم وقد خطب الإمام فيهم ونبههم إلى ذلك ولكنهم لم يسمعوا له ولم يطيعوا له أمراً فعزّ عليه أن يفوت النصر منه وبقيت غصة في حلقه يرددها لأهل العراق ويبّين حالهم وما هم عليه من الخسارة وما أصابهم من الهزيمة جراء مخالفة أمره. . .

وقد شبههم هنا بالمرأة الحامل التي فرحت بحملها واستبشرت به فلما اتمت أشهر الحمل وأشرفت على الوضع أسقطت مولودها ميتاً بضربة أو لطمة أو حادثة فانقلب ذلك الفرح إلى حزن وألم ثم مات بعلها الذي كان يتولى شؤونها وكفالتها فازداد حزنها وهمها وكبرت مصيبتها وبقيت هكذا بدون خاطب حتى ماتت فورثها البعيد عنها الذي لا صلة له قريبة معها وهكذا كان فقد أشبهوا المرأة الحامل بأنهم كانوا على أتم الاستعداد وعلى أكمل عدة وأشبهوا إتمام حملها بمشارفتهم للنصر واقتطاف ثمرته وأشبهوا إملاصها بتراجعهم عن القتال وقبول التحكيم، وذلك رجوع غير معقول وليس طبيعياً كما إن الاسقاط غير طبيعي من المرأة ثم شبّه عصيانهم له بموت قيم المرأة فكما أنها تفقد الراعي والقائم بالشؤون كذلك هو قد فقد ذلك بعصيانهم له وأخيراً أشبهوا المرأة التي فقدت الولد والزوج وورثها عند موتها البعيد كذلك هم فقد ملكهم من هو بعيد عنهم ومن لا يستحق الخلافة أبداً ولا تحل له بوجه فقد حرم النبي الخلافة على الطلقاء وقال: لا تحل الخلافة لطليق ومعاوية واحد منهم. . .

(أما والله ما أتيتكم اختياراً ولكن جئت إليكم سوقاً) لم يأت الإمام إلى العراق ولم ينزل بأرضها اختياراً فقد عاش في المدينة المنورة وإلى جوار قبر الرسول طيلة حياته ولم يغادرها إلا عندما خرج لقتال أهل الجمل ومعاوية فاتخذ الكوفة مقراً لحكمه لقربها من

معاوية ولأن بها من أنصاره كثرة. . لقد جاءت به الأقدار وأحكام الاضطرار وقد ساق لهم ذلك ليبيّن لهم كراهته للقيام بينهم وعدم محبته لهم . . .

(ولقد بلغني أنكم تقولون: علي يكذب قاتلكم الله تعالى فعلي من أكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أول من آمن به! أم على نبيه؟ فأنا أول من صدقه كلا والله) خُلق علي لغير زمانه وبدل أن يختلفوا إليه اختلفوا فيه، لم يعرفه أقرب الناس إليه حق معرفته، ضل فيه أناس فعبدوه لما وجدوا منه ما يعجز البشر ويفوق طاقتهم وقد كفره آخرون وكذبوه لأن عقولهم لم تقدر على استيعاب ما يعمل ويقول وبين هذا وذاك بقي علي مجهول القدر وإلى يومنا هذا لم يعط حقه ولم يدرك قعره ولم تعرفه الأمة أو تقف على كنهه. . .

كان الإمام قد تلقى العلم عن النبي (ص) وقد وقف منه على ما كان وما يكون وما يجري عليه وعلى الأمة وما سيجري من أحداث وقضايا فكان يخبر بها أصحابه وأتباعه فتنطلق الأفواه الكاذبة المكذبة لترميه بما هو بريء منه وبعيد عنه. . رموه بالكذب ووصلت أنباء تكذيبه إليه فكانت هذه الكلمات بما تحوي من مرارة وبيّن كذب مقالتهم وبطلانها. . .

أبعدكم الله عن رحمته لأنكم لم تحفظوا حق الله في عبده حيث كذبتموني بدون حجة.

وبيّن هل يكذب على ألله فهو أول من آمن بالله ومن كان السابق إلى الإيمان لا ينقض إيمانه ويبطله. . ؟ أم على رسول الله وهو أول من صدق وآمن به رسولاً ونبياً فلن يكون مكذباً له أو كاذباً عليه إذن كلا لم تصدق دعواكم إني أكذب فيما أخبر وأقسم بالله على بطلانها وبطلان ما يدعون عليه من أنه يكذب تأكيداً لقوله.

(لكنها لهجة غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها ويل أمه كيلاً بغير ثمن لو كان له وعاء ولتعلمن نبأه بعد حين) أوضح سبب تكذيبهم له بأنهم لم يفهموا ما يقول لأن عقولهم لا تدرك ما يخبر به ولم تقف على تحليله ومعرفته لنقصانها وقصورها. . أو أن ما وصل إليه عن النبي كانوا في غياب عنه ولم يكونوا من أهله ومن أهل معرفته. . .

ثم قال لذلك المكذب ويل أمه وهو تعجب منه أو دعاء عليه فليأخذ ما أعطيه فإنه بغير ثمن وليستمع لما أقول فإنه ليس في مقابله شيء إنني ألقيه فليستمع إليه ولينصت ولكن من أين آتي بالقلوب القابلة المستجيبة التي تسمع وتعي ما أقول.

وسيأتي بعد مدة أنباء ما أخبركم به بعد رحيلي عنكم واستيلاء معاوية على الحكم فإنكم ستبتلون بأشد المحن وأقسى العذاب. . .

٧٢ ـ ومن خطبة له عليه السلام

علم فيها الناس الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله
وفيها بيان صفات الله سبحانه وصفة النبي والدعاء له

صفات الله

اللَّهُمَّ دَاحِيَ[١] ٱلْمَدْحُوَّاتِ[٢]، وَدَاعِمَ[٣] ٱلْمَسْمُوكَاتِ[٤]، وَجَابِلَ[٥] ٱلْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا[٦]: شَقِيِّهَا وَسَعِيدِهَا.

صفة النبي

ٱجْعَلْ شَرَائِفَ[٧] صَلَوَاتِكَ، ونَوَامِيَ[٨] بَرَكَاتِك، عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ ٱلْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ[٩]، وَٱلْفَاتِحِ لِمَا ٱنْغَلَقَ[١٠]، وَٱلْمُعْلِنِ[١١] ٱلْحَقَّ بِٱلْحَقِّ، وَالدافِعِ جيْشَاتِ[١٢] ٱلأَبَاطِيلِ[١٣]، وٱلدَّامِغِ[١٤] صَوْلَاتِ[١٥] ٱلأَضَالِيلِ[١٦]، كمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ[١٧]، قَائِماً بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزاً[١٨] فِي مَرْضَاتِكَ، غَيْرَ نَاكِلٍ[١٩] عَنْ قُدُمٍ[٢٠]، وَلَا وَاهٍ[٢١] فِي عَزْمٍ، وَاعِياً لِوَحْيِكَ[٢٢]، حَافِظاً لِعَهْدِكَ، مَاضِياً عَلَىٰ نَفَاذِ أَمْرِك؛ حَتَّىٰ أَوْرَىٰ[٢٣] قبسَ ٱلْقَابِسِ[٢٤]، وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلخَابِطِ[٢٥]، وَهُدِيَتْ بِهِ ٱلْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ[٢٦] ٱلْفِتَنِ[٢٧] وَٱلآثَامِ[٢٨]، وَأَقَامَ بِمُوضِحَاتِ[٢٩] ٱلأَعْلَامِ[٣٠]، ونَيِّرَاتِ[٣١] ٱلأَحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ ٱلْمأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ ٱلْمخزُونِ[٣٢]، وَشَهِيدُكَ[٣٣] يَوْمَ الدِّينِ[٣٤]، وَبَعِيثُكَ[٣٥]، بِٱلْحَقِّ، ورَسُولُكَ إِلَىٰ ٱلْخلْقِ.

الدعـاء للنبي

ٱللَّهُـمَّ ٱفْسـحْ(٣٦) لَهُ مَفْسحاً فِي ظِلِّكَ(٣٧)؛ وَٱجْزِهِ(٣٨) مُضَاعَفَاتِ ٱلْخَيْرِ(٣٩) مِنْ فَضْلِكَ. ٱللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَىٰ بِنَاءِ ٱلْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وأَكْرِمْ لَدَيكَ مَنْزِلَتَهُ، وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ، وَٱجْزِهِ(٤٠) مِنِ ٱبْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ ٱلشَّهَادَةِ، مَرْضِيَّ ٱلْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وَخُطْبَةٍ فَصْلٍ. ٱللَّهُمَّ ٱجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ ٱلْعَيْشِ(٤١) وقَـرارِ النِّعْمَـةِ(٤٢)، ومُنَـىٰ الشَّهَـوَاتِ(٤٣)، وَأَهْـوَاءِ اللَّـذَّاتِ، وَرَخَاءِ(٤٤) الَّدعَةِ(٤٥)، وَمُنْتَهى الطُّمأْنِينَةِ، وَتُحَفِ(٤٦) ٱلْكَرَامَةِ.

اللغة

١ ـ داحي	:	باسط.
٢ ـ المدحوات	:	المبسوطات وهي الأرضون.
٣ ـ داعم	:	حافظ الشيء بالدعامة وهي ما يستند به فيمنع المسند من الوقوع.
٤ ـ المسموكات	:	هي السماوات والمسموك هو المرفوع.
٥ ـ الجابل	:	الخالق وجبلة الإنسان خلقته.
٦ ـ الفطرة	:	الخلقة التي يولد عليها الإنسان قبل أن تتلاعب به الأهواء والآراء.
٧ ـ الشرائف	:	جمع شريفة.
٨ ـ نوامي	:	زوائد.
٩ ـ الخاتم لما سبق	:	الختم الطبع والأقفال وما سبق هم الأنبياء.
١٠ ـ انغلق	:	من الغلق وهو الإقفال.
١١ ـ المعلن	:	المظهر.
١٢ ـ جيشات	:	جمع جيشة من جاشت القدر إذا ارتفع غليانها.
١٣ ـ الأباطيل	:	جمع باطل إذا فسد وسقط حكمه.
١٤ ـ الدامغ	:	من دمغه إذا شجّه حتى بلغت الشجة الدماغ.
١٥ ـ صولات	:	جمع صولة وهي السطوة.
١٦ ـ الأضاليل	:	جمع ضلال وهو الانحراف.
١٧ ـ اضطلع	:	بالأمر نهض به قوياً والضلاعة القوة.

١٨ ـ **مستوفزاً** : مسرعاً.
١٩ ـ **ناكل** : ناكص، متأخر.
٢٠ ـ **القُدُم** : المشي إلى الحرب.
٢١ ـ **الواهي** : الضعيف.
٢٢ ـ **واعياً لوحيك** : فاهماً وحافظاً.
٢٣ ـ **أورى** : ورى الزند إذا أخرج ناره.
٢٤ ـ **والقبس** : شعلة من النار والقابس هو الذي يطلب النار.
٢٥ ـ **الخابط** : الذي يسير ليلاً على غير جادة واضحة.
٢٦ ـ **خوضات** : جمع خوضة وهي المرة الواحدة وخضت الماء دخلت فيه.
٢٧ ـ **الفتن** : مفردها فتنة وهي الضلال والكفر.
٢٨ ـ **الآثام** : المعاصي.
٢٩ ـ **الموضحات** : جمع موضحة وهي التي توضح الأمور وتكشفها.
٣٠ ـ **الأعلام** : جمع علم وهو ما يستدل به على الطريق كالمنار ونحوها.
٣١ ـ **نيرات** : ذوات النور.
٣٢ ـ **المخزون** : المحفوظ.
٣٣ ـ **شهيدك** : شاهدك.
٣٤ ـ **يوم الدين** : يوم الجزاء والحساب.
٣٥ ـ **بعيثك** : مبعوثك فعيل بمعنى مفعول.
٣٦ ـ **أفسح له** : وسع له.
٣٧ ـ **أظل الله** : بره وخيره وعطاياه.
٣٨ ـ **أجزه** : من الجزاء وهو الأجر والمكافأة.
٣٩ ـ **مضاعفات الخير** : أطواره ودرجاته.
٤٠ ـ **المقالة** : الكلام، والحجة.
٤١ ـ **برد العيش** : لا نزاع فيه ولا خصام.
٤٢ ـ **قرار النعمة** : مستقرها.
٤٣ ـ **منى الشهوات** : ما تتعلق به الأماني من الشهوات.
٤٤ ـ **الرخاء** : سعة الحال.
٤٥ ـ **الدعة** : السكون والطمأنينة.
٤٦ ـ **التحف** : جمع تحفة ما يكرم به الإنسان من البر واللطف.

الشرح

(اللهم داحي المدحوات وداعم المسموكات وجابل القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها) في هذه الخطبة تمجيد لله وبيان لعظيم قدرته وهذه مقدمة يدخل منها الإمام إلى الدعاء للنبي وبأنواع الأدعية التي يتصورها له.

دعاء لله بصيغة اللهم وذكر بعض صفاته العظيمة التي فيها آيات لأولي الألباب إنه سبحانه باسط الأرضين لتستقر عليها الأحياء والحياة وبسطها باعتبار ما يتراءى للناظر قال تعالى: **والله جعل لكم الأرض بساطاً**.. ورافع السماوات بدعائم قدرته وما خلقه من الجاذبية وخالق القلوب الشقية والسعيدة ومعطيها الاستعداد لكل منهما وتارك الاختيار لها لتتحمل المسؤولية عن الهدى وعن الضلال كما قال تعالى: **﴿وهديناه النجدين﴾** طريق الخير وطريق الشر وقد بيّن الله كل طريق وأظهر معالمه وأبان حدوده ورسم صورته ودعى الناس إلى طريق الخير وأظهر لهم محاسنه وعواقبه ونتائجه كما بين طريق الشر وأظهر معايبه وعواقبه ومخازيه...

(اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك على محمد عبدك ورسولك) بعد أن دعى الله بهذه الصفات الخاصة به ذكر المدعو له وهو النبي وسأله سبحانه أن يجعل أشرف رحماته وأعظمها وأكثرها عليه...

ثم وصف النبي بهذه الأوصاف الكريمة التي يستحق بها هذا التفضيل وهذه البركات والرحمات وهي كونه عبد الله والعبودية لله صفة مدح كريمة وصف بها الله نبيه حيث قال: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى...» وهي من منظور إسلامي تعني التحرر من كل العبوديات الأخرى، من كان عبداً لله يتحرر من عبودية المادة والحكم والسلطان والمال والشهوة وكل الدنيا وما فيها وبذلك يقترب من الله ويكون معه في كل حركاته وسكناته ويتحول نظره إلى إرادة الله وحكمه ولا يخرج عن أمره ونهيه فيرفض الآلهة البشرية والوثنية المادية والمعنوية...

ووصفه أيضاً بأنه رسول الله وهذه مرتبة لم يبلغها إلا من طابت طينته وطهر عنصره ونقى قلبه فعرف الله منه ذلك فأفاض عليه بركاته واختصه برسالته يؤدي للناس عنه خطابه ويبلغهم مراده.. قال تعالى: **﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم...﴾**.

(الخاتم لما سبق والفاتح لما انغلق) فقد كان هناك أنبياء، قافلة ابتدأت بأبينا آدم

واستوعبت ابراهيم ونوح ولوط وشعيب وغيرهم من الأنبياء كموسى وعيسى ولكن هذه القافلة المباركة خُتمت بمحمد فلا رسول ولا نبي إلى البشرية بعده. . إنه اللبنة الأخيرة في بناء الأنبياء ورسالته الإسلامية هي الأطروحة الأخيرة التي تستوعب الحياة فتخطط لمسيرة هذا الإنسان قبل مولده وإلى ما بعد الموت وعلى أساسها تحلُ كل مشاكل الحياة وما يعترض سبيل هذا الإنسان. . .

ففي حين كان الأنبياء قبله يأتون من قبل الله بوصفات تعالج أمراض أممهم المؤقتة جاءت رسالة الإسلام لتعالج أمراض الأحياء على امتداد الحياة ما كان منها وما سيكون وإلى آخر الدنيا. . .

وكذلك رسول الله هو الذي فتح أبواب الهدى بعد أن أغلقتها الجاهلية بغبائها وظلمها وهو الذي فتح أبواب الجنة بعد أن كانت الجاهلية قد أغلقتها بشركها وإلحادها وكفرها. . .

(والمعلن الحق بالحق، والدافع جيشات الأباطيل والدامغ صولات الأضاليل) وهذه من صفات رسول الله أنه أظهر الحق وهو الإسلام بالبراهين والبينات المحقة الصادقة التي لا التواء فيها ولا تزوير وقيل أظهر الحق بالحرب المشروعة وهي أيضاً تدخل تحت الأولى لأنها إحدى الأدلة التي لا يفهم بعض الناس إلا لغتها فتكون حقاً ضرورياً. . .

وكذلك دفع ثوران الأباطيل حيث كان الناس في الجاهلية يعيشون حالة كبيرة من الانحرافات سواء كان على المستوى الفكري أم على المستوى الاجتماعي فهناك الاسفاف في الفكر من عبادة غير الله والتوجه إلى الأصنام والأوثان كما إن هناك الغارات والحروب والاعتداء والظلم. . .

فعندما جاء النبي دفع هذه الأباطيل وقضى عليها بإعادة الفكر إلى مقامه وبتشريع الإسلام في كل مجالات الحياة. . .

وكذلك قد أهلك المتوثبين إلى الانحراف فبعثته الشريفة كانت إذاناً بإعدام الباطل وزواله من الوجود. . .

(كما حمل فاضطلع) فقد حملّـه الرسالة فحملها وكان قوياً قادراً على ذلك فصل عليه على مقدار ما يناسب هذه القوة في حملها. . .

(قائماً بأمرك مستوفزاً في مرضاتك) حاملاً رسالتك مع ما فيها من التكليف

والمشقة إذ هي أداة التغيير ووسيلة الصياغة للإنسان من جديد.

مستعجلاً في القيام بكل ما يرضيك من فعل الواجبات وترك المحرمات والقيام في هداية الناس وإرشادهم وقد كان النبي يحوص أشد الحرص في الدعوة إلى الله ومن أجل هداية الناس. . .

(غير ناكل عن قدم) لم يتأخر عما يجب أن يتقدم نحوه من جهاد وتبليغ وإرشاد فقد كان أشجع البرية وأشدها جرأة وإقداماً وكيف لا يكون كذلك وقد واجه العرب بل العالم كله وحيداً منفرداً. . .

(ولا واه في عزم) فما يعتقده كان قوياً فيه لا يضعف عنه ولا يتردد فيما أخذه فيه من قرار. . .

(واعياً لوحيك) حافظاً وفاهماً لما أوحيت به إليه والرسول هو المبيّن للمبهمات، المفصّل للمجملات وقد فسر للمسلمين كتاب الله وبيّن لهم أحكامه وأوضح لهم ما ورد فيه. . .

(حافظاً لعهدك) وقد أخذ الله على الأنبياء حمل الرسالة وأداء الأمانة وقد قام النبي بذلك فحملها وبلغها للناس ولم يترك شاردة أو واردة، صغيرة أو كبيرة إلا وقد أبلغها لهم حتى قال: ما من شيء يقربكم من الجنة إلا وقد أمرتكم به وما من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد نهيتكم عنه. . .

(ماضياً على نفاذ أمرك) مجداً مجتهداً في سبيل تحقيق ما أمرت وإدراك ما طلبت وقد كان يتعب نفسه ويجهدها ويحملها على كل صعب وعسير من أجل حمل الناس على الإيمان والالتزام وطاعة الرحمن.

(حتى أورى قبس القابس) من كان يطلب الهداية ويبحث عنها فقد هداه وفتح أمامه أبواب النجاة، لقد حرك العقول من مكامنها وبيّن لها طريق رشدها، لقد فجر العلوم وحرك العواطف والنفوس فأخذت تعرف طريق الحق وتقتبس من علوم محمد وأنواره ما يضيء لها الطريق ويوصلها إلى جنة النعيم. . .

(وأضاء الطريق للخابط) فقد كان هناك من يطلب الحق ويبحث عنه وينشده ولكن كانوا لا يعرفون الطريق إليه أو كيفية الوصول فجاء الرسول صلوات الله عليه وعلى آله فبيّن الحق وأوضح الطريق ودل الناس على كل نافع ومفيد، لقد أضاء ببيانه وكلامه الطريق الموصل إلى الجنة. . .

(وهديت به القلوب بعد خوضات الفتن والآثام) بعد أن عاش الناس في اضطراب اجتماعي وثارت فيهم الفتن وانتشرت المعاصي وكانوا يتقلبون في الحرام ويعيشون الحرام ولا يتورعون عن الحرام بعد هذا جاء النبي فهداهم إلى الحق وردهم إلى العدل ووجههم للإيمان بالله والعمل بأمره والبعد عن معصيته ونهيه. . . .

(وأقام بموضحات الاعلام ونيرات الأحكام) بيّن الحجج الواضحة التي تقود إلى الحق وتأخذ بيد الناس إلى شاطىء السلامة كما أظهر الأحكام الشرعية والقوانين الإلهية التي ظهر حسنها وبان فضلها وعرف العالم فوائدها ونفعها. . .

(فهو أمينك المأمون) محمد هو الأمين قبل نبوته حتى أطلق عليه قومه ذلك وهو الأمين المأمون الذي لا يخون ـ بزيادة أو نقيصة ـ على وحي الله وحكمه بعد بعثته. . .

(وخازن علمك المخزون) فعند محمد من علم الله وأسراره ما ليس عند أحد من البشر لا نبي مرسل ولا ملك مقرب. . .

(وشهيدك يوم الدين) هو الذي يشهد يوم القيامة للمطيعين كما يشهد على العاصين، ويشهد أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة. .

(وبعيثك بالحق) مبعوثك الذي أرسلته بالدين الحق الذي لا باطل فيه ومن كان معه الحق وجب متابعته والتزام أمره.

(ورسولك إلى الخلق) أرسله الله إلى الناس ليعملوا بأمره ويؤدوا ما وجب عليهم بحكمه. . .

(اللهم أفسح لهم مفسحاً في ظلك) أراد عليه السلام أن يختم خطبته بما هو مطلوب من الدعاء وقد طلب للنبي هذه الخيرات والبركات أن يوسع له من رحمته وإحسانه فإن الظل كناية عن الرحمة والعطايا والنعمة. . .

(وأجزه مضاعفات الخير من فضلك) أعطه يا رب على ما كان من الخيرات على يديه أضعافاً مضاعفة من فضلك لأن كل ما نحن فيه ببركاته وكرمه. . .

(اللهم واعلِ على بناء البانين بناءه) اللهم إرفع منزلته فوق كل منازل الأنبياء واجعل دينه ظاهراً على الأديان كلها فإن كل ما بناه الأنبياء مؤقت وأما ما بناه النبي ونشره من الإسلام فهو الباقي ببقاء الدنيا. . .

(واكرم لديك منزلته) إجعله قريباً منك في ظلال رحمتك، في أكرم المنازل وأفضلها.

(وأتمم له نوره) أما في الدنيا فأن يظهر دينه على الأديان كلها حتى لا يبقى إلا المسلم الموحد الذي يرفع شعار الإيمان بالله وبمحمد وأما في الآخرة فأن يجعل له النور الكاشف الذي يسير بنوره المؤمنون. . .

(واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة) دعاء لله أن يعطي النبي أجر ما كان من بعثته وجهاده وأتعابه أن يعطيه قبول الشهادة على من أراد خلاصه من النار وقبول الشهادة على كل أمر أراده.

(مرضي المقالة) وأن يرضى الله قوله والرسول لا يقول إلا الحق وإلا ما يرضي الله.

(ذا منطق عدل وخطبة فصل) حال كون كلامه عدل لا ظلم فيه، وفيه الفصل بين الحق والباطل وهذه كلها طلبات لزيادة شرفه ومقامه وهو صلى الله عليه وآله كذلك ولكن واجب الدعاء والوفاء وتحصيل الأجر يقتضي هذا المقال. . .

(اللهم أجمع بيننا وبينه في برد العيش وقرار النعمة ومنى الشهوات وأهواء اللذات) سأل الله أخيراً أن يجمع بينه وبين الرسول في هذه الأمور الطيبة المطلوبة والأشياء المحبوبة المرغوبة سأل الله أن يجمع بينه وبين الرسول في برد العيش وهي الجنة ونعيمها التي لا تعب فيها ولا نصب وبرد العيش عند العرب أي الحالة التي لا حرب فيها ولا نزاع. . .

وأن يكون والرسول في قرار النعمة وهي النعمة المستقرة التي لا تزول وهي الجنة ونعيمها.

(ومنى الشهوات وأهواء اللذات) ما تتمناه شهوات الإنسان وترغب فيه وتهواه وتحبه من الملذات من حور وقصور وبناء دور. . .

(ورخاء الدعة ومنتهى الطمأنينة وتحف الكرامة) أن يكون هناك في سكون وهدوء ناعم واسع واطمئنان في غاية الاطمئنان حيث السلامة من كل آفة وعاهة وعيب مع الاكرام بنفائس الكرامة في دار المقامة. . . حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. .

٧٣ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله لمروان بن الحكم بالبصرة

قالوا: أُخِذَ مروان بن الحكم أَسيراً يوم الجمل، فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أَمير المؤمنين عليه السلام، فكلماه فيه، فخلى سبيله، فقالا له: يبايعك يا أَمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام:

أَوَ لَمْ يُبَايِعْنِي[١] بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ؟ لاَ حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ! إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ[٢]، لَوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَغَدَرَ[٣] بِسُبَّتِهِ[٤]. أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً[٥] كَلَعْقَةِ[٦] ٱلْكَلْبِ أَنْفَهُ، وَهُوَ أَبُو ٱلأَكْبُشِ[٧] ٱلأَرْبَعَةِ، وَسَتَلْقَىٰ ٱلأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ!.

اللغة

١ ـ **البيعة** : عهد تعطيه الرعية بمتابعة الراعي ونصرته.
٢ ـ **كف يهودية** : غادرة.
٣ ـ **غدر** : لم يفِ.
٤ ـ **السبة** : الإست.
٥ ـ **الإمرة** : الولاية.
٦ ـ **اللعقة** : اللحسة.
٧ ـ **الأكبش** : مفرده كبش وهو الرئيس وفي الحيوان الحمل إذا أثنى وقيل إذا أربع.

الشرح

الحكم بن أبي العاص والد مروان كان من أشد أعداء النبي (ص) لعنه الرسول ثم غرّبه إلى الطائف وقال: لا يساكنني وولده وبقي هناك طيلة خلافة أبي بكر وعمر فلما

ولي عثمان ردهم وأكرمهم عصياناً لرسول الله ومخالفة لعمل الخلفاء قبله ولم يكتف بذلك بل قرّب مروان وجعله وزيره ومستشاره وموضع سره فأخذ يقوده كما أراد ويوجهه حيث شاء حتى أضحى مروان هو الخليفة ولكن في ثوب عثمان وقد كانت أحداث وقضايا كان مروان قطب رحى فتنتها حتى قضى على عثمان ولما قُتل هرب مروان مع أنهم كانوا يحرصون على قتله ويؤكدون على تسلمه للاقتصاص منه ولما كانت معركة الجمل كان مع عائشة يقود الجمل الملعون ووقع أسيراً فأُخذ إلى أمير المؤمنين فكانت هذه الكلمة الصادقة في حق مروان الحاكية لواقعه. . .

(أو لم يبايعني بعد قتل عثمان؟) نعم لقد بايع ولكنه عاد فنكث البيعة وغدر ثم قام مع الناكثين بمحاربته.

(لا حاجة لي في بيعته) تصغيراً له وتقليلاً لأهمية بيعته وإنها كعدمها لا تزيد قوة ولا تعطي دعماً وقد بيّن أسباب عدم الحاجة إلى بيعته أيضاً بقوله. . .

(إنها كف يهودية) أي غادرة لا تفي ببيعة ولا تلتزم بعهد والغدر من صفات اليهود على امتداد التاريخ وفي كل زمان ومكان وعلى كل المستويات. . .

(لو بايعني بكفه لغدر بسبته) وهذا كناية عن أنه سيغدر سراً ويكيد ولو بموضع عورته وما لا يجوز في عرف الناس أن يسلكوه. . .

(أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر) وهذا أخبار منه عن أمر مجهول في زمانه صدقه الواقع بعد ذلك ويتضمن أموراً وهي:

١ ـ إن مروان سيتولى الأمور ولكن مدة إمارته لقصرها وتفاهتها وقلتها عبّر عنها بلعقة الكلب أنفه فإن الكلب إذا لحس أنفه فعلى العادة لا يستفيد منها شيئاً ثم لقربه عبر بقلة المدة.

وقد صدق الإمام فيما أخبر فقد حكم مروان بعد معاوية بن يزيد وقالوا إن مدة خلافته تسعة أشهر على أكثر التقادير وإن ذهب بعضهم إلى أنها أربعة أشهر.

٢ ـ أخبر أنه والد الأكبش وهم الرؤساء والحكام الأربعة وقالوا أنهم أولاد ابنه عبد الملك وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام ولم يل الخلافة من بني أمية ولا من غيرهم أربعة إخوة إلا هؤلاء وقال ابن أبي الحديد بعد ذكر ما تقدم وعدم رضاه به «وعندي أنه يجوز أن يعني به بني مروان لصلبه وهم: عبد الملك وعبد العزيز وبشر ومحمد وكانوا

كباشاً أبطالاً أنجاداً أما عبد الملك فقد ولي الخلافة وأما بشر فولي العراق وأما محمد فولي الجزيرة وأما عبد العزيز فولي مصر وعلى كل حال سواء كان الأول هو الصحيح أو الثاني فلعن الله مروان وأبناءه ووالد وما ولد فإنهم أسوأ من جاء إلى الحكم وأشدهم ضرراً على الإسلام. . .

٣ ـ أخبر عليه السلام بما سيجري على أيديهم من سفك الدماء وما سيصيب الأمة منهم من بلاء وفتنة وقتل وتشريد ومن رجع إلى تاريخهم الأسود وقف على المخازي والمآسي وما نال الأمة من البلاء والعناء. .

ترجمة الحكم بن أبي العاص:

الحكم بن أبي العاص وهو عم عثمان بن عفان كان من مسلمة الفتح ومن المؤلفة قلوبهم كان[1] خصّاء يخصي الغنم، كان جاراً للنبي بمكة ومن أولئك الأشداء عليه المبالغين في إيذائه شاكلة أبي لهب كما قال ابن هشام في سيرته.

غرّبه النبي عن المدينة إلى الطائف وقال: لا يساكنني ولا ولده. . .

واختلف في سبب نفيه وتغريبه كما ينقل ذلك الرواة فقد قالوا أنه كان يتحيل ويستخفى ويسمع ما يسره النبي إلى أكابر الصحابة في مشركي قريش والمنافقين ويفشي ذلك عنه حتى ظهر ذلك عنه.

وقيل كان يتجسس على رسول الله (ص) وهو عند نسائه ويسترق السمع ويصغي إلى ما لا يجوز.

وقيل كان يحكي النبي في مشيته وقد رآه مرة يحكيه كذلك فقال له: كذلك فلتكن يا حكم فكان مختلجاً يرتعش من يومئذٍ. .

وقد لعنه رسول الله وروى عن عائشة أنها قالت لمروان «فاشهد أن رسول[2] الله صلى الله عليه وآله لعن أباك وأنت في صلبه».

وقال البلاذري في الأنساب:

إن الحكم بن أبي العاص كان جاراً لرسول الله في الجاهلية وكان أشد جيرانه أذى

(١) حياة الحيوان للدميري ج ١ ص ١٩٤ نقلاً عن الغدير.
(٢) ابن أبي الحديد ج ٦ ص ١٥٠.

له في الإسلام وكان قدومه المدينة بعد فتح مكة وكان مغموصاً عليه في دينه فكان يمر خلف رسول الله فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه وإذا صلى قام خلفه فأشار بأصابعه فبقى على تخليجه وأصابته خبلة واطلع على رسول الله ذات يوم وهو في بعض حجر نسائه فعرفه وخرج إليه بعنزة (عصا) وقال: مَنْ عذيري من هذا الوزغة اللعين ثم قال: لا يساكنني ولا ولده فغربهم جميعاً إلى الطائف فلما قُبض رسول الله كلّم عثمان أبا بكر فيهم وسأله ردهم فأبى ذلك وقال: ما كنت لآوي طرداء رسول الله (ص) ثم لما استُخلف عمر كلمّه فيهم فقال مثل قول أبي بكر» انتهى. .

فلما استخلف عثمان أدخلهم المدينة وقد دخلها الحكم وهو يلبس فزر خلق ويسوق تيساً والناس ينظرون إليه وإلى سوء حاله وحال من معه حتى دخل دار الخلافة ثم خرج وعليه جبة خز وطيلسان. . .

وقد كان رده أحد الأسباب التي أوجبت النقمة على عثمان كما أن إعطاؤه صدقات قضاعة التي بلغت ثلاثماية ألف درهم وهبة من الأسباب التي أوجبت نقمة الناس على عثمان.

توفي الحكم في خلافة عثمان قبل قتله بشهور.

ترجمة مروان بن الحكم:

مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان بن أمية الكناني يكنى أبا عبد الملك.

ولد على عهد رسول الله سنة اثنتين من الهجرة وقيل عام الخندق وقيل يوم أحد.

ونفي مع أبيه إلى الطائف وكان طفلاً لا يعقل ولم ير رسول الله فلم يزل بها حتى ولي عثمان فرده إلى المدينة فقدمها مع أبيه.

وكان مروان يدعى خيط باطل لأنه كان طويلاً مضطرباً تزوج أم أبان بنت الخليفة عثمان فكان صهره وابن عمه فاستولى عليه ووجهه كيف شاء.

مارس مروان الخلافة والحكم في عهد عثمان فكان هو الخليفة ولكن في ثوب عثمان وقد مارس الظلم والانحراف وقاد الخليفة عثمان إلى الخطيئة والمعصية والانحراف عن سنة النبي وسنة من تقدمه من الخلفاء وقد كانت الثورة تكاد تهدأ عندما يعطي عثمان من نفسه ويرجع فيعود مروان فيلويه عن رأيه ويحرفه عن قصده وبقي هكذا حتى قضى عليه. .

ثم هرب من وجه العدالة إلى مكة والتحق بأم المؤمنين عائشة وقاد جملها إلى البصرة حيث كان مع الناكثين في حرب الإمام وقد وقع أسيراً فعفى عنه الإمام وخلى سبيله فارتحل إلى معاوية وبقي هناك حتى تم الصلح بين الإمام الحسن ومعاوية وتولى الحكم فولى مروان المدينة ثم جمع له مكة والطائف. . .

وبعد فترة عزله وولى سعيد بن العاص فلما مات يزيد بن معاوية وتولى ابنه معاوية فلم يدم في الحكم إلا أربعين يوماً ومات فقالت له أمه أم خالد اجعل الخلافة من بعدك لأخيك فأبى وقال: لا يكون لي مرّها ولكم حلوها. . .

ثم إن مروان وثب على الخلافة وقد بايعه الأمويون وانتصر على الضحاك واستقر في الشام وقد كانت الخلافة بعده إلى خالد بن يزيد بن معاوية فلما استقر به الأمر أراد أن يبايع لولديه عبد الملك وعبد العزيز فاستشار في ذلك فأشير عليه أن يتزوج أم خالد بن يزيد ليصغر من شأنه فلا يرشّح للخلافة فتزوجها. .

ثم قال لخالد يوماً في كلام دار بينهما والمجلس غاص بأهله اسكت يا ابن الرطبة الإست.

فقال خالد: أنت لعمري مؤتمن وخبير.

ثم قام باكياً من مجلسه وكان غلاماً حينئذٍ فدخل على أمه فأخبرها.

فقالت له: لا يعرفن ذلك فيك واسكت فأنا أكفيك أمره فلما دخل عليها مروان قال لها: ما قال لك خالد. ؟

قالت: وما عساه يقول؟.

قال: لم يشكني إليك؟.

قالت: إن خالداً أشد اعظاماً لك من أن يشكيك فصدقها ثم مكثت أياماً فنام عندها وقد واعدت جواريها فقمن إليه فجعلن الوسائد والبراذع عليه وجلسن عليه حتى خنقنه وذلك بدمشق في رمضان وعاش في الخلافة تسعة أشهر وقيل عشرة.

٧٤ ـ ومن خطبة له عليه السلام

لما عزموا على بيعة عثمان

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي؛ وَوَٱللّٰهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ ٱلْمُسْلِمِينَ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ(١) إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، ٱلْتِمَاساً(٢) لِأَجْرِ ذٰلِكَ وفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ(٣) مِنْ زُخْرُفِهِ(٤) وَزِبْرِجِهِ(٥).

اللغة

١ ـ الجور : الظلم.
٢ ـ الالتماس : الطلب.
٣ ـ التنافس : الرغبة في الشيء على وجه المباراة.
٤ ـ الزخرف : أصل الزخرف هو الذهب ثم أطلق على كل مزور مموه.
٥ ـ الزبرج : الزينة.

الشرح

(لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلاّ عليّ خاصة التماساً لأجر ذلك وفضله وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه).

الوحدة قبل حق علي:

كان هذا الكلام منه عندما انعقدت الشورى العمرية لاختيار الخليفة بعده وقد التقى اعضاؤها وكان الأمر يدور بين علي وبين عثمان وكان عبد الرحمن هو عرّاب تلك

الجلسة ومديرها ومدبر شؤونها وقد كان هواه مع عثمان وقد بايعه بعد أن رفض الإمام الخلافة على شرط العمل بسيرة الشيخين. . .

تمت الصفقة ونجح عثمان في تولي الخلافة فوقف الإمام من هذه المبايعة موقف الرافض لها المندد بأصحابها وبيّن لهم مظلوميته وأنه أحق الناس بها من عثمان وغيره ممن ترشح لها فلما هددوه بأن يبايع وإلا قتلوه رأى من المصلحة أن يبايع فبايع كرهاً عنه وقال كلمته هذه. .

ومفادها ومضمونها أن هذه البيعة فيها ظلم عليه خاصة لأنها حقه وهو أولى الناس بها.

ولكن طالما أن الظلم يناله خاصة فإنه يقبل ويستسلم لإصابته طالما أن أمور المسلمين سالمة لم تصب بآفة أو حدث من تمزيق لوحدة الصف وبعثرة للشمل وإدخال الوهن والضعف على قوتهم. . .

وهكذا كانت نظرته صلوات الله عليه كان ينظر إلى وحدة المسلمين على أنها هدف مقدس لا يفرط فيه ولا يتنازل عنه ولذا كان موقفه من خلافة الخلفاء فمع بيان حقه واحتجاجه عليهم ومعارضته السياسية لهم كان لا يعلن حرباً ولا يسعى في فرقة بل كان يشير عليهم في كل أمر يقّوي الإسلام ويعزّزه في نظر الأعداء. . .

ثم بين أن تركه لطلبها والمنافسة فيها إنما يريد من ورائه الأجر والثواب لأنه تركه من أجل الله وفي سبيله وأيضاً بيّن أنه زهداً فيما يطلبونه ويتنازعون عليه من هذه الزينة المؤقتة التي لا تبقى ولا تدوم بل هي تغر الإنسان دون فائدة أو جدوى. . .

قال ابن أبي الحديد:

بعد أن بايع عبد الرحمن والحاضرون عثمان وتلكأ هو عليه السلام عن البيعة (قال): إن لنا حقاً أن نعطه نأخذه وأن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى في كلام قد ذكره أهل السيرة وقد أوردنا بعضه فيما تقدم ثم قال لهم:

أنشدكم الله أفيكم أحد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين نفسه حيث آخى بين بعض المسلمين وبعض غيري؟.

فقالوا: لا.

فقال: أفيكم أحد قال له رسول الله ﷺ «من كنت مولاه فهذا مولاه» غيري.

فقالوا: لا.

فقال: أفيكم أحد قال له رسول الله ﷺ «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» غيري.

قالوا: لا.

قال: أفيكم من أؤتمن على سورة براءة وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني غيري؟.

قالوا: لا.

قال: ألا تعلمون إن أصحاب رسول الله ﷺ فروا عنه في مأقط (موضع القتال) الحرب في غير موطن، وما فررت قط.

قالوا: بلى.

قال: ألا تعلمون أني أول الناس إسلاماً؟.

قالوا: بلى.

قال: فأينا أقرب إلى رسول الله ﷺ نسباً؟

قالوا: أنت.

فقطع عليه عبد الرحمن بن عوف كلامه وقال: يا علي قد أبى الناس إلا عثمان فلا تجعلن على نفسك سبيلاً.

ثم قال: يا أبا طلحة ما الذي أمرك به عمر.

قال: أن أقتل من شق عصا الجماعة.

فقال عبد الرحمن لعلي: بايع إذن وإلا كنت متبعاً غير سبيل المؤمنين وأنفذنا فيك ما أمرنا به فقال: «لقد علمتم أني أحق بها من غيري والله لأسلمن....» الفصل إلى آخر ثم مد يده فبايع...

٧٥ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما بلغه اتهام بني أمية له بالمشاركة في دم عثمان

أَوَ لَمْ يَنْهَ[١] بَنِي أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفِي[٢]؟ أَوَ مَا وَزَعَ[٣] ٱلْجُهَّالُ سَابِقَتِي[٤] عَنْ تُهَمَتِي! وَلَمَا وَعَظَهُمُ[٥] ٱللّٰهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي. أَنَا حَجِيجُ[٦] ٱلْمَارِقِينَ[٧]، وَخَصِيمُ[٨] النَّاكِثِينَ[٩] ٱلْمُرْتَابِينَ[١٠]، وَعَلَىٰ كِتَابِ ٱللّٰهِ تُعْرَضُ ٱلْأَمْثَالُ، وَبِمَا فِي الصُّدُورِ تُجَازَىٰ[١١] ٱلْعِبَادُ!.

اللغة

١ ـ لم ينه : لم يزجر أو يمنع.
٢ ـ قرفي : القرف: العيب والاتهام.
٣ ـ وزع : كف وردع.
٤ ـ سابقتي : فضيلتي وتقدمي.
٥ ـ وعظهم : من الوعظ وهو النصح وذكر ما يرق به القلب ويرجع إلى الله.
٦ ـ الحجيج : المحاج من حج فلان فلاناً إذا غلبه بالحجة.
٧ ـ المارقين : الخارجين من الدين.
٨ ـ الخصيم : المخاصم والمنازع والمجادل.
٩ ـ الناكثين : أصل النكث هو النقض وصار علماً على الخارجين على الإمام علي.
١٠ ـ المرتابين : المشككين.
١١ ـ تجازى : تكافأ.

الشرح

(أو لم ينه بني أمية علمها بي عن قرفي؟ أو ما وزع الجهال سابقتي عن تهمتي ولما وعظهم الله به أبلغ من لساني) كانت حجة الأمويين وعلى رأسهم معاوية في حرب صفين

دم عثمان، فقد أتهموا الإمام بأنه هو الذي قتله وأخذ معاوية والأسرة الأموية تغذي هذه الفكرة في عقول أهل الشام وراحت تنشر قميص عثمان وتلوح به أمام الجماهير الأموية وقد كان الإمام من أكثر الناس براءة من دم عثمان فقد نصحه ووعظه وأوقفه على المحجة الواضحة ودله على الطريق المستقيم ولكنه رفض نصيحة الإمام فأجهز عليه عمله وقتله الصحابة والمسلمون لما وجدوه لا يتناه عن منكر ولا يرتدع عن حرام. . .

والإمام لم يشارك في قتله وقد اتفقت كلمة المؤرخين بما فيهم مؤرخي السلطة الأموية ومن لا يحب الإمام ويريده كما أن التاريخ يشهد أنه كان ينصحه ويعظه فكان يعطيه من نفسه ويقبل معه ثم يفتله مروان عن رأيه ويصرفه عما أعطى حتى قتل. . .

وعندما قتل عثمان اتهمه بنو أمية ووصلت أنباء الاتهام إليه فقال هذه الكلمة الكريمة.

ومفادها أن بني أمية يعرفون مقامي وجهادي وما قاله النبي عني وهذا يكفي أن لا أتهم في دم عثمان، فقد استفهم تعجباً من جهلهم أن يتهموه بدم عثمان وهم يعلمون مقامه في الدين يقول ابن أبي الحديد: أما كان في علم بني أمية بحالي ما ينهاها عن قرفي بدم عثمان وحاله التي أشار إليها وذكر أن علمهم بها يقتضي أن يقرفوه بذلك هي منزلته في الدين التي لا منزلة أعلى منها وما نطق به الكتاب الصادق من طهارته وطهارة نبيه وزوجته في قوله: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ وقول النبي صلى الله عليه وآله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى «وذلك يقتضي عصمته عن الدم الحرام كما إن هارون معصوم عن مثل ذلك» انتهى.

ولا شك أن الإمام لم يشترك في دم عثمان ولكنه لم يكن غاضباً لقتله. . .

ثم أكد هذا المعنى بأنه ألا يردع هؤلاء الجهال سابقتي وتقدمي في الإسلام عن اتهامي بقتله.

ثم بين أنهم لن يتعظوا بكلامه ولن يعتبروا به لأنهم لم يتعظوا ويعتبروا ويعملوا بما هو أمضى حجة وأبلغ منطقاً وأقوى بياناً وهو خطاب الله لهم حيث ينهاهم عن التهمة وظن السوء فلم يرتدعوا أو يجتنبوا الظن فكيف يرتدعوا ببياني ومنطقي. . . .

(أنا حجيج المارقين وخصيم الناكثين المرتابين وعلى كتاب الله تعرض الأمثال وبما في الصدور تجازى العباد) بيّن قوة حجته على الذين خرجوا عن أحكام الدين باتهامه وعلى المشككين فيه بأنه قد شرك في دم عثمان وذلك بما اعتمدت عليه الشريعة

وتبناه الدين من أن الإنسان يؤخذ بفعله أو بقوله وهذا يعرض على كتاب الله وفيه يؤخذ الحكم وهو صلوات الله عليه لم يشارك مباشرة في قتل عثمان كما أنه لم يعهد من أحد أو يدعي على أحد أنه قال اقتلوه إذاً فهو بريء بحكم الشرع.

وأما أن تحاسبوه عما في نفسه وما يحب ويكره فهذا مرده إلى الله وهو الذي يجازي عباده عليه وليس للإنسان أن يشق قلوب الناس ويحاسبهم على نياتهم في دار الدنيا ولم نر أحداً من العقلاء يحاسب أحداً على نيته وما في ضميره وإنما الحساب يجري على الأفعال والأقوال وما يصدر من الإنسان.

٧٦ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في الحث على العمل الصالح

رَحِمَ ٱللّٰهُ ٱمْرَأً[١] سَمِعَ حُكْماً[٢] فَوَعَىٰ[٣]، وَدُعِيَ إِلَىٰ رَشَادٍ[٤] فَدَنَا[٥]، وأَخَذَ بِحُجْزَةِ[٦] هَادٍ فَنَجَا. رَاقَبَ رَبَّهُ، وَخَافَ ذَنْبَهُ، قَدَّمَ خَالِصاً، وَعَمِلَ صَالِحاً. ٱكْتَسَبَ مَذْخُوراً[٧]، وَٱجْتَنَبَ[٨] مَحْذُوراً[٩]، وَرَمَىٰ غَرَضاً[١٠]، وَأَحْرَزَ[١١] عِوَضاً[١٢]. كَابَرَ هَوَاهُ[١٣]، وَكَذَّبَ مُنَاهُ[١٤]. جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ[١٥] نَجَاتِهِ، وَالتَّقْوىٰ عُدَّةَ[١٦] وَفَاتِهِ. رَكِبَ الطَّرِيقَةَ ٱلْغَرَّاءَ[١٧]، ولَزِمَ ٱلْمَحَجَّةَ[١٨] ٱلْبَيْضَاءَ. ٱغْتَنَمَ ٱلْمَهَلَ[١٩]، وَبَادَرَ[٢٠] ٱلأَجَلَ، وَتَزَوَّدَ مِنَ ٱلْعَمَلِ.

اللغة

١ ـ المرء : مثلثة الميم الإنسان ويجمع على رجال من غير لفظه.
٢ ـ حكماً : حكمة.
٣ ـ وعى : حفظ وفهم.
٤ ـ الرشاد : الهدى والاستقامة.
٥ ـ دنا : قرب.
٦ ـ الحجزة : بالضم معقد الإزار وموضع التكة.
٧ ـ المذخور : المخبأ لوقت الحاجة.
٨ ـ اجتنب : ترك وابتعد.
٩ ـ المحذور : ما يتحرز منه، الممنوع.
١٠ ـ الغرض : الهدف.

١١ ـ أحرز	:	أصاب وجمع.
١٢ ـ العوض	:	البدل.
١٣ ـ كابر هواه	:	غالبه وعانده.
١٤ ـ المنى	:	الأماني الباطلة ما يتمناه.
١٥ ـ المطية	:	المركب.
١٦ ـ العدة	:	جمعها عدد الاستعداد، ما أعددته لحوادث الدهر من مال وسلاح.
١٧ ـ الغراء	:	النيرة الواضحة.
١٨ ـ المحجة	:	جادة الطريق ومعظمه مقابل جوانبه ومتفرعاته.
١٩ ـ اغتنم المهل	:	الفرصة وسعة الوقت والمهل النظرة والتؤدة.
٢٠ ـ بادر	:	أسرع.

الشرح

(رحم الله امرأ سمع حكماً فوعى) دعاء يراد من خلاله الترغيب في الاتصاف بهذه الأوصاف العالية وهي عشرون صفة.

أولها: أن يسمع حكمة فيقف عليها ويأخذها ويتأثر بها ويعمل بمضمونها والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها فلا يترفع عنها أو يردها إلى أصحابها. . .

ثانيها: **(ودعي إلى رشاد فدنا)** فإذا جاء الداعي إلى الهدى والحق والعدل وكل ما يقرب الإنسان من الله ومن عباده اقترب منه وتقرّب إليه وعمل بمضمون ما يقول. . .

ثالثها: **(وأخذ بحجزة هاد فنجا)** فإن هناك عباد الله هداة يدّلون الناس على الخير وعلى طرق النجاة فإن كان هناك هاد فيجب التمسك به والاعتماد على سيرته والمشي خلفه ليفوز بالسعادة وينجو من النار. . .

رابعها: **(راقب ربه)** عاش حالة الرقابة المستمرة عليه ومن عاش هذه الحالة كان من أقرب الناس إلى الله وأشدهم خوفاً منه وأحسنهم عملاً. . من عاش حالة الرقابة من الله عليه لم يرتكب محرماً ولم يترك واجباً وكان باستمرار وفي كل ما يقوم به مطيعاً لله عاملاً بأمره قال رسول الله (ص): أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

خامسها: **(وخاف ذنبه)** خاف من ذنوبه أن يحاسب عليها فلذا يبادر إلى منع وقوعها وإذا وقعت تداركها بالتوبة والرجوع إلى الله. . .

سادسها: **(قدّم خالصاً)** أي عمل عملاً خالصاً لوجه الله لا يشوبه رياء أو عجب أو شك.

سابعها: **(وعمل صالحاً)** أي عمل عملاً صالحاً تاماً غير ناقص في أصله ولا في جوانبه وهيئاته بل جاء به كما أمر الله بجميع شرائطه وأجزائه.

ثامنها: **(اكتسب مذخوراً)** سعى في كسب وربح ما يحتاج إليه يوم فقره وفاقته في الآخرة ويتجسد هذا بالعمل الصالح وتقوى الله...

تاسعها: **(واجتنب محذوراً)** ترك محرماً وممنوعاً فلم يرتكب ما نهى الله عنه.

عاشرها: **(ورمى غرضاً)** أصاب بأعماله ما هدف إليه من طلب الجنة ونعيمها هذا إذا كان غرضاً أما إذا كان عرضاً أي ترك الدنيا وما فيها من أشياء جانباً وتخلى عنها...

حادي عشرها: **(وأحرز عوضاً)** فعندما طلب الآخرة بدلاً عن الدنيا أدرك ذلك وأحرزه.

ثاني عشرها: **(كابر هواه)** خالف هواه وعانده وانتصر عليه لأن الهوى يقود الإنسان إلى النار ومخالفته تدخل الجنة.

ثالث عشرها: **(وكذب مناه)** ما يلقي إليه الشيطان من الأماني يكذبه بها وينكرها عليه ولا يصدقه بها...

رابع عشرها: **(جعل الصبر مطية نجاته)** فمن تحلى بالصبر ظفر وما من فرد أو أمة تمتعت بهذه الخصلة إلا نجحت في الحياة وحققت أعظم الإنجازات...

خامس عشرها: **(والتقوى عدة وفاته)** جعل التقوى عدته وذخيرته وسلاحه الذي يواجه به الموت فيهون عليه ما فيه من شدائد وكرب وما يواجهه من هول المطلع...

سادس عشرها: **(ركب الطريقة الغراء)** مشى على الطريقة الشرعية الواضحة بأن تعلّم أحكامها وعمل بمضمونها، ترك المشتبه به وما فيه مظنة عدم البراءة...

سابع عشرها: **(ولزم المحجة البيضاء)** أي لا يفارق الطريقة الشرعية الواضحة الظاهرة لأنها طويلة تحتاج إلى نفس طويل وإلى ملازمة دائمة...

ثامن عشرها: **(اغتنم المهل)** عمل في أيام عمره وما أمهله الله فيه فإن الله أعطى هذا الإنسان فرصة عمره للعمل فليغتنم هذه الفرصة ويبادر إلى طاعة الله والعمل الصالح...

تاسع عشرها: (**وبادر الأجل**) سارع إلى العمل قبل حلول الموت فإنه لا يدري متى يفاجئه فيصرعه ويتوقف عندها عن العمل فليبادر بالعمل ويسبق الأجل بصالح العمل...

العشرون: (**وتزود من العمل**) فإن هذا العمر فرصة لا تعود مرة أخرى وبمقدار هذا الزاد ترتفع درجة المرء وتعلو رتبته...

٧٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

وذلك حين منعه سعيد بن العاص حقه

إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي[١] تُرَاثَ[٢] مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَفْوِيقاً، وَٱللَّهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ لَأَنْفُضَنَّهُمْ[٣] نَفْضَ اللَّحَّام[٤] ٱلْوِذَامَ[٥] التَّرِبَةَ[٦]!.

قال الشريف: ويروى «التراب الوَذَمَة»، وهو على القلب.

قال الشريف: وقوله عليه السلام «لَيُفَوِّقُونَنِي» أي: يعطونني من المال قليلاً كفُواق الناقة، وهو الحلبة الواحدة من لبنها. والوِذَامُ: جمع وَذَمة، وهي الحُزّة من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتنفض.

اللغة

١ ـ ليفوقونني : ليعطونني القليل مثل فواق الناقة وهي الحلبة الواحدة من لبنها.

٢ ـ التراث : الميراث.

٣ ـ لأنفضهم : من نفض الشيء إذا حركه ليزيل عنه ما علق فيه من غبار ونحوه.

٤ ـ اللّحام : القصّاب.

٥ ـ الوذام : الكرش والمعي.

٦ ـ التربة : اللاصقة بالتراب.

الشرح

(إن بني أمية ليفوقونني تراث محمد صلى الله عليه وآله تفويقاً والله لئن بقيت لهم لأنفضنهم نفض اللحام الوذام التربة) استبد بنو أمية بأموال المسلمين وقد عدوا ما في

بيت المال من أملاكهم الخاصة يعطون ويمنعون دون موازين سليمة إلا موازين مصالحهم وقراباتهم وعملائهم وكانوا يرسلون إلى الإمام جزءاً يسيراً حقيراً لا يقيم أوداً ولا يرفع حاجة وفي يوم بعث سعيد بن العاص وكان أميراً على الكوفة بهدايا إلى المدينة وبعث بقليل إلى علي عليه السلام وكتب إليه: إني لم أبعث إلى أحد أكثر مما بعثت به إليك إلا إلى أمير المؤمنين (عثمان) فلما جاء الرسول وسلم الرسالة للإمام قال هذه الكلمة . . .

ومفادها: إن بني أمية يقسطون لي ميراث رسول الله من الفيىء والحق تقسيطاً؛ يعطونني قليلاً قليلاً مع أن هذا التراث حق شرعي لي وأنا أولى الناس به وهذا من ظلمهم وانحرافهم وسلبهم حقوق الناس ثم أقسم لئن بقي لهم وامتد به العمر وأصبح الوالي والقيم على أمور المسلمين ليخرجنهم من هذه الأموال التي تمتعوا بها بدون حق وسلبوها من الناس وليخرجنها عنهم ومن أيديهم كما ينفض القصاب ما يقع على الكبد والكرش من التراب إذا وقع عليه فكيف أن القصاب لا يبقي عليها من التراب شيئاً كذلك هو سيفعل ببني أمية إن جلس على كرسي الحكم . . .

أو يراد أنه يسقطهم من أعين الناس بذكر مثالبهم وفضح معايبهم وتعداد انحرفاتهم وجناياتهم . . .

٧٨ ـ ومن دعاء له عليه السلام

من كلمات كان، عليه السلام، يدعو بها

اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي[١] مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَإِنْ عُدْتُ[٢] فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ. اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ[٣] مِنْ نَفْسِي، وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً[٤] عِنْدِي. اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ[٥] إِلَيْكَ بِلِسَانِي، ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي. اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ[٦] الْأَلْحَاظِ[٧]، وَسَقَطَاتِ[٩] الْأَلْفَاظِ، وَشَهَوَاتِ الْجَنَانِ، وَهَفَوَاتِ[١٠] اللِّسَانِ.

اللغة

١ ـ غفر له : أصل الغفر هو الستر وغفر له ذنوبه إذا سترها وصفح عنها ولم يحاسبه عليها.

٢ ـ عدتُ : رجعت.

٣ ـ وأيت : وعدت.

٤ ـ الوفاء : بالعهد أو الوعد اتمامه والمحافظة عليه.

٥ ـ تقرب به : إلى الله أتى به إليه تعالى وطلب القربة عنده.

٦ ـ رمزات : جمع رمزة وهي الإشارة بالعين أو الحاجب أو الشفة.

٧ ـ الألحاظ : جمع لحظ بفتح اللام وهو مؤخر العين.

٨ ـ السقطات : السقط بالتحريك ردي المتاع واللغو من القول أو الفعل.

٩ ـ الجنان : القلب.

١٠ ـ الهفوات : جمع هفوة: الزلة.

الشرح

(اللهم اغفر لي ما أنت أعلم به مني، فإن عدت فعد عليّ بالمغفرة) النبي والأئمة

صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ منزهون عن الزلل لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون وما ورد عنهم مما ظاهره أنهم عاصون فهو على مستوى ما ورد من أن حسنات الأبرار سيئات المقربين وقد يكون على شكل تعليم لنا وتدريب على الوقوف أمام الله وبين يديه نطلب منه المغفرة والرحمة. . .

والإمام هنا يعلمنا عملياً كيف يكون الوقوف بين يدي الله مع ما له من مواقف جهادية وبطولات إسلامية، يعلمنا أن الأبطال الشجعان يقفون أمام الله وقفة الذل والضراعة يتوجهون إليه بالدعاء يطلبون منه العفو والمغفرة والرحمة اللهم إنني أعلم ذنوباً قد ارتكبتها وقد أنسى بعضها وارتكب بعضها بدون علم أو دارية بها فاغفرها جميعاً، اغفرها فأنت أعلم بها مني وبما اجترحته وارتكبته وإن غفرت لي ثم عدت إلى المعصية فعد علي بالمغفرة فإنك أهل العفو والمغفرة. . .

(اللهم اغفر لي ما وأيت من نفسي ولم تجد له وفاء عندي) وهذا استغفار لما أخذه على نفسه وعاهد الله على تركه أو فعله ثم خالفه ونقضه ونكث ما أعطى من العهود فهذا يحتاج إلى طلب المغفرة والعفو عنه.. إن الوفاء بالعهد واجب قال تعالى: **﴿واوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلاً﴾**. . .

(اللهم اغفر لي ما تقربت به إليك بلساني ثم خالفه قلبي) وهذا أيضاً يحتاج إلى طلب المغفرة منه وهو الرياء الذي يُظهر الإنسان خلاف ما يبطن فيعلن بلسانه ما يخالف به قلبه يقول إنه المؤمن المجتهد في طاعة الله بينما هو المشكك المتردد الكسول. . .

(اللهم اغفر لي رمزات الألحاظ) فإن في بعض الحالات يستعمل الإنسان لحظ العيون كرمز للغمز في إنسان أو الطعن فيه أو غيبته وهذه معصية تحتاج إلى طلب المغفرة. . .

(وسقطات الألفاظ) الألفاظ الساقطة الرذيلة غير المؤدبة التي جرحت إنساناً أو نالت منه شيئاً. . .

(وشهوات الجنان) أي شهوات القلوب وما تميل إليه وترغيب فيه مما فيه مخالفة للدين وتمرد على الشريعة. . .

(وهفوات اللسان) فإن زلات اللسان أشد وأصعب من عثرات الأقدام فربما خرجت الكلمة عن لسان إنسان فاشعلت فتنة دامية وتركت دماراً وخراباً وربما أجهزت على صاحبها فأدخلته النار ومثل ذلك يستحق طلب المغفرة والعفو عنه. . .

٧٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج،
وقد قال له: إن سرت يا أمير المؤمنين، في هذا الوقت،
خشيت ألا تظفر بمرادك، من طريق علم النجوم

فقال عليه السلام

أَتَزْعَمُ(١) أَنَّكَ تَهْدِي(٢) إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ(٣)؟ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي منْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ(٤) ٱلضُّرُّ(٥)؟ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهٰذَا فَقَدْ كَذَّبَ ٱلْقُرْآنَ، وَٱسْتَغْنَىٰ عَنِ ٱلاِسْتِعَانَةِ بِاللّٰهِ فِي نَيْلِ(٦) ٱلْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ ٱلْمَكْرُوهِ؛ وَتَبْتَغِي(٧) فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ(٨) ٱلْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لِأَنَّكَ ـ بِزَعْمِكَ ـ أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَىٰ السَّاعَةِ الَّتِي نالَ فِيهَا النَّفْعَ، وَأَمِنَ الضُّرَّ!!.

ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ، إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَىٰ ٱلْكَهَانَةِ، وٱلْمُنَجِّمُ كَٱلْكَاهِنِ(٩)، وَٱلْكَاهِنُ كَالسَّاحِرُ، وَالسَّاحِرِ كَٱلْكَافِرِ! وٱلْكَافِرُ فِي النَّارِ! سِيرُوا عَلَىٰ ٱسْمِ ٱللهِ.

اللغة

١ ـ أتزعم : الزعم هو القول الذي يشك فيه أو يعتقد كذبه.
٢ ـ تهدي : ترشد.

٣ ـ صرف عنه السوء : دفعه عنه ورده.
٤ ـ حاق به : أحاط به.
٥ ـ الضر : بضم الضاد، ضد النفع أو سوء الحال.
٦ ـ النيل : الإدراك.
٧ ـ تبتغي : تطلب.
٨ ـ يوليك : يعطيك إياه ويجعلك أولى به.
٩ ـ الكاهن : جمعه كهان وهم الذين كانوا يخبرون عن الشياطين بكثير من الغائبات.

الشرح

(أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء؟ وتخوف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضر) هذا الكلام قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج وقد قال له: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم فقال عليه السلام:

أتزعم والزعم مبني على الباطل أتزعم أنك بهذا العلم ـ علم النجوم تستطيع أن ترشد الناس إلى الساعة السعيدة التي من سار فيها صرف عنه السوء والهزيمة فهي ساعة خير وبركة وفيها السعادة والنصر والظفر وفي مقابلها تخوفهم من ساعة النحس التي من سار فيها أحاط به الشقاء والهزيمة والانكسار...

وكأنه يريد أن يقول له إنك تدعي أنك تعرف الساعات التي يكون فيها النصر والساعات التي تكون فيها الهزيمة وهذا أمر غير صحيح ولا مقبول وبيّن بطلان هذا الادعاء بقوله...

(فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه لأنك بزعمك ـ أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضر) بيان لفساد ما يذهب إليه المنجمون وحرمة تصديقهم وذلك بأدلة:

الأول: إنّ من صدّق المنجم فقد كذب القرآن وذلك لأنه يدعي أنه يعلم الغيب باقتران الأجرام والكواكب وكونها في وضع خاص وهذا يتنافى وقوله تعالى: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾** وقوله: **﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما**

في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت» . . .

الثاني: إن من صدّق منجماً واعتمد عليه انقطع إليه واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل ما يحب ودفع ما يكره وذلك من منظور أن المنجم يحقق ما يريده طالب الخير وما يريده دافع الشر ويدل هذا الإنسان على موارد الصلاح والنصر وموارد الفساد والهزيمة فلا يرجع الإنسان عندها إلى الله ويستغني عن الاستعانة به وطلب المدد منه بالتوجه إليه والدعاء له والخضوع لساحة قدسه وفي هذا مخالفة لمسلمات الإيمان بالله وأوليات العقيدة التي تربط هذا الإنسان بالله الذي لا يمكن الاستغناء عنه سبحانه في استمرار الوجود الذي هو على مستوى الحاجة إليه في أصل الوجود . . .

الثالث: إن هذا المنجم يستحق الحمد من المتبع لأقواله لأنه يرشده إلى ساعات الهداية ودفع الضر وساعات البلاء والنصر وهذا الحمد يستحقه من دون الله وفي هذا فساد للعقيدة وانحراف عن الدين فإن الله وحده هو الذي يستحق الحمد بقول مطلق «الحمد لله رب العالمين . . » وأما ما يرد من الخير عن أيدي الناس فشكرهم باعتبار أنهم وسائط الخير وأدلته وأنهم لا يدعون في جنب الله شيئاً من الاستقلالية والانفراد . . .

(أيها الناس إياكم وتعلّم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار سيروا على اسم الله) بعد أن بيّن فساد التنجيم وضلال المنجمين التفت إلى الناس ووجه إليهم النهي عن تعلّم أحكام النجوم لما لها من أثر سيء على العقيدة من حيث يضل فيها الإنسان ويقطع صلته بالله ويعتمد على علم النجوم في حركاته وسكناته واستثنى من هذا النهي ما كان من هذا العلم يهتدى به إلى النجاة والخلاص أو إلى عبادة فكل أمر ديني أو دنيوي يمكن أن يستفيده من هذا العلم يباح له تعلمه قال تعالى في مقام المنّ على بني آدم ﴿**وعلامات[1] وبالنجم هم يهتدون** . . ﴾ وقد ورد عن الأئمة تعيين القبلة ببعض الكواكب كالجدي وغيره . . .

ثم إنه عليه السلام بين أسباب النهي ودواعيه من حيث أنها تدعو إلى الكهانة التي حرمها الشارع أما لأن صاحب علم النجوم يحب تعلم الكهانة أو أنه يصبح كالكاهن يخبر عن الأمور الغائبة منقطعاً عن الله ولا يسندها إليه . . .

ثم شبّه المنجم بالكاهن وقد كان الكاهن يخبر عن الأمور الغائبة وللعرب سهم

---

(١) سورة النحل، آية/ ١٦ .

وافر من الكهان وقد اشتهر منهم شق وسطيح ووجه الشبه أن كلاً من المنجم والكاهن يخبر عن الأمور الغيبية بمقدمات ظنية بل قد تكون وهمية وقد يسترسل فيكذب أو يسلك سبلاً باطلة تتنافى والإيمان. . .

ثم شبه الكاهن بالساحر والساحر بالكافر وتكون النتيجة أن المنجم كالكافر يستحق النار وفي ذلك تنفير وتحذير يجعل الإنسان يقف من التنجيم موقفاً لا يتعاطاه أو يعمل به. . .

ثم أمرهم أخيراً بالسير نحو هدفهم من حرب الخوارج ليدفع قول المنجم ويبيّن فساد رأيه عملياً وقد ساروا يومها وانتصروا وفشلت نبوءة المنجم وخاب من صدقه وتابعه. . .

وخلاصة الحديث أن الإمام ينهى عن علم التنجيم الذي يبنى على الحدث والتخمين ويكون فيه شعوذة وخلط ولذا شبهه بالكاهن والساحر وهما مشعوذان محتالان بينما أباح ما يفيد وينفع وهو دعوة إلى الاستفادة وترخيص إلى توجيه الناس إلى علم ينفع به البشرية في أمر دينها أو دنياها. . .

٨٠ ـ ومن خطبة له عليه السلام

بعد فراغه من حرب الجمل، في ذم النساء ببيان نقصهن

مَعَاشِرَ[١] النَّاس، إِنَّ النِّسَاءَ نوَاقِصُ[٢] ٱلْإِيمَانِ، نَوَاقِصُ ٱلْحُظُوظِ[٣]، نَوَاقِصُ ٱلْعُقُولِ: فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ[٤] عَنِ الصَّلاةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ[٥]، وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ ٱمْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ ٱلْوَاحِدِ، وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ[٦] عَلَىٰ ٱلْأَنْصَافِ[٧] مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ. فَاتَّقُوا شِرَارَ[٨] النِّسَاءِ، وكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ[٩] عَلَىٰ حَذَرٍ[١٠]، وَلَا تُطِيعُوهُنَّ فِي ٱلْمَعْرُوفِ[١١] حَتَّىٰ لَا يَطْمَعْنَ فِي ٱلْمُنْكَرِ[١٢].

اللغة

١ ـ معاشر : جمع معشر وهي الجماعة.
٢ ـ نواقص : من النقص وهو العيب.
٣ ـ الحظوظ : النصيب والسهم.
٤ ـ قعد : عن الصلاة، حبسه عنها.
٥ ـ الحيض : العادة الشهرية للمرأة.
٦ ـ المواريث : من الميراث وهو ما يتركه الميت من التركة.
٧ ـ الأنصاف : بفتح الهمزة وكسرها جمع النصف بتثليث النون وهو أحد جزئي الشيء.
٨ ـ شرار : جمع شر وهو نقيض الخير اسم جامع للرذائل.
٩ ـ الخيار : من الشيء أفضله.
١٠ ـ الحذر : التحرز؛ التخوف والتنبه.
١١ ـ المعروف : الخير والإحسان، كل فعل حسن، ما فيه رضى لله.
١٢ ـ المنكر : كل فعل قبيح، ما ليس فيه رضى لله من قول أو فعل.

الشرح

(**معاشر الناس إن النساء نواقص الإيمان نواقص الحظوظ نواقص العقول فأما نقصان إيمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن وأما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد وأما نقصان حظوظهن فمواريثهن على الأنصاف من مواريث الرجال**) قال ابن أبي الحديد «وهذا الفصل كله رمز إلى عائشة» انتهى. . وهذا أمر ينطبق عليها وعلى غيرها وإن كانت هي سببه والداعية إليه. . .

والإمام يبين نقصان المرأة في ثلاثة موارد. .

الأول: إن النساء نواقص الإيمان وبيّن سبب ذلك بأنهن يقعدن عن الصلاة والصيام أيام حيضهن، وقعودهن والحالة تلك وإن كانت بأمر الشارع ولكنها لقصور فيهن من حيث كونهن في حالة لا تؤهلهن للقاء الله والقيام بين يديه فإن طبيعة كل مخلوق وما يتمتع به من مؤهلات وإلا فإن المعصومة من النساء لا تأتيها العادة وتبقى على اتصال بالله وتخرج استثناء عن القاعدة العامة في النساء. . .

وكلام الإمام يشير أيضاً إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقصان وقد وردت الأخبار بذلك. . .

الثاني: نقصانهن لنقصان عقولهن وبيّن ذلك بأن كل شهادة امرأتين تعادل شهادة رجل واحد.

قال تعالى: ﴿**فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان**﴾ وقد ثبت نقصان عقل المرأة بالنسبة إلى عقل الرجل وذلك بإلقاء نظرة سريعة على الحياة من أول ابتدائها وإلى اليوم فستجد المرأة تابعة للرجل ومقيدة به وتجد أنها لم تفلح في رأي يعارض الرجل، إنك تجد أصحاب الاختراعات وأهل الإبداع رجالاً ـ إلا ما شذ وندر ـ تجد قادة الفتح وأهل الجهاد والكفاح ـ رجالاً. . تجد الكتاب والشعراء وأهل الثقافة والفنون رجالاً. . تجد حتى في أمور المرأة ومختصاتها أشهر من أبدع وأنتج إنما هم الرجال فأشهر الطباخين من الرجال وأشهر الخياطين ومصميمي الأزياء للنساء هم من الرجال. . .

إن هذه التبعية للرجل من المرأة مع تساوي الصنفين بل زيادة عدد النساء على الرجال أول دليل على نقصان عقلها. . .

الثالث: نقصانهن لنقصان حظوظهن وبيّن ذلك بأن نصيب المرأة من الميراث نصف ما للرجل.

قال تعالى: ﴿**يوصيكم الله في**[١] **أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ وقد كان هذا التفاوت بسبب أن المرأة مكفولة المعاش لا تصرف مما تأخذه حتى على نفسها فنفقتها على زوجها بينما الزوج يتحمل أعباء دفع المهر لها وإعالتها سكناً ومأكلاً وملبساً فلا بد وأن يناله أكثر مما ينالها حتى يتعادل ما يدفع إليه وما يؤخذ منه وبمقدار الإيراد يكون الصرف. . .

(فاتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر) بعد أن بيّن عليه السلام نقصان المرأة ديناً وعقلاً وحظاً أمرنا باتقاء شرار النساء بأن نبتعد عنهن فلا نتزوج الشريرة ولا نخالطها أو نتعامل معها وقد امتازت المرأة بالمكر والحيلة وهي قادرة على أن تلبس أثواباً متعددة وأقنعة متعددة وإذا أرادت ذلك فإنها تنجح. . .

ونعوذ بالله من شرار النساء فإن المرأة الشريرة تسخّر جمالها ومالها ودموعها وبدنها من أجل أن تصل إلى مرامها وتنفذ كيدها قال تعالى واصفاً كيد المرأة ﴿**إنه من كيدكن**[٢] **إن كيدكن عظيم**﴾ بينما وصف كيد الشيطان بالضعف قال تعالى ﴿**فقاتلوا أولياء الشيطان إن**[٣] **كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾ . . .

ثم أمرنا أن نكون من خيارهن على حذر بحيث يبقى على مراقبة لها دائمة يعرف أين تذهب وأين تجيء ومع من تتعامل ولا يعطيها كل أسراره ولا يطلعها على كل قضاياه لأنها بطبيعتها عاطفية تتأثر بأدنى الأمور وتتحسس من نظرة صغيرة بل في بعض الأحيان تأخذها الظنون إلى حيث لا يجوز وبمجرد أن تغضب تجرد زوجها من كل فضيلة وتبعد عنه كل حسنة وتفشي له كل أسراره صغيرها وكبيرها حقيرها وخطيرها حتى الذي يؤدي إلى هلاكه وقد سمعت مباشرة ممن ساءت عشرتها مع زوجها من الأخبار عنه ما لا يحل ذكره ـ سمعته للمصلحة ـ ثم لما رضيت عنه وعادت إليه ندمت ولكن كانت قد كسرت الجرة وفاحت الأخبار وانتشرت. . .

ثم نهانا عن إطاعتهن حتى في المعروف وعلل ذلك لئلا يطمعن بالمنكر فإن المرأة إذا أطعتها في أمر مباح مندوب كزيارة قريب أو ولي فإنها تطمع في زيارة السينما والملهى فإذا كان الأمر معروفاً فليكن امتثالك له والقيام به لأجل كونه معروفاً ولتفهم المرأة ذلك فتنقطع عن مطالبتك بالمنكر ولا تطمع فيه. . .

---

(١) سورة النساء، آية/ ١١.

(٢) سورة يوسف، آية/ ٢٨.

(٣) سورة النساء، آية/ ٧٦.

٨١ ـ ومن كلام له عليه السلام

في الـزهد

أَيُّهَا النَّاسُ، الزَّهَادَةُ(١) قِصَرُ(٢) الأَمَلِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ(٣)، وَالتَّوَرُّعُ(٤) عِنْدَ المَحَارِمِ(٥)، فَإِنْ عَزَبَ(٦) ذٰلِكَ عَنْكُمْ فَلاَ يَغْلِبِ(٧) الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ، وَلاَ تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ، فَقَدْ أَعْذَرَ(٨) اللّٰهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ(٩) مُسْفِرَةٍ(١٠) ظَاهِرَةٍ، وَكُتُبٍ بَارِزَةِ(١١) الْعُذْرِ(١٢) وَاضِحَةٍ.

اللغة

١ ـ الزهادة : هو الزهد عدم الميل إلى الشيء.

٢ ـ القصر : ضد الطول.

٣ ـ النعم : العطايا.

٤ ـ التورع : هو الكف عن المشتبهات خوف الوقوع في المحرمات.

٥ ـ المحارم : ما حرمه الله وما لا يحل انتهاكه.

٦ ـ عزب : بعُد، وغاب وذهب.

٧ ـ غلب : عليه قهره وانتصر عليه.

٨ ـ أعذر : أظهر عذره، أزال عذره.

٩ ـ الحجج : البراهين والأدلة.

١٠ ـ المسفرة : المشرقة.

١١ ـ بارزة : ظاهرة.

١٢ ـ العذر : الحجة التي يعتذر بها أي يرفع اللوم عنه.

الشرح

(أيها الناس الزهادة قصر الأمل والشكر عند النعم والتورع عن المحارم فإن عزب ذلك عنكم فلا يغلب الحرام صبركم ولا تنسوا عند النعم شكركم فقد أعذر الله إليكم

بحجج مسفرة ظاهرة وكتب بارزة العذر واضحة) الزهد خلة كريمة وخصلة شريفة يتطلع إليها الأتقياء والصلحاء فيعيشون بها القرب من الله والإخلاص له وقد وجهنا الإمام إليها وحصرها في أمور ثلاثة بها تتحقق ولها ترجع وهي:

١ ـ قصر الأمل: ومن قصّر أمله في الدنيا ورأى نفسه مسجى بين يدي غاسله ومجهزه هانت عليه الدنيا وسعى من أجل أن يجيد العمل ويقوم بكل واجب.. قصر الأمل لا يعني عدم العمل بل من لا يعمل يكون كسولاً مقصراً يحاسبه الله بل معناه الاستعداد للرحيل وتهيئة الزاد له وما يتطلبه السفر...

٢ ـ والشكر عند النعم فإن لكل نعمة شكرها وأهم شكر للنعمة أن تقع في موقعها فلا تتحول إلى أداة يُعصى الله بها فمن أعطاه الله مالاً يجب أن يصرفه في محله على نفسه وعلى من يعول وعلى الفقراء فيتصدق عليهم ويتحنن على الأيتام والمساكين، وأما لو حولّ نعمة الله إلى ما حرمه الله فهو لم يشكر المنعم ولم يؤد شكر النعمة...

٣ ـ التورع عند المحارم بأن يكف عن ارتكاب ما حرمه الله سواء كان صغيراً أم كبيراً جليلاً أم حقيراً وعلى كل المستويات العبادية والاقتصادية والسياسية ولا انفصال أو تفصيل في هذه الموارد خلافاً لبعض الناس الذين يتحرزون في طهارتهم وصلاتهم وعبادتهم فيبحثون عن كل شيء يخل بها فيجتنبوه بينما هم في غيرها من العواهر الذين لا يتورعون فهو في طهارته على جانب عظيم من المحافظة عليها بينما في موقفه السياسي فاسد بدرجة عالية...

ثم إنه عليه السلام بعد أن بيّن أن الزهد يكون في هذه الأمور وشعر أن كثيرين من الناس قد لا يقومون بذلك رخص في ممارسة الأمل وبقاء الإنسان وأمله بقوله ـ فإن عزب ذلك عنكم ـ فلم تقدروا على القيام به جميعاً فليكن صبركم عن الحرام قوياً ولا يغلبكم الحرام فتمارسونه، وهذا أمر لا يمكن الترخيص فيه أو إباحته بل يجب أن يقوّي الإنسان ملكة الصبر عنده فلا يرتكب حراماً.

وكذلك لم يرخّص في شكر النعم التي يحكم العقل والنقل بوجوب شكرها وشكر من أنعم بها لأن كفرانها خروج عن الدين والإيمان.

ثم أكد ملازمة الزهادة وعلل لزّومها بأن الله قطع أعذاركم فلا حجة لكم لأنه أرسل إليكم الأنبياء والأوصياء وأنزل الكتب والبينات وهي ظاهرة لا خفاء فيها ولم يعد لأحد حجة يحتج بها بعدم وصول البيان إليه وقيام الحجة عليه.

فلا حجة لكم بل الحجة لله عليكم ومن كانت الحجة عليه فلا عذر له إلا بالقيام بما هو واجب عليه..

٨٢ ـ ومن كلام له عليه السلام

في ذم صفة الدنيا

مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ[١]، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ! فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ[٢]. مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فِيهَا فُتِنَ[٣]، وَمَنِ ٱفْتَقَرَ[٤] فِيهَا حَزِنَ[٥]، وَمَنْ سَاعَاهَا[٦] فَاتَتْهُ[٧]، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا[٨] وَاتَتْهُ[٩]، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ.

قال الشريف: أقول: وإذا تأمل المتأمل قوله عليه السلام: «وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ» وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا تُبلغ غايته ولا يدرك غوره، لا سيما إذا قرن إليه قوله: «وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ» فإنه يجد الفرق بين «أبصر بها» و «أبصر إليها» واضحاً نيراً، وعجيباً باهراً! صلوات الله وسلامه عليه.

اللغة

١ ـ العناء : التعب.
٢ ـ العقاب : القصاص.
٣ ـ فتن : من الفتنة وهي الضلالة.
٤ ـ افتقر : احتاج.
٥ ـ الحزن : الكآبة.
٦ ـ ساعاها : جاراها سعياً، غالبها.
٧ ـ فاتته : ذهبت عنه ولم يدركها.
٨ ـ قعد عنها : لم يطلبها، وجلس عن طلبها.
٩ ـ واتته : من المواتاة وهو حسن المطاوعة والموافقة.

الشرح

(ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب) هذا الكلام من الإمام تحذير لهذا الإنسان من الدنيا وتنفير منها وقد وصفها بهذه الأوصاف التي تجعل من يقف عليها يشمئز منها ويبتعد عنها ويعمل لما بعدها.

وصفها بأن أولها عناء أي تعب ونحن ندرك ذلك بالوجدان وعلى وجه الحقيقة فمنذ أن يسقط الجنين إلى الأرض ويستقبل الحياة تبتدأ المعاناة ويبتدأ العذاب ففي كل يوم آفة تصيبه وألم يلم به فالهواء يؤذيه والمناخ الحار يضره والبرد يمرضه وهكذا تستمر المعاناة حتى إذا بلغ وأدرك مدرك الرجال تأتيه هموم الدنيا ومتطلباتها من بناء مستقبل وسعي وراء رزق حتى إذا بلغ مبلغ الكهولة ضعُف جسده وانحلت بنيته وغزته الآفات فأصبحت همته عاجزة وقوته ضعيفة ولم يعد يقوى على القيام منفرداً فيستعين بغيره وقد يعجز وهكذا يستمر الوهن في بدنه حتى تأتي منيته . . .

ثم وصف آخر هذه الدار الدنيا بأن آخرها فناء وهو الموت الذي يأتي على هذا الإنسان وهذه حقيقة تتجسد أمامنا في كل يوم فهناك أموات ننقلهم إلى مثواهم الأخير وعما قليل سينقلنا من يأتي بعدنا وهكذا. . .

قال تعالى: **﴿كل نفس ذائقة الموت﴾** وقال تعالى: **﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. .﴾** . . .

ـ ذكرأن في حلالها حساب فلا بد من عرض الأعمال ونشر الصحف قال تعالى: **﴿إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾** وقال تعالى: **﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾** . . .

ـ وفي حرامها عقاب وإذا كان لا بد في الحرام عقاب وقصاص فمن يقوى على ذلك العقاب ومن يقدر أن يطيقه وهو عقاب الله الشديد. . .

(من استغنى فيها فُتن ومن افتقر فيها حزن) وهذه علات الدنيا وقبائحها بل هذه فجائع أهلها ومصائبهم أن من اغتنى فيها وأصبح غنياً في ماله أو صحته أو جاهه أو في أي ميدان من ميادين الحياة تراه يضل وينحرف ويسعى في الفساد فإذا أعطى فكراً يحول فكره إلى إضلال الناس والانحراف بهم وإذا أعطى قوة تأخذه قوته إلى الاعتداء على الضعفاء وإذا كان صاحب مال تراه يستعمل أمواله فيما لا يجوز ويصرفه فيما هو محرم وهكذا قال تعالى وهو أصدق القائلين «**إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**». . .

وأما من افتقر وأصابته الحاجة فهناك قلة الصبر الذي يعقبه الهلاك فقد يحتج على ربه وقد يخرج عن طاعته فيجمع الفقر والكفر وهما شر الحياة وأقبح ما فيها. . إنه يحزن لفقره وتدخل قلبه الكآبة. . .

(ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها واتته) من أراد مغالبتها فهي غالبة له لأنه لا يطلب شيئاً إلا وقد فاتته أشياء ولا يحصل على أمر إلا وقد اتضح أمامه ألف أمر لا يدركه ولا يحصل عليه. . .

أما من قعد عنها ولم يطلبها فإنها آتية إليه قادمة عليه لا محالة فإن حاجته واصلة إليه وهذا تزهيد فيها وترغيب في تركها. . .

(ومن أبصر بها بصرّته ومن أبصر إليها أعمته) من أبصر فيها وما هي عليه وكيف تتحول بأهلها من حال إلى حال؟ وما مر عليها من أجيال فراعنة طغاة وأولياء أتقياء. . كيف عاش فيها الأنبياء وكيف مارس الظلم عليها الأشقياء. . كيف تزول ولا تدوم؟ إن من نظر بها استبصر واهتدى وعاد إلى الله وسعى إلى الجنة ونعيمها. . .

وأما من أبصر إليها بحيث اتخذها هدفاً وتطلعت أنظاره إليها وعكف عليها وعلى النيل منها فلا محالة أنها تشغله عن الله وتصرفه عن عبادته وتعميه عن رؤية الحق والعدل وعن طريق الجنة. .

٨٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وهي الخطبة العجيبة وتسمى «الغراء»

وفيها نعوت الله جل شأنه، ثم الوصية بتقواه ثم التنفير من الدنيا، ثم ما يلحق من دخول القيامة، ثم تنبيه الخلق إلى ما هم فيه من الإعراض، ثم فضله عليه السلام في التذكير

صفته جل شأنه

اَلْحَمْدُ لِلّهِ الَّذي عَلاَ بِحَوْلِهِ(١)، وَدَنَا(٢) بِطَوْلِهِ(٣)، مَانِحِ(٤) كُلِّ غَنِيمَةٍ(٥) وَفَضْلٍ وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلٍ(٦). أَحْمَدُهُ عَلَىٰ عَوَاطِفِ(٧) كَرَمِهِ، وَسَوَابِغِ(٨) نِعَمِهِ(٩)، وأُومِنُ بِهِ أَوَّلاً بَادِياً(١٠)، وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً، وَأَسْتَعِينُهُ قَاهِراً(١١) قَادِراً، وَأَتَوكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً ـ صَلَّى ٱللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ ـ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ لإِنْفَاذِ أَمْرِهِ(١٢)، وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ(١٤) وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ(١٥).

اللغة

١ ـ الحول : القوة.

٢ ـ دنا : قرب.

٣ ـ الطول : الفضل والسعة.

٤ ـ مانح : معطي.

٥ ـ غنيمة : فائدة، ما يستفيده الإنسان.

٦ ـ الأزل : الشدة والضيق.

٧ ـ العواطف	:	جمع عاطفة وهي ما يعطفك على الغير ويدنيه من معروفك.
٨ ـ السوابغ	:	الكوامل من سبغ الظل إذا عم وشمل.
٩ ـ النعم	:	العطايا.
١٠ ـ بادياً	:	ظاهراً.
١١ ـ القاهر	:	الغالب.
١٢ ـ أنفذ الأمر	:	أمضاه وأجراه.
١٣ ـ الإنهاء	:	الإبلاغ.
١٤ ـ عذره	:	ما يقدمه الإنسان حجة له إذا ليم على شيء.
١٥ ـ النذر	:	جمع نذير الأخبار الإلهية المنذرة بالعقاب على سوء الأفعال.

الشرح

(الحمد لله الذي علا بحوله) ابتدأ صلوات الله عليه بذكر أوصاف الله الكمالية والجلالية وقد وصفه بالعلو والرفعة ولكن علوه بقوته وقدرته وليس بمكانه لأن المكان من حاجات الإمكان وهو واجب الوجود الغني عن كل موجود. . .

(ودنا بطوله) فهو قريب منا ليس بالمكان وإنما بالفضل والإحسان فنعمه قبل وجودنا وبعده وإلى آخر انقضاء حياتنا. . .

(مانح كل غنيمة وفضل) فما من نعمة أو عطيّة أو فائدة أو منحة إلا وهي فضل كرمه وعطاء يده قال تعالى: **﴿وما بكم من نعمة فمن الله. .﴾** . . .

(وكاشف كل عظيمة وأزل) فكما أنه مبدأ الكرم في العطاء كذلك هو أساس إزالة البلايا والمصائب الكبـار والشدائد العظام فهو يعطي بكرمه ويرفع البلاء بفضله قال تعالى: **﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾** . . .

(أحمده على عواطف كرمه وسوابغ نعمه) بيّن سبب حمده لله وإنه على كرمه المتواصل المترادف ونعمه الواسعة الكبيرة الني تزيد على حاجة الإنسان ومتطلباته وهي نعم ظاهرة وباطنة، يمكن للإنسان إدراكها وقد تخفى عليه. . .

(وأومن به أولاً باديا) اعتقد به أنه الأول الذي منه صورت الكائنات وإنه الظاهر للعيان بمشاهدة القلوب والبصائر وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد. . .

(واستهديه قريباً هادياً) أطلب منه الهداية والرشاد لقربه منا بفضله وجوده وهو

المتصف بالهداية وواضعها فيرجع إليه فيها «اهدنا الصراط المستقيم». . .

(**واستعينه قاهراً قادراً**) فهو القادر المطلق فمنه نطلب الاستعانة على أمورنا كلها وهو الغالب لكل أحد، وكل شيء مسخر له مأمور بأمره ومن هنا نطلب منه الاستعانة. . .

(**وأتوكل عليه كافياً ناصراً**) والكافي هو الذي لا يحتاج معه إلى أحد فيقوم بكفايته بكل أمر يحتاج والناصر هو الدافع للأعداء والمقوي لأصحابه ومعطيهم النصر وباعتبار هذين الأمرين كان الله وكان عليه التوكل. . .

(**وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله لإنفاذ أمره وإنهاء عذره وتقديم نذره**) إقرار للنبي محمد بالعبودية والرسالة فهو عبد الله ورسوله عن يديه تؤخذ التشريعات وإليه ينتهي الإنسان في أخذ ما يريد الله وما يحب.

ثم بيّن أغراض الرسالة التي من أجلها كانت بعثته وقد بيّن أموراً ثلاثة. . .

١ ـ أرسله ليبلغ الناس رسالة الله وينفذها في حياتهم ويطبقها عليهم. . .

٢ ـ أرسله لئلا يعذبهم بدون أن يبيّن لهم فيكون عذابهم مع بيانه عذراً له فلا يلام كما يكون لهم الحجة قبل البعثة وإيصال التكليف إليهم وتكون الحجة عليهم فيما لو قصروا وتهاونوا ولم يؤدوا المفروض عليهم. . .

٣ ـ أرسله ليتقدم لهم بالإنذار الذي هو تبليغ الأحكام مع التخويف من عذاب الله وعقابه وإن هناك من العذاب ما لا يقوى عليه بشر. .



الوصية بالتقوى

أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللّهِ بِتَقْوَىٰ ٱللّهِ ٱلَّذِي ضَرَبَ ٱلْأَمْثَالَ(١)، وَوَقَّتَ(٢) لَكُمُ ٱلآجَالَ(٣)، وَأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ(٤)، وَأَرْفَغَ(٥) لَكُمُ الْمَعَاشَ(٦)، وَأَحَاطَ(٧) بِكُمُ الْإِحْصَاءَ(٨)، وَأَرْصَدَ(٩) لَكُمُ ٱلْجَزَاءَ(١٠)، وَآثَرَكُمْ(١١) بِالنِّعَمِ(١٢) السَّوَابِغِ(١٣)، وَالرِّفَدِ(١٤) الرَّوَافِغِ(١٥)، وَأَنْذَرَكُمْ بِٱلْحُجَجِ(١٦)، ٱلْبَوَالِغِ(١٧)،

فَأَحْصَاكُمْ عَدَداً، وَوَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً[١٨]، فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ[١٩]، وَدَارِ عِبْرَةٍ[٢٠]، أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا، وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا.

اللغة

١ ـ الأمثال : جمع المثل الشبيه والنظير.
٢ ـ وقّت : ضرب له وقتاً أي مدة وزمناً.
٣ ـ الآجال : الأعمار.
٤ ـ الرياش : الثياب وقيل الفاخر منها.
٥ ـ أرفغ : العيش اتسع.
٦ ـ المعاش : جمعه معايش ما يعاش به من المطعم والمشرب، ما تكون به الحياة.
٧ ـ أحاط : بالشيء أحدق به من جوانبه.
٨ ـ الإحصاء : هو عدّ الشيء وضبطه...
٩ ـ أرصد : أعد.
١٠ ـ الجزاء : المكافأة.
١١ ـ آثركم : من الإيثار وهو تقديم الغير على النفس.
١٢ ـ النعم : العطايا.
١٣ ـ السوابغ : جمع سابغة وهي الواسعة.
١٤ ـ الرفد : جمع رفدة العطية والصلة.
١٥ ـ الروافغ : الواسعة.
١٦ ـ الحجج : البراهين والأدلة.
١٧ ـ البوالغ : الظاهرة القوية.
١٨ ـ المُدد : جمع مدة وهو الوقت والزمن.
١٩ ـ قرار خبرة : دار بلاء واختبار.
٢٠ ـ عبرة : عظة واعتبار.

الشرح

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب الأمثال) في هذا الفصل الوصية بتقوى الله التي تعني اجتناب محارمه والقيام بواجباته وقد وصفه بأنه ضرب الأمثال من أجل تقريبها

إلى الأذهان وجعل الأمور المعنوية بصور حسية من أجل أن يسهل إدراكها وتصورها...

وقد ضرب الله الأمثال في القرآن قال تعالى: **﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾**.

إلى غير ذلك من عشرات الأمثال...

(ووقت لكم الآجال) أي ضرب لأعماركم أوقاتاً محدودة تنتهي عندها لا يمكن تجاوزها أو التعدي عنها كما قال تعالى: **﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾** وإذا كانت آجالنا مؤقتة يجب أن نستعد لها ونهيىء لها أسباب النجاة...

(وألبسكم الرياش) فإنه سبحانه ألبس العباد الثياب فهداهم إلى حياكتها ولبسها منةً منه عليهم ليحفظوا عهده ويستروا عوراتهم فلا يعصوه...

(وأرفغ لكم المعاش) رزقكم من الطيبات ووسع عليكم في الأرزاق فإنه سبحانه أغدق على الناس أكثر من حاجاتهم ومما يستحقون...

(وأحاط بكم الإحصاء) فهو يعلم عدد الخلائق لقد أحصاهم وعدهم عداً فلا يشذ عن علمه أحد، يعلم الصالح والطالح والشقي والتقي...

(وأرصد لكم الجزاء) قد أعد لكل واحد جزاء عمله فالشقي إلى النار والتقي إلى الجنة قال تعالى: **﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذٍ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبّت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾**...

(وآثركم بالنعم السوابغ) أعطاكم العطايا الفائضة الواسعة الظاهرة والباطنة فتحتاج إلى شكر...

(والرفد الروافغ) العطايا الواسعة الكثيرة.

(وأنذركم بالحجج البوالغ) فقد جاء الأنبياء والرسل بأظهر الحجج وأقواها وقدموا بين أيدي الناس ما يرقق قلوبهم ويكون حجة عليهم يوم القيامة...

(فأحصاكم عدداً) فهو الذي يعرف عدد الخلق من مضى منهم ومن هو قائم ومن سيأتي بعد هذا.

(ووظف لكم مدداً) أي قدّر لكم مدة حياتكم في هذه الأرض وإذا كانت مدة حياتنا

معدودة مقدرة يجب أن نحولها كلها إلى طاعة الله ومرضاته. . .

(في قرار خبرة ودار عبرة) في دار اختبار وابتلاء، فيها يمتحن الإنسان ليظهر كفره من إيمانه وطاعته من عصيانه وهي دار عظة فيها يعتبر الإنسان عندما يراجع مسيرة الناس منذ القديم وإلى الآن فيرى الفراعنة والظالمين فيجتنب طريقتهم ويرى الأنبياء والمرسلين فيتبع طريقهم. . .

(أنتم مختبرون فيها ومحاسبون عليها) ففي الدنيا يكون الاختبار وفيها يكون الامتحان. . في دار الدنيا يتميز المطيع من العاصي والشقي من التقي كما أنّ الحساب عليها فإن كانت حلالاً جرى عليها الحساب وإن كانت حراماً جرى عليها العقاب.



التنفير من الدنيا

فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ(١) مَشْرَبُهَا(٢)، رَدِغٌ(٣) مَشْرَعُهَا(٤)، يُونِقُ(٥) مَنْظَرُهَا، وَيُوبِقُ(٦) مخْبَرُهَا(٧). غُرُورٌ(٨) حَائِلٌ(٩)، وَضَوْءٌ آفِلٌ(١٠)، وَظِلٌّ زَائِلٌ، وَسِنَادٌ(١١) مَائِلٌ(١٢)، حَتَّىٰ إِذَا أَنِسَ(١٣) نَافِرُهَا(١٤)، وَٱطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا(١٥)، قَمَصَتْ(١٦) بِأَرْجُلِهَا، وَقَنَصَتْ(١٧) بِأَحْبُلِهَا(١٨)، وَأَقْصَدَتْ(١٩) بِأَسْهُمِهَا، وَأَعْلَقَتِ(٢٠) ٱلْمَرْءَ أَوْهَاقَ(٢١) ٱلْمَنِيَّةِ(٢٢) قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ(٢٣) ٱلْمَضْجَعِ(٢٤)، وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ(٢٥)، وَمُعَايَنَةِ(٢٦) ٱلْمَحَلِّ وَثَوَابِ ٱلْعَمَلِ، وَكَذٰلِكَ ٱلْخَلَفُ بِعَقْبِ السَّلَفِ(٢٨)، لاَ تُقْلِعُ(٢٩) ٱلْمَنِيَّةُ ٱخْتِرَاماً(٣٠)، وَلاَ يَرْعَوِي(٣١) ٱلْبَاقُونَ ٱجْتِرَاماً(٣٢)، يَحْتَذُونَ(٣٣) مِثالاً، وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً(٣٤)، إِلَىٰ غَايَةِ ٱلانْتِهَاءِ، وَصَيُّورِ(٣٥) ٱلْفَنَاءِ.

اللغة

١ ـ **الرنق** : الكدر.

٢ ـ **المشرب** : مورد الماء.

٣ ـ **الردغ** : الوحل والطين المختلط بالماء.

٤ ـ المشرع	:	مورد الشرب .
٥ ـ يونق	:	يُعجب .
٦ ـ يوبق	:	يهلك .
٧ ـ المخبر	:	المنظر .
٨ ـ الغرور	:	من غرّه إذا خدعه .
٩ ـ الحائل	:	المتغير اللون .
١٠ ـ الآفل	:	الغائب .
١١ ـ السناد	:	ما يستند ويعتمد عليه .
١٢ ـ المائل	:	من الحيطان أي غير المستوي .
١٣ ـ أنس	:	ضد استوحش وهو سكون القلب وعدم النفور .
١٤ ـ النافر	:	المتباعد .
١٥ ـ الناكر	:	المنكر للأمر .
١٦ ـ قمصت	:	الدابة إذا رفعت يديها وطرحتهما معاً .
١٧ ـ قنصت	:	اصطادت .
١٨ ـ الأحبل	:	الحبال والشباك .
١٩ ـ أقصدت	:	أصابت القصد .
٢٠ ـ أعلقت به	:	ربطت بعنقه .
٢١ ـ الأوهاق	:	جمع وهق بالفتح وهو الحبل .
٢٢ ـ المنية	:	الموت .
٢٣ ـ الضنك	:	الضيق .
٢٤ ـ المضجع	:	موضع الضجع وهو إلقاء الإنسان جنبه بالأرض، القبر .
٢٥ ـ المرجع	:	محل الرجوع والعود .
٢٦ ـ المعاينة	:	المشاهدة بالعين .
٢٧ ـ الخلف	:	المتأخرون .
٢٨ ـ السلف	:	المتقدمون .
٢٩ ـ أقلع	:	كف .
٣٠ ـ الاخترام	:	الاستئصال .
٣١ ـ لا يرعوي	:	لا يرتدع .
٣٢ ـ الاجترام	:	ارتكاب الجرائم .
٣٣ ـ يحتذون	:	يقتدون .
٣٤ ـ الارسال	:	القطيع من الإبل .
٣٥ ـ صيّور الأمر	:	مصيره وما يؤول إليه .

الشرح

(فإن الدنيا رنق مشربها) وصف الدنيا بعدة أوصاف كلها لتبيّن حقيقتها والتحذير منها فأولى أوصافها أن لذاتها مشوبة بالمنغصات والآلام وكما يقول الحكماء ليس هناك لذة كاملة أو كما يقول بعضهم الملذات رفع للحاجات. . .

(ردغ مشرعها) شبه متناول الدنيا وطالبها برجل دخل في أرض موحلة فكما أن هذا تزل قدمه ويسقط ولا يتخلص إلا وعليه آثار الوحل كذلك الدنيا تزل أقدام طلابها ومتناوليها إلا من كان له القدرة القوية على تجاوزها بفكره وفهمه. . .

(يونق منظرها ويوبق مخبرها) فالدنيا جميلة إذا نظر إليها الإنسان بمنظار ما يظهر منها فهناك أموال وجمال وعقارات وملاهي وملاذ. . هناك جنات وطيبات هذا ما يظهر من الدنيا ولكن لو نظر الإنسان إلى حقيقتها رأى هلاكه في هذه الأشياء. . رأى أن المال إذا أخذ من غير طريقه المشروع جريمة كما إنه إذا صرف في غير مورده جريمة. . والحكم إذا لم يكن لله فهو جريمة. . وهكذا حال الدنيا كلها إذا لم تكن لله كانت مصيبة على أصحابها فهي تهلك هذا الإنسان دون أن يعرف. . .

(غرور حائل) إنها تغرّ الإنسان وتضعه في أجواء السعادة ثم لا تلبث أن ترميه بالبلاء والمصائب فكم من سامر عاش لذة سمره مع أحبابه وأقرانه لم يطلع الفجر عليه إلا في مساءة وحزن وألم. . .

(وضوء آفل) فهي كالضوء الذي يؤنس الإنسان ويريه الدرب ثم لم يلبث أن يتحرك حتى ينطفىء فيتحير الإنسان ولا يقدر على الحركة. . .

(وظل زائل) فلا يكاد يستريح الإنسان إليها حتى تخرج من يده ولا تعود إليه. . .

(وسناد مائل) لا يستطيع الإنسان أن يستند إليها ويعتمد عليها لأنها تتركه يسقط بمجرد أن يطمئن إليها لأنها لا تدوم لأحد. . .

(حتى إذا أنس نافرها وأطمأن ناكرها) هذه هي حال الدنيا تجذب إليها من كان هارباً منها نافراً عنها وكذلك من كان منكراً لها وعليها تجعله بلذاتها مطمئناً إليها حتى إذا أنس النافر واطمأن الناكر لم تدعهم بأنسهم واطمئنانهم بل. . .

(قمصت بأرجلها) فاجأتهم بهذه الوحشة المرة دفعتهم عنها فاستبدلت أنسهم بالوحشة. . .

(وقنصت بأحبلها) اصطادتهم بحبالها وشراكها التي نصبتها لهم من حب الدنيا والانحراف والتطلع إلى ما فيه الهلاك. . .

(وأقصدت بأسهمها) رمتهم بأسهمها التي هي الأمراض والآفات فأصابت مقصدها وما هدفت إليه. . .

(وأعلقت المرء أوهاق المنية) ربطت هذا الإنسان بحبال الموت التي هي الأمراض والآفات التي تزوره بين الحين والآخر وقد تحل به ولا تخرج منه إلا بخروج روحه. . .

(قائدة له إلى ضنك المضجع) فهذه الأمراض تقود هذا الإنسان إلى ضيق القبر وشدته ويا لها من قائدة ما أقساها وأقواها. . .

(ووحشة المرجع) فإن المرجع إلى القبر وهو بيت الوحشة وبيت الغربة وبيت الوحدة حيث لا أهل ولا أحباب ولا أصدقاء. . . تخلى الجميع عنه وتركوه في حفرته وحيداً غريباً. . .

(ومعاينة المحل) إنه سيرى موقعه ومحله الذي سيصل إليه، لقد انكشف الغطاء. . فإن القبر إما روضة من رياض الجنان أو حفرة من حفر النيران. . أو كما يقول الحديث الآخر يفتح في القبر فتحة يرى موقعه في الجنة فيتنعم أو يرى موقعه في النار فيتألم. . .

(وثواب العمل) فما كان يعمله في دار الدنيا من الخيرات والأعمال الصالحة سينال جزاءه وثوابه بعد الموت.

(وكذلك الخلف بعقب السلف) فيموت الأولون من الآباء والأجداد ويأتي الأبناء والحفدة ولا يعتبرون بما فعلت الدنيا بمن تقدم عليهم من أسلافهم ومن تقدم عليهم. . .

(لا تقلع المنية اختراماً) لا تخطىء المنية إصابتهم بل إصابتها في الضميم ولكل فرد فرد وهي لا ترتدع عن أخذهم أو الكف عن تناولهم وشاهد الحال ما نراه من عدم بقاء أحد ممن تقدم علينا. . .

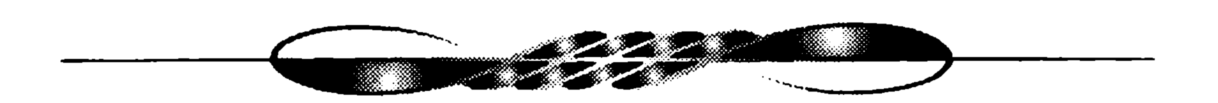
(ولا يرعوي الباقون اجتراماً) فبالرغم من مشاهدتهم للمنية وما فعلت بمن تقدم عليهم فإن هؤلاء السلف الباقين لا يرتدعون أو يكفون عما يعملون من المعاصي والآثام وما فيه غضب الرحمن. . .

(يحتذون مثالاً) إنهم يسيرون بسيرة من تقدمهم ويقتفون أثرهم دون أن يعتبروا بما

حل بهم وما أهلكهم. . إنهم مثلهم وعلى طريقتهم. . .

(ويمضون أرسالاً) يمضون متتابعين مترسلين نحو هدفهم المرسوم لهم من لقاء الله ونيل جزائه. . .

(إلى غاية الانتهاء وصيور الفناء) وهذه هي غاية ونهاية مسيرتهم إنها إلى الفناء والهلاك وبعده يأتي الحساب فيعطي للمطيع الثواب وللعاصي العقاب. .



بعد الموت البعث

حَتَّىٰ إِذَا تَصَرَّمَتِ(١) ٱلْأُمُورُ، وَتَقَضَّتِ(٢) الدُّهُورُ(٣)، وَأَزِفَ(٤) النُّشُورُ(٥)، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ(٦) ٱلْقُبُورِ، وَأَوْكَارِ(٧) الطُّيُورِ، وَأَوْجِرَةِ(٨) السِّبَاعِ، وَمَطَارِحِ(٩) ٱلْمَهَالِكِ، سِرَاعاً إِلَىٰ أَمْرِهِ، مُهْطِعِينَ(١٠) إِلَىٰ مَعَادِهِ، رَعِيلاً(١١) صُمُوتاً(١٢)، قِيَاماً صُفُوفاً، يَنْفُذُهُمُ ٱلْبَصَرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ(١٣) ٱلِاسْتِكَانَةِ(١٤)، وَضَرَعُ(١٥) ٱلِاسْتِسْلَامِ وَالذِّلَّةِ(١٦). قَدْ ضَلَّتِ ٱلْحِيَلُ(١٧)، وَٱنْقَطَعَ ٱلْأَمَلُ، وَهَوَتِ(١٨) ٱلْأَفْئِدَةُ(١٩) كَاظِمَةً(٢٠)، وَخَشَعَتِ(٢١) ٱلْأَصْوَاتُ مُهَيْمِنَةً(٢٢)، وَأَلْجَمَ(٢٣) ٱلْعَرَقُ(٢٤)، وَعَظُمَ الشَّفَقُ(٢٥)، وَأُرْعِدَتِ(٢٦) ٱلْأَسْمَاعُ لِزَبْرَةِ(٢٧) الدَّاعِي إِلَىٰ فَصْلِ ٱلْخِطَابِ، وَمُقَايَضَةِ(٢٨) ٱلْجَزَاءِ، وَنَكَالِ(٢٩) ٱلْعِقَابِ، وَنَوَالِ(٣٠) الثَّوَابِ.

اللغة

١ ـ تصرمت : انقطعت وذهبت.

٢ ـ تقضت : تصرمت.

٣ ـ الدهور : الأزمان.

٤ ـ أزف : دنا وقرب.

٥ ـ **النشور** : البعث والحياة بعد الموت.
٦ ـ **الضرائح** : جمع ضريح الشق في وسط اللحد.
٧ ـ **الأوكار** : جمع وكر وهو عش الطائر.
٨ ـ **الأوجرة** : جمع وجار وهو بيت السباع والضباع ونحوها.
٩ ـ **مطارح** : أماكن الطرح والإلقاء.
١٠ ـ **مهطعين** : مسرعين مع خوف.
١١ ـ **الرعيل** : جماعة من الناس مجتمعين.
١٢ ـ **الصموت** : السكوت.
١٣ ـ **اللبوس** : بالفتح ما يلبس.
١٤ ـ **الاستكانة** : الخضوع.
١٥ ـ **ضرع** : بالتحريك الوهن والضعف.
١٦ ـ **الذلة** : الإهانة.
١٧ ـ **ضلت الحيل** : بطلت وتعطلت.
١٨ ـ **هوت** : سقطت.
١٩ ـ **الأفئدة** : القلوب.
٢٠ ـ **كاظمة** : مكروبة.
٢١ ـ **خشعت** : ذلت وخضعت.
٢٢ ـ **الهيمنة** : الصوت الخفي.
٢٣ ـ **اللجام** : حديدة توضع في فم الفرس.
٢٤ ـ **العرق** : ما يترشح من بدن الإنسان من الماء.
٢٥ ـ **الشفق** : محركة الخوف.
٢٦ ـ **أرعدت** : عرتها الرعدة.
٢٧ ـ **الزبرة** : من زبره إذا نهره وزجره.
٢٨ ـ **المقايضة** : المعاوضة.
٢٩ ـ **النكال** : العقوبة.
٣٠ ـ **النوال** : العطاء.

الشرح

(حتى إذا تصرمت الأمور وتقضت الدهور وأزف النشور) بعد أن ذكر صلوات الله عليه مآل الإنسان ومصيره وإنه سيرجع إلى القبور أراد أن يبيّن ما يلحقه بعد ذلك. . . إنه سيبقى فيها رهينة إلى أن تنقضي الأيام والأزمنة المقدرة لهذه الدنيا ويقترب وقت

الحساب وخروج الناس من قبورهم للوقوف بين يدي الله عندها. . .

(أخرجهم من ضرائح القبور وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطارح المهالك) أمرهم بالخروج من مواضعهم وأماكنهم فمن توفر له قبر أخرجه منه ومن أكلته الطيور أعاده من لحومها ومن افترسته السباع عاد بقدرة الله من بطونها ومن بقي في العراء طريحاً حللته عوامل الأيام فتحول إلى تراب سيعود من مكان موته وهكذا سيجمع الله الجميع وإن تعددت أماكن قبورهم ومواضع القضاء عليهم. . .

(سراعاً إلى أمره) وقد وصف حالهم حين صدور أمره لهم بالنشور والخروج بأوصاف يرق لها القلب القاسي الشديد وأول أوصاف خروجهم أنهم يخرجون مسرعين إلى تنفيذ أمره بالخروج فلا تباطؤ ولا تأخير. . .

(مهطعين إلى معاده) مسرعين إلى الوقت الذي واعدهم فيه أن يعيدهم.

(رعيلاً صموتاً) مجتمعين في سكوت وخشوع ينتظرون ثوابه أو عقابه. . .

(قياماً صفوفاً ينفذهم البصر) إنهم قائمون في صفوف منتظمة تحت رقابة الله ونظره لا يفوته منهم أحد ولا يخرج عن إحصائه لهم كثرة عدد. . .

(ويسمعهم الداعي) تصل أصوات الداعي الذي يبلغهم ذلك عن الله إلى الجميع إنه قد أعطاه الله القدرة على إيصال صوته إلى كل أذن في ذلك المحشر العام. . .

(عليهم لبوس الاستكانة) وهذا وصف لهم في تلك الحالات الصعبة في المحشر إنهم في صورة المسكنة والخضوع قولاً وحركة ومظهراً ومخبراً. . .

(وضرع الاستسلام والذلة) بادية عليهم الذلة في استسلام للأمر الواقع بهم فلا يرفضون ولا يعاندون، إنه لهول ذلك اليوم ينقاد كل شيء ويستسلم ويذل. . .

(قد ضلت الحيل) بطلت وسائل التخلص المختلفة التي كان يستعملها الإنسان في دار الدنيا ولم يعد لها وجود أو دور. . .

(وانقطع الأمل) فلا أمل في الدنيا بعد اليوم لأنهم لن يعودوا إليها. . .

(وهوت الأفئدة كاظمة) سقطت القلوب عن أماكنها في كرب وحزن وألم خالية من كل فرح وسرور فإن ذلك الوقت لهوله وشدته لم يملك الإنسان قلبه ولم يملك شجاعته بل يتهاوى ويتساقط. . .

(وخشعت الأصوات مهيمنة) انخفضت تلك الأصوات التي كانت عالية فلا تسمع

إلا همساً كما قال تعالى: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾.

(وألجم العرق) ولشدة يوم القيامة يصل العرق الذي يرشح من بدن الناس إلى أفواههم فيلجمهم عن الكلام ويمنعهم عن النطق...

(وعظم الشفق) اشتد الخوف والفزع وكيف لا يخشى من ذلك اليوم ويخاف منه وفيه هذه الأهوال والشدائد؟!...

(وأرعدت الأسماع لزبرة الداعي إلى فصل الخطاب ومقايضة الجزاء ونكال العقاب ونوال الثواب) اضطربت أسماع البشر واهتزت لصوت الداعي الذي يدعوها إلى الحساب العادل والتام، إنها زجرة وصيحة من أجل أن يرفع كل حسابه وينال جزاءه فما عمله في الدنيا له جزاء الآن ونتيجته ستظهر في هذا الموقف فمن عمل خيراً كان له الثواب عطاء من الله ومن عمل الشر نال العقوبة والعذاب، إنه موقف رهيب يأخذ الإنسان فيه نتيجة عمله ويحصد ما زرع ويقطف ثمرة ما غرس..



تنبيه الخلق

عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ ٱقْتِدَاراً[١]، وَمَرْبُوبُونَ ٱقْتِسَاراً[٢]، وَمَقْبُوضُونَ ٱحْتِضَاراً[٣]، وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً[٤]، وَكَائِنُونَ رُفَاتاً[٥]، وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً، وَمَدِينُونَ[٦] جَزَاءً[٧]، وَمُمَيَّزُونَ[٨] حِسَاباً. قَدْ أُمْهِلُوا[٩] فِي طَلَبِ ٱلْمَخْرَجِ، وَهُدُوا سَبِيلَ ٱلْمَنْهَجِ[١٠]؛ وَعُمِّرُوا[١١] مَهَلَ ٱلْمُسْتَعْتِبِ[١٢]، وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ[١٣] الرِّيَبِ[١٤]، وَخُلُّوا[١٥] لِمِضْمَارِ[١٦] ٱلْجِيَادِ[١٧]، وَرَوِيَّةِ[١٨] ٱلارْتِيَادِ[١٩]، وَأَنَاةِ[٢٠] ٱلْمُقْتَبِسِ[٢١] ٱلْمُرْتَادِ[٢٢]، فِي مُدَّةِ ٱلأَجَلِ[٢٣]، وَمُضْطَرَبِ[٢٤] ٱلْمَهَلِ.

اللغة

١ ـ الاقتدار : القدرة.

٢ ـ الاقتسار : من القسر وهو القهر.

٣ ـ الاحتضار : حضور الموت.
٤ ـ الأجداث : القبور.
٥ ـ الرفات : بضم الراء الحطام والفتات.
٦ ـ مدينون : مجزيون من الدين وهو الجزاء.
٧ ـ الجزاء : المكافأة.
٨ ـ مميزون : من التمييز وهو الفصل والتبيين.
٩ ـ أمهلوا : من الإمهال وهو التأخير.
١٠ ـ المنهج : الطريق الواضح.
١١ ـ أعمروا : عاشوا حياة طويلة.
١٢ ـ مهل المستعتب : المهل هو الإمهال والمستعتب هو المسترضي.
١٣ ـ السدف : جمع سدفة وهي الظلمة.
١٤ ـ الريب : جمع ريبة وهي الشبهة وابهام الأمر.
١٥ ـ خلوا : تركوا.
١٦ ـ المضمار : الزمان أو المكان الذي تضمّر فيه الخيل.
١٧ ـ الجياد : كرام الخيل.
١٨ ـ الروية : التدبر والتفكر.
١٩ ـ الارتياد : طلب ما يراد.
٢٠ ـ الأناة : التأخير والانتظار.
٢١ ـ المقتبس : طالب العلم والنار.
٢٢ ـ المرتاد : الطالب.
٢٣ ـ الأجل : الوقت، مدة العمر.
٢٤ ـ المضطرب : مدة الاضطراب أي الحركة.

الشرح

(**عباد مخلوقون اقتداراً**) ذكر الإمام أناساً مرت أوصافهم فيما تقدم وذكر ما ينتابهم في يوم الحشر والنشر وذكر هنا لِأولئك أوصافاً تحملهم على خط الطاعة والإيمان وتبعدهم عن طريق التمرد والعصيان وينبه بهذا الكلام على ما خلقوا من أجله وما يصير أمرهم إليه . . .

فاؤلئك الناس الذين تقدم ذكرهم مخلوقون بقدرة الله القادر القوي وليس بقدرتهم

ومن كان مخلوقاً لله وبقدرته لا يجوز أن يخالف أمره ويعصيه. . .

(ومربوبون اقتساراً) وهم مملوكون لخالقهم قهراً عنهم وليس بقدرتهم ومن كان مملوكاً وجب عليه الطاعة لمالكه. . .

(ومقبوضون احتضاراً) الله سبحانه يقبضهم إليه ويحضرهم بالموت إلى جنابه، فإذا حضر الموت فارقت نفس هذا الإنسان الحياة ووقع حسابه على الله. . .

(ومضمنون أجداثاً) وبعد القصور مصيرهم إلى القبور حيث تضمهم إلى البعث والنشور. . .

(وكائنون رفاتاً) وهذا ما نراه بالعيان فعندما يفتح بعض القبور القديمة لا نرى إلا عظاماً تحولت إلى تراب قد أكلها الزمن وفتتها وفرقها. . .

(ومبعوثون أفراداً) كل إنسان يأتي وحده قد تخلى عنه أهله وأولاده وأصحابه وترك أمواله وأرزاقه كما قال تعالى: ﴿**ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم. . .**﴾ أو قوله تعالى: ﴿**وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً**﴾. . .

(ومدينون جزاء) تُجزون بما كنتم تعملون فمن عمل خيراً يجزى بالجنة ومن عمل شراً يجزى بالنار كما قال تعالى: ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون**﴾.

(ومميزون حساباً) ولا بد أن يميزوا بحسب الجزاء فالمحسنون سينفردون طائفة خاصة يتحركون نحو الجنة والمسيئون سينفردون بأوصافهم طائفة أخرى يتحركون إلى النار. . .

(قد أمهلوا في طلب المخرج) أخرهم الله في الدنيا من أجل أن يدركوا طريق الخير والرشاد فيعودوا إلى الطاعة ويتركوا المعصية ففي الدنيا سعة من أجل رجوعهم إلى الله. . .

(وهدوا سبيل المنهج) وضعهم الله على الطريق السليم حيث وفرّ لهم سبل الهداية بما زودهم به من العقول وما بعث لهم من الرسل والأنبياء والمبشرين. . .

(وعمرّوا مهل المستعتب) مد الله في أعمارهم طويلاً وأمهلهم في دار الدنيا كي يرجعوا إلى أنفسهم ويتوبوا إلى ربهم كما يمهل من أريد استعتابه ورجوعه فإنه يعطي من الوقت ما به تكون عودته والله أعطانا أعماراً طويلة لنعود إليه ونرجع إلى رحابه. . .

(وكشفت عنهم سدف الريب) كشف الله عن بصائرهم ظلمات الشك والتردد بما أرسل إليهم من الرسل وزودهم به من العقول لإزاحة الشبه والظنون وإدخالهم في عالم العلم واليقين. . .

(وخلوا لمضمار الجياد) فقد تركهم الله في الدنيا كي يستعدوا للفوز في الآخرة كما تترك كرائم الخيل في محل تضميرها أو زمانه من أجل السباق والفوز بالجائزة. . .

(وروية الارتياد) أمهلهم من أجل طلب الحق والوقوف على العلم الصحيح الموصل إلى اليقين. . .

(وأناة المقتبس المرتاد في مدة الأجل ومضطرب المهل) فكما يتأنى المقتبس لجذوة النار كي يبصر أمامه ويرتاد مقصده كذلك الله أمهلهم في الدنيا مدة أجلهم فيها وأعمارهم التي أعطاهم حتى يتحركوا نحو سعادتهم ويمشوا إلى نعيمهم. . .



فضل التذكير

فَيَالَهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً[١]، وَمَوَاعِظَ[٢] شَافِيَةً[٣]، لَوْ صَادَفَتْ[٤] قُلُوباً زَاكِيَةً[٥]، وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً[٦]، وَآرَاءً[٧] عَازِمَةً[٨]، وَأَلْبَاباً[٩] حَازِمَةً[١٠]! فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ[١١]، وَٱقْتَرَفَ[١٢] فَٱعْتَرَفَ، وَوَجِلَ[١٣] فَعَمِلَ، وَحَاذَرَ[١٤] فَبَادَرَ[١٥]، وَأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ، وَعُبِّرَ فَٱعْتَبَرَ[١٦]، وَحُذِّرَ فَحَذِرَ، وَزُجِرَ فَٱزْدَجَرَ[١٧]، وَأَجَابَ فَأَنَابَ[١٨]، وَرَاجَعَ فَتَابَ، وَٱقْتَدَىٰ[١٩] فَاحْتَذَىٰ[٢٠]، وَأُرِيَ فَرَأَىٰ، فَأَسْرَعَ طَالِباً، وَنَجَا هَارِباً، فَأَفَادَ[٢١] ذَخِيرَةً[٢٢]، وَأَطَابَ[٢٣] سَرِيرَةً[٢٤]، وَعَمَّرَ مَعَاداً، وَٱسْتَظْهَرَ زَاداً[٢٥]، لِيَوْمِ رَحِيلِهِ وَوَجْهِ سَبِيلِهِ[٢٦]، وَحَالِ حَاجَتِهِ، وَمَوْطِنِ فَاقَتِهِ[٢٧]، وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ. فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ عِبَادَ ٱللّٰهِ جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ، وَٱحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ[٢٨] مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَٱسْتَحِقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ[٢٩] لِصِدْقِ مِيعَادِهِ[٣٠]، وَٱلْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ[٣١].

اللغة

١ ـ صائبة	:	غير عادلة عن الصواب، أدركه وأصابه.
٢ ـ المواعظ	:	النصائح وكل كلام يعيد الإنسان إلى الله.
٣ ـ الشافية	:	البريئة من المرض ونحوه.
٤ ـ صادفت	:	لاقت.
٥ ـ الزاكية	:	الطاهرة.
٦ ـ الواعية	:	الحافظة.
٧ ـ الآراء	:	المعتقدات وما يراه الإنسان.
٨ ـ العازمة	:	ذات العزم.
٩ ـ الألباب	:	العقول.
١٠ ـ الحازمة	:	ذات الحزم والحزم ضبط الرجل أمره.
١١ ـ خشع	:	خضع.
١٢ ـ اقترف	:	اكتسب.
١٣ ـ الوجل	:	الخوف.
١٤ ـ حاذر	:	من حذر الشيء إذا خافه.
١٥ ـ بادر	:	سارع.
١٦ ـ اعتبر	:	اتعظ.
١٧ ـ الزجر	:	المنع.
١٨ ـ اناب	:	رجع وتاب.
١٩ ـ اقتدى به	:	فعل مثل فعله.
٢٠ ـ احتذى	:	شاكل بين عمله وعمل مقتداه فأحسن القدوة.
٢١ ـ أفاد	:	استفاد.
٢٢ ـ الذخيرة	:	ما يدخره الإنسان ويجمعه لوقت الحاجة.
٢٣ ـ أطاب	:	جعلها طيبة أي غير خبيثة.
٢٤ ـ السريرة	:	الدخيلة، ضد العلانية.
٢٥ ـ استظهر زاداً	:	أعده.
٢٦ ـ السبيل	:	الطريق.
٢٧ ـ الفاقة	:	الحاجة.
٢٨ ـ الكفة	:	حقيقة الشيء ونهايته وغايته.
٢٩ ـ التنجز	:	الاستعجال وعدم التأخير.

٣٠ ـ الميعاد : الوعد.
٣١ ـ المعاد : من الإعادة وهو الآخرة.

الشرح

(فيا لها أمثالاً صائبة ومواعظ شافية) أشار هنا إلى ما قدمه من الكلام، أراد أن يرغبّهم فيه ويدفعهم للتأثر بمضمونه فيقول يا لها وما أعظمها أمثالاً أدركت مرادها وحققت مطلوبها ومواعظ تبرىء العليل وتشفي المريض وليس العجز في البيان وإنما العجز في هذا الإنسان والمعتبر قليل ومن أراد أدرك فهذا همام الذي وعظه الإمام في خطبة المتقين تفارق روحه الحياة لتأثره بالموعظة بينما غيره يقابلها بالجفاء والخشونة ولا يتأثر بها من قريب أو بعيد. . .

(لو صادفت قلوباً زاكية وأسماعاً واعية وأراء عازمة وألباباً حازمة) فهذه الأمثال تدرك مقصودها وهذه المواعظ تشفي المرضى إذا كان السامع قابلاً لذلك وهذا لا يتحقق إلا إذا التقت هذه الكلمات مع القلوب الطاهرة التي لم تتكدر بأوساخ الحقد والأنانية والحسد والأمراض الأخرى وكذلك كانت الأسماع واعية أي حافظة متأثرة بالكلام وكذلك يشترط أن تكون الآراء قاصدة للرشد والهداية وكانت العقول قابلة للأخذ بالحزم والقوة واليقين. . .

(فاتقوا الله تقية من سمع فخشع) أمرهم بتقوى الله التي تكون مثل تقوى من استجمع هذه الأوصاف وهي في مقام عظيم. . .

تقوى من سمع للحق وصوت العدل فخضع له والتزمه. . .

(واقترف فاعترف) وتقوى من اكتسب إثماً وعصى ربه فاحترق قلبه بنار المعصية فبادر إلى الاعتراف والإقرار بمعصيته ومن ثم إلى التوبة ومحو الحوبة. . .

(ووجل فعمل) تقوى من خاف ربه فعمل لرضاه بترك معاصيه والقيام بأوامره فإن من خاف أمراً هرب منه ومن أراد أمراً طلبه. . .

(وحاذر فبادر) تقوى من خاف عقوبة ربه فبادر إلى العمل بما يرضاه ومن خاف أحداً عمل بأمره ولم يتعرض لسخطه. . .

(وأيقن فأحسن) تقوى من أيقن بالجزاء والثواب والعقاب فأحسن عمله لينال أجره ويدرك ثوابه. . .

(وعبر فاعتبر) تقوى من رأى مواعظ الله في خلقه مراراً بل قد تكون في نفسه فاتعظ بها وأخذ الدرس ليفوز بالسعادة التي هي نتيجة العمل بما رأى من الموعظة. . .

(وحذّر فحذر) تقوى من خُوّف من عقاب الله وعذابه فخاف منه وارتدع عن كل ما يسخطه. . .

(وزجر فازدجر) تقوى من مُنع تكليفاً عن المحرمات وكل ما يضر فامتنع عنها وتوقف عن ممارستها. . .

(وأجاب فأناب) سمع كلام الله فأجابه ولبى نداءه ثم رجع إليه وعاد إلى رحابه وما يحب ويرضى. . .

(وراجع فتاب) تقوى من راجع ذنبه والتفت إليه وأدرك أثره وقبحه فتاب إلى الله منه وامتنع عن العودة إليه. . .

(واقتدى فاحتذى) تقوى من اقتدى بالأنبياء ورآهم المثل الأعلى له فاحتذى حذوهم وسار بطريقتهم وعلى نهجهم وما رسموه وشرعوه. . .

(وأري فرأى) أري الدلالات والعلامات الموصلة إلى الله فرآها حقيقة وأدركها بعين العقل والفهم فكانت نتيجة رؤيته ووقوفه أنه. . .

(فأسرع طالباً ونجا هارباً) أسرع طالباً للجنة ومريداً لها يعمل من أجل الوصول إليها كما إنه هرب من النار فنجا من ألمها وشدة حرارتها وأيضاً. . .

(فأفاد ذخيرة) اكتسب أعمالاً صالحة يعدها لهول يوم الحساب والوقوف بين يدي الرحمن. . .

(وأطاب سريرة) عمل على ما يصلح نفسه ويجعل سره وما في قلبه طيباً بأن ينوي الخير للناس وكل ما ينفعهم ويبادر إلى ذلك ولا ينوي لأحد سوءاً. . .

(وعمّر معاداً) جعل يوم حسابه عامراً بالخيرات والأعمال الصالحة ومن كان يوم حسابه مملؤاً بالطاعات نجا. . .

(واستظهر زاداً) أي حمل على ظهره زاداً من الخيرات والأعمال الصالحة أي عمل الأعمال الطيبة الصالحة التي تنفعه في ساعات الحاجة وأوقات الاضطرار. . .

(ليوم رحيله ووجه سبيله وحال حاجته وموطن فاقته) فهذا الزاد الذي يحمله ويعمل له إنما هو ليوم الآخرة حيث يرحل من الدنيا ويقصد الوقوف بين يدي الله

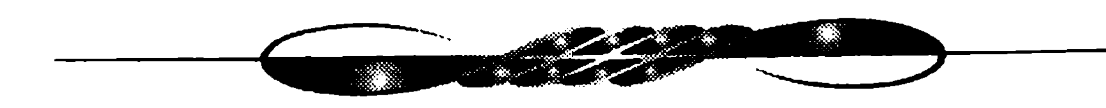
للحساب والجزاء وفي تلك الحال فهو من أشد الناس حاجة، إنه مقام الفاقة والفقر يحتاج الإنسان فيه إلى صغير العمل الصالح فضلاً عن كبيره. . .

(وقدم أمامه لدار مقامه) أي قدم التقوى والعمل الصالح أمامه إلى دار الإقامة والدوام فلا يتحول عنها وكيف يتحول وقد اختارها بأعماله وسلوكه. . .

(فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له) أمرهم بتقوى الله التي تعني العمل بأوامره والامتناع عن نواهيه ولكن التقوى التي لأجلها خلقهم الله وهي الوصول إلى معرفته وإدراك مقاصده بدون رياء ولا سمعة ولا غرض من أغراض الدنيا فإنا خلقنا لأجل معرفته وعبادته فيجب أن نتوجه إلى هذا الهدف دون غيره مما لا يوصل إليه. . . .

(واحذروا منه كنه ما حذركم من نفسه) احذروا من الله حقيقة تحذيره الذي قطعه على نفسه فإنه أخذ عليها عقاب من عصاه وتمرد على رأيه ولم يعمل بأمره قال تعالى: **﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾**. . .

(واستحقوا منه ما أعد لكم بالتنجز لصدق ميعاده والحذر من هول معاده) إجعلوا أنفسكم مستحقة لما أعده لكم وقد أعد جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يستحقها إلا من عمل لها وذلك بالمبادرة إلى فعل ما أمر والصدق في طلب ما أراد وإن وراء هذه الدنيا حساب وعقاب وكذلك بالخوف والحذر من شدائد الحساب والعقاب، فنصدق ما وعدنا به بالعمل له ونخاف من شدائد الحساب فنستعد له . .



التذكير بضروب النعم

ومنها: جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ[١] مَا عَنَاهَا[٢]، وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ[٣] عَنْ عَشَاهَا[٤]، وَأَشْلاَءَ[٥] جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا، مُلاَئِمَةً[٦] لِأَحْنَائِهَا[٧]، فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا، وَمُدَدِ عُمُرِهَا، بِأَبْدَانٍ[٨] قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا[٩]، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ[١٠] لِأَرْزَاقِهَا، فِي مُجَلِّلاَتِ[١١] نِعَمِهِ[١٢]، وَمُوجِبَاتِ[١٣] مِنَنِهِ[١١]، وَحَوَاجِزِ[١٥] عَافِيَتِهِ. وَقَدَّرَ[١٦] لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ، وَخَلَّفَ[٢٧] لَكُمْ عِبَراً[١٨] مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاَقِهِمْ[١٩]، وَمُسْتَفْسَحِ[٢٠]

خنَاقِهِمْ(٢١). أَرْهقَتْهُمُ(٢٢) ٱلْمَنَايَا(٢٣) دُونَ ٱلآمَالِ، وَشَذَّ بِهِمْ(٢٤) عَنْهَا تَخَرُّمُ(٢٥) ٱلآجَالِ(٢٦). لَمْ يَمْهَدُوا(٢٧) فِي سَلاَمَةِ ٱلأَبْدَانِ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ(٢٨) ٱلأَوَانِ(٢٩). فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ(٣٠) الشَّبَابِ إِلاَّ حَوَانِيَ(٣١) ٱلْهَرَمِ(٣٢)؟ وَأَهْلُ غَضَارَةِ(٣٣) الصِّحَّةِ إِلاَّ نَوَازِلَ(٣٤) السَّقَمِ(٣٥)؟ وَأَهْلُ مُدَّةِ ٱلْبَقَاءِ إِلاَّ آونَةِ(٣٦) ٱلْفَنَاءِ؟ مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ(٣٧)، وَأُزُوفِ(٣٨) ٱلانْتِقَالِ، وَعَلَزِ(٣٩) ٱلْقَلَقِ وَأَلَمِ ٱلْمَضَضِ(٤٠)، وَغُصَصِ(٤١) ٱلْجَرَضِ(٤٢)، وَتَلَفُّتِ(٤٣) ٱلاسْتِغَاثَةِ(٤٤) بِنُصْرَةِ ٱلْحَفَدَةِ(٤٥) وَٱلأَقْرِبَاءِ، وَالأَعِزَّةِ وَالْقُرَنَاءِ(٤٦)! فَهَلْ دَفَعَتِ ٱلأَقَارِبُ، أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ(٤٧)، وَقَدْ غُودِرَ(٤٨) فِي مَحَلَّةِ ٱلأَمْوَاتِ رَهِيناً(٤٩)، وَفِي ضِيقِ ٱلْمَضْجَعِ(٥٠) وَحِيداً، قَدْ هَتَكَتِ(٥١) ٱلْهَوَامُّ(٥٢) جِلْدَتَهُ، وَأَبْلَتِ(٥٣) النَّوَاهِكُ(٥١) جِدَّتَهُ(٥٥) وَعَفَتِ(٥٦) ٱلْعَوَاصِفُ(٥٧) آثَارَهُ، وَمَحَا(٥٨) ٱلْحَدَثَانِ(٥٩) مَعَالِمَهُ(٦٠)، وَصَارَتِ ٱلأَجْسَادُ شَحِبَةً(٦١) بَعْدَ بَضَّتِهَا، وَٱلْعِظَامُ نَخِرَةً(٦٢) بَعْدَ قُوَّتِهَا، وَٱلأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا(٦٣)، مُوقِنَةً(٦٤) بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا(٦٥)، لاَ تُسْتَزَادُ(٦٦) مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا، وَلاَ تُسْتَعْتَبُ(٦٧) مِنْ سَيِّئِ زَلَلِهَا(٦٨)! أَوَ لَسْتُمْ أَبْنَاءَ ٱلْقَوْمِ وَٱلآبَاءَ، وَإِخْوَانَهُمْ وَٱلأَقْرِبَاءَ؟ تَحْتَذُونَ(٦٩) أَمْثِلَتَهُمْ، وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ(٧٠)، وَتَطَؤُونَ(٧١) جَادَّتَهُمْ(٧٢)؟! فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا، لاَهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا، سَالِكَةٌ في غَيْرِ مِضْمَارِهَا! كَأَنَّ ٱلْمَعْنِيَّ(٧٣) سِوَاهَا، وَكَأَنَّ الرُّشْدَ في إِحْرَازِ(٧٤) دُنْيَاهَا.

اللغة

١ ـ وعى : حفظ وفهم.

٢ ـ ما عناها : ما أهمها.

٣ ـ تجلو : تكشف.

٤ ـ العشا : مرض في العين يرى فيها نهاراً ولا يرى ليلاً.
٥ ـ الأشلاء : جمع شلو وهو العضو.
٦ ـ الملائمة : الموافقة.
٧ ـ الأحناء : جمع حنو ما أعوج من البدن، الجوانب والجهات.
٨ ـ الأبدان : جمع بدن وهو جسد الإنسان.
٩ ـ الأرفاق : جمع رفق بكسر الراء المنفعة أو ما يستعان به عليها.
١٠ ـ رائدة : طالبة.
١١ ـ مجلّلات : من جلّله إذا غطاه وغمره.
١٢ ـ النعم : العطايا.
١٣ ـ الموجبات : الدواعي والبواعث والموجبة الكبيرة من السيئات أو الحسنات.
١٤ ـ المنن : جمع المنة وهو الإحسان.
١٥ ـ الحواجز : الموانع.
١٦ ـ قدّر : حدده في قدر معين لا يزيد ولا ينقص.
١٧ ـ خلفَ : ترك.
١٨ ـ العبر : العظات، ما يعتبر به الإنسان ويتعظ.
١٩ ـ الخلاق : النصيب.
٢٠ ـ المستفسح : السعة.
٢١ ـ الخناق : ما يشد على الحلق فيميت كالحبل وشبهه.
٢٢ ـ أرهقتهم : أعجلتهم وأدركتهم.
٢٣ ـ المنايا : جمع المنية الموت.
٢٤ ـ شذّبهم : قطعهم ومزقهم من شذب الشجرة إذا قشرها.
٢٥ ـ تخرمته : استأصلته واقتطعته.
٢٦ ـ الآجال : جمع الأجل وقت الموت.
٢٧ ـ لم يمهدوا : لم يهيئوا ويُصلحوا.
٢٨ ـ أُنف : أول.
٢٩ ـ الأوان : الأوقات.
٣٠ ـ البضاضة : النعومة، رقة الجلد وامتلاء البدن.
٣١ ـ الحواني : جمع الحنو وهو ضد الاستقامة.
٣٢ ـ الهرم : الكبر، أو أقصى الكبر.
٣٣ ـ الغضارة : النعمة والسعة والخصب.
٣٤ ـ النوازل : المصائب الشديدة.
٣٥ ـ السقم : المرض.

٣٦ ـ الآونة : جمع أوان الزمان .
٣٧ ـ الزيّال : من زايله إذا فارقه .
٣٨ ـ الأزوف : الدنو والقرب .
٣٩ ـ العلز : قلق واضطراب وهلع يصيب المريض المحتضر .
٤٠ ـ المضض : الوجع، وبلوغ الحزن من القلب .
٤١ ـ الغصص : جمع غصة وهي الشجا .
٤٢ ـ الجرض : هو ابتلاع الريق على هم .
٤٣ ـ التلفت : صرف الوجه نحو الشيء والنظر إليه .
٤٤ ـ الاستغاثة : الاستعانة .
٤٥ ـ الحفدة : أولاد الأولاد .
٤٦ ـ القرناء : الأصحاب .
٤٧ ـ النواحب : جمع ناحبة التي ترفع صوتها بالبكاء .
٤٨ ـ غودر : تُرك وبقي .
٤٩ ـ رهيناً : حبيساً
٥٠ ـ المضجع : مكان الاضطجاع، القبر .
٥١ ـ هتكت : جذبت وقطعت وانتزعت .
٥٢ ـ الهوام : الحيات وكل ذي سم يقتل .
٥٣ ـ أبلت : من بلي الثوب إذا رث، فني .
٥٤ ـ النواهك : جمع ناهكة وهي ما ينهك البدن أي يبليه .
٥٥ ـ الجدة : الجديد ضد البالي والقديم .
٥٦ ـ عفت : درست .
٥٧ ـ العواصف : الرياح الشديدة .
٥٨ ـ محا : الشيء أزاله وأذهب أثره .
٥٩ ـ الحدثان : النوائب .
٦٠ ـ المعالم : جمع معلم وهو ما يستدل به، وهنا يقصد به الآثار .
٦١ ـ شحبة : هالكة .
٦٢ ـ نخرة : بالية .
٦٣ ـ الأعباء : الأثقال .
٦٤ ـ الايقان : الاعتقاد والعلم .
٦٥ ـ الأنباء : الأخبار .
٦٦ ـ لا تستزاد : لا يطلب منها الزيادة .
٦٧ ـ لا تستعتب : لا يطلب منها تقديم العتبى أي التوبة من العمل القبيح .

٦٨ ـ الزلل	:	الخطأ.
٦٩ ـ تحتذون	:	تقتدون.
٧٠ ـ القدة	:	بالكسر الطريقة.
٧١ ـ تطؤون	:	تدوسون.
٧٢ ـ جادتهم	:	طريقهم.
٧٣ ـ المعني	:	المقصود.
٧٤ ـ أحرز الشيء	:	حازه وصانه وأدخره.

الشرح

(جعل لكم أسماعاً لتعي ما عناها) في هذا الفصل تذكير للعباد بنعم الله وتنبيه لهم إلى الغاية من تلك النعم كما فيه موعظة أن يعتبروا بمن سلف من الأباء والأجداد. . .

فمن النعم العظام الجسام ما جعله لنا من أدوات السمع وهي الآذان التي تلتقط ما يهمها ويخصّها ونعمة السمع عظيمة وجليلة بها يدرك الإنسان مطلوبه ويقف على جمال الألحان والأصوات وبها يدرك مراد الآخرين ويفهم ما يقصدون وهذه الآذان عليها حقوق أن لا تسمع الباطل ولا يعصى الله من خلالها. . .

قال الإمام زين العابدين في رسالة الحقوق:

وأما حق السمع فتنزيهه عن أن تجعله طريقاً إلى قلبك إلا لفوهة كريمة تحدث في قلبك خيراً أو تكسب خلقاً كريماً فإنه باب الكلام إلى القلب يأوي إليه ضروب المعاني على ما فيها من خير أو شر ولا قوة إلا بالله. . .

(وأبصاراً لتجلو عن عشاها) وهذه من نعم الله العظمى أن خلق لنا أبصاراً تكشف الأشياء وترفع ما يمنعها من الرؤية والوصول إلى كشف الأمور وهذه الأبصار يجب أن تستعمل فيما وجدت من أجله وشكرها يكون بذلك قال الإمام زين العابدين في رسالة الحقوق. . .

وأما حق بصرك فغضّه عما لا يحل لك وترك ابتذاله إلا لموضع عبرة تستقبل بها بصراً أو تستفيد بها علماً فإن البصر باب الاعتبار. . .

(وأشلاء جامعة لأعضائها ملائمة لأحنائها) فهذه الأعضاء التي تتوزع في البدن يضمها الهيكل الكبير ويجمعها البدن بأسره وهي موافقة للجهات التي من أجلها وجدت وكانت تناسبها وتوافقها. . .

(في تركيب صورها) فوضع كل عضو في مكانه المناسب له بحيث يؤدي دوره ويُضفي على هذا الإنسان الجمال والكمال قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾، فالعين في موقعها والفم كذلك وهكذا سائر الأعضاءِ إبداع إلّهي عظيم من حكيم عليم. . .

(ومدد عمرها) فجعل لكل عضو عمراً يناسب أعمار الأعضاء الأخرى فلا يموت قبلها أو يصاب دونها. . .

(بأبدان قائمة بأرفاقها) فإن هذه الأبدان قائمة بمصالحها ومنافعها فتدفع ما يضرها وتجري نحو ما ينفعها وفيها قوة ذاتية لمحاربة من يقصدها بسوء وفيها قوة دفاع عن كل مكروه يمكن أن يفسدها. . .

(وقلوب رائدة لأرزاقها) فالقلوب تطلب أرزاق هذه الأبدان وما يديمها ويقويها، . . .

(في مجللات نعمه) نعم الله عامة وشاملة لكل المخلوقات وأيضاً تامة منذ انعقدت النطفة وإلى أن تنتهي مدة إقامته على هذه الأرض من أصغر أموره وأحقرها إلى أعظمها وأجلها. . .

(وموجبات مننه) فإن عطاياه الكثيرة تستحق أن يشكروه عليها وتمنعهم من اقتحام معاصيه. . .

(وحواجز عافيته) فإنه سبحانه جعل لهذا الإنسان عافية تحجزه عن المرض وتمنع سقوطه في أيدي العلل وهذه نعمة تستحق الشكر. . .

(وقدّر لكم أعماراً سترها عنكم) وهذه من النعم إنه سبحانه جعل لكل فرد عمراً معيناً يعيش فيه في الدنيا وعندما ينتهي يموت، يعلم الله مقداره طولاً وقصراً سعادة وشقاء ستره سبحانه عن أصحابه لما في ذلك من المصلحة حيث أنه لو اطلع الإنسان على مقدار عمره على وجه اليقين اضطرب حاله وأصيب بالقلق والهم. . .

(وخلّف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم) وهذه رحمة إلّهية تصيب هذا الإنسان وتدركه نتيجة ما تركه من كان قبلهم من الأمم الماضية والشعوب السابقة فإن فيها من العبر والعظات ما لا يمكن إحصاؤه أو عده. . . تمر على الآثار والأطلال فتتذكر كيف كانوا وكيف عاشوا وكيف عمروا وبنوا وبعد ذلك كيف ارتحلوا وأنت وأنا على نفس الطريق وفي نفس النهج. . .

(من مستمتع خلاقهم ومستفسح خناقهم) هذه بعض ما كانوا يتمتعون به من الدنيا كانوا يأخذون نصيبهم منها ويتمتعون بطيباتها وينالون حظوظهم منها وكانوا في فسحة من الموت الذي يأخذ بأخناقهم فيمنعهم من الحياة.. لقد أخذوا حظهم في مدة حياتهم وطول بقائهم في الدنيا...

(أرهقتهم المنايا دون الآمال) لقد كانوا عقدوا الآمال العريضة على حياتهم وراحوا يرسمون مستقبلهم وما سيصير أمرهم إليه في الدنيا ولكن كل هذا قضى عليه الموت فأهلكهم وسقطت آمالهم دون أن يتحقق منها شيء...

(وشذ بهم عنها تخرم الآجال) قطعهم الموت عن الدنيا بحلوله فيهم وأخذهم بدون إذن منهم، ومن كانت هذه سيرته يجب أن يعود إلى الله ويرجع إلى طاعته...

(لم يمهدوا في سلامة الأبدان) لم يعملوا لآخرتهم ويستعدوا للقاء الله في حال الصحة والسلامة وهذه سيئة لا يتنبه لها الإنسان إلا بعد فوات الأوان، بعد أن يسقط في المرض ويشل قدرته يندم ويأسف...

(ولم يعتبروا في أنف الأوان) لم يتعظوا ويعملوا بما ينفع ويفيد في أوائل أمورهم ومبدأ حياتهم.. في حياتهم لم يستفيدوا ما ينفعهم في رحيلهم...

(فهل ينتظر أهل بضاضة الشباب إلا حواني الهرم) وهذا استفهام استنكاري - للغافلين منا.. إنه تنبيه لنا بأن نعومة الشباب ورقة الجلود واستقامة الأجساد لا تبقى هكذا بل سيأتي عليها الزمن فتكبر فتنحني القامات المستقيمة ويذبل الشباب ويذوي....

(وأهل غضارة الصحة إلا نوازل السقم؟) وهذه الصحة العامرة والتي لم يمر في ذهن أصحابها أنها تمرض هذه سينزل بها المرض الشديد فيقعدها عن الحركة ويمنعها من الرقاد ويجعلها تأنّ وتتألم...

(وأهل مدة البقاء إلا آونة الفناء؟) وهؤلاء الذين كانوا من أهل البقاء حيث كانت تدفعهم أحوالهم الجيدة إلى ذلك هؤلاء ينتظرهم الموت الذي ينقلهم من دار هم فيها إلى آخرة لم يعرفوها...

(مع قرب الزيال) فالمفارقة قريبة جداً وكل منا ما أسرع خطاه نحو الآخرة ومفارقة الأحبة...

(وأزوف الانتقال) قرب الانتقال عن هذه الدار إلى الدار الآخرة...

(وعلز القلق) فإن هناك هموماً وهلعاً وخوفاً وارتجافاً لما يقدم عليه الإنسان وما ينتظره. . .

(وألم المضض) فالقلب يتوجع لما يصيب هذا الإنسان ويلم به. . .

(وغصص الجرض) ومن شدة ذلك الوقت أن الإنسان يغص بريقه ولا يكاد يبلعه. . .

(وتلفت الاستغاثة بنصرة الحفدة والأقرباء والأعزة والقرناء) فهذا الإنسان المسكين عندما تحضره منيته ويقترب أجله يأخذ في النظر تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار يستنجد ويستعين بذريته وأقربائه من أعمامه وأخواله ومن هم أعزة لديه وأحباب له يتوجه إلى الجميع يستغيث بهم أن يعينوه أو ينصروه أو يخففوا عنه من سكرات الموت وآلامه فلا يجد من يقدر على إزالة ذلك أو يملك تخفيف ما نزل به وحل بساحته، لقد تخلى عنه الأهل وتركه الأصدقاء وعجز عنه من أحبه. . إنه وحده المصاب دونهم وهو المبتلى لا سواه. . .

(فهل دفعت الأقارب أو نفعت النواحب) استفهام استنكاري أي لم تدفع أقاربه عنه الموت بل حل بساحته ولم تنفعه الباكيات عليه مهما ندبنه وبكين عليه فلا القرابة تنفع ولا البكاء يرد القضاء. . .

(وقد غودر في محلة الأموات رهيناً وفي ضيق المضجع وحيداً) قام أهله بتجهيزه ودفنه وتُرك في المقابر مع من تقدمه من الموتى سجيناً في قبره ويا له من محل ما أضيقه وأصغره، حفرة صغيرة يتمدد فيها البطل لا يقدر على الخروج ولا على الحركة أعاننا الله عليها وفيها. . .

(قد هتكت الهوام جلدته) فالحشرات تولت أكله فمزقت جلده الناعم وأخذت لحمه الطري. . .

(وأبلت النواهك جدته) فإن ذلك الجسد الغض الطري الناعم الممتلىء قد أتت عليه الرطوبة فتعفن وبلي وتمزق فإن نواهك البدن وممزقاته كثيرة في ذلك القبر الصغير. . .

(وعفت العواصف آثاره) درست رياح الزمان وما حل به كل أثر له، فلم يبق شيء يدل عليه أو يحكي عن وجوده وإنه كان. . .

(ومحا الحدثان معالمه) لقد أزالت الأحداث وعوامل الزمان كل ما كان يدل عليه

أو ينبىء عن وجوده، فالبيت الذي شاده وسكنه تهدم والشجرة التي غرسها قلعت وكل أمر يحكي عنه قد زال وقضى. . .

(وصارت الأجساد شحبة بعد بضّتها) فبعد امتلاء الأجساد ونعومتها أضحت بعد الموت سوداء متغيرة هالكة فانية. . .

(والعظام نخرة بعد قوتها) وهذه العظام التي كانت قوية في وجه الصدمات يتحرك بها الإنسان ويشتد لقد أضحت بعد قوتها بالية فانية فإنك تفتح بعض القبور تجد العظام قد تحولت إلى تراب. . .

(والأرواح مرتهنة بثقل أعبائها) ما سلف وتقدم كان بالنسبة إلى هذا الجسد الترابي أما الأرواح فلها نصيبها وعليها يقع الحمل الثقيل إنها مأخوذة بأوزار ما قدمت من المعاصي والآثام قال تعالى: **﴿كل نفس بما كسبت رهينة. .﴾** . . .

(موقنة بغيب أنبائها) لقد وصلتها أخبارها وما سينالها ويصيبها بعد الموت على ألسنة الرسل والأنبياء وتيقنت بذلك وصدقته لأنهم ألسنة الله إلى الخلق. . .

(لا تستزاد من صالح عملها ولا تستعتب من سيىء زللها) بالموت انقطع العمل الصالح فلا تستطيع نفس أن تزيد فيه أو تكثر منه كما أن بالموت ترتفع أوقات التوبة ولم يعد لها مكان فقد لزمته السيئات وكل معصية فعلها لا يمكنه التحلل منها. . .

(أو لستم أبناء القوم والآباء وإخوانهم والأقرباء) بعد أن وصف حال الآباء وما مر عليهم في الدنيا وما يمر عليهم أثناء الموت وبعده التفت إلى الحضور يذكرهم بحالهم ويردهم إلى أصلهم فيستفهم مستنكراً أنكم أنتم أبناء القوم الذين شرحنا حالهم ووصفنا أفعالهم، إنهم الآباء وأنتم الأبناء. . إنهم الإخوان والأقرباء الذين سيصيبكم ما يصيبهم. . .

(تحتذون أمثلتهم) تفعلون كما يفعلون، تقتدون بهم. . .

(وتركبون قدتهم) تمشون على طريقتهم التي ساروا عليها فكأنكم هم. . .

(وتطؤون جادتهم) تسيرون على نفس الطريق الذي ساروا عليها ويصيبكم ما أصابهم تماماً. . .

(فالقلوب قاسية عن حظها) القلوب بعيدة عن إدراك ما يصلحها وينفعها ولا تتعظ بما مرّ على غيرها. . .

(لاهية عن رشدها) غافلة عن طلب الهداية لها وما يوصلها إلى الحق والعدل وما فيه نجاتها. . .

(سالكة في غير مضمارها) تسير في غير طريقها المعد لها وما هو من شأنها ومحلها فحقها أن تكون في موكب المستسلمين لله الملتزمين بأمره فإذا بها في قائمة الرافضين لحكم الله المتحللين من كل التزام. . .

(كأن المعنى سواها وكأن الرشد في إحراز دنياها) كأن ما ورد من الوصايا والأحكام والتشريع والتقنين يقصد به غير هؤلاء المخاطبين وكأن الرشد في تناول الدنيا والحصول عليها فحسب دون أن تمتد أنظارهم إلى الآخرة والاهتمام بها. .



التحذير من هول الصراط

وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ(١) عَلَىٰ الصِّرَاطِ(٢) وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ(٤)، وَأَهَاوِيلِ(٥) زَلَلِهِ(٦)، وَتَارَاتِ(٧) أَهْوَالِهِ؛ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ عِبَادَ ٱللَّهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ(٨) شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، وَأَنْصَبَ(٩) ٱلْخَوْفُ(١٠) بَدَنَهُ(١١)، وَأَسْهَرَ(١٢) التَّهَجُّدُ(١٣) غِرَارَ(١٢) نَوْمِهِ، وَأَظْمَأَ(١٥) الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ(١٦) يَوْمِهِ، وَظَلَفَ(١٧) الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ، وَأَوْجَفَ(١٨) الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ، وَقَدَّمَ ٱلْخَوْفَ لِأَمَانِهِ(٢٠)، وَتَنَكَّبَ(٢١) ٱلْمَخَالِجَ(٢٢) عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ(٢٣)، وَسَلَكَ أَقْصَدَ المَسَالِكِ(١٤) إِلَىٰ النَّهْجِ ٱلْمَطْلُوبِ؛ وَلَمْ تَفْتِلْهُ(٢٦) فَاتِلَاتُ ٱلْغُرُورِ، وَلَمْ تَعْمَ(٢٧) عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ(٢٨) ٱلْأُمُورِ، ظَافِراً(٢٩) بِفَرْحَةِ ٱلْبُشْرَىٰ(٣٠)، وَرَاحَةِ النُّعْمَىٰ(٣١)، فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ، وَآمَنِ يَوْمِهِ. وَقَدْ عَبَرَ(٣٢) مَعْبَرَ ٱلْعَاجِلَةِ(٣٣) حَمِيداً، وَقَدَّمَ زَادَ ٱلآجِلَةِ(٣٤) سَعِيداً، وَبَادَرَ(٣٥) مِنْ وَجَلٍ(٣٦)، وَأَكْمَشَ(٣٧) فِي مَهَلٍ(٣٨)، وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ، وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَنَظَرَ قُدُماً(٣٩) أَمَامَهُ. فَكَفَىٰ بِٱلْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالاً(٤٠)، وَكَفَىٰ بِالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالاً(٤١)! وَكَفَىٰ بِاللَّهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً! وَكَفَىٰ بِٱلْكِتَابِ حَجِيجاً(٤٢) وَخَصِيماً(٤٣)!

اللغة

١ ـ **مجازكم** : سيركم وممركم.
٢ ـ **الصراط** : هو الطريق الموصل إلى الجنة أو إلى النار.
٣ ـ **المزالق** : جمع مزلق الموضع الذي لا تثبت عليه قدم.
٤ ـ **الدحض** : انقلاب الرجل بغتة فيسقط المار.
٥ ـ **الأهاويل** : الأمور المفزعة.
٦ ـ **الزلل** : المزالق، وتطلق على المعاصي والانحرافات.
٧ ـ **التارات** : جمع تارة وهي المرة والحين، الدفعات.
٨ ـ **اللب** : العقل.
٩ ـ **أنصب** : أتعب.
١٠ ـ **الخوف** : الفزع.
١١ ـ **البدن** : الجسد.
١٢ ـ **أسهر** : من السهر وهو عدم النوم.
١٣ ـ **التهجد** : أصله السهر ويأتي بمعنى النوم فهو من الأضداد وهو هنا العبادة ليلاً.
١٤ ـ **الغرار** : قلة النوم وأصله قلة لبن الناقة.
١٥ ـ **أظمأ** : من الظمأ وهو العطش.
١٦ ـ **الهواجر** : جمع هاجرة وهي نصف النهار عند اشتداد الحر.
١٧ ـ **ظلف** : منع.
١٨ ـ **أوجف** : أسرع والوجيف ضرب من السير.
١٩ ـ **الذكر** : تسبيح الله وتحميده وما أشبه ذلك.
٢٠ ـ **الأمان** : الاطمئنان، السلامة.
٢١ ـ **تنكّب** : عن الشيء مال عنه.
٢٢ ـ **المخالج** : المشاغل.
٢٣ ـ **وضح السبيل** : الوضح محركة الجادة والسبيل هو الطريق.
٢٤ ـ **أقصد المسالك** : أقوم الطرق.
٢٥ ـ **النهج** : الطريق الواضح.
٢٦ ـ **فتله** : صرفه ورده.
٢٧ ـ **لم تعم** : من العمى ولم تعم عليه لم تخف عليه.
٢٨ ـ **المشتبهات** : من الأمور هي المشكلة، ما لم يتضح ويظهر معناه. . .
٢٩ ـ **الظافر** : الغالب والفائز فيما يريد، المنتصر.

٣٠ ـ **البشرى** : الخبر المفرح .
٣١ ـ **النعمى** : بضم النون سعة العيش ونعيمه .
٣٢ ـ **عبر** : جاز وعبر الطريق إذا قطعه .
٣٣ ـ **العاجلة** : الدنيا .
٣٤ ـ **الآجلة** : الآخرة .
٣٥ ـ **بادر** : سارع .
٣٦ ـ **الوجل** : الخوف .
٣٧ ـ **أكمش** : أسرع .
٣٨ ـ **المهل** : الرفق والتؤدة .
٣٩ ـ **القُدُم** : بضمتين المضي إلى أمام .
٤٠ ـ **النوال** : العطاء .
٤١ ـ **الوبال** : الوخامة ، سوء العاقبة ، الشدة .
٤٢ ـ **الحجيج** : المغالب بإظهار الحجة .
٤٣ ـ **الخصيم** : المخاصم المجادل والمنازع .

الشرح

(واعلموا أن مجازكم على الصراط ومزالق دحضه) كل إنسان لا بد وان يمر على الصراط وهو الطريق إلى الجنة ومكانه فوق النار أدق من الشعرة أو حد السيف فمن اجتازه فإلى الجنة ومن هوى عنه فإلى النار وبهذا جاءت الأخبار ويجب الاعتقاد به على إجماله دون تفصيلاته . . إنه طريق دقيق لا تستقر عليه إلا أقدام المطيعين . . أما العاصين فتزّل أقدامهم ويسقطون بغتة في جهنم . . إنه طريق يحتاج إلى تقوى وإيمان والتزام . . .

(وأهاويل زلله ، وتارات أهواله) يتذكر الإنسان تلك الحالات الصعبة المرعبة التي تهدده بالسقوط في النار وتلك الأوقات التي تأتي بين الحين والآخر بما يفزع ويرعب ومن كان في معرض الوصول إلى هذه الحالات وجب عليه أن يستدركها بالعمل الصالح ليتخلص منها وينجو من أهوالها ومن المعلوم أن الطريق الذي يؤمّن العبد من هذه الأمور ينحصر بطاعة الله والقيام بكل ما أمر والانتهاء عن كل ما نهى . . .

(فاتقوا الله عباد الله تقية ذي لب شغل التفكر قلبه) أمرهم عليه السلام أن يكونوا على تقوى الله ، التقوى التي تحرك العقل وتستثيره في قضايا الآخرة وما فيها وما ينفع لإدراكها والحصول عليها . . . ومن لم يفكر في الآخرة لا يقدر على العمل لها؟ . ومن لا

يعلم حسنها ووجوب السعي لها لا يطلب الطريق إليها ولا يسعى لإدراكها . . ؟ فالتقوى المنبعثة عن فكر وإدراك هي المنطلق لحسن العمل وتمامه . . .

(وأنصب الخوف بدنه) أتعب الخوف بدنه فهو يشعر بالعذاب والعقاب فيتعب بدنه بالعبادات ووسائل تحصيل الخيرات، والمنافع العائدات . . .

(وأسهر التهجد غرار نومه) أذهبت العبادات في الليل كل نومه ومنعته حتى من القليل منه وهذا دأب الصالحين حلفاء المحراب، ورهبان الليل الذين لا تغمض لهم عين ولا تأخذهم سِنة بل منعهم ذكر الميعاد لذة النوم . . .

(وأظمأ الرجاء هواجر يومه) ورجاؤه بما أعده الله لعباده المطيعين جعله يتشوق إلى ذلك فيصوم في شدة الحر وما أطيب الظمأ وأحسنه في تموز وآب عندما تلفح الرياح الحارة وجه الصائم فيشعر أنه في عبادة ويشعر بلذة الألم في طاعة الله، والله إنها لذة عظيمة يدركها الصائم في تلك اللحظات . . .

(وظلف الزهد شهواته) وشهوات النفس كثيرة تدفع بهذا الإنسان إلى ارتكاب الحرام ولكن هذا الإنسان لزهده بالدنيا فقد امتنع عن الشهوات ومتطلبات النفس ومشتهياتها . . .

(وأوجف الذكر بلسانه) ولسانه دائماً في تمتمة تسبيحاً وتحميداً وتهليلاً، إن هذا اللسان في سرعة دائمة إلى ذكر الله والثناء عليه وتعداد نعمه وشكره عليها . . .

(وقدم الخوف لأمانه) خاف في الدنيا من ارتكاب المعاصي فامتنع عنها فأدرك بذلك الأمان في الآخرة وكل من خاف الله في الدنيا امتنع عن ارتكاب المحارم فكان حقاً على الله أن لا يجمع له خوف الدنيا وخوف الآخرة . . .

(وتنكّب المخالج عن وضح السبيل) لم تشغله الشواغل ولم تصرفه الصوارف عن الطريق المستقيم والسبيل القويم فترك الملذات المباحة وهجر الأمور الجائزة واشتغل فيما يرضى الله ويوصل إلى رضوانه . . .

(وسلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب) وسار على أعدل الطرق إلى ما أراد الله وأحب، فإن الاستقامة والطهارة والنزاهة هي أقرب الطرق إلى مراد الله ومن أحب الله قصد إليه من أحب الطرق إليه وأشدها اعتدالاً واستقامة . . .

(ولم تفتله فاتلات الغرور) لم تصرفه عن الطاعات والأعمال الخيرة صارفات الشهوات التي تخدع المرء وتصرفه عن الصالحات فإن صوارف الدنيا كثيرة كلها تأخذ

بعنان هذا الإنسان وتصرفه إلى ما يضره فهذا الإنسان لا ينقاد إليها ولا يسلم عنانه بيدها. . .

(ولم تعم عليه مشتبهات الأمور) والأمور المشتبهة التي لا يعلم وجهها لا يرتكبها أو يمارسها بل يفحصها ويدقق فيها حتى يحصل منها على اليقين فما طاب منها تناوله وما خبث اجتنبه. . .

(ظافراً بفرحة البشرى وراحة النعمى) لقد ظفر بالفرحة الكبرى حيث بشرته الملائكة بالفوز والسعادة إنها تتلقاه بقولها: **«بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار»** وهناك النعيم والسعادة والراحة الأبدية التي لا يعكر صفوها شيء. . .

(في أنعم نومه وآمن يومه) في أحسن راحة وأنعمها وآمن أيامه وأسلمها حيث لا فزع ولا تعب فقد عمل في أيام الفناء لأيام البقاء. . .

(وقد عبر معبر العاجلة حميداً وقدم زاد الآجلة سعيداً) قد اجتاز طريق الدنيا محمود السيرة فهو كان ذا سلوك جيد يعمل في سبيل الله ومن أجل مرضاته يروض نفسه بالتقوى ويعمل للآخرة. . كان الناس ينظرون إليه فيحمدون أفعاله. . .

لقد قدم زاد الآخرة الذي هو الإيمان والعمل الصالح حالة كونه سعيداً في إيمانه وعمله. . .

(وبادر في وجل) أسرع إلى العمل في دار الدنيا خوفاً من عقاب الله وعذابه أو مع الخوف من قبول العمل ورده. . .

(وأكمش في مهل) أسرع إلى الأعمال الصالحة في فسحة العمر التي أعطاها الله له فإن عمر الإنسان هو الذي يحدد له مستقبله فإن أسرع إلى الطاعات فيه وعمل الصالحات فاز وإذا أخرّ وسوفّ أو عصى وتمرد خسر وندم. . .

(ورغب في طلب) رغب في الحق فطلبه وسعى للحصول عليه وكما قال الإمام في بعض كلمات من رغب في أمر طلبه أو إنه رغب فيما طلب الله منه من الأمور. . .

(وذهب عن هرب) ذهب عن الباطل هرباً منه ومن تبعاته وما يلحق فاعله من العقاب والندم. . .

(وراقب في يومه غده) فهو في دار الدنيا وعلى قيد الحياة يعمل ناظراً إلى الآخرة فكل ما ينفعه هناك سعى له في الدنيا وأجاده وأبدع فيه. . .

(ونظر قدماً أمامه) نظر إلى ما يرضي الله فسعى إليه دون أن يلتفت إلى غيره. . .

(فكفى بالجنة ثواباً ونوالاً وكفى بالنار عقاباً ووبالاً) هذا ترغيب في الجنة وترهيب من النار. . ترغيب فيما يوصل إلى الجنة وإن من أدرك هذه الغاية فقد أدرك أقصى المنى وأغلى الأشياء كما أنّ من دخل النار كان في أقصى الشقاء والعذاب وشتان بين الجنة وثوابها وبين النار وعقابها فكل واحدة منهما هي منتهى ما يصل إليه الأتقياء والأشقياء. . .

(وكفى بالله منتقماً ونصيراً) وفي الله وحده كفاية فهو الكافي للانتقام من الظالمين وهو الكافي لنصرة المستضعفين. . .

(وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً) في الكتاب الكريم حججاً قوية واضحة وبراهين ساطعة نيرة لا يستطيع أن يقف أمامها عاقل أو يرفضها مفكر فهي الحجج التي تُفحم اللبيب وتلزمه الحجة وهي تخصمه وتنتصر عليه. .



الوصية بالتقوى

أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَعْذَرَ[١] بِمَا أَنْذَرَ[٢]، وَٱحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ[٤]، وَحَذَّرَكُمْ عَدُوًّا نَفَذَ[٥] فِي ٱلصُّدُورِ خَفِيًّا، وَنَفَثَ[٦] فِي ٱلآذَانِ نَجِيًّا[٧]، فَأَضَلَّ وَأَرْدَىٰ[٨]، وَوَعَدَ فَمَنَّىٰ[٩]، وَزَيَّنَ[١٠] سَيِّئَاتِ ٱلْجَرَائِمِ[١١]، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ[١٣] ٱلْعَظَائِمِ، حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَدْرَجَ[١٤] قَرِينَتَهُ[١٥]، وَٱسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ[١٦]، أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ، وَٱسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ، وَحَذَّرَ مَا أَمَّنَ.

ومنها في صفة خلق الإنسان

أَمْ هٰذَا ٱلَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ ٱلأَرْحَامِ[١٧]، وَشُغُفِ[١٨] ٱلأَسْتَارِ، نُطْفَةً[١٩] دِهَاقاً[٢٠]، وَعَلَقَةً[٢١] مِحَاقاً[٢٢]، وَجَنِيناً[٢٣] وَرَاضِعاً، وَوَلِيداً

وَيَافِعاً(٢٤)، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً، وَلِساناً لَافِظاً، وَبَصَراً لَاحِظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً؛ حَتَّىٰ إِذَا قَامَ ٱعْتِدَالُهُ(٢٥)، وَٱسْتَوَىٰ مِثَالُهُ(٢٦)، نَفَرَ(٢٧) مُسْتَكْبِراً، وَخَبَطَ(٢٨) سَادِراً(٢٩)، مَاتِحاً(٣٠) فِي غَرْبِ(٣١) هَوَاهُ، كَادِحاً(٣٢) سَعْياً لِدُنْيَاهُ، فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ(٣٣)، وَبَدَوَاتِ(٣٤) أَرَبِهِ(٣٥)؛ ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً(٣٦)، وَلَا يَخْشَعُ(٣٧) تَقِيَّةً؛ فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً(٣٨)، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ(٣٩) يَسِيراً، لَمْ يُفِدْ(٤٠) عِوَضاً، وَلَمْ يَقْضِ(٤١) مُفْتَرَضاً(٤٢) دَهِمَتْهُ(٤٣) فَجَعَاتُ(٣٤) ٱلْمَنِيَّةِ(٣٥) فِي غُبَّرِ(٤٦) جِمَاحِهِ(٤٧)، وَسَنَنِ(٤٨) مِرَاحِهِ(٤٩)، فَظَلَّ سَادِراً، وَبَاتَ سَاهِراً، فِي غَمَرَاتِ(٥٠) ٱلآلَامِ، وَطَوَارِقِ(٥١) ٱلْأَوْجَاعِ وَٱلْأَسْقَامِ(٥٢)، بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ، وَوَالِدٍ شَفِيقٍ، وَدَاعِيَةٍ بِٱلْوَيْلِ(٥٣) جَزَعاً(٥٤)، وَلَادِمَةٍ(٥٥) لِلصَّدْرِ قَلَقاً؛ وَٱلْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ(٥٦) وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ(٥٧)، وَأَنَّةٍ(٥٨) مُوجِعَةٍ، وَجَذْبَةٍ(٥٩) مُكْرِبَةٍ(٦٠)، وَسَوْقَةٍ(٦١) مُتْعِبَةٍ. ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً(٦٣)، وَجُذِبَ مُنْقَاداً(٦٤) سَلِساً(٦٥)، ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَىٰ ٱلْأَعْوَادِ رَجِيعَ(٦٦) وَصَبٍ(٦٧)، وَنِضْوَ(٦٨) سَقَمٍ، تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ(٦٩) ٱلْوِلْدَانِ، وَحَشَدَةُ(٧٠) ٱلْإِخْوَانِ، إِلَىٰ دَارِ غُرْبَتِهِ، وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ(٧١)، وَمُفْرَدِ وَحْشَتِهِ؛ حَتَّىٰ إِذَا ٱنْصَرَفَ ٱلْمُشَيِّعُ(٧٢)، وَرَجَعَ ٱلْمُتَفَجِّعُ(٧٣)، أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيًّا لِبَهْتَةِ(٧٤) السُّؤَالِ، وَعَثْرَةِ(٧٥) ٱلِامْتِحَانِ. وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً(٧٦) نُزُولُ ٱلْحَمِيمِ(٧٧)، وَتَصْلِيَةُ(٧٨) ٱلْجَحِيمِ(٧٩)، وَفَوْرَاتُ(٨٠) السَّعِيرِ(٨١)، وَسَوْرَاتُ(٨٢) الزَّفِيرِ(٨٣)، لَا فَتْرَةٌ(٨٤) مُرِيحَةٌ، وَلَا دَعَةٌ(٨٥) مُزِيحَةٌ(٨٦)، وَلَا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ، وَلَا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ(٨٧)، وَلَا سِنَةٌ(٨٨) مُسَلِّيَةٌ، بَيْنَ أَطْوَارِ ٱلْمَوْتَاتِ(٩٠)، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ! إِنَّا بِاللَّهِ عَائِذُونَ(٩١)!.

عِبَادَ ٱللَّهِ، أَيْنَ ٱلَّذِينَ عُمِّرُوا فَنَعِمُوا(٩٢)، وَعُلِّمُوا فَفَهِمُوا، وَأُنْظِرُوا(٩٣)

فَلَهَوْا[٩٤]، وَسُلِّمُوا فَنَسُوا! أُمْهِلُوا طَوِيلاً، وَمُنِحُوا[٩٥] جَمِيلاً، وَحُذِّرُوا أَلِيماً، وَوُعِدُوا جَسِيماً! ٱحْذَرُوا الذُّنُوبَ ٱلْمُوَرِّطَةَ[٩٦]، وَٱلْعُيُوبَ ٱلْمُسْخِطَةَ[٩٧].

أُولِي ٱلْأَبْصَارِ وَٱلْأَسْمَاعِ، وَٱلْعَافِيَةِ وَٱلْمَتَاعِ[٩٨]، هَلْ مِنْ مَنَاصٍ[٩٩] أَوْ خَلَاصٍ، أَوْ مَعَاذٍ[١٠٠] أَوْ مَلَاذٍ[١٠١]، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ[١٠٣]! أَمْ لَا؟ «فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ[١٠٤]!» أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ[١٠٥]! أَمْ بِمَاذَا تَغْتَرُّونَ[١٠٦]! وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ[١٠٧] مِنَ ٱلْأَرْضِ، ذَاتِ الطُّولِ وَٱلْعَرْضِ، قِيدُ[١٠٨] قَدِّهِ[١٠٩]، مُتَعَفِّراً[١١٠] عَلَىٰ خَدِّهِ! ٱلْآنَ عِبَادَ ٱللّٰهِ وَٱلْخِنَاقُ[١١١] مُهْمَلٌ، وَالرُّوحُ مُرْسَلٌ[١١٢]، فِي فَيْنَةِ[١١٣] ٱلْإِرْشَادِ، وَرَاحَةِ ٱلْأَجْسَادِ، وَبَاحَةِ[١١٤] ٱلِاحْتِشَادِ[١١٥]، وَمَهَلِ ٱلْبَقِيَّةِ، وَأُنُفِ[١١٦] ٱلْمَشِيَّةِ[١١٧]، وَإِنْظَارِ التَّوْبَةِ، وَٱنْفِسَاحِ[١١٨] ٱلْحَوْبَةِ[١٢٠]، قَبْلَ الضَّنْكِ[١٢١] وَٱلْمَضِيقِ، وَالرَّوْعِ[١٢٢] وَالزُّهُوقِ[١٢٣]، وَقَبْلَ قُدُومِ ٱلْغَائِبِ ٱلْمُنْتَظَرِ وَإِخْذَةِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمُقْتَدِرِ.

قال الشريف: وفي الخبر: أنه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب. ومن الناس من يسمي هذه الخطبة: «الغراء».

اللغة

١ ـ أعذر : أتى بما يعذر، صار معذوراً.
٢ ـ أنذر : بالأمر أعلمه وحذره من عواقبه.
٣ ـ احتج : ادعى وأتى بالحجة واحتج بالشيء جعله حجة وعذراً له.
٤ ـ نهج : الأمر أبانه وأوضحه.
٥ ـ نفذ : دخل.
٦ ـ نفث : نفخ.
٧ ـ النجي : من تحدثه سراً.
٨ ـ أردى : أسقط وأرداه في البئر أسقطه فيها.

٩ ـ منّى : الأمنية الكذب.
١٠ ـ زيّن : حسّن وزخرف.
١١ ـ الجرائم : الذنوب وكأنها الكبيرة منها.
١٢ ـ هوّن : الأمر عليه سهّله وخففه.
١٣ ـ الموبقات : المعاصي، والموبق المهلك.
١٤ ـ استدرج : فلان إذا خدعه في أمر ليدخل في غيره.
١٥ ـ القرينة : التابعة.
١٦ ـ الرهينة : المرهونة وهي المحبوسة واستغلق رهينته جعله بحيث لا يمكن تخليصه.
١٧ ـ الأرحام : أماكن تكوّن الجنين في بطن الأم.
١٨ ـ شُغُف : جمع شغاف وهو في الأصل غلاف القلب استعاره هنا للمشيمة.
١٩ ـ النطفة : ماء الرجل أو ماء المرأة.
٢٠ ـ الدهاق : المملوءة أو المتتابعة.
٢١ ـ العلقة : الدم المتجمد.
٢٢ ـ المحاق : ثلاثة ليال من آخر الشهر سميت محاقاً لأن القمر يخفى فيها.
٢٣ ـ الجنين : الولد ما دام في رحم الأم.
٢٤ ـ اليافع : هو الغلام الذي شارف البلوغ.
٢٥ ـ قام اعتداله : الاعتدال هو التساوي ومنه الاعتدال الربيعي إذا تساوى الليل والنهار.
٢٦ ـ استوى مثاله : بلغت قامته حد ما قدر لها من النمو.
٢٧ ـ نفر : جزع وتباعد، شرد.
٢٨ ـ خبط : البعير إذا ضرب بيديه إلى الأرض ومشى لا يتوقى شيئاً.
٢٩ ـ السادر : المتحير وأيضاً الذي لا يبالي ولا يهتم بما صنع.
٣٠ ـ الماتح : الذي يستقى من البئر وهو على رأسه.
٣١ ـ الغرب : الدلو العظيم.
٣٢ ـ الكدح : شدة السعي، الجد.
٣٣ ـ الطرب : الاهتزاز والاضطراب فرحاً.
٣٤ ـ البدوات : من بدا إذا ظهر.
٣٥ ـ الإرب : الحاجة.
٣٦ ـ الرزية : المصيبة.
٣٧ ـ خشع : خضع وذل.
٣٨ ـ الغرير : الشاب، أو المغرور.
٣٩ ـ الهفوة : الزلة.

٤٠ ـ لم يُفد : لم يكتسب ولم يستفد.
٤١ ـ لم يقض : لم يؤدِ ويفعل.
٤٢ ـ المفترض : الواجب.
٤٣ ـ دهمته : غشيته.
٤٤ ـ فجعات : الرزايا.
٤٥ ـ المنية : الموت.
٤٦ ـ غبرّ الشيء : بضم الغين وتشديد الباء بقايا.
٤٧ ـ جماحه : يقال جمح الفرس إذا غلب فارسه وجمح الرجل إذا ركب هواه.
٤٨ ـ السنن : الطريقة.
٤٩ ـ مراحه : من المراح شدة الفرح والنشاط.
٥٠ ـ غمرات : جمع غمرة وغمرة الشيء شدته ومزدحمه.
٥١ ـ طوارق : الدواهي.
٥٢ ـ الأسقام : جمع السقم وهو المرض.
٥٣ ـ الويل : الهلاك، والشر.
٥٤ ـ الجزع : عدم الصبر بالحزن والكآبة.
٥٥ ـ اللدم : ضرب الصدر.
٥٦ ـ ملهثة : من لهث إذا أخرج لسانه عطشاً وتعباً أو إعياءً.
٥٧ ـ كارثة : من كرثه الغم إذا اشتد عليه الغم وبلغ المشقة.
٥٨ ـ أنةِ : من الأنين وهو التأوه.
٥٩ ـ جذبه : من الجذب الذي هو ضد الدفع عنه وأصبح علم للمنية لأنها تجذب النفوس.
٦٠ ـ مكربة : من الكرب وهو الشدة والغم.
٦١ ـ السوقة : من ساق المريض نفسه عند الموت وسيق أسرع في نزع الروح.
٦٢ ـ أدرج : الشيء في الشيء أدخله وضمنه.
٦٣ ـ مبلساً : متحيراً يائساً.
٦٤ ـ منقاداً : لفلان إذا أطاعه وأذعن له وخضع.
٦٥ ـ السلس : السهل الانقياد.
٦٦ ـ الرجيع : الكالّ وأصله أنه يرجع مراراً حتى يكلّ.
٦٧ ـ الوصب : محركة المرض والوجع.
٦٨ ـ النضو : بالكسر المهزول من الإبل وغيره.
٦٩ ـ الحفدة : مفردها الحافد، ابن الابن، الخادم، التابع، الناصر.
٧٠ ـ الحشدة : الجمع والحشود الجموع.

٧١ ـ الزورة : المرة من زار والزيارة هي الإتيان بقصد الالتقاء بمن تريد.

٧٢ ـ المشيع : الذي يخرج معك ليودعك.

٧٣ ـ المتفجع : المتوجع.

٧٤ ـ البهتة : الحيرة.

٧٥ ـ العثرة : السقطة.

٧٦ ـ البلية : المصيبة.

٧٧ ـ الحميم : الماء الحار.

٧٨ ـ التصلية : الاحراق والمراد هنا دخول جهنم.

٧٩ ـ الجحيم : جهنم، النار.

٨٠ ـ فورات : من فار القدر إذا غلت وارتفع ما فيها.

٨١ ـ السعير : جمعه سُعُر لهب النار.

٨٢ ـ سورات : جمع سورة الحدة والشدة.

٨٣ ـ الزفير : صوت النار عند توقدها.

٨٤ ـ الفترة : الهدنة والانكسار والضعف.

٨٥ ـ الدعة : السعة في العيش والسكون.

٨٦ ـ مزيحة : مزيلة، والإزاحة هي الإزالة.

٨٧ ـ ناجزة : حاضرة.

٨٨ ـ السِنة : أوائل النوم.

٨٩ ـ مسلية : ملهية.

٩٠ ـ أطوار الموتات : أشكالها وأنواعها.

٩١ ـ عائذون : مستجيرون لائذون.

٩٢ ـ نعموا : تنعموا.

٩٣ ـ أُنظروا : أمهلوا.

٩٤ ـ لهوا : من اللهو وهو الاشتغال والتسلية بما لا يفيد.

٩٥ ـ منحوا : أعطوا.

٩٦ ـ المورطة : المهلكة.

٩٧ ـ المسخطة : المغضبة.

٩٨ ـ المتاع : كل ما ينتفع به انتفاعاً قليلاً غير باق.

٩٩ ـ المناص : الملجأ والمفر.

١٠٠ ـ المعاذ : الملجأ.

١٠١ ـ الملاذ : الحصن والملجأ.

١٠٢ ـ الفرار : الهروب.

١٠٣ ـ المحار : المرجع.
١٠٤ ـ تؤفكون : تقلبون وتصرفون.
١٠٥ ـ تصرفون : تؤفكون وتنقلبون.
١٠٦ ـ تغترون : تخدعون.
١٠٧ ـ خط أحدكم : نصيبه وسهمه.
١٠٨ ـ القيد : بكسر القاف معناه المقدار وبكسرها وفتحها القامة.
١٠٩ ـ القد : مقدار القامة.
١١٠ ـ المتعفر : الذي أصابه العفر وهو التراب.
١١١ ـ الخناق : الحبل الذي يخنق به.
١١٢ ـ مرسل : غير مقيد، مطلق الحرية.
١١٣ ـ الفينة : بالفتح الحال والساعة والوقت.
١١٤ ـ الباحة : الساحة وباحة الدار ساحتها.
١١٥ ـ الاحتشاد : الاجتماع.
١١٦ ـ أنف : بضمتين أول الشيء.
١١٧ ـ المشية : الإرادة.
١١٨ ـ الانظار : الإمهال، والتأخير.
١١٩ ـ الانفساح : السعة.
١٢٠ ـ الحوبة : الحاجة والأرَب.
١٢١ ـ الضنك : الضيق.
١٢٢ ـ الروع : الفزع.
١٢٣ ـ الزهوق : للنفس معناه خروجها وزهق الشيء بطل وهلك.

الشرح

(أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر) حثهم عليه السلام على تقوى الله باعتبار أمور ثلاثة الأول أنه أعذر بما أنذر أي جعل لنفسه العذر أن يعاقب من وصله الإنذار وهو بيان الحكم مع التخويف من عاقبة تركه . . .

(واحتج بما نهج) وهذا ثاني الأمور الملزمة بالتقوى وهي أنه سبحانه جعل لنفسه الحجة في عقاب المتمردين بما بيّنه لهم من طرق الهدى وسبل النجاة من حيث شرّع لهم التكاليف وأوضح أمامهم السبل . . .

(وحذركم عدواً نفذ في الصدور خفياً) وهذا ثالث الأمور الموجبة للتقوى فإنه سبحانه حذرنا من إبليس حيث قال: **﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾** فإنه عدو يجري منا مجرى الدم في العروق ويسري في الصدور مختفياً لا تراه وإنما ترى آثاره السيئة وقبائحه المشينة قال تعالى: **﴿قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس. . .﴾** . . .

(ونفث في الآذان نجياً) وهذا أسلوب من أساليب الشيطان وطريق من طرقه الملتوية إنه يلقي في آذان الناس ما يضلهم به ويحرفهم عن مستقيم السبيل. . .

(فأضل وأردى) إنها صفة من صفات الشيطان يضل الإنسان بما يوسوس به إليه فيحرفه عن العدل والحق ويهلكه بسبب هذا الانحراف. . .

(ووعد فمنى) إنه يعد الإنسان بأمور كاذبة لا يفي بها يعده بطول البقاء ودوام النعيم واستمرار الحياة ليعصي ويسوف التوبة ولا يشكر المنعم فيقع فجأة فريسة الموت وتضيع الآمال ويتبين كذب ما قطعه الشيطان على نفسه وما أعطاه لهذا الإنسان من الأماني وقدمه له من الآمال. . .

(وزيّن سيئات الجرائم) حسّن للإنسان المعاصي القبيحة فجعله يراها حسنة إنه يأتي عن طريق الشهوات والشباب والقوة يقول للشاب إنك في مقتبل العمر وزهرة الشباب فلو نلت حظك من هذا المحرم وبعد ذلك تتوب أو أن هذه معصية صغيرة تمحوها بحسنة وهكذا دواليك. . .

(وهون موبقات العظائم) جعل المهلكات العظيمة من الذنوب سهلة خفيفة على النفس وتهوينها باعتبار تداركها بالتوبة فيما بعد أو لأنها معصية مارسها غيره من الكبار فجعلهم له قدوة أو بإنكار أصل الإيمان أو بغير ذلك من وسائله المضلة وطرق انحرافاته الخطيرة وإن عصر الشباب وأيام الفتوة أكثر الأوقات خطراً وأكثرها تعرضاً لتهوين المعصية وتصغيرها. . .

(حتى إذا استدرج قرينته واستغلق رهينته) حتى إذا دفع بتابعه من الناس إلى المعصية والانحراف واستحكم الطوق عليه وصعب تخلصه منه ومن الحرام عندها يصرخ في وجه تابعه بما يقول عنه الإمام ويحكي. . .

(أنكر ما زين واستعظم ما هوّن وحذر ما أمّن) وهذه صورة للشيطان وعاقبة أمره مع هذا الإنسان، إن المذنب بعد اقترافه الإثم بتزيين الشيطان له يتنكر الشيطان له وينكر عليه

ما زيّن، يريد به زيادة النكاية والشماتة، يريد أن يجعلها حسرة في قلبه فينكر تزيينه للمعصية وتحسينه لها في عين الإنسان ثم لا يقتصر على ذلك بل يروح يعظم عليه المعصية ويقول له إن الله لا يغفرها لك وليس لك توبة منها حتى تزداد حسرته ويقوى كمده إنه يقوم اليوم بعد وقوعها منه بدور المحذّر والمخّوف من عاقبتها بعد أن سبق منه الأمان من عقابها والنجاة من عذابها وهذا كما قال تعالى: ﴿**وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون إن أخاف الله والله شديد العقاب**﴾. . .

(**أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشغف الأستار**) ذكر عليه السلام حال الإنسان وتقلباته وأطوار حياته وعقبّه بذكر نعمه عليه وما أعطاه له وبيّن كفره بالنعم وإنكاره للجميل وتنكبه عن الطريق ثم كيف أدركه الموت في تلك الحالات وفصّل ما يلاقيه وما يمر عليه واذكر هذا الإنسان الذي أنشأه الله وكونه في ظلمات الأرحام حيث ينعدم النور ويدوم الديجور وهناك ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التي تلف الجنين قال تعالى: ﴿**يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث**﴾ وهي ظلمة الرحم والبطن والمشيمة. . .

(**نطفة دهاقاً وعلقة محاقاً وجنيناً**) بيّن عليه السلام المرحلة الأولى من مراحل تكوين هذا الإنسان إنه ابتدأ من نطفة حقيرة اندفعت من الرجل إلى رحم المرأة وبعد استقرارها ونموها تحولت إلى علقة أي قطعة من الدم لم ترتسم ملامحها ولم تستبين معالمها ثم بعد ذلك تكتمل الصورة وتصبح جنيناً في صورة آدمي كامل التكوين. . .

قال سبحانه وتعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. .**﴾ . . .

(**وراضعاً ووليداً ويافعاً**) وهذه مرحلة أخرى من مراحل حياة الإنسان، مرحلة نزوله إلى الدنيا حيث يسقط طالباً الرضاع مستصرخاً ثدي أمه يلتقطه راضعاً حليبها وبعد ذلك يفطم عنه فيصبح وليداً يدرج بمفرده ويستقل في مشيته ثم بعد ذلك يصبح يافعاً إذا بلغ الحلم أو كاد لأنه يرتفع عن أحواله السابقة، وهذه حالات يمر فيها الإنسان تحتاج إلى عناية وكلفة وإلى تربية وتهذيب. . .

وهذه كلها حسب حالاته المادية ونشأته التكوينية أما حالاته المعنوية فقد أشار إليها بقوله. . .

(**ثم منحه قلباً حافظاً**) يفهم الأمور ويحللها ويقف على كل شاردة وواردة ويعرف مصادر الأمور ومخارجها، بهذا القلب يجمع الحب والبغض، والإقبال والإدبار به يستطيع أن يدرس الماضي ويعرف الحاضر ويطل على المستقبل. . .

(**ولساناً لافظاً**) هذه الكتلة اللحمية بها عُرف هذا الإنسان وعن طريقها استطاع أن يوصل ما بيده وما عنده إلى الآخرين. . الكلام الذي تستطيع أن تحوّل به أمة إلى الإيمان كما تستطيع أن تخرجها منه، . . بهذا اللسان تجرح عظيماً وتسقطه عن مكانته وبه ترفع خاملاً وتجعله سيد المواقف وزعيم العالم. . . بهذا اللسان تعلن الحرب على البشرية فتدمر كل ما قدمته حضارة الإنسان وتنسف له كل جهوده وبه تستطيع أن توقف حمامات الدم وتحول العالم إلى واحة سلام ومنطقة أمان وتبني الحضارات وتؤسس المؤسسات. . .

(**وبصراً لاحظاً**) بصراً يدرك الأمور وما يقع عليها. . بهذا البصر تكتشف طريق الحياة وتحدد الأمور وتشخصها وقد أعطى الإمام زين العابدين في رسالة الحقوق حق البصر وبين ما يجب له وما عليه وقد شرحنا هذه الرسالة المباركة وطبعت للمرة الخامسة. . .

(**ليفهم معتبراً ويقصر مزدجراً**) أعطاه الله هذه الأمور من أجل أن يفهم بها الحياة ويعتبر من خلالها بما جرى وما يجري. . يتعظ بهذا العقل الذي يدرك الأمور ويحللها ويعتبر من خلال مشاهداته بهذا البصر وما يقع عليه من عجائب الصنع وغريب الأحداث، يعتبر بما صدر عن العظماء من كلام وبما جرى على ألسنتهم من تعاليم وتشريع وعظات. . إنه أعطى ما أعطى من أجل أن يفهم الأمور ويعتبر بها ويمتنع عن القبائح ويكف عن ممارستها ويهجر المنكر ولا يقترب منه فعلاً كان أم قولاً أم موقفاً وسلوكاً. . .

(**حتى إذا قام اعتداله واستوى مثاله**) أعطى الله هذا الإنسان ما أعطاه حتى إذا اكتملت فيه القوى وتناسبت مع بعضها وتساوت مع أجزائها فتمت خلقته بدون زيادة أو نقصان بأن بلغت الحد الأعلى من النمو الذي يجب أن تبلغه عندئذ كانت منه هذه الهفوات والانحرافات التي سيذكرها صلوات الله عليه وكأنه عليه السلام يريد مضمون وفحوى قوله تعالى: ﴿**إن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى**﴾ الدالة على إن هذا الإنسان عندما اغتنى بقوته المادية بأن اكتمل في الجسم والقوة فيحاول أن يبرز عضلاته ويطغى على أقرانه، وكذلك إذا استغنى بالمال يحاول أن يصرفه في معصية الله. . ، وإذا استغنى

بالجاه والسلطان يحاول أن يستغله في ظلم العباد وهكذا فإن هذا الإنسان عندما تكتمل قوته ويعتدل مزاجه وتتناسب أحواله يتحول إلى هذه الرذائل ليمارسها يقول عليه السلام. . .

(نفر مستكبراً) ابتعد عن أحكام الله وتعاليمه، . . يرى نفسه أعظم من أن يمارسها أو يقوم بها كما قال تعالى: **﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولى[1] مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم. . .﴾** . . .

(وخبط سادراً) مارس الأمور دون دراية لها أو معرفة بها لا يبالي بما وقع منه أو صدر عنه، لا يفرِّق بين ما يجب عليه وما يجب له إنه في أبان مراهقة يغلب عليه الطيش وعدم الاتزان والرصانة. . .

(ماتحاً في غرب هواه) فكما إن الدلو العظيم ينزح به الماء من أجل الإرواء ورفع الظمأ فقد شبه عليه السلام هوى هذا الإنسان بالدلو الكبير فهو يأخذ بكل ما يمليه عليه هواه ويستوعب به مشتهاه دون مراجعة لدين أو أمر من أمور العقل أو الشرع المبين، . فهو لجهله يستعمل هواه ويستوفي به كل ما يريد. . .

(كادحاً سعياً لدنياه) إنه يجد ويجتهد ويبذل قصارى جهده في سبيل الدنيا ومن أجلها ويقصر النظر عليها غافلاً عن آخرته ناسياً ذكر ربه، ومن كان سعيه لدنياه فحسب بالطبع تكون خسارته كبرى ومصيبته عظمى ويكون مبلغ عمله حقيراً وقليلاً. . .

(في لذات طربه) إنه يسعى من أجل الحصول على لذاته ومرحه وفرحه فهو مغمور فيها. . .

(وبدوات أربه) فكل أمر يخطر بباله أو يبدو له من لذة أو فرح بادر إليه وسعى لاقتناصه دون النظر إلى عواقبه وما يترتب عليه. . .

(ثم لا يحتسب رزية ولا يخشع تقية) لا يحسب للمصائب حساباً وهذا حال الجاهل الغافل والشاب المعتد بقوته ينسى المصائب والعلل وحوادث الدهر ولا يخاف من الله فيرتدع عن معصيته، إنه لا يخشع قلبه ولا يخاف الله في معصية. . .

(فمات في فتنته غريراً) مات في ضلاله شاباً بعدُ لم يستوف أيامه ولم يكمل عمره أو مات مغروراً قبل أن يستيقظ من غفلته ويستفيق من غفوته. . .

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٧.

(وعاش في هفوته يسيراً) عاش مع أخطائه وزلاته ومعاصيه هذا العمر القصير وليس كله بطبع الحال بل تلك المدة التي استوفى فيها قوته واستطاع أن ينال لذته وما أقصرها من مدة وما أسرع سيرها في الحياة. . .

(لم يفد عوضاً ولم يقضِ مفترضاً) لم يستفد أمراً من أمور الكمال يعوّض به ما فاته من أيام عمره فلم يسعى من أجل تهذيب نفسه وترويضها على التقوى وخدمة العباد كما وإنه لم يقم بواجب فرضه الله عليه فيؤدي بذلك حق الله ويسقط تكليفه الملقى عليه. . .

(دهمته فجعات المنية في غبرّ جماحه وسنن مراحه) بينما هو في تلك الحالات اللاهية وإذا بمصائب المنية تفجأه ودواهيها تحل بساحته إنه وفي نفسه بقايا قوة وهو في أحوال لهوه وفرحه وإذا بسهام المنية ورسل الموت يأتونه يروعونه ويدعون أيامه سوداء. . .

(فظل سادراً وبات ساهراً) بعد أن فاجأته مصائب الموت ولم يكن يحسب لها حساباً وقع متحيراً لا يدري ماذا يفعل لقد أسقط ما في يده وعجز عن تلافي ما قصر وبات ساهراً من الألم والوجع. . .

(في غمرات الآلام وطوارق الأوجاع والأسقام) إنه يمر في أصعب حالات الألم قد حلت به الأوجاع والأمراض لا يستطيع التخلص منها أو الهروب من وجهها، فنفسه تنقبض وأنفاسه تتعثر وأوجاعه تشتد ولا يقوى على حركة ويفقد كل نشاط ومن رأى مسجى يحتضر أدرك بأم عينه ما يعانيه المحتضر. . .

(بين أخ شقيق ووالد شفيق) إنه مسجى يحيط به أعز الناس عليه وأقربهم إليه فهنا أخ قريب يعيش معه ألمه وأساه وهناك والد شفيق التوى قلبه عليه رقة وعطفاً. . .

(وداعية بالويل جزعاً ولادمة للصدر قلقاً) وانتشرت حوله أم وأخت وبنت وكل واحدة قد قل صبرها وفقدت عزمها فراحت تصرخ على نفسها بالهلاك لفقد العزيز والحبيب والكفيل أو تضرب صدرها متأثرة بكبر المصاب لفقد الأعزة والأحباب. . .

وهذه صورة حقيقية ينقلها الإمام وتجري عند كل حالة موت حيث يجتمع الأقارب رجالاً ونساءاً ولكل دوره في توديع المسجى بين أيديهم هذا هو حالهم أما حاله في تلك الساعات الصعبة فيصورها الإمام بقوله. . .

(والمرء في سكرة ملهثة وغمرة كارثة) إنها آخر ساعات الدنيا وأصعبها عليه، إنها شديدة الوطىء على قلب هذا الإنسان المسجى الذي قد ماتت فيه القوة وانعدمت من

أعضائه الحياة، إنه في غيبوبة قد فقد الوعي وضاقت أنفاسه فراح يلهث من التعب قد أعياه المرض وشدته وقد بلغ به الغم إلى أعلى درجاته وأصعب حالاته هذا إذا كانت العبارة «ملهثة». . .

أما إذا كانت ملهية فواضح أن معناها أنه قد اشتغل بنفسه عن النظر إلى من حوله. . .

(وأنة موجعة وجذبة مكربة) إنه في أنين مستمر من الوجع. . يتأوه بحزن وألم وملك الموت يستل الروح فيصيب الميت حالة شديدة عليه لا يقدر من شدتها على وصفها إلا أنها مؤلمة. . .

(وسوقة متعبة) حيث الملائكة تخرج الروح من البدن وتسوقها عارية عنه فتجد في تجردها تعباً وشدة لفراقه وبعدها عنه. . .

(ثم أدرج في أكفانه مبلساً) وبعد اجتماع الأحبة حوله واسترجاعهم وضرب صدورهم وبعد معاناته الشدائد والصعاب ومفارقة نفسه لبدنه فقد مات. . إنها مرحلة جديدة من الحياة بالنسبة إليه ولكن هناك تكاليف مطلوبة من الأحياء وواجبات لا يجوز التفريط بها. . . ومهما كان الفقيد عزيزاً وحبيباً فلا بد من تغسيله وتكفينه. . إنها ثلاث خرق يعبر عنها بلسان الشرع الكفن. . .

١ ـ المئزر ويجب أن يكون ساتراً ما بين السرة والركبة.
٢ ـ القميص يجب أن يكون ساتراً ما بين المنكبين إلى نصف الساقين.
٣ ـ الإزار يجب أن يغطي تمام البدن. . .

إنه يلفّ بهذه الأثواب عديم الحركة تلفه أيدي أحبته لا يملكون له من أمره شيئاً. . هذا هو كل ما يصيبه من أمواله وتراثه لا يقدر على الزيادة ولا يسمح بها إن طلبها. .

(وجذب منقاداً سلساً) أخذ عن داره ومنازل أحبته لم يمانع أو يعاند بل خاضعاً بلسان الحال لا يقدر على شيء. . .

(ثم ألقي على الأعواد رجيع وصب ونضو سقم) بعد أن تم تجهيزه طرح على النعش «المحمل» الذي يحمل عليه الميت كليلاً متعباً هزيلاً سقيماً قد أخذ منه المرض مأخذه فصيّره رمة بالية وهيكلاً خاوياً. . .

(تحمله حفدة الولدان وحشدة الإخوان) لقد تعاون على حمله أولاده وأولادهم ومن اجتمع لتشييعه من المؤمنين. . . إنهم يحملونه إلى مثواه الأخير وهذا كل ما له عند

أولاده وأحفاده وأقربائه. . إنهم يوصلونه إلى حفرته تتناقله أيديهم. . فيؤجرون ويؤدون الواجب عليهم. . .

(إلى دار غربته ومنقطع زورته ومفرد وحشته) إنهم يحملونه إلى دار الغربة الحقيقية حيث ينقطع في قبره عن كل مخلوق. . يفقد الأحبة. . والأولاد. . والأصدقاء ورفقاء الصبا. . إنه لا يزار بعد اليوم كما كان يزار. . إنه وحده في وحشة لا أنيس ولا حبيب ولا عشير. . . غربة حقيقية عن الأهل والوطن والأعزة. . .

(حتى إذا انصرف المشيع ورجع المتفجع) فلا بد لمن شيّعه إلى مثواه الأخير من الحفدة والإخوان أن يرجع عن قبره ولا بد لكل متوجع عليه حزين لا بد أن يعود من توديعه تاركاً له في حفرته وحيداً فريداً وعندها تبدأ مصيبته العظمى وتقوم قيامته الكبرى. . . عندها يأتي دور الحساب يقول الإمام فبعد رجوع الحفدة والإخوان. . .

القبر وسؤاله:

(أُقعد في حفرته نجياً لبهتة السؤال وعثرة الامتحان) بعد أن يصبح وحيداً في قبره وقد انصرف عنه الأحبة والمشيعون يأتي دور الحساب له وهو المعبر عنه بحساب القبر حيث يفجأه السؤال عن حياته وإيمانه ومقدار التزامه إنه امتحان صعب يسقط فيه المنحرفون وأصحاب الأهواء والشهوات. . . يسقط فيه أهل الدنيا الذين انصرفوا إليها ورضعوا من ثدييها ولم يتجنبوا حرامها. . . ومسألة القبر مما تسالم عليها المسلمون بل انعقد عليها الإجماع إلا ممن لا يعتد بخلافه وقد وردت بها الأخبار ففي الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن المؤمن إذا خرج من بيته شيعته الملائكة إلى قبره ويزدحمون عليه حتى إذا انتهى به إلى قبره قالت له الأرض: مرحباً بك وأهلاً، أما والله لقد كنت أحب أن يمشي عليّ مثلك لترين ما أصنع بك فيوسع له مد بصره.

ويدخل عليه ملكا القبر وهما قعيدا القبر منكر ونكير فيلقيان فيه الروح إلى حقويه فيقعدانه ويسألانه فيقولان:

من ربك؟.

فيقول: الله تعالى.

فيقولان: ما دينك؟.

فيقول: الإسلام.

فيقولان: ومن نبيك؟.

فيقول: محمد (ص).
فيقولان: ومن إمامك؟.
فيقول: فلان.

قال: فينادي مناد من السماء صدق عبدي إفرشوا له في قبره من الجنة وافتحوا له في قبره باباً إلى الجنة وألبسوه من ثياب الجنة حتى يأتينا وما عندنا خير له ثم يقال له: نم نومة عروس، نم نومة لا حلم فيها قال عليه السلام: وإن كان كافراً خرجت الملائكة شيعته إلى قبره يلعنونه حتى إذا انتهى إلى قبره قالت له الأرض: لا مرحباً بك ولا أهلاً، أما والله لقد كنت أبغض أن يمشي عليّ مثلك لاجرم لترين ما أصنع بك اليوم فتضيق عليه حتى يلتقي جوانحه.

قال عليه السلام: ثم يدخل عليه ملكا القبر وهما قعيدا القبر منكر ونكير.

قال أبو بصير: جعلت فداك يدخلان على المؤمن والكافر في صورة واحدة؟.
فقال عليه السلام: لا.

قال: فيقعدانه فيقليان فيه الروح إلى حقويه فيقولان: من ربك؟
فيتلجلج ويقول: قد سمعت الناس يقولون.
فيقولان: لا دريت.
ويقولان له: ما دينك؟.
فيتلجلج.
فيقولان له: لا دريت.
ويقولان له: من نبيك؟.
فيقول: قد سمعت الناس يقولون.
فيقولان له: لا دريت ويسأل عن إمام زمانه.

قال عليه السلام: وينادي مناد من السماء كذب عبدي إفرشوا له في قبره من النار وافتحوا له باباً إلى النار حتى يأتينا وما عندنا شر له فيضربانه بمرزبة ثلاث ضربات ليس منها ضربة إلا ويتطاير منها قبره ناراً لو ضرب بتلك المرزبة جبال تهامة لكانت رميماً وقال أبو عبد الله عليه السلام: ويسلط الله عليه في قبره الحيات تنهشه نهشاً والشيطان يغمّه غماً.

قال: ويسمع عذابه من خلق الله إلا الجن والإنس.

وقال عليه السلام: إنه ليسمع خفق نعالهم ونفض أيديهم وهو قول الله عز وجل

﴿يثّبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾. . .

(وأعظم ما هنالك بلية نزول الحميم وتصلية الجحيم) وهذه هي أعظم مصيبة وأفدحها تصغر عندها موتات الدنيا إنها أعظم ما يلاقيه الإنسان المجرم المنحرف نزول الحميم عليه وهو الماء الحار الذي يصب عليه والنار التي تلفه وتصيبه. . نار حامية وماء حار يغلي وهل يقدر هذا الإنسان الضعيف على تحمّل هذا العذاب وهو لا يقدر أن يحتمل حرارة عود من الثقاب. . .

(وفورات السعير وسورات الزفير) وهناك غليان النار واشتدادها وأصواتها العالية التي لشدتها تبعث هذه الأصوات. . إنها نار سجرها جبارها لغضبه كما يقول الإمام في بعض خطبه. . اللهم أجرنا منها ومن عذابها. . .

(لا فترة مريحة ولا دعة مزيحة) عذاب دائم مستمر ليس هناك وقت يستريح فيه هذا الإنسان من العذاب كما إنه ليس هناك وقت هدوء واستراحة تزيل هذا العذاب وتريح صاحبه. . .

(ولا قوة حاجزة ولا موتة ناجزة) فليس في المقام قوة تمنع هذا العذاب وتحجبه كما إنه ليس في المقام موت عاجل يحيق بهذا الإنسان وينهي وجوده وينتهي. .، إنه عذاب متصل مستمر. . .

(ولا سنة مسلية بين أطوار الموتات وعذاب الساعات إنا بالله عائذون) فليس من نوم ولو كان قليلاً وغير مستقر يلهي هذا الإنسان عن عذابه ويشغله عن هذه الآلام المختلفة والمتنوعة، بل إنها عذابات متصلة ليس بينها فرجة يتلهى بها الإنسان أو يستريح. . .

(عباد الله أين الذين عمروا فنعموا) ذكّر عليه السلام بجملة من نعم الله التي يجب أن تقابل بالشكر فقوبلت بالإساءة وهؤلاء هم الذين طالت أعمارهم في الدنيا وامتدت كثيراً وكانوا في سعة من العيش ورغد في الحياة. . هؤلاء الذين أعطوا هذه الأعمار الطويلة والحياة الطيبة الناعمة المرفهة يجب أن يؤدوا شكر هذه النعمة ويقوموا بمستلزمات استمرارها وثواب أجرها. . .

(وعلّموا ففهموا) توضحت الأمور أمامهم وارتفعت الغشاوة عن عيونهم فوقفوا على الحقيقة وعرفوا أحكام الشريعة وما ينفع ويفيد في الدنيا والآخرة فلا عذر لهم بعد هذا إذا انحرفوا ولا حجة لهم على ما ذهبوا إليه ونهجوا نحوه. . .

(وأُنظروا فلهوا) أخرهم الله فلم يأخذهم بالعذاب ولم يستعجل عليهم بالعقاب.. وهذا التأخير لمصلحتهم لعلهم يرجعون ويتنبهون ولكنهم اشتغلوا بما لا ينفع وقضوا أوقاتهم بما لا يفيد...

(وسلّموا فنسوا) حُفظوا من الآفات والعاهات فأبدانهم سالمة وأجسادهم صحيحة ولكنهم نسوا الآخرة ولم يعملوا لها كما نسوا مخبئات الدهر ومفاجآت الحياة...

(أمهلوا طويلاً ومنحوا جميلاً) أخرهم الله مدة هذا العمر وهو طويل بالنسبة لمن أراد أن يتوب ويعود وأعطاهم الله من منحه وعطاياه كل جميل ونافع ومفيد وهل هناك أجمل من هذه النعم وأوفر منها...

(وحذروا أليماً ووعدوا جسيماً) خوفهم الله عذاباً شديداً أليماً وهو النار فقال تعالى: **﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة...﴾**...

ووعدوا بالعطاء الكبير الذي يصغر عنه كل عطاء وعدهم الله بالجنة وما فيها من نعيم وحور عين فقال تعالى: **﴿وعد[1] الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾**...

(إحذروا الذنوب المورطة والعيوب المسخطة) إحذروا الذنوب وهي المعاصي المهلكة التي تورد مرتكبها إلى الجحيم والعيوب التي توجب غضب الله وعذابه...

(أولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع) نادى عليه السلام على هؤلاء وصرخ بهم أن يتنبهوا ويستيقظوا نادى أصحاب الأبصار الذين يرون الحق والباطل ويقدرون على التمييز بينهما وكذلك أصحاب الأسماع الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه.. نادى أصحاب العافية في الأبدان والأديان وأصحاب الأموال والمقتنيات فإن هؤلاء أحق من يتنبه ويستمع ويعتبر...

(هل من مناص أو خلاص) فلا ملجأ من عذاب الله ولا خلاص من عقابه إذا خالف الإنسان أمره وعصى حكمه.. تحذير وتخويف لهذا الإنسان وإن الأسباب تنقطع والشفاعات تتوقف إذا تمرد الإنسان على إرادة الله...

(أو معاذ أو ملاذ) لا ملجأ ولا حصن يحمي الإنسان من عذاب الله وعقابه وإذا تساقطت الحصون والملاجىء وعجزت عن حماية هذا الإنسان وجب أن يستعد بوسائل

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

أخرى وليست هي إلا الطاعة لله والالتزام بأمره. . .

(أو فرار أو محار أم لا؟) فلا هروب من عذاب الله إذا أحاط بهذا الإنسان ولا رجوع إلى الدنيا إذا طلب العودة. نعم لا فرار ولا رجوع بل شقوة لازمة دائمة. . .

(فإنى تؤفكون) إلى أي شيء ترجعون وتعودون ولا رجوع ولا عودة. . .

(أم أين تصرفون) في أي مكان ترجعون ولا رجوع. . .

(أم بماذا تغترون) كيف تخدعون بما لا طائل تحته ولا شيء ينفع فيه ثم بين فشل خدعهم بهذه النهاية لهم. . .

(وإنما حظ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض قيد قده متعفراً على خده) هذا هو نصيب الإنسان لا يقدر على أخذ الزيادة ولا يسمح له بذلك. . . نصيبه من هذه الأرض الواسعة الممتدة طولاً وعرضاً مقدار قامته طولاً ومقدارها عرضاً يطرح فيها وعلى أرضها بدون فراش ولا لحاف بل مفترشاً التراب قد وضعوا خده الناعم الطري على تراب القبر قد أصابه منه ما كان يأنف منه في حياته، ورحم الله أمي لقد كانت تتذكر تلك الحفرة باستمرار، وتقول دائماً: أعاننا الله على تلك الحفرة تعني القبر. . .

(الآن عباد الله والخناق مهمل والروح مرسل) يا عباد الله أعملوا الآن وأنتم في دار الدنيا لم يأخذكم الموت ويضيق عليكم به وأنفسكم حرة طليقة لم يقيدها الموت أو يمنع حركتها وبعبارة أخرى إعملوا اليوم فأنتم قادرون. . .

(في فينة الإرشاد) فأنتم الآن في أوقات تستطيعون فيها ارتياد الحق والعمل بالواجب والقيام بأوامر الله ولا بد وأن يأتي الوقت الذي تعجزون فيه عن العمل وتتوقف فيه الحركة. . .

(وراحة الأجساد) فأنتم في راحة بدنية فلا عذاب يصيبكم ولا ألم يحل بكم. . .

(وباحة الاحتشاد) فأنتم مجتمعون في دار الدنيا مع الأهل والأحباب والأقارب والأصدقاء وهذا يسهل العمل ويرغب فيه. . .

(ومهل البقية) فهناك متسع باقٍ من العمر تستطيعون استغلاله في طاعة الله وما يقربكم منه سبحانه وتعالى. . .

(وأُنف المشيّة) أي أوائل الإرادة حيث يجب على الإنسان أن تبدأ إرادته بالطاعة والالتزام حتى تضع أول أقدامها على الصراط المستقيم فلا تنحرف أو تضل. . .

(وإنظار التوبة) فالله سبحانه أمهلنا وأجل أخذنا ليفسح لنا في التوبة كي نرجع إليه ونعود إلى رحابه ونتوب عما صدر منا من سيئات وقبائح وهذه رحمة الله بعباده يحب لهم أن يكونوا من أهل الجنة ويفتح لهم الأبواب لدخولها وكلما أقفلوا باباً فتح لهم أبواباً. . .

(وانفساح الحوبة) فأنتم في سعة تستطيعون العمل لحاجتكم في آخرتكم فكل أمر تحتاجونه في الآخرة فأنتم الآن تقدرون على القيام به لسعة الوقت. . .

(قبل الضنك والمضيق) ابتدؤا بالعمل قبل ضيق الزمان وضيق المكان. . .

(والروع والزهوق) وقبل الخوف من أهوال الموت ويوم القيامة وقبل خروج الروح من البدن. . .

(وقبل قدوم الغائب المنتظر) قبل أن يأتي الموت الذي هو غائب عنا منتظرون لقدومه علينا. . .

(وإخذة العزيز المقتدر) أي سلب الأرواح بقدرة الله التي لا يقدر على الوقوف بوجهها أحد ولا يقدر على منعها بشر. .

٨٤ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في ذكر عمرو بن العاص

عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ[١]! يَزْعُمُ[٢] لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً[٣]، وَأَنِّي ٱمْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ[٤]: أُعَافِسُ[٥] وَأُمَارِسُ[٦]! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِماً[٧]. أَمَا ـ وَشَرُّ ٱلْقَوْلِ ٱلْكَذِبُ ـ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُ[٨] فَيُخْلِفُ[٩]، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ[١٠]، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ[١١]، وَيَخُونُ ٱلْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ ٱلْإِلَّ[١٢]، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ ٱلْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ[١٣] وَآمِرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ[١٤] أَنْ يَمْنَحَ[١٥] ٱلْقِرْمَ[١٦] سُبَّتَهُ[١٧]. أَمَا وَٱللّٰهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ ٱلْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَقِّ نِسْيَانُ ٱلآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّىٰ شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً[١٨]، وَيَرْضَخَ لَهُ[١٩] عَلَىٰ تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً.

اللغة

١ ـ **النابغة** : سميت بذلك أم عمرو بن العاص لشهرتها بالفجور وتظاهرها به.

٢ ـ **يزعم** : يقول، والزعم مبني على الباطل أو ما فيه ارتياب.

٣ ـ **الدعابة** : المزاح.

٤ ـ **تلعابة** : كثير اللعب والتاء للمبالغة.

٥ ـ **أعافس** : أعالج وأصارع.

٦ ـ **أمارس** : أعالج وأصارع بالقرص.

٧ ـ **الآثم** : العاصي والإثم المعصية.

٨ ـ **يعد** : من وعد وهو ما يقطعه الإنسان على نفسه من الأمور.

٩ ـ **يخلف** : من أخلف إذا حنث ولم يفِ بما قطعه على نفسه.

١٠ ـ يخل : يشحّ.
١١ ـ يلحف : يلحّ.
١٢ ـ الإل : العهد، والقرابة.
١٣ ـ زاجر : مانع وناهٍ.
١٤ ـ المكيدة : الخديعة، المكر.
١٥ ـ يمنح : يعطي.
١٦ ـ القرم : في الأصل الفحل إذا ترك عن الركوب والعمل ويستعمل للسيد تشبيهاً به/ العظيم.
١٧ ـ السبة : الاست، العورة.
١٨ ـ الأتية : العطية.
١٩ ـ رضخ له : أعطاه شيئاً قليلاً والرضيخة الرشوة.

الشرح

(عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أن فيّ دعابة وأني امرؤ تلعابة أعافس وأمارس) أراد عمرو أن يفتش عن عيب في الإمام علي وهو خصمه اللدود يظهره لأهل الشام ويسقطه من أعينهم ويبيّن لهم عدم أهليته للخلافة فلم يجد إلا هذه التهمة الساقطة التي سمع بها الإمام فبين كذب مدعّيها ورد عليه بهذا الردّ المفحم الذي ذكر فيه بعض عيوب ابن العاص. . .

عجباً لابن النابغة وأي شيء أعجب من إنسان لا يستحي ولا يخجل. . إنه والله مما يثير العجب أن ابن النابغة وهو عمرو ونسبه إلى أمه لخستها ودناءة أصلها ومن عادة العرب أنها تنسب الشخص إلى أمه إما لشرفها كما يقال ابن الزهراء وأما لخستها كما يقال ابن النابغة وسميت بذلك لشهرتها بالفجور وتظاهرها به يزعم والزعم مبني على الباطل ولا أساس فيه من الحق يزعم كذباً وزوراً إن فيّ دعابة مزاحاً وإني أضاحك الناس مما هو خارج عن حدّ الاعتدال وأعيش في حالة لاهية من اللعب ومداعبة النساء ومن كان هذا شأنه لا يصلح للخلافة. . .

(لقد قال باطلاً ونطق آثماً) فما ادعاه عمرو وقاله في حق الإمام باطل لا أساس له ونطق عاصياً لله مخالفاً لأمره حيث نهى عن الكذب وهو يمارسه. . .

(أما وشر القول الكذب) فهناك شرور كثيرة في القول ولكن أشرها قول الكذب

فقد جاء في الحديث عن الصادق عليه السلام قوله: إن الله عز وجل جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب وأشر من الشراب الكذب. . .

(إنه ليقول فيكذب) هذه بعض صفات عمرو بن العاص وأولها: إنه إذا قال كذب على خلاف أهل الإيمان وعاداتهم فقد ارتكب أشر خصلة وأقبحها ومن لا يرتدع عن الكذب كيف يصدّق في حديثه وكيف يقبل قوله. . إنه فاسق والله نهى عن قبول قوله بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا. .﴾** . . .

(ويعد فيخلف) هذه ثانية صفات عمرو القبيحة إنه إذا وعد أخلف ولم يفِ وهي أيضاً خلاف صفات المؤمنين ففي الحديث: المؤمن إذا وعد وفى. . .

(ويسأل فيبخل) وهذه ثالثة صفات عمرو القبيحة إنه لا يرفد سائلاً ولا يعطي محتاجاً بل يشح ويبخل ويمسك يده على خلاف ما في المؤمنين. . .

(ويسأل فيلحف) عندما يسأل يلح ويلج في سؤاله كأن له الحق على الناس وهذه صفة الأراذل، وأما الشرفاء فإنهم إذا سألوا كفّوا وخجلوا واستحيوا ولذا قال تعالى مادحاً قوماً بقوله تعالى: **﴿لا[1] يسألون الناس إلحافاً﴾** . . .

(ويخون العهد) إذا عاهد الله أو أحد عباده يخونهم ولا يفي بما قطع على نفسه وعاهد غيره عليه وهذه رذيلة تضاف إلى رذائل ابن العاص. . .

(ويقطع الإل) إن كان المقصود بالإل هو العهد فيكون عطف تفسير على ما تقدم وإن كان المقصود به الرحم فتكون رذيلة جديدة من صفات ابن العاص إنه يعمل بخلاف ما أمر الله حيث أمر بصلة الرحم والتراحم فيما بين الأرحام فهو يقطع الرحم ولا يصلها. . .

(فإذا كان عند الحرب فأي زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مأخذها فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القرم سبته) وهذه رذيلة من رذائل ابن العاص وإحدى سيئاته بل هذه إحدى عوراته التي علّم الناس كيف يحتمي فيها يذكر عليه السلام أن ابن العاص قبل أن تقوم الحرب فهو الناهي والآمر يوزّع تعاليمه وينشر أراءه. . .

يصدر الأوامر وكأنه الشجاع الذي لا يفر أو ينهزم ولكن عندما تقع الحرب وتحتدم وعندما تشتبك السيوف وتلتحم عندها لا تجد لابن العاص مغيث أو معين إلا أن يكشف

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

عورته ويحتمي بها كما فعل عندما نزل إلى قتال الإمام حيث كشف عن عورته فأغضى عنه الإمام وانصرف وأضحى فعله يضرب به المثل لمن دفع المكروه عن نفسه بعورته. . .

(أما والله إني ليمنعني من اللعب ذكر الموت) بعد أن بين كذب ابن العاص وبعض سيئاته وقبائحه وسوء خصاله عاد ليبين وجه ما يمنعه عن اللعب إنه ذكر الموت وما بعده فإن من عرف أنه يموت ويحاسب وينقطع عن العمل وجب عليه أن يستغل أوقاته فيما ينفع ليوم ميعاده ولا يضيعها فيما لا ينفع ولا يفيد. . أصحاب العقول السليمة يفكرون فيما يعود عليهم في آخرتهم بالنفع وعلو الدرجات فكيف يقتلون أوقاتهم في اللعب وفيما لا ينفع. . .

(وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة) وهذه رذيلة ابن العاص بل أم الرذائل التي قادته إلى ارتكاب ما ارتكب وفعل ما فعل، فما غيرها من الرذائل إلا متولدة عنها وخارجة من رحمها، . . عندما ينسى الإنسان الآخرة ولا يؤمن بها يأتي بكل قول زور وبهتان ولا يرتدع عن ارتكاب أي عيب أو حرام، عندها تباح له المحرمات ويرتكب الكبائر والآثام، من لا يفكر في الآخرة ولا يحسب لها حسابها يفعل ما يريد ويقول كل ما يريد مما هو حرام وممنوع وابن العاص أحد رواد الكفار بالآخرة. . .

(إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتيه أتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة) وذكر الإمام خساسة ابن العاص فيما عقده مع معاوية من ترك دينه وأن يكون في صفه ينصره وله مصر طعمة في مقابل ذلك وهذا مذكور في كتب التاريخ وكل من تعرض لسيرة عمرو ذكر هذه الصفقة الخائبة التي باع فيها عمرو دينه مقابل مصر وحكمها. . .

ترجمة عمرو بن العاص:

عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

يكنى أبا عبد الله ويقال أبو محمد.

أبوه: العاص بن وائل أحد المستهزئين برسول الله وسماه الله بالأبتر لأنه قال لقريش: سيموت هذا الأبتر غداً فينقطع ذكره يعني رسول الله لأنه لم يكن له صلى الله عليه وآله ولد ذكر يعقب منه.

أمه: النابغة فقد ذكر الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار قال: كانت النابغة أم

عمرو بن العاص أمة لرجل من عنزة فسبيت فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي بمكة فكانت بغياً ثم أعتقها فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب، وأمية بن خلف الجمحي وهشام بن المغيرة المخزومي وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل السهمي في طهر واحد فولدت عمراً فادعاه كلهم فحكّمت أمه فيه.

فقالت: هو من العاص بن وائل وذاك لأن العاص بن وائل كان ينفق عليها كثيراً قالوا: وكان أشبه بأبي سفيان وفي ذلك يقول أبو سفيان في عمرو بن العاص:

أبـوك أبـو سفيـان لا شـك قـد بـدت لنـا فيـك منـه بينـات الشمائل

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب الأنساب أن عمراً اختصم فيه بولادته رجلان: أبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل فقيل لتحكم أمه فقالت أمه: إنه من العاص بن وائل السهمي.

فقال أبو سفيان: أما إني لا أشك أني وضعته في رحم أمه فأبت إلا العاص.

فقيل لها: أبو سفيان أشرف نسباً.

فقالت: إن العاص بن وائل كثير النفقة عليّ وأبو سفيان شحيح..

بهذا النسب الوضيع وبهذه الولادة القذرة كان عمرو بن العاص..

إسلامه:

أسلم عمرو سنة ثمان للهجرة بعد أن رأى قوة الإسلام وعظمته وانتصاراته فخوفاً من القتل ورغبة في المغانم كان إسلامه ولذا يقول أمير المؤمنين علي «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا...».

في عهد عمر فتحت مصر على يد عمرو بن العاص وقد تولاها من قبل عثمان مدة ثم عزله عنها فغضب وأخذ يؤلب الناس عليه وفي لفظ البلاذري: وجعل يحرّض الناس على عثمان حتى رعاة الغنم ثم خرج إلى قصره في فلسطين وعثمان محصور فلما وصل نبأ قتله قال: قتلته وأنا بوادي السباع.

ثم لما بلغه قتله تربص لينظر ما يصنع الناس فلما بويع الإمام علي وتمرد معاوية ولم يبايع طلبه معاوية فاشترط عليه أن تكون له مصر طعمة خالصة فاتفقا على ذلك واشتركا في قتال إمام الحق وجرت أحداث مؤلمة.

١ ـ برز للإمام في صفين فلما أمكنت الفرصة منه وكاد أن يقتل سقط على الأرض وكشف عورته فأعرض الإمام عنه . . .

٢ ـ أشار على معاوية أن يأمر أهل الشام برفع المصاحف في وجوه أهل العراق ـ عندما انهزم أهل الشام ـ فرفعوا المصاحف وحدثت الفتنة في جيش الإمام .

٣ ـ اختاره معاوية للتحكيم فخدع أبا موسى الأشعري وعاد أبو موسى يشتمه ويصفه بأنه كلب وهو يصف أبا موسى بأنه حمار . . .

توفي عمرو بن العاص سنة ٤٣ على أصح الأقوال عاش تسعين سنة . .

الفهـــرس